موسوعة
عالم علم النفس

NOBILIS

الموسوعة النفسية

1

علم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية

إسم الموسوعة	:	موسوعة عالم عِلم النفس
إسم المؤلّف	:	الدكتور عبد المنعم الحفني
إعـداد	:	قسم الدراسات في دار نوبِليس
		بـإشراف الأستــاذ غسّان شديـد
قياس الكتاب	:	27.5 × 19.5 سم
عدد صفحات الجزء	:	320
عدد صفحات المجموعة	:	6436
إسم الكتاب	:	الموسوعة النفسية – عِلم النفس والطب النفسي
		في حياتنا اليومية - مجلد (1)
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبِليس
تلفاكس	:	961 1 583475
تلفون	:	961 1 581121
		961 3 581121
الطبعة الأولى	:	2005

عالم عِلم النفس

1

الدكتور عبد المنعم الحفني

الموسوعة النفسيّة

عِلم النفس والطب النفسي في حياتنا اليوميّة

المجلّد الأول

NOBILIS
MAISON D'EDITION

كلمة الناشر

عالمُ علم النّفس

موسوعة كاملة لعلم متكامل

الطب النفسي، وعلم النفس والتحليل النفسي، العِلم النفسي للأحلام، معجم التحليل النفسي، مدارس عِلم النفس وأعلام عِلم النفس، إضافة إلى الموسوعة النفسية الجنسية؛ جمعناها ٢٤ مجلداً بعنوان «عالم عِلم النفس» لتُـؤرِّخ بالتفصيل تاريخ هذا العلم منذ بداياته الأولى، والحركات التي تفرَّعت من مدرسة فرويد الذي يُعتبر، من دون منازع، رائدها الأول. ثم أفردنا المجلّدات الثلاثة الأخيرة لمصطلحات هذا العِلم ولما وضع فيه من مؤلّفات، وللموتمرات التي عقدها المؤسّسون له في معجم موسوعي شامل بأربع لغات، هي العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية.

وبذلك تكون دار نوبِليس قد ساهمت، في هذا الميدان العلمي المهم والشيِّق، لتزوّد المكتبة العربية سلسلة كاملة لعِلم النفس الذي يؤثِّر في حياتنا اليوميَّة ويسبر أغوار عمرنا منذ الطفولة الأولى، وما قبل!.

ويطيب لدار نوبِليس أن تتقدَّم بالشكر إلى الدكتور عبد المنعم الحفني الذي جمع بعلمٍ وصبرٍ ودقَّة، هذه المعلومات الموسوعية المتعلّقة بعِلم النفس التي نزفُّها إلى قرّاء العربية من المحيط إلى الخليج في أروع ما يكون من المجلّدات، لتكون متعة للنظر والفكر. والله وليُّ التوفيق.

نبيل عبد الحق

صاحب دار نوبِليس

الموسوعة النفسية
علم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية

في التعليم، والتربية، والتجارة، والصناعة، والأدب، والفن، والحرب، والسلام، وفي الصحة والمرض، والعلاج النفسي، وفي البيت، والمصنع، والشارع، والزواج، والغرائز، والحب، وفي التخيل، والقيم، والمعايير، وفي الموضة، والبغاء، والقمار، والمرور، واللعب، والجنس، والنوم، والعادات، والتحيل والإنجاز، وفي النوم واليقظة والأحلام، وفي الحسد والخرافة، والسحر، والدين، وفي الجريمة والعقاب والثواب، والإعلان والدعاية والإعلام إلخ، والاختبارات والاستبيانات والمقاييس المستخدمة في ذلك...

الباب الأول

علم النفس والطب النفسي
في خدمة الأدب
والفن والفكر

- ١ -
سيكولوجية الأدب والفن

الأدب والفن ومعناهما النفسي. أنماط الشخصيات الأدبية في علم النفس. الدراسات النفسية للأعمال الأدبية. عالم الأديب وطريقة الأدب في الاصطفاء من الواقع. الأدب يتسامى على الواقع. إختلاف الميول النفسية عند الأدباء بحسب تخصصهم. الإبداع الفني والحدس الأدبي. الأدب السيكولوجي. الموهبة الفنية وصراعات الأديب والفنان...

❖ ❖ ❖

الكثير من الأعمال الأدبية والفنية المعاصرة يتصل بناؤها بعلم النفس وكشوفه ومجالاته بأسباب قوية. وينصرف الأدب Literature إلى استجلاء النفس البشرية، وهو الهدف نفسه الذي يترسّمه علم النفس. وكلما تقدمت البحوث في علم النفس فإن ذلك له انعكاساته على الكتابات الأدبية، وخاصة في مجال الدراما بفرعيها، الرواية والمسرحية. وكانت شهرة بعض الروايات أو المسرحيات سبباً في اتخاذ علم النفس من بعض أسماء شخوصها أو مؤلفيها مسميات لانحرافات أو اضطرابات نفسية اشتُهرت بها، فالسادية Sadisme نسبة إلى الماركيز دي ساد Marquis de Sade (١٧٤٠ - ١٨١٤)، الكاتب الفرنسي الذي تخصّص في وصف حالات الأشخاص الذين يعانون من العنف الداخلي، ويستمدون لذّة من إنزال الألم بالآخرين، كما في رواية «Justine ou les malheurs de la vertu». والماسوكية Masochismus نسبة إلى ليوبولد فون ساخر ماسوك أو ماسوخ Masoch (١٨٣٦ - ١٨٩٥)، الكاتب النمسوي الذي كانت شخوص رواياته واغلة في الجنس، وتجد لذّة من معاناة الآلام يُنزلها بها الآخرون، على عكس السادية؛ وتشتَهر العُقد النفسية بأسماء شخصيات درامية من أعمال كبيرة لسوفوكل ويوروبيدس وغيرهما، فهناك عقدة أوديب Oedipus Complex مثلاً نسبة إلى الملك أوديب Oedipus the

King، الشخصية الأسطورية، صاحب أروع مأساة في تاريخ المسرحية اليونانية، وكذلك عُقَد أوريست، وكليتمنسترا، وإليكترا، وجوكاستا، وميديا، وفيدرا، وجميعها تناولها المسرحيون الثلاثة الكبار: إسخيلوس Aeschylus (٥٢٥ - ٤٥٦ق.م). ويقتبس علماء النفس أسماء مشهورة من الأدب الأسطوري والديني مثل عُقدة قابيل، وعقدة ديانا، وعقدة إخوة يوسف، وعقدة سارة زوجة ابراهيم عليه السلام. وهناك دراسات نفسية لروايات ومسرحيات مشهورة مثل مدام بوڤاري Madame Bovary لفلوبير Flaubert (١٨٢١ - ١٨٨٠) ويطلقون على الحالة النفسية التي تتسم بها إسم البوڤارية Bovarism. وبعض الروايات هي دراسات نفسية خالصة لاضطرابات معروفة، مثل الجريمة والعقاب Prestupleniye i nakazaniye (١٨٦٦) لدستويفسكي Dostoyevsky (١٨٢١ - ١٨٨١)، وكان روائياً له بصيرة نفسية نافذة، وعلم ودراية بالنفسية الإنسانية وانحرافاتها وشذوذها.

وهناك مسرحيات لكتّاب مشهورين مثل هنريك إبسن Ibsen (١٨٢٨ - ١٩٠٦)، أفادت من نظريات علم النفس، وإن كان إبسن وغيره من الموهوبين لا يَظهر تأثرهم بالاتجاهات العلمية السيكولوجية مباشرة. وتدور معظم مسرحيات إبسن على أفكار ترتبط بالوراثة، مثل: «الأشباح Ghosts»، «وعدو الشعب An Enemy of the people»، و«بيت الدمية A Doll's House». ونعلم أن الجدال ما يزال بين أصحاب نظرية الوراثة ونظرية البيئة حول تشكيل النفس الإنسانية وميولها ونوازعها واهتماماتها. وكان الأدب دائماً كاشفاً لخبايا النفس التي يمكن أن تحتجب عن الناس في تعاملهم اليومي بسبب الغفلة التي يكونون عليها، حيث لا تتطلب تعاملاتها كبير دراية بالنفس، ويميل الأفراد إلى فهم الناس باعتبارهم أنماطاً، وميزة الأديب أنه إنسان يخترق الحُجُب، وينزع الأقنعة، ويُعرّي الأشخاص وأهدافهم، ويناقش قيمهم السلوكية، ويطرح ذلك من خلال العلاقات الشخصية البيئية، والاحتكاكات والمماحكات والصراعات

وتبادل الأفكار ومطارحة الأقوال. وإذا كنا كبشر نميل إلى تبسيط الأمور وردّ الكثرة إلى الوحدة في معاملاتنا، ونميل إلى التجريد والعموميات، فإن الأديب على العكس في رسمه للأشخاص لا يكرر الشخصية، ويصوّرها متميّزة، بتفاصيلها ورغباتها وعواطفها وآمالها وآلامها وطموحاتها. وعالم الأديب هو عالم أفراد متكثرة، وطريقة الأدب هي الاصطفاء من الواقع، واختيار ما يخدم الرؤية الفنية من الأحداث والوقائع. وكل أديب ينحصر اهتمامه بالواقع وإدراكه ومن ثم له رؤياه الخاصة، على عكس الإنسان العادي غير الأديب الذي تتوجه إهتماماته للواقع إلى ما يشبع حاجاته، ويفهم من الناس بقدر ما ييسر له التعامل معهم، بينما الأديب يدرك الأفراد لذواتهم، ويحيط بالواقع من علاقاته بهم سلباً وإيجاباً. وإذا كان بعضنا قد يغلب على اهتماماته بالحياة الجانب الحسّي العملي، أو العقلي، أو الأخلاقي، أو الديني، فإن الأديب يغلب عليه الجانب الجمالي، إلا أنه أيضاً يمكن أن يكون له أيٌّ من الجوانب السابقة، أو أن يكون في الوقت نفسه حسياً عملياً، أو عقلانياً، أو أخلاقياً، أو متديناً صوفياً، وأن تكون له إشراقات ميتافيزيقية. ولعل ذلك يفسّر أن بعض الأدباء لهم رسالات اجتماعية، كتولستوي مثلاً أو نجيب محفوظ، أو يوسف السباعي، أو يكتبون بإلهامات دينية كفرانز كافكا، وعبد الرحمن الشرقاوي، وقد كان الكثير من المتصوفة شعراء، كرابعة العدوية، وابن عربي، والبوصيري، وأبي العلاء المعري.

والأديب له مواقفه المتميّزة من المجتمع والإنسان والكون، وتبعاً لاختلاف هذه المواقف يكون اختلاف عوالم الأدباء، ويمكن أن يكون عالم الأديب محدوداً بحدود ثقافته وخبراته واهتماماته، ويمكن أن يتسع ليشمل الكون كله ويكون زاخراً بالعواطف الغنية والأفكار الثريَّة. وكما نفرّق بين عالم الأديب وعالم غير الأديب، فكذلك نفرّق بين عوالم الأدباء، فمنهم من يكون شاعراً، أو روائياً، أو مسرحياً، وينعكس عالم كلّ في أدبه. وهذا التخصّص يفسّره علم النفس بأنه ظاهرة نفسيّة وتعويض عن طموحات ورغبات أساسية، لم يشبعها الأديب في نفسه وحياته بسبب

عوائق من داخله أو خارجه، والأدب على ذلك تعويض يتسامى Sublimation به صاحبه عن الواقع غير المفهوم والمختلط والمتشابك، ويصنع به واقعاً متميزاً ومفهوماً. وهناك دراسات كثيرة في مجال علم النفس على الآثار الأدبية، وفي حياة الكثير من الأدباء لاستكناه الدوافع التي تجعل من الأديب أديباً، أو التي تدفعه إلى هذه الصياغة الأدبية أو تلك، أو التي تجعله يختار موضوعات بعينها، أو يرسم شخوصه على منوال معين، أو يطور [illegible] من خلال رواياته ومسرحياته رؤيا فلسفية وفنية خاصة. وتذهب بعض النظريات النفسية في الأدب كما عند فرويد وأدلر، إلى أن الأديب إنسان مُخفق في حياته، وأنه يعوّض عن اخفاقه بالخَلق الأدبي، متسامياً بغرائزه. ومن رأي بعض النفسانيين أن الأديب تسيطر عليه من طفولته بعض ميوله الغريزية ورغباته، فتجعله يؤثر مجالاً من مجالات الأدب على سائر المجالات، سواء بالخَلْق أو التذوّق. وقد تتعرض ميولنا ورغباتنا للكفّ أو الكبت، فتتّجه إلى مسارب أخرى غير مباشرة للتنفيس، وتؤدّي بنا إلى الخلق أو التذوق لأنواع من الكتابات دون غيرها، وقد نتّجه إلى الرسم أو التصوير أو التشكيل. وقيل إن الشعراء يغلب عليهم الطابع النرجسي Narcissistic، بينما المسرحيون لديهم ميول إستعراضية Exhibitionism، والروائيون يحبون الكلام ويبدو عليهم الطابع أو النمط الفموي، أو أن شخصياتهم بها الكثير مما يقال له الشخصية الفموية Oral personality. كما قيل في مجال الفنون أيضاً إن العنصر السادس الشرجي Anal sadistic يميل بالفنان إلى ممارسة التشكيل، وإلى أن تكون تعبيراته تشكيلية، وأن يصوغ أفكاره صياغات فنية تشكيلية. وكذلك فإن حب الاستعراض قد يجعل البعض يمتهن التمثيل. ولا شك أن الممثل إستعراضي من الطراز الأول، كما أن هواة الفنون والمسرح والباليه خصوصاً لا شك قد وُهبوا ما يقال له حُبّ التطلّع Voyeurism، كما إن الميول الجنسية المثلية قد تجعل البعض يهوى فن الرقص. وقد تبين إحصائياً أن أغلب مشاهير الراقصين مأبونون، وأن مصمّمي الأزياء يعانون

غالباً من التخنث بارتداء الملابس النسائية والتفنّن في صُنعها وتصميمها. ويقال لذلك النوع من الشذوذ Transvestism أي التشبّه بالنساء في الملبس والمظهر والمخبر. ويؤيّد هذه النظرة النفسانية أن الأدباء والفنانين في تخصصاتهم المختلفة تُلاحَظ فيهم هذه الطباع. ولعل أكثر ما يلفت النظر إلى تخصص الأديب أن عالمه هو عالم فني وليس عالماً عملياً. بمعنى أنه ينسجه من خياله ويختاره بإرادته الحرّة، كما يقول سارتر عن بودلير - أنه قد اختار في أشعاره أن يرى نفسه، أو أن اختياره لهذا العالم بوحي من تكوينه البيولوجي النفسي كما يقول برجسون - إن بعض النفوس بها ميل فطري تنفرد به في النظر والفهم والتفكير، وان الأديب يكتب بتأثير من نزعاته الخاصة. وربما كان هذا الاختيار لأن الأديب ليس له أن يختار إلا ما اختاره الله له كما يقول شعراء المتصوفة وفلاسفة الوجودية، مثل سارتر في روايته الفذّة «دروب الحرية Les Chemins de la Liberté». وقول سارتر إن بودلير Baudelaire (١٨٢١ - ١٨٦٧) اختار أن يرى نفسه في أشعاره، لأنه كان بوهيمياً بحكم تكوينه النفسي البيولوجي، فكان لا يكتب إلا أشعاراً بوهيمية، وقد اختار لنفسه عشيقة عاشرها كزوجة كانت سوداء وفي غاية القبح كانت تدعى جان ديڤال، وكتب عن النساء المثليات الجنسية كما في مجموعته الشعرية: «اللزبيانيات Les Lesbiennes». والمهم أن عالم الأديب، وهو هذا العالم الفني، يصنعه بحيث يأتي وكأنه ليس من الخيال وإنما هو عالم عياني Concrete. ويتميّز الأديب عن غير الأديب بأنه زُوِّد بقابليات حسية وعقلية ونفسية تهيؤه للرؤية والتعبير بفن من فنون الأدب دون سواه، فهو شاعر، أو ناثر مسرحي، أو روائي، أو قصّاص حسب تخصّصه. وهو في أدبه ينحو إلى أن يُخرج من إطار شخصيته، ويتمثّل نفسه في شخوصه التي يطرحها كائنات حيّة تسعى، ولها تميزها وحياتها وتفاصيلها الشخصية. والأديب يتّجه في أدبه إلى أن يكون لاشخصياً Impersonal، فلا تدرك مما يكتب أو يصوغ أنه يحب هذا أو ذاك، أو يؤثر هذا على ذاك، وإنما هو يعلو على

ذاته ويصنع عالماً قد يكون متّسعاً، أو قد يضيق قليلاً، أو يرحب كثيراً، بحسب رؤياه الفنية، ويستهدي فيه بخيال فني، ليس كالخيال الذي يكون لنا في حياتنا اليومية، فهو خيال خاص يصبو به إلى واقع أكمل، ولا يحتاج به إلى أن ينتقي شخوصه من الحياة، وإنما هو يصوّرهم من ذاته التي تتسع لتكون كل هذه الذوات للشخوص التي يصوّرها، وذلك أن ذاته تتضمن كل هذه الذوات الأخرى التي كان من الممكن أن تكون هي نفسها ذاته. ومن رأي النفسانيين أن الذات التي يؤلّفها الأديب هي إمكانات لذاته، أو أنها ذاته في حالة كمون أو خمود، والأديب لا يفعل سوى أن يوقظها ويبعث فيها الحياة فتتحرك وتتحدث وتنفعل وتفعل كما في رواية: «A Portrait of the Artist as a Young Man» لجيمس جويس Joyce، وشخصية ستيفن ديدالوس في القصة هي نفسها الصورة الفنية لشخصية جويس نفسه. فالأديب بين ذاته وشخوص أدبه في علاقة جدلية، وكلما كانت ذاته ذات ثريّة بالخبرات والانفعالات والعواطف كلما كانت شخوص أدبه غنية

وجاءت على قدر من العمق والرحابة يلفت إليها الأفهام، وبمعنى آخر فإن شخصية الأديب كلما تحررت من التحديات والتقييدات كلما كان تمثله لما يرسم من شخوص أرحب وأعمق. ويتميز الأدباء في ذلك بحسب شخصياتهم، والذي يميّز الخيال الأدبي أو الفني عن الخيال الذي يكون للمفحوص في اختبار من اختبارات الشخصية، أن أخيلة المفحوص في هذه الاختبارات هي إسقاطات شخصية محدودة بحدود شخصيته ويتجاوزها باستمرار. والكثير من الأعمال الأدبية الحالية هي محاولات في التحليل النفسي، وبعضها يكون كما نقول في مجال علم النفس «تاريخ حالة»، وبعضها لا يكون التحليل النفسي فيه صريحاً ومباشراً، ومع ذلك لا يمكن إلا أن تكون هناك هذه المحاولات في تحليل الشخصيات ودوافعها من جانب أبطال الرواية أو المسرحية أنفسهم، أو من جانب المؤلف أو النقاد. وبعض الأعمال الأدبية تظهر فيها «النفسانية Psychologism» ظهوراً واضحاً كرواية «السراب» لنجيب محفوظ حتى ليكون

تأليفها كالتلفيقات المصطنعة، فلا نحسّ فيها بنبض الحياة الصادر عن صدق الرؤيا والحسّ، وصدق الحدس الفني والبصيرة الأدبية، وهي قدرة الأديب على معايشة أبطاله وتعاطفه معهم. والأديب في ذلك يقارن موقفه بالطبيب النفسي، ففي الطب النفسي لا بد أن يتعاطف الطبيب مع مريضه دون أن يتورط معه عاطفياً، والأديب أو الطبيب النفسي غير المتعاطف مع أشخاصه أو مرضاه لا يمكن أن يتمثل أحوالهم النفسية، ويسبر أغوارهم، ويعايش خبراتهم. ولن يستطيع الأديب الذي لا يتعاطف مع أشخاصه تصويرهم تصويراً فيه بصيرة الأدب وصدق الرؤيا الأدبية. والرواية الأدبية التي تقوم على المعرفة السيكولوجية دون الحدس الأدبي Literary intuition لا بد أن تأتي مطبوعة بالصنعة والافتعال. ولا يفيد الأثر الأدبي أن يكون مبنياً على حقائق من علم النفس. والعبرة أن تأتي هذه الحقائق في ثناياه وتبطّنه ولا تشدّ الانتباه إليها دونه. ومسرحية كعطيل لشكسبير Othello تقوم على الغيرة، وعلى حقائق نفسية أجناسية لا تشدّنا إليها واقعية الخصائص النفسية لإياجو وعطيل وديدمونه، وإنما روعة الصياغة الأدبية والسياق الفني للمسرحية، بحيث يصنعان واقعاً فنياً يوازي واقع الحياة إن لم يتفوق عليه من حيث الوضوح والتفرّد. فإذا شئنا ونحن في معرض الحديث عن الغيرة مثلاً أن نضرب لها مثلاً فإننا لن نجد أوضح وأميز من مَثَل عطيل، وتلك خاصة من خصائص الأدب الرفيع أنه يقوم على حقائق نفسية حتى ليُستشهَد به، ويأتي ذلك فيه من خلال النسيج الأدبي. ولربما يَصدُق يونج في تفسيمه للأدب بأنه إما أدب سيكولوجي وإما مجرد وقائع عيانية، والأدب الأول هو الأدب الذي ينصرف الاهتمام فيه إلى النفس الإنسانية وتصويرها والتوعية بها، وهو لذلك أدب يصور الناس في حياتهم وهم يعتركون ويتصالحون، ويحبون ويكرهون، ويسعدون ويشقون، وينفذ إلى دوافعهم ويصف سلوكياتهم، بينما الأدب الثاني فيه الكثير من الخيال والحبكة والصنعة دون أن يتوغل في النفوس أو يهتم بالعواطف، ومن ذلك أدب الخيال العلمي Scientific fiction والروايات

البوليسية Detective stories. ومن الطبيعي لذلك أن يهتم علم النفس في تطبيقاته بدراسة «العملية الأدبية The literary process»، أي الخلق الفني في الأدب، والمقومات النفسية للأثر الأدبي وللأديب والتي بها يتميز هذا الأثر عن أية كتابة أخرى ليست أدبية، أو تكون للأديب فتميزه عن غير الأديب، وتجعل منه خالقاً ومن أدبه إبداعاً. ومن مزايا الدراسات السيكولوجية للأدب: إنها تجعلنا نفهم المضمون الأدبي أكثر، واتجاهات الأدباء، ونتذوق العمل الأدبي. وما من شك أن شخصية الأديب تؤثر في أدبه، وفي تذوقه واختياره لموضوعاته، وفي صياغته لأسلوبه ولغته، وفي بنائه لشخوصه ومواقفهم من الحياة. وكان لفرويد Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) ولمدرسة التحليل النفسي Psycho-analytic school، وخاصة من بعده عند يونج Jung (١٨٧٥ - ١٩٦١) ومدرسة زوريخ، وعند أدلر Adler (١٨٧٩ - ١٩٣٧)، وشتيكل، وجونز، وجرافت، ورانك، وفون هيلموت، وسانجر، وجراف، وستوفر، ووايت وجيليف، ومن تابعهم: الفضل الأكبر في إيجاد نقد أدبي سيكولوجي من نوع جديد، والتوعية بالمبادئ اللاشعورية التي أوضحت الكثير من جوانب عملية الخلق الأدبي والتذوّق الفني، والتدليل على أن الأدب ظاهرة بيولوجية نفسية Psycho-biological phenomenon في المقام الأول، وانه تعويض متسام Sublimating compensation لرغبات لم تشبع، فالحرمان وما يترتب عليه من ألم ينشّطان الموهبة الأدبية، وبواسطة الإبداع الأدبي يعوِّض الأديب عما حُرِم منه، فيحل عالم الأدب عنده محل عالم الواقع. والحرمان يُذكّي الخيال، ومن شأن الفقر الذي تكون عليه ظروف الأديب الخارجية أن يدفعه إلى أن يكون له عالم داخلي غني يطرحه خارجه في رؤية أدبية عظيمة، وما من أديب، ولا فنان، ولا رسّام، ولا موسيقار حقيقي، إلا وكان يعيش في واقع مصادمٍ له، ويستشعر الحرمان، ويعاني من الجدب العاطفي. ويذهب أصحاب هذه المدرسة النفسية في الأدب إلى البرهنة على دعاواهم النفسية بالتغييرات التي تستحدثها ظروف الأديب الجديدة إذا انصلحت

بالنجاح أحواله المادية، فيتضاءل إنتاجه من ناحية الكم والكيف، وتنتفي عنه - للعجب - صفة الابتكار، وتضمحل ملكته الأدبية بتأثير الدعة والاسترخاء والإشباع الذين يصير إليهم مع الشهرة والرواج.

وطالما أن الأديب أو الفنان يعاني - كإنسان - سيكولوجياً حتى لكأنه كالمريض النفسي، وطالما أن الإبداع عموماً إنتاج فني أو أدبي يميّزه باعتباره مريضاً نفسياً، فإن معالجته من اضطراباته النفسية ستفسد عليه حتماً تفرّده وعبقريته، فعندما يعاني الفرد من الكبت أو الكفّ أو القمع، فإن غرائزه، لتتحصّل على الإشباع ولو رمزياً، قد تلجأ إلى الأحلام أو إلى التسامي الديني أو الأدبي أو الفني، كطريقة بديلة للإشباع، ولذلك كان الحب هو المحور الذي تدور عليه غالبية الأحلام والقصص والشعر والتصوير والنحت والإشراقات الصوفية. وكل الأدب الفني محوره الفَرْج أو البطن، فالأدب الجنسي أو الرومانسي هو من نوع أدب وفن الفرج، وإذا تطرّف كان الأدب المكشوف أو ما يسمى Pornography؛ والأدب الثوري أو الأدب الاجتماعي هو من نوع أدب وفن البطن، ومن ذلك رواية «البؤساء Les Miserables» (١٨٦٢)، ومن أمثال أدب الجنس روايات هنري ميللر Miller، كثلاثيته في سيرته الذاتية بعنوان: «Sexus»، و «Plexus»، و«Nexus» (١٩٤٥ - ١٩٦٠)؛ ومن أمثال الأب الفاضح أو المكشوف رواية لورنس Laurence: «عشيق اللادي تشاترلي Lady Chatterly's Lover» (١٩٢٧). ولا يمكن أن يحلم بالجنس إلا المحروم منه، وكذلك لا يمكن أن يتغنّى به إلا من كان معذباً به. والجوع إلى الجنس أو إلى الخبز - كما سنؤكد دائماً هو مصدر كل النشاط الفني والأدبي. وليس الشعر والموسيقى والرقص والكثير من التصوير والنحت إلا أشكالاً مثالية للرغبة والحرمان بأنواعه وبدرجاته. وليست اللذة المتحصّلة من مشاهدة الجمال ومعاينته إلا إشباعاً نفسياً جنسياً في حقيقتها، وهي لذلك قد تكون جزئياً سادية أو ماسوشية أو نرجسية، أو أساسها الميول الاستعراضية، ومنها أيضاً لذّة الأديب إذ يرى رواج روايته، أو إقبال الناس على مسرحيته، أو إنصاتهم لشعره، فيُرضي

ذلك غروره، وتتحقق به أحلامه في المجد والعظمة، ويولّد ذلك سعادة ترقى إلى التهيُّج الشبقي. والحب الذي يلهم كل الأعمال الأدبية الكبيرة هو الحب الذي لا يشبع نفسياً، وقديماً قال بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) عبارته المشهورة: «إن كل امرأة ينام معها هي رواية لم تكتب»، أي ان ما يكتب هو قصة الحب اليائس. وبلزاك أيضاً هو القائل: «إن إيروس - إله الجنس - كان الأجدر أن يكون الماسك بقيثارة الشعر بدلاً من أبوللو - إله الشعر والموسيقى والفن»، يعني كان الأجدر أن يُنسب الإبداع إلى إيروس أو الجنس أو الرغبات الشهوية، وليس إلى نشدان الجمال للذة الجمال.

ويتصل الأدب اتصالاً وثيقاً بالحلم، والعمل الأساسي للأدب والحلم هو تحرير الغريزة من عقالها تحريراً رمزياً. والحلم والشعر كلاهما نتاج رغبات جنسية لم تتحقق ولم تجد الإشباع وكُبتت في اللاشعور، والفرق بينهما أن الإنسان العادي يتواصل مع اللاشعور أثناء النوم، بينما الشاعر بالإضافة إلى ذلك يمكنه أن يتواصل معه في اليقظة. «والشاعر» هو الذي يستطيع أن يخلق في حال اليقظة ما لا يستطيع أن يخلق «الانسان العادي» إلا في النوم. ومن غير الممكن أن يقوم شعر عظيم بدون حرمان، وكان ذلك سبب عظمة دانتي كما قال شوبنهاور، فقد استطاع دانتي أن يكتشف أن بإمكانه أن يحلم أثناء اليقظة، وأن يستعيض بالحلم عن الواقع، وأن يكون شعره تعبيراً عن حب عظيم. والشاعر أو الأديب عموماً أو الفنان، في موقف يتوسط بين الحالم والعُصابي، وفي حالة الحالم، والأديب، أو الفنان، والعُصابي فإن الثلاثة يهربون من الواقع إلى عوالم متخيّلة، إلا أن الحالم يفيق من حلمه مع اليقظة، والأديب أو الفنان يلجأ إلى الخلق والإبداع، بينما العُصابي Neurotic هو الوحيد الذي يستمر سادراً في عالمه المتخيَّل. ومع ذلك لا يخلو التعويض بالتسامي من بعض العُصابية، ويمكن أن يكون تعويضاً عُصابياً Neurotic compensation، كما إنه عند العصابيين قد تتسرب بعض الميول الأدبية والفنية فتكون لهم كتابات فنيّة في بعض الأحيان. وهناك الكثير من الابداعات الأدبية فيها الكثير من عناصر

العصاب والذهان مثل رواية: «Justine ou les malheurs de la vertu»، ورواية: «La philosophie dans le boudoir» للمركيز دي ساد. ومن رأي شتيكل Stekel (١٨٦٨ - ١٩٤٠): «إن الأديب يتخفف بالأدب، والشاعر يتداوى إلى حد كبير بالخَلْق، والإبداع الفني هو إفراغ وتنفيس وتطهير، وهو تحليل نفسي يتولاه الأديب بنفسه لنفسه. والإبداع الأدبي بالنسبة لأديب يعاني - هو غذاء»، والكثيرون يصفون إلهة الإبداع بأنها للأديب أو الفنان كالأم الحنون، والأدب والفن عزاء الأديب والفنان. والأديب يقارب في إبداعه الفني الانسان الانطوائي العصابي The neurotic introvert، ورغباته التي لم تشبع تقوّي خياله، وهو بالأدب يعود من الخيال إلى الواقع مع استمرار الحلم. ويقول فرويد إن الأديب الذي يحلم بالحب والمجد والسلطة والثراء تتحقق له أحلامه ورغباته وأمانيه من خلال كتاباته الأدبية، ويحصل بها على ما لم يكن له من قبل إلا في خياله.

ولا بد للأديب من أن يعرض أدبه على الناس، وأن يقرأوه ويطالعوه، ليشبع بذلك ميوله الطفولية للاستعراض أو للاستعراء. وهو يطرح في أدبه مخاوفه الطفولية من العقاب ليبرئ نفسه، وإنتاجه الأدبي هو نوع من الاعترافات، والكثير من الأدب العظيم هو اعترافات، وحتى في الأدب العربي كان هناك أدب الاعترافات، ككتاب المنقذ من الضلال للغزالي، والغزالي أديب عظيم ومفكر له تأثيره على الفكر الفلسفي الأوروبي والاعتراف من عمليات التحليل النفسي، وهو إسم آخر لميكانيزم من ميكانيزمات التحليل النفسي هو التداعي الحر Free association والأديب يحلل نفسه بالاعترافات، وهو في حاجة إلى قرّائه ومطالعيه، وهم بالنسبة له كالمحكمة، كما في مسرحية «الشرفة Le balcon» لجانيه. والأديب في حاجة لأن يقف أمام محكمة نفسه وإلا فإنه يظل يعيش في قلق وصراعات، وتعتصره مشاعر الذنب. وطرح الأديب لمنتجه الأدبي في الأسواق ليس سببه حبه للظهور، أو إثبات وجوده على مسرح الواقع، أو أن ينال الشهرة والمجد فقط، ولكنه كي يتخلص من الرغبات المستعرة في اللاشعور والتي

تهدّد توافقه مع المجتمع والناس ونفسه، وينفض عن نفسه عقدة النقص ومشاعر الذنب التي تستولدها، والإبداع الفني هو تحرير لنفسه.

ومحبة الناس للأدب، والفن عامة، لأنهما عالم يمكن أن نهرب إليه، وأن نجد فيه العزاء والسلوى، والانسحاب إلى هذا العالم ليس انسحاباً ولكنه يكفي لكي يعطينا بعض الخدر اللذيذ الذي لا نستشعر معه بقسوة الحياة وسلطان مطالبها، وهو انسحاب بسيط لا يبلغ من العمق ما يكفي لكي ننسى به شقاءنا الواقعي كما يقول فرويد. وحتى بالنسبة للأديب أو الفنان فإن ما ينتجه لا يكفي ليتخفف به من شقائه فيعاود لذلك الكتابة والإبداع ليكتمل له التخفف والتطهر اللذان لا يكتملان أبداً.

والواقع أن نفسية الأديب أو الفنان لا بد أن تكون محلاً لصراعات نفسية لا تنتهي، وليس معنى ذلك أنه بالصراعات النفسية فقط يكون الأديب أو الفنان، فلا بد من الموهبة الأدبية أو الفنية، وليست هذه الموهبة ميلاً فطرياً للفنون والآداب، فهذا الميل يمكن أن يوجد للكثيرين ولكن القلة تكون لديها هذه الموهبة التي يتجه بها الحرمان والشقاء والتسامي إلى الابداع الأدبي أو الفني، ولا يمكن أن تتفتح الموهبة للأديب إلا بالمعاناة ومعايشة الواقع. وبعض الأدباء وخاصة في الشعر يمكن أن تستغرقهم عملية الإبداع فينصرفوا إليها، إلا أن الروائيين والقصّاصين والمسرحيين والموسيقيين والرسّامين يمكنهم كثيراً أن يوفقوا بين تفرّغهم للأدب وللفن وحياتهم العملية. وكل أديب أو فنان هو في الواقع إنسان يحاول أن يتوافق مع الواقع بشكل من الأشكال، ولو إلى الحد الأدنى الذي بدونه لا يمكنه أن يداوم البقاء في الحياة، والبعض كانت حياته زاخرة وحافلة ونشيطة، وتلك حالات نادرة لا يقاس عليها حيث الأغلبية يعانون من سوء التوافق. وقد لاحظ علماء النفس أن الأدباء والفنانين بوجه عام - كما سبق أن نوّهنا - يتصفون بما يتصف به العُصابيون، وأن حياتهم تمتلئ بالمآسي وتحفل بالصدمات النفسية، وقد تكون هذه الحياة الأسيانة هي السبب في هذه العصابية، كما قد يكون الميل الفطري

للإبداع هو السبب فيها، أو أن تكون العصابية هي التي تدفع إلى الإبداع.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Eysenck: Some Factors in the Appreciation of Poetry and their Relation to Temperemental Qualities.
- Jung: Modern Man in Search of his Soul. Psychology and Literature.
- Jung: On the Relation of Analytical to Poetic Art. Contributions to Analytical Psychology.
- Freud: The Relation of the Poet to Daydreaming. Collected Papers Vol.4.

❖ ❖ ❖

- ٢ -
سيكولوجية الإبداع

البديع والمبدع ومعنى «الأصيل». البديع هو الكامل. مراحل الابتداع. الانفتاح والصراحة والاستقلالية عند المبدع. القلق الخلاّق. أنا المبدع. التدريب على التفكير الابتداعي...

❖ ❖ ❖

الإبداع Creativity هو القدرة على خلق البديع الذي قد يكون رسماً، أو نغماً، أو فكرة، أو نظرية، أو تمثالاً، أو اختراعاً. والعمل المبدع لا يصدر إلا من شخص خلاّق مبدع، له خصائصه وتفكيره والخلفية الاجتماعية والثقافية، والظروف البيئية التي تواجهه بمشكلة في مجال تستعصى على الحل، ويعيها جيداً ويحيط بها فيتصدى لها، ويكون انتصاره عليها بما يقدمه من جديد مبتكر. ودراسة الابتداع إذن تقتضي دراسة العمل المبدع أو ناتج عملية الإبداع Creative resultant، وكذلك دراسة ما يكتبه المبدعون من تواريخ لحياتهم، والظروف التي أهّلتهم للإبداع، ومطابقة ما كتبوه أو ما كتبه الغير عنهم، ووقائع حياتهم. ولعل مثل هذه الدراسات تكون معيناً للنقاد عندما يكونون بصدد الحكم على عمل ما بأنه بديع، أو مبتكر، أو خلاّق، بمعنى أنه

«أصيل Original» ولم يسبق إليه أحد من قبل. وقولنا بأن العمل المبتكر أو البديع هو جديد في بابه، وأصيل ليست له سابقة، أننا ننسبه إلى مجال معين أو إطار مرجعي Frame of reference، فلا بد للحكم على عمل ما بأنه جديد أو أصيل أن يكون حكمنا عليه من خلال هذه النسبة. فالطفل الذي يأتي بسلوك غير مسبوق قد يكون مبدعاً بالنسبة لزملائه الأطفال، ولكنه ليس بالمبدع إذا قيس عمله إلى أعمال الكبار. وكذلك فإن ما قد يظنه شخص ما في مجتمع جديداً وأصيلاً، قد لا يكون كذلك في مجتمع آخر، ولذلك كان من تمام الجدّة والأصالة أن تكون نسبة الجديد للخبرة الإنسانية بعامة. وثمّة متطلبات أخرى في العمل لكي يكون مبدَعاً أو مبتكراً، ومن ذلك أن يكون كما قدّمنا حلاً لمشكلة قائمة، والتفكير الابتكاري Creative thinking في بابه هو نوع من التفكير في حلّ المشكلات، ولذلك كان لا بد للشيء كي يكون مبدعاً أن يأتي وفق المقتضيات التي تطلّبت التفكير فيه، وأن يخدم غاية ويتحقق به تقدم في مجال معيّن. وكل عمل فني أو علمي اعتُبر إبداعاً في مجاله كانت له غاية وتحقق به الارتقاء في هذا المجال، إلا أن الحلول التي قد تطرح للمشكلة التي عالجها العمل المبدع قد تكون جميعها حلولاً طيبة، ومع ذلك لم نعتبرها إبداعاً، وإنما كان هذا العمل وحده هو الإبداع بعينه بالنظر إلى أنه كان الأمثل الذي يلبي حاجات الموقف، والذي يمكن أن نرتاح إليه أكثر من غيره ويستحدث فينا إحساساً بالجمال والكمال. وجمال الشيء البديع في كماله، ويتأتى جماله وكماله من بساطته وتعقيده معاً، فهو البسيط الذي نرتاح إليه وإن أخفت بساطته تعقيده، وهو المعقّد شديد التعقيد الذي ينصرف تعقيده إلى الربط بين عناصره ربطاً محكماً يخلق منها وحدة بسيطة معجزة في بساطتها. وربما كان الشرط الثالث الذي لا بد أن يتحقق في الشيء ليكون بديعاً، هو أنه بظهوره وتحقّقه يخلق ظروفاً جديدة وتتغير به مواصفات وجودنا البشري، ولكي تكون له هذه الخاصة لا بد أن يتجاوز نطاق خبرتنا بواقعها الحالي، ويستشرف تغييراً في مسارها، بما يقدم من مبادئ أو أفكار

أو مفاهيم جديدة تتحدى القديم، وتغير من نظرتنا إلى الأشياء. ولعل خير نموذج نقدمه في هذا المجال للشيء المبدَع الذي يتجاوز زمنه ويستحدث التغيير الهائل هو: «النظرية الفلكية Astronomical theory» عند كوبرنيك Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٣)، و«نظرية التطور Evolutionary theory» عند داروين Darwin (١٨٠٢ - ١٨٨٢)، و«نظرية التحليل النفسي Psycho-analystic theory» عند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩)، و«نظرية فائض القيمة Surplus-value theory» عند ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣)، و«نظرية النسبية Relativity theory» عند إينشتاين Einstein (١٨٧٩ - ١٩٥٥).

ومن صفات العمل المبدع أنه في أول الأمر يكون مجرد رؤية أو استبصار بالحل، ثم يأتي تحقيقه على مراحل، يكون فيها تقويمه وتطويره، ليأتي على الصورة المبتكرة التي هي كماله أو تمام صنعه، وبعد ذلك يكون تقديمه للناس منتجاً مبدعاً. ولربما يكون أيسر علينا أن ندرس الأعمال المبتدَعة دون ما يكتبه المبتدعون عنها، بالنظر إلى أن الشيء البديع هو الملموس والمحسوس، غير أن كتابات المبتدعين ومذكراتهم وما يصرحون به عما ابتدعوا، هي بمثابة التقارير الاستبطانية لعملية الخلق، وقد سهّلت على علماء النفس أن يتبينوا المراحل التي يتم من خلالها الابتكار أو الابتداع، وقيل إنها مراحل خمس، قد تُختَصر إلى عدد أقل، أو قد تزيد عن ذلك أحياناً. وأولى هذه المراحل: هي مرحلة الإعداد أو التأهيل للابتكار والابتداع، بأن يدرس المبتدع ويراكم المعلومات، ويكتسب المهارات والتقنيات، وتكون له عناصر الخبرة التي تمكّنه من استطلاع مشكلة من المشاكل في هذا الباب أو ذلك - من الخبرة أو المعرفة، وحتى تاريخ مواجهته للمشكلة، فإن حياة المبتكر تكون منصرفة إلى هذا التحصيل السابق. ويذهب بعض علماء النفس إلى أن هذا الانصراف إلى التحصيل يكون من بعد مواجهة المشكلة، وأن ماهية المشكلة هي التي تحدّد نوعية الخبرات والمهارات التي عليه أن يكتسبها. والإعداد والتأهيل الكاملان كثيراً ما يكون لهما المردود الفعّال على

الزمن الذي يستغرقه أن يصل المبتدع أو المبتكِر إلى حلّ المشكلة. ولقد بدأ أينشتاين مثلاً يفكر في المفاهيم الأساسية للفيزياء في علاقاتها بسرعة الضوء منذ كان طالباً في السادسة عشرة. واستغرق منه ذلك سبع سنوات أخرى من الدراسة المركّزة وتجميع المعلومات والحقائق قبل أن يدرك أن بإمكانه أن يحل التناقضات في النظريات المعاصرة، بالتوجّه مباشرة إلى المفهوم العادي للزمن، وبعد ذلك لم تستغرق منه كتابة أطروحته الثورية عن النسبية Relativity إلا خمسة أسابيع فقط، رغم أنه كان موظفاً في مكتب لتسجيل براءات الاختراع يضطلع بأعباء الوظيفة الكتابية شأن الموظفين. وقد يبدو أحياناً أن الكثير من الأعمال المبتكرة تأتي نتيجة الصدفة وحدها، فالعالم فليمنج (١٨٨١ - ١٩٥٥) إكتشف تأثير البنسلين بالصدفة، فلقد كان يصنع نوعاً من البكتريا التي من شأنها استحداث الصديد على شريحة زرع عليها فطر البنسلين، وتبين له أن البنسلين حلّل البكتريا. وكانت حادثة سعيدة وصفحة جديدة في علم الطب، ومع ذلك هل كان اكتشافه ذاك عملاً من فعل الصدفة وحدها؟ والذي لا ريب فيه أنه لولا خبرة فليمنج وعلمه الغزير وتخصّصه المتمكّن لما استطاع أن يتفهّم هذه الواقعة ويعلنها اكتشافاً علمياً. ومن قبله كان الناس يعرفون أن عَفَن الخبز - وهو البنسلين - يعالج الكثير من الالتهابات والتلوث، ولكن أحداً لم يرَ في ذلك ما رآه فليمنج. ويبدو أنه في مجال الفن يوجد الكثير من الإلهام Inspiration، لدرجة أنه قد يظن البعض أن الإعداد غير لازم فيه بالضرورة، إلا أن النقاد والمؤرخين ينفون ذلك بشدّة، فخلف كل الأعمال الفنية الكبيرة والمبتكرة كان هناك جهد كبير ومعاناة هائلة ومحاولات مستميتة، إلى أن يجد الفنان المبدع طريقه ويحدّد أسلوبه، ويخرج على الناس بالتحفة التي طالما حلم بها. وهناك موسيقيون معجزة من الأطفال قد نحسب أنهم بدأوا فجأة، إلا أن ذلك من الخطأ البيّن، فالطفل المعجزة Prodigy child يتدرب كثيراً حتى ليمضي النهار كله في التدريب وصقل موهبته وإنضاج قدراته.

والمرحلة التالية التي يعايشها المبتكر أو المبدع هي مرحلة الحضانة Incubation، وفيها تكون المشكلة التي يفكّر فيها، معه دائماً، وتلاحقه باستمرار، ويعيش بها شعورياً ولاشعورياً، ويحتضنها مركّزاً عليها انتباهه، وقد يستغرق ذلك وقتاً نسبياً، بحيث يتوجّه انتباهه تماماً للمشكلة وحلّها دون غيرهما، وكثيراً ما يحدث أن لا يوفق المبتكر أو المبتدع، وأن تواجهه العقبات ويصاب من كثرة التجريب والتفكير وإعمال الرأي بالإجهاد والتوتر والاكتئاب، وقد يدخل المرحلة الثالثة من باب أن يحمي نفسه مما يحلّ به من إحباط، فيتوقف لبعض الوقت، وقد نحسب أنه قد آثر السلامة وانسحب من الميدان، إلا أن تلك مرحلة نسميها «مرحلة ما قبل الاستبصار»، وفيها يكون توقفه وكأنما يحشد قواه النفسية ويعدّ نفسه لكَرّة أخرى على المشكلة، وهو ينتزع نفسه من التفاصيل ويبتعد قليلاً ليراها في منظور كلي، وعندئذ تأتي المرحلة الرابعة وهي مرحلة التنوير Illumination stage، ويلتبس التنوير عند البعض بالإلهام، ويكون في مرحلة التنوير الاستبصار بالحلّ وإدراكه، ويستشعر له بغثيان يصيبه، وتكون به نشوة غريبة حتى لقد يصيح مثل أرخميدس Archimedes (٢٨٧ - ٢١٢ق.م): وجدتها! وباليونانية Heureka ويشتهر نطقها Eureka. ويذهب بعض علماء النفس إلى أن فترة ما قبل الاستبصار هي فترة تريث وراحة، وأنها فترة ضرورية، حيث أن التفكير الابتكاري أو الابتداعي قد ينهكه طول التثبت على المشكلة ومحاولات تنظيم الخبرة، ثم صياغة المشكلة وإعادة صياغتها المرّة بعد المرّة. ومن شأن التوقف لفترة أنه عند البدء من جديد يكون الطرح المتجدّد للمشكلة ورؤيتها من زوايا جديدة. ويذهب علماء نفس آخرون إلى أنه برغم التوقف الظاهري إلا أن المشكلة تظل في التفكير الباطن حتى أنها تكون في الأحلام، وكان ديكارت Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) يقول بأنه رأى في حلمين فكرة الهندسة التحليلية: ويذكر فريدريك كيكوليه Kekulé (١٨٢٩ - ١٨٩٦) أنه رأى الحل في حلم تمثّل في ثعبان يستدير على نفسه ويعض ذيله،

فأعطاه ذلك فكرة الشكل الحلقي لجزء البنزين؛ ويذكر هنري بوانكاريه Poincaré (١٨٢٤ - ١٩١٢) تأكيداً لنظرية التفكير الباطن أن فكرة حساب التفاضل والتكامل جاءته وهو يخطو بقدمه على عتبة أحد الأتوبيسات، وكان الموسيقار موتسار Mozart (١٧٥٦ - ١٧٩١) يقول إن الأنغام تأتيه على شكل خطوط متموجة تظل تتحرك إلى أن تأتلف حركاتها في الموسيقى التي يكتبها. ولعله لذلك يقول علماء نفس آخرون إن التفكير الابتكاري هو تفكير حدسي Intuitive thinking. ومن رأي البعض أن المبتكر قد لا يرى في لحظة التنوير حلّ هذه المشكلة فقط ولكن حدسه أو بصيرته «تتفتح» على مشاكل أخرى وحلول لها تتعلق بالمشكلة الأولى وتفجّرها.

ولا شك أن المرحلة الأخيرة وهي مرحلة التحقيق Vertification من أهم المراحل التي يمرّ بها التفكير الابتداعي أو الابتكاري. فالمبتدع إذ يتوصل إلى حلّ المشكلة أو يكتشف الجديد يكون عليه أن يتحقق من صدق ما توصّل إليه والتجريب عليه، واختبار صدقه وتطويره وطرحه حقيقة واقعة، فالرؤية التي تجيء الفنان لا بد أن يجسدها في الألوان والأشكال، أو ينحتها في الحجر، أو يكتبها كلمات وحواراً وفصولاً وأبياتاً شعرية أو عبارات موسيقية. والفرض الذي يتوصل إليه العالم يتوجب عليه أن يختبره بالملاحظة والتجريب. وهناك معايير للحكم على الإبداع الفني تختلف عن تلك التي تستخدم في مجال الإبداع العلمي، بسبب اختلاف الموضوعات، إلا أنه لا بد في كل الأحوال من أن تكون هناك محاولات يتحقق من خلالها العمل البديع الفني أو العلمي. ولربما يكون من الأيسر أن نرى رأينا في الإبداع العلمي بالنظر إلى أن مجاله لا يخضع للذوق، إلا أنه حتى في الابداع العلمي هناك اختلافات لا بد منها، فمثلاً كان من الميسور التحقّق من صدق نظرية النسبية من ملاحظة واحدة لحالة الكسوف الشمسي، بينما اقتضى الأمر إجراء آلاف التجارب على العقاقير النفسية المسماة بالمهدئات للتأكد من صدق تأثيراتها على الجهاز العصبي.

وهذه المراحل الخمس السابقة قد

تتحصل في عملية الابتداع تباعاً وبالترتيب الذي أوردناه، أو قد تنضغط وتتداخل وتُختَصر. وقد تستغرق وقتاً قد يستمر لسنوات كما في حالة أينشتاين ونظرية النسبية، وقد لا تستغرق إلا أقل الزمن كما عند ارتجال الشعر المعجز والكثير من الموسيقى المبهرة. وعملية الابتداع عملية شديدة التعقيد فيها التذكر والتفكير والتصور، وفيها الكثير من الدوافع، وتتضمن إصدار القرارات. وهناك الكثير من الدراسات حول شخصية المبتدع. وتقيس الابتداع إختبارات الابتداع Creation tests. ويتميز المبتدع بأنه إنسان ذكي، أو انه في الابتداع لا بد من قَدْر من الذكاء قد يختلف من مجال إلى مجال آخر، لكنه في كل الأحوال لا بد أن يكون ذكاء المبتدع فوق المتوسط. والذكاء وحده لا يكفي. ويُروى أن توماس هكسلي Huxley (١٨٢٥ - ١٨٩٥) عالم الأحياء الأشهر وكان معاصراً لداروين، عندما سمع بنظرية التطور صاح متعجباً كيف لم تعنّ خواطرها له وهو يعرف كل حقائقها التي قامت عليها. والأهم من الذكاء أن تكون للمبتدع القدرة على استخدام الذكاء بكفاءة عالية، ويبدو أن صفة «الانفتاح» التي نوَّهنا عنها من أهم صفات المبتدع، وبقدر ما هو منفتح على ما يأتيه من العالم الخارجي من مؤثرات فإنه أيضاً منفتح على تجاربه الباطنة، ويستقبل المدركات الحسية ولها عنده معان ومتضمنات. وانفتاحه يجعله صريحاً يكشف باطنه، ومرناً مع الناس والمواقف، ويريد أن يتواصل بالغير. ومع ذلك فهو المستقل بتفكيره وسلوكه والذي لا ينتمي عن غير تعمّد، إلا أن هموم جماعته تعنيه ويصدر في قراراته عن التزام بمشاكلهم برغم أنه لا يلتزم بتقاليدهم. وصراحته تصادمه مع الغير، ونقده حاد يأخذ به حتى نفسه، ويغيّر باستمرار في قراراته، ومستعد لتقبل ما يقتنع به من غير حساسية، وأن يبني عليه ويطوره. وثقته في نفسه تجعله دائباً على العمل ولا يعوّل على أحد. وفكرته عن ذاته عالية جداً حتى ليتصرف وكأنه الذي على يديه خلاص الناس وارتقاء العالم وحلّ المشاكل، ومع ذلك فهو المتواضع شديد التواضع وبه رقّة كالنساء. واحتماله

لأعباء عمله تجعله مجاهداً، وذكورته ضرورية لكي تكون به هذه العدوانية التي تدفعه إلى مهاجمة المشاكل والتصدّي لها حتى يبلغ فيها إلى الحل، إلا أن سلوكه الأنثوي ليحجب أحياناً ذكورته. والمبتدع يتميز بالطلاقة في التعبير، ويقصد إلى العبارة التي ينشدها من أيسر سبيل، وطلاقة تعبيره تكون بحسب مجاله، فإن كان موسيقاراً فهي بالأنغام، وإن كان رسّاماً فبالألوان والخطوط، وإن كان نحّاتاً فبالأوضاع، وإن كان رياضياً فبالأرقام والرموز. والمبتدع الفنان يتميّز بحسّ وجداني عال؛ والمبتدع العالم له القدرة العظيمة على التفكير، وفي كل الأحوال هو الذي يرى ويسمع ويفكر ويتصور كما لا يفعل الناس، ولا تحدّه الحدود، ولا يعاني من العُقَد والكوابت والقوامع، ولكنه يعاني القلق أثناء الخلق والابتداع، ولكنه ليس القلق العصابي وإنما القلق الخلاّق، وقيل هو قلق ينفرد به المبتدعون، وأنه طوال عملية الخلق والابتداع تكون به عصبية Nervosity، إلا أنها ليست العُصابية Neuroticism وإن كانت تجعله مغرباً في السلوك بعض الشيء. وقد يلبس كما لا يلبس الناس، وقد يتّسم ببعض الشذوذ، إلا أن المبتدعين عموماً أسوياء بدنياً ونفسياً وعقلياً، وأهم ما يميّزهم أنهم القادرون على السيطرة على الأنا والتحكم في انفعالاتهم. ودراسة حياة المبتدعين تجعلنا نجزم أن الابتداع ربما يتوافق وظروف خاصة تكون لهم في طفولتهم، وقيل إن الملاحظ أن الغالبية منهم كانوا أيتاماً، وكانت لهم طفولة بائسة، وأشرفت أمهاتهم على تربيتهم، وعاشوا معهن في التصاق شديد ألهب فيهم الحسّ الأنثوي، وأوقد جذوة الذكاء والخيال والطموح، وجعل لهم حياة باطنة ثريّة لولاها لما كانت توجهاتهم الابتداعية المستقبلة. وحتى من تربّي منهم في أحضان الوالدين، ولم يعانِ المعاناة السابقة، فإن حياته اتسمت بالاستقلالية وتشجيع والديه له على أن يكون له تفكيره وسلوكه المستقلان، وأن تكون له الحرية التي تيسر له الاستكشاف وأصدار القرارات، وكانت في محيطه العائلي أو بيئته الاجتماعية نماذج جيدة يقتدى بها ويتمثل قيمها ويكوّن على منوالها أناه

المثالي. وكانت المعايير التي يأخذ بها من الوضوح بحيث يسهل عليه أن يتمثّل معاني وموضوعات الخير والشرّ، والحقّ والباطل، والصواب والخطأ، والجميل والقبيح. ويميّز حياة المبتدعين جو التدريب على التفكير الابتداعي الذي كان لهم في حياتهم وعبر مراحلها المختلفة، واختلاف ما نشأوا عليه من الطرق التربوية التقليدية. وينفي المؤرخون الدارسون لحياة المبتدعين أن تكون لهم بيئات متزمتة، أو أن يكون قد أخذهم أحد بالنظام الصارم، أو أن تكون طريقة التعلّم عندهم هي طريقة الحفظ بدون فهم. ويروون أنهم منذ الطفولة كانت لهم أسئلة تُحتَرم من قبل ذويهم ومدرّسيهم، وأن خيالاتهم ما كانت تُسَخّف، وأن أفكارهم كانت تُقابل بالاحترام، وأن استجاباتهم ما كانت تواجَه بالتهديد بالتقويم الخارجي، غير أنه بالنظر إلى أن المبتدع يميل بطبعه إلى المعقّد عن البسيط، والتسامح مع الغامض، ونقصان التصلب الوجداني والمعرفي، والانفتاح الذهني، وروح الدعابة، والميل إلى القَدَرية، وسعة الخيال، فإنه قد يصدّق كل ما يقال له ويسايره لتجربته، ويُروَى الكثير عن سذاجة مبتدعين من أمثال كوبرنيك، ورمبرانت، ومايكل أنجلو، وبيتهوفن، وجوته، وفرويد، وداروين، وأينشتاين. وقيل مثلاً إن فرويد وهو عالم النفس الذي له عمق النظرة قد صدّق لفترة الفلسفة الحروفية التي للأعداد والحروف وأخذ بها وسايرها لبعض الوقت، وأن أينشتاين قد أخذ بالفكرة الصوفية وكان أوقيانوسي Oceanic النظرة كما يقولون أي شمولياً كونياً، وأن داروين كانت له بساطة أهل الريف حتى كانوا يتحدثون عنه باسم «القروي The villager».

والمبتدع بالإضافة إلى الذكاء الذي نوهنا عنه ينبغي أن تكون له قدرات خاصة بحسب مجال تخصّصه الذي يكون فيه إبداعه. ولا يتأثر الابداع بالسن كثيراً، وقد ثبت من الدراسات المختلفة أن المبتدع يظل ابتداعه وابتكاره طوال العمر، إلا أن هناك فترات يبدو فيها كما لو كان معين الابتداع قد نضب، أو أن هذا المعين قد أخذ يدر بغزارة وثراء. ويختلف ذلك أيضاً بحسب مجال

الابتداع، ففي الرياضيات والشعر مثلاً ثبت أن أفضل القصائد وأعظم النظريات وضعها المبتدعون في سن العشرينات، بينما كان تأليف أفضل الروايات والقصص عند الروائيين والقصّاصين في سن الثلاثينات وحتى في الشيخوخة. وفي العلوم الطبيعية لوحظ أن أحب سنين العمر هي السن بين السادسة والعشرين والثانية والثلاثين. وبرغم ذلك كانت هناك أعمال مبتكرة عظيمة وكثيرة في كل الأعمار حتى سن الثمانين وما بعدها. وقد يحدث أن المبتدع يُشغَل بالحياة والوظيفة، وتكوين الأسرة وإعالتها وتأمينها، حتى ليؤجل إبتداعه إلى سن يستطيع فيها أن يواصل بحوثه وقراءاته. وقيل إن فرويد تأجل اكتشافه للعُصاب وسبقه إليه بروير بسبب انشغاله بميعاد غرامي مع زوجته المستقبلة. وعندما تستقر أمور المبتدع فقد يعود إلى قراءاته التي يحبّها وبحوثه التي تركها، وقد نسمع آنذاك عن أعمال بديعة يأتيها في سن متأخرة. ويعوق الابتداع أن يكون هناك قصور في ثقافة المبتدع، أو أن تعوقه ظروفه والبيئة الاجتماعية غير المشجعة أو المعلومات المغلوطة، أو تكون له اتجاهات ثابتة وآراء جامدة، أو تكون دوافعه غير كافية أو دوافع مادية محضة أو ذاتية خالصة، أو كانت به مخاوف من أن يساء فهمه، أو ينبذه قومه أو يصدم الناس من حوله. وقد تكون له طرق في التفكير والبحث تجعله دائم الشك ويغالي في التحليل، حتى ليذهب فيه بعيداً عن دائرة المشكلة ويدخله في متاهات فكرية وتجريبية، ويصرفه إلى المزيد من القراءة والتحصيل حتى ليشغل بذلك دون ما يعالج من مشاكل وما يتصل بها مباشرة.

وقد يبدو أنه في الابتداع والابتكار يختلف الذكور عن الإناث، ويكاد يكون الابتداع تاريخياً وقفاً على الذكور دون الإناث، وهناك مجالات تقتصر بالكلية على الذكور دون الإناث، إلا أنه مع الظروف المتغيرة حالياً والتنشئة الاجتماعية المختلفة بدأت الإناث يتعرضن للتربية نفسها التي يتعرض لها الذكور، ومن ثم صارت النساء يشاركن في مختلف الأنشطة الاجتماعية والعلمية

والأدبية والفنية والوظيفية، وبدأت تظهر لهن إبداعات ملحوظة، وإن كان أكبر إبداع يمكن أن يكون للمرأة هو إنجابها للأطفال وتنشئتها لهم بحكم تكوينها البيولوجي، وحتى من كانت لهن أنشطة فكرية من النساء فإن الإنجاب كان متساوقاً مع الإنتاج الفكري، وهو مثلاً ما علمناه من حياة الروائية جورج صاند George Sand (١٨٠٤ - ١٨٧٦)، والعالمة مدام كوري Marie Curie (١٨٦٧ - ١٩٣٤). وربما تكون المرأة أكثر عصبية من الرجل، وربما تعاني من قلق أساسي وتفتقد الاستقرار الانفعالي والإيجابية والمبادأة اللازمة لعملية الخلق والابتداع، إلا أن البعض قد يكون بهن المطلب الذكوري Masculine protest بتعبير أدلر، وربما ينشدن لذلك بتأثير عُقدة الذكورة Masculinity complex الدخول في منافسات مع الرجال، وأن تكون لهن اتجاهاتهم وميولهم، ومن ثم يدخلن ميدان الابتداع والخلق والابتكار. ومع ذلك فقد قيل أيضاً من ناحية أخرى إن المبتدع رغم ذكورته به بعض الأنوثة، وكذلك فإن بعض المبتدعين يعاني من اضطرابات نفسية واضطرابات في الشخصية، إلا أنه في الابتداع عموماً تلزم للذكور والإناث بعض المعاناة النفسية التي لا شك فيها. ويختلف المبتدع من جهة العصبية عن غيره، ويزيد به القلق، غير أنه يسيطر على قلقه وعلى عصبيته، وكانت الاختبارات النفسية في صف: القليل من الاعتلال النفسي مع الكثير من الذكاء وثراء الشخصية، والصراحة في التعبير، والميل إلى النقد الذاتي، وأخذ النفس بالشدة والاعتراف بأوجه القصور، وأثبتت أيضاً أنوثة المبتدعين أو اهتماماتهم وطرائقهم الأنثوية في التعبير من جهة العواطف والمشاعر، وبلغة يونج فإن ذكور المبتدعين لا يتعينون تماماً بأدوارهم الذكورية، وأن أنوثتهم تجعل لهم حساسية للخبرات الباطنة، حتى انهم ليحدسونها،ويضفون عليها إيحاءات تجعلهم يميلون إلى الانطواء وإن غالبوا أنفسهم أن يكونوا منبسطين، ولعل هذه المراوحة بين الأنوثة والذكورة بمقتضياتهما، وبين الانطواء والانبساط، هي ما يجعل سلوك

المبتدع على غير المألوف حتى ليُتّهم أحياناً بالشذوذ أو الإغراب.

مراجع:

- Wertheimer,M: Productive Thinking.
- Koestler, A: The Act of Creation.

❖ ❖ ❖

-٣-
سيكولوجية الأحلام
Dream Psychology

الأحلام وضرورتها، وأنواعها، وأنماط الناس الذين يحلمون، والأسباب التي من أجلها نحلم، والفرق بين أحلام الكبار وأحلام النساء، وأحلام الأطفال.

❖ ❖ ❖

الناس غالباً عمليون وماديون، ورغم أنهم أنماط، إلا أن النمط العملي المادي هو النمط السائد الذي كثيراً ما نلتقي به في الحياة، وكذلك صار الفنانون والأدباء عمليين وماديين، وصارت نظرياتهم في الفن نظريات عملية مادية، تهتم بتصوير حاجات المجتمعات والشعوب والأفراد، وبلغة علم النفس فإن ما يهم الجميع اليوم هو الأشخاص كأنا the «I»; the ego، وكَهُوَ the «he»; the unconscious، وأما بواطن الناس ونواياهم وما تنطوي عليه أفكارهم وتحتوي عليه عقولهم، فذلك ما لا يهتم به أحد، وعلم الباطن هذا هو الذي نسميه علم اللاشعور the unconscious. والأنا ego هو الجزء المستور من النفس والذي يتعلق غالباً بالماضي، والناس يعنيهم الظاهر دون الباطن، ويهمهم أن يعرفوا من أمر الذات والأنا ما يساعدهم في لقاءاتهم مع غيرهم بحيث يخرجون من هذه اللقاءات بحصيلة من الفوائد، أو بحيث يستطيعون أن يتنبأوا بسلوكهم فيكيّفون أنفسهم على ذلك، ويغيّرون من معاملاتهم، ليجنوا أكبر الفائدة. وسيكولوجية الأنا ego-psychology تجد رواجاً معاصراً دون سيكولوجية اللاشعور unconscious psychology، سواء من الناس العاديين أو من علماء النفس. وتقوم سيكولوجية

الأحـــــلام Dream-psychology على الإحاطة بمجريات اللاشعور، فليس ما يظهر في الحلم هو حقاً موضوع أو معنى الحلم Dream-thought، والحلم نفسه Dream-text كجبل الثلج، ما يظهره من أحداث the d.-phantasies هو شيء بسيط جداً يعلو على السطح، بالنسبة لما يخفيه تحت السطح وفي الأعماق the d.-problem، والإحاطة بسيكولوجية الحلم هو ما نعرفه باسم تحليل الأحلام Dream-analysis. وكانت الأحلام وما تزال من أهم وسائل الكشف عن ديناميات الشخصية ومكوناتها النفسية وأبعادها. وإذا كانت مذكرات الشخص أو يومياته أو كتاباته التي بينه وبين نفسه هي من وسائل الإحاطة بما يفكر فيه الشخص، وما يدور في نفسه، وما يخبئه ولا يفصح عنه إلا لماماً، فإن الأحلام هي الأكثر فائدة في هذا المجال، وذلك لأن الكبت Repression يعمل عمله في الكاتب عند كتابة المذكرات أو اليوميات، أو ستر الأشياء، والتمويه على القارئ، وأما في الحلم فالكبت أقل عملاً؛ والحلم أقدر على التعبير عن الأماني والرغبات والحاجات والآمال والمخاوف التي تعجّ بها نفس صاحب الحلم.

والحلم سجل للشخصية، وإذا كنا نتميز عن بعضنا البعض في المشي أو الكلام أو الكتابة بطريقة معينة نُعرف بها وتكون علامة علينا، وإذا كان في استطاعتنا أن نوجه كلامنا أو نصطنع الكتابة أو المشي بطريقة مختلفة للتمويه، فإنه في الأحلام لا سبيل لنا للاصطناع، فنحن في الحلم على سجيتنا، ونعبّر عن أنفسنا بتلقائية.

ولا تراعي الأحلام الأصول الاجتماعية، وتوصف بأنها وسيلة إسقاطية، بمعنى أننا نسقط فيها كل ما نتمنى ونرغب متحررين من أية قيود اجتماعية، ونُخرج كل ما عندنا من المعاني، وكل مشاعرنا، بعفوية لا يمكن أن نجدها في أي موقف آخر. ونحن في الأحلام نتخيل ونمارس الخيال، غير أن خيالاتنا في الأحلام ليس فيها إعمال وتكلف واصطناع كممارساتنا له في الكتابة مثلاً أو في التمثيل.

والحالم في حلم النوم Night-dream ليس كالحالم في حلم اليقظة -Day

waking dream or d.، فإن كان حلم اليقظة إهتمامه بالحاضر، ومشاهده الخيالية لأحداث مستقبلية، فإن حلم النوم يتوجّه بمشاهده إلى الماضي وإلى المستقبل معاً. والحلم منه ما هو هروب من الحاضر إلى الماضي، وما هو هروب من الحاضر إلى المستقبل، ففي الحلم تتصارع الرغبات، وبعضها من الماضي يدفع إليه الندم، وبعضها يمت بصلة للمستقبل ويستشرقه، والحلم ينظمها جميعاً بعد شتات، وينفخ فيها حياة جديدة، لها وحدة درامية فريدة تجعل كل حلم نسيج وحده، وتضمه لبقية أحلام الشخص، كفصول المسرحية الواحدة أو تابلوهاتها المتابعة، فيفسّر كل حلم أحلاماً أخرى ويضفي عليها معان جديدة. وحتى لو لم تكن الأحلام تهمّ الحالم، فإن عملية الحلم Dream-process نفسها ضرورية كنشاط حيوي، والكثير من الناس يحلمون أحلاماً مبهرة تعطي لحياتهم بريقاً ولمعة ليست لها، وكأن الأحلام تعويض أو استكمال لحياة تخلو من كل بهرج أو جمال.

والحالم قد يحلم لأنه يريد أن يحلم، وكان المصريون القدماء يستجلبون الأحلام ليستلهموا منها حلول مشاكلهم وعلاج أمراضهم، ومن ذلك حلم فرعون يوسف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ(٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ(٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ(٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ(٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ(٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (يوسف: ٤٣ - ٤٩)، فلو لم يكن مشغولاً بالفيضان وبالمحصول ما كان يمكن أن يحلم هذا الحلم. وكان الملوك والغزاة

والفاتحون يطلبون الأحلام ويعيّنون في بلاطهم المفسّرين، لعلهم يستفتحونها تواريخ الأحداث الكبرى والنتائج المترتبة عليها، وفي عصرنا من يفعل ذلك، وقيل إن السادات استجلى الأحلام وطلب المفسّرين قبل هجومه على خط بارليف في حرب التحرير، والكثير من الروائيين سعوا أن يحلموا بنهايات لوقائع رواياتهم.

وللأحلام لغتها ومنطقها Their language and logic، فهي نشاط ونتاج إنساني، ومن ثم كان لا بدّ أن تُطبَع بالطابع الإنساني، ولا بدّ أن تشترك الأحلام عند كل الشعوب في بعض الصفات، وهذا هو الجانب الإنساني العالمي فيها، ويلزم لهذه اللغة المشتركة كتيبات يؤلفونها كقواميس للأحلام Dream-dictionaries، مع فارق أن معاني بعض النباتات أو الحيوانات قد تختلف باختلاف الثقافات، فمن يحلم بالخنزير مثلاً في بلاد الإسلام قد يؤِّول الحلم تأويلاً مختلفاً عما يمكن أن يؤِّوله الحالم من دائرة الثقافة الأوروبية والتي فيها الخنزير محلل أكله بعكس بلاد الإسلام.

ويبدو أن الناس يتباينون في الأحلام كنشاط إنساني إبداعي تباينهم في سائر الأنشطة الإبداعية بحسب أجناسهم، والملاحظ أن الساميين هم أكثر شعوب العالم إهتماماً بالأحلام، ولذا قيل إن الشعوب السامية شعوب ميتافيزيقية وليست فيزيقية، ولذلك أبدعت الديانات وهي من مجال الميتافيزيقيا، وكانت أقدم مؤلفات في الأحلام سامية، وقيل إن أقدم كتاب في الأحلام كان ورقة بَرْدى مصرية (والبردى نبات مائي كالقصب يُصنع منه الورق قديماً) من الأسرة العشرين يرجع تأليفها إلى زمن بين السنوات من ٢٠٠٠ إلى ١٧٩٠ق.م، وقيل إن البابليين مهروا في تفسير الأحلام، وكانوا يعتبرونها رسالات سماوية منبئة أو منذرة أو مبشرة. وكان مفسرو الأحلام يشكلون طبقة عليا من المجتمع، ولا تخلو منهم مدينة ولا قرية، وكانوا نوعاً من الكهنة. وكان الناس يذهبون للمعبد وينامون فيه لعلهم يحلمون بحلّ لمشكلتهم أو مرضهم. وكان الاسكندر الأكبر (الاسكندر وشهرته الأكبر، وذو القرنين (٣٥٦ - ٣٢٤ق.م، وكان من أكبر الغزاة

والفاتحين) يحلم ويهتم بتفسير أحلامه ويراعي التفسير في قراراته، وكذلك فَعَل رمسيس الثاني (من أمجد ملوك مصر ١٢٩٢ - ١٢٢٥ق.م) وحلم ابراهيم أنه يقتل إبنه اسماعيل، وحلم الامبراطور (أشور بانيبال ٦٦٨ - ٦٣٣ق.م)، وتحتمس الرابع (من ملوك مصر عاش نحو سنة ١٤٢٠ق.م)، وعرفنا أحلامهم لأنها كانت محورية في سيرتهم الذاتية، وفي تحريك الأحداث في العالم. وتقوم سيكولوجية الحلم على أن الأحلام تأتي الناس أصحاب الشفافية، وأن الأحلام إما رغبات لم تتحقق، أو نرجو أن تتحقق، وإما أخبار ننتظرها ونتوقعها لأحداث نخشى مغبتها. وكما في الأحلام دراسات سيكولوجية، كذلك فيها دراسات انثروبولوجية. وهناك نظريتان فيها، إحداهما تُرجع الأحلام كرؤى إلهية وتجسّدها كتعبير عن القَدَر، وعن الإيديولوجية الدينية السائدة في الأمة، والثقافة التي تميّزها؛ والأخرى نظرية عقلانية تعامل الأحلام كرؤى خاصة بالأفراد وتصنّفها كأنماط، وتعمد إلى تفسيرها وتحليلها وتأويلها باجتهادات فلسفية، والنظريتان موجودتان في الثقافة العربية، فابن سيرين (محمد بن سيرين، ٦٥٣ - ٧٢٩م، إشتهر بتعبير الرؤيا، ويُنسب إليه الكتابان «تعبير الرؤيا» و«منتخب الكلام في تفسير الأحلام») يقسّم الأحلام إلى قسمين: فقسمٌ من الله، وقسمٌ من الشيطان، ويطلق على الحلم من القسم الأول «الرؤية الصالحة»، وينسب إلى الثاني: أن بعضها أحلام فسيولوجية، مصدرها الجسم وما يصيبه من امتلاء بالطعام أو خلوه منه، فالجائع يحلم بالخبز، والمحروم جنسياً يحلم بالنساء، وبعضها أحلام نفسية فيها الآمال والمخاوف والأحزان.

ومن عباقرة سيكولوجية الأحلام في العربية عبد الغني النابلسي (١٦٤١ - ١٧٣١م وله في التفسير «تعطير الأنام في تعبير المنام»)، ويذهب إلى نظرية في مصدر الأحلام، فيقول: إن النائم يرى في منامه ما يغلب عليه من الطبائع الأربعة، فإن غلبت عليه السوداء، رأى الأحداث والسواد يجللها، والأهوال والأفزاع تتخللها؛ وإن غلبت عليه

الصفراء، رأى النار والمصابيح المعصفرات؛ وإن غلب عليه البلغم، رأى البياض والمياه، والأنهار والأمواج؛ وإن غلب عليه الدم رأى الشراب والرياحين والمعازف والمزامير. ويطلق النابلسي على هذه الأحلام إسم الأحلام النفسية، أو الأحلام التي من هِمّة النفس، ويقول: «إنَّ أنصح الرؤى هي البشرى، وهي التي تبشّر الرائي بالخير، بعكس الرؤيا الزاجرة التي تحذّر الرائي من شيء من الأشياء. والرؤيا البشرى صريحة، بعكس الرؤيا الزاجرة، وهي المرموزة التي تكثر فيها الرموز، كأن يحلم الشخص بأن زوجته تخونه، فيراها تدسّ له السمّ، والسمّ هنا رمزٌ للزنى؛ أو كأن يرى الرائي نفسه يغنّي في المسجد بدلاً من أن يصلي، فذلك رمزٌ إلى إتيان المعصية وافتضاحه». وابن سيرين يُخضع سيكولوجية الحلم في العربية أو في الإسلام للمكان والزمان ولنوع الثقافة. ويقول النابلسي: «واعلم أن تربة كل بلد تخالف غيرها من البلاد، لاختلاف الماء والهواء والمكان، ولذلك يختلف تأويل كل طائفة من المعبرين باختلاف الطبائع والبلدان، كالذي يرى في المنام في بلاد الحر ثلجاً أو جليداً، أو بَرَداً ، فإنه يدل على الغلاء والقحط؛ وإن رأى الرائي ذلك في بلد من بلاد البرد فإن ذلك لهم خصباً وسعة. والوحل لأهل الهند مال، ولغيرهم محنة وبلية. والسمك في بعض البلاد عفونة، وفي بعضها مصيبة».

ويذهب كثير من ثقاة الأنثروبولوجيا إلى ردّ الصور الحلمية إلى بداية الإنسانية، وأنها بمنزلة الفطرة، ويقولون إنها لغة بدائية، وتشبه لغة الديانات البدائية، وكأنما التفكير البدائي أو الفطري يجمع بين الاثنين، ولعل ذلك سبب القول إن بعض الأحلام مصدره إلهي، وكل الثقافات بها ما يثبت أن البعض يردّ بعض الأحلام إلى الوحي الإلهي، وفي تصنيفها أن الأحلام إما رؤى وإما منامات، والرؤيا صادقة لأنها موحى بها، والمنام يحتاج إلى التفسير ومصدره الشخص نفسه والظروف المحيطة به. وكان القدماء يؤمنون بما يسمى الاحيائية Animism، نسبة إلى الأحياء، بمعنى أن كل ما في الطبيعة هو حيٌّ بحياة، حتى الجبال والصخور والمياه والمعادن. وفي

العلم الحديث فإن ذرة كل عنصر تشتمل على النواة وحولها تدور إلكترونات ونيوترونات، إلخ، وهذا الدوران دليل حياة حتى في أعتى الصخور صلابة وأقوى المعادن. وكان الناس قديماً يرون أن قوى الطبيعة في تواصل، وأن كل الأرواح والحيوانات على اتصال، وأظهر ما يكون ذلك في الأحلام، وفيها تبوح الكائنات والموجودات بأسرارها. وكان ابن سيرين - هذا العبقري العربي - يقول: إن الناس يرون الرؤيا بالروح Spirit، ويفهمونها بالعقل Mind. وعنده أن مكان كل حركات الحياة القلب، والقلب هو روح الإنسان، ويتصل بالدماغ، ويؤثّر في النفس، فالقلب المريض يعني أن الروح مريضة، ومن ثم فالدماغ والأعصاب والجسم كله مريض، وكذلك في كل الانفعالات والمزاجات، فإذا نام الإنسان إمتدَّ روحه مثل السراج أو الشمس واتصل بهذا وذاك، ورأى من يحب، وخاف من يكره، وتمنى وأمِل، وبذهاب النوم ترجع إلى النائم نفسه، فتعود الحواس باستيقاظه إلى أفعالها العادية.

وهناك رأي يصنّف الحسّ إلى حِسّيْن، الحسّ الروحاني والحسّ الجسماني، والروحاني Spiritual علوي وأشرف من الجسماني ويدل على ما سيكون؛ والجسماني Carnal خسيس، ويدل على ما هو موجود، يعني أن الأرواح في الأحلام تستشرف ما سيكون، وأنها تستبطن النائم، وتظهر بواطنه، وتكشف مكنونه، وتعرّي أسراره.

وزيارة القبور من العبادات، ومصدر هذه الشعيرة هو الأحلام، فإذا كان الميت عزيزاً فإننا نزوره تأكيداً للتواصل بيننا وبينه، وأهم من ذلك أن نجعل الزيارة سبباً لأن يردّ الميت زيارتنا له بزيارة مماثلة في الحلم. ولولا أننا نعجب لحشود الأحلام التي نحلم بها وتنوعها، لما كان اعتقادنا في زيارة الجبّانات، فعالم الأحلام الحافل هو عالم روحاني، والدليل على ذلك أننا ونحن نيام، والمفروض أن تتعطل كل الحواس، فإن حاسة الأحلام تنشط حينئذ لتواصل حياة النائم وتحقّق له ما كان يتمنى، وما كان يلح عليه على هيئة رغبات شديدة. والأحلام هي السبب في قولنا بالروح Soul; spirit; nous; psych; pneuma، وأنها

كائن يتخارج عنا، ويجوب الآفاق ويعود إلينا مع نهاية الحلم ليواصل عمله في الجسم، وذلك يدل على أن الروح لا تنام بينما ينام الجسم، وأن مجالها الأحلام في النوم، كما أن مجالها الحياة الخارجية في القظة، وما كان يمكن أن نقول بذلك لولا الأحلام ومعرفتنا ودراستنا لسيكولوجيتها. والأحلام هي سبب قولنا بفكرة الخلود Eternity ، لأن النوم موت أصغر، والروح فيه تتجوّل إلى الجوار، فإذا كان الموت الأكبر فلا بد أنَّ الشيء نفسه يحدث معها إلا أنها لا تعود فيه إلى الجسم، فرحيلها هذه المرة رحيل بلا عودة، والروح إذن موجودة ولا يعتريها الموت كالجسم، وهي كائن خالد، فإذا وقع عليها عقاب، أو نالها ثواب، فلا بد أنهما خالدان بخلودها، ولذا قيل بجهنم وبالجنة خالدين فيهما. والأحلام أكبر دليل على وجود الله، وأنه حيٌّ لا تأخذه سِنَة ولا نوم، فالأرواح المتكثرة لا بدّ أن ترجع إلى الواحد غير المتكثر، مثل الناس الكثيرين، فمرجعهم إلى آدم وحواء، ثم هذان مرجعهما إلى واحد وهو آدم. وآدم لم يخلق نفسه، لأن كل مُحدَث (بالفتح) لا بد له من مُحدِث (بالكسر)، وإذن فالله موجود، وكانوا قديماً يسمونه الروح الأكبر The supreme spirit. والأرواح لا تنام، وتواصلها أكيد مع بعضها في أثناء نوم الأجساد، وبعضنا قد يرى أن الله تحدّث إليه أو أشار عليه، وذلك من عمل الأحلام في عالم الأرواح، وحتى فكرة التناسخ Transmigration; metempsychosis مردّها إلى الأحلام، ففي الحلم يمكن أن يتحول الإنسان إلى حيوان أو طائر، ومن ثم تولّد الاعتقاد بإمكان ذلك في الحياة، باعتبار أن عالم الأحلام يعكس عالم الأرواح، وعالم الأرواح هو عالم المُثُل أو الأصول، وعالم الواقع هو عالم الأشباح، وما يجري في عالم الأرواح لا بد أنه أيضاً يجري مثله في عالم الواقع. ومن ثم ذهب الناس إلى الاعتقاد في فكرة التناسخ، والقول بالطوطمية Totemism، وبالطوطم Totem، وهو أن يكون لنا جميعاً كقبيلة أو شعب أصل إلهي نُنسَب إليه، ويسري فينا، ويجعل من ثم من الممكن أن نتحول شكلاً إلى بعضنا البعض في الواقع وفي الحلم أيضاً.

ومن البديهي أن تكون للشخصية ومكوناتها والأحداث التي تمرّ بها تأثير على أحلامنا، غير أن القليلين جداً تحدثوا في تأثير الأحلام على سلوكياتنا وعلى الثقافة التي نتفيأها، والأنثروبولوجيون النفسيون Psychological anthropologists هم أكثر العلماء دراسة لهذا المجال، فضلاً عن أن الأحلام تجعل الحالم بمزاج معين بعد أن يصحو من نومه، فيتوجه لأفعال معيّنة، أو يفكّر بطريقة خاصة، كأن يحذر - بعد الحلم - أحد الناس، أو يحاذر فيما يسلك، فإنَّ الكثير من الإنتاج الفكري هو من وحي الأحلام، والكثير من الأساطير، والملاحم، والشعر الملحمي، والعقائد، والخرافات، يمكن ردّه إلى الأحلام. وعند اليهود والنصارى والمسلمين مثلاً فإن النبيّ يوسف لم يُعيَّن وزيراً إلا نتيجة حلم - هكذا تقول الرواية، وانه لم يبنِ صوامع الغلال ويغيّر النظام الاقتصادي الإنتاجي المصري، والنمط الاستهلاكي في أرض جاسان من أرض مصر (محافظة الشرقية) حيث جرت وقائع قصص إبراهيم ويوسف وموسى، إلا بسبب الأحلام. ولو لم يكن حلم إبراهيم بأنه يذبح إبنه إسماعيل لما كانت نظرية الفداء Redemption theory في الدين، ولما كان احتفال المسلمين بالملايين بعيد الأضحى وتضحيتهم بالأكباش السمان، وقد نتساءل: لو لم يكن ذلك الحلم، أكان العالم يخسر سنوياً هذه الثروة الحيوانية التي تذهب هباءً في يوم واحد باسم أضحية العيد؟ وقد صدّق ابراهيم الرؤيا وهَمَّ بذبح ابنه، ولولا أن تداركتنا رحمة الله لكان الفداء الآن بالابن الأكبر! ولكن تصحيحه تعالى لفهم إبراهيم بوظيفة الحلم أكّد أن الأحلام رمزية، وأننا لا ينبغي أن نأخذ الحلم بحذافيره، وأن للحلم محتوى -Dream material، أو d.-content، وظاهراً - ظاهر الحلم Manifest-d.، وأن ظاهره هو ما نتذكره من الحلم، وباطنه هو ما تتداعى به ذاكرتنا حول أحداثه وينتهي إليه تفسير الحلم أو تأويله. وابراهيم رغم أنه كلداني أو أشوري من بلاد ما بين النهرين، حيث تزدهر صناعة تفسير الأحلام، لم يكن يعلم شيئاً عن تأويلها، ففسّر الحلم على ظاهره، وأما يوسف فقد

تعلم التأويل وبرع فيه حتى أن القرآن ليذكر ذلك من مناقبه؛ وكذلك كان حفر زمزم بناءً على حلم. ويوسف كان من صغره شديد الطموح حتى أن إخوته لاحظوا ذلك فيه، ولاحظه أبوه، فحلم يوسف حلمه المشهور الذي رأى فيه عصاه قد طالت حتى علت على عِصيّ إخوته، وحلم كذلك أن أحد عشر كوكباً بعدد إخوته والشمس والقمر سجدوا له. وما كان من الممكن أن يرتقي لولا أحلام صاحبيه في السجن. وموسوليني ظل أبوه يردّد عليه أنه يحلم باستمرار بابنه يخطب في الناس ويقودهم، حتى أن الابن توجّه في دراسته إلى ما يؤكّد ما كان الأب يحلم به. وتقوم ملحمة جلجاميش في الأدب الفارسي بناءً على حلم. وكان «أوتنا بشتم» قد حلم بالطوفان فصنع فُلكاً لينجو بجنس الإنسان وسائر أجناس الكائنات من الغرق. وكانت الأبقار والعجول والقطط في أحلام المصريين طواطم لقوى الخير في الطبيعة، فكانوا الآلهة حاتحور، وإيزيس، وتوت، وأبيس، وبسطة، وكان سلوك المصريين قديماً يوجهه رؤياهم لهذه الحيوانات في الأحلام، ولكل حيوان في الحلم هيئة يكون عليها التفسير ويتوجه بها السلوك في الغد، فالكبش: رجل عظيم من قومه، والبقرة: إمرأة؛ والأخذ بقرن الكبش: يعني المَنَعة؛ والأخذ بإليته: يعني التسيّد والغِنَى؛ وذبح الكبش: إنتصارٌ للحالم؛ والبقرة الحلوب: إمرأة مخصبة؛ وذات القرون: المرأة المنيعة؛ والعثور على بقرة: يعني العثور على زوجة. وقد يرى الحالم الذي طمه الكبش - قد يراه غاضباً أو راضياً، وقد يتوارى منه الحالم، وقد يراه في هيئة والده، أو أخيه الأكبر، بحسب الكيفية التي يكون الحالم بها راضياً أو غاضباً من نفسه. وسُخط الطوطم: معناه سخط الوالدين أو أولي الأمر؛ وغَضَبُ الطواطم قد يعني أنه مغضوب عليه من جهة عليا. وهذه التفسيرات كانت في الماضي وما يزال الناس يأخذون بها حتى اليوم.

وحتى في السياسة تلعب سيكولوجية الأحلام أدواراً مهمة، فالحزب السياسي قد يتخذ الحمار مثلاً رمزاً له كما في أميركا، وهو أيضاً تعويذة للحرب، واتخذ ست أخو إيزيس شكل الحمار في إحدى

تحولاته، ولعل ذلك سبباً في أن الحمار في الحلم يعني الخير، وقد يعني الحكمة أو الصبر، والحمار أيضاً إمرأة معينة على المعيشة، وكثيرة الخير، وذات نسل. ولفظ الأتان والأتانة من الإتيان وهو مباشرة الأنثى. وقيل من مات حماره في الحلم فقد مالَه. وهذا التبادل النفسي بين الحالم وقوى الطبيعة والكائنات فيها يضفي معانٍ وقيماً على الأحلام، ويسقط الناس هذه المعاني والقيم من بعد على الحياة.

وقد تلهم الأحلام الدواء، وتستحدث الشفاء، وهكذا كان حلم أيوب في قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرابٌ﴾ (ص: ٤٢)، وقد تستحدث الإيمان والتحوّل من ديانة إلى ديانة مثلما حدث مع بولس الرسول (أعمال الرّسل الفصل الرابع كتاب الأناجيل)، وقد تلهم أعمالاً أدبية كبيرة مثل الكوميديا الإلهية Divina Commedia عند دانتي Dante (١٢٥٦ - ١٣٠٧)، وقصيدة كوليردج Coleridge (١٧٧٢ - ١٨٣٤) المشهورة Kubla Khan. ولم يكن فرويد أول من أعطى إسم اللاشعور إلى الروح أو الإله أو الولي، أو الشيطان، أو السلف، المنوط به الأحلام، ونذكر أن إسم اللاشعور بدأ أول مرّة في الفلسفة في القرن التاسع عشر عند هارتمن Hartmann بكتابه: «فلسفة اللاشعور The philosophy of unconscious»، وفرويد ليس صاحب التسمية.

والأحلام فسّرها الإنسان كرسالات إلهية موحى بها، أو كإشراقات روحية وتأثيرات شيطانية، وإنذارات وتحذيرات أو مبشّرات، وفُسِّرت كانعكاسات للتفاعلات النفسية والاجتماعية للمدرَكات؛ وقد تكون رغبات تنفّس عن نفسها، أو تحقّق نفسها، أو تكون محاولات من قِبَل الحالم لسبر أغوار نفسيته واكتشاف أحوالها، وأن يتبصّر مشاكله وحلولها، وقد تعبِّر عن أسلوب كل حالم الذي ارتضاه لنفسه في حياته، أو تكون محاولات من الحالم لحلّ صراعاته، وقد تكون كل ذلك أو بعضه، ولن تتوقف محاولات الذين يحلمون عن تفسيرها مختلف التفسيرات، وسيظل الناس مشغولون بتفسيرها طالما أنها مستمرة

معهم. غير أن الأحلام أنواع، وبعضها بلا معنى Nonsensical d. أو معناه سخيف - الحلم السخيف Absurd d.؛ وبعضها يتصل بشدّة بحياة الحالم Biographical d.؛ وبعضها مصطنع - يعني به تنبيهات خارجية تسببت فيه Artificial d.؛ وبعضها محتواه القلق - حلم القلق Anxiety d.، وضدّه الحلم المعزّي Consolation d. يعني إذا كان حلم القلق عن الموت، فالحلم النقيض هو الذي يطمئن الحالم إلى أنه لن يموت؛ وبعضها يتضمن إعترافات للحالم أو لغيره - حلم الاعتراف Confession d.؛ وقد يتمثل الخصاء في الحلم - حلم الخصاء Castration d.؛ وقد تكثر الأحلام في فترات النقاهة - حلم النقاهة Convalescent d.، وهكذا.

والأطفال يحلمون كما يحلم الكبار، والطفل يحلم لينفّس عن نفسه ما يعانيه ويكابده، ويصب في الأحلام آماله ومخاوفه. والحلم يعكس إحباطات الطفل وفشله وعداواته، غير أنه للفارق في التركيب النفسي عند الطفل والتركيب النفسي عند البالغ، فإن أحلام الطفل فيها المباشرة والبساطة والوضوح. وتكثر أحلام الأطفال في الريف عنهم في المدن، وتتأثر أحلامهم بظروفهم المعيشية وأحوالهم العائلية والاجتماعية والصحية، وخبراتهم اليومية، وذكائهم، وأعمارهم، وبناء شخصياتهم، ويتعذر على المعالج رصد أحلام الطفل لعدم درايته وقلّة خبرته وضآلة محصوله اللغوي. ويميل الطفل إلى أن يسقط من روايته للحلم ما لم يفهمه منه، وما لم يحبّه فيه، وقد تختلط عليه أحداث الحلم بالخيال والشطحات، ومع ذلك أمكن رصد الكثير من أحلام الأطفال عقب اليقظة مباشرة، والكثير من حركاتهم وكلامهم أثناء النوم وخلال الحلم. وأحلام الأطفال الذين يعانون الفقر أو العوز المادي أكثر من أحلام غيرهم ممن يعيشون في بحبوحة. كما إن الأطفال الذين ينامون في سرير وحدهم يحلمون أقل من الأطفال الذين يتشاركون في سرير واحد. وتختلف موضوعات أحلام الأطفال بحسب انتماءاتهم الطبقية، فالأطفال الفقراء يحلمون بامتلاك الأشياء التي تعوزهم، وتكثر أحلامهم في

الأعياد والمناسبات حيث تكون الهدايا لغيرهم ويُحرم منها الأطفال الفقراء.

ومعظم أحلام الأطفال عن حوادث اليوم السابق، والرغبات التي تَحرُم عليهم أو يتعذر تحقيقها، وما يعاني الأطفال في ذلك اليوم من عقاب أو إحباط. والحلم يعوّض الطفل عما فاته، ويشفي غليله في الانتقام، فإذا كان قد أهين فهو يردّ الإهانة، وإن كان قد حُرم إحدى الألعاب فهو يلعب بها حتى يشبع. ويتأثر الطفل الذي يقرأ قبل النوم بما قرأ، وما قرأه كأنه حوادث جرت له يحلم بها، ويتقمّص شخصية بطل القصة أو من يشاء من شخوصها الأخرى التي يتعاطف معها ويرى نفسه فيها.

والطفل الصحيح البنية يحلم أقل من الطفل المعتل، والصحة والمرض يوثران في السلوك سواء في اليقظة أو في النوم. وإذا مرض الطفل وزادت درجة حرارته كثرت أحلامه. ومع التغيّر الكمي للأحلام يكون التغيّر الكيفي أيضاً، فتصبح الأحلام أوضح، ولها طبيعة عصبية. وقد يحلم الطفل بالموت، وتتنوع صور الموت في أحلامه، فإذا شفي الطفل من مرضه، وهبطت درجة حرارته، قلّت أحلامه بعد الكثرة، واختلفت طبيعتها. ولوحظ أن الأطفال إذا أصابتهم الأنفلونزا تكون أحلامهم من نوع الكوابيس، وتكون لهم هلوسات في اليقظة.

ويرتبط الذكاء بكثرة الأحلام، وكلما زاد ذكاء الطفل كثرت أحلامه، وإذا زاد الذكاء عن المتوسط فقد لوحظ أن أحلام الأطفال تتّجه إلى كائنات خرافية، وكثيراً ما يحلمون بالسقوط من حالق، وبالتواجد في أماكن عالية، ويلتقون بالأغراب. وأما الأطفال متوسطو الذكاء فأحلامهم عن الواقع كما هو، فإذا قلّت أعمارهم عن المتوسط إتجهوا إلى معاودة رؤية ما شاهدوا من أفلام سينمائية أو ما جرى لهم من نوادر طريفة، وما سمعوه من حكايات ونوادر. والأطفال الجانحون أكثر أحلاماً من الأطفال الأسوياء، وكذلك الأطفال الذين تُطلّق أمهاتهم وينفصلون عن أحد أبويهم، ويعانون كثيراً من الانفصال عن أخواتهم وإخوتهم وأجدادهم. وفي إصلاحيات الأحداث لوحظت كثرة أحلام

الأطفال، وحالة الأرق المزمن التي يمكن أن تلازمهم. وإذا انتقل الطفل من بلد إلى بلد وتغيّر أصدقاؤه والمحيط المدرسي، كثرت أحلامه، وبعد أن يموت أحد أقاربه تزيد عنده الأحلام.

وتتغير طبيعة الأحلام عند الأطفال مع تغيّر أعمارهم، وتتضح أحلام الطفل مع نضوجه العاطفي، والأطفال الصغار أشد تأثراً بالحيوانات في محيطهم، وحتى الأليف منها فإن الصور الحلمية عنها لا تكون مبهجة، وقد يرى الطفل الناس من عائلته أو المتعاملين معه في شكل حيوانات من البيئة، وإذا سمع أمه مثلاً تصف الخادم بأنه حمار فقد يراه في الحلم في شكل حمار لا غير. والطفل عموماً يغالي في تقدير عقاب المحيطين به له، فالكلمة من أحدهم قد يراها في الحلم صرخة، وقد يرى أباه الذي يكثر من عقابه مرّة في صورة كلب متوحش، ومرّة في هيئة قط مخيف، وإذا سمع حكاية عن الغول أو العفاريت، فقد يرى الأب أو المعلم أو المربية أو حتى الأم، أو الأخ، في صورة الغول أو العفريت كما قيل له في وصفه.

والطفل بعد الخامسة تتحول أحلامه عن الناس إلى نفسه وإلى المحيط الذي يعيش فيه. وهو لا يرى نفسه بطلاً للحلم ولكنه يكون كالمتفرج يراقب ويشاهد، ولذلك فأحلام الأطفال بعد الخامسة ليست أحلام حركة ولكنها أحلام مشاهد، ومعظمها أحلام مثيرة للخوف، عن العفاريت، والغيلان، واللصوص، والعصابات، والكلاب الضالة، والقطط المؤذية.

ومع بلوغ الثامنة أو نحوها، حتى ما بعد البلوغ، فإن الكوابيس Nightmares تكثر، وتدور أحلامهم حول الهرب والمطاردة، والعجز، والهلع، واليأس.

والنوم منه المُرَمَّش REM sleep أي الذي ترمش فيه الجفون، ومنه النوم غير المُرَمَّش non-REM sleep أو العميق Deep sleep. ويخبر الأطفال فترات النوم المرمش أقل في المراحل الأولى من النوم، ويكثر هذا النوم بعد الخمس ساعات الأولى، وعندئذ تكون الأحلام أكثر بعد هذه الساعات، وتأتي الكوابيس وهم نيام على الجنب، ومعظم الخوف الذي يظهره الأطفال هو خوف لم يخبروه

فعلاً، ولكنهم استلهموه مما قيل لهم من قصص، أو قرأوا عنه، أو شاهدوه في الأفلام.

والأحلام قبل العاشرة أحلام عن المحيط الخارجي، وبعد العاشرة تكون الأحلام عن موضوعات من داخلهم.

والبنات يحلمن أقل من الصِّبيان، لأن خبراتهن بالحياة محدودة، والمحيط الذي تجري حياتهن فيه ضيق، فإذا كان البلوغ Puberty فهنا الطامة الكبرى، فإن قدوم البلوغ له أبلغ الأثر في البنت عنه في الصبي، وتكثر الأحلام لذلك في سن البلوغ عند البنات أكثر من الصِّبيان، وتكون لها طبيعة فسيولوجية بسبب دم الحيض Menses الذي ينزل على البنت كل شهر، ثم تصبح لها طبيعة جنسية مع زيادة الرغبات الجنسية قوة وإلحاحاً. وتكثر عند البنات أحلام الغيرة، وأحلام سندريللا Cinderella's dreams والرغبة في الظهور، والأحلام الرومانسية وامتلاك الملابس والملابس من نوع أحلام مدام بوڤاري.

وأحلام الأطفال بحسب شخصياتهم، فالطفل العدواني أحلامه عدوانية، والطفل القلق أحلامه فيها القلق، وقد يبول الطفل أثناء النوم لتخلف نضجه العاطفي عن عمره الزمني، أو لمخاوف يعانيها، ولقصور في الشخصية. وكذلك يؤثر العمى والصمم على أحلام الأطفال، والطفل الأصم يحلم أحلاماً كلها بصرية وتخلو من الأصوات، وخاصة إذا كان صممه منذ الولادة. ولا يميل الطفل الذي أصيب بالعمى قبل سن الخامسة إلى الأحلام كثيراً، فإذا كان العمر به بعد سن السابعة فإنه يرى في أحلامه كالمبصر تماماً. وأحلام الأعمى أحلام تمنّي، ويحلم بأن يتحرك في حرية، وأن يرى أشخاص بيئته، فإذا خاف أو زال عنه الشعور بالزمان فإنه يحلم بالنار، وهي أخوف ما يخافه الطفل الأعمى. وحركة الطفل الأعمى في الحلم محدودة وأقل من الطفل المبصر، والحركة في أحلام الطفل الأصم معدومة.

وأحلام البنات عموماً أقل حركة من أحلام الصِّبيان، والخوف هو السمة الغالبة على الطفل الجانح والطفل اليتيم، والفروق الجنسية بين الأطفال تستتبع

فروقاً في موضوعات الأحلام وكثرتها، وأكثر أحلام البنات أنهن مطاردات.ويتأثر الصِّبيان بالأحلام أكثر. والبنات أدق في سرد أحلامهن، ويصفن شخوص أحلامهن بحذق. وتحلم البنات أكثر بالهدايا والأطعمة والسفر والزيارات والملاهي والضيافة، ويمارسن الثرثرة في أحلامهن. وأحلام الصِّبيان عن الشجاعة والبطولة، الصِّبيان يخشون في أحلامهم الحيوانات كبيرة الحجم كالحصان والثور، وأما البنات فينتابهن الرعب من الحيوانات صغيرة الحجم كالفئران والثعابين والعناكب والقطط.

والاختلاف بين الذكور والإناث الكبار في الأحلام كثيرة، والنساء أحلامهن عاطفية، وفيها الحزن والشجن، وقد يكون فيها اغتصاب، وأكثرها عن أماني، وأقلها عن مشاكلهن اليومية، وتدور حول نفسها. ويحلم الرجال أحلاماً جنسية، ومنها أحلام إمناء، ويدفع إليها التهيج، وقد يضاجع الذكر من لا يعرف من الإناث في الحلم، وذلك عكس التي لا تجعل الرجل الذي لا تعرفه يقربها، والأنثى عموماً لا تحلم بمواقعة الرجل إلا إذا كانت شديدة الحب له، وقلما يحلم الرجل المتزوج حلماً جنسياً، بعكس المرأة المتزوجة التي تعاني من الحرمان الجنسي أو الإجداب العاطفي في حياتها. وقد يواقع الذكور الحيوانات في الحلم ولا تفعل الإناث ذلك، ولا يحلمن جنسياً في الحيض. والمرأة تحتلم كالرجل، إلا أن الذكور أكثر احتلاماً من الإناث. والفروق بين النساء في الاحتلام بسبب السن، وكلما زاد تعليم الذكر كلما تهيّأ أكثر للاحتلام على عكس الأنثى. وللتدين علاقة بذلك. والأحلام عموماً صورة لثقافة صاحبها، وبوسعنا من خلفية الحلم وأحداثه أن نلمَّ بالمستوى الثقافي للحالم، وتأتي الأحلام الجنسية متوافقة مع نمط الشخصية.

ولتفسير الحلم يقتضي أن يُسأل صاحبه فيه، والأفضل أن لا يكون حلماً واحداً وإنما عدّة أحلام، ليقارن بينها فتُعرَف التماثلات والمتغايرات فيها، ويُربَط بينها، ويساعد ذلك كثيراً في تفسيرها حتى أن بعض الأحلام تُسمَّى

من سهولة تفسيرها أحلاماً مكشوفة Bareface dreams. وما من شيء في الحلم إلا وللحالم يد فيه وهدف، والحالم هو الذي يؤلف حلمه، وهو المسؤول عنه، وقد يحلم الحالم بشخص واحد في عدد من الأدوار، وبتركيب ذلك على بعضه البعض يظهر نسق الحلم والصورة الحلمية للدافع الموضوعي لهذا الشخص. والحلم كلٌّ عضوي فلا يجوز أن نعزل جزئية منه عن السياق ونفسّرها وحدها.

ولولا أن هناك أفكاراً كامنة في الأحلام لما كانت الرموز، وتفسير هذه الرموز له مدرستان، إحداهما تقول بالتفسير المادي الرمزي، حيث الرموز لها معان ثابتة، كرمز الثعبان فقد يتّصل في الحلم بمعناه المؤذي، وصفته المكر والخداع؛ أو بالتفسير الوظيفي وهو كشف ما يؤدّيه الثعبان من دور في الحلم بصرف النظر عن أذاه. ومن تفسيرات المدلول الرمزي المادي أن الغمر في الماء في الحلم قد يشير إلى الحمل والولادة، والعدوى بالحشرات ربما تشير إلى الإخصاب، وقد تشير المجوهرات إلى أعضاء المرأة الجنسية. ومن التفسير الوظيفي أن يحلم حالم بأمه كبقرة، لأن أمه تهتم بغذائه وتمدّه كالبقرة بالحليب، ولو طلبنا من فنان مثل بيكاسو (الرسّام الاسباني الأشهر صاحب المدرسة التكعيبية) أن يصور أماً فربما لن تجد أبلغ من أن يصورها كبقرة، والعبارة البليغة في الأدب تقابلها الصورة البليغة في التصوير، والحلم تصويري ولغة الأحلام التصويرية إختزالية عقلية. ولتفسير هذه الرموز قد نسأل فيها الحالم ونتركه لانطباعاته عنها، ويسمون ذلك منهج التداعي الحر Free association method في التفسير. وقد تكون صور الحلم إدراكية حسيّة تهتم بالشكل، وقد تكون عقلية تستقي وجودها من الذهن والأفكار.

والأحلام أنواع، منها أحلام العنف، والقتل نادر في الأحلام، وكذلك السرقة، ويتفاوت العنف بحسب الأعمار والذكاء ونمط الشخصية وثقافة الحالم، والأحلام صور تجسّد مشاهد وشخصيات وأحداثاً، وما نحلم به كأننا نخبره في الواقع، فإذا كان شراً

فقد نستشعر الذنب، وإذا كان خيراً رضيت نفوسنا. وتتمثل في الأحلام أنواع من الصراعات الأخلاقية، وأكثر ما يكون ذلك عند الذكور، وأما الإناث فأحلامهن أكثر واقعية، وأغلب مشاعر الذنب عند الذكور عن الجنس والعدوان. وهناك أحلام مدارها مظاهر الصراع على الدور الجنسي، فالمرأة قد تعاني أنها تريد أن تكون لها حقوق الرجال، والرجل قد يعاني أن تهضم حقوقه فيبدو كالإناث، وتكشف الأحلام هذا الصراع - صراع الأدوار الجنسية Gender conflict، أو صراع إزدواج الجنسية Bisexuality conflict. وهذه المعلومات التي يمكن أن يزودنا بها الحلم هي التي جعلته وسيلة من وسائل تشخيص الشخصية، والأحلام إسقاطات لكل ديناميات الشخص الباطنة، وتستخدم الأحلام بعض الحيل لإخفاء وجه الحقيقة فيها، ومن ذلك أن تكثف الأحداث ليعمى عنها الحالم.

والأحلام منها النمطي Typical أي التي نعرفها جميعاً ولنا بها خبرة، كأحلام العري Nackedness dreams، وهو العري الذي لا يعيره أحد إلتفاتاً أثناء الحلم، ومع ذلك فإن الحالم يرتبك، وهو تناقض يلفت الانتباه، ولولا ذلك لما كان للحلم معنى. وتعكس أحلام العري رغبات من الطفولة عندما كنا نمشي عرايا ويلذ لنا ذلك. وكذلك أحلام موت الأحباب Dreams-of-the-beloved-persons، ويثيرنا منها أنها لا تقترن بالحزن، وذلك دليل على أنها ليست عن موت حقيقي ولكنه أمنية أن يموت الذي حلمنا به. وأحلام الامتحان Examination-dreams، وأحلام الطيران Aviation ds.، وأحلام السقوط، والحفاء، وسقوط الأسنان، وسقوط الشعر، وأحلام النار، والولادة، والحمل، والسقط، والميلاد، والرضاعة، والحيض، كل ذلك من نوع الأحلام النمطية. وهناك أنواع أخرى كثيرة من الأحلام، يهمنا منها الكابوس وأحلام اليقظة. فأما الكابوس Nightmare فهو الحلم المفزع المتكرر، والصور فيه تكون واضحة جلية، ويأتي الكابوس الأصحاء والمرضى النفسيين على السواء، والطفل قد يرى في الكابوس

حيوانات يخافها، ويسهل تذكر الكوابيس، وتأتي البنات والنساء أكثر من الفتيات والرجال، وهي ليست أحلاماً جنسية، وأسبابها غالباً جسمية كالتخمة وامتلاء المعدة وما ينشأ من ذلك عن ضغط على الحجاب الحاجز وإعاقة الدورة الدموية للقلب والرئتين، وقد تستحدثها منبهات خارجية، فقد تتعرى القدم خلال النوم فيحلم النائم بأنه يغوص في البحر، وكانوا قديماً ينسبون الكوابيس للشيطان.

وأما أحلام اليقظة Waking dreams فالانسحاب فيها بانشغال الفكر وانصرافه تماماً إلى موضوع حلم اليقظة، والحالم في أحلام النوم يتنبه بأن يصحو من نومه، وأما الحالم في أحلام اليقظة فيتنبّه بأن يعود إليه وعيه. وأحلام اليقظة مدارها الحالم نفسه، ومنها أحلام نمطية. ويكشف تحليل الحلم عن ميول انطوائية للحالم، ومنها أحلام ألعاب إيهامية، وللطفل فيها قرين متوهم يلاعبه. ومن أحلام اليقظة أحلام إستعراضية نتصور فيها أنفسنا نقومبأعمال بطولية، وأحلام إنقاذ ننقذ فيها من نحب، وأحلام عظمة نتصرف فيها بخيلاء وكبرياء، وأحلام ولاء نحلم فيها أننا نوالي ونخلص لإنسان ما. وهناك صلة بين أحلام اليقظة والأدب والفن، وقد نشارك الكاتب ونحن نقرأ ونرى أنفسنا في شخصياته. والفن والأدب باعتبارهما خبرة جمالية يشاركان حلم اليقظة في نفس الخبرة الجمالية نفسها. والفنان أو الأديب وهو يرسم أو يكتب يستحضر صوراً لاشعورية ويطرحها بشكل شعوري إنتقائي لا سبيل إليه إلا من خلال أن يحلم بالعمل الفني أو الأدبي. وأغلب الأعمال الأدبية والفنية تأتي على أساس من أحلام اليقظة، ولعل ذلك أحد الفروقات بين الأحلام المناميَّة وأحلام اليقظة، واستمتاعنا بالعمل الفني أو الأدبي ربما لأننا ونحن نقرأه أو نتأمله أو نستمع إليه نعيش التجربة بحواسنا ووجداننا كأننا في حلم يقظة، يتطابق فيه العمل الفني أو الأدبي مع مكونات شخصياتنا وتوجهاتنا. وربما لا يكون النقد الأدبي أو الفني إلا معايشة لحلم يقظة عن هذا العمل الفني أو الأدبي،

بحيث يتوافق فيه مع تطلعاتنا وما نتمناه لأنفسنا ونرغب فيه في حياتنا.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- التحليل النفسي للأحلام: دكتور عبد المنعم الحفني.
- تفسير الأحلام لفرويد: ترجمة دكتور عبد المنعم الحفني.

- The New World of Dreams: R.L. Woods and W.B. Greenhouse. Mcmillan.
- Some Must Watch While Some Must Sleep: W.C. Dement. Freeman.
- Night Life Exploration in Dreaming: Englewood, N.J.: Prentice Hall.
- The Mind in Sleep Psychology and Psychophysiology: Antrobus, J.S. and S.T. Ellman. New York.
- Handbook of Dreams: Van Nostrand Reinhold.

❖ ❖ ❖

- ٤ -
سيكولوجية التخيُّل
Imagination Psychology

التخيُّل والأخيلة وأحلام اليقظة. إستجابة التخيُّل عند الطفل والراشد. اللعب التخيُّلي. التخيّل إستعداد من أبعاد الشخصية. سيكولوجية التخيّل...

❖ ❖ ❖

التخيّلات Fantasies لا تستند إلى الواقع بخلاف الأخيلة التي قوامها الواقع. والتخيّل عملية يلجأ فيها المرء إلى الخيال ولكنه الخيال الجامح أو الشاطح. ويتمثل التخيّل في أحلام اليقظة، والحالم يلجأ إلى التخيّل كنوع من التعبير حيث يفتقد التعبير في الواقع أو يعجز عنه، أو كنوع من تحقيق الرغبة التي لم يتيسر له أن يُشبعها. وقد نستحث التخيّل بأن نطلب من الفرد أن يتخيّل ما يراه في صورة غامضة فيذهب به خياله مذاهب شتى بحسب شخصيته وداخلياته. والوسائل الإسقاطية كاختبار الرورشاخ Rorschach

Inkblots Test، «واختبار تفهم الموضوع TAT» من الوسائل التي تُختبر بها الشخصية، والمفروض أن المفحوص يُسقِط على الصور أو غيرها من محتويات الاختبار ما يدور في نفسه ويكشف عن صراعاته ورغباته وخواطره في الشطحات التي يذهب إليها خياله. وقد نبّه فرانسيس جالتون Galton (١٨٢٢ - ١٩١١) إلى التخيلات باعتبارها من ضروب الخيال، كما أن وليام جيمس James (١٨٤٢ - ١٩١٠) إختصَّها بالتعريف فقال إنها خواطر جامحة. والكثير مما قيل في التخيلات هو من إسهام نظرية التحليل النفسي وسيجموند فرويد نفسه. وهو يقول: إن التخيل كالحلم، كلاهما تنفيس عن مكبوتات ورغبات لم تُشبَع. والشاعر حالم متخيِّل، وأحلامه أحلام يقظة يصوغ بها عوالم من نسجه يضمّنها الرغبات من الطفولة التي لم تتحقق، والتي قد لا يعيها أو لا يعترف بها، فيموّهها على نفسه بأن يجعلها تخيلات شعرية. ومن رأي فرويد أن الإنسان السويّ الذي لا يعاني في حياته لا يحلم أحلام يقظة لأن رغباته كلها مجابة ومحقّقة، وأن التخيلات أو أحلام اليقظة منصرفات للطاقة التي لا تجد منصرفاً لها تحقق به مطالب الشخص، وأنها وسيلة لخفض التوتر. والطفل يصرف معاناته اليومية من خلال اللعب والتخيل. والمتخيل الذي يبتدع هذه الوسيلة لنفسه للتنفيس يستطيع من ثم أن يسيطر على الكثير من عدوانيته وميوله اللاإجتماعية، وهو إذ يحلم أنه بطل يضرب الأعداء ويلحق بهم الهزيمة، أو يحلم بأنه بطل هذا المسلسل التليفزيوني أو الفيلم الكارتوني، يصرف في توهمه أو تخيّله كل عدوانيته، ولولا ذلك لصرفها في أعمال عنف مع زملائه أو جيرانه. ولولا أحلام اليقظة الجنسية لوقعت الكثير من المشاحنات بسبب الجنس، والكثير من حوادث الاغتصاب.

وتفسر نظرية التعلّم إستجابة التخيل تفسيرها للاستجابات المتعلّمة الأخرى، فالطفل الذي يجوع يتخيّل أمه وقد عادت تحمل له الطعام الذي يشتهيه، وتتعلق عينه بالباب، فإذا حضرت الأم تعزّزت إستجابة التخيّل بانتظام عودتها كلما استبدَّ به الجوع أو حاصرته الوحدة،

وهكذا يتعلم الطفل النشاط التخيلي كاستجابة لرغبات مؤجّلة التحقيق أو معاقة التحقيق. والتخيّل في بعض النظريات مهارة معرفية يتدرب عليها الطفل وتُصقَل عنده وتساعده على التوافق من بعد في مواقف مماثلة. ولقد ثبت أن الطفل الأعمى تقل عنده ممارسة التخيّل في الحكايات وما يمكن أن تشتمل عليه من حركة. والتخيّل يُعِدّ الطفل للسيطرة على العالم الخارجي بزيادة استبصاره لعملياته النفسية الداخلية وتنامي قدرته على استدخال خواطره ومشاعره الارتدادية. ويختلف الأطفال فيما بينهم في قدراتهم على التخيّل السمعي أو البصري. واللعب التخيلي Fantasy play كما يقول بياجيه هو ممارسة للتمثّل والتكيّف، ويصبح به التخيّل مهارة كاملة وقدرة على التعامل مع المواقف والظروف والأشخاص وليس مجرد استجابة نمطية وقتية.

ومن رأي البعض أن التخيّل يزكّيه في الطفل تمثّله لأبويه وتخيله لنفسه في أدوارهما. وتثبت اختبارات الرورشاخ أن الأفراد الذين يظهرون قدرة ومهارة أكبر على التخيّل هم الذين تكون لهم بالأبوين علاقات وديّة. وتكثر أحلام اليقظة عند الذكور والإناث على السواء الذين لهم علاقات حميمة بالأم أكثر من الأب، ومن الشائع لجوؤهم إلى التخيّل، وكذلك فإن الأبناء الذين يكونون موضع سر أمهاتهم تزيد عندهم قوّة التخيّل. وقد يزكّي التخيل في الطفل أن يكون راغباً في استرضاء الوالدين ومحاكاتهما في السلوك. وهناك من الشواهد ما يثبت أن الطفل الذي يلعب مع من هم أصغر منه سناً يلجأ إلى تخيّل نفسه في دور الأبوين أو المعلم. وأما الطفل الأصغر فإن اشتراكه في اللعب مع الأطفال الأكبر يحرمه من التخيّل، لأنهم يخطّطون ويرتبون له كل شيء ولا يتركون له مجالاً لإعمال تخيُّله. والطفل الأكبر، وكذلك الطفل الوحيد، يكون لجوؤهما أكثر للتخيّل وكأنهما يدفعان به شعورهما بالوحدة. كما ان الأطفال الذين يسعدهم اللعب الإيهامي يصيبهم الإحباط إذا ما تدخلت ظروف تفسد اللعب، وحينئذ يلجأون إلى أن يقتصر لعبهم الإيهامي على أنفسهم، أو أنهم يحاولون من جديد

تشكيل الفريق من أعضاء لهم تأثير عليهم لينتظم الجميع في اللعب الإيهامي، من أمثال العسكر والحرامية، والبوليس السري، إلخ. ويشجّع الطفل على الاشتراك في اللعب الإيهامي أن يكون وحيداً أو من أسرة تشجّع على القراءة وتأليف القصص، أو أن ينشأ في وسط ثقافي يزكّي الرياضات الذهنية والتخيّل كوسيلة لتصور المشاكل والحلول لها. ويتميز الطفل الذي يكثر من اللجوء إلى التخيّل بثراء الخبرة بسبب دخوله في مواقف متخيّلة متعددة ومتنوعة، وتكثر مفرداته، ويتعاظم فهمه للعلاقات التفاعلية. وهو بتخيلاته يحتمي من الشعور بالفشل ومن ضغوط الحياة. ولا يعني انخراطه في التخيل أنه يهرب من الواقع، ولكنه ينتصر بالتخيّل على الواقع ويتجاوزه، وهو وسيلة إضافية عنده تزيد بها مشاركته لإخوانه في اللعب وإشباعه لحاجاته. وليس هناك ما يثبت أن الاستغراق في التخيل من علامات الذُهان، وليس ما يشكو منه مريض الذُهان هو التخيلات ولكنه الهذاءات. ومريض الذهان على العكس يشكو عجزاً عن التخيّل، وفقراً في تخيلاته إن وُجدت، ونضوباً في حياته النفسية الداخلية. ولا يصاب المشهورون بلجوئهم إلى أحلام اليقظة بالهلاوس، كما أن الشخص الذي يتعامل كثيراً مع التخيلات لا يعاني القلق إذا تواجد وحده، فله من تخيلاته مُعين له على وحدته، وإذا خلت بيئته من المنبهات المثيرة فإن عوالم تخيلاته تسعفه بها، ويُثري الشخص الذي يُنمّي في نفسه القدرة على التخيّل من خلال القراءة والاطلاع واللعب الإيهامي مخزون استجاباته. وقد تزيد كفاءته بذلك على التعامل مع المواقف الجديدة والمتطلبات الاجتماعية المتزايدة. كما أن الشخص الذي يتخيّل نفسه مقدّماً في الموقف قبل دخوله تزيد قدرته على التعامل معه عند اللزوم ويتهيأ له نفسياً. ويبدو أن الرغبة أو الاستعداد للتفكير التخيلي هو بُعدٌ من أبعاد الشخصية يستحق الدراسة. ومن صفات المستغرق في التخيلات أن تثبُت حركة عينيه، وعلى العكس فإن محاولة قطع حبل تخيلاته يتسبب عنده في الرَّمَش وحركة العينين. ولم يُكتَب إلا القليل حول تيار التفكير، والعوامل التي

يمكن أن تؤدّي إلى ترتيب الأولويات في الانتباه، والفروق بين الأفراد في أحلام اليقظة وما يتعلق بها من فروق في الشخصية، والفروق بين الشعوب في التخيلات وتأثير اقتصادياتها على اللجوء إلى أحلام اليقظة عند الأفراد، والمحتويات التي يمكن أن تكون لهذه الأحلام، وهناك ما يُثبت أن أحلام اليقظة تزيد مع الحرمان.

مراجع:

- Atkinson,: Motives in Fantasy.
- Mckellar, P.: Imagination and Thinking.

❖ ❖ ❖

– ٥ –
سيكولوجية الحرية

الحرية السيكولوجية، وحرية الإرادة. الحرية إختيار بين بدائل، وهي نسيج الوجود الإنساني. آدم أول إنسان مارس الحرية. الحرية عند السادي والماسوشي. حرية الفنان والطفل. فردية الذات في الحرية.

❖ ❖ ❖

الحرية Freedom في علم النفس هي «تحرر من Freedom from» القيود والخوف والعوز، وأن يصدر سلوك المرء دون تأثير عليه من خارجه، وهي «حرية لأن Freedom to» يفعل الفرد الحر ما يريد، وأن يختار لنفسه، ويفكر بوحي من نفسه. وحرية الإرادة Free will تقابلها الحتمية أو الجبرية Determinism، وهي القول بأن الحرية مقيّدة، وأن السلوك تحكمه الضوابط والظروف، وأن الإنسان محتوم من داخله وخارجه، وأن لسلوكه محددات في إمكانيات الفرد وقدراته وميوله واتجاهاته، وفي انتماءاته الطبقية والثقافية، وتكوينه البنيوي، وسماته أو خصائصه النفسية والعقلية، وبيئته الطبيعية والاجتماعية. ويذهب أنصار الحرية إلى أن للحرية سيكولوجية، وأن الظروف النفسية والاجتماعية والمادية ليست عبئاً على الحرية، ولا تحددها، لأن هناك باستمرار إختيارات وبدائل على المرء أن يفاضل بينها. والحرية هي الشرط الأساسي لكل موجود فاعل، وليست لها ماهية لأن وجودها يسبق الماهية ويحدّدها، فالحرية تصير

بالأفعال، وهي ليست صفة مضافة أو خاصية من خصائص طبيعة الفرد، وإنما هي نسيج وجود كل إنسان. وإذا كان الإنسان مقدوراً فهو مقدور بالحرية، ولا مناص من أن يكون حراً، ولا فكاك له من الحرية. وقد يُقال هذا حر وذاك عبد، وتلك مغالطة لها ظاهر التعبير عن الواقع، إلا أن الإنسان دائماً هو الإنسان الحر، لأن الحرية هي وجود الإنسان وليست أي وجود آخر. والعبارة «أنت حر» تعني أن لك أن تختار بنفسك، ولكن أن يتحقق إختيارك أو تنجح في نيل ما تريد فهذا شيء آخر بخلاف الحرية، فالنجاح لا يهم الحرية، إلا أنه لما كان الاختيار هو نفسه الفعل، فإن الاختيار يفترض إمكان تحقيقه، وذلك ما يميّزه عن الحلم أو الأمنية.

وتحكي قصة آدم وحواء في الجنة أن آدم عصى ربّه فحكم الله عليهما بالهبوط إلى الأرض، وأن يعاينا الخوف والحاجة والعداء، ومعنى أن آدم وحواء إختارا أن يأكلا من شجرة المعرفة أنهما قاما بأول فعل حر، ومارسا أول اختيار إنساني. والإنسان يَعرِف بالحرية، ويختار عندما يكون حراً، وجوهر الفعل هو الحرية.والمغزى الواضح من القصة أن الإنسان منذ أن خُلِق محكوم عليه بالحرية، أو بتعبير هايدجر Heidegger أنه قد أُلقي به في الحرية. وكان بمقدور آدم أن يذعن فتكون له الجنة خالصة فلا يتعب ولا يحتاج ويعيش في أمان، ولكنه كان نفسَه، وفضّل الحرية، فتقطّعت أسبابه بالجنة. والقصة كلها تلخص حياة الإنسان عموماً، فأولاً إن الإنسان في بداية وجوده كان غريزياً، ولكنه انفك من قيود الغريزة وتصرّف بحرية، واختار سلوكه وارتقى في مدارج الاستقلال، وأصبحت له هوية وفردية. والطفل ثانياً يبدأ معتمداً على أمه، وأسبابه بها عضوية أو بيولوجية، وكلما نما تقطّعت أسبابه البيولوجية بأمه، وتخلّص من سيطرتها النفسية، واستقل بنفسه وأصبح الراشد الواعي الحر. ومع ذلك فسيكولوجية الحرية جدلية، فإذا كان الإنسان قد تحرّر واستقلّ، وصار ذاتاً وله هوية وفردية، فإنه بحريته قد أصبح وحده واغترب عمّن حوله، ووحدته واغترابه يصيبانه بالقلق، وهو يعي الموت لأنه

يواجهه وحده وفي عزلة، وهذه أزمة الحرية التي يعاني منها الإنسان، ومن أجل ذلك قد يلجأ البعض إلى الهرب من الحرية والتحلّل منها، ربما بأن يعهد بحريته لغيره يفكّر له، في مقابل أن يضفي عليه حمايته. والهارب من الحرية إما ماسوشي يعيش معتمداً على آخر، وإما سادي يؤكد ذاته بأن يسيطر على ذوات الآخرين، والماسوشي يستشعر الحرية بالمعنى السلبي، بأن يتخلص من وحدته وعزلته وشعوره بالعجز، بأن ينصاع للآخرين، والسادي يستشعر الحرية سلبياً أيضاً بأنها السيطرة على الآخرين وإخضاعهم، أو استغلالهم، أو أنها تدمير لكل ما يبعث في نفسه الخوف ويشعره بالوحدة ويستشعر منه الخطر. وقد يختار الماسوشي الدور الذي يناط به، وتكون له قيم الناس والشخصية النمطية في المجتمع، وتزول المفارقة بين الأنا عنده والعالم من حوله، أي بأن يتأتمت Automatonized، ويفقد ذاته. والحرية الإيجابية Positive freedom هي التي يعيشها الفرد باعتباره ذاتاً مستقلة، ولكنه ليس معزولاً عن الناس، وفي توحد مع العالم والطبيعة والآخرين. وهو يحقّق ذاته بأن يكون نفسه ويعيش فكره ويعبّر عن وجداناته، وكل فرد يستطيع ذلك. والحرية الإيجابية هي أن تكون لنا شخصياتنا المتكاملة، وأن نمارس الحياة تلقائياً Spontoneously. وليست التلقائية فعلاً عفوياً صادراً عن الشعور بالعجز وبتأثير الوحدة، وليست الفعل المؤتمت الذي تشايع فيه الآخرين على ما يذهبون، ولكنه النشاط الحر للذات، الصادر عن إرادة حرة، وعن انفعال حقيقي به واقتناع كامل بأدائه. ولعل خير مثال للنشاط التلقائي هو نشاط الفنان ونشاط الطفل، وكلاهما يعايش فكره ومشاعره ويعبّر عن ذاته. ومن خلال التحقّق التلقائي للذات يتوحّد الإنسان من جديد بالعالم والناس والطبيعة ونفسه، والحب هو أعظم ما يؤلف هذا التوحّد، وهو ليس الحب الذي يعني أن يذوب الفرد في الآخر، أو الحب الذي يعني امتلاك الآخر، ولكنه الحب الذي هو تأكيد تلقائي للآخرين. والذي يدمج الفرد في الآخرين. ولعل الصفة الدينامية للحب هي هذه الازدواجية، أنه يصدر عن الحاجة إلى إلغاء التمايز

والتباعد، ويؤدّي إلى الاتحاد والوحدة، ومع ذلك لا يلغي الفردية.

والعمل عنصر آخر من عناصر النشاط التلقائي، وهو ليس العمل الذي تأتيه قسراً وقهراً وهرباً من الوحدة، وليس العمل بمعنى السيطرة على الطبيعة، وليس هو العمل الذي يتضمن الاستعباد والاستغلال، ولكنه العمل بمعنى الإبداع، وأن يخلق الإنسان ويضاهي الطبيعة. وما يصدق على الحب والعمل يصدق على كل النشاط التلقائي، سواء كان تحقيقه لمتعة حسية أو مشاركة في الحياة السياسية، وهو يؤكّد فردية الذات، وفي الوقت نفسه يوحّدها بالإنسان والطبيعة، وبذلك تختفي الثنائية الأساسية الكامنة في الحرية، والتي تشكل أزمتها السيكولوجية وتصنع منها مشكلة نفسية - ثنائية ميلاد الفردية، وآلام الوحدة والعزلة. وفي النشاط التلقائي يحتضن الفرد العالم ولا تظل ذاته كما هي، وإنما تكبر وتمتّن، لأن الذات تكون قوية طالما هي ذات فاعلة، ولا توجد قوة حقيقية في الامتلاك والحيازة والملكية المادية، ولا في الاستغلال والنفوذ والسيطرة والهيمنة، وإنما القوة هي أن تحقق الذات نفسها وأن يكون انتسابها لما تملكه فعلاً، وينتسب لها على الحقيقة، وهو نشاطها الخلاّق المبدع، وهو مضمون الحرية الإيجابية.

مراجع:

- Sartre: L'Existentialisme est un Humanisme.

- Fromm: Fear of Freedhom.

❖ ❖ ❖

- ٦ -
سيكولوجية الخرافة

معنى التفكير الخرافي، والاعتقاد الخرافي، والسلوك الخرافي، ورواجه في مجتمعات دون مجتمعات، وأحوال هذه المجتمعات من العلم والجهل والوفرة والحاجة؛ ومواصفات التفكير الخرافي.

❖ ❖ ❖

التفكير الخرافي Superstitious thinking تفكير غيبي بدائي، مِن خَرِف (بكسر الراء) وخَرُف (بضم الراء) أي فسد عقله من الكِبَر، فهو خَرِف وهي خَرِفة. والاعتقاد الخرافي Superstitious belief إيمانٌ بالخرافات تفسّر به العامة والبسطاء من الناس المبهم والغامض من الأمور، ويلجأون إليه كلما أعوزتهم الحيلة، وكمحاولة للسيطرة على الأمور بطريقة ما. والسلوك الخرافي Superstitious behaviour سلوك ينبني على هذا التفكير وذاك الاعتقاد، ويستهدي بهما. وتذهب المدرسة الاشتراطية الإجرائية عند سكينر Skinner (١٩٤٠) إلى تفسير السلوك الخرافي بأنه من تأثير التدعيم للاستجابات العشوائية، والتزامل الجزافي بين ظهور فعل ما وحدوث عملية التدعيم. ويشبّه سكينر السلوك الخرافي عند الناس بسلوك الحمام الذي يجيعه إلى حد أن يفقد بعض وزنه، ثم يضعه في الصندوق المشهور باسم صندوق سكينر Skinner box، ويطعمه جزافاً بصرف النظر عما يُصدِر من سلوك، وإجاعة الحمام بهذه الطريقة تجعل للطعام عندما يقدم له تأثيراً تدعيمياً فاعلاً على سلوكه. وقد لاحظ سكينر أن الحمام يميل إلى أن يسلك السلوك الذي يصدر منه قبل التدعيم مباشرة، وأنه يكرّر ذلك ولا يمل تكراره. وربط سكينر بين هذا السلوك عند الحمام وسلوك الفلاّح الذي قد يحدث أن يؤدّي طقوساً معينة طلباً لنزول المطر، ويتصادف أن ينزل المطر فعلاً، فيزامل بين طقوسه وبين نزول المطر، ومن ثم يظل يؤدّي هذه الطقوس من بعد كلما أعوزه المطر، وبالطبع فقد يحدث أن ينزل المطر مرة ثانية، وثالثة، وفي كل مرّة يزيد التدعيم.

ويروج التفكير الخرافي في المجتمعات البدائية، وأينما تدنّت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. والسلوك في الريف وعند العمال كثيراً ما يكون أقرب إلى السلوك الخرافي، والفلاحون والعمال أكثر مَنْ يأخذ بهذا المستوى. وللمستوى التعليمي، وكذلك النضج، والسن، علاقة بالاعتقاد الخرافي. والأطفال أكثر أخذاً بالخرافة من البالغين، وكذلك النساء أميل إلى

الخرافة من الرجال، وخاصة فيما يتعلق بالزواج والإنجاب. ويزيد الأخذ بالخرافة وقت الأزمات والنكسات الاقتصادية أو الاجتماعية أو الصحية، وقد يلجأ الناس كلما أعوزتهم الحيلة وأعياهم تلمس الأسباب إلى الدجّالين والمشعوذين والسحرة. وتكون للناس اتجاهات قَدَرية في بعض الظروف أو المجتمعات. وبعض الناس يكون تقبلهم للخرافة عندما يصابون بالنَّهَك النفسي، وشبيه بذلك عملية غسيل المخ Brain-washing التي تُجرَى للبعض باستحداث التهافت النفسي فيسهل التأثير عليهم.

والتفكير الخرافي تفكير إحيائي Animistic، بمعنى أنه يَنسب للأشياء التي لا تحس إحساساً. ويجعل لها أرواحاً وانفعالات، وقد ساد هذا التفكير في فترة غياب الوعي، بتعبير هيجل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) في كتابه: «فينومينولوجية العقل Phenomenology of Mind». وللكاتب يحيى حقي دراسة كلاسيكية ممتعة في التفكير الغيبي الخرافي والسلوك بوحيه وهديه في قصته قنديل أم هاشم، وأم هاشم هي السيدة زينب، وكان مسجدها يُضاء بالقناديل بالزيت، فكان الناس يتداوون من أمراض العين بزيت هذه القناديل تيمناً وبركة، إعتقاداً أن زيت قناديل أم هاشم سيشفيهم ببضع نقاط منه في العين، والنتيجة أن بطلة القصة أصيبت بالعمى. وينسب يحيى حقي هذا التفكير لغياب وعي الأمة كلها، وكذلك فعل هيجل من قبله، وفعل توفيق الحكيم من بعده في كتابه «غياب الوعي». ففي الحضارات كلها، وخاصة القديمة، كانت للأشياء كلها، وللوديان والأنهار والجبال وغيرها من أدوات الطبيعة والاجتماع، أرواح قد تتسلّط على الناس، ومن ذلك تفسير غُلْمة الرجال بأنها لسيطرة الروح ساطور من أرواح الغابات على قدرة الرجال الجنسية وإشباقها، حتى لينسب هذا الاضطراب إلى هذه الروح فيقال إنه Satyriasis من ساطور، ومثل ذلك تفسير غلمة النساء بسيطرة النيمف Nymph من الأرواح الهائمة على الأنثى، فيكون تعطّشها الدائم للجنس الذي لا يرتوي بسبب تلبّس النيمف بها، ومن ثم كان إسم الاضطراب Nymphomania. وكانوا قديماً وما يزالون

في المجتمعات المختلفة، يفسّرون الاضطرابات النفسية بتلبّس الشياطين والأرواح الشريرة لأجسام المرضى. ويقرب سلوك المريض بالوسواس القهري من السلوك الخرافي، ويكثر لذلك التطيّر والتشاؤم والتفاؤل. وكان العرب يعتقدون في الطيّرة وزَجْر الطير، ويتيمنون بالسانح وهو الطير يأتي من ناحية اليمين، ويتشاءمون بالبارح، وهو الذي يأتي من ناحية الشمال، ويتطيّرون أيضاً بصوت الغراب ويتأوّلونه البَيْن، ولذا كانوا يسمون الغراب: غراب البَيْن. وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة. وهكذا الظباء إذا مضت سانحة أو بارحة. وتطيّر الناس بالوجوه وتفاءلوا بالحَسَن منها وتشاءموا بالقبيح. ونهى الإسلام عن التطيّر والتشاؤم والتفكير الخرافي بعامة، وقال النبيّ (ﷺ): «الطيّرة شِرْك»، وحسم ذلك الأمر تماماً فأمر المسلمين إذا سمع أحدهم مقالة من مقالات الخرافة أن يقول: «اللهمَّ لا طير إلا طيرُك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك»، ثم يمضي لحاجته، وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿ألا إنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ الله﴾ (الأعراف: ١٣١)، وهو نفيٌّ تام، ونهيٌّ قاطع عن التفكير الخرافي، وكذلك الاعتقاد في الحسد والسحر. وبعض المرضى بالهُذاء Psychosis يذهبون إلى تفسير أعراضهم العضوية المتوهمة إلى تأثير السحر ويتّقون العين. والخرافة لغوياً - كما سبق - من الخَرَف، وفي الطب النفسي هو فساد العقل نتيجة الشيخوخة، أو عند الإصابة ببعض الاضطرابات العضوية أو النفسية. وفي خرف الشيخوخة تكون التفسيرات الشاطحة والهلاوس والجنون إلى الخرافة، أي الشطح والتفكير غير المنطقي واللاعقلي.

ويبدو أنَّ من الممكن أن يكون هناك نمط خرافي من الشخصية Superstitious type of personality، حيث قد تبيَّن أن السلوك الخرافي يمكن أن يتحصّل عند بعض المتعلمين تحصُّله للجهلة. ولكثير من عظماء التاريخ وكبار المبتدعين أفكار خرافية هي مصدر تحيّر لكتّاب سيرتهم وللمحللين النفسيين. وصاحب الشخصية الخرافية إستهوائي، يميل إلى

التشاؤم ولا يشعر بالرضا، ويغلب عليه الحزن والتوتر الانفعالي ويعاني من الصراعات، ويميل سلوكه إلى أن يكون خرافياً في أحوال حتى ليمكن أن يؤثّر عليه دجّال أو مشعوذ، أو يسيطر على تفكيره أيٌّ من أهله أو أصدقائه، ويوجهه أحياناً إلى ما لا يقبل أن يأتيه في ظروفه العادية، ومن ذلك ماكبث وزوجته وتصديقهما للساحرات في رائعة شكسبير الخالدة. وفرويد نفسه كانت به هذه الهنة وكان يأخذ بتفسيرات زوجته ومعظمها خرافات، سواء عن الناس، أو عن صيدلية البيت. وكان الدكتور يوسف إدريس من أصحاب النمط الخرافي من الشخصية، وكذلك توفيق الحكيم. وثبت من علم الباراسيكولوجي Parapsychology أو سيكولوجية الغيبات أن الاتصال بالأرواح شأنه شأن التنويم المغنطيسي هو من عمل الإيحاء Suggestion، وكذلك الاتصال بالجان، وقراءة الكف والفنجان وضرب الودع والرمل، وقراءة الطالع في البلورة، والتخاطر Telepathy، والاتصال عن بعد Communication at a distance، والتنجيم، كل ذلك من الخرافة، والأخذ به من التفكير الخرافي، وأساسه العلمي الإيحاء، وثبت أن الآخذين به والعاملين بمقتضاه من الشخصيات الاستهوائية Suggestible. والإيحاء عملية عقلية تنتهي بقبول غير فاحص ولا ناقد - لأفكار تنشأ في العقل ولا أساس لها من الواقع، ومنه الإيحاء الذاتي Auto-s.، وهو أن يوحي الشخص لنفسه ويقنع نفسه ويساير هواه، ومنه الإيحاء الغيري Hetero-s.، وهو التأثير في الآخرين من غير أوامر ولا نواه. وفي الطب النفسي يقال إن هذا الشخص أو ذاك خاضع للإيحاء، عندما تكون لديه فكرة أو يتبنى اعتقاداً، أو ينزع إلى التصرف بلا روية، ودون أن يقيم وزناً لكون الفكرة أو الاعتقاد أو الميل لها أصولها في الواقع الحقيقي. وعرّف بيير جانيه Janet الإيحاء بأنه إيعاز يدفع صاحبه إلى التفكير في شيء أو فعله بدلاً من التحقّق منه (Méditations Psychologiques). وفي تجارب دراسات الإدراك لما هو خارج الحواس أو ما هو فوق حسّي Extra-sensory perception التي قام بها راين Rhine نحو سنة ١٩٢٧،

وتعرف أيضاً باسم تجارب جامعة ديوك Duke University experiments لم يثبت أن التفكير في الأرواح أو الاتصال بها، أو بالجان، له شيء من الواقع، وإنما كانت جميعها تخمينات، وتصدر عن نفوس ضعيفة ومريضة، ولم يكن يؤمن به ويصرّ عليه إلا المرضى العقليون خصوصاً الذين كانت لهم إستجابات هذاء. ومن المعتاد أن يعتقد المريض بالصورة البارانوية من الفصام أن الآخرين على بُعد أميال منه، لا يقرأون أفكاره فقط وإنما يتحكمون فيها بكاملها، وهي الظاهرة التي يطلق عليها البعض إسم قراءة الأفكار Mind-reading، وتبادل الأفكار عن بعد Thought-exchange at a distance، وانتقال الأفكار Thought-transference. ويبدو أن فرويد لم ينكر تماماً في كتابه: «سايكوباثولوجية الحياة اليومية» التفكير الخرافي، ولا نذُر النحس Bad Omens، ولا أحلام التنبؤات، أو خبرات التخاطر، أو الاتصال بالأرواح وبالجان، بينما كان مكدوجال يؤمن بها وينسب خبراتها لشخصيات تحت شعورية لها قوى نفسية خاصة.

(أنظر أيضاً سيكولوجية السحر والحسد).

مراجع:

- Johoda, G.: The Psychology of Superstition.

❖ ❖ ❖

- ٧ -
سيكولوجية السحر

التفكير السحري نقيض التفكير العلمي. السحر والخرافة. أنواع السحر. رواج السحر عند الأطفال والمرضى النفسيين. الشخصية الاستهوائية والاتجاه الغيبي.

❖ ❖ ❖

يصدر السحر Magic عن إعتقاد خرافي Superstitious belief بإمكان التأثير في الطبيعة والأحداث والأشخاص عن طريق استخدام كلمات معينة Magical use of language وإتيان طقوس

خاصة. إذن فالتفكير السحري -Magico pensée phénoméniste ، أو Magical thinking تفكير خرافي Superstitious thinking. والسحر منه الأبيض .White m الذي ينشد تحقيق الخير، ومنه الأسود .Black m الذي لا يتحصَّل منه إلا الشر. وهناك السحر بالمحاكاة .Imitative m بأن يقلّد الساحر الشخص المعني المراد السحر له، وقد يقيم تمثالاً على شكله أو يخط رسوماً على منوال هذا الشيء أو ذاك المقصود التأثير فيه. وهناك أيضاً السحر العاطف .Sympathetic m الذي يقوم على فكرة أن الأشياء والكلمات لها روح، وأن من الممكن أن نجتزئ من الأشياء بعضها فتكون لها بَرَكة تحل بمن يحملها، كأن نقتني التمائم أو التعاويذ، أو خصلاً من الشعر، أو بعضاً من الملابس أو المقتنيات، فيمكن أن تكون لنا معيناً في المواقف التي نحتاج فيها إلى التأييد والتعضيد. ولذلك قيل إن التفكير السحري يخلط الواقع بالرمز، فالذي يصنع دُمية باعتبارها شخصاً ما ثم يحرقها أو يفقأ عينيها وينفث فيها ويُعزّم عليها، ويرسم حولها الدوائر، إنما يصنع ذلك باعتبار أن ما قد يقع للرمز سيحدث حتماً للواقع. والتفكير السحري تفكير يحسب به صاحبه أنه قادر، وهو لذلك يرادف التفكير مطلق القدرة Omnipotent thinking، فمجرد الرغبة والتركيز عليها والنطق ببعض كلمات، يعني عند صاحب هذا التفكير إمكان تحققها وتغيير مجريات الأمور، مثل الدجّالين الذين يعالجون بكلمات مثل بو-ووو Pow-wow، أو أن يقولوا: حابس حابس، إلخ وذلك من غرائب المصطلحات والكلمات والأصوات. ويروج هذا التفكير عند الأطفال خصوصاً، وعند المرضى بالفُصام، والطبقات الاجتماعية المتخلفة، والمجتمعات البدائية. والطفل الصغير قد يحسب أن مجرد تفكيره في الشيء قد يصنعه، وأنه بمجرد أن يغمض عينيه ويرغب بشدّة فإن رغبته ستتحقق. ويذهب أهل التحليل النفسي إلى أن هذا التصوّر يتحصّل للأطفال مما يستشعرونه من القوّة والقدرة عندما يحركون أعضاءهم في مراحل العمر الباكرة. وقد يلجأ الراشد الواعي إلى التفكير السحري كتعبير عن الرغبة

الجامحة والعجز المبين، وعندئذ يتوهم أنه قد أصبح له كل شيء وهو يحلم أحلامه النهارية التي نطلق عليها إسم أحلام اليقظة Waking dreams. وحتى الأحلام العادية هي ضرب من التمنّي الذي يصدر عن التفكير السحري، وهي طريقة بدائية وقديمة تخلّفت فينا وصارت جزءاً من طبيعتنا ويأتيها البدائيون في رسوماتهم. ولغة التفكير السحري لغة غير منطقية، وما يزال بنا بعضها، وذلك أننا عندما نلعن أعداءنا فإنما نكرّر ما يفعله البدائي، حيث كان يعتقد أن مجرد إلصاق اللعن باسمه يستجلب عليه الشر أو الموت. وينكص المريض بالعُصاب الوسواسي القهري أو بالفُصام إلى هذا التفكير السحري، ويحسب أنه بتكرار طقوس معيّنة أو كلمات قد يطرد عنه النحس، أو يغيّر من الأحداث، أو يكفّر عن السيئات، أو يسترضي الإله. والطقوس القهرية Compulsive rituals تصدر عن أفكار سحرية على المستوى اللاشعوري، والبعض قد يبصق مثلاً كلما ذُكر أمامه إسم مَنْ لا يحبّه، وذلك من تأثير التفكير السحري بأن مجرد البصق مصحوباً باسم العدو قد يحقّره ويدفع به إلى دَرْكات السوء والشر. ويذهب المريض بالفُصام إلى إتيان حركات غريبة، كأن يبقى في مكانه ساكناً لا يتحرك بالساعات، والمعنى الرمزي لذلك أن المريض يتمنّى لو ينتهي العالم ويتلاشى ويتوقف عن الحركة، ويحسب أنه لو سكن لسكن العالم أيضاً بسكونه. وبعض المرضى بالفُصام يظنون أنهم يستطيعون أن يستحدثوا الموت لمن يتمنون له الموت بمجرد أن يفكّروا أنه ميت. وحتى عندما يبدو أن المريض بالفُصام لا يفكّر في شيء، فإن تفكيره يكون مشغولاً عما حوله بتصور الأشياء وكأنها تحقّقت بفعل ساحر، فقد يحسب مثلاً أنه يخوض معركة حياة أو موت بالنسبة للبشرية، وتسوس له نفسه أنه سيحسمها بتفكيره. ويختلف التفكير الوسواسي عن التفكير الفُصامي من حيث أن الأول أكثر معقولية من الثاني.

والاعتقاد في السحر وتأثيره ربما يكون ألصق بالشخصيات العُصابية Neurotic، وربما يكون من سمات

الشخصية القاصرة Inadequate التي تعاني من عدم الكفاءة وتُغالي في إظهار الاعتمادية، وتلجأ لذلك إلى التفكير السحري كتعبير عن العجز. وقيل إن السحر يكثر في البيئة التي ترتبط بالفقر والجهل، وإن الساحر فيها يعتمد على الإيحاء Suggestion، ويقصد بسحره إلى الشخصيات الاستهوائية Suggestible personalities. وربما لا يكون تأثير السحر كنتيجة لتدخل القوى الغيبية، وإنما كنتيجة للإيمان به عند البعض، بحيث يعدّلون هم أنفسهم من سلوكهم، فيكون به صلاح أحوالهم. فالمريض الذي يشكو مرضاً نفسياً قد يفيده الإيحاء، وكذلك قد يتوهم التلميذ الذي يستعين بالسحر أنه قادر على النجاح فيذاكر، وقد تصدّق الزوجة ما يقوله لها الساحر فتعدّل من سلوكها، ويكون بذلك توافقها مع زوجها وأسرتها.

وكانت للسحر قديماً وظيفة إجتماعية حيث ييسر الصيد والقنص ويساعد في الحروب. وكان شيوخ القبائل يستعينون بالسحرة ليمكّنوا لهم عند شعوبهم. وارتباط السحر بالقوى الغيبية يجعله يرتبط بالدين، وقد يحذّرنا الدين منه، وقد يذكره كحقيقة، وقد ينقض وجوده. فإن حذّرنا منه: فلأن السحر تفكير خرافي، والتفكير الخرافي ضد الدين؛ وإن ذكرناه كحقيقة: فلأن السحر واقع يمارسه البعض في حياتنا. وفي القرآن أن السحر علمٌ يعلمه ويتعلمه أهله، ومن ذلك مقالة فرعون عن موسى: ﴿إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَليمٌ﴾ (الشعراء: ٣٤)، أي لديه علم بالسحر، وقوله عن موسى أيضاً: ﴿إنَّ لَكَبيرُكُمُ الّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ (طه: ٧١)، زيادة في وصفه بالعلم عن السحر، ويقول القرآن عن سحرة بابل: ﴿يُعَلِّمونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (البقرة: ١٠٢)؛ وإن نَقَض الدين السحر: فلأنه ليس علماً على الحقيقة، لأنه يقوم على الخداع البصري Optical illusion، وأبطله القرآن فقال عن سحرة فرعون وأفعالهم: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إنَّ اللّه سَيُبْطِلُهُ﴾ (يونس: ٨١)، وقال: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرونَ﴾ (يونس: ٧٧)، وقال: ﴿يُخَيَّلُ إلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾ (طه: ٦٦)، فالسِّحر في الإسلام هو مجرد تخيُّلات Phantasies، والتخيُّلات كما قلنا

خداعات بصرية وأوهام، والسحر وصفه القرآن فقال: ﴿سِحْرٌ مُفْتَرىً﴾ (القصص: ٣٦)، وقال: ﴿إنَّ الله سَيُبْطِلُهُ﴾ (يونس: ٨١)؛ والعين من السحر وتدرج ضمن ما يسمى التأثير عن بُعد، وكذلك الحسد، ولا يعني التعوّذ من العين والحسد أن لهما مفعولاً مثل مفعول السحر، وكذلك الوقب في الغسق، والنفث في العقد، والوسوسة، فجميع ذلك مفعولها لا يفلح، فليس التعوّذ منها في القرآن لأن لها نتائج، وإنما التعوّذ من شرّية النفس التي تفعل ذلك، لأنها نفس شريرة. ولو كان بالمستطاع التأثير في المصائر بأي من ذلك، أو الاستعانة بالجن، لكان الاعتقاد فيه من باب الشِرْك الخفيّ، وهو الإقرار بأن هؤلاء الأشرار لهم سلطات إستثنائية غير عادية ليست لأحد سوى الله، وحتى الجن قال الله في رئيسهم إبليس: ﴿إنَّ عِبَادِي لَيْس لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: ٤٢)؛ والاعتقاد بأيّ من ذلك هو إذن من باب الأخذ بالتفكير الخرافي الذي لا يجوز لأيٍّ منا، غير أن منا من يغلب عليه الاتجاه الغيبي فيؤمن بالسحر، ومنا من يغلب عليه الاتجاه النقدي فيرفض السحر وإن كان مؤمناً بالدين. وفي عصر العلم الذي نعيشه فإن العلم قد حلّ محل السحر، ومع ذلك فإنه قد يحدث عندما يعجز العلم عن تفسير ظاهرة، أن نسكت إزاء المطروح، لتفسيرها بالخرافة ومنها السحر. وقد ننسب القدرة المطلقة والعلم بالغيب لله وحده، ونقول مع القائلين إن السحرة وإن صدقوا أحياناً فإنما ذلك بمحض الصدفة. ونميل لذلك إلى ردّ الاعتقاد في السحر إلى التعلّم الإشراطي الإجزائي، فحينما يحدث بالصدفة أن تتحقق رغبة ونكون قد قلنا كلاماً أو أتينا بحركات، فقد نربط بين حدوث الاثنين معاً، ونميل إلى تكرار ذلك كلما أردنا النتيجة نفسها. وقد يحدث أن تتحقق النتيجة مرّة ومرّات فيكون لهذا التدعيم أثره في الاعتقاد في سحر الكلمات أو الحركات.

ومن قبيل السحر الاعتقاد بأن الاستحواذ على أجزاء من حيوان أو أكْلِها قد تقوي الأجزاء المماثلة لها في الانسان، إعتماداً على مفهوم التماثل بين الأجزاء، وذلك ما يسمونه السحر

بالتماثل .Homeopathic m، ويقوم على دعوى أن المماثلة أو المجاورة مُعدية، ومن ذلك أطلقوا على هذه الظاهرة أيضاً إسم السحر المُعدي .Contagious m.

(أنظر سيكولوجية الخرافة).

مراجع:
- Otto Rank: The Idea of the Holy.
- Levi Strauss: Structural Anthropology.
- Frazer: The Golden Bough.

❖ ❖ ❖

– ٨ –
سيكولوجية خط اليد

الدلالات النفسية لخط اليد. الخط والشخصية. تحليل الخط ومحلل الخطوط. علم الخط. إختلاف الخط عند الإناث والذكور. مقاييس الخط. الهوامش في الخط. الأسلوب والتنقيط والتناسق. مورفولوجيا الخط. الشخصية الخطيّة. الخبير النفسي للخطوط. أنواع الخطوط وتزويرها. الخطوط والكلام والحالات الشعورية..

❖ ❖ ❖

لخط اليد Handwrinting دلالته النفسية، وهو سلوك نتعلمه، إلا أننا نكيّفه لمقتضى ما نكون عليه من تركيب بنيوي عظمي وعضلي، بحيث نكتب بالطريقة التي تيسرها الجلسة التي تريحنا، والتي عليها نملك ناصية القلم والورق. والخط يُظهر ما نكون عليه من صحة نفسية تشتمل على صحة البدن والنفس والعقل، فالصحيح البدن يأتي خطه مناسباً، بعكس الذي يعاني من اضطرابات صحية، فإن خطه يظهر فيه ما يعاني. والخط لذلك مظهر للشخصية. وسلوك تعبيري Expressive Behavior يسجل حركة الشخصية في الزمان والمكان، إلا أنه يجمّد هذه الحركة في الحروف والكلمات. وبرغم أن الخط يتطور تطور الشخصية، وله مراحل عُمرية في الطفولة والشباب والكهولة، إلا أن للخط شخصية يحتفظ بها دائماً.

وتقوم دراسة الخطوط Graphology على دعوى أن الحركات التعبيرية هي أهم ما يميّز الشخصية، لأنها تعكس قدرة الفرد على التجاوب الحركي السريع والتلقائي للتنبيه الداخلي والخارجي، في

محاولة للتكيّف مع مقتضيات المواقف والبيئة. وخط اليد في التعريف هو التجسيم الحرفي لرسائل المخ إلى اليد عبر الأعصاب، والأصابع هي الأجزاء الطرفية الأخيرة من الجسم التي بها يتحقّق طرح رسائل المخ على الورق. والخط تسجيل للفكر وتعبير عن الذات. والصور النمطية الخطية مكانها المخ وليس اليد، ولذلك فإن قطع اليد واستبدال أصابع اليد بأصابع القدم لا يؤثّر بعد التدريب اللازم في شكل الخط، ويأتي توقيع الشخص بأصابع قدمه مطابقاً لتوقيعه الذي كان بأصابع يده. وخط اليد لذلك وسيلة تشخيص علمية لشخصية الكاتب وحالته النفسية وقت الكتابة، وهو وسيلة تشخيص تحاول أن تكشف عن مضمون الشخصية ككل وليس مجرد سمات معينة. وعلم الخط دعوى عريضة، وأما تحليل الخط Handwrinting analysis فهو بحق وسيلة علمية للتشخيص النفسي، ومحلل الخطوط Graphologist هو شخص مدرّب على استكناه السمات النفسية، وله دراية بالطب النفسي وعلم الأعصاب. وقد قيل إنه من المستحيل أن يتشابه اثنان في خط اليد. ومهمة محلل الخطوط أن يكتشف ما يعبّر عنه الخط، ووسيلته في ذلك مرآة مكبّرة، ومَسْطرة، ويعتمد على الحدس أو الإدراك فوق الحسي، أي قراءة المعنى الكلي الذي يتجاوز التفاصيل. وفي تاريخ التحليل النفسي للخطوط كانت هناك دعوة تُعنَى بالتفاصيل، وتهتم بكل حرف والشكل الذي هو عليه، والطريقة التي يكتب بها، وسُمّيت مكوّنات الخط: عناصره Elements، أو إشاراته الثابتة Fixed signs (مدرسة الراهب ميكون Michon في فرنسا نحو سنة ١٨٣٠). وكانت هناك كذلك دعوة عكسية عند أحد تلاميذ ميكون ويُدعى كربيو جامن Crepieux Jamin تقرأ المظهر الكلي للخط وتستشف منه سمات الكاتب. وتُشبه هذه الطريقة الكلية Holistic طريقة الجشطلت Gestalt، في حين أن الطريقة الأولى التي تهتم بالحروف هي طرقة ذرية Atomistic.

وميكون هو الذي له فضل تسمية علم الخط، وكان غالبية الباحثين في الخطوط في القرن التاسع عشر من

الفرنسيين، بينما سيطر المفكرون الألمان على تحليل الخط في القرن العشرين، ومن هؤلاء فيهلم بريير Preyer، وهو الذي نبّه إلى أن الخط تعبير عن العمليات النفسية، وأنه ليس عملية بدنية وإنما هو جهد عقلي ويكشف عن تكوين العقل، ولذا أطلق على الخط سنة ١٨٩٥ إسم Brain-writing، أي خط العقل أو الذهن، بدلاً من خط اليد Hand-writing. واستخدم جورج مبير الخط للكشف عن الاضطرابات الانفعالية، بدعوى أن الانفعالات تعبّر عن نفسها من خلال الميكانيزمات النفسية الحركية، وأن هناك لذلك صلة قوية بين الخط والحركة والانفعال، وأن محلل الخط يحتاج إلى علم جديد، أو علم سمات خطية Physiognomy of handwriting كعلم السمات العامة، وذلك ما توفر عليه فعلاً لودفيج كلاجز Klages فهو الذي وضع أصول تحليل خط اليد، وجمع بين علم الخط Graphology وعلم السمات Chracterology. وأجرى كريبلين Kraepelin (١٨٥٦ - ١٩٢٦) وجماعة قياسات للضغط أثناء الكتابة، وللسرعة في الكتابة عند الأسوياء والمضطربين عقلياً، وقال إن تحليل خط اليد لا ينبغي أن يكون من عمل الأطباء ولكنه عمل النفسانيين، وقد تسبّب ما قاله في قطيعة بين البحث في الخطوط وعلم الخط، لولا أن عالم الأعصاب رودلف بوفال Pophal (نحو سنة ١٩٢٠) دعا إلى دراسة مظاهر التوتر في الخطوط، وصنّف أنماط الشخصية بحسب أنماط السلوك الحركي كما تنعكس في أنماط حركة اليد أثناء الكتابة. وقد تطورت بحوث تحليل خط اليد في العشرينات بفضل ماكس بولفر Pulver الذي نبّه إلى دلالة المسافات الخالية بين الكلمات، واستخدم في تفسيراته لها مفاهيم التحليل النفسي، وهو الذي قابل بين الطول والعرض والضغط Pressure الذي للحروف. واخترع جولدزيخر - رومان Goldzieher - Roman جهاز Graphodyne لرصد الضغط والسرعة لحركة الكتابة. وتتابعت بحوث دوني Downey، وله كتاب: «Graphology and the Psychology of Handwriting» (١٩١٩)، وأولبورت Allport، وفيرنون Vernon، وسوديك

Saudek، ولوينسون Lewinson، وزوبين Zupin، وولفسن Wolfson، بغاية الكشف عن العلاقة بين دينامية الشخصية ودينامية خط اليد. واختبارات خط اليد تكشف عن تنظيم الشخصية وانضباطها وإمكان ملاءمة بعض الأعمال أو المهن لها. ومن الممكن أن نكتشف توجهات الكاتب ونعلم عن مكوناته النفسية من الطريقة التي يكتب بها والتي تكون عليها حروف كتاباته، فالخط المائل بخلاف الخط الواقف، والميل في الخط إلى اليمين بعكس الميل إلى اليسار، وربما كان الميلان إلى اليمين يعني أن شخصية الكاتب من النوع المنبسط الودود، بينما قد يعني مَيَلان الخط إلى اليسار أن الكاتب يميل إلى أن تكون له أفكاره الخاصة وحياته التي تكون بمنأى عن الكثيرين، وربما كان هذا الشخص من النوع المنطوي. وأما الخط الواقف الذي لا يميل يميناً ولا يساراً، فهو دليل انضباط صاحبه عاطفياً وتحكّمه في انفعالاته، وربما كان يعني أن يغلّب تفكيره على مشاعره.

والبحوث في الخطوط مع أنها قديمة قدم التاريخ وفيها وجهات نظر فلسفية من أيام اليونان والرومان ومصر القديمة وسومر، ووجهات نظر صينية ويابانية، إلا أن التجريب في ميدان الخط وارتباطه بعلم النفس والتحليل النفسي كان حديثاً. ومع انه قد ورد عن الخطوط وعلاقتها بالشخصية عند الإغريقي أرسطو Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ق.م)، والروماني سويتونيوس Suetonius (٦٩ - ١٤٠م)، فإن أول مؤلّف فيها كان كتاب Ideographia، كتبه في بولونيا من إيطاليا كاميليو بالدو Baldo في القرن السابع عشر، وبدأ الاهتمام بالخط يقوى، واهتم به وبتحليله شعراء وكتّاب وفنانون، مثل: جوته، وبلزاك، وديكنز. وتكثر البحوث في خطوط المرضى بالاضطرابات النفسية والعقلية والجانحين، وفي الفروق بين خطوط الذكور وخطوط الإناث، ومدى تأثير الاتجاهات الذكورية أو الأنثوية، أو ما يسمى بتقمّص الدور الجنسي Gendre على توجيه الخط. وقيل إنه في الخطوط تتمايز عدّة عوامل، منها بخلاف الميلان Slope الذي سبق ذكره، الشكل من حيث أن الخط يمكن أن يأتي على شكل تقليدي

لا تجديد فيه، أو يكون خطأً مَدرسياً، والأول يعكس شخصية تقليدية تابعة للكاتب، والثاني هو تعبير عن اتجاه إنضباطي عند الكاتب يكون فيه تابعاً أيضاً ومقلداً، إلا أنه يقلد أفضل ما عند الآخرين. وهناك أيضاً الشكل الزخرفي للخط فيرسمه صاحبه رسماً ويفخّم شكل الحروف، وأمثاله يميلون إلى المبالغة، ودعاواهم كثيرة، وخيالهم خصب، بخلاف الخط البدائي المتخلف الذي لا جمال فيه ولا أصالة ولا تقليد، فتتنافر حروفه من النوع الواحد كالألف مثلاً، فمرّة تكون قصيرة، ومرّة طويلة، ومرّة مستقيمة، ومرّة ملتوية على نفسها، وتختلط الحروف المتشابهة كالتاء والثاء. وبخلاف الشكل هناك من الحروف ما له ذيل كالميم أو الياء في نهاية الكلام، أو ما ينتهي بقفلة كالتاء المربوطة أو الهاء. ولكل من هذه الحروف بأشكالها تلك دلالات نفسية من حيث أن تطويل الألف مثلاً قد يعني اتجاهات مثالية عند الكاتب، وقد تعني القفلات الكبيرة للهاء أو التاء المربوطة أن الكاتب له شطحات خيالية، فإذا كان يكتب الهاء في وسط الكلام بحيث تكون مدببة وتنزل كثيراً عن السطر فقد يكون ذلك لأنه يميل إلى التأمل وله طبيعة رومنسيَّة.

ومقاييس الخط الأخرى هي الضغط Pressure الذي يأتيه الكاتب على الحروف وهو يكتب. ومن الناس من يميلون إلى أن يضغطوا بقوّة على القلم وكأنهم يعتدون على الورق، أو يتخيلون أنفسهم بصدد سلوك عدواني، ومنهم من تأتي كتابته كاللمس الرفيق فلا يكاد يبين، وهؤلاء يفصحون عن طبيعة رقيقة.

وحجم الكتابة من مقاييس الخط، فهناك خطوط منمنمة حتى لا تكاد تُقرأ، وأصحابها من النوع المذعور الذي يخاف الناس وأن يُظهر ما بنفسه، وله حياته الخاصة التي لا يحب أن يشاركه فيها أحد، ومن الصعب التواصل معه. وهناك خطوط كبيرة تكون عادة لأناس منبسطين يحبون الوضوح، وكما نقول ما في قلوبهم على ألسنتهم، وفي حالتنا هذه من دراستنا للخطوط فإن ما تنطوي عليه قلوبهم تسرع أسنّة أقلامهم إلى الإعلان عنه، وذلك نوع سطحي من الناس يجب أن يكون له الأصدقاء يجمعهم حوله

ويسعد بهم. وأما الخط الذي يتوسط الطريقين فصاحبه متوسط أيضاً في كل شيء، ويحب من الأمور أوسطها، وهو عملي ومادي، ويمكن مصادقته، ولكننا لا نتوقع منه الكثير.

والخطوط تتمايز كذلك بالهوامش، فإذا كان الكاتب ينحو إلى الكتابة في وسط الصفحة تاركاً هوامش كثيرة من الجانبين فهو غالباً فنان له ميول جمالية، ويحب الاتساع والانطلاق، وأن يظهر ما يكتب على خلفية واضحة بحيث تصنع ألوان الأحبار تضاداً مع بياض الورق، وتعطي المساحة الخالية شعوراً بالارتياح. وأما إذا كان الكاتب يكتب دون أن يترك هوامش ويستغل مساحة الورقة استغلالاً كاملاً، فإن ذلك قد يعني أنه اقتصادي، أو قد يدل على شحّ وبُخل، وأنه يخلو من الذوق ولا يميل إلى النظام والتناسق، ولا بدّ أن تكون كتابته هذه متمشية مع أسلوبه في الحياة، وتعكس الاضطراب في ملبسه، وبُعده عن الذوق، وتقتيره الشديد.

وتقاس الخطوط أيضاً بإمكانية قراءتها، فالبعض متعذر قراءته، ويتميّز برداءة مسرفة، وربما كان ذلك لسرعة الكاتب نتيجة التفجّر العنيف لأفكاره، وسيولة هذه الأفكار، ودفقها السريع حتى أنه لا يستطيع أن يلاحقها بقلمه، وربما تشابكت الكلمات لهذا السبب، وربما جاء خطه رديئاً لأنه لا يتمهل عند الحروف ليعطيها حقها، وإنما ينساب بها قلمه انسياباً فلا تبين لهذا السبب. وقد تكون رداءة الخط نتيجة إهمال وكسل من شأنهما ألا يجعلا الكاتب يحسن الخط، ويكتب كيفما اتفق، لأن أفكاره أيضاً تأتي كيفما اتفق. وأما الخط المقروء الواضح فصاحبه غالباً مفكّر منضبط، دقيق في تعبيراته، وفي حروفه أيضاً، ويحب أن يكون واضحاً في كليهما، وأن يفهمه الناس.

والتنقيط Punctuation من مقاييس الخط. ويهمل بعض الناس أو يتكاسلون عن وضع النقط فوق أو تحت الحروف. وذلك دليل على عزوف عن التفاصيل، وربما لم يكن بصاحب الخط الذي ينقصه التنقيط ميل إلى التفكير المنظم، فينجو إلى أن يخلص إلى النتائج بسرعة، ويقوم بما يناط به من

أعمال في تعجّل وعدم اتقان. وربما يكون هذا الشخص بحيث لا يُعتمد عليه كثيراً، ولا يؤتمن بالمهام الكبيرة التي تتطلب دقّة وحُسن أداء. وعلى عكس ذلك تماماً الشخص الذي يحفل كثيراً بكتابة النقط، وتوضيح الفروق بين النقطة والنقطتين والثلاث نقاط التي تتطلبها بعض الحروف، وذلك دليل على عناية بالتدقيق، واهتمام بتحديد المطلوبات، وقُدرة على القيام بها وأدائها على ما هو مشروط لها أو متفق عليه بشأنها.

والتناسق مطلوب في الخط، وهناك حروف تتشابه في الشكل والحجم، وحروف مفتوحة، وحروف مغلقة، وحروف تكون عليها شَرْطة أو تتصالب الشرطة عليها، أو تميل يميناً. والشخص المنظم تتناسق حروفه المتشابهة بحيث يكون خطه في الورقة كلها متميزاً بهذا النظام الذي يريح العين ويعكس تنظيماً نفسياً لصاحب الخط. وبعض الخطوط تبدأ كبيرة وتنتهي صغيرة، فتكون بداية الكلمة ذات حجم لا يتناسق مع حروف النهاية، وصاحب هذا الخط يميل إلى الغموض، ولا يبوح بما في نفسه، ويُقبل على ما يكتب برغبة وقلب مفتوح، ولكنه يصدمك لأنك لن تخرج مما كتب بما يرضي فضولك أو طموحك. وعلى عكس ذلك الشخص الذي يبدأ الكلمة بحروف صغيرة ولكنها تنتهي بحروف كبيرة، فإن ما يطرحه عليك من أفكار يوضحه دائماً ما يأتي من عبارات بعد كل عبارة سبقت، وهو عادة إنسان لديه ما يقوله ولا يضن به على الناس، ويحب أن يفسّر نفسه وأن يفهمه الآخرون.

والأسلوب في الخط يُقصَد به أن تكون الحروف مستديرة أو أن تكون قائمة وحادة، فحتى الألف يمكن أن تكتب مستديرة، والكتابة المستديرة تعني أن الكاتب له طبيعة سهلة، وغير مدقق، ويحب أن يعيد نفسه، وأن يسهب في الشرح، وأن يصدقه الناس. وأما إن كانت الحروف قائمة وحادة، فذلك قد يدل على نشاط الكاتب، وهمّته، وطموحه، وقدرته على إنهاء الأعمال وتشطيبها.

وما بين الكلمات من مسافات هو من مقاييس الخط، وله دلالته النفسية ويفصح عن اتجاهات الكاتب الذهنية، فإذا كان يميل إلى الكتابة بحيث يترك

مسافات منتظمة بين الكلمات، فإنه إنسان منطقي له بصيرة وأحكامه سليمة، وإن كانت المسافات غير منتظمة فهو غير منطقي، وأحكامه متهافتة، وإن كانت كتابته مضطربة بحيث قد تتقارب الكلمات بشدّة حتى ليركب بعضها البعض، فذلك يعكس اضطراب التفكير. وإن كانت الصفحة تزدحم بالكلمات فذلك لأن الكاتب لديه زَخَم من الأفكار غير المرتبة، والتي لم يمحّصها، فينعكس دفقها المتلاحق على خطٍّ يعكس هذا التلاحق حتى لتكاد تنعدم الفواصل بين الكلمات.

والسرعة من الدلالات النفسية للخط، وهي صدى للسمات الشخصية للكاتب، والخط المتسرّع دليل على سطحية في التفكير، فإن كانت السرعة في الكتابة مع وضوح في الخط فإن ذلك يعني أن الكاتب لا تهمه التفاصيل، ولا يتوقف عندها، ويحرص على الكليات، وأن يجمّل نفسه في عدّة عبارات متعجلة، وإن ترافقت السرعة مع ترك النقط والشُّرَط، وعدم إعطاء الحروف حقّها من الكمال، فربما كان ذلك دليل الإهمال، وربما كان ذلك لأن صاحب الخط خيالي، تتطلب قراءة خطه أن يفكر القارئ كثيراً ليتبين صواب الكلمات، فهو يكتب عن اعتقاد منه بأن الناس تستطيع أن تعرف ما يقصد إليه حتى وإن لم يُفصح. وربما كان تركه للنُّقَط والشُّرَط، وتداخل الحروف، لأن الكاتب واثق من نفسه ويطلب من الآخرين أن يجهدوا ليقرأوه، والبعض قد يُغرَم بالغموض إذا تحدث ليقال إنه غير مفهوم، أو ليبدو أنه أكبر عقلاً وفكراً من سامعيه، وكذلك عندما يكتب فإنه يفعل الشيء نفسه.

والكتابة على السطر من أصول الخط، فإذا التزم الكاتب بالسطور فإنه إنسان ملتزم ومستقيم في عمله وصادق في قوله، وإنْ مال أن يصعد فوق السطر كلما توغل في الكتابة، فهو غالباً لا يحب الانضباط، ويميل إلى الخيال، وله طموحات، وقد تتجاوز به طموحاته أن يتغاضى عن القوانين أحياناً. وأما إن كان يكتب بحيث يميل إلى النزول عن السطر، فذلك لأن به ميولاً إلى أن ينفذ إلى قلب الأشياء، وأن يحلل ما يقال له، وهو متشكّك ولذلك يسأل كثيراً ويتحرّى،

وغالباً ما يصل إلى نتائج لا تسرّه، وهو يتوقع السوء لهذا السبب، ويكتب وهو غير مطمئن، وتفضح كتابته النازلة ميوله. وبعض الناس يستهويهم الجدل النازل، ويبدأون بالتعليمات وينتهون إلى التفاصيل، وبعضهم إتجاههم في التفكير نحو الجدل الصاعد، فيبدأون بالتفاصيل ويخلصون منها إلى التعميمات، والأولون دأبهم غالباً أن تنحو كتابتهم إلى النزول عن السطور، بينما الآخرون يميلون إلى الصعود على السطور.

ومن كل ما سبق فقد يمكن اعتبار تحليل الخطوط Graphic analysis إختباراً كاختبار رورشاخ مثلاً، يمكن به تحليل الشخصيات ومعرفة اتجاهاتها، مثله في ذلك مثل تحليل الأحلام، وإن كان ذلك على نطاق أضيق. والبعض يقول بأنه من الممكن الاحتفاظ بملف لخط التلميذ أو المريض، لبيان تدرجه نحو النضج أو نحو الشفاء (Graphopathology)، والتنبؤ مقدماً بأي انحراف قد يستمر أو يستفحل إن لم يعالَج في الوقت المناسب. ولكل شخص فرديته الخطية Graphic individuality، وربما قد تفيدنا كثيراً الدراسات على خطوط العظماء، وعلى توقيعاتهم، فنعلم مدى تأثير سمات الشخصية في رسوم الخط، وكأن هذه الرسوم تشابه رسوم الاختبارات التي تعتمد على الرسوم أيضاً وإن اختلفت في الموضوع.

وفحص الخطوط لتحقيق تزويرها أو صدقها تعهد به المحاكم لخبير نفسي في الخطوط، وذلك من مجالات علم النفس القانوني والطب الشرعي، ويتضمن فحصاً ظاهراً ميكانيكياً للخط (مورفولوجي) ينصب على شكل الكتابة، وتعارج الحروف، والوصلات بينها، واحتمالات التعديل فيها أو كشطها، وفحصاً خطياً نفسياً (جرافولوجي) لاستيضاح الصلة النفسية بين الحركة الخطية وطباع صاحبها، وحالته الانفعالية وقت الكتابة. وهذا الفحص يتبين منه جنس الكاتب إن كان أنثى أم ذكراً، وعمره إن كان طفلاً، أم شاباً، أم شيخاً طاعناً في السن، وخصائصه الانفعالية والعاطفية، وهذه المميزات قد تكشف عن صاحب الخط، وترشد كذلك إلى بعض خصائص الموجّه إليه هذا

الخط إن كان رسالة مثلاً. والفحص الثالث والأخير هو الفحص النفسي الخالص، الذي يتعدّى ظاهر الكتابة إلى مضمونها النفسي ومحتواها الفكري Graphopsychology، لجلاء طبائع وميول وعادات وعواطف وأفكار صاحب الخط، والتوصّل فيما بعد إلى البتّ فيما إذا كان هذا الخط هو خطّه أم لا، بمضاهاة ما نخلص إليه من الخط من تصور لشخصية صاحبه بما نعرفه من خصائص الشخص نفسه.

والشخصية الخطية حقيقة ثابتة يقرّرها العلم، وقد تأكّد مثلاً أن الشخص الذي تُبتر ذراعاه ويُضطر أن يتدرب ليكتب بفمه أو بإحدى قدميه فإنه بنهاية التدريب يأتي خطه على الطريقة نفسها والشكل اللذين كانا له من قبل أن تُبتر ذراعاه.

وكذلك أجرى ثلاثة من العلماء عدّة تجارب على الخطوط تحت تأثير التنويم، فكانوا يطلبون من الأشخاص موضوع التجربة أن يتصوّروا أنفسهم في شخصيات معيّنة وأن يكتبوا من ثمّ رسالة أو أمراً ما، فكان كل شخص يكتب بخط مختلف بحسب الشخصية التي يتقمّصها. إذن فالخطوط تتباين تباين الشخصيات، وهي مرآة للشخصية وتعكس خصائصها.

ويذهب عمل الخبير النفسي للخطوط إلى فحص المستند الخطي لملاحظة ما يتواتر فيه من خصائص حركية، كأن تكون هناك جرّات معينة طويلة أو قصيرة، وحروف ضخمة أو صغيرة، لأن ذلك يأتيه كل منا بالعادة ويألفه ويصبح منهجاً له. ونحن نضخّم الحروف أو نصغّرها بحسب الحالة النفسية التي نكون عليها، وبحسب خصائص الشخصية، ومن ثم فقد يكون الشخص منطلقاً فتكون حروفه كبيرة، وقد يكون مدققاً موسوساً فتكون حروفه كالمنمنمة.

ويذهب بعض العلماء إلى تقسيم الخطوط بحسب نوعية الشعور، ونوعية الفكر، ونوعية الإرادة: فمن جهة نوعية الشعور فالعاطفي الذي له مشاعر رقيقة يكتب بميل؛ والانفعالي يكتب على عدّة أوضاع ولا وحدة بينها؛ والهادئ لكتابته وضع واحد؛ والحزين المنقبض وضع

خطّه نازل؛ والمبتهج المنشرح المتفائل وضعه صاعد؛ والرقيق وضعه دائري؛ والقاسي الجاف يكتب بوضع له زاوية؛ وكتابة البارد عديم الإحساس بوضع رأسي؛ والحسّاس المرهف بوضع مدبَّب؛ والبخيل بوضع متقارب متزاحم؛ والكريم بوضع رحب متسع؛ والشكّاك، وكذلك المتصنّع، بوضع مرتدّ على نفسه؛ والمزهوّ بوضع مرتفع؛ ومن جهة نوعية الفكر: تتميز كتابة المثقف بالبساطة؛ وكتابة متوسط الذكاء بانطلاقات غير متحفظة وغير أنيقة؛ وكتابة الخيالي بانطلاقات واسعة الشُقّة؛ وكتابة المفكر المتأنّي بتدقيق وعناية بالحروف؛ وكتابة الإنسان الواضح التفكير بخطوط منضبطة؛ ومن جهة نوعية الإرادة: تتميز كتابة قوى الإرادة بجرأتها الثابتة التي تتجلى في استقامة عصا الألف واللام والكاف إلخ؛ وكتابة ضعيف الإرادة بجرّات ضعيفة لها نهايات مدببة؛ وكتابة المهمل أو الغافل بإسقاط أجزاء من الحروف وإغفال النقط والهمزات.

وهناك اختلافات كثيرة في مجال تفسير الخطوط وتحليل الشخصية من خلالها، غير أنه برغم هذه الاختلافات فإنه كان هناك اتفاق فيما يخصّ خط البخيل، حيث انعقد الإجماع على خصائص لهذا الخط تعكس خصائص الشخصية. وكتابة البخيل تتلاصق كلماتها ويكثر عدد الكلمات في السطر الواحد، وربما لأن البخيل حريص على أن لا يستهلك ورقاً وحبراً، في حين أن الكريم يفخّم الكلمات ويكبّر الحروف حتى لتمتلئ الصفحة بعدد قليل من الكلمات، وتشير نهايات الحروف على سعة كمن يبسط يده بالعطاء والبذل.

ومن المسائل التي اختلف العلماء حولها أن بعضهم ذكر أن العبقري خارق الذكاء: كتابته جميلة واضحة، وحروفه فيه قوّة وبساطة، وخطوطه لها خصائصها المتميزة التي لا تتكرر مع غيره. واستشهد هذا الصنف من العلماء بكتابات للموسيقيين المبدعين كفاجنر وبيتهوفن. وقال بعض العلماء إن العبقري على العكس لا يحرص على الخط الجيد ولكنه يتعجل الكتابة، لأنه يريد أن يطرح أفكاره المتلاحقة. ولأنه يفكّر بسرعة فإن الكتابة تواكب انطلاقة التفكير، فلا يحفل

إن كانت رسومها رديئة أو متقنة طالما أنها ترصد أفكاره، ولذلك تأتي كتابته كالاختزال صعبة القراءة. وكان خط نابليون رديئاً، وكذلك العالم لمبروزو، والفيلسوف سارتر، والكاتب المسرحي برنارد شو، والكاتب أنيس منصور، علاوة على أنه لا يضع النقط إطلاقاً.

وعلى أي الأحوال فإن الخط يعكس فعلاً طريقة التفكير، ومن ذلك أن يكون تفكيراً مضطرباً مهوشاً كما عند المرضى بهوس الكتابة Graphomania، والمعروف أن كتابة المجانين مضطربة كاضطراب كلامهم، ويمكن أن يكتبوا الصفحات والصفحات يومياً، وهذا هو الإسهال الكتابي Graphorrea، وفي مثل هذه الأحوال يسوء الخط جداً ويعكس الاضطراب في الفكر وهو من أعراض المرض. وقد يأتي الخط يعكس تفكيراً منضبطاً منظماً كما عند العقلاء. وحتى العباقرة قد يأتي تفكيرهم فيه الانضباط أو الاضطراب وإن كانوا شديدي الذكاء، والتمايز في الخط موجود بين العباقرة وجوده بين غير العباقرة.

وتزوير الخطوط كالتزوير في الرسم والتحف الأثرية، عمل قد يتقنه البعض، إلا أن اكتشافه يسير على الخبير النفسي في الخطوط. والخطّاط المقلّد أو المزوّر قد يستخدم الشفّ ثم التحبير، وقد يستخدم الملاحظة المدقّقة وقدرة ذاكرته على رصد الصورة الخطية ومميزاتها، ثم استحضارها وقت الكتابة فتطاوعها أصابعه وتنساب بها في سهولة. ويُكشف أمره كمقلّد ومزوّر أن يكون المستند المطلوب تقليده أو تزويره طويلاً فعندئذ لا يقوى المقلّد أو المزوّر على أن يستمر في انتحال الخط، لأن خصائصه هو تغلبه على نفسه في النهاية، وتفضحه كمقلد أو مزور. وربما كان لعنصر التعب النفسي دخل في تخلّيه عن حذره وحرصه، فتنطلق أصابعه بحكم العادة تكتب حرفاً هنا أو هناك لا يمت بصلة للحرف المماثل في المستند الأصلي، وخاصة في الحركات الانسيابية النهائية التي ختم بها، والتي يكون بها التوقيع، وهو عادة يأتي بلا تكلّف من جانب صاحب الخط الأصلي غير المشتغل ذهنه بتقليد غيره، فالحرص على التقليد وانشغال الذهن به يمنع انسياب التوقيع

ويفضح المزور. ومهما كانت مهارة المقلد وحرصه على انسيابية التوقيع، وانسيابية الخط عموماً، فإن تقليده يكون آلياً لا انسيابياً، ولا بد أن يُخطئ عَرَضاً وبغير وعي منه، لنهجِه هو في الكتابة وليس لنهج صاحب الخط الأصلي، فيكون خطؤه بمثابة الثغرة التي يمكن من خلالها اكتشاف التقليد.

ومن الممكن تحديد العمر من الخط، فالتغيرات التي تطرأ على الجسم تظهر في الخط، والتلاميذ مثلاً في الصف الواحد قد تتشابه خطوطهم بالنظر إلى عدم نضجهم، وبالتالي عدم نضج خطوطهم، وأيضاً قد تتشابه خطوطهم لأنهم في بداية سِني الدراسة يلتزمون البطء في الكتابة، وتتعثر بها أقلامهم، ومع الزمن والنضج تنطلق أيديهم بسرعة، وتنضج خصائصهم الكتابية، ويفترقون عن بعضهم البعض. ولقد لوحظ أن الكاتب الذي تستلزم مهنته الكتابة تكون له انسيابية خط لا يتمتع بها من لا تستلزم مهنته الكتابة، ومع التدريب والكتابة المستمرة عند الكاتب تنعكس خصائص شخصيته على خطه، أما من لا تستلزم مهنته الكتابة فإنه يتوقف عند حدود ما تعلمه منها، وتظهر كتابته على الصورة التي تعلمها، وتكون خطوطه كُتبية، أي مأخوذة من تعاليم الخط والكُتُب التي تعلمها. ومن ثم نجد تلاميذ مدرسة الخطوط تتشابه خطوطهم لأنهم ما يزالون في مرحلة التقليد، ويتخرجون من المدرسة وخطوطهم متشابهة لالتزامهم بحرفية ما تعلموا، بل إن خطوطهم لتتشابه وخطوط من سبقوهم وتخرجوا قبلهم ومن سيتخرجون بعدهم. وأما إذا أتيح لأحدهم التمرّس العملي بالكتابة واستمرار ذلك، فإن خطّه يكتسب ذاتية مميّزة لم تكن له من قبل.

ونلاحظ أن الأميين الذين لم يتعلموا الكتابة ولا يعرفون سوى رسم التوقيع بأسمائهم فإن توقيعهم يأتي مقلقلاً لم يصقل ككتابة الأطفال، ولا يمكن أن نحلل منه شخصية صاحبه. وكتابة الأميّ كالنبش، أو توصف بأنها كنبش الفراخ، بالنظر إلى أن الحروف تكون صغيرة ولا تأخذ حقّها في الرسم، ولا تتسم بالاتساق وتملأ الصفحة في

فوضى. وأما الإنسان البالغ فشكل الحروف عنده أكثر انتظاماً وثباتاً وترتيباً. وبعد سن الخمسين يظهر التعب على الكاتب وهو يكتب، وينعكس هذا التعب على الكتابة، ويظهر في صورة إغفال لبعض الحروف أو للتنقيط، أو تخلٍّ عن طريقته في الكتابة التي هي خصيصته ومرآة شخصيته. وأما بعد الستين فإن رعشة اليد تتجلى في اهتزاز الحروف، فلا تكون الألف مثلاً مستقيمة، ويحاول الشيخ الطاعن في السن أن يتغلب على رعشة يده فيضغط بسن القلم، ويتمهل ويعود إلى بطء حركة الطفولة، فنستطيع أن نحكم مباشرة بأن هذا الخط هو خط إنسان قد أوغل في العمر كثيراً أو قليلاً.

ومن الممكن أن ينكشف جنس الكاتب من كتابته، فكتابة الذكور أكبر من كتابة الإناث، والصورة التي تأتي عليها خطوط الإناث أرق، فالأصابع أصغر وأدق، والقوة العضلية المحركة لها أضعف. وعندما تجلس الأنثى لتكتب لا تميل على طاولة الكتابة حتى تحتويها كما يفعل الرجل بصدره الضخم وطوله الذي يمكّنه من أن ينكب على الطاولة، وإنما تجلس الأنثى فلا تكاد تملك الطاولة لقصرها نسبياً، ولا تكاد يدها ترتاح وهي تكتب، ولا ذراعها الذي تسند عليه، ولذلك فإن القلم في يدها يمس الورق مسًّا رفيقاً. والأنثى بها ميول فنية أقوى، وأحب الفنون إليها الوشي والنمنمة، وكتابتها وشي ونمنمة، والخط يأتي لذلك أصغر، ويعوزه بساطة خط الرجل وانطلاقته. والمثقفات من الإناث تنزع خطوطهن إلى التعامد مع السطر. وتكثر الأخطاء الهجائية في كتابات الإناث، وهذه ميزة أخرى في خطوطهن، بالإضافة إلى أنهن لا يملن كثيراً إلى وضع النقط والفاصلات، وتنساب كتابتهن حتى لتحتاج إلى أن تتريث كثيراً لتعرف نهاية الجملة. وربما ذلك لانفعالات الأنثى ورغبتها في طرح أفكارها، ويبدو من خصائصها أن الأفكار لا تكون مرتبة، ولذلك تحتاج في رسائلها أن تكتب ملحوظات كثيرة كحاشية، وربما لهذا أيضاً تنسى أن تضع النقط والفواصل والشُّرَط كما في شَرطة الكاف مثلاً، وتميل أن تقلد في عباراتها، وأن تحاكي

المقربين منها وأحباءها في خطوطهم.

وكثيراً ما تبين مهنة الكاتب من كتابته، ومن المفردات التي يستخدمها، فالمثقف قد يستخدم للمعنى الواحد أكثر من كلمة، ولا يميل إلى أن يكرّر نفسه بالكلمات نفسها، وتسعفه ثقافته وتعطيه زاداً من المفردات، على حين يميل نصف المثقف إلى استخدام العامية، فهي أسهل له، وفيها يحاول أن يكون مرحاً خفيف الظل إذا كان يكتب رسالة مثلاً. وتُعرف كتابة الطبيب أو المحامي مما يقول، ومن الحكايات التي يرويها، واتجاهاته مع الناس، كما تبين مما يقصه عنهم.

ويبدو أن الخطوط تعكس طريقة الأشخاص في الحديث، فكما تتحدث يكون خطك، فالذين يلجأون إلى الصوت العالي وتأكيد العبارات بالضغط على الحروف نطقاً، يفعلون ذلك في كتاباتهم، وتظهر العصبية في الخط ظهورها في الكلام. والإنسان وافر النشاط جمّ الحركة، المحب للكلام، يكتب بهذه الخصائص نفسها، ويهتم أن يضع النقط والفواصل والشُّرَط. وإذا حدث أن تخلى إنسان عن طريقته التي هي خاصته في الكتابة لظروف معيّنة، فإنه أيضاً إذا عبّر عن نفسه بالكلام يتخلى عن طريقته في التعبير، فإذا كان منطلقاً خفّف من سرعته، وإن كان عصبياً تريّث نوعاً ما، وكذلك في الكتابة فلربما يتوقف هنا وهناك ليضع علامة استفهام، أو يضع عدداً من النقط، ويخفف ضغطه على القلم عند نهاية العبارات، ويبدأ العبارة الجديدة عليه بالضغط على القلم وعلى الحروف وهو يكتبها، والبدايات تكون كبيرة، بينما النهايات صغيرة، ويميل بها إلى أسفل السطر. وفي الانفعالات الحادة مثلما يكون الكلام حاداً عالياً، فإن الخط ينطلق سريعاً لا يكاد يلمس القلم الورق، ولا تكاد تكتمل الحروف وتأخذ حقها.

وقد يبدأ الشخص الكتابة بحالة نفسية معيّنة، ثم ينفعل وهو يكتب، وقد يهدأ من بعد. وهذه الحالات النفسية المتضاربة تظهر في الخط فلا يتساوق. والخط نتاج الجهاز الحركي الذي يحرّكه الشخص، وتبعاً لنشاط المخ تكون حركة اليد، فإذا كان الشخص مبتهجاً إتجه بالحروف صعوداً أعلى السطر، وإذا كان مبتئساً إتّجه بها نزولاً أسفل السطر،

والغاضب تتميز حروفه بالحدّة في الحركة والشكل، ومن ثم فمع الانفعالات المختلفة تتشكل الحروف هنا وهناك.

وينعكس التعب على الخط ويميل الخط نزولاً إلى أسفل الورقة. وقد يبدأ الكاتب الكتابة ثم يتعب فيجد أن خطه يسوء، وأنه يخطئ في الهجاء ويغفل النقط، فيترك الكتابة ويستأنفها من بعد، ونستطيع أن نحدّد متى توقف، ومتى بدأ من جديد، من شكل الحروف والهيئة التي تكون عليها من حيث النقط وغيرها. ومن المسلم به في حالات التعب أن لا يكون هناك اتساق في الخط ولا ترتيب ولا انتظام.

وقد يُظهر الخط الحالة الشعورية للكاتب تجاه المكتوب له الرسالة، فمثلما يتأثر الخط بالمضمون فكذلك يتأثر بالحالة الشعورية، وأمكن في حالة شخص واحد أن نرصد تغيّراً في الخط في كتاباته لكل من أمه، وأبيه، وأخته، وأخيه، وصديقه، وأستاذه، ومدير البنك الذي يعمل فيه، من حيث الحرارة التي تكون عليها التعبيرات وظهورها في انسيابية الخط، ومن حيث الخوف وما يستحدثه من قمع وكفّ فيرتعش الخط وتضطرب العبارة. ومن حيث الاحترام وما يفرضه من تعبيرات وما ينبغي له من خط يُصطنع إصطناعاً... وهكذا.

وكذلك فإن الرغبات والانفعالات اللاشعورية قد تظهر في الكتابة وفي الخط، ويروى مثلاً أن المكتوب له كان يدعى «الأستاذ جاد عفيفي»، ولم يكن الكاتب يحبّه، فكان يخطئ التنقيط فيكتب «الأستاذ جاز»، وذلك من زلات القلم التي ذكرها فرويد ضمن سيكولوجية الحياة اليومية. ويروي جونز صديق فرويد أن سيدة كان يكاتبها أرسلت إليه رسالة قالت له فيها «وأرجو أن تكون على خير حال وأن تكون تعيساً في حياتك»، وكانت هذه السقطة منها كاشفة لحقيقة مشاعرها نحوه، فقد كان ينوي الزواج منها ولكنه عدل. وزلات القلم على الورق تشبه زلات اللسان في الكلام، ويعلق عليها فرويد أهمية بالغة، بالنظر إلى أنها تكشف صاحبها وتفضح مشاعره ونواياه الحقيقة، ولعلنا نلحظ أن الكثير من الناس لا يحبّون أن يردّوا على الرسائل التي تأتيهم، ويسوّفون في الردّ،

وإذا ردّوا كانوا مقتضبين، وأمثال هؤلاء يعانون من صراعات معيّنة نتيجة كفّ هائل يمارسونه مع أنفسهم، ويحول بينهم وأن يُظهروا مشاعرهم فيما يكتبون، والكتابة بالنسبة لهم مؤلمة، لأنها توقظ هذه الصراعات، وكتاباتهم فيها الكثير من التردّد حتى إنك لتلمس في الكلمة الواحدة المشحونة شحناً نفسياً عالياً إختلافاً في النسق لا يجعلها على وتيرة واحدة. ويذكر أن فتاة كانت قد خطبت لشخص لا تحبه، وكان يكثر من مراسلاته لها، ويشكو من عدم ردّها، وكانت كلما تهيأت للرد توقفت عند كلمة «عزيزي» فلا تستطيع أن تكتبها، فإذا كتبتها جاءت العين صغيرة جداً لا تكاد تبين، ثم تكون هناك مسافة بين عزيز والياء، وتنسى أن تضع النقط، ومن ثم كانت شكوى الخطيب أنها تبدأ الخطاب في كل مرة إذا كتبته هكذا «عزيز-ي».

مراجع

- Pokorny: Psychologie der Handschrift.

❖ ❖ ❖

- ٩ -
سيكولوجية الدِّين

التفكير الديني ليس تفكيراً خرافياً... الدين كاعتقاد وتجربة. أدب الغريزة الدينية. سيكولوجية المتدين والواعظ الدينية. الارتقاء الديني والارتقاء في مراحل الحياة. سيكولوجية التحريم والدعوة التبشيرية. الاصطلاحات الدينية وأبعادها النفسية.

❖ ❖ ❖

التجربة الدينية تجربة إنسانية عالمية، فلم يوجد شعب يخلو تراثه من الأدب الديني. والاعتقاد الديني، والعاطفة الدينية، من المسائل التي يتعامل معها الغالبية من الناس كمسلّمات، حتى أن البعض يقول بغريزة دينية Religious inistinct، قيل هي الغريزة الفيصل بين المستويين من الوجود الإنساني والحيواني، وأنه كلما ارتقى الإنسان وجدانياً كلما كانت له إشراقات أو فيوضات صوفية كونية، قد

تعبّر عن نفسها تعبيراً دينياً صريحاً، أو تكون اهتماماً أو «همًّا» بالوجود وبقضايا الإنسان الوجودية.

وعلم النفس الديني أو سيكولوجية الدين، باعتبارها مجالاً حديثاً من مجالات الدراسات النفسية، تبحث في التجربة الدينية وسيكولوجية الإنسان المتدين أو العابد أو المؤمن، وشخصيته، وسلوكه، ودوافع الإيمان عنده. ومن أولى الدراسات النفسية في مجال الدين كتاب ڤُنْت Wundt سيكولوجية العامة Volkerpsychologie»، الذي يذهب فيه إلى ربط ارتقاء الإيمان في الدين بالارتقاء في مراحل النمو، ويقول بمراحل دينية تتواكب مع ارتقاء الوعي الإنساني وتساير النمو عند الطفل، فهناك أولاً الطور الأوّلي Primitive stage، والإيمان فيه إيمان بدائي بسيط قد يتوجّه لقوى الطبيعة المؤثّرة في حياة الناس، والتي تكون لها في حياتهم الواعية ردود فعل نفسية مدارها الخوف والرهبة والإجلال والتوقير. وليست عبادة النار مثلاً، أو عبادة الكواكب، إلا لأن العابد بتمثلها يستدمج في نفسه قوة ما يعبد، فلا يصيبه منها مكروه، وتكون له عوناً على غيره. وهناك الطور التوتمي Totemism، بانتساب الأفراد إلى توتم واحد يكون لهم سلفاً، ويجعل منهم أخوة يستشعرون في أخوّتهم أماناً يوفّره لهم التضامن والتماسك والانتماء. وهناك أخيراً الديانة الإنسانية التي بها يكون الوعي بالمسؤولية الاجتماعية والتكافل العائلي والوطني والإنساني، والتي تقوم على المحبة وليس العداوة، والتعاون دون التصارع أو البغضاء. وسيكولوجية ڤُنت الدينية أساسها أنثروبولوجي نفسي، وأما السيكولوجية الدينية المحدثة فتوجهاتها إختبارية Empirical، وتجريبية Experimental، وتفيد في مناهجها من كلٍ من التحليل النفسي، وعلم نفس النمو، وعلم النفس الاجتماعي، وسيكولوجية الشخصية. وكان لمدرسة ڤيرتسبورج Wuszburg دور قيادي في تأصيل المنهج التجريبي كمنهج أساسي لدراسة التجربة الدينية. واستخدمت هذه المدرسة طريقة عقد اللقاءات مع المتدينين، والاستبيانات، ودراسة الظواهر الدينية كالرِدّة، والتحوّل من ديانة إلى أخرى، أو

من مذهب إلى مذهب، أو التحوّل من الكفر إلى الإيمان أو العكس.

وتهتم سيكولوجية الدين إهتماماً خاصة بدراسة التجربة الصوفية Mysticism في مختلف الديانات. وهناك كثير من البحوث في الاتجاهات الدينية عند الكبار والأطفال، وتستخدم في قياس هذه الاتجاهات مقاييس الميول والاتجاهات كمقياس أولبورت وڤيرنون. والوعي الديني قد يكون بمعناه الضيّق الذي قوامه الشريعة أو جوانبها المعرفية والتطبيقية، أو التقبُّل الكامل للغيب والإيمان باللامعقول وهو المسمّى بالهوس الصوفي والحكايات الدينية الغيبية Mythomania، وقد يكون بمعنى أوسع هو انفتاح عقلي ووجداني على الحياة بكاملها والكون كله، ومن ذلك ميول البعض لعبادة الأبطال Hero-worship، وتوقير الأسلاف وكبار السن، والمحافظة على التقاليد ومسايرة العرف واحترامه، وطاعة الأبوين وأولي الأمر.

وهناك الكثير من المجالات يمارس فيها تسييس الدين أو تديين السياسة، وتُستَغل فيها المشاعر الدينية استغلالاً لصالح الأفراد أو الجماعات. وقد يمارس العنف باسم الدين. ويذكر التاريخ الكثير من الاغتيالات الدينية والحروب المقدّسة كالحروب الصليبية، وسيذكر التاريخ حرب الخليج، وحروب البوسنة، كحروب دينية، ويردّ البعض الكثير من صور الاضطهاد النفسي والتعصُّب العرقي إلى الصراعات الدينية.

وتقوم الدعوة التبشيرية الدينية حديثاً على الكثير من مقولات علم النفس والطب النفسي. وتشمل الدراسات النفسية في الدين البحث في المحرّمات Taboos، والميكانيزمات الدفاعية الدينية في مواجهة الخوف والقلق والتعصب. ومن المجالات الأساسية التي تبحث فيها سيكولوجية الدين: التسامي Sublimation بالغرائز والدوافع والحاجات، والتَّصوّف Sufism والرهبنة Monkhood، والاعتقاد في المشايخ والأولياء، وزيارة الأضرحة والقبور، والتداوي بالرُّقَى والتعاويذ، وطهارة الأولاد والبنات، والجهاد الديني والاستشهاد، والنبوءات والرؤى، والإيمان بالظواهر الخارقة والمعجزات وقصص

الخَلْق غير الطبيعية، كخلق آدم وحواء، والحكايات عن الأنبياء والبعث والحساب، والتباين بين الديانات، والوظيفة النفسية التي يخدمها هذا التباين عند أفراد المؤمنين وجماعاتهم، والحياة النفسية لكبار الفقهاء من أصحاب المذاهب والنحل الدينية، ومردودها على فقههم أو تشريعاتهم أو العكس، ومعنى الطاعة الدينية، وما تنصرف إليه، والدلالات النفسية للأوضاع الاجتماعية للمرأة والرجل والطفل والشيخ في الديانة، والمعنى النفسي للصوم، والراحة النفسية التي تستحدثها الصلاة عند العابد، ودلالات الوضوء والاغتسال، والعلاقات النفسية الجنسية بين الذكور والإناث، والعلاقات العائلية، ومعاني الضمير والأخلاق والجنة والنار والثواب والعقاب، والدين كيوتوبيا، والتجارب الأدبية والفنية الدينية، والنصوص المقدّسة، والكتابات الشعرية والنثرية في الدين، وفن الأيقونات والخطوط والزخارف الدينية، والدلالات النفسية للزي الديني ولباس الرأس الديني واللحية والمسبحة والسجادة، والوظائف النفسية لمناصب المفتي وشيخ الطريقة، والمقرئ والكاهن، والقسيس والحبر والراهب والفقيه، والبطريرك والبابا الإمام، وأمثال هذه الشخصيات الأبوية، ومعنى أن يُنَادَى أيهم بألقاب مولانا أو الشيخ أو الأب أو الأم أو الأخت أو صاحب الفضيلة، ودلالة الاختلافات في أن يكون الإله ذكراً أو أنثى. ويدرس علم النفس الديني وظيفة الرموز في الديانات، والطقوس التعبدية. وهناك الكثير من المصطلحات الدينية ذات الأبعاد النفسية مثل: التعالي Transcendence، والإيمان، والمحبة، والأخوة، والفداء، والوجد، والوجدان، والوصال، والوله، والنجوى، والنفس، والمشاهدة، والتجلّي، والفيوض والفتوح والإشراقات، والشواهد والمطالعات، والكمال والجلال، والقُرب والوصول، والقُدرة، والفراسة، والغضب، والغشية، والغيرة، والغرور والكِبْر، والعشق، والعزلة، والشوق، والشرود، والسكينة، والسلوك، والشُّكر، والسرّ، والرياضة، والرياء، والرهبة، والرؤيا، إلخ.

والاعتقادات الدينية تحدّد سلوك الناس، وهي طرقهم الخاصة في التعامل مع الصراعات.

وتتباين التجارب الدينية إلا أن طبيعتها السيكولوجية واحدة. ولا تختص التجربة الدينية بناحية نفسية واحدة عند الإنسان ولكنها تستغرقه كله. ومن شأن الصلاة مثلاً أنها ترتقي بالإنسان العابد من التعبّد الموضوعي إلى التُّقَى الذاتي، وهي تثري شخصيته وتتسامى بغرائزه ودوافعه وتجعل له أهدافاً ومعان لحياته تتجاوز الأهداف المادية التي لعامة الناس. وتقوم التجارب الدينية على التأمل الذي ينتزع العابد من الماديات ويكون به إنسانياً. والمقارنة بين الأديان علمٌ يقوم في بعض جوانبه على البحث في سيكولوجية الدين عموماً عند الشعوب، وعند الأطفال خصوصاً. وقد تناول بعض علماء النفس بالدراسة تكوين فكرة الله عند الأطفال خصوصاً. وقيل إن الطفل بين السادسة والسابعة يميل إلى التشبيه المادي، وفي السن بين الثامنة إلى الحادية عشرة تكون ميوله خليطاً من التشبيه والتعيين والتجريد، وفي السن من الثانية عشرة تكون له تصوراته المجرّدة عن الله. ويذهب البعض إلى القول بأن فكرة الله عند الأطفال حتى سن السابعة أو الثامنة حدسية، ثم تتحول إلى العينية من السابعة أو الثامنة إلى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وبعد ذلك تكون فكرتهم عنه هي الفكرة الرسمية نفسها، أي فكرة الدين الرسمي. وقيل إن الطفل في نحو التاسعة أو العاشرة تكون معرفته بالله توصيفية أي معرفة بصفاته، ثم تبدأ مرحلة التشخيص في نحو الثانية عشرة، وبعد الخامسة عشرة تكون مرحلة استدخال أو استدماج الديانة الرسمية واعتناقها. وقد أجرى «مركز لوڤان للبحوث النفسية في الدين» بعض الدراسات حول صورة الله عند الطفل ومقارنتها بصورة الأبوين عنده، وتبين أن خصوصية صورة الأبوين تقابلها عمومية صورة الله. وكذلك أجريت بهذا المركز بحوث حول علاقة الارتقاء الأخلاقي بالإيمان الديني، وأنماط السلوك الديني وأبنية الشخصية (Vergote: Psychologie Religieuse).

ولقد نبهت القضايا الكثيرة في

التربية الدينية لما يمكن أن يكون مجالات جديدة للبحوث النفسية، ومن ذلك إمكانية عدم المصادمة بين المنهج العلمي والتعاليم الدينية، وعدم التعارض بين الأخلاقية الدينية ونتائج البحوث النفسية في المجالات التربوية والاجتماعية والسياسية والأدبية والفنية. وفي مجال الدعوة الدينية كان السؤال المطروح دائماً هو إمكانية الاستفادة من بحوث علم النفس في الحِجاج، وطرح المشاكل، والخلوص إلى النتائج، وقيادة الجماعة أو إمامتها. غير أن البعض قد يرى في علم النفس إيديولوجية تنافس الإيديولوجية الدينية وتعارضها، من حيث أن الإيديولوجيتين تتناولان كل نواحي السلوك والحياة، وأن كليهما يشكل نظرة كونية شاملة Weltanschaung، غير أن علم النفس علم عقلاني، بينما الدين غيبي وله سلطة آمرة، والأخذ به يقوم على الخوف من المجهول. ويختلف الناس في التدين، ويتبين من مختلف الدراسات أن النساء أكثر من الرجال التزاماً بالأوامر والنواهي والزواجر الدينية، وأن الرجال أكثر تطرّفاً من النساء في حالة الإذعان للدين أو الخروج عليه، وأن التدين يرتبط بالمستوى الثقافي، وأنه أكثر عند أبناء الطبقة المتوسطة، وأن مستوى ذكاء المتدينين عموماً هو المستوى المتوسط، وأن الدين أقرب إلى أصحاب الشخصية المتسلطة والميول المتعصبة. ويميّز وليام جيمس William James (١٨٤٢ - ١٩١٠) بين ما يسميه ديانة الأصحاء عقلياً ونفسياً وديانة المرضى. ويفرق آخرون بين التعبّد الموضوعي الذي يسلك بمقتضاه المتدين سلوكاً ليس عن اقتناع بأهدافه ولكن لأن الدين يأمره به، والتعبّد الذاتي الذي غاية العابد منه أن يصنع ذاته، وتكون التعاليم الدينية جزءاً من كمالاته الشخصية، وتطبعها بطابعها. والعابد يهمه في المقام الأول حقيقته هو، وأن يكون الصورة المثالية المتحقّقة لكل الأخلاقيات الدينية. ويفرّق علماء النفس بين الخبرة الباطنة الصادقة والسلوك الديني الروتيني والذي مجاله مظهر الشخصية وليس مخبرها. وأطلق بعضهم على هذا التمايز إسم الباطن

والظاهر Internal-external و Intrinsic-extrinsic في شخصية الإنسان المتدين، أو الأوّلي والثانوي Primary-secondary فيها، ومن ثم يتمايز في التجربة الدينية أن يكون الإيمان والالتزام ذاتياً أو مفروضاً وفوقياً، ويصنع هذا التمايز الفرق بين الدين Religion والتديّن Religiosity.

وقد نبّهت كتابات فرويد عن الدين إلى الكثير من أوجه الشبه بين الأشكال التي قد تكون عليها التجربة الدينية وبين الأعراض الوسواسية القهرية. ويكشف القصص الديني عن الكثير من الرمزية الجنسية، كالرمزية القضيبية Phallic التي للحيّة في الجنة وفي كثير من الديانات. ومن رأي فرويد أنه في التجربة الدينية تتميز التربية الاعتمادية للدين والتي يكون فيها الإله بالنسبة للعابد ما تكونه الأم بالنسبة للطفل، فالأم يعتمد عليها الطفل في طعامه وشرابه وإخراجه ونومه وصحوه وأمنه وسلامته، والإله يعتمد عليه العبد في الرزق والأمن والصحة والنجاح وفي كل شيء. وينبّه فرويد أيضاً إلى الجانب الآمر في الدين، والدوافع النفسية للتعصب، ودور الأب، باعتبار أن الحياة الدينية هي طرح درامي على المستوى الكوني للمواقف والمخاوف والأشواق التي تفجّرها علاقات الأفراد في طفولتهم بالأبوين.

ولقد تنبّه الكثيرون إلى هذا التقابل الذي يقوم عليه الدين بين التوبة والرحمة والعفو وبين القصاص الواجب، وأخذ المذنب بالشدّة، وتطبيق النص. وقد يستميل البعض في الدين هذا الجانب الأول أو ذاك الجانب الثاني الذي يمكن أن تكون عليه شخصية المتدين. والكثيرون يرون أن الأنبياء أُرسِلوا رحمةً للناس، وأن الكتب السماوية فيها الشفاء للنفوس. والكثيرون أيضاً يُبدههم في الدين جوانب التحذير والتنذير. وربما تكون غلبة أيّ من الجانبين بسبب الأحوال الاجتماعية والظروف المادية للمجتمع، وربما يكون الإيمان الديني بأي وجه من الوجوه بمثابة الإسقاط للصراعات بين الوالدين والأبناء، أو بين الأبناء بعضهم البعض.

مراجع:
- Freud: Obsessive Acts and Religious Practices.
- Freud: Totem and Taboo.
- Freud: Moses and Monotheism.
- موسى والتوحيد - ترجمة ودراسة دكتور عبد المنعم الحفني.
- William James: The Varieties of Religious Experience.

❖ ❖ ❖

- ١٠ -
سيكولوجية الزمن

الوجود والعيش في الزمان، والاعتقاد في الحياة خارج الزمان. الوجود النفسي للزمن. الزمن الذاتي واختلاف الإحساس به عند الشعوب وعند الذكور والإناث. والزمن والانتظار والسأم. الإدراك المرضي للزمن. الوعي بالزمن. التوجه الزمني. الزمن الميقاتي. تحليل السلوك الزمني. الساعة الفسيولوجية. الأفق الزمني.

❖ ❖ ❖

نحن نخبّر أو نُحسّ الزمن Time sense بتمثّله في الوعي، وأقصر مدّة زمنيّة يمكن أن نخبرها ويعيها الإنسان هي اللحظة The moment. والزمن ظاهرة سيكولوجية كما هو ظاهرة فيزيائية. وللزمن وجود مادي أو موضوعي يُقاس بمقاييس الزمن، كما ان له وجوداً نفسياً أو سيكولوجياً أو ذاتياً - الزمن السيكولوجي Psychological time، يختلف بإزائه الأفراد كما تختلف الأمم والشعوب. وبعض الشعوب إحساسها وتقديرها، وإدراكها للزمن Time-perception، قاصر، ويتمثّل ذلك في لغاتها، من حيث تعبيراتها عن الأزمان في تعاقبها أو تتابعها أو تواليها أو ديمومتها. والطفل الصغير لا يبدأ يعي أن للزمن وحدة يمكن أن يحسب بها إلا في نحو سن الثامنة. وهو في نحو هذه السن يبدأ إدراكه للزمن كمنظور Time field، فهو يكون ماضياً، أو حاضراً، أو مستقبلاً. والزمن الذاتي Subjective time يتمثّل عند كبار السن أكثر من تمثّله عند الشباب، فقد يتعجل الشاب الزمن ومن ثم يستشعر لجريانه وطأة ويحس

للانتظار ألماً. والشيخ الطاعن قد يستثقل الزمن في بطئه عندما تقصر أمانيه ولا يستشرف مستقبلاً. وقد يزيد إحساسه بالزمن الماضي ويكون تفكيره فيه، وتتناوبه المشاعر لخبرات يأسف لها أو يفرح، ويعاود التفكير فيها ويعيشها بكل انفعالاتها. والرجال عموماً أكثر إدراكاً للزمن وتقديراً للوقت من النساء. والمرأة قد تتقلب مشاعرها وتضطرب وجدانياً أكثر من الرجل إزاء الزمن متمثلاً في التواريخ وما تعنيه لها - أي للمرأة، أو ترمز إليه، وهي أحفظ لها من الرجل. والمرضى العقليون لا يستشعرون الزمن، ولديهم ما يُسمى العمه الزمني Time-agnosia وهو عجز عن تفهم معنى الوقت أو إدراكه. وانقضاء الزمن أو استنفاده يكون أسرع كلما كان العمل أو النشاط الذي ينصرف الإنسان فيه أحب إلى النفس، أو كلما كانت هناك دوافع للقيام به. ولا نحسّ بالسأم ويطول بنا الوقت ذاتياً، إلا إذا كرهنا ما نقوم أو نُشغَل به في الزمن. والشيوخ أكثر معاناة للسأم الذي يكون مع الزمن، والشباب يخبرون الانتظار في الزمن أكثر من الشيوخ.

وتتسبب بعض العقاقير في اضطراب الإحساس بالزمن وتقديره، فعقار الهلوسة مثلاً، والمسكالين، والبيلوسيبين، والكافيين والثيروكسين، يكون بها التقدير المُغالي فيه للوقت، فالساعة قد تنقضي كساعتين، بينما قد يتسبب عن تعاطي المهدئات أو الكينين، أو استنشاق الغاز الضاحك أن يستشعر المتعاطي أن الساعة قد مرّت كنصف الساعة أو نحو ذلك. ومن ظواهر الإدراك المرضي للزمن Pathological perception of time زيادة أو تناقص إدراك الزمن، أو فقدان الحسّ الزمني، أو غياب الوعي بالمتصل الزمن Time-continum ، أو اضطراب النسبة للماضي والحاضر والمستقبل، وقد لا نتذكر الماضي أو يتشوّش الإدراك بالحاضر، أو يتوه عنّا معنى المستقبل.

ويتغيّر إدراكنا للزمن بعوامل خارجية كما يتغيّر بعوامل ذاتية، ومن العوامل الأولى ما يكون مصدره الجسم، ومع ارتفاع أو انخفاض درجة حرارة الجسم قد يتشوّش الإدراك بالواقع. وبعض الأفراد يتميّزون بتقلبات حرارة

أجسامهم، ومن ثم يزيد عندهم الاضطراب في إدراك الزمن من غيرهم.

والزمن متمثلاً في الوعي يرتبط بأحداث، والوعي بالزمن Awareness of time هو وعي بالتاريخ. والزمن أزمان في علاقاته بالأحداث، أو أن الأحداث ترتبط بالتواريخ، أو نتذكرها، أو نتحدث عنها، في علاقاتها بالزمن Relation to time، أو بموضوعها في المنظور الزمني Time perspective للفرد. وبعض الناس والشعوب مرتبطون أكثر من غيرهم بالزمن Time-bound. وتتشكل الأحداث زمنياً باعتبار علاقاتها البعدية أو القبلية ببعضها البعض. ونحن نفكّر في الأحداث من حيث معناها للمستقبل وتنبؤاتها عنه، أو من حيث ارتباطها بالحاضر وما يمكن أن نقوم به فيه من أنشطة وانجازات، أو ما قد نعي لها من دروسٍ نحفظها في الذاكرة ونستعيد ذكرياتها من الماضي. وكل حَدَث عندما يقع فإنه يقع لمرة واحد، وليس من الممكن أن نستعيد حدوثه هو نفسه. ولكل حدث فترة زمنية Time-span أو Duration يستغرقها، وقد تقصر أو تطول. والحدث قد يتزامن Simultaneous مع أحداث أخرى، وقد يسبقها ويقدّم لها ويكون إرهاصاً بها، وقد يتلوها Successive ويتراتب عليها. والأحداث قد تكون مفردة، وقد تترابط في سلسلة، ترابطاً إجتماعياً وثقافياً يصنع ما يسمى التوجه الزمني Temporal orientation في التاريخ والمجتمع والعالم بأسره.

وتذكر كتب الفلسفة أن كنط Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) كان أول من تناول الزمن كموضوع للإدراك، ومن ثم جعله بالتالي من الموضوعات الرئيسية لعلم النفس A time-study. وتقوم سيكولوجية الزمن على المقابلة والمقارنة بين الزمن الموضوعي الميقاتي Objective clock time والزمن الذاتي Subjective time، أو الزمن الباطن Internal time المشعور داخلياً ونفسياً، ولكل من الزمانين إيقاعه Tempo؛ ولكل منهما ساعته، فالزمن الفيزيائي أداته الساعة الزمنية Temporal clock، والزمن النفسي أداته الساعة الباطنة Internal clock. ويتحصّل الوعي بالزمن من تخالف الأوقات والتغييرات التي يستوعبها في الإنسان

نفسه والأشياء من حوله، ومنها ندرك أن الزمن في تتابع، وأن له مدّة أو مدداً هي الفترات التي يستغرقها التغيير، أو التي تستقر فيها الأحوال إلى حين، ومن ذلك تعاقب الفصول، وتخالف الليل والنهار، وأزمان الحياة، والأوقات لمتباين الأنشطة.

والزمن ظاهرة ميتافيزيقية عندما يكون تفكيراً في الآخرة وفيما بعد الموت، ومن المنطقي أن لا يكون الموت هو نهاية الحياة والوجود، وأن لا يكون هناك حساب وعقاب وثواب، والأولى الاعتقاد في الآخرة لا نَفْيها والإعتقاد فيها إيجاب ونفيها سلب. ومجال التفكير في الوجود خارج الزمان هو الدين، مثلما مجال التفكير في الوجود في الزمان هو الفلسفة والعلم وعلم النفس بالذات. وكان هايدجر وسارتر، وعبد الرحمن بدوي: يقولون بالوجود في الزمان لا غير، فلا وجود إلا هذا الوجود، بينما تسعون في المائة من الفلاسفة وأهل العلم يجزمون بوجود خارج الزمان.

والزمان أو الزمن ظاهرة فيزيائية ونفسية، وهو بهذا الاعتبار ظاهرة للتأمل، والإحساس بالزمن Sense of time أو الزمن. كظاهرة محسوسة، يقوم عليها ما يسمى الفيزياء النفسية للزمن، وكان هنري بيرون Piron سنة ١٩٢٣ أول من تناول سيكولوجية الزمن في إطار سلوكي من خلال دراسة السلوك في علاقته بالزمن، وواصل بيير جانيه Janet (١٩٢٨) هذه الدراسة بالتركيز على أوجه التكيف التي يلجأ إليها الإنسان في تواؤمه مع الزمن، ودرس جان بياجيه Piaget (١٩٤٦) تطور فكرة الزمن عند الأطفال، وتوفر بولس فريس Fraisse (١٩٥٧) على تحليل السلوك الزمني Temporal behaviour، وقال إنه مجموعة التهايؤات للتغيّرات في الفرد أو البيئة من حوله، ومنها تهايؤات نتعلمها أو نكتسبها، ونخترع الرموز من أجل التعبير عن الزمن وأوقاته وفصوله وتواريخه، ونعلّمها للأجيال لكي يكون التفاهم بها حول وقائع وحقائق الزمن، ومن خلالها يكون إدراكنا للوقت، وللمدّة، وإحساسنا بالزمن وانقضائه أو ما يسمّى إيقاع الزمن Temporal rhythm، ونحن نوقّت الزمن من خلال إيقاعه المرحلي أو

الفصلي أو اليومي المتعاقب Nychthemeral rhythm، ويتحول الإيقاع الخارجي إلى إيقاع داخلي ينظم حياة الأفراد في نومهم وصحوهم وسعيهم وتناولهم للطعام، وينتظم به معاشهم وهضمهم وحرارة أبدانهم خلال ٢٤ ساعة هي مدة اليوم بليله ونهاره. وهذا النشاط المنتظم هو الذي يصنع من الكائنات الحيّة جميعها أشباه ساعات، وهو أيضاً الانتظام الذي نرتّب عليه أنشطتنا وصلواتنا. ولقد قام أحدهم بتجربة حبس فيها نفسه داخل كهف، لا يدري بداخله عن أمر الليل والنهار، وليس لديه ساعة يعرف بها الوقت، وكان ينام كلما احتاج إلى النوم، وظل في الكهف ٥٨ يوماً، نام خلالها ٥٧ مرة، ولكنه قَدَّر عدد الأيام التي قضاها فيه بثلاثة وثلاثين يوماً، الأمر الذي يقطع بأن ساعته الفسيولوجية Physiological clock (عدد مرات نومه) كانت أصدق وأدق من تقديراته للوقت (Siffre, Michel: Hors du Temps). وهذا التحول للإيقاع الخارجي إلى إيقاع داخلي حقيقة علمية نجد لها تفسيراً في إشراط باقلوف Pavlov (١٨٤٩ - ١٩٣٦)، فعندما نقوم بإطعام الكلب كل ثلاثين دقيقة فإننا نجد لعابه لا يبدأ يسيل إلا قرب انقضاء الدقائق الثلاثين، وليس قبل ذلك أو بعد ذلك. ونحن أيضاً نبرمج أنفسنا على الإيقاع أو النبض الحضاري الذي يكتنف حياتنا من حيث مواعيد العمل والنوم والأكل وغيرها. وحتى الذين يعانون نقصاً عقلياً يشمل حياتهم تنظيم من نوع ما، ولا يتناولون طعامهم إلا على فترات منتظمة. ولكننا بالإضافة إلى ذلك نتعلم أن نوجّه أنفسنا بحيث نتواءم مع ما يطرأ من تغيرات مرحلية أو دورية، من أهمها التغيرات أو التقلبات في الطبيعة، ونتعلم أن نستخدم أجهزة لقياس الزمن وحسابه كالتقويم Calendar، والساعة Clock، أو الكرونومتر Chronometer، ونعيش الزمن كدورات Cycles، أو أن لكل منا أفقاً زمنياً Temporal horizon. والأفق الزمني الذي يمكن أن يدركه العامل المياوم بخلاف الأفق الزمني لأستاذ الجامعة، وكذلك الأفق الزمني للطفل الصغير وللراشد. وكلما تقدمنا في العمر إتّسع هذا الأفق واستوعب أزماناً، وصارت للأزمان دلالات

نفسية لم تكن لها، وتعكس اللغة ذلك، ولا يقتصر الأفق الزمني للطفل على تجاربه الشخصية، ولكنه يستطيع من خلاله وفي إطاره أن يتصور المستقبل ويتذكر الماضي، ويعيش أحداث أسرته والمجتمع من حوله وتاريخ أمته. وليس بوسع الطفل أن يتصور نفسه في دورة حياته كزوج، ولكن المراهق يستطيع ذلك، والجدّ يفكّر في دورات حياة سابقة كانت له. ويتميّز الإنسان عن سائر الكائنات في اتساع دوائره أو آفاقه الزمنية، وكل حرفة أو مهنة. وكل شعب. له وجهة نظره في الزمن. ويتحدث بعض علماء النفس عن تعدد الأزمان الاجتماعية. وقيل إن بعض القبائل البدائية في جزر المحيط الهادي لا تعرف الزمن المنقضي ولا الآتي، ولذلك تخلو لغتها من الأفعال الزمنية الماضية والمستقبلية. وقيل أيضاً إن أولاد الفلاحين يحكون عن قصصٍ، الزمن فيها بسيط، بينما أولاد المدينة تحفل قصصهم بالزمن المركّب، وإنه لذلك يختلف الزمن في القرية عنه في المدينة. ولكل فرد منظوره الزمني، وأحياناً يكون للفرد الواحد عدد من المناظير الزمنية بحسب تعدد انتماءاته الطبقية أو الاجتماعية، ومن ثم فقد يختلف إيقاع الزمن العائلي عنده عن إيقاع الزمن الوظيفي. ومع اتساع الدوائر الزمنية والنضج والتثاقف المستمر نتعلم أن نصبر على الزمن، وأن نحتمل تأجيل إشباع حاجاتنا، وأن نطلب الأهداف البعيدة ذات القيمة الأكبر والإشباع الأطول عن الأهداف القريبة زمنياً والأقل قيمة وإشباعاً، غير أننا في كل الأحوال نستشعر للزمن ضغوطاً Pressions temporelles، ونستخدم بسببها الساعة في المدينة أكثر من استخدامها في الريف. وأحياناً نتغلب على حقيقة انقضاء الزمن بأن نستحضر الماضي والمستقبل في الحاضر ونقيم لهما المتاحف، أو نرصدهما في السجلات، أو نصنع لأنفسنا التواريخ التي تكتب لنا الخلود عبر الأزمان.

مراجع:

- Fraisse: The Psychology of Time.

❖ ❖ ❖

- ١١ -
سيكولوجية القيم

معنى القيمة ونسق القيم. تأثير القيم في الإدراك. القيمة النفعية وقيمة اللذة. القيم والثقافة والتربية. الاختلافات في القيم بين الشعوب، وبين الذكور والإناث. القيم الإيجابية والسلبية.

❖ ❖ ❖

تُمثل القيم Values ما نؤثره ونفضله ونختاره من موضوعات تتّجه إليها رغباتنا وتمليها علينا حاجاتنا. وهل يمكن أن نوجد ونكون بلا قيم؟ وكيف نتعامل إذن إن لم تكن هناك قيم كما يزعم العولميون والليبراليون؟ وكيف نطالب بالعدالة والحق، وندعو الآخرين أن يعاملونا بالخير؟ والقيم لذلك من المحدِّدات الهامة للسلوك Determinants of behavior، لأنها أشمل من كل رغبة وحاجة واتجاه ودافع، وهي التي تستولد الحاجات والرغبات، وهي جزء من نسق الدوافع ولكنها هي نفسها ليست دوافع، وليست معايير للسلوك لأنها عامة ولا ترتبط بمواقف كالمعايير. والقيمة يمكن أن تكون مصدراً للكثير من المعايير، فمثلاً المساواة كقيمة، هي معيار لأكثر من إنسان في مواقف مختلفة وعلاقات متباينة. وعندما ترسخ الاتجاهات وتقوى فإنها تصنع قيمة. وتنتظم القيم في الشخص الواحد لتكوّن ما يُسمّى بنسق القيم Value system عنده، وربما يبدو أن نسق القيم هو ما نعنيه بالإيديولوجية الشخصية للفرد، فكل إيديولوجية ليست شخصية، ونسق القيم وحده هو الذي يمكن أن يكون شخصياً وجماعياً. والقيمة ضرب من الاتجاه الأمثل Super-attitude، وإذا كان الاتجاه هو استعداد نفسي أو تهيؤ عقلي متعلَّم للاستجابة الموجبة أو السالبة نحو الأشخاص أو الواقف أو الموضوعات المختلفة، فالقيم أبعد من ذلك لأنها مفهوم مجرد يتصل بالذات، ومن نسق القيم يتكون مفهوم الذات Self-conception، وتقدير الشخص لنفسه واحترامه لها. وما يجعل نسق القيم يستمر ويثبت عند الشخص هو مفهومه

عن ذاته، وبدرجة ما تنعكس صورة الشخص عن نفسه في قيمه بقدر ما تكون ردود فعله العاطفية على محاولات تغيير قيمه أو اتجاهاته التي تقوم عليها القيم. وتخدم كل الاتجاهات النفسية القيم. وكل نسق القيم يدعم فكرة الشخص عن نفسه واحترامه لها. وكل وظائف الاتجاهات النفسية أن تكون معبّرة عن القيم. ومفهوم القيمة من المفاهيم الكبرى سواء في الفلسفة أو في علم الاجتماع أو في العلوم السياسية والاقتصادية. والتعبير عن القيم هو المصدر الرئيسي لتحقيق الذات.

وتؤثر القيم في الإدراك، فما نضفي عليه قيمة أكثر من غيره هو ما ندركه ونتعرف عليه بسهولة، وما نسعى إليه ويهدي سلوكنا. ويتعلم الطفل من لحظة أن يولد ويطعم ثدي أمه، أن لفمه، ومن ثم لأعضائه، ولكل شيء في بيئته، ولكل أحد، قيمة نفعية Utility v.، وقيمة لذة Pleasure v.. وخلال عملية النمو ينتقل الطفل من أنماط السلوك المفروضة عليه إلى نوع من ضبط النفس تتحكم فيه قيمه الشخصية. وتشكّل الأسرة والجماعات المرجعية قيم الطفل. وحتى عندما يتمرد المراهق على قيم الوالدين فإن المشاهَد أن كل الأولاد ينتهون إلى أن تكون لهم قيم الأبوين. وقد يبدو أن تنكُّر المراهقين لقيم الأبوين هو لإثبات استقلاليتهم، غير أن ما يحدث أن هذا التنكُّر يؤكّد هذه القيم ولا يلغيها، إلا أنه يصنع بالمراهقين كما لو أن ما أخذوا به أنفسهم من قيم هو من إبداعهم هم أنفسهم وليس نقلاً أو تقليداً للوالدين.

ويختلف عالم اليوم عن عالم الأمس الذي كان ينبض بالقيم والمُثُل والأمثال والحِكَم، ويضطرب تمثّل الأولاد للقيم نتيجة المفارقة بين التربية ومقتضيات العصر. ورغم أن أطفالنا يتمثّلون القيم التي تهيؤها لهم الثقافة، إلا أنهم يصيبهم الاضطراب نتيجة اكتشافهم الفارق بين ما تذهب إليه قيم المجتمع أو الأسرة والممارسات السلوكية في هذا المجتمع أو تلك الأسرة.

وهناك اختلاف بين الذكور والإناث فيما يتعلق بتمثّل القيم والالتزام بها. وينحو البنات في المراهقة إلى عدم الإذعان لقيم الوالدين ولكنهن ينتهين

بقبولها والتعيّن بها، ويظهر الصبيان عنفاً أكبر تجاه القيم العائلية والاجتماعية. وقيل إن مرحلة التمرد على القيم عند البنات هي التي تقع بين سن إحدى عشرة وسن الثالثة عشرة، وتُسمى لذلك المرحلة أو الطور السلبي Negative phase، ويتوجه معظم الرفض للأم خاصة.

والقيم إيجابية Positive أو سلبية Negative، والأولى ما كانت الإثابة على الأخذ به، بينما الثانية ما لحق الفرد من جرّائه العقاب. ومن القيم الإيجابية التي يتمثلها المراهقون: الأمانة، وأدب السلوك، والتعاطف، والتعاون، والصداقة. ويُلام الأولاد على خيانة الأمانة، أو التنكّر للصداقة أو الإهمال. وفي عصرنا المادي قد تسود القيم المادية Material values، إلا أنه في المراهقة والفتوة قد يكون الاتجاه للقيم الدينية Religious values بخاصة، وهو ما يظهر جلياً لدى شبابنا هذه الأيام، كردّ فعلٍ لسيادة القيم المادية بعامة.

ويتصل بالقيم المادية ما يُسمى بنظرية قيمة العمل Theory of labour value، وهي نظرية مادية أصلاً ترى أن قيمة الأشياء فيما يدخلها أو يُبذَل فيها من عمل إنساني، وأن لها قيمة تبادلية Exchange value بما يمكن أن يُستبدَل بها من أشياء مختلفة. وتحفل وجهة النظر النفسية بما يمكن أن تستثيره الأشياء من رغبة فيها أو عزوف عنها، وكل عمل بمقتضى وجهة النظر هذه هو قيمة في حدّ ذاته بما هو مرغوب فيه أو معزوف عنه، والقيمة هي ما يستثيره الاهتمام بالشيء. وكل قيمة تدخلها عناصر عقلية ووجدانية واجتماعية وبيولوجية، وتصنّف القيم على ذلك بحسب ما فيها من عناصر، فالقيم الوجدانية Affective Vs. هي ما يجعلنا نرغب في الأشياء أو نعزف عنها؛ والقيم العقلية Conative Vs. هي التي يكون بها إقبالنا على التحصيل العقلي ومن ثم نحقّق به النجاح ونتجنّب الفشل أو الإحباط؛ والقيم الشخصية Personal Vs. هي التي يعبّر عنها اهتمام الفرد بنفسه ومتطلباته، والقيم الاجتماعية Social Vs. يعبّر عنها اهتمام الفرد وميله إلى غيره من الناس، والقيم البيولوجية

.Biological Vs هي ما يكون به التعبير عن الاهتمام بأوجه الإعاشة والإعالة الاقتصادية بما فيها من منافع للفرد. وتدخل القيم في كل الانساق التي يندرج تحتها الإنسان، فهي جزء من نسقه ككائن حي، ومن نسقه كشخصية، ومن نسقه الاجتماعي، وتتأثر القيم على ذلك بكل خبراته، وتتعرض للتأثير من قِبَل أية تغيّرات تطرأ على بنية السكان أو المجتمع، أو تطرأ على التكنولوجيا أو الانتاج الاقتصادي أو التنظيم السياسي، فإذا ثبتت واستقرت فإنها تفعل فعلها مستقلة كموجّه للسلوك.

وللقيم الخلقية .Moral Vs تأثيرها في تشكيل الفرد وتنشئته وفي ضبط سلوكه. ويكشف التحليل النفسي عن صراعات تقوم بالنفس بين القيم، فهناك القيم الاجتماعية التي نتمثلها ونذعن ونعمل بإحيائها، وهناك القيم الشخصية أي ما نفضله ونختاره ونهتم به أو له، وقد نكبته إلا أنه يظل يعمل داخلنا لاشعورياً. ويهدف العلاج النفسي إلى تقوية نسق القيم ودعم بعض القيم وإضعاف بعضها. وهناك دائماً هوة لا تُجتاز بين القيم الشخصية والقيم الاجتماعية. ويتوقف التوافق النفسي والاجتماعي على حلّ الصراعات بين القيم، أو التوفيق بينها، وخلق حالة من التوازن بين القيم الشخصية والقيم الاجتماعية والقيم البيولوجية.

والقيم تتلاحم مع بعضها ولا تنفصل عن بعضها، وتتأثر ببعضها البعض وبالتغيرات التي تطرأ على البعض. وتتميز المجتمعات المتغيرة بتصارع القيم. ومن النادر أن تسيطر قيمة واحدة ولمدة طويلة على سلوك الشخص، فمثل هذه القيمة تكون تفضيلاً مطلقاً Absolute preference، والعكس هو الذي يحدث غالباً، فالقيم تعمل معاً في شكل زُملة قيم V. cluster، ونسق أو نظام القيم V.-system هو مجموع القيم التي تسود جماعة أو مجتمعاً بحيث تتسق بها استجابات أفراده للمواقف المتشابهة. وقد يغلب على هذا النسق أن يكون دينياً كما في المجتمعات المسلمة، أو مادياً كما في أوروبا أو أميركا. ومن الممكن أن نستخلص هذا النسق من أقوال الناس وما يفضلونه ويؤثرونه ويرغبون فيه

ويحتاجون إليه، وما يدفع سلوكهم ويوجهه، وما يثابون عليه ويعاقبون بفعله.

مراجع:

- White, R.: Value Analysis.

- Allport et al.: A Study of Values.

❖ ❖ ❖

- ١٢ -
سيكولوجية الحسد

الحسد والثورات الاجتماعية. أخلاق العبيد وأخلاق السادة والحسد. الخرافة في الحسد. الدين والحسد. الاضطرابات النفسية والاعتقاد في الحسد. حسد القضيب عند الإناث. حسد الثدي عند الذكور.

❖ ❖ ❖

الحسد Envy تفكير راغب يتمنى به الحاسد أن تزول النعمة عن الغير وتكون له. ويعيش الحاسد في همّ نتيجة حسده، ويستبد به القلق كلما قارن حاله بأحوال الناس الأفضل منه. وحسده يولّد فيه غضباً، وقد يدفع إلى صراعات يميزها أنها تصدر عن حسد أو منافسة حسد Envious rivalry.

وللحسد زخم إجتماعي ونفسي، وقد يشحن المجتمع بالكراهية العلاقات بين طبقاته المالكة والمعدمة، ويدفع إلى ما يُسمى بالصراع الطبقي Class-conflict، وقد يكون وراء الكثير من الثورات. ويذهب الكثير من العلماء إلى اعتبار الحسد من أخلاق العبيد، وأنه لا يليق بالسادة، وأن خُلُقية الحسد خُلُقية هابطة. ويسلك المحسود سلوكاً يضاد به تفكير الحاسد، ومن ذلك لبس التمائم والأحجبة وقراءة التعاويذ. ويشتهر في درء الحسد لبس الخرزة الزرقاء لشبهها بعين الحاسد، إذ يقال إن وسيلة الحسد هي العين، وإن العين الزرقاء هي عين حاسدة غالباً. وقيل إن عين الحاسد ترسل موجات كهرومغنطيسية من شأنها التأثير في المحسود أو فيما يملك من نعمة. والحسد نوع من التفكير المؤثر عن بعد، إلا أنه لا يؤثر فعلاً، ويأخذ به بعض

المرضى النفسيين عندما يشكون من هُذاءات اضطهاد، بدعوى أن الحاسد يزعجهم بحسده فكرياً، أو يؤرقهم ويسلبهم النوم. والحسد يصدر عن شعور بالنقص وعدم الكفاية، والدين ينهي عنه لأنه من الخصال غير الطيبة، مثل النميمة واللمز والغمز، وفي القرآن سورة يتعوّذ بها المسلمون من الحاسد، يعني من نفسيته الحاقدة الشريرة، وإلا لو اعتقدنا في الحسد لكان ذلك من باب الشِرْك الخفي، لأن الحاسد في هذه الحالة يكون له سلطان يغيّر به ما قسم الله، فكأنه إله. وكان فرويد يقول بحسد القضيب Penis envy، يتحصّل للإناث في الطفولة، إذ يكتشفن أن للذكور عضواً هو عضو الذكورة يميزهم ويكون علامة تفوقهم، فيزكّي ذلك فيهن الحسد ويدفع بهن إلى مغالبة الذكور، وأن يتخلقن بأخلاقهم. وقد تهوى البنت أباها تعويضاً لنفسها عن نقص تركيبها، بأن يكون لها الأب الذكر ملكاً خالصاً تستأثر به وتغار عليه من أمها، وقد تكبر فتطلب الزواج من رجل يشبه أباها، وتتمنى أن تنجب ولداً تستعيض بذكورته عن الذكورة التي حُرِمت منها. ومن ذلك أيضاً حسد الثدي Breast envy، يكون بالطفل الرضيع لاشعورياً، إذ يلمس سيطرة أمه عليه بثدييها، فهي ترضعه وقتما تشاء، وقد تنزعهما عنه دون أن يشبع، وقد يتثبّت هذا الحسد للثدي عند الطفل، فلو كان بنتاً فإنها مع البلوغ وبعده قد تهتم كثيراً بثدييها، وتحفل بهما، وتتيه فخراً بكبرهما، وتُبرزهما، ويكون إشباق منطقة الصدر على حساب بقية المناطق الشهوية، ويكون إتيانها من ثدييها أكثر من أي من أعضائها الأنثوية الأخرى. ولو كان الطفل صبياً فسيظل به الحسد للجنس الآخر، إذ يكتشف أن الثدي ميزة الإناث دون الذكور، وقد يهوَى الثدي في النساء بعد البلوغ، وقد يشبق تفكيره في ثدييه هذه المنطقة عنده، فيكون إحساسه الجنسي فيهما أكبر، وقد يطلب من شريكته في الفعل الجنسي أن تمص ثدييه أو تلوكهما، تحقيقاً لرغباته اللاشعورية في امتلاك ثدي كثدي أمه، يمكنه أن يمنحه أو يمنعه من يحب.

(أنظر أيضاً سيكولوجية الخرافة).

مراجع:

- Klein, M.: Envy and Gratitude.
- Russell, B.: Dictionary of the Mind.
- Freud: Introductory Lectures an Psychoanalysis.

❖ ❖ ❖

- ١٣ -
سيكولوجية المعايير

السلوك المعياري. معايير الذكور والإناث. أنواع المعايير وصحة المعيار. المعايير الدينية والمعايير المتعارف عليها والصراعات النفسية. المعايير والحرية. نشأة المعايير والمدارس في ذلك.

❖ ❖ ❖

المعيار Norm في اللغة هو كل ما تقدّر به الأشياء من كيل أو وزن، وما اتخذ أساساً للمقارنة، وهو أيضاً النموذج المتحقّق أو المتصوّر لما ينبغي أن يكون عليه الشيء. والمعايير في علم النفس هي قواعد السلوك العام التي يقاس إليها سلوك الأفراد، فيُقضي فيه بالاستحسان أو الاستهجان أو الانحراف، ومن ذلك أن نصف السلوك بأنه سويّ Normal لو وافق المعايير العامة، أو نصفه بأنه شاذ Abnormal عندما يخالف ما اصطلح عليه الناس، وقد نصف السلوك كذلك بأنه مضطرب Disordered behavior.

وليس المعيار في السلوك هو المتوسط الإحصائي للسلوكيات السائدة، ولكنه إطار مرجعي Frame of reference للاتجاهات المرغوب فيها للسلوك، والمعيار لذلك سلوك نموذجي أو مثالي Ideal behavior يأخذ به الناس أنفسهم ويقيسون تصرفاتهم إليه. وتتكون المعايير من خلال التفاعلات الشخصية للأفراد بعضهم ببعض، فيتعرفون على أدوارهم وحدود تصرفاتهم ليسهل بذلك تعاملهم. والوعي بالمعايير في السلوك ييسر توقعاتنا لما يمكن أن يكون عليه في مختلف المواقف، وتنكُّب المعايير يوقع الفرد في صراعات مع الأفراد الآخرين ويعرّضه للعقاب الاجتماعي. وكلما التزم

الفرد بهذه المعايير كان ذلك دليل صحة نفسيه Mental hygiene وتوافق نفسي واجتماعي Social and psychic adjustment. وللمعايير ضغوط نفسية واجتماعية لأنها تُقنِّن السلوك وتجعل الأفراد يكثرون من قمع أو كبت رغباتهم. وبينما نجد أن الكثير من الرغبات الشعورية التي مصدرها الأنا واحتياجاته تساير المعايير، فإن الرغبات اللاشعورية لا تتماشى مع هذه المعايير. و«الأنا Ego» واقعي غالباً بينما «الهو Id» يسعى إلى اللذة ولا يعترف بالحدود. ومعايير السلوك التي تصدر عن إطار مرجعي واحد غالباً لا تتصادم وتعمل زُملة Norm cluster، وتصادمها لا يقع إلا إذا كان تعارضها بسبب صدورها من أُطُر مرجعية متعدّدة أو ثقافات متباينة، وإذا تضاربت المعايير فإن سلوك الفرد لا بد أن تظهر عليه أعراض الصراعات أو التوترات النفسية. والإجماع على أن المعايير داخل الجماعة أو المجتمع تحول دون الميول المنحرفة للأفراد. ونحن نتعلم المعايير خلال التنشئة الاجتماعية Social upbringing. والمعيار بحكم تعريفه مقياس يتفق عليه أكثر من شخص، وربما اتفق عليه زوجان، أو ربما كان الاتفاق عليه من قِبَل جماعة صغيرة كجماعة الأصدقاء، وبعض المعايير تأخذ بها طوائف دون طوائف، وبعضها اختصاصه الذكور دون الإناث. والمعايير إلى حد ما قواعد معممة، وقد تصلح لكل الناس في كل زمان ومكان، وقد يرجع إليها شخص واحد في موقف محدّد في زمان بعينه. والمعيار هو الذي ينبّه إلى السلوك الصحي، وصحة المعيار تستمد من القيمة التي يصدر عنها، والتي يكون بها تطبيق القيمة، فالأمانة مثلاً قيمة، والمعايير المرتبطة بها هي قواعد السلوك التي يمكن تطبيق الأمانة من خلالها في مختلف المواقف والثقافات والمجتمعات. والمعايير تعبير عن حاجات ورغبات الأشخاص الذين يأخذون بها. وكل نشاط إنساني له أهميته ونتائجه يمكن أن يخلق فوراً المعايير الخاصة به، ومن ثم فهناك معايير للإدراك، وللشعو، وللتفكير، وللحكم، وللتقويم، وللعلم. وتصنّف المعايير لذلك إلى معايير عقلية منطقية

مجالها البحوث العلمية، ومعايير جمالية للحكم بها إذا كان المجال فنياً، كأن يكون موسيقى، أو نحتاً، أو تصويراً، أو تمثيلاً، أو غناءً، أو رقصاً، ومعايير نحوية للكلام ولأنواع الكتابة. والمتدين يرجع إلى المعايير الدينية. وتنتظم المعايير كافة المجالات في التقاليد، والعادات، والعرف، والتقاضي، والموضة. وبعض المعايير مشهور ومقبول ومعمول به، وبعضها قبوله محدود غير أنه معمول به، وبعضها غير مقبول ونذعن له، وبعضها نتعلمه من الطفولة وبالتعيين بالوالدين وغيرهما من الرموز الاجتماعية، وبعضها لا ندركه إلا كلما توغلنا في العمر وبالتدريج، وكلما زاد تفاعلنا الاجتماعي مع الآخرين. والمعايير التي نستدخلها ونستدمجها في الضمير، ومن ثم نعمل بوحي منها ونسايرها تلقائياً دون انتظار لثواب على الأخذ بها، أو تجنباً لعقاب لو تنكبناها، هي المعايير التي تكون معنا منذ الطفولة، وهي المعايير المتعارف عليها Institutional Ns. والشائعة. وما لا نستدمجه من المعايير قد نسايره طمعاً في ثواب أو هرباً من عقاب. وكلما زاد توافق الشخص مع بيئته وجماعته كان أخذه بالمعايير، ولو طمعاً في ثوابها، كالثروة أو المركز الاجتماعي، أو حتى طمعاً في استحسان الجماعة له.

فما الذي يجعلنا نأخذ بالمعايير وقد تتصادم أحياناً مع مصالحنا؟ والجواب أن المعايير هي قواعد السلوك التي تواتر نجاح الأخذ بها على المدى البعيد، ولذلك فربما تكون مسايرتها في غير صالح المذعن لها حالياً، إلا أنها قد تكون في صالحه من بعد. وكثيراً ما لا نكون على ثقة من السلوك الذي نفكّر في الأخذ به، ومن ثم فربما يكون من الأسلم والأوفق أن نأخذ أنفسنا بما يأخذ الناس به أنفسهم وجرّبوه وكان صحيحاً. والتنكب للمعايير قد يستولد في نفسه صراعات وعذابات ضمير نتيجة لمخالفته للجماعة. والضغوط النفسية Psychic pressures التي جرّبها مرة قد تجعله ينأى بنفسه عن أن يجرّبها مرّة أخرى. كما ان الشخص المخالف قد يواجَه من جماعته بضغوط نفسية، كالتهديد بالعقاب البدني، أو العزل، أو

إنقاص القدر الاجتماعي وقد تتحصل له صورة لنفسه بخلاف ما يتصوره عنها. وعلى العكس قد يشعر الفرد بالراحة النفسية إذ يجد أنه متوافق ومنتمٍ للجماعة، وأنه يأخذ بمعاييرها، ومن ثم يجد لما اختار من سلوك أو ذهب إليه من رأي سنداً له في الواقع الاجتماعي من حوله.

وقد تبدو مسايرة المعايير غير متماشية مع الحرية، خاصة إذا كانت معايير الجماعة من النوع المفروض على الأفراد، والتي يؤخذ الفرد من جرّاء تنكبها بالعقاب أياً كان. ومن الصعب مراقبة سلوك الأفراد، ناهيك عن مراقبة تفكيرهم، أو مراقبة ضمائرهم فيما يتعلق بهذه المعايير وتطبيقها. ويدفع إلى مغايرة الأفراد لمعايير جماعتهم غموض هذه المعايير، والتعرض لها بالنقد الكثير، وعدم جاذبية الجماعة بالنسبة للقدر، وعدم أهمية ما تقوم به الجماعة والذي به تتقوم معاييرها. ويتفاوت الأفراد في إحساسهم بالضغوط النفسية للمعايير. والحرية شعور نفسي، وكل إنسان حر نفسياً، بمعنى أنه يستطيع أن يفعل ما يريد ويرغب فيه، فإذا كانت رغباته أقل من الإمكانات المتاحة له فإنه يستشعر هذه الحرية كاملة، وله أن يمارس هذه الحرية الذاتية، وقد يرى المراقب الخبير أنها مع ذلك حرية محدودة جداً. وقد تكون الحرية من مقومات المجتمع نفسه وفي تكوين مؤسّساته، وهذا النوع من الحرية البنيوية Structural freedom لا يتوافر إلا إذا شارك أفراد الجماعة في صياغته وتشكيل معاييرهم، وعندئذ تكون أمام كل فرد خيارات كثيرة من المعايير ينتقي منها ويسايرها ويشايع الآخرين عليها. وهذه العلاقة بين الحرية الفردية والمعايير قد تجرّ إلى مناقشة نشأة المعايير، وهناك مدرستان في ذلك، إحداهما المدرسة الوظيفية التي تقول بأن المعايير قامت لتلبّي حاجات نفسية واجتماعية إليها، فمثلاً زنا المحارم لم يصبح له معيار إلا لأنه كانت هناك حاجة إلى مثل هذا المعيار عندما تبين للناس أن الكثير من الآباء يستغلون بناتهم إستغلالاً جنسياً. والمدرسة الأخرى تقول بالصراع Conflict school، وتردّ المعايير

إلى الصراع على القوة والسلطة والحكم، وتنسب نشأتها إلى الأفراد والطبقات الأقوى التي تشرّع المعايير لتُحكِم بها سيطرتها ونفوذها وتحمي بها نفسها، والماركسيون من هذه المدرسة. ويبدو أن التجارب حول المعايير تثبت أن بعض الأفراد قد يستقلون برأيهم عن رأي الجماعة، وقد يذهبون في مخالفتها حدّ الصدام معها، وأن البعض قد يرى الخطأ في رأي الجماعة، وأن البعض أيضاً قد لا يذهب في الفعل والقول إلا إلى ما تذهب إليه الجماعة ويتابعها عليه، وقد يبلغ بهم ذلك حدّ الصدام مع غيرهم دفاعاً عن رأي الجماعة.

مراجع:

- Sherif, M.: The Psychology of Social Norms.
- Stouffer, S.: Communism, Conformity and Civil Liberties.

❖ ❖ ❖

الباب الثاني

علم النفس والطب النفسي
في خدمة الحياة المدنية

- ١ -
دورة الحياة Life Cycle

أطوار الحياة وتحليلها. الأطوار النفسية الجنسية. عند بيلر وإريكسون وفرويد وسوليڤان. الطفولة والمراهقة والنطق والرشد والشيخوخة.

❖ ❖ ❖

تشتمل دورة الحياة على الأطوار التي يمر فيها الإنسان أو الكائن الحيّ منذ لحظة تخليقه واستحالته نطفة، إلى أن يكتمل الجنين ويولد وينمو كطفل، من المهد إلى المراهقة، ثم الشباب والنضوج، فالرجولة، ثم الشيخوخة والكهولة، وأخيراً الموت. ودورة الحياة التطورية Evolutionary l.c. تتضمن تاريخ حياة الكائن Life history، أو الانسان، والمجرى الذي تسير فيه هذه الحياة Life course. وقد يتخذ تحليل دورة الحياة Life-cycle analysis، منحىً سيكولوجياً أو إجتماعياً أو سلوكياً أو إنسانياً، يصنع ما يسمى أسلوب الحياة Life style، ويستهدي هدفاً هو: هدف حياة Life goal كل شخص خلال عمره الحياتي Age life. ويُذكَر أن تشارلوت بيلر (١٩٣٣) كانت أول من درس دورة الحياة وتعرّضت للأطوار التي يمكن أن يمر بها الفرد (Bühler & Massarik: The Course of Human Life)، وميّزت في هذه الدراسة بين السلوك والأحداث المؤدّية إليه، والخبرات الداخلية ونتائجها على مجرى الحياة، وتناولت أثناء ذلك التفاعلات بين كل ما سبق وعلاقتها بعمليتي النمو والنضج الفيزيائيتين. وقد ذهبت بيلر Bühler (١٩٦٨) إلى تقسيم دورة الحياة إلى خمسة أطوار أو مراحل تشغل أحداثها مدّة الحياة Life span، وذهب فرويد إلى تقسيمها إلى سبعة أطوار، وقسّمها إريكسون Erikson (١٩٥٩) إلى ثمانية أطوار، وسوليڤان Sullivan (١٩٤٥) إلى ستة أطوار، إلخ. ويحكم هذه الأطوار قصدية Intentionality، أو غائية Teleology، تجعل لها تنظيم حياة Life organization، أو طُرز تنظيم حياة l.-o. petterns، وخط سير إرتقائي. والبعض يقول إن دراسة دورة الحياة هي بمثابة

علم للنشأة والتطور Originology. وقد ميّز فرويد في تاريخ أو دورة الحياة للإنسان ما يسميه الأطوار النفسية الجنسية Psycho-sexual stages، ففي المهد يكون الطور الفموي Oral stage الذي تتركز فيه اللذة في الفم، حيث الفم هو وسيلة الطفل لإشباع اتصاله بالناس والأم، ثم تبدأ الأسنان في الظهور ويمارس العَضّ والقضم، بعد أن كان نشاطه قاصراً على المص والبلع والرضاعة، وتنغرس في الطفل من هذه المرحلة عادات سلوكية مدارها الأخذ والرغبة في الاستحواذ، والاتحاد مع ما يحصل عليه. ومن العادات السلوكية التي تتحصّل له فيما بعد وتترتب على اللذة التي يستشعرها بالفم، القُبلة والتدخين وتعاطي المخدرات والكحوليات. وفي الطور الشرجي Anal stage في نحو السنة الثانية من العمر تزيد اللذة بمنطقة الإست والمستقيم إلى جانب اللذة بالفم، ويكون الإخراج عند الطفل من العمليات التي يكون بها شعوره بالرضا مع ما يؤدّي إليه استخدامه لعضلات هذه المنطقة من سيطرة على التبرز، وتحكم فيه على هوى الأم أو على غير هواها، ويكون بذلك بدء شعوره بذاته. ولما كانت الثقافات المختلفة تولي عملية التدريب على الإخراج أهمية خاصة، فإن الطفل يستخدم أنماط السلوك المصاحبة والمتعلمة للتعامل مع الغير، فالتبرز يعني التخلص من شيء يخصّ الطفل، وقد يستشعر لذلك أثناء التبرز أنه يفقد جزءاً من ذاته، ويجمد على هذا الشعور ويترتب على ذلك أن عطاءه يعزّ ويتعلم البخل ويتثبت عنده. وقد ينكص الطفل إلى المرحلة الفموية إذا نال تدريباً على التبرز ينفّره منه، وقد يلجأ في هذه السن إلى مص الأصابع، أو قضم الأظافر، أو تكثر مطالبه، أو يتحول إلى طفل عدواني يستغل لهفة الوالدين على تبرزه بالشكل الصحيح وفي المواعيد ليغيظهما وليثبت ذاته. وفي نحو سن الثالثة ينتقل الطفل إلى المرحلة القضيبية Phallic stage من المراحل أو الأطوار النفسية الجنسية لنموه أو من دورة حياته، ويصبح مركز اللذة هو القضيب Penis عند الصَّبي، والبظر Clitoris عند البنت، وتكون لذته في انتصاب القضيب ولهوه بتناوله، أو

تضع البنت إصبعها في فرجها، ويبدأ عمل عقدة أوديب Oedipus complex، ويهوى الولد أمه ويغار من أبيه، كما تهوى البنت أباها وتغار من أمها، ولكن تهديد الأب أو الأم بقطع يده أو بتر قضيبه كلما تناوله بها يجعله يخاف، وذلك ما يسميه فرويد عقدة الخصاء Castration complex، ومن ثم ينتهي اهتمامه بالقضيب وتنتهي بذلك المرحلة القضيبية بالنسبة له. وأما البنت فتطول معها المرحلة القضيبية بالنظر إلى أنها لا تخشى من الإخصاء، وإنما الذي تدركه في نفسها أنها أقل تكويناً من الولد، حيث تفتقر القضيب ويترتب على ذلك شعورها بالنقص Inferiority feeling، وقد تحاول أن تعوّض عن ذلك بأن تكون عدوانية كالصبيان وتدخل معهم في منافسات. وفي السن من السادسة أو السابعة وحتى المراهقة تكون مرحلة الكمون Latency period، ومعنى تسميتها بالكمون أن الدوافع الجنسية تقل حدتها، أو أنها تخمد فلا يظهر في سلوك الطفل ما ينبئ عنها، ويميل الأولاد لذلك إلى اللعب مع الأولاد مثلهم، بينما تميل البنات إلى اللعب مع البنات. ومرحلة المراهقة Adolescence stage هي مرحلة النضوج الجنسي وبروز الدافع الجنسي، والمرحلة التناسلية Genital stage هي المرحلة التي يكون فيها نضوج الرجولة والأنوثة بشكل كامل، والحاجة إلى شريك من الجنس الآخر ليكون للشاب أو الشابة. وهذه النظرية الجنسية في دورة الحياة وما يصاحبها من نضوج هي نظرية بيولوجية كما قيل في نقدها، وقد أعطت للنمو ولمختلف المراحل معانٍ جنسية ونفسية وسلوكية تصاحبها. وقد ذهب إريكسون إلى شيء من قبيل التقسيم السابق على أساس فرويدي، إلا أنه جعل الأهمية لعامل التنشئة. والمقابل عنده للمرحلة الفموية: مرحلة الثقة التي نقيضها عدم الثقة Basic trust versus basic mistrust stage، حيث أن حنان الأم أثناء الرضاعة يُشعر الطفل بالأمان، ومن ثم يغرس في نفسه الثقة بالأم ويعمم ذلك على الناس. على عكس ما يتحصل له لو لم يستشعر الحنان في الرضاعة ولم يشبع منها، فينمو فيه الشك في الأم والناس من بعد. والمرحلة الثانية المقابلة للمرحلة

الشرجية عند فرويد: هي التي يكون فيها تدريب الطفل على الإطعام والإخراج، فإذا تمّ له ذلك بسهولة وفي جو عائلي متّسم بالسماحة والتقبُّل نشأ يشعر بذاته وكان سمحاً بدوره مع الناس، فإذا أسيئت معاملته بالتدريب القاسي والمتشدّد إستشعر النقص، وتولدت به حساسية للنقد والشك في قدراته وكفاءته. ويطلق إريكسون على تلك المرحلة لهذا السبب إسم مرحلة الاستقلال الذاتي مقابل الخجل والشك Autonomy versus shame and doubt stage. والمرحلة الثالث: هي التي تكون في الثالثة وحتى الخامسة تقريباً، وهي مرحلة المبادأة مقابل الشعور بالذنب Initiative versus guilt stage، وفيها يتعلم الطفل التعاون مع الآخرين وأن يكون زعيماً أو تابعاً، ويكتشف البيئة المحيطة، ويتعلم السيطرة على حركة أعضائه وتتكون له مهارات مختلفة، فإذا وجد التشجيع من أهله فإنه ينشأ وبه صفات المبادأة والمبادرة، وإلا فإنه كلما أخطأ عوقب فينكص أن يقوم بفعل أي شيء من نفسه، وتقل ثقته في نفسه، ويشعر بالذنب كلما أخطأ، ويلاحقه هذا الشعور مستقبلاً ويكون أساس الشعور بالذنب لكل ما لم يقم به أو يخطئ فيه. والمرحلة الرابعة هي: مرحلة الجِدّ مقابل النقص Industry versus inferiority stage وتكون في سن دخول المدرسة، ويتعلم الطفل أن يجِدّ ويحقّق التحصيل لأنه به ينال الاستحسان والتقدير والإعجاب، وعقاب الطفل على أخطائه يشعره بالنقص ويقصر به عن الاجتهاد، وفي سن المراهقة تكون المرحلة الخامسة: مرحلة الهوية مقابل الاختلاط Indentity versus confusion stage، بمعنى أن التنشئة تهدف إلى إعداد الطفل لدوره كصبي أو كبنت، ومن بعد لدور الرجل أو المرأة. وترسيخ الهوية والإحاطة بأبعادها لا يتيسر إلا إذا تعيّن الطفل براشد ذكر أو أنثى يتعلم من خلاله القيام بالدور الذكوري أو الأنثوي بحسب هوية الطفل. واختلاط الأدوار نتيجة فساد التنشئة وغياب القدوة يترتب عليه أن تتشوش لدى الطفل فكرته عن هويته، وبالتالي يعجز عن إدراك توقعات الناس منه والسلوك المناسب له. والمرحلة السادسة: هي مرحلة النضج

Maturity stage وتتلو المراهقة، وهي مرحلة الانسجام مقابل الانعزال Isolation versus intimacy stage، بمعنى أن المراهق الناضج يطلب العلاقات الحميمة في الصداقات والحب، وهي علاقات تؤكّد له هويته ويمارس فيها دوره، فإذا لم يكن نضجه صحيحاً، أو إذا عجز عن إدراك هويته، وأن يلعب الدور المتوقع منه، فإن فشله وعجزه يعلنان عن نفسيهما بأن يطلب الانعزال، ويؤثر ألا يكون له بالآخرين علاقات يتفاعل بها معهم ويعطي لهم ويأخذ منهم. والمرحلة السابعة: هي مرحلة الإنجاب مقابل العقم Generativity versus stagnation stage، فمعنى النضج الجنسي أن يكون الفرد قادراً على اختيار شريك من الجنس الآخر، وأن يرتبط معه بعلاقة منتجة، وأن يتناسل وينجب منه، ويتحمل مسؤولية هذه الشركة وما يترتب عليها، وأن يعول أسرته ويحوطها بالرعاية، وإلا فهو العاجز عن ذلك كله، وعن تكوين الأسرة والإنجاب وتحمل مسؤولية الزواج وتكاليف الأبوة، أي أن حياته لن تكون الحياة الولود ولكنها الحياة العقيم والبتراء. ومرحلة النضج هذه هي ظهيرة الحياة Noon of life، والخط الفاصل بين نصفي حياة الفرد: ما قبل النضج، وما بعد النضج. والمرحلة الثامنة والأخيرة: هي مرحلة الشيخوخة Old age stage، أو مرحلة الحكمة Wisdom stage التي سَمتها الرويّة، واكتمال القدرات، وتحصيل المعرفة، والحُكم الصائب، والفهم السديد، أي أن الخبرات فيها تتكامل، وتكتمل بها الذات، برغم أن القوى البدنية تكون في انحسار وانحدار. واكتمال الحكمة لا يصنعه فرد وحده ولكنه الجيل بأسره، وينقله إلى الجيل اللاحق عن الجيل السابق، ويتماشى مع فكرة كل جيل عن الجيل السابق واللاحق والتوقعات المرتهنة بكل جيل. وفقدان أو نقص هذا التكامل يتسبب فيه الخوف من الموت، وأن تنتهي الحياة ولمَّا ننجز فيها ما أردناه، وقد تتحصّل لنا بسبب ذلك إحباطات ويأس واكتئاب وتجتمع لنا فلسفة حياة وكأن كل شيء قَبض الريح، ولذلك سميت هذه المرحلة باسم مرحلة التكامل مقابل اليأس Integrity versus despair stage، واليأس عنصر سلب في

الحياة، وتكامل الذات بالحكمة الجامعة عنصر إيجاب، والحكمة تعني: المسؤولية، والاختيار، والاستقلال، والحرية، والإخلاص، والهدفية، وإرادة القوة، والانتصار، وهي أمور يقوى بها الأنا، وتنتقل عبر الأجيال، وتسري من الشيوخ أو حكماء المجتمع إلى مؤسساته التي يسيطرون عليها ويحكمونها أو يديرونها. وقوة الأفراد من قوة هذه المؤسسات، وهي قوة نفسية واجتماعية، أو قوة حياة Life force، قوامها كل عمليات دورة الحياة التي تشل الفرد والمجتمع والأجيال. وليس العلم والتكنولوجيا إلا متغيّرات تتماشى مع متغيّرات دورة الحياة. ودراسة دورة الحياة لها مردودها على علم نفس النمو، وعلم الارتقاء الإنساني بالمؤسسات، وعلم الطب النفسي بالتقويم التشخيصي والتنبؤي للاضطرابات خلال مراحل النمو، وعلم النفس القانوني بالتشريعات التي تناسب أطوار الحياة والسلوك الواجب داخل الأطر الاجتماعية والذي مصدره الحاجات النفسية والفيزيائية المتغايرة.

مراجع:

- Erikson: Insight and Responsibility.
- Erikson: Childhood and Society.

❖ ❖ ❖

- ٢ -
سيكولوجية التوازن

نظرية التوازن، وتوازن الشخصية، والتوازن النفسي. واصطلاح الهوميوستاز الفسيولوجي والستاتيكي، والسلوكي، والديناميي. والتوازن المتغاير. والتوازن والانطباع. وخلل التوازن، ومصادر الاضطراب فيه.

❖ ❖ ❖

التوازن Equilibrium أو الهوميوستاز Homeostasis هو الحالة المتجانسة أو المستقرة، أو هو توازن البيئة داخلياً وخارجياً، باعتبار هذا التوازن مطلوب في الكائن الحيّ على المستوى الفسيولوجي والعصبي والنفسي، وفي البيئة الخارجية

التي يمكن أن تؤثّر على حالة التوازن في الجسم أو في التوازن النفسي بشكل عام. والتوازن - التوازن الاجتماعي - مطلوب أيضاً للأفراد وللجماعات في علاقاتها التفاعلية بعضها ببعض.

واصطلاح الهوميوستاز بمعنى التوازن إغريقي الأصل لغوياً، قال به الأمريكي والتر كانون (Cannon, W.: The Wisdom of the Body) سنة ١٩٣٢ في مجال الفسيولوجيا، إلا أنه استخدمه كذلك في علم النفس وفي السبرنطيقا Cybernetics، ويعني به تلك الحالة المستقرة التي ينبغي أن يكون عليها الكائن الحيّ، من حيث أن الجسم مثلاً يتوجب أن يكون على درجة حرارة معينة، وهي في الإنسان نحو ٣٧ درجة مئوية، وقد تزيد قليلاً أو تقل قليلاً ولا بأس في ذلك، فإذا ارتفعت عن ذلك فإن الجسم يلجأ إلى ميكانيزمات من داخله تهدف إلى استعادة الوضع السابق، كأن يعرق مثلاً ليعمل العرق على ترطيب الجسم، وقد يكون الغرض من العرق تخفيف شدّة الحرارة من خارج الجسم، وقد يقوم الفرد بعرض نفسه على الطبيب ليعطيه دواءً يخفف من حرارة جسمه، وذلك نشاط يأتيه بإرادته، على عكس العرق الذي يكون انعكاساً داخلياً ولاإرادياً. واشتداد حرارة الجو قد يجعلنا نلجأ إلى أخذ حمام بارد أو استخدام المكيّفات. وفي كل الأحوال فإن تغيّر الأوضاع المستقرة يستحثنا داخلياً بميكانيزمات من داخلنا، أو يستحثنا خارجياً بأن نأتي السلوك الذي نستعيد به ما تغير من أحوالنا. والميكانيزمات الداخلية أو الأفعال المنعكسة Reflex actions هي التي يدور عليها اهتمام علماء الفسيولوجيا، بينما ينصب اهتمام علماء النفس على الأنشطة التوازنية والهوميوستاتية التي يمكن أن نلجأ إليها كسلوك متعلَّم. ويتميّز الإنسان بأنه يبذل قصارى جهده ليكون في أفضل حالاته، وليحافظ على هذه الحالات، ولذلك فقد يقوم إذا ما اضطربت أحواله أو شملها الفساد أو الخلل بنشاط من شأنه استعادة حالة التوازن التي كانت له Restorative action، كأن يُشعل ناراً إذا أحس البرد مثلاً، أو يقوم بنشاط أساسه التنبؤ بظروف مستقبلة يكون بها اختلال

التوازن Forestalling action، فيسبق الظروف، كأن يرتحل مثلاً مع بداية سقوط الأمطار إلى حيث المرعى والكلأ وينأى بنفسه عن مواقع الجدب المتوقعة.

ومن العلماء من يطلق على ردود الفعل الانعكاسية التي هدفها استعادة التوازن إسم الهوميوستاز الفسيولوجي Physiological h.، أو الهوميوستاز الستاتيكي Static h. أو الساكن، بينما يطلقون على استجابات السلوك المتعلم إسم الهوميوستاز السلوكي Behavioral h.، أو الدينامي Dynamic h..

ومن شأن الدفاعات الكيميائية الحيوية والانعكاسية أن تحمي الأحوال المستقرة والمتجانسة في الجسم، فعندما يزيد تركيز الفيتامين مثلاً، فإن ميكانيزمات الكُليتين تعمل على تصحيح هذا الوضع. وفي الحالات التي تتدنى فيها ردود الفعل الانعكاسية فإن السلوك المتعلّم يُستَحث لهذه الغاية. وإذن فهناك نظامان، أحدهما للاستجابة الانعكاسية، والثاني للنشاط الإرادي، فإذا تعطلت الميكانيزمات الانعكاسية، أو لم تكن على مستوى الحالة من اضطراب التوازن، فإن الاعتماد يكون على نظام الدفاع المتعلّم، أو أن هذا الاعتماد يزيد. ويبدو أن المتحكم في ذلك هو اللحاء المخي Cerebral cortex، باعتباره أعلى مستويات الميكانيزمات الهوميوستاتية الواقية. وقد يكون نشاط نظام من الأنظمة لاستعادة التوازن الارتشاحي في الدم ويتسبب عنه العطش، ويُطلَق على هذه الظاهرة إسم التوازن المتغاير Heterostasis، بمعنى أن الأنظمة المختلفة تتراتب هرمياً من حيث قيمة التوازن، ويستحدث الاضطراب في توازن النظام الأكثر أهمية إضطراباً في توازن النظام الأقل أهمية في ترتيب الأهميات، وهكذا دواليك، علماً بأن الأقل أهمية لا يتسبب إختلال التوازن فيه في اختلال توازن النظام الأكثر أهمية. فمثلاً يأتي العطش في الأهمية قبل الجوع، كما أن الحاجة إلى الأوكسيجين أهم من الحاجة إلى الماء والطعام معاً، ومن الممكن للفرد أن يحتمل نقص الأوكسيجين لمدة دقائق فقط، بينما يمكنه احتمال نقص الماء لمدة يوم أو اثنين، والطعام لمدة أيام.

ويعتمد استبقاء التوازن أو استعادته

على عمليات التغذية الرجعية السالبة Negative feed-back، فالخلل في الحالة المستقرة يستحث بعض الأحاسيس التي تستثير استجابات من شأنها استعادة الحالة السابقة. وكلما قارب المدخل الحسي من تحقيق أقصى قيمة له فإن شدّة النشاط التصحيحي تتضاءل. ولا بد أن يدخل في الجهاز الضابط لكل حالة مستقرة ما يمكن أن يمثّل الحدّ المحتمل من القيم والعتبات الأعلى والأقل في شكل عصبي أو كيميائي حيوي، وتتصل كلٌّ من هذه الأجهزة بميكانيزم الهوميوستاتية الدينامية. والتوتر إذن: متغير وسيط لا بد منه في نظرية التوازن.

ولبعض المنبهات الصفة الذاتية لاستحداث اختلال التوازن أو استعادته، فمثلاً تعمل المذاقات الحلوة على خفض الجوع، ومن ثم فلها قيمة من حيث أنها تعمل على خفض التوتر، بينما الألم يفسد التوازن بزيادته للتوتر. وأيضاً فإن الملامسة الرقيقة المدفئة قد تكون من عوامل خفض التوتر عند الثدييات. ولا يعني ذلك أن كل ما يدخل السرور وتكون له لذّة تكون له قيمة هوميوستاتية، وكذلك فإن التعلّم قد يجعلنا نُعلي من قيمة أشياء رمزية خالصة وليست لها في ذاتها خاصية إفساد التوازن أو استعادته.

وفي الانطباع Imprinting فإن صغار البط بمجرد أن يخرج من البيض قد يتبع أول موضوع يراه يتحرك أمامه، وتكون له عندها قيمة توجيهية موجبة، ويسلك كما لو أن هذا الموضوع يفسد توازنه إذا اختفى.

وتتعامل الضوابط الحسيّة الهوميوستاتية باختلاف مستويات التكيّف، وهناك خط أساسي Baseline قيمته هي الأعلى، وقد ينتقل من مكانه نتيجة الدخول في خبرات متفاوتة، فالطفل مثلاً يتكيف مع مواعيد التغذية إذا جعلناها كل ساعتين، فإذا زدناها إلى ثلاثة، ثم أربع ساعات فإنه يتكيف أيضاً مع المواعيد الجديدة ويشعر بالجوع بعدها. وإذا تعرّض لضوضاء الراديو أو التليفزيون فإنه ينزعج في أول الأمر، ولكنه من بعد ذلك يبدأ يألفها ويُسَرّ لها على المستوى الذي هي عليه. وكذلك فإن المصريين يجدون أن درجة الحرارة في الصيف إذا بلغت خمساً وثلاثين درجة

مئوية فإنها تكون حرارة مثالية، في الوقت الذي لا يطيق الإنجليزي مثلاً هذه الدرجة إذا كان الطقس في بلده على هذه الحرارة في الصيف.

وتتباين عمليات الاستجابة لخلل التوازن من أبسط أشكال التغيرات في تركيب الدم مثلاً أو في الانعكاسات العصبية الأوتونومية إلى أعقد أشكال السلوك المتعلم. ولا يلجأ الكائن الحيّ، أو الإنسان بالذات، إلى الأشكال المعقّدة من السلوك، إلا إذا كان المنبّه مزعجاً، كالحر الشديد فإنه لتلافيه قد نلجأ إلى الانتقال إلى الظل، أو نستحدث بالنشاط توازن البيئة الخارجية باستخدام المكيفات مثلاً، أو قد تكون به المحافظة على الظروف الرمزية التي بها يتحقّق التوازن، كفتح الحساب في البنك فإنه أمان للشخص يدعمه مالياً واقتصادياً ونفسياً.

وقيل في تقويم نظرية التوازن إنها نظرية شديدة الرجعية لأنها تهدف إلى تكريس الأوضاع القائمة، وتستبقي الأمور على ما هي عليه، وإن الدوافع فيها تتوجه لاستعادة الظروف السابقة على التوتر والاضطراب. وذلك نقد صحيح إلى حد ما، لأنه بدون أن تستعاد الأحوال العادية المستقرة السابقة نصاب بالموت. إلا أن نظرية التوازن لا تقول باستعادة التوازن بالظروف السابقة نفسها وإنما بشكل مجدّد، فالثياب مثلاً المقصود بها حماية الجسم أو ستره، إلا أن شكل هذه الثياب أو ألوانها أو نسجها يمكن التجديد فيه باستمرار. والتوازن والمحافظة عليه أو استعادته باب من أبواب دراسة الدافعية. وقد ذهب البعض إلى تفسير الظواهر السلوكية في ضوء التوازن باعتبار أن الجهاز العصبي المركزي له مستوى تنبيه معين لا يقل عنه ولا يزيد عليه، ومن ثم فإن أي تنبيه حسّي يقل أو يزيد عن هذا المستوى هو بمثابة خلل في التوازن يتطلب تصحيحه، تماماً مثلما أن الجسم لديه مستوى معين من الجلوكوز أو فيتامين ب، واضطراب هذا المستوى هو دافع للجسم لتصحيحه. وأيضاً فإن للطموح مستوى، وتحقيق هذا الطموح يكون في حدود هذا المستوى، والحافز على السلوك إذا قل عن قدرة الفرد على الإنجاز فإنه يُهمله، وإذا زاد عن هذه

القدرة فإنه يهمله أيضاً باعتباره مستحيلاً، ومن ثم فالحافز الفعّال ينبغي أن يقع في الحدود العادية لمستوى الطموح. ويؤدّي النجاح المتكرر إلى رفع مستوى الطموح، وكذلك فإن الفشل المتكرر يهبط بمستوى الطموح.

ويتضمن المفهوم الهوميوستاتي للشخصية وصف الشخصية بالتراتب الهرمي للحالات التي ينبغي الدفاع عنها، والمنبهات التي يمكن أن تضطرب بها هذه الحالات، والتقنيات المستخدمة للوقاية من الاضطرابات ولاستعادة التوازن.

وبعض حالات التوازن تُفضل البعض الآخر، ويتباين الناس في إضفاء القيمة على الراحة البدنية، والبعض يفضّل عليها الحياة العائلية الهادئة، والبعض قد يؤثر أن يعيش حياة صاخبة حافلة بالنشاط والحركة. وقد تتحول الموضوعات التي ترمز للتوازن الداخلي كالأم أو المنزل أو الرصيد المصرفي إلى قيم نحميها في ذاتها. وقد تتحول صورة الذات ومفهوم الشخص عن نفسه إلى موضوع لقيمة، وتهديد صورة الذات بالفشل أو بالتسخيف الاجتماعي أو فقدان المكانة قد يرفع ضغط الدم ويستحدث تغيرات غدّية ويستوجب نشاطاً جاداً لاستعادة تكامل الأنا.

وتختلف مصادر الاضطراب للتوازن، والبعض قد تكون اضطراباته عصابية ومصدرها القلق، ومن ذلك الوساوس والفوبيا، والبعض قد تكون اضطراباته حقيقية وليست متوهمة وتصدر عن تهديدات واقعية للثوابت الفيزيائية أو القيم المكتسبة.

وقد يعتمد الفرد لاستعادة التوازن على الحركة العضلية الصريح لحماية واستعادة القيم الثابتة، أو قد يستخدم الرموز والتخيل. ويختلف الناس في المدى الذي يمكن أن تبلغه الاستجابات الدفاعية لديهم للمحافظة على الحالات المستقرة وصيانتها.

وكان فرويد سبّاقاً إلى القول بنظرية التوازن منبهاً إلى ميكانيزمات الكبت والإسقاط والأحلام والتبرير وغير ذلك من الوسائل التي توفّر الحماية للفرد من تهديدات الاضطرابات أو التي يستعيد بها التوازن. وعندما يستثار القلق والتوتر

فإن الفرد قد يلجأ إلى وسائل بدائية لخفض التوتر، ومن ذلك الإقبال على الأكل أو الشرب أو الجنس، إلا أن هذه الوسائل قد لا يكون بها التخلص من التوتر والقلق بشكل دائم، والسلوك العصابي بالاصطلاح الهوميوستاتي هو سلوك يقلل من التوتر بدون تصحيح هذا اللاتوازن الأساسي. ويذهب بعض علماء النفس صراحة إلى تصور الشخصية باصطلاحات هوميوستاتية، ومن رأي أولبورت Allport (١٨٩٧ - ١٩٦٧) أن الإنسان يمكن فهمه أكثر بما يسعى إليه مستقبلاً أكثر مما يسعى إلى استعادته من الماضي.

مراجع:

- Fletcher, J.: Homeostasis as Explanatory Principle in Psychology.
- Ashby, W.R.: Design for a Brain.
- Apter, M.J.: Cebernetics and Development.
- Allport, G.: Personality: A Psychological Interpretation.

❖ ❖ ❖

- ٣ -

البيئة Environment

البيئة النفسية والبيئة السلوكية، ومطالب البيئة وأنواع البيئات، ومحددات البيئة والحتمية البيئية...

❖ ❖ ❖

يُقصد بالبيئة في علم النفس مجموع الظروف المحيطة بالفرد والتي يمكن أن تكون ذات أثر في تشكيل شخصيته وتوجيه سلوكه. والبيئة السلوكية Behavioral e. هي الوسط الذي يتمثله الفرد سلوكياً، ويسهم في تحديد أنماط سلوكه أو أساليبه في مواجهة مختلف المواقف. ومطالب البيئة Environmental demands هي المقتضيات التي يفرضها نوع الحياة فيها، وهي مطالب أو مهام Tasks حيوية واجتماعية وثقافية وحضارية. والعوامل البيئية Environmental factors هي كافة الظروف والعوامل المؤثّرة في الكائن الحيّ من خارجه. وعلم النفس البيئي

هو فرع علم Environmental psychology النفس الذي يدرس العلاقات التفاعلية بين الأفراد أو الجماعات والبيئة التي يتواجدون فيها أو يعيشون عليها، وتجتمع فيه الكثير من مجالات علم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم السياسة، وعلم العمارة، والإيتولوجيا ethology أو علم الطباع الخُلقية. ويقسم بعضهم البيئة إلى بيئة مادية إجتماعية Physico-social e. وهي كل ماديات المجتمع التي لها وظائفها وفوائدها للإنسان، كأدوات الإنتاج والزينة ووسائل المواصلات والاتصال، إلخ، وبيئة حيوية إجتماعية Bio-social e. وتشتمل على السكان من البشر والحيوان والنبات، وبيئة نفسية إجتماعية Psycho-social e. تضم العادات والعرف والتقاليد والمعايير والقيم والمعتقدات واللغة وأنماط السلوك، والعلاقات بين الجنسين وبين الطوائف والطبقات، والعلاقات الدينية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية. ومجموع كل ما سبق هو البيئة الكلية Total e.؛ وما يكون من كل ما سبق له تأثير مباشر أو غير مباشر على الفرد هو البيئة الفاعلة Operant e.؛ وما يدركه الفرد من البيئة سواء في معناها المحدّد أو المتّسع هو البيئة المدرَكة Perceived، والبيئة المتصوَّرة Conceived e. هي ما يكون لدى الفرد من تصورات أو أفكار عن البيئة، كأن يرى مثلاً أنها تحتوي على عفاريت أو جان، ويتصرف بناء على ذلك وعن اعتقاد في وجودها.

والبيئة الإنسانية بخلاف بيئة أي كائن حي آخر، ويستطيع الأفراد أن يتحكموا فيها وأن يتناولوها بالتغيير والتعديل، وبالزرع والاستصلاح والتعمير. والبيئة المصنوعة Biome هي التي يتغير نسقها البيئي Ecosystem، ويكون لتغييره تأثيراته على سلوك الأفراد. والبيئة المحايدة Neutral e. هي البيئة الفيزيقية والاجتماعية التي لا تفرض قيوداً على الناس، ويسمونها أيضاً بيئة سمحة Permissive e.

والمذهب البيئي Environmentalism هو قول المتطرفين الذين ذهبوا إلى تفسير السلوك والشخصية بتأثيرات البيئة والتفاعلات بينها وبين الأفراد،

ويردّون هذه التأثيرات إلى ما قبل الولادة، ومن رأيهم أن مفهوم البيئة يشمل كذلك البيئة الرحمية .Uterine or prenatal e منذ أن يتم إخصاب البويضة وحدوث الحمل. والمحددات البيئية Environmental determinants هي مؤثراتها الحاسمة والتي تطبع السلوك والشخصية بطابعها، وتصنع سماتها d traitsEnvironmental-mol - أي سمات البيئة تصنعها على الشخصية، ومؤثراتها مصدرها البيئة الداخلية .Internal e، ومحدداتها فسيولوجية أو بنيوية أو وراثية؛ والبيئة الخارجية .External e. ومحدداتها مناخية أو جغرافية، أو سياسية، أو إجتماعية، أو عرقية، أو ثقافية، أو حضارية. والقول بالحتمية البيئية Environmental determinism يقابله من ناحية أخرى القول بالحتمية الوراثية .Hereditary d، وهو اتجاه متطرف آخر تؤيده كنقيضه دراسات مستفيضة إشتهرت في تاريخ علم النفس باسم جدل الوراثة - البيئة Heredity-environment controversy or debate، أو مشكلة الطبيعة - التطبع Nature-nurture problem. وربما كانت الوراثة هي العنصر الأظهر في نمط سلوك الحيوان، إلا أنه في الإنسان فإن مشكلة أثر الوراثة والبيئة يحسمها دائماً أن الإنسان كائن حيّ منفعل وفاعل في الوقت نفسه، وأنه يتأثر ويؤثر، ويطبع وينطبع، وتجتمع فيه خصائص وراثية خالصة، وأخرى بيئية خالصة، كما أن به من السمات ما تتضافر عليه تأثيرات الوراثة والبيئة معاً، وهي استعدادت وراثية تعتمد على البيئة في نضجها وتتأثر بها، ومن ذلك مثلاً الذكاء والتحصيل.

مراجع:

- Anastasi, A: Differential Psychology.

❖ ❖ ❖

- ٤ -
الوراثة Heredity

نظرية الوراثة وداروين. وعلم الخصائص الموروثة والاستعداد الوراثي. والخلل في الوراثة. وجدل

الـوراثـة - الـبـيـئـة. ودراسـات الـصـفـات الوراثية للشعوب، والمجمع الجيني.

❖ ❖ ❖

الوراثة إنتقال للصفات الوراثية من الأبوين والجدود إلى الأبناء، عن طريق ما يُسمى بالكروموسومات Chromosomes أو الصبغيات، وهي حاملات المورثات أو الجينات Genes. ويهتم علم النفس بالوراثة من حيث تأثيرها في الأفراد، بأن تكون لهم صفات لم يختاروها لأنفسهم وتتحدد بها أنماطهم السلوكية وأساليب تعاملهم مع الناس ومع مختلف المواقف في الحياة. ونظرية الوراثة Theory of heredity أو Hereditarianism هي افتراض داروين Darwin (١٨٠٩ - ١٨٨٢) الذي طرحه في كتابه «أصل الأنواع Origin of Species» (١٨٥٩)، بأن الكائنات الحية قد تخلّقت بعضها من بعض، وأن الصفات الموروثة من السلف تتطور مع الخلف باستمرار - نظرية التطور Evolutionary. وعلم الخصائص الموروثة Hereditary charecterology هو أحد العلوم التي قامت على نظرية الوراثة في القرن التاسع عشر، بدعوى أن هناك خصائص وراثية Hereditary predisposition، أي تكون الوراثة فيها بالإمكان ثم يُظهرها التعرض لمؤثرات البيئة، والمثال على ذلك الفصام والصَرَع. وبعض الأمراض تحصل نتيجة خلل في الوراثة، فعندما يحدث التزاوج بين الذكر والأنثى فإن الخلية الملقحة تحتوي على ٤٤ كروموسوم، نصفها من الأب والنصف الثاني من الأم، يُضاف إليها زوجان من كروموسومات الجنس، إما XX في الأنثى، أو XY في الذكر، فيكون المجموع ٤٨ كروموسوم، ومعنى ذلك أن الصفات الوراثية يتشارك فيها الأم والأب مناصفة. وقد يحدث انحراف عن هذا النمط في تزاوج الكروموسومات الجنسية أو غير الجنسية، فمثلاً في الضعف العقلي المنغولي المسمى بمرض أو متزاملة داون Down's syndrome يكون عدد الكروموسومات ٤٧ بدلاً من ٤٨، وهي حالة نادرة تحدث مرة من كل ٦٠٠ حالة ولادة، وترتبط بأماكن معينة، مما يجعل القول بتأثير البيئة محتملاً. وتعمل

عوامل البيئة مع عوامل الوراثة منذ اللحظة التي يتم فيها الإخصاب ويحدث الحمل. وتتواجد الخلية الملقحة في بيئة رحمية توثر في تطورها، كما أن الجينات أو الموروثات التي تحملها الكروموسومات تعمل عملها أيضاً داخل بيئة الخلية الملقحة وفي تفاعل مع الجينات الأخرى، وتتأثر بالبيئة الخارجية وقد تستحدث بها تغيرات نتيجة مؤثرات كيميائية أو إشعاعية. والخلاف حول دور البيئة ودور الوراثة قديم واشتهر في تاريخ علم النفس باسم جدل الوراثة - البيئة Heredity - Environment controversy، أو إشكال الطبيعة - التطبُّع - Nature nurture problem، وهناك حالات يظهر فيها دور البيئة على دور الوراثة وبالعكس. وقد تبين مثلاً من دراسة التوائم المتماثلة Identical twins، وهي التي تأتي من بويضة واحدة وحيوان منوي واحد، أنه من شأن الوراثة الواحدة والبيئة الواحدة التي ينشئآن منها ويتربيان فيها، أن تأتي سمات الشخصية لكل منهما متقاربة، في حين أن اختلاف البيئة لكل منهما يباعد بين سمات شخصيتيهما. وعموماً فإن البيئة غير المؤاتية والمعوقة لنمو الطفل تكون لها آثار ضارة على شخصيته ونموه وسلوكه مهما كانت الصفات الوراثية التي تؤول إليه من الأبوين.

وتُسمّى الكروموسومات أحياناً باسم «خيوط الحياة»، وذلك لأنها تشبه الخيوط، وعليها يتوقف نمو الخلايا ونشاطها. والكروموسومات كما ذكرنا تحمل الجينات أو الموروثات، وأي صفة من الأب أو الأم ترجع في أصلها إلى واحدة من هذه الجينات أو إلى مجموعة منها. وتحتوي الكروموسومات والجينات على الحامض النووي DNA، وتركيبه بسيط وقد أمكن إعداده إصطناعياً، إلا أن الترتيب الفريد الذي عليه جزئياته هو الذي يقرّر خصائص النوع، والأفراد الذين يحملون هذه الخصائص، كما أنه ليوجه النشاطات المباشرة داخل الخلية يقوم بصنع أنواع مختلفة من حامض آخر هو RNA، مهمتها تخزين المعلومات الوراثية وتحويلها لشفرة وراثية تُستَدعى بها الأحماض الأمينية المطلوبة وتُرتّب بطريقة خاصة يكون بها تكوينها كبروتينات وتحليقها في أماكنها، ومن

البروتينات أنزيمات تستحث التفاعلات الكيميائية الوراثية في الخلية بدقّة وسرعة، وعند حدوث أي خطأ فإن شذوذ الخلقة يترتب عليه ويتحصل بسببه المرض النفسي أو العقلي نتيجة عجز الحامض النووي عن تكوين البروتين المطلوب.

والإمكانات الوراثية التي تنتقل من الأبوين والجدود على هيئة صفات سائدة Dominant أو متنحية Recessive، أي غير ظاهرة، تصنع ما يُسمى النمط الجيني Genotype للفرد، ويقابله النمط الظاهر Phenotype وهو ما يبدو عليه الفرد من خصائص جسمية وغير جسمية تشابه خصائص الأبوين ويمكن التعرف عليها فيه ومقارنتهما بها. ولكل مرحلة من العمر نمطها الظاهر. والنمط الظاهر هو الذي يبدو فيه أيضاً تأثير البيئة، فلون الجلد مثلاً له نمطه الجيني، وإنما النمط الظاهر له يتّضح فيه أثر البيئة بأن تزيد سمرته قليلاً أو كثيراً بتأثير الشمس والحرارة. وعلم الوراثة الظاهرة Phenogenetics هو دراسة التغيرات الوراثية الظاهرة عبر مراحل النمو، ولذلك فقد سُمّي أيضاً علم الوراثة الارتقائية Developmental genetics، ويبدو من هذه الدراسة أن القول بالنمط الجيني كالقول بالحتمية العضوية أو البيولوجية، إلا أن تأثير البيئة بما عليه النمط الظاهر يؤكّد أن الإنسان ليس مشروطاً بالوراثة فسيولوجياً وعضوياً وعقلياً ونفسياً. والقول بالنمط الجيني أو الإشراط الوراثي قد يعني أن الإنسان محكوم مسبقاً بصفات وراثية، وقد يكون ذلك صحيحاً من الناحية النظرية، إلا أنه عملياً فإن الإشراط الوراثي يتغيّر بالبيئة بما تكون عليه التربية التي ينشأ عليها الفرد وما تتيحه له من عناية صحية واجتماعية وثقافية وحضارية، وكلها من وسائل البيئة التي يمكن أن نسيطر بها على نموه. ويقوم علم تحسين السلالات Eugenics منذ أن قدّمه جالتون Galton (١٨٢٢ - ١٩١١) على هذه الفرضية من حيث التدخل لتعديل تأثير الوراثة واختيار الأفراد ذوي الصفات الجيّدة لإنجاب سلالات ذات مواصفات أفضل. وقد يبدو أن الغاية التي تتوخاها الوراثة هي المحافظة على الأنواع واستبقاء صفاتها،

إلا أن الوراثة بهذا التحديد تكون عنصر جمود. ومن شأن الطفرات Mutations الخروج عن إطار الخصائص المتوارثة الجامدة وتجربة صفات جديدة، والطفرات الشاذة تضرّ بالنوع ويجري عليها ما يسمى بالموت أو الإعدام الوراثي Hereditary death. ولقد قيل إن الطفرة ربما لا تتناسب مع بيئة معينة ولكنها قد تناسب بيئة أخرى، وذلك شأن الطفرات الخفيفة والتي يوصف الأفراد الذين تجري عليهم بالضعف البنيوي أو رهافة الخلقة والصحة. والطفرات الخفيفة أكثر شيوعاً من الطفرات الشاذة، وتكثر الطفرات الشاذة في البيئات التي يصدق عليها التلوث الكيميائي أو الإشعاعي الشديد.

ودراسة الصفات الوراثية لجماعة أو لشعب Population genetics تميل بالبعض إلى أن يقول بما يسمونه المستودع أو المجمع الجيني Gene pool للجماعة، وهو مجموع صفاتهم الوراثية المميزة لأفرادهم والتي تجعل منهم وحدة عرقية تختلف في صفاتها عن صفات غيرهم من الأعراق المتباينة عنهم. والمجمع الجيني ليس اجتماعاً وقتياً من هذه الصفات ولكنه جُماع الصفات على طول الزمن، وهو افتراض سليم طالما أن الجيل الحالي يرث صفات الجيل السابق عليه ويسلمها للجيل اللاحق له، وطالما أن الجماعة أو الشعب تضمه بيئة محدّدة يكون التقاء أفراده على أرضها متاحاً والتزاوج بينهم ميسراً ومغلقاً عليهم دون أفراد غيرهم من الجماعات أو الشعوب. وتضيع الصفات العرقية لشعب ما بانتشار أفراده في المعمورة وتباعد المسافات بينهم وتزاوجهم من الآخرين. ومثلما هناك مجمع جيني عرقي فهناك أيضاً المجمع الجيني العام للإنسانية كلها، فلم يُعرف أن الإنسان تزاوج وكائن آخر غير إنساني، وأيضاً فإن الفرد من الإسكيمو وإن بدا أنه من المستحيل أن يتزاوج من عربية مثلاً، إلا أنه من الممكن أن يتزوج من فرد من سلالة مغايرة وقريبة مكانياً، بحيث تتصل الحلقات بين الإسكيمو وغير الإسكيمو وإن بعدت المسافة، فتجتمع الإنسانية على صفات وراثية خاصة

بها. والمفروض أن الوراثة يكون بها تكيف الفرد مع بيئته، وتنوع البيئات يستلزم صفات وراثية متعددة ومتباينة، ولذلك فإن الاحتمالات لاتحاد الجينات حاملات الصفات الوراثية تزيد باستمرار. وكثيراً ما يشار إلى مقولات داروين في الوراثة بأنها انتخاب طبيعي يكون البقاء به للأصلح. ولا يعني البقاء للأصلح وجود صراع بين الأفراد والأنواع، وإنما أن المعول عليه في الوجود انتقاء الصفات التي يكون بها تكاثر النوع، والتي بها تكون صلاحية الأفراد لمواكبة الحياة والظروف والملابسات. والصلاحية التي يقول بها داروين هي صلاحية وراثية، أي نرثها من الآباء ونورثها للأبناء. ومن دأب الحياة أن كل فرد يحمل معه صفات طفرة تخرج به عن التشابه المتطابق مع الآباء، ولهذه الصفات عبؤها غير المنكور الذي ليس الأصل فيه تماماً لمكدرات الحضارة، ولا بد أن تُقابَل الطفرة السيئة بمبدأ يوازنها، وهذا المبدأ هو الانتخاب الطبيعي Natural selection، وأيضاً فإن الموت الوراثي مبدأ آخر يحول بين النوع وأن يكون تطوره للأسوأ. ويميل التطوريون أو القائلون بالتطور Evolutionists إلى تأكيد أن الإنسان يتطور للأفضل، وأن الوراثة في إجمالها تؤكّد على الصفات الأفضل وتعمّمها، ولربما يكون هناك ما يُسمى توازناً وراثياً Genetic equilibrium يقابَل فيه بين السيئ والجيّد من الصفات الموروثة. ولربما في الإنسان الواحد نفسه قد لا تكون الغلبة لمورثة على غيرها، فالمورثات تعمل جميعها في تفاعل مع بعضها، إلا أن الإنسان يستطيع أن يتحكم في تزاوجه وفي مواصفات البيئة بما يرجّح تحسين سلالاته، وهو ما أمكن التحكم فيه فعلاً بطريقة ظاهرة في الحيوان والنبات، حيث يسهل التجريب في مجاليهما دون تثريب ولا مسؤولية.

(أنظر أيضاً البيئة).

مراجع:

- Stern: Principles of Human Genetics.

❖ ❖ ❖

- ٥ -
التطور Evolution

معنى التطور على مدار العمر، وتأثير البيئة فيه. السلوك صناعة الوراثة والبيئة. الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح. القدرة على التعلّم من الثوابت الجينية. التطور البيولوجي والتطور الثقافي. التطور والأخلاق. التطور وتحسين السلالات.

❖ ❖ ❖

التطور هو سُنّة الحياة، والصيرورة هي ناموس الوجود. وكل الكائنات الحيّة تتطور، ومنها الإنسان، والإنسانية لها بدايات تثبته الحفريات والآثار، وكل فرد له مراحل نمو تتطور به نحو النضوج، وبعده يتحصّل التنكّس Degeneration أو الشيخوخة Senescence، ولكل فرد نمطه الجيني Genotype الفريد داخل الإطار الجيني العام للنوع. ورغم أننا نورث الأبناء الجينات التي نرثها عن الآباء، إلا أن ما نتناقله ليس هو الميراث نفسه، وإنما يجري عليه التغيير والتعديل، ويساعد على التغيير والتزاوج بين أفراد أو أجناس متخالفين. ويهدف التطور إلى أن يرتقي بالنوع، والتكاثر وسيلة الأنواع لاستمرار البقاء، والمحافظة على النوع هي غاية الوراثة، والتغييرات أو التعديلات التي يستحدثها التطور تزيد بها كفاءة أفراد النوع على التكيف مع ظروف البيئة والتوافق مع متطلباتها. والبيئة كعنصر مؤثر في التطور لا تستحدث التغييرات والتعديلات وإنما هي تحث الأفراد على أن يتجاوبوا معها، والاستجابة التي ينجح الأفراد في التوافق بها مع البيئة تتدعم وتتثبت، والجينات التي تؤهل لها هي التي يتناقلها الخَلَف، لأنهم بها يكون استمرارهم في الحياة وتكاثرهم. والخلايا الجنسية من الذكر والأنثى هي التي تصل بين السلف والخلف، وهي لا تحمل أنماط السلوك، فالسلوك لا يورث، وإنما الذي يورث هي الاستعدادات له والإمكانات التي بها يتحقق، والسلوك نفسه نتعلمه من البيئة في حدود هذه الاستعدادات أو الإمكانات. والوراثة والبيئة Heredity and

environment يصنعان السلوك، والوراثة تنقل الصفات النوعية، فالإنسان مثلاً كائن له القدرة على الكلام، ولكن ما يتكلم به من موضوعات هو ميراث حضاري بيئي. والوراثة والبيئة كلاهما يصنع الشخصية ويطوّرها. والتطور الذي يلحق النوع تحدّده عوامل بعضها موروث وبعضها من البيئة. والإنسان له السمات الثابتة في حدود كونه إنساناً، وهي سمات لا تتغير بالمكان ولا بالزمان، وثبوتها الجيني هو الذي يحفظ على انسانيته، وله أيضاً سماته المرنة التي يتكيّف بها مع الظروف ويتواءم مع المكان والزمان. وهو يدخل تجارب مع البيئة الواحدة والبيئات المتعددة، ويتمرس بمختلف الأجواء والمناخات، والتطور يجعل له هذه القدرة التلائمية Adaptive ability، وكلما زادت به هذه القدرة كان أقدر على الحياة والاستمرار. والانتخاب الطبيعي Natural selection بين الأفراد هو الذي يجعل البقاء للأصلح Survival of the fittest. والثقافة Culture عنصر آخر من العناصر التي بها يتأهل الإنسان للانتخاب الطبيعي، فهو يتعلم ويتدرب في حدود الثقافة، وتزيد قدرته على التكيف مع البيئة والتطور نحو الأفضل. والثقافة لا تنتقل من جيل إلى جيل بالوراثة الجينية، ولكنها تُكتَسب دوماً بالتعلّم والتعليم بواسطة اللغة، والتعلّم Learning والقدرة عليه هما المحكان للقدرة على التطور، والقدرة على التعلّم من الثوابت البيولوجية التي تميّز الإنسان كإنسان، وكل فرد غير مؤهل جينياً للتعلّم يتخلف عن التطور ويستبعده الانتخاب الطبيعي.

والقدرة على التعلّم بالإضافة إلى المرونة الجينية تساعد على تطوير السلوك والإرتقاء بالشخصية إلى مستويات ثقافية أرقى. ومن الممكن أن يتعلم أي فرد أغلب المهن والحرف، ولا تتعارض المرونة الجينية مع التخصّص المهني أو الحِرَفي والنبوغ فيه. ويقوم التخصّص على التنوع الجيني للأفراد، وبذلك يتباين الأفراد جينياً، وأيضاً يتباينون من حيث الحِرَف والصناعات والمهن والأنشطة ويكون تمايزهم الثقافي. ويذهب دعاة العنصرية Racists إلى تأكيد التخصّص الجيني، ويبنون عليه تفوّق بعض الأجناس ثقافياً، كالتفوق

الجيني للجنس الآري Aryan race ، أو الجنس اليهودي، أو السامي Jewish or semitic race، أو الجنس الأصفر Yellow race، وهم يقولون إنه كما أنه في نوع الكلاب مثلاً هناك أجناس يتميز كل منها بميزة عرقية أو جينية، فكذلك النوع البشري هناك أجناس وشعوب تتمايز عرقياً وتتفوق على غيرها، والجنس الآري مثلاً كان تفوقه في الموسيقى الكلاسيكية والفلسفة. والمغالطة في الدعوى السابقة أن التطور في الحيوان هو تطور بيولوجي، في حين أن التطور في الإنسان هو تطور بيولوجي وثقافي بالدرجة الأولى، والتطور البيولوجي عند الإنسان يبدو وكأنه قد توقف باكتمال العقل البشري، وما يزال الإنسان يتطور ثقافياً ويوجّه نفسه وجهة إرتقائية بحسب ميول كل شعب وكل جنس. ويثور الجدل حول ما إذا كانت أجناس الإنسان كانت كذلك دوماً، أم أنها تنوعت بتأثير البيئة. والغالب أن الثوابت الجينية عند الإنسان هي نفسها عند كل الأجناس، وأما السمات الأخرى من لون وخلافه فهي من خصائص تكوينه الجيني المرن والمتجاوب مع متطلبات المكان والزمان. والدليل على ذلك أنه ما إن تغير أجناس الإنسان بيئاتها كما في الهجرة إلا ويكون اشتراكها الكامل في الأنشطة الثقافية المرتبطة بهذه البيئات، وقد صار اليهود وهم من الجنس السامي - الذي قيل إنه لا يتفلسف وليست له موسيقى - فلاسفة كباراً وموسيقيين ورسّامين وعلماء بعد أن سكنوا ألمانيا وفرنسا وانجلترا وغيرها من بلاد الآريين والأوروبيين. والقدرة الأنسب للإنسان هي قدرته على التعلّم والتعليم، والتمايز بين الأجناس هو في دعم هذه القدرة عبر التاريخ. والتعلّم في الإنسان ليس كالتعلّم عند الحيوان. ولم تكن المرونة الارتقائية في الإنسان محض صدفة تحصّلت له، ولكنها على العكس محصّلة تكيّف تطوري أساسي يميّزه عن بقية الكائنات. ولقد ثار الجدل حول دور التطور في تأسيس الأخلاق Ethics وتأصيلها عند الإنسان. ومن الممكن تطبيق مبدأ الانتخاب الطبيعي على مجال الأخلاق كما في أي مجال آخر، فمن خلال التطور كانت المفاضلة بين أفراد جيناتهم غيرية Altruistic وأفراد جيناتهم أنانية

Egoïstic، والأولون إتجاهاتهم نحو الناس والتضحية حتى بأنفسهم من أجل الآخرين، على عكس الأنانيين الذين يحاربهم الناس ويعادونهم ويعتزلونهم، ومن ثم يكون استبعادهم تطورياً بمقتضى مبدأ الانتخاب الطبيعي. والأخلاق تعني السلوك الجمعي المتحضر وانتصار الغيرية، والتطور يؤكّد الوراثة الغيرية على الوراثة الأنانية. والتطور مع الأخلاق. والانتخاب الطبيعي يجعل من الإنسان كائناً أخلاقياً Ethical being، ومتلقياً للأخلاق يجيد التلقّي، ومتقبّلاً للسلطة الأخلاقية، لأنها تؤكّد وجوده، وتدعّم بقاءه في الحياة، وترقّي سلوكه. والإنسان في كل مراحل حياته وتطوره، وخاصةً في طفولته كفرد أو كنوع، كان تواقاً لمعرفة الخير والشر والصواب والخطأ والحق والباطل. ويشغف الإنسان بالتعلّم من أبويه والمحيطين به. وقد لا تكون الغيرية والأنانية من التكوينات الجينية في الإنسان، وإنما هي من مكتسبات الثقافة التي نتحصلها بالتعلم وليس بالجينات، إلا أن التطور، والانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح، في صالح الغيرية، والمجتمع بمصالحه مجتمعة، وثقافة وقوانينه، والديانات فيه، ضد الأنانية. ويُولد الإنسان ولديه الاستعداد الجيني ليسلك السلوك الفاضل أو السلوك الإجرامي، وهو يتعلم الأخلاق من الثقافة، ويتحصّل له الوعي بأبعاد الأخلاق، ويختارها لنفسه سلوكاً، لأنه بها يكون أصلح للاجتماع، وأقدر على التوافق والارتقاء تطورياً. ومن الصعب التكهن بما يمكن أن يؤول إليه الإنسان بالتطور. والتطور الثقافي للإنسان أسرع من تطوره البيولوجي، ويجعله تقدُّمه الثقافي على قدر كبير من اللياقة البيولوجية للبقاء والتطور، ولكن هذه اللياقة لا بد أن تواكب الطموحات الثقافية إذا أريد لها الاستمرار، وذلك ما يجعل علماء تحسين السلالات Eugenics يسعون إلى تحسين السلالة الإنسانية جينياً، بتعقيم غير الصالحين، وتعميم الدعوة للتلقيح الاصطناعي من سلالات مختارة، وقد روّج لهذه الدعوة العنصريون في بداية القرن العشرين، الأمر الذي جعل الجمهور يتشكك في نوايا علم تحسين السلالات، ويطالب

بقصر بحوثه على مجال الحيوانات دون الإنسان.

مراجع:
- Dobzhansky: The Evolution of the Human Species.

❖ ❖ ❖

- ٥ -
سيكولوجية المرور

حوادث السيارات ومسبباتها، وديناميات شخصية السائقين، والشروط الواجب توافرها في السائق، والقيادة وسيكولوجيتها، والعلاقة بين السائق والمركبة، والتأثيرات النفسية لألوان إشارات المرور الكهربية، والتحليل النفسي لحوادث المرور...

❖ ❖ ❖

سيكولوجية المرور Traffic psychology من المجالات التي يهتم بها علم النفس التطبيقي Practical psychology، والتي صارت تحتمها التطورات الهائلة في المدن، والمواصلات والزحام المروري الذي صارت تعاني منه، والتجارة الضخمة التي تبلغ مليارات الدولارات سنوياً، بيعاً وشراءً للمركبات أيّاً كانت، سواء الطائرات أم السفن أم القاطرات أم السيارات، والأرقام المذهلة للوفيات بسبب حوادث المرور، وما يترتب عليها من خسائر مادية وخسائر نفسية واجتماعية أكبر من ذلك بكثير.

والبحوث في سيكولوجية المرور ينصرف أكثرها لحوادث السيارات ومسبباتها النفسية، والشروط الواجب توافرها في السائق المسؤول، وديناميات شخصية السائق، والاضطرابات النفسية التي قد يعاني منها، وخاصة الطيارين. وأقل البحوث تتناول مشاة وركاب وسائل المواصلات، والأسباب النفسية لتفضيلهم وسيلة على أخرى، وسيكولوجية السلوك القيادي، وسلوك المشاة والركاب. ويتعرّض علماء التحليل النفسي كثيراً لتفسير رعونة الشباب في قيادة السيارات، وقد يُرجعون ذلك إلى مشابهة فعل القيادة للممارسة الجنسية،

والتعويض بالقيادة عن الجنس، وقد تعطي القيادة إشباعاً بالسيطرة والضبط والتحكم. ويعاني الطيارون مثلاً من عُصاب الطيارين Aviators' neurosis، وهو خواف يتحصل لهم ويمنعهم من الطيران، وقد يعانون بسببه من العمى الليلي، أو من خواف الأضواء الذي يحول بينهم وبين قيادة الطائرات في أوقات دون أوقات. ويدرس علماء النفس العلاقة بين السائق والمركبة ضمن ما يُسمى نسق الإنسان الآلة Man-machine system (MMS)، ويتبعون لذلك عدّة وسائل، منها رصد حركات السائقين وآرائهم، وردود فعل المشاة والركاب. وهناك طرق لتسجيل معدلات الزحام، وتصوير متعلقات المرور جميعها ولكافة الأطراف على الطبيعة، وبالصوت أيضاً، وقد تُصطنع المواقف كما في المختبرات لرصد جوانب معيّنة، وإجراء البحوث فيها والدراسة عليها والتجريب بصددها، سواء من حيث السلوك، أو التعديلات في تصميم المركبات لتلافي عيوب معيّنة، أو إجراء تحسينات فيها. وتأتي التحسينات السنوية نتيجة البحوث النفسية التطبيقية، سواء على الشارع وتصميمه، أو إشارات المرور وتأثيرها وأشكالها وألوانها، أو العِدَد المُشَغِّلة للمركبة، وتواؤمها مع القدرة الحركية والإدراكية للإنسان.

ويهتم الأخصائيون النفسيون بالسلوك القيادي Driving behaviour ومكوناته الحركية، والإدراك البصري والسمعي للمجال القيادي، والتأثيرات النفسية للزحام، وللتجاوز، ولأعطال السيارات. والزحام يستحدث أحوالاً من التوتر، وتوقف سيولة السير بسببه يستحدث الإحباط، وهناك تجارب على الحيوانات ترصد ما يتحصّل لها فسيولوجياً نتيجة إحباط الزحام. ومن أسباب القرحة الهضمية Peptic ulcer عند بعض السائقين الزحام الذي عليه المدن الكبيرة، وكذلك قد يُردّ الصداع النفسي المنشأ Psychogenic headache إلى الزحام والإحباط، وإلى التوترات الدائمة خلال القيادة، ومعاناة القلق نتيجة التأخير. والقيادة بشكل عام لها ضغوطها النفسية. ويميل السائقون في المؤخرة إلى متابعة سيارات المقدمة

والاقتداء بها في السرعة والتهدئة والتوقف. وهناك علاقة بين نوع السيارة وسلوك جندي المرور مع السائق الذي يقودها، وقد تفسر المعاملة الطيبة لجندي المرور مع سائقي السيارات الفارهة بأنه من تأثير ما يسمى «أثر الطلعة Halo effect»، والانحياز أو الاحترام الطبقي عند الجندي لسائق أو مالك السياراة الفارهة، بالنظر إلى ما تمثّله عنده كرمز طبقي له استجاباته النفسية. والكثير من الرعونة عند الشباب من أصحاب هذه السيارات مغفور عند جنود المرور، بينما هو غير مغفور عند سائقي الأجرة أو السيارات الصغيرة. وقد قيل في أسباب استخدام اللون الأحمر للتوقف الفوري، إنه لون يلفت النظر ومنبّه للذهن ومثير انفعالياً، بينما اللون الأخضر له تأثيرات هادئة ومخفّض للانفعالية، واللون البرتقالي تأثيراته بين اللونين، وهو لون محذّر يجعل القائد يتمهّل في السرعة ويلتفت يمنةً ويسرةً يحذر الحوادث. وتُستخدم هذه الألوان الثلاثة في إشارات المرور بالنظر إلى تأثيراتها النفسية، كما يستخدم اللونان الأحمر والبرتقالي في أنوار السيارة الخلفية للأسباب نفسها، ولضمان استحداث التأثيرات نفسها عند السائق الآخر للمركبة التالية فيتوقف أو يهدئ. ومن شروط القيادة القدرة على استيعاب المجال البصري، وعلى التثبيت الإدراكي البصري على أشياء بعينها فيه، بعيدة أو قريبة. واتخاذ القرار. وكذلك المخاطرة، من أهم الوظائف التي يمكن أن يأتيها السائق، زِد عليه في بعض الأحيان أن يقرّر بسرعة مذهلة، أو يخاطر، إنقاذاً لنفسه ولغيره من حوادث مؤكّدة، ويستلزم ذلك سرعة في الحركة، قيل إنها أهم من السرعة الإدراكية. وتشكّل إشارات المرور وإرشاداته، ودلالاتها، والشكل الذي عليه الطريق، وعدد السيارات به، وانتظام المشاة، وانفعالات جندي المرور، ضغوطاً على السائق، وعبئاً ذهنياً Mental load يتطلب في السائق مستوى معيناً من الذكاء، والانتباه، والتوازن النفسي، والقدرة على الحركة، وعلى التصرّف واتخاذ القرار. ولم يدرس أحد حتى الآن سيكولوجية الحركة التلقائية التي تتحصّل بالمران

والتدريب على القيادة، وتأتي بعفوية ودون قصد ولا انتباه. والسائق يتحدث مع غيره، وأحياناً يقرأ أو يأكل أو يستمع تماماً لبرنامج إذاعي، أو يفكّر تفكيراً عويصاً في أمر من الأمور، أو يتحدث في الهاتف مع غيره. والقيادة كلها مخاطرة، والتعامل معها يتوقف على نمط شخصية السائق. وقد ثبت بالدراسة إرتباط وقوع الحوادث وشخصية السائق. ويبدو أن هناك ما يسمى بالشخصية القابلة لإتيان الحوادث، ومنها حوادث المرور، والقابلية أو الاستعداد للحوادث Accident proneness يكون بالبعض نحيزة نفسية وبيولوجية Diathesis، أي تجعله ينحاز إلى عمل الحوادث. وقد تبين بالدراسة أيضاً أن أشخاصاً بعينهم يميلون إلى تكرار الحوادث وينسبونها فيهم إلى الغفلة أحياناً، أو النسيان أحياناً أخرى، أو التفكير المشتت. وهناك ارتباط أكيد بين تدنّي الذكاء وإتيان الحوادث، وترتفع معدلات الحوادث - وحوادث المرور بالذات - عند أصحاب الذكاء المنخفض، بنسبة تزيد إلى نحو خمسة أضعاف عن معدلاتها عند أصحاب الذكاء المرتفع. وهناك من أهل العلم من يحدّد سمات معيّنة للشخصية القابلة لإتيان الحوادث، مثلما توجد سمات معيّنة للشخصية العدوانية مثلاً أو الشخصية السيكوباتية، إلخ. ومن سمات هذه الشخصية الاندفاع، والرعونة، وسطحية التفكير، والآنية، والنرجسية. ومثل هذه الشخصية يستوي عند صاحبها إتيان الهفوة المرورية الصغيرة واستحداث الخطأ الجسيم. وبعض حوادث المرور تقع بالصدفة ولا ذنب للسائق فيها، كأن يعبر الطريق أحد المشاة فجأة والسيارة منطلقة. والبعض ممن تقع لهم الحوادث بالصدفة قد يأتي الحوادث من بعد ذلك بتأثير الخوف، والحرص، والحذر، ونقص الثقة في النفس، فيتأخر اتخاذ القرار في اللحظة المناسبة، ويتسبّب ذلك في وقوع الحادث. وتهيّىء حوادث الصدفة السائق لحوادث مستقبلة وتجعله مؤهلاً لإتيانها. ويذهب بعض الباحثين النفسيين إلى القول بأن الأهلية لارتكاب الحوادث، ومنها حوادث المرور، تكون فينا جميعاً وإنما بفروق

فردية، وتتوزع علينا توزيعاً على بُعد واحد فيما يُسمى بالمتّصل. وتقع حوادث المرور لأسباب خارجية وأسباب ذاتية من السائق نفسه. والأسباب الخارجية منها عدم صلاحية السيارة، وتخلّفها عن مواكبة التحسينات، وصعوبات الطريق، وضعف الرؤية أو انعدامها، ورعونة الآخرين، وتدنّي الوعي المروري بتأثير ضحالة الثقافة أو انتشار الأمية، وتأثير الظروف المناخية كارتفاع الحرارة، وكلها ظروف بيئية لها مردودها النفسي الضخم على السائقين. ولا شك أن الارتفاع لأثمان السيارات يستوجب الاهتمام باختيار السائق عليها وتهيئة الظروف الميسرة للقيادة الخالية من الحوادث. ولكل سائق أسلوبه الذي يتكيف به مع السيارة بحسب سماته الجسمية والحركية والإدراكية. وللتعب تأثيره على سائقي السيارات العامة والشاحنات والأجرة، والتعب يولد السأم، كما ان السأم يولد التعب، ويُفتَعل السأم بتأثير القيادة لمسافات طويلة عبر طرق لا تتغير مناظرها والأحداث فيها. وللسن والجنس والخبرة تأثيرها أيضاً، وذلك لأن قلة الخبرة ترتبط بالسن، ويزيد بطء الحركة والتفكير مع تقدم السن. والنساء عموماً أكثر إتياناً لحوادث المرور وخاصة في الفترة السابقة على الحيض وخلاله، والمرأة تكون أثناء ذلك عصبية وكثيرة الغفلة والنسيان والشرود الذهني، كما أن النساء عموماً يُعانين من نقص في الاتزان النفسي والفسيولوجي يجعلهن أكثر تعرضاً للتعب والسأم، وأقل انتباهاً وتركيزاً، وأميل للعصبية والإصابة بالتوتر والقلق، بالإضافة إلى أن نمط الحياة الاجتماعية الذي تعيشه المرأة التي تقود سيارة، أي المرأة العاملة غالباً، يجعلها أكثر تعرضاً للتعب عن الرجل بحكم مسؤولياتها المنزلية والعائلية والوظيفية. وأثبتت الدراسات النفسية أن الإناث أكثر تعرضاً لعُصاب القيادة Driving neurosis من الذكور.

وتؤثّر الحالة المزاجية في القيادة، وتبين الدراسة أن أغلب الحوادث المرورية لأفراد في حالات مزاجية متدنية أو منتشية، كالحزن الشديد، أو

الفرح البالغ، أو الغضب، أو الخوف، فيقل الانتباه ويسوء التوجّه والحكم. ويميل علماء التحليل النفسي إلى ردّ السلوك الجامح في القيادة أو الإهمال فيها، إلى رغبة في الانتحار أو إيقاع الأذى أو العقاب بالنفس، أو بالغير، لميول عدوانية تتوجه إلى الذات أو الغير، أو ربما لمشاعر ذنب وصراعات ودوافع لاشعورية. والأخطاء في القيادة مثلها مثل الأخطاء في أي عمل، يمكن أن يكون لها سببٌ نفسي شعوري أو لاشعوري، وليس من الصواب ردّها لمجرد الطيش أو السهو، إلخ، فحتى الطيش والسهو لهما أسبابهما النفسية. ولم يكن فرويد يؤمن بالصدفة النفسية تترتب عليها الحادثة وتستحدث الإصابة للفرد أو الغير، وإنما لكل حادث حتميته السيكولوجية.

مراجع

- J. O'Day: Driver Behavior: Cause and Effect.

❖ ❖ ❖

- ٧ -
سيكولوجية الموضة

معنى الموضة. الموضة وروح العصر. الموضة والحضارة. النساء والأزياء وأدوات التجميل. التطور ومواكبة الموضة. لذة تجربة الجديد واكتشاف الذات وتأكيد الشخصية. الموضة والبدعة والذوق العام...

❖ ❖ ❖

للموضة Fahion أو Mode أسباب نفسية تقتضي تغيير الأشكال والقوالب الفنية أو الأدبية أو النظرية السائدة. وتشمل الموضة كافة المجالات والأنشطة، فهي تكون في العلوم، والفنون، والآداب، والهندسة، والترفيه، والأزياء، والمآكل، والمشارب، إلخ. وتتحكم في الموضة روح العصر Zeitgeist، وأغلب ما يُستخدم إصطلاح الموضة في الأزياء وخصوصاً الأزياء النسائية، أو أنه يُستخدم بكثرة في كل ما يتعلق بفن التجميل عند المرأة، كتسريحة الشعر، وأنواع العطور، والألوان

والخطوط، وأشكال الأحذية، وأدوات الزينة، والحليّ، وكل ما يتّصل بالحضارة بسبب من الأسباب. وتأخذ بأساليب الموضة المجتمعات المرفهة، والطبقات الموسرة، والأفراد الذين يطلبون التغيير في حياتهم وينشدون المغايرة عن الناس والخروج عن المألوف والروتيني ويسعون للتجديد. والمرأة أحق بذلك من الرجل لأسباب نفسية، يذكر منها علماء التحليل النفسي أن المرأة تميل إلى الاستعراضية Exhibitionism، في حين أن الرجل يميل إلى التطلّع Voyeurism، والموضة ترضي الطرفين من حيث انها تهيئ للمرأة أن ترتدي من الأزياء والأدوات ما يظهر جوانب شخصيتها، بحسب المواقف المتباينة التي تريد أن تظهر فيها بمظهر معيّن يلفت إليها الأنظار ويحبّب فيها «الجنس الآخر The other sex». وملاحقة المرأة للموضة تعني أنها تريد لنفسها ملاحقة التطور، وأن توصف بأنها امرأة عصرية، والمجتمعات التي تأخذ بالموضة هي مجتمعات تموج بالمتغيرات. ولا تعرف الموضة المجتمعات الساكنة أو المحافظة من بدو وأرياف. وتقتضي الموضة أن تكون هناك أذواق عدّة يفاضل الناس بينها ويختارون منها، وأن تكون الأوضاع الاجتماعية متطورة، تحتاج باستمرار إلى أشكال فنية وأدبية ونظريات وفلسفات تواكبها. ولا بد أيضاً من وجود شخصيات إجتماعية ذات مكانة تكون قدوة للآخرين وتأخذ بالجديد. وقد تُفسَّر الموضة سيكولوجياً بأنها ميل للتحرر من التقاليد والأطر الفكرية والمعيشية التي تسود لفترة ثم تجمد. وقد تكون الموضة بسبب شعور بالملل والسأم، وقد تستدعيها الرغبة الدائمة في إضفاء لمسات جمالية على الأوضاع القائمة وتحصيل لذّة تجربة الجديد. وقد تكون الموضة وسيلة من وسائل اكتشاف الذات، وقد تكون أيضاً إثباتاً للذات بممارسة الاختيار وتجربة الجديد الذي لم يسبق إليه أحد، وتحمّل مسؤولية الأخذ به وانتقاد الناس له. والموضة في الأزياء يستهدف بها المتزيّي أن يجد فيها التعبير عن جوانب من شخصيته لم يتعرف إليها الناس. وتعدّد الأزياء يتيح للمتزيّي أن يظهر بشخصيات متعدّدة، أو أن يخفي أشياء ويظهر أشياء

من جسمه ورسمه بحسب ما يريد أن يؤكّده للناظرين، وأن تتحقّق له بها وحدة جمالية، أو انتظام يعطي عنه انطباعاً جمالياً أو إدراكياً معيناً. واختلاف الموضة فيه تكثير للشخصية بحسب المواقف المتباينة التي تستدعيها. والمرأة بالموضة لا تكون بها امرأة واحدة ولكنها تكون أكثر من إمرأة، أو أنها تكون بها حواء الخالدة Eternal Eve ذات المائة وجه، أو المائة حضور، والمائة شخصية. ومهمة الموضة أن تحقّق هذا التباين وتضفي على المتزيّي هذا الثراء. وتتميّز في الموضة مرحلتان، الأولى: مرحلة الطرح للجديد؛ والثانية: مرحلة الاختيار. والموضة Mode تختلف عن البدعة Fad، ذلك لأن الموضة، ولو أنها تغيير، إلا أنه تغيير موصول بموضات قديمة، في حين أن البدعة تأتي فجأة وتنتهي فجأة وليست لها استمرارية تاريخية. والموضة يمكن وصفها بأنها معايشة للزمان والمكان، أو أنها معاصرة Modern، في حين أن البدعة تكون غريبة، وقد تنتشر ولكنها غالباً ما تقاوَم وتقابَل بالاستهجان. والموضة فيها خيال وإبداع، والبدعة غالباً شطحات. واتباع الموضة ومشايعتها يخلّص من استعباد العادة، ويتيح للأنا الفرصة أن يستعرض نفسه، كما أنها فرصة لإرضاء النزعات والميول الجنسية. وتشكّل الموضة الذوق العام General taste، أو الذوق الجمعي Collective taste، وهو عنصر إيجابي، يستقبل ويطوّر ويتقبّل ويرفض، ويشكّل عالم من الجماليات للأفراد والجماعة، ويتشكل هو نفسه من خلال تفاعل الأفراد وتجاوبهم مع الخبرات نفسها. وعملية تكوين الموضة هي عملية تكوين ذوق جمعي. والذوق الجمعي دائماً في حالة تشكّل، ومن خلال الموديلات الجديدة New models والاقتراحات يصمّم واضعو الموضة الخطوط والسكتشات المحتملة للتغيرات المتوقعة، وبعضهم يتميز بالإبداع الحقيقي والخلق باستمرار، وبعضهم شاذ Eccentric يخرج عن المألوف ويقدم الغريب. وكثيراً ما يكون مصممو الموضة من الرجال وبهم تشبُّه بالنساء ويحبّون أن يسلكوا مثلهن، وأن يلبسوا على نمطهن. وذلك داء التشبُّه Transvetism. والفيصل في الذوق هو

تقبُّل الجمهور، وأن تتوافق الموضة والذوق العام، وهو قوّة ناشطة في عملية اختيار الجديد، وهو أثناء ذلك ومن خلال الممارسة يزداد رهافة بارتباطه بأشكال أو موضات معيّنة يتجسّد فيها.

مراجع:

- Flugel: The Psychology of Clothes.
- Bergler: Fashion and The Unconscious.
- Hurlock: The Psychology of Dress.

❖ ❖ ❖

- ٨ -
سيكولوجية البغاء

معنى البغاء عند النساء والرجال وشخصية البغي. دور القوّاد أو الديوث وغواية البغي. تمايز شخصية البغايا واضطرابات الشخصية عند البغي، وارتباطات البغاء بالجريمة. البغاء والأخلاق والدين. وأسباب لاأخلاقية البغاء...

❖ ❖ ❖

البغاء Prostitution من بَغَى أي عدل عن الحق، والبغاء هو العدل عن الاستقامة، وهو عَمَلُ البغيّ وهي الفاجرة بائعة الهوى؛ ويأتي عن البغاء في القرآن مرة واحدة، يقول: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ (النور - ٣٤)، وهو في القرآن الزنا (والزنَى أيضاً) وقد نُهي عنه، قال: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء - ٣٢)، وجزاؤه الجلد، قال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور - ٢). والبغاء إنحراف جنسي تُؤَجَر فيه البغي وتقتضي أجرها عيناً، ومنه بغاء مثلي الجنسية Homo-sexual p.، أي من امرأة لامرأة، وقد يحترف الرجال البغاء غيري الجنسية Hetero-sexual p.، أي من الرجال للنساء، والرجل البغي يضاجع النساء ويعتمد ألا يُمنِي. ومن بغاء الذكور Male p. ما يكون مثلي الجنسية، وعادة ما يكون بالمواخير Brothels، فيلحق بها عدد من الأولاد تحت الطلب Call boys، وقد يكون للبغي المأبون Catamite رفيق يهوى إليه، كما قد يكون للبغي الأنثى رفيق Comrade.

والبغي اللوطي Homo-sexual male prostitute لا يمني عادة، ويسلك مع الزبون الذي يقوم أساساً ليواقع رجلاً غيري الجنسية. وبغاء النساء المساحقات Lesbian prostitution نادر، وقد تفعله البغي إرضاء لزبونة مفاحشة. والبغايا يتفاضلن، فالعاهرة Whore هي البغي المرخصة في بيوت الدعارة، والمومس Strumpet هي الفاجرة جهاراً، من ماست أي تبخترت واختالت، وتعمل غالباً لدى قواد Procurer يتولى تسويقها، وقد تؤم الحانات وتسامر السكارى ولها عمولة على ما تغريهم به من شرب الخمر، وإسمها في مصطلحهم لعوب الخمارة Bar girl، وقد تتصيد زبائنها من الشوارع وتسمى السكّاكة Streetwalker، وهي أقل البغايا شأناً، ولا تختار زبائنها ولا تدقق في السعر، وسلوكها ترصده شرطة الآداب. والبغي أعلاهن أجراً. وقد تتخصص بعض البغايا في المصابين بالأمراض النفسية كالسادية والماسوشية، وتتجنب بعضهن المباشرة، وقد تقتصر لعوب الخمارة على القول الفاحش، وقد تُمني الزبون بيدها، أو تستعري أمام الزبائن، وقد تستعرض الجماع مع أحدهم بشهادة الحضور.

وامتهان البغاء قد يحدث من خلال ديوث، من داث أي سهّل البغاء، فهو الديوث أي المسهّل للبغاء، ويقابلها Gigolo (فرنسية) وهو حامي البغي؛ والجلاّب Procurer وهو الذي يغوي البنات لاحتراف البغاء، من Procure أي يجلب بالاحتيال؛ والمرأة يقال لها الجلاّبة Procuress؛ وهو الوسيط Pander من الإغريقية Pandaros، لأنه يتوسط لدى المرأة ويغويها، ويتوسط بين البغي والزبون؛ والمَعَرّس Luckold لأنه الذي يرتضي أن يصنع من نفسه خيال مآتة، وزوجاً أو عريساً بالاسم، ويشهد زنا امرأته ويحرّض عليه ويرضى به، وقد يجري امتهان البغاء بتأثير غواية بغي Procuress، وعند ذلك قد تستغرق إحاطتها بثقافة البغايا Prostitus' culture بضعة شهور فتكوّن لها عن نفسها صورة مختلفة تماماً عن صورتها القديمة، وتغيّر إسمها وعاداتها ولغتها، وتتوثق معرفتها بفنون البغايا وتقاليدهن وأفكارهن.

والبغي تهفو للحب، وإلى أن تكون محبوبة، ويزيد شوقها لذلك كلما زاد تورطها في دنياها الجديدة، وانبتّت صلتها بحياتها القديمة، وحذقت أن تتباعد عن زبائنها. وقد تجد الحب عند عشيق Gigolo هو نفسه قوّادها، ويُشبع عندها الحاجة إلى الحبّ، ويدفع عنها الأذى ويضفي عليها حمايته. وبوسع البغي ألا تستجيب في الجماع، ومن الممكن أن تبلغ الهِزّة في الجماع مع عشيقها، وقد تكون أسرع في التجاوب معه من كثير من النساء السويّات مع أزواجهن.

وعلى العموم فإن البغي تشكو العُنّة Impotence، وربما لذلك تحترف البغاء لأنها لا تنفعل جنسياً على الحقيقة، فهي باردة جنسياً Frigid وتعاني البرود الجنسي Sexual frigidity، ومن أجل ذلك تطلب معاودة الرجل لها، ومن الممكن أن تباشر أكثر من عشرين رجلاً تباعاً.

وتتمايز البغايا في الشخصية والدوافع والخلفية الاجتماعية، وبعضهن لانحرافه أسباب عضوية، والكثيرات منهن مصابات بالفُصام واضطرابات الشخصية، وبعضهن يندفعن للبغاء لإدمانهن الخمر والمخدرات، ولأنهن بالبغاء يحصلن على المال اللازم لشراء الكيف. وربما كانت للبغاء أسبابه الاجتماعية والاقتصادية أكثر من أسبابه النفسية، ولكن الأسباب النفسية مع ذلك تظل هي الغالبة، ولولا استعداد البغي نفسياً للبغاء لما غلبتها الأسباب الاقتصادية أو الاجتماعية على نفسها. وتتفاوت حظوظ البغايا بحسب ذكاء كل واحدة، ودوافعها، وقدراتها، ومستواها الثقافي وصراعاتها. وتقرّ البغي بمغايرتها لبقية النساء، وتردّ ذلك إلى نمط المجتمع الذي يجعل للبغاء قيمة مادية أكبر من قيمة الكثير من المهن الشريفة. ولا ترفض البغي القيم الاجتماعية ولكنها لا تعمل بها، وتعلل انحرافها بتأثير ظروفها الاجتماعية أو الاقتصادية، وقد تكون نشأتها في البغاء أصلاً.

ويبدو من نتائج الاستقصاءات على البغاء أن جميع البغايا كانت لهن حياة عائلية مضطربة في طفولتهن ومشحونة بالكراهية، غير أن العامل الحاسم في الانحراف إلى البغاء هو الاضطرابات

النفسية الجنسية عند البغي، لدرجة أن الغالبية منهن يعانين من كراهية لجنس الرجال Misandria؛ وكراهية للزواج Misogamy؛ وكراهية لجنس الأولاد Misopaedia؛ بل والكراهية للناس جميعاً Misanthropy؛ والكراهية للحياة Misopsychia. والبغاء في هذه الحالة نوع من التنفيس عن هذه الكراهيات باستغلال الرجال جنسياً. وقد يتّصل البغاء بالتخلّف العقلي، وضعف المقاومات النفسية، وتهافت الأنا الأعلى، وسوء التربية، والافتقار إلى إطار مرجعي من القيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية. وكثيراً ما يرتبط البغاء بالجريمة، بحكم المجتمع المعزول للبغي، والثقافة الخاصة التي لهذا المجتمع، واعتماد البغايا على السماسرة والقوّادين في حياتهن، وعلى تجارة الجنس والمخدرات. والبغي الملتزمة تفيد من البغاء المنظم، وتلتزم بما يُفرَض عليها من إتاوات، ولا تسرق عادة حتى لا يشكوها الزبون، إلا إذا كانت سكّاكة، وإن كانت تعرف أن الزبون غالباً لن يشكوها اتقاءً للفضيحة. وهي كمحترفة لا تريد لتجارتها البوار، وترجو من الزبون أن يعاود زيارتها. وقد تتورط كشريكة في الجرائم التي قد يرتكبها السماسرة والقوادون، وكثيراً ما تكون المواخير المكان المفضل لعتاة المجرمين بعد ارتكابهم لجرائمهم، وتعرف الشرطة ذلك، وتستخدم البغايا للإبلاغ عنهم.

وربما كان إقبال الرجال، أو نوعية خاصة منهم، على البغاء بقصد التنويع الجنسي. وغالباً ما يكون زبون البغايا هو المعاق، أو كبير السن الذي لا تسمح ظروفه بأن تكون له علاقة سوية شرعية بنساء محترمات، وقد يندفع الشباب للبغايا نتيجة القيود والشروط على الزواج، أو بسبب الاضطرابات النفسية التي تلحقهم من جراء تواجدهم في مجتمعات تملؤها الصراعات ومشحونة بالكراهية، وفي عصر يوسم بأنه عصر القلق Age of anxiety، والثورة الجنسية Sex revolution، وما يترتب على ذلك من عجز الكثيرين والكثيرات أن تكون لهم علاقات جنسية سويّة لها صفة الاستمرارية.

مراجع:
- Jackman & O'toole & Geis: The Self-image of The Prostitute.

❖ ❖ ❖

- ٩ -
سيكولوجية القمار

أنواع المقامرين، وسيكولوجية المقامر القهري، واضطراب سمات الشخصية عنده، والمقامر السيكوباتي...

❖ ❖ ❖

يُنشد المقامر المال السهل، ويلجأ للخداع ويدأب على إتيانه في الليل خصوصاً، وكانوا قديماً يسهرون للقمار في الليالي القمرية تحصيلاً للضوء، ومعنى القمار مِن يقمر، أي يأرق في الليلة القمرية، ويتعهد غرّة الآخرين للإيقاع بهم. وهو أيضاً الميسر من اليُسر بمعنى الرخاء، أو بمعنى أن ينفس على أحدهم في المطالبة، أو يصير ذا مال. وليست لفظة القمار من ألفاظ القرآن، وإنما في القرآن لفظة الميسر، وتُذكر فيه ثلاث مرات، وفيها أن الميسر إثم كبير، ورجسٌ من عمل الشيطان، أي أن من يأتيه ويدمنه فلا بد أن يكون مريضاً نفسياً. والقمار Gambling أنواع، كما أن المقامرين Gamblers أصناف. والمقامر الاجتماعي Social gambler هو الذي يلعب بقصد التسلية، وقد يخسر أو يكسب بعض المال ولكنه القليل الذي لا يذكر، ومن ذلك أن البعض قد يلعب للفوز، أو لإظهار مهارته الفكرية، أو لأنه يجيد الحدس ومراوغة الخصم نفسياً، وقد تأخذه الحمية إلا أنه دائماً يستطيع أن يكبح جماح نفسه ويمتنع عندما يريد. والمقامر القهري Compulsive gambler على عكس ذلك، فهو يُقبِل على القمار بدوافع نفسية لا تقاوم، ويشغل به عن كل نشاط آخر، ويصرف فيه وقته وماله، وتتعطل به مصالحه، ويفقد وظيفته، ويهمل واجباته الاجتماعية والعائلية، وتفسد به علاقاته الزوجية. وتزيده هذه المشاكل إنصرافاً إلى القمار ينفث فيه مشاعر الإحباط والعدوان، فيكون

اعتماده النفسي الكامل على إتيانه، وتلاحقه فكرته باستمرار وكأنه الحواز، ولا يكون له نشاط إلا ما يتصل به. والقمار من هذا النوع إضطراب نفسي.

والمقامر القهري وإن كان يعاني نفسياً إلا أنه من النادر أن تكون له أعراض مرضية نفسية، طالما أنه لا يعاني من صراعات داخلية، وليس مصاباً بالقلق الذي يجعله عاجزاً عن الفعل، وإنما هو إنسان مدفوع بغرائزه يصرفها في القمار دون نظر في العواقب. وتعتبر بعض المصنفات العلمية القمار القهري من اضطرابات سمة الشخصية، أو أنه اضطراب تسيطر فيه على الشخصية سمة واحدة، أو تكون لها به استجابة خاصة واحدة تظهر بمظهر العَرَض، أو أن القمار إدمان Gambling addiction، ولكنه ليس إدماناً فسيولوجياً كما في المخدرات أو الخمر، وإنما إدمانه إدمان نفسي كإدمان العادة السريّة مثلاً. وعموماً فإن شخصية المقامر تكون عادةً شخصية غير ناضجة تكره المسؤولية والأصول والقواعد، ولا تبالي بالأخلاقيات والتقاليد والعرف، وصاحبها يبدو سطحياً كالاجتماعي، ولكنه في الواقع ليست له بالآخرين علاقات حقيقية، وهو بالأحرى يستخدم الآخرين لمصلحته، فإذا رفضوا إقراضه مثلاً إنقلب عليهم جهاراً، أو أسقطهم من حسابه، ويحاول مع آخرين. والإثارة التي عليها فعل المقامرة تشبعه نفسياً، وهو ينشد تلك الإثارة Gambling excitation ويعيش عليها ويطلبها، ومبدؤه في الحياة أن يعيش في خطر To live in danger، واتجاهاته كثيراً ما لا تكون واقعية ولا منطقية، ويقاوم تغييرها. وصورته عن نفسه لذلك لا تنسجم مع مؤهلاته واستعداداته، وهو يحسب أنه أفضل من غيره، وتفكيره سحري Magical thinking أو غيبي Supersticious، ويؤمن بتأثير الكلمات والأرقام والأشكال والعلاقات، ويتشاءم ويتطيّر ويتفاءل، ويركز عينيه وعقله على الورق وكأنه يستنطقه أو يستلهمه. ويعتبر البعض المقامر صاحب شخصية سلبية اعتمادية Passive-independent personality بحكم تربيته، حيث تكون نشأته في أسرة مسيطرة. ويعتبره البعض صاحب شخصية وسواسية قهرية

personality Obsessive-compulsive، تستشعر الرضا بتكرار الأفعال والأفكار نفسها، ومن ثم يكون القمار مجموعة من الطقوس السيكولوجية التي يأتيها المقامر. وربما كان المقامر سيكوباتي Psychopath، طالما أنه متمرد وأناني ومعادٍ للآخرين، ولا تهمه عائلته أو عائلات الآخرين التي يمكن أن تتأثر معيشتها بالخسارة التي يُلحقها بعائلهم. ويرى بعض المحللين في المقامر شخصاً ماسوشياً Masochist، تتملكه رغبة لاشعورية لأن يخسر بدلاً من أن يكسب، ويسيطر عليه دافع لأن يخسر ويستمر في الخسارة كنوع من العقاب ينزله بنفسه، ربما لسلوك آثم أتاه، أو لرغبات أو دوافع آثمة إستقرت في نفسه من الطفولة ولا يرضى عنها، ويرى أنه يستحق من أجلها أن يُعاقَب، وهو لا يعي هذه الرغبات أو الدوافع ولا مصدرها، ويحاول لذلك أن يكفّر عن أحساسه بالذنب باستمرار ودون كلل، بأن يخسر أمواله، وعلاقاته، ومكانته الاجتماعية، وأصدقاءه، ويشدّ عائلاتهم معه إلى الحضيض.

مراجع:

- Bergler, E.: The Psychology of .gnilbmaG
- .semaG dna yalP ,naM :.R,siolliaC
- ehT .gnilbmaG dna ksiR :.J ,nehoC
.ytilibaborP evitcejbuS fo ydutS

❖ ❖ ❖

الباب الثالث

علم النفس والطب النفسي في خدمة التعليم والتربية

- ١ -
سيكولوجية الاستعدادات والميول والاتجاهات

الاستعداد العام والخاص والاستعدادات الفارقة والمهنية. الميول ومقاييسها عند سترونج وغيره. الاتجاهات النفسية واكتسابها بالخبرة والتعلّم. الاتجاهات الموجبة والسالبة. زملة الاتجاهات. مقاييس الاتجاهات. الاتجاهات الجامدة وتغيير الاتجاهات.

❖ ❖ ❖

الاستعداد Attitude هو قدرة كامنة أو صلاحية تكون بالبعض فتؤهلهم للتعلّم وتصبح قدرة بهم على الأداء العضلي أو العقلي. والاستعداد العام .General a هو قدرة كامنة عامة أو تأهيل فطري أو أوّلي، أو هو الذكاء العام General intelligence الذي يلزم للتعلم واكتساب الخبرة، وتوظيف القدرات العقلية والبدنية التوظيف الذي يخدم مصلحة الفرد، على عكس الاستعداد الخاص .Special a، كأن يكون استعداداً فنياً .Artistic a، أو استعداداً لغوياً .Language a، أو ميكانيكياً .Mechanical a يؤهّل صاحبه للتعلّم والتفوق في أي من المجالات السابقة. وتكشف إختبارات الاستعداد a. tests عمّا إذا كان الشخص لديه هذه الصلاحية على الأداء الخاص، ومن ذلك الاختبارات التي تُجرَى للكشف عن الاستعداد المدرسي Scholastic a. tests، أو الاستعداد الأكاديمي .Academic a، للتنبؤ بقدرات الأفراد على التعلم أو صلاحيتهم للالتحاق بالمدارس أو الجامعات، وهي اختبارات من نوع اختبارات الذكاء الجمعي Collective intelligence. وتقيس اختبارات الاستعدادات الفارقة differential (DAT) a. tests الاستعداد لفهم العلاقات العددية، وإدراك العلاقات بين الكلمات، وفهم مدلولاتها، واستخداماتها، والعلاقات الميكانيكية، والاستدلال الميكانيكي، وسرعة ودقّة القيام بمختلف الأعمال الكتابية. وتفيد اختبارات الاستعدادات المهنية Vocational a. tests في التوجيه

والإرشاد المهني. وفي اختبارات قياس الاستعدادات الآلية اليدوية مثلاً تُعرَض على المفحوص لوحة بها ثقوب يحاول أن يَشْغلها على وجه السرعة باسطوانات معدنية، بهدف قياس إستعداده على استخدام ذراعيه ويديه وأصابعه، وقد نجعل ثقوب اللوحة صغيرة كما نجعل الاسطوانات دقيقة وكأنها المسامير، حتى ليستعين في رفعها بملقاط يمسكها به. وتُحسب السرعة بالوقت الذي يستغرقه المفحوص، وتقاس دقة الأداء بجهاز كهربي يُحصي الخطأ في وضع القطع المعدنية. وقياس مثل هذا الاستعداد يجعل من الممكن التنبؤ بإمكان تعلّم المفحوص للمهارات المشابهة التي تتطلب إستخدام الأيدي والأذرع والأصابع والتنسيق بين حركاتها جميعاً. وهناك من المهارات ما يتطلب إستعدادات متباينة يتوجب معها أن يؤدّي المفحوص عدداً من اختبارات الاستعدادات المتكاملة، ونطلق عليها إسم الاختبارات المتعددة، وقد يقتضي الكشف عن استعداد فني مثلاً أن يُجرى القياس لاستعدادات الفرد العقلية على إدراك المسافات والمساحات وإصدار الأحكام الجمالية.

والميل Interest نزعة سلوكية نحو موضوع، أو نشاط يستهوي صاحب الميل، حتى ليشغل انتباهه، ويستأثر باهتمامه، ويستحوذ بوقته. والميول إهتمامات مستقرة وممتدة، تسفر عن نفسها كسمات للشخص في فترات مبكرة من حياته، ويبدأ صقلها ورعايتها وبلورتها فيما بين سن العاشرة والرابعة عشرة.

والميول تعكس تفضيلات الشحن الشخصية، وربما المهنية، وقد تكون تفضيلات لها طبيعة تخصصية. وقد يكون من المناسب أن نسأل الشخص صاحب الميول عن ميوله مباشرة، إلا أن ما يقدمه من معلومات بشأنها قد تعوزه التعبيرات السليمة نتيجة قصورٍ لغوي، وقد لا يأتي حديثه عنها علمياً، ولا يمت للواقع، ويتسم بالكثير من الدعاوى، فقد نسمع من أناس أن لهم ميولاً فنية أو رياضية ثم يتبين كذبهم، أو قد يحسبون توجهاتهم الطارئة من باب الميول وهي ليست كذلك. والأولى أن تكون إختبارات الميول i. tests موضوعية تقوم على

ملاحظة السلوك ورصد نزعاته التي لها صفة الاستمرارية، مما يكشف عن إهتمامات بنواحي معينة وتفضيلات لنواح أساسها الميول. ومعظم مقاييس الميول i. measurements تعتمد على اللغة في صياغتها، وقد تكون اللغة من معوقات فهم أسئلة هذه المقاييس، وتختلف المقاييس في لغاتها وصعوبة هذه اللغات، وبعض المقاييس يتحرى اللغة السهلة بحسب المستوى اللغوي للمفحوص، والبعض قد تكون لغته عالية، ومطالبه دقيقة تستلزم مستوى أعلى من المفحوصين، والبعض قد يتنكّب الوسيلة اللغوية في الاختبار، ويلجأ إلى الصور التي تعطي لمحات عن بعض الموضوعات أو الأنشطة أو الأشخاص، ثم تقاس ميول المفحوصين تجاهها، بسؤالهم عمّا وعوه من المعلومات عنها، وما احتفظت به ذاكرتهم مما قيل حولها مصاحباً للصور، أو قد يُطلَب من المفحوصين أن يقولوا ما يعرفونه من معلومات حول الحِرَف أو المهن التي تمثّلها الصور، باعتبار أن مَن له ميولاً معينة لا بد أن تكون لديه المعرفة بأشياء حولها، وبمدى معرفته وحرارة حديثه فيها يمكن أن نحذر ميوله نحوها.

ولقد تقدمت دراسات الميول وخاصة في مجال التفضيلات المهنية Professional preferences، وتتعدد اختباراتها ومقاييسها، وتختلف باعتبار اتِّساع ما تغطيه، والأسس التي تقوم عليها، وبعض هذه المقاييس تقوم على تجانس بنودها التي يتم اختيارها بحسب صدق مضمونها، فيختار مصمم الاختبار أو المقياس البنود الصادقة في تعبيرها عن الاهتمامات المهنية المعينة والمرتبطة مع بعضها بحكم التجانس الشديد الذي بينها، بينما يكون ارتباطها بمجموعات أخرى من البنود التي تقيس اهتمامات مهنية أخرى منخفضاً. ومن المقاييس التي صمّمت وفق هذا المحك: مقياس كودر للاهتمامات والتفضيلات Kuder Preference Record. وقد تعتمد بعض المقاييس الأخرى على محكات أخرى كالصدق الواقعي، بأن تُستبقَى البنود الخاصة باهتمامات كل فئة مهنية، وتُقارَن باهتمامات وتفضيلات مجموعات مهنية مرجعية يعمل أفرادها في المهن نفسها وقد حقّقوا فيها نجاحاً. ومن

الاختبارات أو المقاييس التي صمّمت على هذا المحك: إختبار الاهتمامات المهنية لسترونج Strong Vocational Interest Blank. وقد تصمم الاختبارات بمحك منطقي بحيث تدرس مكونات الاهتمامات المهنية والخصائص المتوافرة في الأشخاص الذين يبدون نجاحاً في هذه المهن، ثم تصمّم بنود الاختبار لتعكس السلوك والاهتمامات التي يُظَن أنها تعكس الخصائص المطلوبة في الشخص المناسب. ومن الاختبارات أو المقاييس التي صُممت بحسب هذا المحك: إستبيان لي ثورب للاهتمامات المهنية Lee Thorb Vocational Interest Inventory.

والاتجاه النفسي Psychological attitude توجُّه خاص يكون بالشخص حيال فكرة أو فرد أو جماعة أو موضوع أو موقف، فيميل به إلى أن يسلك بطريقة معيّنة تَلزمه دائماً بشكل أو بآخر، وتُعرَف عنه، وربما قد لا يكون لاتجاه صريحاً فيخفيه صاحبه، أو ربما يكون الاتجاه به اتجاهاً يَلزمه ويَلزم غيره، كالاتجاهات التي تكون بالجماعة تعصباً أو انحيازاً.

والاتجاهات النفسية لا نولد بها ولكننا نكتسبها بالخبرة أو نتعلمها، وتتحصل لنا من خلال ما نتعلمه أو نخبره من نتائج، نسلك بإزائها السلوك الخاص الذي قد يتثبت أو يتعزّز، فنعممه على كل التجارب أو المواقف المماثلة أو المشابهة.

ويتصل تكوين الاتجاهات إذن بعملية التعلّم والتنشئة الاجتماعية وبنظريات الشخصية. وللتعيّن بالوالدين أو بالرموز الاجتماعية في محيط الطفل أو المراهق أثره في تكوين الاتجاه. والاتجاهات طريقة يحلّ بها الشخص صراعاته في الطفولة، فيكون له هذا السلوك أو تلك الفكرة، فيسهل عليه أن يرجع إليها في مختلف المواقف، فتكون كوسيلة للدفاع عنه، يدفع بها ما يتهدد أناه أو ذاته. وللجماعات المرجعية، والأطر المرجعية، تأثيرها على تكوين الاتجاهات باعتبارها من محدّدات السلوك، ولعله لهذا السبب فإن نظرية التحليل النفسي تهتم غاية الاهتمام بالاتجاهات وتكوينها وتعديلها. ويقوم العلاج النفسي على إمكان تعديل الاتجاهات واكتساب أو تعلم إتجاهات

جديدة تحلّ محل القديمة التي تعتبر من أعراض الاضطرابات النفسية.

وتدخل في تكوين الاتجاهات عناصر عقلية وانفعالية وسلوكية، وأقوى أنواع الاتجاهات ما يُشحَن منها نفسياً ويكتسب حِدّة انفعالية، وأفعلها ما يطبع السلوك بطابعه. وكان يونج Jung (١٨٧٥ - ١٩٦١) يقسّم الشخصية بحسب اتجاهها للانطواء أو للانبساط. والاتجاه المنبسط Extravert هو الذي ينفتح بالشخصية على الناس والبيئة والمجتمع، بينما الاتجاه المنطوي Introvert يكون توجّه صاحبه داخلياً وذاتياً ويميل إلى العزوف عن التفاعل الاجتماعي ويبدو عليه الاكتئاب، ومن ثم تنقسم الاتجاهات بحكم تأثيرها على الشخصية والسلوك إلى اتجاهات موجبة Positive as. تدفع بالشخص نحو موضوعات هذه الاتجاهات، فيكون تعامله معها تعاملاً بناءً مفيداً، واتجاهات سالبة Negative as. تنأى بالشخص عن موضوعاتها وتطبع سلوكه حيالها بالسلبية، والوطنية من هذه الاتجاهات الموجبة، بينما التعصّب من الاتجاهات السلبية.

ويتفاوت الناس في الاتجاه الواحد كما في التعصّب، فالبعض يغالي في التعصّب حتى ليستغرقه، والبعض قد يكون به شيء من التعصّب. وكذلك فإن الاتجاهات تتعدد بتعدد موضوعاتها التي ترتبط بها. ومن الصعب تعديل الاتجاه إلا بشروط خاصة إذا تكوّن وترسّخ، ومن ذلك الاتجاهات التي تبدأ معنا من الطفولة والتي تتحصل لنا بالتقليد الاجتماعي والتي نكتسبها نتيجة خبرات مؤثرة ربما ندخلها في الطفولة أو من بعد، كحالة طفل يمر بتجربة جنسية يكون فيها اعتداء أحد البالغين عليه جنسياً، ومن ثم يشبّ وهو يعاف الجنس ويخشاه ويكون به ذلك اتجاهاً يطبع شخصيته وتصرفاته كلها.

وللاتجاهات فوائد فهي تصنع للشخصية أسلوباً يكون به تعاملها سهلاً ميسراً في المواقف المختلفة، ولا يتأتى هذا الأسلوب إلا عندما تجتمع الاتجاهات فتتكامل لدى الشخصية وتكوّن ما يسمى زُملة الاتجاهات cluster .a، فتعمل جميعها في غير تصادم، ويجعل إجتماعها هذا، والأسلوب الذي تسلك به،

من اليسير التنبؤ بتصرفات الفرد بمجرد الإحاطة باتجاهاته أو بزملة اتجاهاته، أو بأسلوب هذه الزملة. ومن الممكن أن نعلم عن هذه الاتجاهات بما يسمى مقاييس الاتجاهات a. scales، وهي كأية مقاييس نفسية يمكن بها أن نتعرف إلى اتجاهات الشخص أو الجماعة بأن نرصد ما نلحظه عنه أو عنها من العبارات المعبّرة عن هذه الاتجاهات، وخاصة أكثر العبارات شيوعاً وألصقها بهذه الاتجاهات، ثم نختبر الأفراد من حيث موافقتهم عليها أو معارضتهم لها. وتصلح هذه المقاييس خصوصاً مع الاتجاهات البارزة والعلنية والجماعية، والاتجاهات الجامدة Stereotyped as. أي المتأصّلة في الشخصية والمتمكّنة منها، والداخلة في صميم تكوينها، والتي تطبع الشخصية بطابعها.

ومن أهم مقاييس الاتجاهات مقياس ثيرستون Thurston Attitude Scale، ومقياس ليكرت Likert Scale، ومقياس جوتمان Guttman Scale، ويتكون الأول من عدد من العبارات يجمعها الباحث ويرى أنها تمثّل أو تعارض هذا الاتجاه أو ذاك، ثم يعرضها على عدد من المحكّمين، يختارون منها وينقّونها ليكون بعضها ممثلاً لأقصى اليمين أو الموافقة، وبعضها ممثلاً لأقصى اليسار أو الرفض، والبعض يتوسط بين الاثنين، وتكون لكل عبارة درجة أو قيمة على المقياس Scale value، وتُجمَع الدرجة الموجبة والسالبة لتعطي الدرجة الكلية للاتجاه عند الشخص. وفي الطريقة الثانية - طريقة ليكرت - يُستَغنى عن المحكمين، ويتدرج المقياس من موافق جداً، فمحايد، ثم غير موافق، وأخيراً غير موافق بالمرة، وبذلك فإن المقياس يعطينا صورة دقيقة عن قوة الاتجاه من حيث الموافقة أو الرفض. ويقوم مقياس مينيسوتا Minnesota Scale المشهور على هذه الطريقة الأخيرة، وهو يقيس اتجاهات الرجال نحو موضوعات مثل «على العموم كل المحامين أمناء» أو «التعليم لا يصنع منا إلا أشخاصاً ساخطين»، ومنه نوع يقيس إتجاهات المدرسين حيال الطلبة.

وأما مقياس جوتمان، أو بالأحرى طريقته في القياس، فهي أشبه باختبار الإبصار من حيث أن الباحث يجمع

العبارات التي يرى أنها تمثل الموافقة على الاتجاه أو رفضه ويرتبها بالتدريج، بحيث أن الموافقة على عبارة منها تعني بالتبعية أن كل العبارات التي تليها تتدرج عليها الموافقة السابقة، بينما العبارات التي تسبقها تكون مرفوضة، والشيء نفسه في اختبار الإبصار، فتمييز سطر من سطور الاختبار يعني أن المفحوص يستطيع أن تميز عينه السطور الأعلى على هذا السطر بينما لا يستطيع أن يميّز السطور الأدنى.

ولربما يكون بهذه المقاييس قصور، وهو أن المفحوص قد يوافق أو يرفض حينما تكون المسألة مجرد إدلاء برأي، فإذا كانت المسألة مسألة مواقف فقد يكون سلوكه مختلفاً فيها عن إجاباته اللفظية، ولذلك قد تستكمل مقاييس الاتجاهات بالاختبارات الإسقاطية بالصورة أو العبارات التي تحتاج إلى إكمال، كأن تعرض على المفحوص صور لزنوج في مواقف مختلفة ليعلن موافقته عليها أو رفضه لها حينما يكون الاختبار بصدد معرفة إتجاه المفحوص حيال موضوع الزنوج مثلاً.

وتغيير الاتجاهات a. change عملية يتوخى بها الفاحص أهدافاً، ربما علاجية، وربما إجتماعية أو سياسية، ويستفاد منها في الدعاية والإعلام والحرب النفسية والإعلان، وتعبّأ لها الجهود وتُحشد الطاقات وتوظّف الأموال. وتغيير الاتجاه قد يكون بالمنافسة والإقناع، وقد يكون بالوعظ، وقد تشترك فيه كل المؤسسات الاجتماعية كالأسرة والمدرسة والجامع والنادي، وقد تنهض عليه وسائل الإعلام السمعية والبصرية. ويساعد على استحداث التغيير أن يكون الاتجاه المطلوب تغييره فعلاً في غير صالح الأفراد، أو أن يكون إتجاهاً ضعيفاً، أو أن يكون إتجاهاً فيه مخاطر على ذوات هؤلاء الأفراد، وذلك لأنه لا جدوى من محاولة استحداث تغيير بالأفراد، بينما التأثير الاجتماعي موجود دائماً ويعارض هذا التغيير ويقاومه. وتعزيز الاتجاهات الجديدة ومكافأة السلوك عليها يرسّخ هذه الاتجاهات ويجعل من الممكن على الأفراد أن يطرحوا عنهم الاتجاهات القديمة، وأن يأخذوا بالجديد. ولعل التغيير الذي يشمل تغيير المواقف أو

البيئة أو الجماعة المرجعية أو الأطر المرجعية هو التغيير الذي يمكن أن ينجح. والمناقشة المفتوحة من أهم وسائل نجاح التغيير، ويقوم عليها العلاج النفسي الجماعي. والدعاية الزائدة عن الحدّ التي تُستَغل لاستحداث التغيير قد تأتي بنتائج عكسية أو تأثير عكسي Boomerang effect، وبدلاً من تعديل الاتجاه أو تغييره، فإنه قد يُعمِّق ويترسّخ أكثر، ويكون تناميه في الاتجاه العكسي للمطلوب، وهو ما نسميه التغيير السلبي للاتجاه Negative change. (أنظر أيضاً التنشئة الاجتماعية والتحليل النفسي والعلاج النفسي والقياس النفسي).

مراجع:

- Allport: Attitudes.
- Sherif & Hadley: Psychology of Ego-involvements, Social Attitudes and Identifications.
- Sherif & Sherif: Attitude and Attitude Change.

❖ ❖ ❖

- ٢ -
سيكولوجية التحصيل والإنجاز

مستوى التحصيل، والتحصيل الأكاديمي وعلامة التحصيل. الاختبارات التحصيلية ودوافع التحصيل. الرفاهية والأزمات الاقتصادية والتحصيل. الفارق بين الإناث والذكور في التحصيل. أثر المناخ في التحصيل.

❖ ❖ ❖

التحصيل Achievement هو أن يحقّق المرء لنفسه مستويات أعلى من العلم أو المعرفة، ولذا يُقرَن التحصيل عادة بالدراسة فنقول: مستوى التحصيل Achievement level، ونعني به الدرجة التي يتحصل عليها المرء في امتحان مقنن. والتحصيل المدرسي أو الأكاديمي Academic a. هو نوع التحصيل المتعلق بدرساة مختلف العلوم والمواد الدراسية، وعلامة التحصيل a. mark، هي الدرجة التي يحصل عليها الطالب في امتحان

مقنن، والرقم القياسي في التحصيل .a record هو أعلى علامة يحقّقها طالب لنفسه، وسجل التحصيل .record a يُرصَد به ما يحقّقه الطالب من الدرجات التحصيلية خلال فترة معينة، وبطارية الاختبارات التحصيلية a. battery هي مجموعة من الاختبارات التحصيلية حول موضوع معين، تُطبّق على عيّنة واحدة لتحليلها من بعد، ونسبة التحصيل .a quotient (AQ) هي خارج قسمة العمر التحصيلي على العمر الزمني مضروباً في مائة. فأما العمر التحصيلي a. age (AA) فهو سن نفترض أن الشخص المعني قد بلغها بخلاف عمره الزمني، بمقتضى ما يحقق لنفسه من تحصيل علمي أو معرفي يكون على مستوى معيّن، نعرفه من الدرجة التي يحصل عليها في اختبارات مقننة وُضعت لتناسب أعماراً معينة، فإذا أجاب عليها بنجاح كان عمره التحصيلي هو العمر المحدّد للاختبار، والهدف من ذلك أن نحدّد مستوى التحصيل بالنسبة للعمر الزمني. وتقيس الاختبارات التحصيلية a. tests قدرة الفرد على أداء عمل معيّن، ومدى ما استفاد من التعلّم، وما حقّق من خبرات بالنسبة لآخرين من زملائه، ولا نهدف من الاختبارات التحصيلية قياس استعدادات الفرد للأداء أو الإنجاز أو التحصيل فذلك من عمل اختبارات الاستعدادات aptitude tests، والاستعداد بخلاف ما يحصّل الفرد من معرفة أو مهارة، ويتوقف التحصيل على الاستعداد، إلا أن الاستعداد قد يوجد ومع ذلك فإن التحصيل لا يكون متناسباً معه بالنظر إلى تدنّي الدافع إلى التحصيل. وهناك أنواع من اختبارات التحصيل، ولربما بوسعنا أن نقسمها إلى مجموعتين، إحداهما تقيس التحصيل الدراسي .scholastic or academic a في مجال من المجالات، وعادة ما تكون هناك بطارية إختبارات من هذا النوع، والأخرى إختبارات لقياس التحصيل من نوع آخر كالتحصيل المهني .Vocational a.

والدافع إلى التحصيل a. motive هو حافز إلى الجِدّ، وبمقتضاه يثابر الشخص على التحصيل بتصميم وعزم ليحقّق غاية معيّنة يوليها عنايته

الشديدة. والدوافع تختلف من فرد لآخر، ومن شعب لآخر، ويمكن قياسها في الأفراد بالطرق الإسقاطية مثلاً، بإعطاء الفرد أربع صور، كأن تكون الصورة الأولى لرجلين يعملان على آلة، والصورة الثانية لصبي يجلس إلى مكتب وأمامه كتاب، والصورة الثالثة لأب مع ابنه، والصورة الرابعة لصبي يبدو مستغرقاً في التأمل. ونطلب من الفرد المراد قياس الدوافع عنده أن يقصّ علينا قصة لكل صورة، مع ملاحظة أن كل صورة تقيس ناحية من نواحي الدافع، لا تقيسها الصورة الأخرى، ويكشفها تحليل القصص، فنحيط علماً باتجاهات هذا الشخص نحو تحقيق ما قد يناط به من عمل، ورغبته في أن ينجح فيه، وأن يؤدّيه على صورة طيبة. وعادة ما يكون الشخص الذي يحصل على درجة عالية في هذا الاختبار صاحب أداء عالٍ إذا نيط به عمل ما.

ولقد ثبت من مختلف الدراسات أن التشجيع دائماً والحفز على التحصيل يرفعان من شأن الدافع إلى التحصيل، حتى وإن ووجه التشجيع بالمقاومة من الشخص المطلوب رفع مستوى دوافعه للتحصيل. وهناك دائماً حاجة للتحصيل a. need بكل منا، هي ميل قوي ونزوع شديد لأن نحوز المعرفة أو المهارة التي بها نحقّق النجاح، أو ننجز شيئاً أو نؤدّيه، إثباتاً لكفاءتنا.

وتذهب الدراسات الأنثروبولوجية إلى أنه في المجتمعات البدائية التي يُترَك فيها الأطفال بحيث ينشأون نشأة إستقلالية، تكون دوافعهم للتحصيل عالية عن غيرهم من أطفال المجتمعات الأخرى التي يُدلَّل فيها الأطفال، وتُضفى عليهم رعاية وحماية من الوالدين، بحيث لا تكون بهم حاجات ماسة للتحصيل، ومن ثم تتدنّى دوافعهم له.

وتؤكّد الدراسات أيضاً أن الرفاهية لا تجعل للذين يحيون في ظلها دوافع قوية للتحصيل، وكذلك الظروف المتدنية والأحوال المعيشية السيئة، فإن الدافع إلى التحصيل يتدنّى بتدنّيها. ويقوَى هذا الدافع في الأوساط التي تهيئ للأفراد المناخ النفسي الصحي للتحصيل وتُحفزهم عليه a. societies. وهناك فارق هام بين الإناث والذكور فيما يتعلق

بالدافع إلى التحصيل، وذلك أن الإناث بشكل عام يقوى عندهن هذا الدافع إلى التحصيل فإن غير الموهوب لزومه لغير الموهوب، والموهبة إن لم يشحذها الدافع إلى التحصيل فإن غير الموهوب قد يتفوق على الموهوب. وثبت أن الدافع إلى التحصيل يشحذ الهمة ويحفز الفهم، ويسرع بصاحبه إلى حلّ المسائل أو صقل المهارة في وقت أقل مما يستغرقه الفهم والتدريب عند من لا يكون لديه دافع إلى التحصيل. ويقترن الدافع إلى التحصيل بمستوى الطموح، فكلما زاد الطموح بالشخص كلما كان هذا الدافع قوياً فيه، يعجّل له بأشياء، ويعينه على أشياء، ويحقّق له فهم أشياء ما كانت تتسنّى له لولا هذا الدافع القوي فيه الذي يستحقه الطموح الشديد.

ويبدو أن الظروف الاقتصادية وما يواجه الأمم من تحدّيات يرفع من مستوى طموحات الأفراد ويلهب الخيال ويستحث التحصيل، ونستدل على ذلك من دراسة أدب الطفل، والأدب عموماً عند الشعوب المختلفة، حيث تتبين كثرة الموضوعات عن التحصيل في أوقات التوسّعات الاقتصادية في إنجلترا، والفتوحات الحربية في اليونان القديمة، والانتقال من الزراعة إلى الصناعة في الروسيا.

وكذلك تبين أن هناك علاقة بين التحصيل والمناخ، ويقع معظم تاريخ العالم وأحداثه المهمة في المنطقة المعتدلة منه، بينما يكون التخلف شديداً في المناطق الحارّة والاستوائية خصوصاً، وتذهب أغلب الطاقة لمقاومة البرد في المناطق الباردة، ومن ثم يتدنّى فيها الدافع إلى التحصيل.

مراجع:

- McCelland, D.C. & Atkinson, J.W. & Clark, R.A. & Lowell, E.L.: The Acievement Motive.
- McClelland, D.C.: The Achieving Society.

❖ ❖ ❖

- ٣ -
سيكولوجية الجنس
Sex Psychology

الجنس في الإنسان، وعند الرجل والمرأة والطفل، والعادة السرية، وخيانة الأزواج، وسيكولوجية الجنس عموماً والزواج، والشباب، والشيخوخة.

❖ ❖ ❖

العلاقة الجنسية خلاف أي علاقة إنسانية، وفي العلاقة الجنسية يتوحّد الأنا والأنت، ويتغير كل من الرجل والمرأة نحو التكامل، وتتحول علاقتهما إلى علاقة «نحن». وفي الجنس ينصهر الإنسان بكامله ويتورط جميعه: نفسه، وعقله وبدنه، وروحه، وماضيه، وحاضره، ومستقبله، فكل درجات الوجود كائنة في الجنس، وأعلى صوره هو الجنس في الزواج، لأنه ينشد الاستمرار والدوام، وينفر من الوقتية، وينأى عن الانفصال. والدافع الجنسي: غريزة، أو حاجة، تشبه الجوع والعطش، وتتطلب الإشباع مثلهما. ومثلما تبعث رؤيانا للأطعمة الرغبة في الأكل، فإن المثيرات الجنسية تعمل فينا عمل المشهيات للأطعمة، فتطلب الجنس بإلحاح. والجنس نشاط كالأكل، ومثل ضربات القلب، إلا أننا في الأكل وفي الجنس لدينا الإرادة، وفي ضربات القلب لا إرادة لنا، والنشاط الذي تدفع إليه الإرادة هو النشاط اللذيذ، والأكل يشبع المعدة، ولكن الجنس يشبع كل الإنسان، ولذا كان النشاط الجنسي هو أرقى، وأجمع، وألذّ، وأرفع نشاط يقوم به الإنسان. وبعض الفلاسفة السخفاء يقولون إن الحياة لها إرادة، وإرادة الحياة تستعين بالجنس ليستمر النوع، فالجنس حيلة وخداع، ونقول نحن: إن الجنس كنشاط لا بد له من غاية، اللذّة لمجرد اللذّة شيء عقيم وعبثي كقولنا الفن للفن، فهل الفن للفن، وهل الجنس للذّة؟ إنما الفن والأدب فيهما الرقي والسمو، وهما عمليتان منظمتان لقوّة الإنسان ولدواخله النفسية والبيولوجية، وتصنعان الشخصية وتوجهانها، وكذلك الجنس فإنه يرقى بالإنسان ويهذّب غرائزه، ويناسقه مع نفسه ومع الوجود، ويجعله

متفائلاً ومحباً للخير، ولقد قيل إن المنية بدأت لمّا أمسك الصياد فريسته ولم يأكلها فوراً وادّخرها ليشويها في البيت ويقدّمها لأهله، فأجّل استمتاعه وجعله لغرض أكبر، وفصل بين اللذّة والحاجة، وتسامى باللذّة، وهذه هي روح المدنية أو الحضارة، وهذا الفصل للذّة عن الحاجة لم يجعل اللذّة مطلوبة لذاتها ولكنها لقيم أعلى، والجنس هو طريق الكمال للعلو، والطريق الواقعي والذي تجتمع فيه الفلسفة والحكمة والمعرفة في شخص الإنسان المحب المحبوب.

ومن غاية الجنس توليد النوع، ولكن أي نوع؟ إنه النوع الأفضل. ولو تأملنا قضيب الرجل في ذاته سنجده قبيحاً، وكذلك فرج المرأة، ولكنهما لِما هُيّئا له من أجمل ما يكون، كفرشاة الرسّام، شكلُها وهي ملقاة شكلٌ غبيٌّ، ولكنها وهي ترسم وتلوّن عظيمة بكل المقاييس. وكل ما في جسم المرأة إنما خُلق لغرض الإنجاب أصلاً، وإن لم تحب المرأة وتلد وترضع فإنها ستذبل، ولأن كل ما فيها مخلوقٌ للإنجاب، فإن لم نستخدمه كما ينبغي فإنه سيضمحل، كالقمر يصغر إلى أن يصير كأن لم يكن. وامرأةٌ بلا أطفال لا وجود لها، ورجلٌ بلا امرأة كأنه ضائع. فالجنس عظيم وله رسالة، وقد تقص عليك امرأة أنها لم تعرف الشبق أو الإنعاظ في حياتها إلا مرتين، وفيهما حملت وَلَدَيْها، وأما بقية عمرها حيث كان الجنس يؤدِّي بموانع الحمل، فلم تعرف أبداً طعماً للشبق ولا الإنعاظ، والمرأة أحرص أن يكون لها الولد، فلهذا خُلقت، والرجل إن لم يكن لديه ما يورثه الولد فلا حاجة به للأولاد، والنبيّ زكريا طلب الولد ليرثه ويرث آل يعقوب، ووراثته يعني أن يخلفه على ماله، ووراثة آل يعقوب يعني أن تؤول إليه عنها الحكمة التي اختُصت بها والنبوة. والمرأة لهذا ترى نفسها في الولد، وإذا حدّثْتَها عن نفسها حدّثتك هي عن إبنها. والرجل لا ينشد الولد إلا إذا كان عنده ما يعطيه للحياة ويحمله ابنه من بعده، وإذا تحدّث الرجل فإنه لا يتحدث إلا عن نفسه أولاً وأخيراً أو عمّا لديه، ولهذا يطلب الولد ليعهد إليه به وينمّيه، فالرجل خالق قيم، والمرأة منجبة الأولاد حَفَظة القيم، ولهذا كان الولد أقيم عن البنت، لأن الحفيظ بعد

الأب هو الولد وليس البنت، والولد حفيظٌ على تراث وميراث الأسرة - أسرته وأسرة أبيه وأجداده، والبنت تعطي أسرة زوجها وتُربّى لأغراب عن أسرتها. وأعرف رجالاً أنجبوا عدداً من الأولاد، ولكن عيونهم كانت فقط على من يحمل الرسالة بعدهم، والرجل غنيٌّ بأولاده الذكور. وأما المرأة فأولادها الجميع: الذكور والإناث، وهم زهورٌ في حديقة حياتها، فإذا لم تكن بها كثرة من الزهور إعتبرت حديقتها مجدبة. وأعرف نساء أجرين عمليات لم يعدن بعدها يصلحن كأمهات، ولم يعُد بوسعهن أن يحملن، فأصبن بالبرود الجنسي Frigidity، وعافت نفوسهن الجنس. وكأن منطقهن: لماذا الجنس إن لم يكن لإنجاب الأولاد؟

وأعلى ما في المرأة غريزة الأمومة Maternal instinct، ولا يوجد عند الرجل مثيلٌ لها، وليس عنده غريزة أبوة، وغريزة الأمومة هي التي تتسبب عندها في إدرار اللبن بعد الولادة لإطعام طفلها.

والرجل به غريزة جنسية ويشتهي، والإيقاع الجنسي عنده محصور بين الرغبة والإشباع، والمرأة غريزتها الجنسية غير موقوتة وكما يقولون Circadian أي مستمرة ودؤوبة، وإفرازها حبٌّ مستمر، وعطف، وحَدْب، ورأفة، ورحمة، وأُنس، ولهذا السبب كانت أعضاء المرأة التناسلية داخلها، لأنها لا تنفتح لأي رجل، وإنما فقط للرجل الذي ترى أنه يصلح أباً لابنها. بينما في الرجل يكون عضو الذكورة خارجه، لأن الحب عنده ليس أصيلاً في شخصيته، والحب أرقى من الجنس، وغالبية النساء يطلبن الحب، وأكثرية الرجال من الرجال ينشدون الجنس، والمرأة تبحث عن الحب، والرجل يريد الجنس، ولذا كانت المرأة في الحب شاعرة، بينما الرجل فيه طالبٌ للجنس ومغوار، وفاتح جَسور ومغتصب. فهل سمعنا عن امرأة تغتصب رجلاً؟ بل إن في الأزواج من يغتصب زوجته ويضاجعها قسراً، والحب سيكولوجي، والجنس بيولوجي، والدافع الجنسي يشبع الرغبات الفردية، والحب يتخطى الرغبات ويدفع بالمرأة إلى الرجل الذي تهواه. والغريزة الجنسية لو أُشبعت كفّت، بينما الحب ميل مستمر. وفي علم النفس فإن الحب انفعال، ولا

شك أنه انفعال قوي، إلا أن جوهر الحب أنه فعل يقوم على الفناء في الآخر، وهو اتحاد أجساد، وانسجام أرواح، والتقاء نفوس، والحب بدون أخلاق فاشل، وجوهر الرجولة هو الأخلاق، والرجل الذي بلا أخلاق لا يستطيع أن يضاجع المرأة مضاجعة موفقة، لأنه رجل غير كامل، وبدون الأخلاق يتدنّى الدافع الجنسي بين سائر الدوافع في حياة الإنسان.

وكان فرويد يظن خطأ أن كل فرد بوسعه أن يستغني عن الجنس بالتسامي بالدافع الجنسي، وهذا غير صحيح، لأن الحياة إذا خلت من التجربة الجنسية تظل ناقصة مهما كانت نظرتنا إلى هذه الحياة. والجنس روح الحب ومهما بذل الرجل في مجال مُتسامٍ مثل الفن أو العلم أو فِعل الخير، ولم يحب ويمارس الجنس بالأخلاق، فكأنه ما فعل في حياته شيئاً جميلاً، وما عرف الخير، ولا الحق ولذلك كان من الخطأ البيّن ترك الناس يتعلمون الجنس من الطبيعة، ففي الطبيعة أنماط من السلوك الجنسي لو مارسناه لحوكمنا كمجرمين، وكذلك من الخطأ تدريس الجنس في المدارس من خلال علم الأحياء، لأن هذا العلم يشيع الاضطراب في سلوك الأولاد والبنات، فأنثى العنكبوت تتغذى بالذكر بعد الممارسة الجنسية، وذكور النحل يُطرَدون من الخلية بعد تلقيح الملكة، وهناك حيوانات تأكل صغارها، وحيوانات تأكل بيضها، فلا يمكن إذن تعليم الجنس من خلال دروس في هذا العلم عند الإنسان، والتربية الجنسية إذن لا بد أن تكون من خلال تدريس الدين، وإذا تعلم الطفل الجنس في المدرسة بلا دين وأخلاق، فهل يتحمل فكرة أن والديه يفعلان ذلك الشيء، أي الجنس، كغيرهما من الناس؟

ويبدو أن تعليم الجنس Science of sex لا بد أن يتوخى التعريف بأن الجنس ضروري، ليس للإنجاب وحفظ النوع فقط، وليس لأنه مصاهرة بين العائلات تقوى به الأواصر بينها، ويكون به الأساس لمجتمع متكافل ومتحاب ومتعاون، ولكنه ضروري لكمال الحياة، وكمال الشخصية الإنسانية ولتحقيق رغبته في الخلود.

ولا تبدأ الحياة الجنسية عند الأطفال في البلوغ Puberty وإنما تكون

بدايتها في الطفولة الباكرة Infantile sexuality، وفيها يكثر أن يلعب الأطفال بأعضائهم الجنسية للتسلية وربما تتولد لديهم مشاعر لذيذة تشجّعهم على الاستمرار في ذلك ومعاودته، والعادة السرية Masturbation سواء كانت إستمناء بالعادة .Habitual m، أو قهرياً Compulsive m، أو عادياً .Normal m، أو نفسياً .Psychic m، تبدأ من هذه السن، والصبي أو البنت تستغرقه التجربة، ولا يقبل على العادة السرية إلا الأطفال المهمَلون عند ذويهم، أو الذين لا يجدون ما يشغلهم، فإذا كانت هذه العادة عند الطفل كافية له، فذلك هو الشذوذ، وإذا لم يجدها كافية ومشبعة فإنه يكون سوياً، وتنمو هذه العادة إلى حب لمن يكونون على صلة وشيجة بالطفل، وهو حب خالٍ من الشهوة في صورة تعلّق بالشخص. وإذا ما انتهت المرحلة الأولى من النمو الجنسي، غاب الاهتمام الجنسي بضع سنوات وهذه هي فترة الكمون Latency period، تنشغل فيها قوى الطفل واهتماماته بالعمل في نمو جوانب أخرى من الشخصية بخلاف الجنس، إلى أن يبلغ سن المراهقة Adolescence، فتستيقظ عنده الناحية الجنسية. والمراهقة أخطر مراحل النمو النفسي الجنسي Psycho-genital development، وبدايتها تختلف باختلاف البلاد والأجناس والثقافات والمناخات Sex-differentiation، وعادة ما تكون في نحو الثانية عشرة من العمر. وكل إنسان يمر بثلاث مراحل نفسية جنسية: الطفولة Infancy، والنضج Maturity، ثم الكهولة Senility، ويتخللها المراهقة وسن اليأس Menopause. والطفل في المراهقة يكتشف ذاته، ويكتشف أن أمامه مستقبلاً فيعرف الزمن لأول مرة، والدليل على ذلك كتابته لليوميات، ويكتشف أن هناك عالماً يعلو على الواقع، وهو عالم الأفكار والقيم، ويتعلق اكتشافه بالأخلاق، ويعرف معاني الشرف والحق والصدق، ويبدأ يلبي نداء الواجب، ويتنامى شعوره بالمسؤولية. وربما في المراهقة يدمن العادة السرية .addiction m، والإحصاءات تؤكّد أن ٨٥٪ من المراهقين يمارسون العادة السرية، وسمعتها سيئة عندهم، وينفّرهم منها

إسمها Masturbation - أي التدليك باليد، والبعض يفضلون إسم Onanism - نسبة إلى عونان بن يهوذا Onan في قصة التوراة (تكوين ٣٨/٤، ٤٦/١٢) الذي كان يستمني بيده، وآخرون يفضلون إسم Auto-erotism أي الاشتهاء الذاتي، وتنتشر بين الذكور عن الإناث، وقلما تفعلها أنثى وقد يجرّب الأولاد مع بعضهم ممارسة العادة السرية، كل اثنين مع بعضهما. وقد يجرّب الحب بعض الأولاد على الطريقة المعروفة باسم الحب الأفلاطوني Platonic love، وهو ليس جنساً بالمرة، ولكنه خبرة عاطفية يعرفها الأولاد في سن المراهقة، وقد يتورطون في علاقة لواطية Homo-sexual، فيأتي الذّكران الذّكُران، وينتشر ذلك خصوصاً في المجتمعات المغلقة التي يُترك فيها الأولاد الذكور بلا رعاية، وعادة ما يستغل الولد القوي من هو أضعف منه، أو يوفّر له القوي الحماية نظير أن يسمح له بمضاجعته في الدُّبر. وهنا يبدو أن التربية الجنسية Sexual education مطلوبة لأنها تحول دون ذلك، وتعطي للأولاد من المعارف ما يوفّر لهم إدراك خطورة مثل هذه العلاقات الشاذة.

والتربية الجنسية ضرورية في المدارس وفي البيت، ويقسّمونها قسمين، الأول التعليم الجنسي العام General-s. education، بنظرياته ومعانيه ومدلولاته، والثاني الخبرة الجنسية s. experience وتوسعة مدارك الأولاد والبنات وتوعيتهم. وكلما كان بالأولاد حياء Sex-flush كلما أفادتهم التربية الجنسية، والمطلوب دائماً ترسيخ هذا الحياء لأنه يحمي الشخصية ويضفي على التعليم جدية.

وفي سن المراهقة يعرف الطفل معنى الله، فطالما أن كل شيء مخلوق فلا بد له من خالق، ووجود كائن أعلى قوي يضمن للأطفال الحماية، ويؤدّي نمو الشعور الديني إلى يقظة الوعي الديني، ويُدرّس للأولاد ضمن برامج التربية الدينية موادٌ كالدعارة Prostitution، وتنتشر الدعارة الآن بشكل هائل كلما اتجهت البلاد المعنية نحو التحرّر الأخلاقي، وكلما تعثّرت جهود الشباب أن يكون لهم الزواج الصالح. والمومس Prostitute إمرأة تمارس الجنس لقاء أجر، وتعتبر السيدة التي تفعل ذلك نظير هدايا أو خدمات من

نوع البغايا، والسمة الغالبة على البغي هي النقص العقلي والأخلاقي، وتعوزها القيم الأخلاقية، والوعي بقيمة العمل، وقيمة الحياة الاجتماعية. وزبائن المومسات إما مراهقون من الطلبة، أو عُصابيون يخشون العلاقات الجنسية المحترمة، أو عُمّال من الطبقة الدنيا وسواد الناس من السفلة. وهناك فرق بين البغي والعشيقة Mistress، لأن الثانية لا تعمل بأجر ولكنها مولهة بالحب، والعشق خطوة إلى الزواج، وعلاقة الشاب بالعشيقة هي آخر علاقة جنسية تكون له قبل الزواج Pre-marital sex، وأية علاقة بعشيقة لها مدّة معيّنة، ولا يسعى العاشقان إلى الارتقاء بعلاقتهما إلى الزواج غالباً، والجماع Intercourse في العشق غاية في ذاته، وليس الهدف منه استحداث الحمل وإنجاب طفل، والنساء عادة يتورطن في هذه العلاقة بنسب كبيرة، وتذكر الإحصائيات أنه من بين كل عشر نساء هناك امرأة لها علاقة جنسية خارج الزواج، وأما الحب Love، فهو تجربة فريدة، لأنه نقيض القلق، فالحب يعمل على استقرار الإنسان بثبات واطمئنان.

والحب ليس شهوة، ولغته هي لغة القلب، وهو اندفاع نحو الكمال، وكلما كان لا يخضع للعقل كان صحيحاً، والمثل يقول الحب أعمى Love is blind، يعني أنه أعمى عن كل ما هو خارج مملكة الحب. ويحتاج الحب إلى الحياة الجنسية كي يستمر، وبدون الجنس يذبل سريعاً، وغالباً ما لا يدوم الحب، وهو ليس كل التجربة الإنسانية، ولا يحقّق جميع ما في العلاقات الجنسية من ثراء، ولا يسهلكها جميعاً، لأن الحب ليس سوى شرط للزواج، والزواج هو العلاقة الجنسية الكلية التي يجب على الحب فيها أن يستمر ليستقر للأبد. والفرق الأساسي بين الجنسين Sex-differentiation هو الاختلاف بين وظائفهما الجنسية أو بالأحرى أدوارهما الجنسية Sex-roles، غير أن المرأة تتميز عن الرجل، بأن لها عقلاً وقلباً وبينهما دائماً نزاعٌ ما، وأما الرجل فله عقل، وأيضاً فإن الوظيفة الجنسية أساسية للمرأة، وهي عَرَض بالنسبة للرجل، والمرأة أيضاً تنجب طفلاً، أي تخلقه، وهذه الوظيفة هي أصل الطابع الأنثوي Feminine type وهو طابع

الأمومة Maternal type. والحياة الجنسية عند المرأة تظل خاملة إلى أن يوقظها مُحب، بينما الحياة الجنسية عند الرجل جاهزة دائماً ويمكن استثارتها تلقائياً، ولذلك فالعادة السرية عفوية عند الرجال ولكنها لا لزوم لها عن النساء، والمرأة في الجنس تنشد الكمال Consummation وليس أنصاف الحلول، ولذلك فالجنس عندها تجربة مثيرة، وليس أي رجل يمكن أن يجعله هكذا معها. والحب يبدأ دائماً بشكل فجائي، وهو ليس الحب الذي يتولد من أول نظرة، ولكنه ينمو بالتدريج دون أن تُعرف له بداية، وربما كان أدوم الحب لذلك هو ما كان بين اثنين يعرفان بعضهما من زمن بعيد، إلا أنهما يدركان فجأة أنهما متحابان، وأنه لا غناء لأحدهما عن الآخر، وأنهما لم يَعِيا من قبل ما عليه كلٌّ منهما من فضائل ومحاسن، وكل قصص الحب المشهورة كانت هكذا، مثل قصة قيس وليلى، وكُثيِّر وعزّة، وأما قصص الحب التي تتولد فجأة فمصيرها كذلك إلى الموت فجأة كقصة روميو جولييت. والحب الصادق هو الذي لا يقضي على شخصية المحب أو المحبوب، ولا يستعبد أيهما الآخر، بل أن كلاً منهما يستحيل مصدر ثراء لشخصية الآخر. والحب فيه العشق، ويرتقي فيصبح هياماً، ثم شغفاً، ثم وجداً، إلخ. وكلمة «حب» لها مدلولها الثقافي والأنثروبولوجي عند مختلف الشعوب، فالألمان يسمون الحب Liebe، والإنجليز Love، والفرنسيون Amour، والإيطاليون Amore، إلخ، وكل لفظة لها جَرسُها ومدلولها النفسي، واللفظة العربية «حُبّ» هي أبسطها وأقلها في عدد الحروف، وذلك دليل على أن الجنس ليس له عند العرب هذه الاحتفالية التي له عند غيرهم، غير أن اللغة العربية غنية بالألفاظ عن أحوال الحب، فلكل حالة لفظتها، فالهوى مثلاً: هو إرادة النفس إلى ما تستلذ سواء كان خيراً أو شراً، والهُيام: هو العشق بجنون، أي الحب الذي يستلب عقل صاحبه، ولهذا يقال والهُيّام للعشّاق الموسوسون: الهُيّام؛ والجَوَى: هو شدّة العشق لدرجة أن يصاب العاشق بالاكتئاب، ويرين عليه الحزن والسُقام، وكلمة «حب» هي التي تجمع كل ذلك وتختصره، غير أن الحب قد يكون

للأشياء، أو يكون حب امتلاك، أو حب الله، وكذلك قد يكون حباً للجنس.

والحب لا يقاس وليس له مقياس، وهو شعور، فأنت تستطيع أن تشعر بأنك تحب حباً عظيماً، أو حباً ضئيلاً. ولا يخطئ الحب، وإنما الخطأ مرجعه المحبون، وكما تكون شخصيتك يكون حُبّك، فالشخص التافه حبُّه تافه مثله، والشخص العظيم حبُّه عظيم. وكلُّ حب مهما كان تافهاً أو عظيماً فهو خلّاق، ويتراوح بين السعادة والشقاء، وبين اللذّة والألم. وتُنمّي التعاسة في الحب الرهافة، والحساسية الروحية، وتثري الشخصية. وقد يتعارض الواجب مع الحب، كما قد تتعارض الفردية مع الحب. ولا يستغني الحب عن الجنس كما قلنا، والجماع هو قمة الوصال. والحب يريد أن يكون خالداً، ولهذا يتنازع المحبون لأن الجماع في الحب وقتي، ومهما كان الحب صادقاً فمآله إلى الموت، ووداع الحب أشد ألوان الوداع مرارة، ولولا الإيمان بوجود الله لمات المحبّون من شدّة حزنهم.

وفي وقتنا هذا يدور الحب حول المساواة المطلقة بين المرأة والرجل في كل شيء، والعقل يقضي بأن يكون معنى المساواة أن يكون للمرأة ما يناسبها من واجبات وحقوق، وللرجل ما يناسبه منها، فمن العدل أن لا يوكل عمل لإنسان ليس مؤهلاً له، وليست لديه الاستعدادات والقدرات والإمكانات لأدائه، وكلما انخرطت المرأة في سلك العمل طالبت أكثر بالمزيد من الحقوق، ولم نسمع أبداً أنهن يتحدثن في الواجبات، وكلهن يؤكّدن أن المرأة كالرجل، ولا فرق بينهما إلا ما يتوهمه الرجل أنه فرقٌ بينه وبين المرأة، وكل النساء المتحررات ينفين بشدّة أن يكن مختلفات عن الرجال، وأن إصرار الرجال على أنهن مختلفات إنما تدفع إليه أسباب إقتصادية وعقدة نقص، والرأي في علم النفس، وفي الطب النفسي: أن الرجال مختلفون عن النساء، ولكنه اختلاف التكامل Completion، وكان الشيخ الشعراوي يذهب إلى الرأي نفسه، فمهما كان الاختلاف بينهما فإن عليهما القيام بمهمة واحدة، وكل منهما يعين الآخر عليها بحسب ما عنده، ولا يكلّف الله نفساً إلا وسعها، ويتشابه الاثنان في التركيب النفسي الأساسي، ولكل منهما

صفات الشخصية الإنسانية نفسها، إلا أن الظروف التاريخية والاجتماعية أثّرت في نمو الفروق بين الجنسين، وكانت لكل منهما صفات إنفرد بها نتيجة النجاح أو الفشل في الملاءمة بينه وبين المجتمع، إلا أنه لا مفر من الاعتراف بأن مزاج الذكر Male temperament يختلف اختلافاً أساسياً عن مزاج الأنثى. وهناك مفهوم للأنوثة والذكورة يشتمل على عدد من المميزات النفسية المحدّدة، ولم يكن عبثاً أن هناك تصوراً عاماً لمفهوم «الأنوثة الخالدة Eternal femininity» أي الأنوثة في اعتباراتها الأساسية، ويقوم الفرق الأساسي بين الجنسين على الاختلاف بين وظائفهما الجنسية، وقد يقال إنه ليس في عالم النساء عباقرة كما عند الرجال، وأنه حتى العظمة عندهن فإنها عظمة أنثوية، أي عظمة من نوع خاص، هي في صميمها «أنوثة». ومن الصعب اتهام النساء بأنهن يفتقرن للمنطق، إلا أن ما يميّز المنطق الأنثوي أنه منطق مادي، والنساء عموماً لا يتعمقن الأشياء ولكنهن يعشنها، ولا يتعاطفن مع الألم وإنما المرأة تحسّه، والمرأة لها كرامة، والرجل له شرف، ولا شك أن المرأة سلبية في الجنس، ويقتصر دورها على الألم، والرجل إيجابي فعّال ونشيط في الجنس، وهو الذي يغازل المرأة، ومعظم النساء ينجحن بالغزيرة الجنسية وليس بالذكاء، ومن الصعب عليهن أن يضعن حاجزاً بين عقولهن وقلوبهن، ومن المستحيل قيام صداقة صرفة بينهن وبين الرجال، والنساء ينغمسن بعمق في الجنس وهو ما يميزهن عن الرجال، والجنس عند الرجال ممارسة متفرّقة، ولذا كان إحساسهم بالجنس أقل من إحساس النساء عموماً. والمرأة تطلب الزواج وتسعى إليه، لا لتأمين حياتها المادية، بل لوجودها نفسه الذي هو شرط لكيانها، ولتحقيق هذا الكيان، لأنها تنشد استمرار الحياة. وأما الرجال فكلمة «ذَكَر» تدل على الوظيفة البيولوجية مقابل كلمة «أنثى»، والصفة «رجولي» تدل على الشدّة والقوّة والمبادرة، بينما «أنثوي» تدل على الرقّة والليونة، والحب، والتسامح، والعفو، والرحمة. ومن الغريب أن الجنين يكون في بدايته أنثى، ثم يتحول إلى

الذكورة لو كان مقدراً له أن يكن ذكراً، وكأنما الذكر يتولد عن الأنثى وليس كما تقول الأسطورة في التوراة: إن حواء تخلّفت من آدم، غير أن نزعة التاريخ مع الرجل ضد المرأة، ومع ذلك فالنساء كنّ أول من مارسن الزراعة والأشغال اليدوية، غير أن ذات المرأة تتحقق في قيامها بوظيفتها الجنسية، وأما الرجل فذاته تتحقق بالعمل، ولا يوجد في عالَم الرجال «ذكورة خالدة»، بينما عند النساء توجد «أنوثة خالدة»، والرجل يبزّ المرأة حتى فيما ترتدي كما ذكرنا أي في التفصيل والخياطة، وفي أخصّ وظائفها وهو الطهو.

والعلاقة الجنسية عند الرجل تختلف عنها عند المرأة، وهي عنده مجرد لون من النشاط كسائر العلاقات، وتسمّى القدرة على إتمام العلاقة الجنسية بالقوّة الجنسية Sexual potency، والرجل القادر جنسياً هو الذي ينتصب ويولج، ويظل منتصباً فترة كافية حتى تنعظ امرأته، ومن لا تنعظ امرأته فليس بقادر جنسياً، وما تحتاجه العملية الجنسية حتى ترضى المرأة هو الوقت اللازم ليبقى منتصباً، ويحب بعض الرجال أن لا يقرب المرأة إلا إذا بذل جهداً، ويسمى ذلك غزواً وفتحاً، ولا يعجز الرجل جنسياً إلا نتيجة اضطراب نفسي عصبي، والبرود الجنسي Sexual frigidity عند المرأة وسيلة عُصابية في معظم الأحيان لتحقير الرجل والحطّ من شأنه، عندما يعجز عن إتيان إمرأته. ولا شك أن الحب الجنسي الصحيح هو المتوافق مع الأخلاق الجنسية Sexual ethics عند الرجل والمرأة على السواء، والمطلوب دائماً أن تكون المرأة عفيفة وبكراً، وليس كذلك الرجل، والأخلاق الجنسية ضد الإباحية Libertinism، والإباحي Libertine هو الذي يهين الخفر والحياء. والمرأة العفيفة Chaste بها طمأنينة وثقة في نفسها لا يُخطئها إنسان. ولا يتطلب مراعاة الأخلاق الجنسية أن نلغي مطالبنا الجنسية، أو نكبتها، وإنما أن نشبعها بطريقة مشروعة Ligitimate، والطهارة الجنسية Sexual purity عنصر أساسي في أخلاق المرأة الجنسية. والزواج أمرٌ مفروض بحسب هذه الأخلاق، وبنات هذه الأيام ضد الزواج

نتيجة آراء فاسدة لا تصمد للنقاش. والزواج إتحاد بيولوجي واجتماعي ونفسي وثقافي وعقلي بين رجل وامرأة، وبدون الزواج لا تنمو الحياة الإنسانية. ومن السهل التدليل نفسياً على أن فكرة الزواج المتعدّد Polygamy هي الفكرة السليمة، وكذلك من السهل التدليل بيولوجياً على أن الزواج من واحدة هو الزواج الأمثل Monogamous، وأخرى متعدّدة الزواج Polygamous، والغالب في العالم عند الإنسان هو الزواج من واحدة. وقد يكون الاختيار في زواج الواحدة فاسداً، وبذلك يكون الإصرار على استمرار هذا الزواج خطأً كبيراً ومفسدة عظيمة. وعادة لا يكون الحب جوهر الزواج، وتتوثق أواصر الحب بين الزوجين بما يصادفان من مشاكل ومصاعب، وبالعيش معاً تتولّد الإلفة وتتنامى المعرفة الكاملة بالآخر. وتتّحد بالزواج حياتي الزوج والزوجة، ويتّحد جسداهما في جسد واحد، ولا يفصل بينهما حياء ولا خجل، وليس أهم في الحياة الزوجية من أن ينام الزوجان معاً على سرير واحد، والزوجان اللذان لا ينامان معاً لم يرتبدلا برباط الزوجية الحقيقي: رباط الوحدة. والإخلاص Loyalty، والوفاء Fidelity بينهما واجب أخلاقي، وهما تعبيران عن الأخلاق الجوهرية، وبهما يتقاسم الزوجان كل نواحي الحياة، وتقضي الخيانة الزوجية Marital infidelity على الزواج نهائياً. والأطفال عامل جوهري في الزواج، والمرأة تحتاج إلى إنجاب الأطفال لتحقّق به الضرورة الجوهرية في طبيعتها، فإذا حُرمت من ذلك فقد الزواج بالنسبة لها جزءاً كبيراً من مغزاه. وتزداد الآن النزعة إلى الطلاق حتى باتت كالوباء، ولا شك أن قوانين الطلاق في كل العالم ناقصة وتحتاج إلى التهذيب، والزواج في علم النفس علاقة دائمة، وكل زواج لا يدوم غير سوي. وتهدّد الزواج فترة اليأس Climacteric في الخمسين من عمر المرأة، وتستمر حوالى ستة أشهر أو ثمانية عشر شهراً، وترجع هذه الحالة إلى ضمور في المبيض، وترهُّل في الرحم، وضعف عام، ثم انقطاع للطمث، وارتفاع في درجة الحرارة، وهشاشة العظام، إلخ، وتفقد المرأة غالباً رغبتها الجنسية، والبعض يحتفظن بهذه الرغبة، ويختلف

فـي ذلك أمـر الـرجـل، لأن خصـيـتـيـه تستمـران في العمل، إلا أنهما تهرمان، وليست عند الرجل مرحلة يأس كما عند المـرأة، وهـذه السـن تـمثل عنـد الاثـنـيـن عتبة الشيخوخة ونهاية النضال.

مراجع:

- الـمـوسـوعـة الـنـفـسـيـة الـجـنـسـيـة: دكتور عبد المنعم الحفني.
- The Physiology of Reproduction: Marshall, H. A.
- Sexual Life of a Child: Moll, A.
- Analysis of the Sexual Impulse: Ellis, H.
- Ideal Marriage: Van de Velde.
- The History of Human Marriage: Westermarck.
- Sex in Man and Animals: Baker, J. R.
- Nudism in Modern Life: Parmelee, M.
- Man and Woman. Studies in the Psychology of: Ellis, H.
- Love in Children: Pfister, O.
- The Eation of Love Between the Sexes: Bell, S.

❖ ❖ ❖

- ٤ -
سيكولوجية الثواب والعقاب

الـثـواب والـعـقـاب فـي الـتـربـيـة والإنـتـاج الصناعي. مدارج الثواب والعقاب. أنواع الـمـكـافـآت والـحـوافـز. مـوقـف الـعـقـاب ومتضمناته. أنواع العقاب...

❖ ❖ ❖

يُستخدَم مبدأ الثواب والعقاب Reward and punishment principle في التربية، وفي الإنتاج الصناعي، وفي المعاملات اليومية، فما نُثاب عليه نميل إلى تكراره ويكون أخذُنا به والتعويل عليه، وما نُعاقَب عليه، أو يكون التهديد بالمعاقبة عليه، ننفر منه ونتجنبه. ويرتبط تطبيق مبدأ الثواب والعقاب بمفهومنا عما هو صحيح أو خطأ. وللثواب مدرج، كما للعقاب مدرج يكون بهما تراتب أنماط السلوك التي يُثاب أو يُعاقَب عليها. ويختلف تقويمنا للسلوك أو للنشاط بحسب الأحوال والظروف، وقد

يكون السلوك مُثاباً عليه في ثقافة، بينما يُعاقب عليه في ثقافة أخرى.

ويرتبط مبدأ الثواب والعقاب في مجال علم النفس أكثر ما يرتبط بقانون ثورانديك Thorandike المسمّى بقانون الأثر Law of effect، من حيث أن المثاب أو المعاقب يشعر بالرضا والارتياح أو بالضيق والسخط والألم، فيسعى الأول للارتباط بالمثير المريح، بينما ينفر الثاني من المثير المزعج أو الذي لحقه بسببه الفشل. وهذا المبدأ هو الذي تطوّر حديثاً في شكل مبدأ التعزيز Reinforcement principle، ومنه التعزيز الإيجابي .Positive r بالمكافآت (كالمكافأة بالطعام مثلاً)، على إتيان الاستجابة الصحيحة أو السلوك المرغوب فيه، والتعزيز السلبي Negative .r بالعقاب على صدور الاستجابة الخاطئة أو السلوك غير المرغوب فيه. ومن الطبيعي أن تكون المكافأة أو الإثابة دافعاً للتعلّم ولكل سلوك مستحسن إجتماعياً، وليس شرطاً أن تكون المكافأة مادية (بالنقود مثلاً) دائماً، فهناك مكافآت معنوية (كالتشجيع بالكلام وإظهار الاستحسان)، والمكافأة سواء كانت هذه أو تلك فمن شأن ارتباط موقف المكافأة Reward situation بالمكافأة، أو ارتباط الاستجابة بالمكافأة عليها، أن تتعزّز الاستجابة الناجحة ويقوى السلوك المرغوب. والمكافأة الأولية Primary reward هي التي يكون بها إشباع حاجة أولية كالطعام بالنسبة للجوعان، وليس من المناسب أن نقدم للجوعان مكافأة على شكل ماء، والمكافأة الثانوية .Secondary r كأن تكون بالمال الذي هو وسيلة إشباع لأية حاجات، والمال هنا أيضاً مكافأة رمزية .Token r من حيث أنه لا يشبع مباشرة الحاجات الإنسانية، وليس له قيمة في حدّ ذاته، وإنما قيمته بما يمكن أن يتيحه من إشباع لهذه الحاجات. وفي التجارب على القرود تعلموا أن يحتفظوا بالفيشات ليقايضوا بها على الطعام. وعندما تكون الإثابة على العمل من خارج هذا العمل ولا تتعلق به فإنها تسمى مكافأة خارجية Extraneous .r، فإذا كانت من صميم الأداء فهي مكافأة ذاتية .Intrinsic r. والمكافأة المالية، والجوائز والميداليات،

والدرجات والتقديرات المدرسية، والترتيب في التفوق، والمدح بالألفاظ، من قبيل المكافأة الخارجية، بينما حالة الرضا التي يستشعرها الناجح، أو زوال التوتر عنه، أو تحقيقه لذاته بالنجاح، أو النجاح نفسه كإنجاز، هو من نوع المكافأة الذاتية. وعندما تتكرر المكافأة على استجابة معيّنة أو سلوك بعينه فإن من شأن ذلك أن يستحدث لدينا أو عند الكائن الحيّ عموماً ما يسمى بتوقع المكافأة r. expectancy، فإذا كانت كل الظروف مهيّأة للمكافأة ومع ذلك لم تتحقق، فالملاحظ أنه تتولد حالة من التوتر يكون معها سلوك البحث والسعي.

والمكافأة المرجأة Delayed r. هي التي يتأخر تحصيلها بعض الوقت، وفي التعلم الشرطي الإجرائي فإن الاستجابة قد يأتيها المفحوص ولكنه لا يحصل على المكافأة إلا بعد فترة، وهو ما يسمى بالتعزيز بالفترة Interval reinforcement، وكلما تأخرت المكافأة كلما قلّ الارتباط بينها وبين الاستجابة. ويبدو أن التعجيل بالمكافأة وأن تكون خارجية أليق بالأطفال منه بالكبار، وبالمتأخرين عقلياً منه بالأذكياء، وبنمط الشخصية من حيث الاندفاع، وإيثار العاجل على الآجل، والمادي على المعنوي. ويميل أصحاب المبادئ والاتجاهات الدينية والمثالية إلى المكافأة الذاتية والآجلة على المكافأة الخارجية والعاجلة.

والمكافأة الموجبة Positive r. هي التي تصاحب التعزيز الموجب Positive reinforcement، أي الذي تتأصل به الاستجابة وتثبت. والمفروض أن المكافأة من حيث هي كذلك إيجابية، غير أن التعزيز السلبي Negative reinforcement بالعقاب أو بالحرمان من المكافأة يقال له أيضاً المكافأة السلبية Negative reward أو المكافأة بالسلب. ونلاحظ أن لفظ مكافأة من الفعل يكافئ أو يعادل، والمعنى الدلالي إذن للفظة هو ما يُعطَى كمقابل، وما يُعطى - أي الإثابة أو المكافأة - ينبغي أن يُعادل العمل، فإن يكن العمل خيراً كان المقابل المعادل خيراً يساويه، وإن يكن شراً يكن هذا المقابل المعادل بقدره، وذلك ما يسمونه قيمة المكافأة Value r.. وفي البحوث على القيمة للمكافأة في المجال الصناعي

يتبين أن العمال يؤثرون المكافآت ذات القيمة الآجلة والتي لها مردودها على حياتهم عند التقاعد. ومن الطبيعي أن تختلف القيم للمكافآت الواحدة بحسب المجتمعات والأفراد والمستويات الاقتصادية والحضارية، ففي مجتمع محروم لا بد أن تعلو القيمة المادية على أية قيم أخرى، بينما في مجتمعات الوفرة يكون التطلّع للمكافآت المشبعة للدوافع الثانوية. وهناك الكثير من البحوث فيما إذا كانت المكافأة أفضل على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعة، ومن النظم ما يأخذ بالمستوى الأول على أساس من الزيادة الملحوظة في الإنتاج وفي نوعه، ومنها ما يأخذ بالمستوى الثاني بالنظر إلى المردود الاجتماعي الذي للمكافأة في هذه الحالة. والبعض يجعل المكافأة مادية في صورة أجر زائد، والبعض يجعلها في شكل خدمات صحية تعليمية وترفيهية.

ومن شأن المكافأة أو الإثابة أن تكون لها نتائج وجدانية ومعرفية سارة، من حيث أنها تقوّي من الدوافع، وتشجّع على التعلّم، وتنشطهما، والمكافأة المشجعة .Stimulating r هي من قبيل ذلك، وينبغي التمييز بينها وبين المكافأة المُسكِّنة .Sedative r، والأولى لا تثيب على النشاط على قَدْره، والثانية يُقصَد بها أن يستمر النشاط ولو لم يُكافأ صاحبه المكافأة التي لها قيمتها. والمكافأة عموماً تستحث على الاستفادة مما نتعلم، وكذلك فإن من شأن التمايز بين المكافآت أو ما يسمى الإثابة الفارقة .Differential r أن تتمايز الدوافع عند المتعلم أو العامل، وتقوى بعض الدوافع بتعزيزها بالمكافآت الفارقة، وتزيد المكافآت الثقة في النفس، وتشجّع على المغامرة والابتكار، وعلى المثابرة، وتزيد من جاذبية ما يأتينا منه الثواب، فضلاً عن المترتبات المعرفية من حيث أن المكافأة تعطينا العلم بمدى ملاءمة استجاباتنا وسلوكنا، وتجعل للتعلّم معنى بالربط بين الاستجابات والأهداف. ومن شأن المكافأة بالتغذية الراجعة المدعمة أن تجعلنا نركز على استجابات دون استجابات، فيكون السلوك الانتقائي، ومن ثم تكون أيضاً إمكانية توجيه السلوك. غير أنه من جهة أخرى فإن

المكافأة عندما تكون من مصدر خارجي قد ترتبط بالأداء إرتباطاً زائفاً يُفرض عليه فرضاً، وقد تكون لها آثار سلبية من حيث توجيهها للسلوك فيصبح المستجيب للمكافأة مُسَيّراً وليس مُخيّراً، فيعمل أو يتعلم ما يطلبه منه الآخرون، وينقاد لهم، ويرضخ للشروط التي يكون بها أداؤه لما يطلبونه منه، وتقل بذلك ابتكاريته أو تتحدد تحديداً في منصرفات بعينها. وربما يرتبط المؤدّي بالمكافأة إرتباطاً نفسياً دائماً، فيكون أسلوبه في التعامل بحيث لا ينهض بالمطلوب إلا إذا كوفئ عليه، وربما يدفعه ذلك إلى منافسة قد تجرّه إلى القيام بأي فعل من شأنه أن يبلغ به إلى المكافأة من أي طريق ومهما كانت السبل، فيتحرّر من الالتزامات الأخلاقية ويجيز كل شيء مهما تعارض مع القوانين، وخاصة إذا كانت المكافأة محدودة بينما المتنافسون عليها كُثِر، وتتحقّق للفائز بها متحصلات نفسيّة بالإضافة إلى المكسب المادي، إلا أن ذلك قد يتسبّب عند غير الفائز الملتزم أن يناله الإحباط. ولنا أن نقارن بين آثار إيجابية عند واحد أو اثنين من الفائزين ونتائج سلبية عند الأغلبية. وقد يترتّب على الإحباط شعور دائم بالفشل، ومشاعر نقص قد تتعزّز عند هؤلاء وتظهر نتائجها في سلوكهم وتطبع شخصياتهم.

ويتوخى العقاب نتائج بخلاف ما يقصد إليها الثواب. ويتضمن موقف العقاب Punishment situation طرفين، أحدهما يعاقِب (بكسر القاف)، والآخر واقع عليه العقاب لقيامه بفعل من شأنه الإضرار بالأول. والعقاب إما بموقف يستحدث الألم، أو أنه يشتمل على خبرة غير سارة، أو قد يكون بفرض عمل لا يريده الآخر أو لا يحب أن يؤدّيه، أو ربما بحرمانه من شيء أو فعل يريده أو يحب أن يقوم به. والعقاب منه الرسمي Formal الذي تصدر به أحكام وتنهض على تنفيذها جهات رسمية، ومنه العقاب غير الرسمي Informal p. وهو كل ممارسات العقاب بين الأفراد بعضهم البعض في معاملاتهم اليومية. والعقاب منه البدني Corporeal p. الذي يتوجّه للجسم وأعضائه كعقوبة الجَلْد أو الإعدام، ومنه المعنوي Incorporeal p.، وأوجاعه تكون

لها وطأة عقلية ونفسية، فنظرة عدم الرضا التي يواجه بها الأب إبنه قد تفوق في نتائجها الضرب الموجع. والعقاب البدني غالباً ما يكون خارجي المصدر Extrinsic p. غالباً، بينما في كثير من الأحوال يكون العقاب المعنوي داخلي المصدر Intrinsic p. ومن رأي علماء التحليل النفسي أن مشاعر الذنب وما تجرّه على صاحبها من اضطرابات نفسية هي بمثابة العقاب الذاتي Self-p. الذي ينزله المرء بنفسه بدوافع داخلية منه دون الدوافع الخارجية. ويذهب فرويد وأتباعه إلى أنه بالإنسان دون الحيوان حاجة إلى العقاب Need for punishment، بتأثير تكوينه النفسي، حيث ينفرد الإنسان بالضمير Conscience أو الأنا الأعلى Super-ego، وهو الذي يجعله دائماً حسّاساً تجاه ما يفعل ويشعر ويفكّر، فإذا خالف النواهي والزواجر والأخلاق والعرف والشرائع والقوانين إنتابته من ذلك مشاعر ذنب، فيميل بسلوكه لاشعورياً إلى أن يكفّر عن رغباته أو مشاعره أو أفعاله Unconscious need for p.، بأن يُنزل بنفسه العقاب التكفيري Expiatory p.، كأن يعوّض الآخرين عمّا شعر تجاههم أو لحقهم منه من أذى، وقد يغالي في التعويض أو يتطرّف في التكفير حتى لقد يحاول الانتحار أو ينتحر فعلاً. ولربما يطبّق البعض العقاب بالمِثل p. by reciprocity، وهو مقولة دينية من باب السن بالسن والعين بالعين كقوله تعالى: ﴿وإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (النحل - ١٢٦)، وأحياناً يُمارس هذا العقاب على نطاق رسمي، وقد يُعمل به أيضاً على نطاق غير رسمي كمقولة أخلاقية. والعقاب الذي ينزله الله بالناس - العقاب الإلهي Divine p. - هو من نوع العقاب التكفيري عمّا ارتكبوا، كما حدث لليهود الذين عبدوا العجل فأُمروا أن يكفّروا عن فعلهم، بأن يقتلوا أنفسهم عقاباً لما فعلوا، كقوله تعالى: ﴿وإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أنْفُسَكُم باتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة - ٥٤)، وكما تقول التوراة فإنهم قتلوا من أنفسهم عدّة آلاف. ومثل ذلك عقاب ميداس Midas p.، فقد كان يمارس الاستمناء فعاقبته الآلهة على فجوره.

والعقاب الطبيعي Natural p. هو من نوع العقاب في الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء - ١٢٣)، والآية: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (الشورى - ٤٠).

ومن أهداف التربية أن تجعل العقاب ذاتياً من داخل الأفراد، أي عقاباً نفسياً، بحيث يكون الرادع عن الفعل اللاأخلاقي بوازع من الضمير أو الأنا الأعلى وليس الخوف من العقاب الرسمي أو البدني أو العقاب الاجتماعي. ومن رأي دوركايم أن المقصود بالعقاب ليس التمثيل بالمجرم، ولا جعله أمثولة لغيره، ولا إصلاحه بالعقاب، ولكنه لإذكاء الفضيلة عند الناس، وبيان الحدود بينها وبين الرذيلة، أي بيان المسموح به اجتماعياً وغير المسموح به، والفواصل بينهما. ولربما تكون بنا حاجة دائماً للعقاب حينما لا تكون هذه الحدود واضحة، ويذهب البعض منا إلى حدّ اختبار الحدود، وخاصة الأطفال. وفي التربية قد يجدي الحزم عن القسوة، وأن يكون العقاب فورياً وبدون انفعال ولا تناقض. والمبالغة في استخدام العقاب في التربية كستراتيجية دائمة قد يولّد القلق عند الطفل، ويؤثّر على تكوين شخصيته واتجاهاته المعرفية، وقد ينفّره من موضوع التعلّم، ويعمّم الطفل هذا النفور على كل التعلم ويكون سبباً في فشله. وقد تزيد المبالغة في استخدام العقاب من مستوى الطموح لدى الطفل بشكل إصطناعي لا يناسب قدراته، ويدفعه إلى مواقف حرجة، وربما يؤدّي إلى المزيد من الإحساس بالفشل، حتى ليلازمه الفشل كبُعد من أبعاد شخصيته، ولعله من هذا الطريق تتكون الشخصية غير الكفوء Inadquate personality. غير أنه من جهة أخرى فإن العقاب يدفع إلى تركيز الانتباه، والدأب على العمل ومحاولة التعويض. ويُستَخدم العقاب بالتنفير Aversive p. كعلاج، ويسمّى أيضاً العلاج بالتنفير، وهو طريقة من طرق العلاج السلوكي بالتنفير من الاستجابات غير المرغوبة بالمعاقبة عليها، على أن يُدرّب المريض على الأخذ باستجابة بديلة مرغوبة ويُكافأ على إتيانها. والعيب في العقاب أنه لا يخبر عمّا ينبغي فعله، بعكس الثواب، ولذلك

يُتبع دائماً العلاج بالعقاب بعلاج آخر بالثواب.

وقد تستهوي البعض أنواع من العقاب يكون بها شعورهم بالألم، ولكنه الألم المطلوب الذي يتوافق مع طبيعتهم الماسوشية والذي ترضَى به نوازعهم. وقد يدأبون لذلك على ارتكاب الأخطاء لتوجَّه إليهم الإهانات، أو لينالوا العقاب البدني كما في حالات الميل لارتكاب الحوادث Accident-proneness، فقد ثبت أنه في ثمانين في المائة من هذه الحالات فإن ما يدفع إلى ارتكاب الحوادث هو الرغبة اللاشعورية في إنزال العقاب بالنفس أو البدن، وكأن مرتكب الحوادث يسعى قصداً لينال العقاب. ومن ذلك ما يعانيه البعض من تحقير الذات Self-abasement، بحيث يناسبهم أن يؤكّد لهم الناس ذلك فيهم كلما ارتكبوا ذنباً أو حادثاً، وأن يؤكّدوه هم أيضاً كذلك بسلوكهم. وينهي علماء التحليل النفسي عن العقاب البدني بالنسبة للأطفال، والعقاب الذي من شأنه تحقير الطفل، ويرجعون الكثير من الشذوذ الجنسي للضرب على المقعدة وزيادة الحساسية بها، وكذلك يرجعون ما يسمى بمحو الذات Self-effacement إلى خبرات العقاب الصادمة التي يترتب عليها أن ينسحب الطفل على نفسه، وأن يتوقف نمو شخصيته بالشكل الصحيح، ويسمّي علماء الطب النفسي ذلك بتر الشخصية Amputation of personality أو قتلها، وقد يتوجّه الطفل في حالات كهذه للتعيّن بشخصية الذي يُنزل به العقاب ويذوب فيها، وتنمحي ذاته إلى جوار ذات الآخر. ولربما تتعقّد صورة العقاب بحيث أن ما نعتبره عقاباً للطفل قد يكون مصدر سرور له، أو قد يفاخر به كعلامة على شدّة مراسه وقوّة تحمله. وقد يتوهم بعض الأطفال عقاباً نزل بهم وهو ما لم يحدث، إلا أن البعض يفسّر ذلك بالذاتية Autism، وتتميز بمثل هذه الهواجس التي يكون معها التخيّل بأن الطفل موضع عقاب من الآخرين - هاجس العقاب p. phantasy، بالتآمر عليه أو بحرمانه أو باغتيابه، من نوع التفكير الاجتراري الذي يتميّز به الفصاميون.

ومن المفارقات التي للعقاب أنه يحدث به تعزيز الاستجابة غير

المرغوبة، فمثلاً لو عوقب حيوان في موقف هرب فإنه بدلاً من أن ينتهي عن الهرب، قد تزيد استجابة الهرب عنده. وكذلك فإنه في المواقف المشتّتة قد يرتبط العقاب بمثير غير المثير الذي ينبغي أن يرتبط العقاب به، وذلك من تأثير غموض الكثير من المواقف التي يمارس فيها العقاب. وبعض العقاب يكون غير متناسب مع شخصية المعاقَب، نتيجة عدم دراسة المعاقَب ودراسة تراتب العقاب والثواب عنده. وفي بعض الأحيان قد يكون العقاب بالحرمان p. by deprivation مثلاً غير مجدٍ لعدم حاجة المعاقَب لما يُحرَم منه، وقد لا يُنتج العقاب أثره إذا لم يرتبط مباشرة بالاستجابة. والعقاب الموزّع Distributed p.، أي العقاب كلما كان هناك الفعل غير المرغوب فيه - هذا العقاب أفضل من العقاب بالجملة Wholesale p. والعقاب الرادع Preventive p. له تأثيره الناجز إلا أنه يؤثّر على الأداء.

مراجع:

- Thorndike, E.L.: An Experimental Study of Rewards.
- Levin, K.: The Psychological Situations of Reward and Punishment. In «A Dynamic Theory of Personality».
- Banduara, A.: Principles of Behaviour Modification.
- Skinner, B.F.: Science and Human Behavior.

❖ ❖ ❖

- ٥ -
سيكولوجية التعزيز

نظرية التعزيز وقوانينه وأنواعه. التعزيز الشرطي والثانوي والأولي والذاتي. جداول التعزيز. التعزيز بالنسبة، والمتقطّع، والمتغيّر، والفارق، والمتغاير، والاتفاقي، والخرافي، والعارض، والمُنتِج، والمرجَأ، واللاّدوري، والمتناسب، والتسلسلي، والنهائي...

❖ ❖ ❖

التعزيز Reinforcement أو التدعيم هو التقوية. تقول التعزيز الاجتماعي Social r. وتقصد مجريات الأحداث الاجتماعية التي يمكن أن تدعِّم سلوكاً كان قائماً قبلها ولكنه بها يتأكّد ويرسخ. والتعزيز أكثر ما يستخدم في مجال التعلم. ونظريات التعزيز r. theories مجال بحثي من مجالات السلوكيين من أتباع سكينر Skinner (١٩٤٤) وكلارك هل Hull (١٩٣٠)، الذين يفسّرون تعلّم السلوك واستمراره بالتعزيز. وقانون التعزيز Law for r. عند «هل» يقضي بأنه في حالة تكرار ظهور عملية الاستجابة زمنياً مع عملية الاستثارة، أو مع الأثر الذي تنتجه هذه العملية، وترافق هذا الاقتران، وتناقص الحاجة لدى الكائن الحي، فإن ذلك من شأنه أن تزيد به احتمالات استدعاء هذه الاستجابة في الحالات اللاحقة. كما أن الزيادة في التعزيز وتواليه يؤديان إلى قوّة العادة (SHR) Habit strength، ويُطلَق على قانون التعزيز إسم فرض التعزيز r. Hypothesis أيضاً، أو أن فرض التعزيز هو ما كان مطروحاً للبرهنة عليه في تجارب الإشراط الكلاسيكي، ومؤدّاه أن تَقارُن ظهور المثير الشرطي والمثير الطبيعي يقوّي من احتمال أن تكون للمثير الشرطي الاستجابة نفسها التي للمثير الطبيعي. وفرض التعزيز هو أيضاً ما يذهب إليه البعض من أن كل تعلُّم لا بد فيه من التعزيز. أو أن التعلُّم يتم دائماً بالمكافأة عليه.

والتعزيز في اللغة الاصطلاحية يعني تعلم إستجابة معيّنة أو مرغوبة بتقوية الرابطة بينها وبين المثير الذي يؤدِّي إليها، بحيث كلما كان المثير كلما زاد احتمال صدور الاستجابة. وفي التعلُّم الشرطي يكون ذلك بتقوية الاستجابة الشرطية، بأن يتكرر ظهور المثير الشرطي أو غير الطبيعي ثم المثير الطبيعي، أو غير الشرطي، لتتم الرابطة بين المثير الشرطي والاستجابة، ويسمى ذلك تعزيزاً شرطياً Conditioned r. وأما التعزيز في التعلُّم الشرطي الإجرائي، فيكون بتقوية احتمال صدور الاستجابة عن طريق مُعزِّز يقوم بدور مثير جديد. فالحيوان الجائع يستجيب لوجود الرافعة في

صندوق سكينر Skinner box بالضغط عليها، وهذه الاستجابة هي سلوك إجرائي Operant behavior يلجأ إليه الحيوان، أو هو وسيلة الحيوان لظهور الطعام الذي يطلق عليه سكينر إسم المُعزِّز Reinforcer، ويقوم بدور مثير جديد يؤدّي إلى صدور إستجابة إفراز اللعاب. وفي ضوء التعلم الشرطي فإن أي مثير يمكن أن يصبح معزِّزاً عندما يقترن بالمثير المعزِّز الأصلي. فحينما يتعلم الحيوان الضغط على الرافعة فيظهر ضوء ثم يتبعه ظهور الطعام، فإنه إذا حدث وضغط على الرافعة فظهر الضوء دون الطعام فإن استجابة إفراز اللعاب ستصدر أيضاً، ونقول حينئذ إن الضوء إكتسب خصائص التعزيز، إلا أنها خصائص ثانوية وليست أولية، ومن ثم نطلق على هذه العملية إسم التعزيز الثانوي .Secondary r، في مقابل التعزيز الأولي .Primary r المعمول به في الإشراط الكلاسيكي، والذي يكون بتقوية الرابطة بين المثير الطبيعي (الطعام) واستجابة إفراز اللعاب. ونطلق أيضاً على الطعام إسم المعزز الأولي Primary reinforcer، بينما نطلق على الضوء إسم المعزز الثانوي Secondary reinforcer.

والتعزيز ذاتي المنشأ .Autogenic r هو نوع التعزيز عندما تكون الإثابة فيه ذاتية، بمثابة رضا الشخص عن نفسه كلما حقّق إنجازاً، وهو تعزيز خارجي .External r إذا كان الحافز إليه إجتماعياً كأن يكون مكافأة تُكتسب أو نجاحاً مادياً يتحقق.

والتعزيز له نظم قد يتم بها، أو أنه يمكن أن يتحقّق طبقاً لجداول يطلق عليها إسم نظم أو جداول التعزيز .r Schedules، ومن ذلك أن يكون التعزيز متصلاً .Continuous r كما في التعزيز الشرطي، فتثاب كل استجابة ويكافأ المتعلّم عليها، أو أن يكون تعزيزاً متقطعاً .Intermittent r فلا تثاب كل استجابة وإنما بعضها دون البعض، ولذلك فقد يقال له أيضاً التعزيز الجزئي .Partial r. وقد يكون تعزيزاً بالنسبة .Ratio r، أي بنسبة ما يصدر من إستجابات، كأن يقوم المتعلم بعدد معيّن من الاستجابات، قبل أن يحدث التعزيز، وفي هذه الحالة نقول إنه تعزيز بالنسبة الثابتة .Fixed ratio r،

وقد تتغيّر النسبة فيكون التعزيز عشوائياً Random r.، وبعد أي عدد من الاستجابات كيفما اتفق بشرط أن يكون متوسط الاستجابات عدداً ثابتاً أيضاً، وذلك هو ما نقصد إليه بالتعزيز بالنسبة المتغيّرة Variable ratio r.. وقد يكون التعزيز على فترات Interval r.، كأن يكون كل أربع دقائق، فنقول إنه تعزيز بالفترات الثابتة Fixed interval r.، أو يكون على فترات غير منتظمة إلا أن متوسطها أيضاً ثابت وذلك هو التعزيز بالفترات المتغيّرة Variable interval r.. وقد يكون النظام المتّبع في التعزيز خليطاً من نظامين أو أكثر من النظم السابقة، كأن يتوفّر به شرط النسبة الثابتة والفترة الثابتة معاً قبل أن يقوم التعزيز (Mixed schedule).

وتؤكّد نتائج تجارب سكينر وتلاميذه أن التعزيز بنظام الجدول المتقطع أكثر كفاية في التعلّم من التعزيز بنظام الجدول المستمر، وأن جداول التعزيز المتغيّر بالنسبة أو بالفترة أكثر كفاية من جداول التعزيز الثابت بالنسبة أو بالفترة، وأن جداول تعزيز النسبة الثابتة أو المتغيرة أكثر كفاية من جداول تعزيز الفترة الثابتة أو المتغيرة، ومن ثم فمن الممكن ترتيب هذه الجداول أو النظم بحسب كفايتها كالتالي: النسبة المتغيرة فالفترة المتغيرة، والنسبة الثابتة فالفترة الثابتة، وأخيراً التعزيز المستمر.

وقيمة التعزيز r. value هي مقدار ما للموقف من تأثير على احتمال صدور استجابة، لها به إرتباط تعزيز هذا الارتباط أو مكافأته. وإذا كان المعزِّز من شأنه أن يؤدّي إلى زيادة احتمال وقوع الاستجابة أو صدورها، قلنا إن التعزيز موجب Positive r.، والمعزِّز موجب أيضاً، وأما التعزيز السالب Negative r. فهو الذي من شأنه التنفير من إتيان الاستجابة غير المرغوبة بالعقاب عليها مثلاً. والانطفاء Extinction هو الصورة المقابلة للتعزيز (واختصاره الاصطلاحي EXT)، وهو أن لا يكون هناك تعزيز بالمرّة فتتوقف الاستجابة.

ومن النظم أو جداول التعزيز البسيطة نظام التعزيز الفارق Differential r. فتثاب استجابة لمثير معيّن ولا تثاب الاستجابة نفسها من مثيرات

أخرى، أو تثاب إستجابة بعينها ضمن استجابات عدّة لمثير معيّن. وفي التعزيز الشرطي الكلاسيكي Classic conditioned r. نجد أن الطعام والضوء عندما يقترنان تكون لهما الاستجابة نفسها إذا ظهر أيهما وحده كمثير، والتعزيز بهذه الطريقة يقال له التعزيز المتجانس Homogeneous r.، وأما التعزيز المتغاير Heterogeneous r. فكما في التعزيز الشرطي الإجرائي Operant conditioned r.، فالرافعة في صندوق سكينر مثير يستجيب لها الحيوان بالضغط عليها، فيظهر الطعام الذي هو مثير معزِّز يستجيب له الحيوان بأن يسيل لعابه، ونلاحظ أن المثير الأول ليس له استجابة المثير الثاني نفسها بل تغايرها. والتعزيز المشروط Contingent r. هو الذي يتوقف على صدور الاستجابة ويكون ممكناً فقط لو صدرت أو وقعت هذه الاستجابة، أما التعزيز الاتفاقي Noncontingent r. فهو الذي لا يستلزم استجابة بعينها ولكنها أي استجابة، ففي تجارب سكينر فإن نظام التعزيز قد يكون عشوائياً، فإذا صفقت الحمامة مثلاً بجناحيها وحدث أن حبّة قمح نزلت، فإنّ من المحتمل أن تأتي الحمامة هذا التصفيق مرّة ثانية لعلها تنال حبّة قمح أخرى، فلو حدث وتحقق ذلك فإن هذا السلوك يتعزّز وتقوى تلك الاستجابة في الحمامة، ويصفها سكينر بأنها استجابة خرافية، أي انها غير منطقية ولا صلة سببية حقيقيّة بينها وبين المثير، وذلك نفسه يحدث على الصعيد الإنساني، فالبدائي الذي يتصادف نزول المطر إذا رقص، قد يعقد ارتباطاً بين نزول المطر والرقص، ومن ثم فكلما أعوزه المطر قد يرقص ثانية وثالثة، وكلما تحقّق نزول المطر بالصدفة مع الرقص أو بعده، تعزّز فيه هذا السلوك الخرافي Superstitious behaviour، فكأن التعزيز الاتفاقي هذا هو أصل كل سلوك خرافي سواء عند الإنسان أو غير الإنسان، ويُسمَّى أيضاً التعزيز العارض Adventitious r.، لأنه يأتي عَرَضاً وليس قصداً.

والتعزيز المُنتج Reproductive r. هو الذي تزيد به احتمالات صدور استجابة معيّنة بحكم ارتباط هذه الاستجابة بمستدعيات كثيرة، فتكون النتيجة أياً من

هـذه الـمسـتـدعـيـات يـمـكـن أن يـثـيـر الاستجابة. والتعزيز المرجأ .Delayed r في التعلُّم الشرطي الإجرائي يكون بتأخير المكافأة على صدور الاستجابة لبعض الوقت. وقد يقال أيضاً للتعزيز بالفترة المتغيّرة إنه تعزيز لا دوري .Aperiodic r. والتعزيز غير المتناسب .Irrelevant r هو ألا تكون للمثير علاقة بالحالة الحافزة، كما لو قدمنا الماء لحيوان جائع كمكافأة. والتعزيز التسلسلي .Serial r هو المكافأة أو ردّ الفعل المدعِّم الذي يواجه به أداء فعل يتم على حلقات أو في تسلسل بحيث تكون المكافأة على كل جزئية من أجزاء الفعل. والتعزيز النهائي .Terminal r هو مكافأة الفعل عند تمام أدائه بعد القيام بكل جزئياته شريطة أن يكون الأداء بالتسلسل المفترض فيه.

(أنظر أيضاً سيكولوجية الثواب والعقاب).

مراجع:

- Hull, C.L.: Principles of Behaviour.
- Thorndike: Animal Intelligence.

❖ ❖ ❖

- ٦ -
سيكولوجية التنشئة الاجتماعية

التنشئة للأطفال والتطبيع للكبار. التنشئة الأولية. تكوين الضمير أو الأنا الأعلى. دور الثقافة والمؤسسات التربوية والإعلامية. الانضباط الداخلي وتعديل السلوك. دور الإثابة والقدوة...

❖ ❖ ❖

التنشئة الاجتماعية Social upbringing، أو التطبيع الاجتماعي Socialization، إكتساب الفرد للصفات التي يكون بها عضواً نافعاً في الهيئة الاجتماعية، فيكون له السلوك والمعايير والاتجاهات التي يساير بها مجتمعه ويتوافق من خلالها، فيندمج اجتماعياً فيه وينضج إجتماعياً Social maturity، ويشارك في العقل الاجتماعي s. mind وتكون له العقلية الاجتماعية s. mindedness. والتنشئة الاجتماعية تكون للأطفال عملية تشكيل لسلوكهم، وبها

يتحوّلون من كائنات بيولوجية إلى كائنات إجتماعية Social being، لها ذوات إجتماعية s. selves. والتنشئة الاجتماعية تكون أيضاً للراشدين وكبار السن، فهي عملية مستمرة مع دورة حياتنا، ونسميها بالنسبة للراشدين تطبيعاً اجتماعياً. وفي التطبيع الاجتماعي يكون تعلمنا للأدوار المهنية الاجتماعية، والأدوار التي تتوافق مع مراحل أعمارنا حيث نكون آباء ومواطنين وموظفين أو مهنيين. والتنشئة الاجتماعية سواء للأطفال أو للراشدين هي عملية تعلّم إجتماعي Social learning ، يتعلّم فيها الفرد - من خلال التفاعل الاجتماعي Social interaction - أدواره الاجتماعية Social roles وما يناسبها من معايير. وهي عملية نمو مطرد، ففي الطفولة يكون تعلمنا للغة، ومن خلالها يتنامى فينا فهمنا لذواتنا، ثم يبدأ استدخالنا للمعايير الاجتماعية s. norms وتعلمنا للأدوار من خلال الجماعة الأولية، وهي الأسرة، والصِّحاب Peer group، ثم في المراهقة تكون لنا جماعات مرجعية جديدة، وتتغير فينا باستمرار مفاهيم الذات، وننطبع بالطابع الاجتماعي s. Character من خلال مؤسسات إجتماعية s. institutions كالمدرسة والجامع، وعن طريق وسائل الإعلام كالتليفزيون والصحيفة. ويطلق البعض على التنشئة الاجتماعية في الطفولة إسم التنشئة الأولية Primary s.، في مقابل التطبيع الاجتماعي للراشدين Adult socialization. وفي الطفولة نتعلم المتطلبات الأساسية للسلوك والمهارات التي بها يمكن أن نتعامل بذكاء مع مختلف المواقف التي تتغير بتغير الأيام، ونتعلم من اللغة الكلمات التي نستطيع بها أن نؤثّر في سلوك الآخرين وأن نتأثر بها لنعدّل أو نغيّر من سلوكنا، ونفهم أن هذا النمط من السلوك موافق عليه بينما ذاك مستهجن، ونستدخل ذلك فتكون لنا القيم والمعايير الاجتماعية التي تشكّل فينا الأنا الأعلى The super-ego، وتكون لنا بمثابة الضمير Conscience والكابح للرغبات غير المشروعة أو غير المرغوب فيها. والهدف من عملية التنشئة الاجتماعية في الطفولة أن نستبدل السيطرة التي تُفرَض علينا من خارجنا بسيطرة داخلية تضبط سلوكنا وتوجهنا

من داخلنا. وهذا الاستدخال للقيم والمعايير الاجتماعية هو الذي يستحدث فينا التنظيم وتنطبع به الذات. ونحن نستدخل الاتجاهات الاجتماعية s. attitudes ونتصرف بناءً عليها، أو قد تغيّر من سلوكنا فتكون لنا اتجاهات تتوافق مع هذا التغيير. وتغيير السلوك أو استدخال الاتجاهات والتشكُّل الاجتماعي Sociomorphism يتم بناءً على نظرية التعلّم الاجتماعي، وهي التي تقضي بأن يكون الاستدخال بحسب ما نتوقع من ثواب أو مكافأة على أي سلوك متوقع في المستقبل وتدفع إليه تلك الاتجاهات المستدخلة، ومن ثم فإن الرغبة في تحصيل الثواب أو المكافأة وتجنّب العقاب تجعل من التصرف الممكن الذي زمانه المستقبل واقعاً حاضراً نحققه بما نستدخل. ولا ينضبط سلوكنا ذاتياً إلا عندما يكون تجاوبنا مع المواقف المختلفة تجاوباً ليس توقعاً لثواب أو تجنباً لعقاب خارجيين، ولكنه من داخلنا. ونحن نعيش بهذا الانضباط الداخلي في أزمات نفسية حقيقية إذا فعلنا عكس ما تعلمنا إجتماعياً. ولا تزول الأزمة النفسية إلا بتعديل السلوك بما يناسب المعايير الاجتماعية. وينضبط السلوك ذاتياً عندما تكون لنا الاتجاهات النفسية الاجتماعية التي تجعلنا نختار من الصحاب من يعزز فينا السلوك المثيب. والشخصية السوسيوباتية Sociopathic هي المعتلة إجتماعياً كما في أحوال السلوك المضاد للمجتمع، والتنشئة الاجتماعية ليست دائماً إنطباعاً إجتماعياً ولكنها أيضاً مشاركة إجتماعية s. participation، ومع أن السلوك ينضبط ذاتياً بتأثير المجتمع إلا أن من شأن هذا الانضباط أن يجعل المنضبط بجهاز طابع بعد أن كان بجهاز مطبوع، ومن ثم فانطباعه التأثري يتحول إلى طابع تأثيري ويتقلد من الأدوار الاجتماعية الفاعل النشيط الذي من دأبه التأثير في البيئة. ونحن في الطفولة خلال التنشئة الاجتماعية الأولية قد نتبادل مع الأبوين التأثر والتأثير، ونَعلَم جميعاً بالخبرة أن الأطفال يؤثّرون بشدّة في ذويهم ويغيّرون من الكثير من اتجاهاتهم وسلوكياتهم. وحبّ الاجتماع Sociophile هو سمة الشخصية التي لا تستغني عن الاجتماع

بالناس. ويطلق على الكائن المشارك في العلاقات الاجتماعية إسم «الاجتماعي socius». ورهبة الاجتماع Sociophobia هي المقابل لحب الاجتماع، وتفرض على صاحبها العزلة.

وتنتقل الثقافة والأنماط الثقافية في الطفولة بخاصة، وهي فترة تحصيل التعلم، إلا أن التعلّم عملية مستمرة طوال العمر كما قلنا، والثقافة التي ينشأ الفرد في إطارها تؤثر في شخصيته، وتطبعها بطابعها، وتحدّد سلوكياته ومعاييره، ويتعلم منها أدواره الجنسية وأدواره الأخرى المتمشية مع مراحل عمره. وهناك ثقافات مفتوحة Open cultures، وثقافات منغلقة Closed cultures جامدة، والأخيرة تؤثّر بالسلب على نمو الشخصية وينعكس تعقيدها عليها. وللثقافة أجهزة ومؤسسات تربوية واجتماعية وثانوية ودينية بالإضافة إلى وسائل الإعلام، وتشارك جميعها في عملية تعليم الفرد ثقافياً بدرجات متفاوتة، إلا أن من الممكن أن تتعارض تأثيراتها فيه فتجعل له اتجاهات متصارعة.

وهناك من البحوث الكثيرة ما يثبت أن السلوك غالباً ما نحكم عليه بنتائجه، وأن النتائج الطيبة تجعلنا نكرّر السلوك المثيب الذي يستحسنه الناس وله مردوده الحسن على صاحبه، بينما ما نُعاقَب على فعله، أو ما يكون منه الوبال على صاحبه، فإن الأعم أن لا نأتيه مرة أخرى، ولذلك تلجأ المؤسسات التربوية والمعنية بأمور التنشئة الاجتماعية، كالأسرة والمدرسة وغيرهما، إلى هذه القاعدة فتتخذها أسلوباً لتعزيز ما تراه من أنماط سلوكية سوية فتثيب عليها، بينما تعاقب مادياً أو معنوياً على السلوك غير السوي لتطفئه. ويتعلم الناس وخصوصاً النشء من ملاحظة تطبيق هذا الأسلوب على الآخرين، فينضبط سلوكهم بالعدوى. ولو تُرِك الأمر في التنشئة إلى ملاحظة نتائج السلوك والتعلّم من المحاولة والخطأ وحدهما لكانت عملية شاقة بالنسبة للأفراد، ولكن المؤسسات الاجتماعية المختلفة تأخذ على عاتقها التوعية والتوجيه والوعظ والإرشاد. ولو أن ذلك ارتبط مع الإثابة على السلوك السوي وعقاب السلوك غير السوي، لكانت الفائدة أكبر ومردود التنشئة الاجتماعية

أعظم. وللقدوة دور في تعزيز الأنماط السلوكية والاتجاهات والمعايير المطلوب تعزيزها، وذلك لأن مشاهدة آثار ذلك على القدوة، بما ينال سلوكه من ثواب أو عقاب، يسرع بعملية التعلم الاجتماعي، ونقل ما تهدف المؤسسات الاجتماعية إلى نقله، أو تعديل ما تتوخّى تعديله، من خلال التأثير المشترك للقدرة والإرشاد والتعزيز المتمايز.

مراجع:

- Bandura, A.: Principles of Behaviour Modification.
- Goslin, A.: Handbook of Socialization, Theory and Research.

❖ ❖ ❖

– ٧ –
سيكولوجية حلّ المشاكل

السلوك المُشْكل. للحيوان أفكاره العملية. سلوك إتخاذ القرار. التفكير الابتكاري. خطوات حلّ المشكلة. الأسلوب المعرفي وأثره في حلّ المشاكل. أساليب الحل المختلفة...

❖ ❖ ❖

قد يبدو أننا نعايش التحديات باستمرار، وأن الوجود نفسه سلسلة متّصلة من المُشْكلة التي نواجهها ولا بد من أن نعثر على الحلول المناسبة لها، وقد يوفق بعضنا، وكثيراً ما نفشل ونحاول من جديد، وقد يترتب على ما نصادفه من إحباط أو فشل أننا نصاب بمختلف الأعراض العُصابية التي نحاول بها أن نتوافق مع عجزنا عن حلّ ما نتعثّر به من مشاكل وصعوبات. والسلوك المُشكل Problem behaviour هو السلوك المضطرب الذي يصدر عن اعتلال نفسي Psychopathy، والذي ينبئ عن سوء توافق Maladjustment، وقد يوصف لذلك بأنه سلوك غير متوافق Maladjusted، أو سلوك لاإجتماعي Non-social، أو مضاد للمجتمع Antisocial. والطفل المشكل Problem child هو الذي له مثل هذا السلوك المشكو منه مِن قِبَل

أبويه ومعلميه وزملائه. وسلوك حَلّ المشكلة Problem-solving behaviour يبدو لذلك من المجالات التي يتعرض لها علم النفس بالبحث، وقد بدأ الاهتمام به في نهاية القرن الماضي، ويذكر أنه كانت للويد مورجان Morgan (١٨٥٢ - ١٩٣٦) تجارب على الكلاب، خلص منها إلى أن الحيوانات تتبع في سلوك حلّ المشكلة طريقة «التعلّم بالمحاولة والخطأ trial-and-error learning» (١٨٩٤)، ثم أكّد ثورندايك Thorndike (١٨٧٤ - ١٩٤٩) هذه النتيجة (١٨٩٨). وذهب آخرون وجهة أبعد من ذلك باعتبار أن الحيوان له «أفكاره العملية»، كما أسماها هوبهاوس Hobhouse (١٩٠١)، ويعرّفها بأنها مجموعة من المجاهدات التي يحاولها الحيوان ليغيّر من مكونات الموقف لصالحه. ويبدو أنه بعد ثورندايك لم يلتفت أحد لدراسة عمليات حل المشكلة مثلما كان الاهتمام بالإدراك والتعلم والدافعية والشخصية، وبدأ مؤخراً في الخمسينات فقط التفكير في سلوك حلّ المشكلة والاهتمام به، وبما يمكن أن يتعلق به من مقولات مشابهة مثل عملية إتخاذ القرار Decision making process، وكذلك العمليات التي يتضمنها التفكير الابتكاري Creative thinking. وقد تبدو هذه المجالات الثلاثة ملتبسة باعتبار أن اتخاذ القرار هو نفسه التوصل إلى حلّ لمشكلة قائمة، وأنه في عملية الابتكار يستهدي المبتكر إلى ما يتوصل إليه كحلّ يتسم بالجِدّة لمشكلة ربما كان إحساسه بها أكثر من غيره. وكذلك قد ننبّه إلى أنه في المجالات الثالثة لا بدّ أن يتواجد الدافع، وأن يكون هناك تحديد للمشكلة، وأن نفترض الحلول لها، وأن نجرّب هذه الحلول. والوعي بالمشكلة وتحديدها ييسِّر التفكير في الحلول المختلفة. وما لم يوجد الوعي بالمشكلة فليس ثمة مشكلة أصلاً. ومن رأي الجشطلتيين Gestalt psychologists أنه ما من سبيل لحل المشكلة إلا إذا كان هناك استبصار Insight بأبعادها، وتنظيم جديد لمكوناتها، وأن النظر إلى المشكلة كما هي بعد تنظيمها تنظيماً ييسر فهمها أهم من أن تكون لنا بها خبرة سابقة. والقرود في تجارب الجشطلتيين بإدراكها للمواقف والعلاقات بين أجزائها، تعيد

بهذا الإدراك صياغتها فيكون استبصارها للحل. وتختلف الطريقة الجشطلتية عن طريقة الترابطيين Associationists في التعامل مع المشاكل. وعند الترابطيين فإن حلّ المشكلة يستلزم الاستعانة بالخبرات السابقة وما تعلمناه من مفاهيم ومبادئ، ومخزون الاستجابات السابقة التي قد نختار منها ما نظن أنه يناسب الموقف أو المشكلة، ويحكمنا في ذلك ما يسمونه انتقال أثر التعلم، ويُقصَد به استخدام ما قد تعلّمناه، ربما في حجرات الدراسة أو في غيرها بحيث نفيد منه في الحياة بعامة. وربما استلزم لحلّ شكله أن يكون الشخص نفسه على مستواها، ذكاءً ومعرفةً. ولمكونات شخصيته كذلك تأثيرها على سلوك حلّها. ولكل منا أسلوبه المعرفي Cognitive way في التعامل مع المشاكل، فالبعض قد يكون جامداً، والبعض قد يكون مرناً، وقد تكون لنا العقلية المتفتحة أو المنغلقة، وقد نميل في تعاملنا مع المشاكل إلى استخدام الأسلوب التحليلي، وقد يستهوينا أكثر الأسلوب الشمولي، وقد نلجأ إلى ستراتيجية المسح Scanning، بينما قد يفضل آخرون ستراتيجية الجزئية. وبعضنا قد يكون تأملياً، أو مندفعاً، وقد نميل إلى المبالغة وتهويل الأمور، وأن نصنع من الحَبّة قُبَّة كما يقول المثل الجاري، أو قد نميل إلى تصغير المسائل والتخفيف من وقعها والتسامح مع مقتضياتها. وربما يمتدّ تقبّلنا للأمور حتى لنتغاضى عمّا يكون غامضاً، وبعضنا لا يتسامح مع الغموض ويسعى إلى الوضوح ويستجلي كل شيء، وقد نسمع أو نرى ما لا نوافق عليه أو ما يتعارض مع مبادئنا أو معارفنا فنسكت عنه، أو نرفضه ولا نوافق عليه. وافتراض الحلول Hypothesizing solution خطوة تالية وتترتب على استبصار المشكلة وتنظيمها بالشكل الذي ييسِّر التعامل معها. ويبدو أن عملية إفتراض الحلول لا تتهيأ إلا للأشخاص الذين يتدربون عليها ويأخذون بها أنفسهم منذ الصغر. ويقول علماء النفس بطرق كثيرة لافتراض الحلول، ومن ذلك الطريقة اللوغاريتمية Algorithmic method، وهي أن يأخذ صاحب المشكلة نفسه بحل وحيد لها

يتابعه على خطوات، والطريقة الكشفية أو التنقيبية Heuristic method فيما يسمى تحليل الوسيلة الغاية Means-end analysis، بأن نقارن بين ملابسات الموقف أو عناصر المشكلة بوضعها الحالي، وبين ما ينبغي أن يكون عليه الموقف أو أن تنتهي إليه المشكلة من حلول، وأن نحدّد الفروق والنواقص، ونجرّب إزالتها، ونسدّها الواحد تلو الآخر إلى أن نبلغ تمام حلّ المشكلة أو ما يقاربه. وهناك طريقة كشفية أو تنقيبية أخرى هي طريقة إيجاد خطة Make-a-plan، بأن نتخيّل مشكلة أخرى على منوال المشكلة الأولى، غير أنها أقل حجماً وأبسط، فنفكر في الحلّ لها، ثم نتابع الطريقة نفسها التي استخدمناها في حلّ المشكلة الأبسط لحلّ المشكلة الأعقد. وبديهي أن يأتي الحل للمشكلة نتيجة إدراك لأبعادها ومكوناتها، وتفيد في ذلك أية معلومات تضاف إلى معلوماتنا عنها وخبراتنا السابقة، غير أنه قد تعوق الخبرة السابقة حلّ المشكلة بالتزامنا لأفكار قد نرى أن لها علاقة بالمشكلة وهي ليست كذلك، والكثير من المشاكل لا نستطيع مواجهته بإيجابية نتيجة أخطاء في التقدير أو التزام أفكار نجمد عليها، أو نتيجة لعادات واتجاهات جامدة. وربما نعجز عن إيجاد الحلول للمشاكل نتيجة أن العناصر الداخلة في المشكلة قد اعتدنا على التعامل معها بطريقة معيّنة، أو فهمها على وضع معيّن، أو كما يقولون نتيجة تثبيتنا لها وظيفياً Functional fixation. وينبغي أن يأتي الافتراض للحل محدّداً بحيث يمكن تجربته بنجاح أو يثبت فشله، وأن تتوفر الحلول البديلة. والتفكير في الحل مرحلة من عملية إيجاد الحل للمشكلة، وربما تكون بمثابة مرحلة يكون فيها تجميع الانتباه والأفكار، «والتفكير بصوت عال Think aloud»، وتسبق لحظة التنوير أو استبصار الحل. وما من سبيل للجزم بجدوى أحد الحلول إلا بتجربته. وتتحصل مصداقية الحلّ من خلال التجربة وبما يكون لها من نتائج. واختبار فروض الحل عملية قد يطول أمرها، واستلزمت مثلاً من إديسون السنوات ليجد الحلّ لمشكلة احتراق المواد التي كان يستخدمها في الإضاءة بالكهرباء، وقد جرّب العشرات من

المواد، ومن ذلك الكربون، والبلاتين، والسليلوز، والفلين، والقش، والورق إلى أن اهتدى أخيراً إلى التنجستن.

مراجع:

- J. Dewey: How We Think.
- Van de Greer: A Psychological Study of Problem Solving.

❖ ❖ ❖

- ٨ -
سيكولوجية الدوافع

لكل سلوك دافع، والدوافع تتنوع. مبحث دوافع السلوك والنظريات فيه عند فرويد ومكدوجال ويونج. نظرية الحوافز. الحافز والباعث والمكافأة والعقاب. مبدأ اللذّة والألم. الإرادة والحالات الانفعالية والدافعية...

❖ ❖ ❖

لكل سلوك غرضي دافع Motive يحضّ عليه ويعمل على استمرار نشاطه، ودوافع السلوك قد تكون شعورية Conscious ms. يعيها صاحب السلوك، وقد يصدر سلوكه عن غير وعي Unconscious ms. ببواعثه ودوافعه. وهناك دوافع شخصية Personal ms.، ودوافع إجتماعية Spcial ms.، ودوافع من الثقافة والبيئة Environmental or cultural ms.، ودوافع فسيولوجية Physiological ms. ومن الدوافع للسلوك ما قد يكون نوايا، أو مصالح، أو غايات، أو آمالاً وطموحات، أو إتجاهات نفسية، أو رغبات، أو معتقدات وأفكاراً، أو قيماً، أو عادات، أو إنفعالات، ويستثني البعض الحركات العشوائية، والسلوكيات المرضية، والأفعال غير الهادفة التي لا تخدم غرضاً وليست لها غاية، ومن رأيهم أن السلوك لا يكون كذلك إلا إذا كان له دافع Motivated.

ومبحث دوافع السلوك Motivation research: هو العلم الذي يبحث في الدوافع كمبحث من مجالات البحوث النفسية، مثل البحث في الإدراك أو الإحساس أو التفكير. وتهم الباحث فيه الناحية العلمية، فالمدرس يحتاج أن

يعرف دوافع إقبال تلاميذه أو عزوفهم عن دروسه، ومن التلاميذ من يكون دافعه للتحصيل التفوق، ومنهم من يكون مدفوعاً بأسباب مادية، كأن يكون طامعاً في مكافأة أو تكريم علمي. ويحتاج القاضي في أحكامه أن يتعرف إلى دوافع المجرم الذي ينظر قضيته، وشتّان بين متّهم يقتل عن عمد وسبق إصرار وترصُّد، ومتّهم قد صدر منه الجُرم بالصدفة أو في لحظة ضعف، وربما بعد أن استثير بشدّة، وقد يكون ارتكابه للجُرم دفاعاً عن النفس أو المال أو العرض. ومبحث الدافعية من المجالات التي يرتادها المتخصّصون في الإعلانات التجارية، والدعاية للمنتجات التجارية والصناعية، ويحتاجون بشأنها أن يتعرّفوا إلى دوافع الجمهور عند الشراء فيعملون على تلبية متطلباته في الذوق والتكلفة وأغراض إنتاج السلعة.

ويبحث المهتمون بالدافعية فيما يكون عليه النشاط وقت الاستثارة، والشكل المنتظم الذي يكون عليه هذا النشاط وقت صدوره وفي توجهه نحو هدفه. وقد يكون هذا الشكل المنتظم سلوكاً «بالسلب» أي ليس فيه إقدام، ويتسم بالإحجام Avoidance motive. وربما يكون سلوكاً «بالإيجاب»، أي فيه الإقدام Approach motive وليس الإحجام. والدافعية عملية نشيطة ومستمرة طوال الحياة Conjunctive motivation. ونحن دائماً وأبداً لنا دوافعنا التي تحدّد وتوجّه سلوكنا. وتتغير الدوافع أو تتبدل، ويحلّ بعضها محل بعض، ويريح بعضها البعض Affiliative motives، ولكنها موجودة دائماً وأبداً عبر مراحل العمر. وقد تتآلف الدوافع وتتآزر، أو تختلف وتتعارض وتتصارع، وتصنع معاً مدرجاً هرمياً Motivational hierarchy، في قاعدته توجد الدوافع الأولية ثم الدوافع الثانوية.

ودراسة الدوافع من الدراسات النفسية الحديثة نسبياً، ويُذكر أن أول دراسة علمية فيها كانت دراسة عالم النفس الأمريكي روبرت وودورث Woodworth سنة ١٩١٨ في كتابه «علم النفس الديناميكي Dynamic Psychology»، وهو يجعل الدافعية علماً يطلق عليه إسم علم الدافعية

Motivology. ومن الكتب الأولى التي تخصّصت في الدافعية كتاب يونج Jung «دافعية السلوك Motivation of Behaviour» (١٩٣٦).

وهناك نظريات كثيرة في الدافعية، فطبقاً لاسمها فإن الدافعية هي الحركة Motion باعتبارها سلوكاً، ومن وجهة النظر الفيزيقية هي عملية إستحداث الحركة وتنظيمها من خلال إطلاق الطاقة في الأنسجة، واستثارة السلوك نتيجة تنبيه معيّن هو عملية معقّدة من التحويل للطاقة، تتضمن سلسلة من العمليات الجسمية المتفاوتة في البساطة والتعقيد بحسب موضع الكائن الحي في سلسلة الترقّي. والدافعية من وجهة النظر الفسيولوجية هي عملية استثارة من المنبهات الخارجية والداخلية للأعصاب الحسّية، وصدور للسلوك كنتيجة لذلك. والدافعية من وجهة النظر الاجتماعية هي عملية تأثّر الفرد ببيئته الحضارية، فهي التي تقرّر طبيعة نشاطاته وصراعاته وتصنع سمات شخصيته. ولمحددات السلوك الحضارية والاجتماعية وجودها الموضوعي مثلما لها وجودها المادي.

وتشير مفاهيم مثل الاتجاهات Attitudes، والميول Tendencies، والعادات Habits، والعواطف Emotions، والرغبات Desires، والحوافز Incentives، والبواعث Drives، والاهتمامات Interests، والحاجات Needs، إلخ، وهي من المحددات البيئية، إلى نواحٍ مختلفة من الدافعية. والدافعية من وجهة النظر الدينامية عملية يتكون بها السلوك باعتباره محصلة تدافع قوى متعارضة تريد لنفسها الإشباع دون بعضها البعض، ويتوقف نمط السلوك على قدرة الكائن على التوفيق بين القوى المتدافعة التي تحفز إلى السلوك. والكثير من سيكولوجية الدوافع يقوم على مفاهيم علم النفس الدينامي Dynamic psychology، وعلى نتائج التحليل النفسي Psychanalysis التي قدّمها فرويد وأتباعه. وكان فرويد من القائلين بالغريزة Instinct، ويذهب الاتجاه الغريزي Instinctual attitude في الدافعية Motivation إلى تفسير السلوك باعتباره نتاجاً لعمليات من توليد الطاقة وتوجيهها وجهة معيّنة. وكان مكدوجال McDougall

(١٨٧١ - ١٩٣٨) يجعل الغرائز غرضية لها غاية وهدف، ومن ذلك غريزة الأبوة مثلاً، أو غريزة التناسل. والغريزة عند فرويد لها مصدر كما أن لها هدفاً وموضوعاً، ومصدر الغريزة هو حالة الاستثارة أو التوتر داخل الجسم، والهدف هو إزالة التوتر، والموضوع هو ما يكون به تحقيق الغريزة وإشباعها. ومعنى أن الغريزة تستهدف إزالة التوتر أنها تتوخى الإشباع الذي به يصل الجسم لحالة التوازن. ولو كانت الدافعية قد اقتصرت على الاتجاه الغريزي لتجمد البحث فيها، إلا أن السلوكيين Behaviourists إنتقدوا الاتجاه الغريزي، وذهبوا إلى تفسير السلوك مذاهب شتى. ومن ذلك أنهم قالوا بالأفعال المنعكسة Reflexes كأصل لكل سلوك، وبالحاجات والحوافز والبواعث، وذكروا في معرض هذه الدوافع مبادئ مثل مبدأ اللذة والألم Pleasure-pain principle باعتبار أن كل الكائنات الحيّة ينحو سلوكها إلى خفض توتراتها بتجنّب الألم وطلب اللذة. وغير ذلك ذهب إليه السلوكيون، ونلاحظ أن ما قالوا به جميعاً يستقي تقريباً من مصدر واحد، وهو وجود استعدادات فطرية موروثة تدفع إلى السلوك وتوجهه وتحدّده. ويتميّز في الجدل القائم حول الدافعية الاتجاه الإيتيولوجي Etiologic الذي يقوم على إرجاع السلوك الغريزي لآليات فسيولوجية تدفع إليه، وحتى إذا لم توجد الأهداف العادية أو المواقف التي تستثير هذا السلوك، فإن الكائنات الحيّة سوف تستمر في تفريغ سلسلة نشاطاتها وكأنها توجهها نحو موضوعات حقيقية أو مواقف بديلة غير مناسبة، بمعنى أن النشاط الذي لا يتم تفريغه يستحيل إلى نوع من الدوافع. وتقوم نظرية الحوافز Incentives في الدافعية على فكرة أن الحافز مصدر للطاقة، فالإفراز الهرموني الجنسي مثلاً عندما يزيد هو حافز جنسي يحفز الكائن الحيّ أن يحقّق لنفسه الإشباع الجنسي عن طريق شريك فيعود التوازن للجسم. ويفترض البعض أن كل صور الإثابة تقوم في النهاية على خفض حافز عدم التوازن، فمثلاً تعمل إثابة الطعام على خفض عدم التوازن الذي يسبّبه الجوع. ويتعلم الكائن الحيّ أن يأتي باستجابات

معيّنة كي يحصل على الإثابة. وقام حديثاً إتجاه يهتم بالمصادر الخارجية Extrinsic للدافعية اهتمامه بالمصادر الداخلية Intrinsic التي أهمها التوازن Equilibrium، فمثلاً الطعام وظيفته أنه إثابة، وهو في الوقت نفسه باعث Incentive، أي أنه يخدم أيضاً في إثارة الدافعية. والفرق بين الحافز والباعث أن الحافز طاقة فسيولوجية تحفز على الحركة، والباعث منبّه خارجي. والدوافع تصدر عن حاجات، والحاجة Need على ذلك لها دافعية، والحاجات منها الأولى أو الفسيولوجي، كالحاجة للطعام، ومنها حاجات اجتماعية أو نفسية يكون بها الانسان إجتماعياً أو يكون بها نفسه. وإشباع الحاجة باعث، فإذا كان الجوع دافعاً نفسياً فإن حركة البطن وتقلصاتها المترتبة على الجوع هي حافز، والشخص الجائع تكون به حاجة إلى الطعام، وأما الطعام نفسه فهو باعث للشخص على أن يسعى للطعام فيتناوله. وللطعام مثلاً شهوة Appetite، ويعني اشتهاء الطعام أن بالفرد رغبة Desire فيه، وللشهوات Appetites أو الاشتهاءات، وكذلك للرغبات، دافعية. ونقيض الشهوة النفور Aversion. والشهوة أو الاشتهاء يتطلبان سلوكاً إقبالياً Adient Behaviour، بينما النفور يوجب سلوكاً إحجامياً .Abient b. وللبحوث في دافعية البواعث نتائج مؤثّرة في توجيه التعليم. والبواعث قد تكون سلبية وقد تكون إيجابية، فوجود أسد في موقف قد يبعث على الهرب (سلب)، بينما كلمة تشجيع من مدرس قد تبعث على المذاكرة (إيجاب). ومن نتائج بحوث البواعث أن الهدف المحدّد يبعث أكثر على العمل، وكذلك الوعي بالنتائج المرجوة للعمل، فالذي له هدف يعمل بهمة أكثر ممن يعمل ولا يعرف لنفسه هدفاً، والذي يدرك نتائج عمله، ويستمع للمحاضرات فيه، ويشارك في المناقشات حوله، خير ممن يجهل مترتبات مما يعمل ولا يشارك في المناقشات. وكذلك فإن امتداح العمل والتشجيع عليه والنجاح فيه يؤكّد الثقة في النفس، فتسهُل الأمور على العامل، ويتيسر له التعلّم والأداء معاً، على عكس تثبيط الهمة وتوجيه اللوم والنقد والفشل.

والمكافأة والعقاب Reward and punishment دافعان للسلوك. وتعزّز المكافأة نمط السلوك الذي كانت به المكافأة، أما العقاب فله نتائج وخيمة، ومنه العقاب الخفيف الذي ينبّه إلى الخطأ، والعقاب المعتدل الذي يبعث على أن نتنكبه، والعقاب الشديد الذي يتسبّب في اضطراب نفسي وحالة من الهياج يطيش فيها التعلم ويضل الأداء، إلا أن شدّته تجعل من يقع عليه لا يكرر الخطأ الذي تسبب فيه. وكان فرويد يقول بمبدأ اللذّة الذي سبق التنويه عنه باعتباره موجهاً للسلوك، وعنده أن الإنسان يميل إلى تكرار وتأكيد السلوك الذي تتحصّل له به اللذّة، ويتجنّب كل ما من شأنه أن يعود عليه بالألم. وقديماً كان مذهب اللذّة Hedonism من المذاهب الكبرى في الفلسفة، بمعنى أن كل إنسان يميل إلى أن يأتي من السلوك ما يعطيه اللذّة ويكون به شعوره بالمتعة، وهو المذهب الذي حدا بفيلسوف مثل هيربرت سبنسر Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣) إلى أن يقول بمبدأ اللذّة والألم Pleasure-pain principle، باعتبار أن اللذّة والألم يصدر عنهما كل سلوك.

ولعل ذلك أيضاً هو ما دعا ثورانديك Thorndike (١٨٧٤ - ١٩٤٩) إلى أن يقول بقانونه المسمّى قانون الأثر Law of effect، فأنماط السلوك التي تتعزّز بمقتضاه هي التي لها آثار مشبعة. ولو طبقنا وجهة نظر المجال عند ليفين Lewin (١٨٩٠ - ١٩٤٧) على قانون الأثر أو مبدأ اللذّة لقلنا إن كل سلوك مشبع له جاذبية Valence، وجاذبيته هي دافع لتكرار السلوك. وليفين عندما يؤكّد على الحاجة كدافع للسلوك يؤكّد على قيمتها النفسية، فالحاجة إلى الطعام مثلاً ليست حاجة أولية بل نفسية، لأن للطعام عند الجائع قيمة نفسية وليست مادية، ولذلك يرى ليفين أنه حتى الميول والرغبات هي شبه حاجات Quasineeds، ولها قيم نفسية كالحاجات، ومن ثم دوافعها السلوكية هي دوافع نفسية.

وقد تكون العادات Habits دوافعاً للسلوك، إلا أن العادة تختلف عن الدافع، فالعادة نمط من السلوك المكتسب والمختزن الذي يُستدعَى عند الحاجة، ورغم أن العادة موجودة دائماً وكامنة فإن استدعاءها يكون على فترات، وكمون

العادة واستثارتها ليس فيه توتر، بعكس الدافع فهو وإن كان كامناً أحياناً، فالكائن يظل متوتراً به إلى أن يتحقّق له الإشباع، فإذا أُشبع زال أثره وتوقّف عن التأثير، وأما العادة فممارستها لا تعني أنها قد زالت وانتهت.

وأما علاقة الإرادة Will بالدوافع، فالإرادة تعني التصميم والاتجاه نحو فعل، وبمقدار التصميم تكون قوّة الإرادة أو ضعفها. والإرادة هي أن يقرّ قرارك على شيء وتختاره دون أمور أخرى، ومعنى ذلك أنه في الإرادة تتراوح المريد دوافع كثيرة، وربما يقوم الصراع بينها، وعلى المريد أن يختار بينها، وأن يفاضل بين كل الدوافع. والاختيار والمفاضلة يعنيان التفكير، والتدبّر، والتعلم من المحاولة والخطأ، ومقارنة التوقعات لبلوغ قرار ما. غير أنه في القرارات الإنسانية لا تكون كل الدوافع ظاهرة، فهناك الدوافع الدفينة .Internal ms التي تعمل عملها في الإرادة والاختيار واتخاذ القرار، فإذا اخترنا وقرّ قرارنا فإننا نمهر في تبرير اختياراتنا. والتبرير Rationalization، والإسقاط Projection، والتعيّن Identification، والكبت Repression، والتسامي Sublimation والترميز Symbolization، إلخ، من الدوافع اللاشعورية التي يرجع فضل الكشف عنها لفرويد، وإن كانت لا ترجع لفرويد تماماً وإنما كان التوسع في استخدامها وتأكيد دورها من أهم إسهاماته في مجال الدافعية. وفرويد من القائلين بأن: كل سلوك لا بد له من دافع وإن خفي علينا، وحتى زلّات اللسان، ونسيان الأشياء والمواعيد، والغفلة عن أشياء، والغفلة التي تتسبب في الحوادث، والحركات العفوية، والأحلام، وأحلام اليقظة، وشطحات الخيال؛ تصدر جميعها عن دوافع لاشعورية، ونحقق من خلالها ما لم نستطع تحقيقه بالوعي، وفي اليقظة والانتباه، فإذا كانت تأتينا أحياناً رغبات لا نرضى عنها، أو نخاف أن نعلنها، ومن ثم نكبتها، فإنّ كبتَنا لها لا يعني انتهاءها، بل تظل في اللاشعور وتؤثّر في السلوك، وقد تظهر كأعراض سلوكية مرضية، فيكون الخوف المرضي أحياناً من أشياء لا داعي للخوف منها إطلاقاً، أو قد تتملكنا بسببها أفكار تستحوذ على عقولنا

وتعوق تفكيرنا وتكيّفنا مع الواقع، وقد نعي الأعراض أو ينبهنا إليها آخرون، ولكننا لا نعي الدوافع التي خلفها والتي استثارتها وكانت السبب فيها. وليس التبرير إلا محاولة لإضفاء المعقولية على السلوك وإظهاره بمظهر التوافق. ويهدف التحليل النفسي إلى تبصير المريض بدوافعه المكبوتة وصراعاته، بأن يعايش من جديد خبراته الصادمة التي أظهرها التحليل، وبذلك ينفّس عن توتراته ويستعيد توافقه.

ويمكن أن تكون الحالات الانفعالية دوافع في بعض الأحيان، وقد تصاحب الدوافع، فالجوع مثلاً دافع، ومن الجوع يكون الضيق والعصبية. والجائع في سعيه إلى الطعام وفي توقعه له قد يستشعر إنفعالات معيّنة، وإذا اعترضته عوائق ربما ثار واحتدم غضبه، وإذا ما تجاوز العوائق فقد يسعد لذلك ويبتهج. والخوف إنفعال ودافع، وهو انفعال لأن الخائف يتوتر وقد يندفع إلى الهرب، وقد يكون خوفه من النوع الحاد المرضي كالخوف من الخلاء، أو من الأماكن العالية، أو الأماكن الضيقة. وتؤثّر المخاوف المرضية على السلوك وتكون دوافعاً قوية تطبع حياة الخائف بطابعها المرضي. والقلق كذلك دافع وإن اختلف عن الخوف، لأن الخوف يكون من موضوع بعينه، وأما القلق المرضي فهو من كل شيء ومن لا شيء، والقلق المرضي هو هذا القلق الهائم أو القلق النفسي، ويُرجعه أصحاب التحليل النفسي إلى خبرات الولادة والانفصال في الطفولة عن الأم، وحالة الإهمال والحرمان العاطفي للطفل. والغضب إنفعال مصاحب للدافع يستثير العدوان. ويتسبّب الفشل والإحباط في الغضب. وقد يتوجّه الغاضب بعدوانيته إلى نفسه. والانفعالات الحادة عموماً تقلل من كفاءة الفرد وقدرته على التعامل مع المواقف المختلفة وتعطّل التفكير وتفسد الأداء. ويتميز بعض الأفراد بانخفاض تحمُّلهم للإحباط، فإذا استثيروا فقد يلجأون إلى الانتحار على أن يستمروا في حياة فاشلة، وقد يصيبهم الاكتئاب الشديد. ويفسّر العلماء السلوك السيكوباتي بتأثير خبرات الطفولة الانفعالية الصادمة. ومن الواجب

إستشارة الأخصائيين النفسيين في أمثال هذه الحالات.

ومن الممكن تغيير الدوافع والاتجاهات، ونحن نغيرها فعلاً باستمرار خلال مراحل الحياة كما ذكرنا، إلا أن بعض الدوافع والاتجاهات المريضة لا يسهل تغييرها إلا بالعلاج النفسي. والدوافع التي يمكن تعديلها هي الدوافع الاجتماعية، لأن الدوافع الأخرى والمسماة بالفسيولوجية دوافع أساسية يكون بها بقاء الإنسان واستمراره في الحياة، وأما الدوافع الاجتماعية فهي دوافع مكتسبة وليست فطرية. والدافع الاجتماعي دافع يثيره ويشبعه أن يكون الشخص مع آخرين وأن يتفاعل معهم، ولذلك فالدوافع الاجتماعية معقّدة لأنها تنشأ وتنمو في ظل الظروف النفسية للشخص، مثل الحاجة إلى الانتماء إلى جماعة، والمشاركة الاجتماعية، والتقدير، بينما الحاجة إلى النجاح، أو إلى الاستقلال، أو التملك، دوافع ثانوية، في مقابل الدوافع الأولية، إلا أن الدوافع الذاتية هي أعلى الدوافع في ترتيب الدوافع Motivational hierarchy. وتأتي «تأكيدات الذات» كحاجة تُشتَق منها الحاجات وتصدر عنها كل أنواع الدوافع، والشخص لكي يؤكّد ذاته لا بد أن يعدّل باستمرار في سلوكه ليتوافق مع الظروف ويتكيّف معها، منفعلاً بها وفاعلاً فيها، وهو مضطر لإجراء هذا التعديل أو التغيير، وقد يطلب مساعدة العلاج النفسي أحياناً، والتغيير المطلوب في الذات بتعديل الدوافع ومساراتها يكون بالتدريج، أو بالتحوّل الحاد الذي قد تتزعزع به الذات ويصاب الشخص من جرّائه بالانهيار النفسي.

وقياس الدوافع يكون بقياس الظروف التي تؤدّي إليها وتستثيرها، وبقياس المظاهر التي تصاحب الدافع وتكون علامة عليه، فالجوع مثلاً كدافع يمكن قياسه بعدد الساعات التي لم يتناول فيها الشخص الطعام، وما يمكن أن يكون فقده من وزن بسببه، والسعرات الحرارية التي يمكن أن يكون قد استنفدها في فترة الجوع. وقد يقاس الدافع بقوّة السعي لتحصيل الطعام مثلاً، وسرعة الاستجابة له، وبترديد الشخص لكلمات نستشف منها تملك

الدافع لنشاطاته النفسية، كأن يلاحقه في منامه ويقظته على شكل الأحلام أو أحلام اليقظة.

مراجع:

- Lindzey: Assessment of Human Motives.
- Maslow: Motivation and Personality.
- Eysenck: Experiment in Motivation.
- Bolles: Theory of Motivation.
- Allport, G.W.: Function Autonomy of Motives.
- Atkinson, J.W.: An Introduction to Motivation.

❖ ❖ ❖

- ٩ -
سيكولوجية العادات

العادة سلوك له قوَة دفع. العادات سمات للأفراد يُعرفون بها. العادات الخاصة والفكرية والانفعالية والحركية، والموجبة والسالبة. تكوين العادات وقوَة تأثيرها وتداخلها. تقادم العادات وتدهورها.

❖ ❖ ❖

العادات أنماط معيّنة من السلوك المكتسب الذي نتعلمه أثناء الممارسة ووفقاً للتكوين النفسي والعضوي والحركي والذهني الذي لكل فرد، وبحسب المستوى الثقافي والأنماط السلوكية والمعرفية والوجدانية التي تنتقل إليه من مجتمعه. والعادة Habit سلوك يتكرر معنا فيثبت وتصبح له قوّة دفع توجّه الفرد وجهات معيّنة، وتطبع تصرفاته، ويُعرف بها، وتكون بمثابة السمة أو الدليل عليه. والعادات جزء من الشخصية، وكل فرد لا بد أن تكون له عاداته الخاصة في المأكل والملبس والمشي والنوم والقراءة والكتابة وقيادة السيارة، إلخ، كما لا بد أن تكون له عاداته الفكرية Intellectual hs.، وهي طرقه في التفكير وتناول الأمور ومواجهة المشاكل، وهو إذ يتحدث فهناك ألفاظ معيّنة تتكرر منه، وأساليب لغوية تكثر معه، وله أيضاً عاداته الانفعالية Emotional hs. وهي طرقه التي يُظهر بها انفعالاته في الغضب والسرور وغير ذلك، وعواطفه التي يعبّر بها عمّا يحب ويكره.

والعادات تتكون نتيجة وجود الفرد في عدد من المواقف المتشابهة ذات

الخبرات الواحدة التي تؤثر فيه، ويكون تكرارها معه بالطريقة نفسها أو بطرق مشابهة - طُرز العادة h. patterns، فينظمها بطريقة غير شعورية حول هذه الخبرة أو تلك h. training، وتتكون بها العادة، سواء كانت عادة إنفعالية أو معرفية أو حركية Motor h.. والعادات الانفعالية تتحكم في اختيارات المرء وعلاقاته التفاعلية، وقد تُسمَّى أحياناً باسم العواطف أو الميول السائدة، فالبخيل الذي لديه عادة اكتناز المال يوجّه سلوك هذا الميل السائد نحو جمع المال. والعادات منها الموجب أو السالب، والتدخين عادة سالبة Negative h.، بينما عادة القراءة قبل النوم قد تكون موجبة Positive h.. ولأهل المهنة الواحدة عادات فكرية متقاربة، وهي طريقتهم في التفكير التي اكتسبوها بالتعلّم على أيدي غيرهم من المشتغلين بالمهنة. وقد يكون للفرد الواحد أكثر من عادة فكرية، فالطبيب قد يفكّر بطريقة الأطباء في مجال الطب، ولكنه أيضاً قد يكون شاعراً فيفكّر بطريقة الشعراء إذا كان المجال هو مجال الشعر. والعادات الحركية Motor hs. مهارات حركية مكتسبة، فالعازف على البيانو يعتاد العزف بطريقة معيّنة تسهّل له أن يجلس وأن يحرّك أصابعه، ولاعب الكرة يكتسب مهارة اللعب بعادات سلوكية في اللعب من شأنها تحقيق أبسط الجهد مع الأداء المتميّز. والعادات عموماً لها هذه الخاصية، حيث أنها تساعد على التوافق بأقل الجهد، والقيام بأكبر قدر من الأفعال بطريقة آلية شبه تلقائية. وتحتل العادات عند الإنسان مكانة أنماط السلوك الفطري عند الحيوان. ومن العادات السالبة ما يسمى العادات العُصابية Neurotic habits، أو الهستيرية Hysterical، أو اللوازم tics، وهي أنماط سلوك خاطئة يتوافق بها العُصابي مع ظروفه. واضطرابات العادات h. disorders هي اضطرابات في السلوك، مثلما في العادة السرية، أو قضم الأظافر، أو مص الإبهام، إلخ. وتكوين العادات habit formation هو عملية اكتسابها بالتعلّم. ومن العقاقير ما يكون تعاطيه مُكسِباً لعادة التعاطي Drug habit-formation، أو اعتياد العقار Drug

habituation. وهرمية العادات Habit hierarchy إصطلاح «هل» Hull (١٨٨٤ - ١٩٥٢) باعتبار أن للعادات قوّة تأثير Habit strength بحسب التعزيز الذي تناله h. forming وتتدعم به، ويكون به قوّة دفعها وتوجيهها للسلوك، أو أن العادات الأبسط ذات الموضوعات المتشابهة قد تجتمع وتتآلف وتكوّن عادات أكبر وأكثر تعقيداً، فعادة الكتابة مثلاً قد تتضمن عادة كتابة الحروف المفردة، وكذلك عادة إيصال ما بين الحروف لتكوين الكلمة، وأيضاً عادة التزام الخط المستقيم، أو أن يتّجه الخط إلى أعلى أو إلى أسفل، والطريقة التي تأتي بها نهايات الكلمات، أو تنقيط الحروف، إلخ. والعادات قد تتداخل Habit interference فيجُبّ بعضها البعض، أو يُضعف بعضها البعض، أو يختلط بعضها بالبعض. وتقادُم العادات Habit progression هو أن تَضعُف القديمة لتحلّ محلها العادات الجديدة. وتدهور العادات Habit deterioration هو ضعف تأثيرها كظاهرة من ظواهر تحلّل الشخصية، فالشيخ الطاعن مع انتكاس قواه العقلية لا يلتزم عاداته في النظافة والآداب الاجتماعية وضبط الإخراج، وتسوء ممارساته اليومية إلى أن تتدنّى وتصير ممارسات نمائية كما عند الحيوانات. وعلاج اضطراب العادات يتم بالعلاج التنفيري Aversive therapy، بالتنفير من العادات السيّئة، وإحلال عادات طيبة بديلة بدلاً منها.

مراجع:

- James W.: Princples of Psychlogy.

-Eysenck, H.J.: Behaviour Therapy and the Neuroses.

❖ ❖ ❖

- ١٠ -

سيكولوجية الرشد Adult Psychology

سن الرشد. الذكاء فيه والبلوغ والنمو الوجداني. الرشد والموقف الأوديبي. منافسة الأشقاء. الهوية الجنسية. الرشد سن الفتوة والنقد. مجتمع الراشدين. الشباب صوت التغيير. سن

العواطف والتحديات والهوايات والتجارب الجنسية. أدوار الفتاة والفتى. الشباب سن الاكتئاب والعصاب النفسي. الرشد الناضج. معاناة التناقض. صراعات الأجيال...

❖ ❖ ❖

الرُّشْد Adulthood هو سن التعقّل والرشاد والهداية، ويبدأ في نحو العشرين، وبعض الشعوب تجعله شرعاً في الواحد والعشرين، وينتهي قبل الخمسين، غير أنهم يميّزون فيه بين الراشد الغر Young adult والراشد الناضج Mature adult، والأول هو الشاب بين العشرين والثلاثين، والثاني هو الراشد الذي يتجاوز الثلاثين إلى ما قبل الخمسين. ولا يبلغ الشاب الرجولة قبل الثلاثين أو نحوها، فإذا تجاوز الثلاثين إلى الأربعين، فالبعض يُسمي ذلك أواسط العمر Middle age، والبعض يجعل السن بعد الأربعين إلى الخمسين سن الكهولة Later adulthood، وقد يقال لهذه السن ما قبل الشيخوخة Presenility، وقد تمتد السن ما قبل الشيخوخة حتى الستين.

وقبل الرشد يكون المرء حَدَثاً أو قاصراً، ومعنى رَشُدَ أنه قد أصبح شرعاً أهلاً للمسؤولية، فيتزوج، ويتعاقد، وله كافة الحقوق المدنية، ما لم يكن مصاباً بنقص عقلي أو جنون.

والرشد لا يتساوق في كل النواحي باعتبار السن، فالذكاء ينضج قبل العشرين بكثير، وهو يبلغ غاية نموه Adult intelligence في السن بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة، والبلوغ الجنسي، يحدث قبل ذلك، وربما في السن بين العاشرة والخامسة عشرة، وربما قبل ذلك وربما بعد ذلك. «والنمو الوجداني» يكون في ذروته في السن بين الرابعة والعشرين إلى الثلاثين. «ونمو القامة» يتوقف في نحو الثامنة عشرة، وإن كان نمو الجسم في غير الطول يستمر إلى نحو الثلاثين. وقيل إن النضج يبلغه الدماغ بمقتضى الرسم الكهربي في نحو الواحدة والعشرين، وأما قبل ذلك فصورة الدماغ لا تنبئ عن نضوج. ويتأخر نضج العُصابيين، وربما تبقى

الصورة الكهربية للدماغ على شكلها الطفلي طوال الحياة.

ولسن الشباب سمات واتجاهات واهتمامات، وفي الشبوبية تكون «الشخصية» ما تزال في التكوين، وما تزال معالمها تتحدّد، وإن يكن الشاب في جاوز المراهقة، إلا أن آثار المراهقة ما تزال تعتمل فيه، وما تنفك خبراتها توجهه.

والراشد الشاب يحتاج لبعض الوقت لكي يزول عنه ما يعلق بشخصيته في المراهقة Adolescence، وربما تتثبت الشخصية على بعض السمات، أو يتمرّد الشاب على بعضها وينهج عكسها. ومن ذلك الخبرات الجنسية، وتتوجه جنسيتنا ونحن بعد أطفال للأبوين من الجنس الآخر The other sex، ويكون تعيُّننا من بعد بالأبوين من الجنس نفسه، ونميل في الصبا للأطفال من جنسنا، وفي المراهقة تتوجه ميولنا للجنس الآخر، فإذا أصبحنا شباباً تراوحتنا الميول بين الجنسين فلا نستغني عن الأصدقاء والأتراب، ونهفو كي نحب وتكون لنا علاقات جنسية غيرية. وفي سن الرجولة ترتقي دوافعنا الجنسية Sexual motives وتصبح دوافع تناسلية Genital ms.، فنتزوج كي نشبع فينا الرغبات الجنسية، ولكنها الرغبات المتسامية الهادفة الغَرضية التي يكون لنا بإشباعها الولد. والشبوبية هي سن الذروة الجنسية، وفي الرجولة تكون لنا السيطرة على شهواتنا، وندرك أبعاد قدراتنا، وتتحدد غاياتنا من الجنس، كما تتحدّد معالم شخصية الشريك الآخر الذي نأمل أن يقاسمنا الحياة، وصفاته وشكله، ثم تأتي الكهولة فيقف نشاطنا الجنسي. وقيل إن النساء يكن في الكهولة في قمة النشاط الجنسي، وفي هذه السن، أي بين الثلاثين والأربعين لا تعود المرأة مُحرَجة جنسياً، ويزول عنها خجلها، ولذلك فهي تستمتع في هذه السن بالجنس خيراً مما كانت تفعل في العشرينات.

وفي طور الشباب تظهر إيجابيات وسلبيات الطفولة والمراهقة، وذلك أننا نكون في صراعات ومجاهدات مع أبوينا وإخوتنا وأخواتنا، وليس منّا من لم يدخل «الموقف الأوديبي Oedipus situation» الذي يضم الأب والأم والطفل، وتكون

العلاقات بين الثلاثة في شدّ وجذب ويتأثر بهما الطفل - أي بالأب والأم - ويصنعان شخصيته، ويتوقف على حلّ الصراعات الأوديبية مستقبل الشخصية. وأيضاً فنحن ندخل فيما يسمى «منافسة الأشقاء Sibiling rivalry»، فنقترب من بعضهم، ونتعين ببعضهم، ونكره بعضهم، ثم نسقط من بعد ذلك نتائج هذه الخبرات على علاقاتنا بالأتراب والأصدقاء. فكأن الطفولة والمراهقة تحدّدان نمط الشخصية في الشباب، ونمط العلاقات التي يمكن أن تكون لنا بالناس، وتتدخلان في كل علاقاتنا التفاعلية المستقبلية. ومن شأن هذه الخبرات أن تتكون لنا من خلالها أنماط سلوكية نكررها وتلاحقنا في مراحل حياتنا كلها، وقد نعي أبعادها ونعرف بأمرها، وقد نتصرف بدون وعي باعتبار أن دوافع السلوك منها ما هو لاشعوري، وقد يطلب الشاب في سن الرشد أن يدرس الطب مثلاً لأنه أخذ عن أبيه حبّ هذه الدراسة بالتعيّن به وبأهدافه في الحياة، وربما لأن الأب أو الأم أو الاثنين معاً كانا دائماً يرفعان مستوى الطموح Level of aspiration عنده. ويُزكيان فيه أن يكون ما يريدانه، وذلك ما نسميه السلوك وفق مقتضى توقعات الأهل. وقد تكون لبعضنا شخصية عدوانية فتدفعنا ميولنا إلى دراسة الشُّرطة لنمارس هذه العدوانية فينا، ولكنها الممارسة التي يشجعنا عليها المجتمع ويثيبنا عليها. وربما تكون خبرات الطفولة والمراهقة فيها معاناة الحرمان من أحد الأبوين أو كليهما، من جرّاء طلاق يقع بينهما، أو انفصال بسبب الغُربة، أو السعي وراء الكسب في بلاد بعيدة، أو نتيجة مرض عضال، أو بسبب الحرب، إلى غير ذلك من الأسباب - كالموت والسجن، فينشأ الطفل يفتقد الحنان، وبه جوع للحب، أو ينمو مجدباً من العواطف متقزّم الوجدان، وفي الحالين يعجز في الشبوبية عن أن تكون له علاقات دافئة بالناس، وأن يتزوج كالآخرين، وأن تكون له أسرة يَعمُرها الحب، ويُدفئ أفرادها الحنان. ولربما ينشأ الطفل بين أبوين يحتدم بينهما الصراع والخلاف، أو تكون الأم نابذة والأب مستبداً أو العكس، فيضطرب تعيُّن الطفل بهما ويتوه عنه تفهُّم دور الأب

أو وظيفة الأم، وهو ما نعرفه باسم وعي الهوية الجنسية. وإذا لم يصادف الطفل من يعوّضه عن كل ذلك، كبديل للأب أو للأم، فإنه ينمو نمواً وجدانياً شائهاً، وربما يتأثر عقلياً بالعزلة النفسية التي يعيشها، ومن ثم فنحن في الشيبوبة غَرْسُ الطفولة والمراهقة.

والمراهقة هي «سن العواصف Age of storms»، وتتوقف شخصية الشاب من بعد على طريقة تعامل المحيطين به في المراهقة، وعلى الصورة التي تتحصّل له عن نفسه، وعن الناس، والحياة عموماً. ولربما لكل ما سبق يخرج بعضنا من الطفولة والمراهقة مثخناً بالجراح النفسية، ويقضي عمره كله يداوي هذه الجروح ويتردّد على العيادات النفسية يحاول أن يجد لها العلاج. ونحن نشبّ قساة القلوب لأننا ننشأ في بيئة عدوانية، وقد نكون مستبدين لأن الأب كان مستبداً، وقد نكون خانعين لأن الأم كانت متسلطة، وعكس ذلك الشاب المتوازن وجدانياً، والمنضبط سلوكياً، والمتحمّس للحياة، والمقبل عليها، فذلك لأنه قد تلقى تربية صحيحة ونَعِم بجو عائلي سليم.

وفي سن العشرين أو «سن الفتوة Youthfulness»، تتميّز عموماً إتجاهات واهتمامات، وتبرز سمات للشخصية، ومن ذلك أن هذه السن هي «سن التعقُّل Age of reason»، قياساً إلى سن العواصف في المراهقة، ولعله لهذا السبب يُطلق إسم الرُّشْد على هذه السن، والرشد في اللغة هو الهداية. وفي هذه السن تقوى الدوافع والنوازع، إلا أننا نميل أن نضبطها ونتحكم فيها، وتكون بنا أشواق روحانية تتعادل بها عندنا النزعات المادية. وسن الفتوة هو أيضاً «سن الاندفاع The age rashmess»، وقد يندفع الشاب بلا ضابط يشبع رغباته ويعيش لها، وقد يعاندها وتكون له تطلعات دينية، والغالبية العظمى من أعضاء الجمعيات الدينية هم من الشباب.

ولعل من مظاهر التعقل النقد، وسن الشباب هو «سن النقد The age of criticism» الشديد يلزم به الشاب نفسه والمجتمع الذي يعيش فيه، ونقده لنفسه إختبار لقدراته ولذكائه ولشخصيته عموماً، ويصدر عن الخوف من الفشل أحياناً، والرغبة في النجاح ولتأكيد ذاته.

وهو يقاوم رغباته الشهوية التي قد تستبد به يريد أن يضبط سلوكه، وانضباطه إنجاز لنفسه، ونقده لنفسه يقوّم به المعوج من توجهاته، ويعيد به تقويم أهدافه. وهو يختار من الأهداف ما يقرّه المجتمع فيحقّق بذلك نجاحين، نجاحاً ذاتياً وآخر إجتماعياً. ونقده المستمر لنفسه يجعله دائم المساءلة لنفسه ومعاودة التفكير في أهدافه، والانشغال بأن يجد الفرصة للنجاح. والنقد صورة من الصراع مع ذاته، وانعكاس للصدام بين ميوله الشعورية واللاشعورية. والنقد سلوك عدواني، والشباب في سن الرشد عدوانيون، غير أن عداءهم قد يتوجهون به إلى ذواتهم، وقد يوجهونه إلى مجتمعاتهم. ويصدر نقدهم عن محاولة لأن يقيسوا أنفسهم ومجتمعاتهم إلى ما يتصورونه لها، يريدون أن تتحقق هذه التصورات مستقبلاً. والشباب مستقبليون دائماً ويتحدثون بصيغة المستقبل. وفي الشباب تكثر أحلام اليقظة التي يجدون فيها الإشباع عن الحاضر القاصر والمستقبل الواعد. ونقدهم للمجتمع يصدر عن ميول فيهم من المراهقة لمقاومة السلطة. والسلطة قد يكون من رموزها الحكومة، أو المؤسسات الاجتماعية: كالأسرة، والجامع، والمدرسة. ويتوجّه نقد الشباب لهذه الرموز، وتستغل الأحزاب السياسية هذا الميل فتحاول أن تضم الشباب للمعارضة. وتتميز صحف الشباب الحزبية بلهجة عدوانية وأوجه للنقد لا حصر لها. وتقوم الجمعيات الثورية السريّة على الشباب، ويصوغ منشوراتها كتّاب ومفكّرون من الشباب، وتتوجه أساساً إلى الشباب. ويعي المشرفون على الأحزاب سيكولوجية الشباب ورغبتهم في التميُّز في اللباس والتعبير والمشية. ويصدر هذا التميّز عن رغبة في مقاومة الانتماء، وإظهار العناد للسلطة حتى في الزي، وتُهيئ الأحزاب للشباب أزياء خاصة، وكانت للشباب النازي، والشباب الفاشيستي، وشباب مصر الفتاة، وتركيا الفتاة، قمصان خاصة بألوان معيّنة وشارات مميّزة، وكانت لهم هتافات وشعارات يردّدونها وينفردون بها ويُعرَفون من خلالها.

ومن مظاهر سن الرشد أن يعمل الشباب من خلال التجمّعات، وإذا كان سن المراهقة هو «سن الفردية The age of individuality»، فإن سن الشباب هو «سن الجمعية Age of collectivity»، وتنصرف نشاطات الشباب وطاقاتهم وإبداعاتهم من خلال تجمعات الشباب. وفي التجمع يمارس الشاب المسؤولية عن نفسه والجماعة، ويستشعر الانتماء ويمارس الولاء الجمعي. وميول الانتماء والولاء الجمعي من أبرز الميول عند الشباب، والمسؤولية الجمعية التي يتطوع لها الشاب مختاراً تلزمه من هذه السن، وتمهّد لمسؤوليات إجتماعية أكبر سيضطلع بها مستقبلاً، ويهديه إليها تصوره للمستقبل، وهو تصور يتولّد به عند الشباب توهم أنهم يصنعون المستقبل من جديد. وسن الشباب هو سن هذه الأحلام: أن يكون للشاب مشروعه الخاص لنفسه، ومشروعه الجمعي لمجتمعه، والمشروعان يتوافقان، وغايتهما المجتمع الجديد أو مجتمع الغد، ومن ذلك مثلاً ما تعرضه «مسرحية الناس اللي تحت» لنعمان عاشور، وهي نموذج لكتابات الشباب، ودراسة لتطلعاتهم، وأبطال المسرحية من الشباب، ويدور حوارهم حول الغد وما يكون فيه، وأرض الأحلام التي ستكون، واليوتوبيا Utopia التي سيصنعونها من مصر الغد.

وأحلام الشباب ومشروعاتهم للغد قد تكون من دوافعهم لقلب نظام الحكم، والجدير بالذكر أن أغلب من قاموا بالانقلابات من الشباب، ولم يتجاوزوا الثلاثين إلا قليلاً، وهكذا كانت أعمار أعضاء مجلس قيادة الثورة في مصر، والضباط الأحرار في سوريا، والقذافي، وجلّود، وكاسترو، وماوتسي تونج، والنميري، وتيتو، ونكروما، ولومومبا، وبورقيبة، وبن بلا، وبومدين، إلخ. وقد تُهدى أحلام الشباب إلى مشروعات تخدم مجتمعاتهم والإنسانية كافة، وكذلك كانت أحلام أديسون، وماركوني، ونيوتن، وإينشتاين. «والشباب هم صوت التغيير في الأمم»، وبهم حساسية مفرطة لنواقصها وسلبياتها وعيوبها وأمراضها ومشاكلها، وكذلك يكون تعيّنهم بالمُصلحين والثوريين

والمُبدعين. ولو قرأنا تاريخ العنف السياسي لهالنا أن كل القائمين به من الشباب المتطرّف الذي سعى لتغيير الأوضاع وصُنع المستقبل.

وإذا كانت المراهقة هي «سن العواصف» فالشباب هو «سن العواطف». وعواطف الشباب وأشواقهم جيّاشة، والشاب في السن الصغيرة يقع في الحب لا لأنه يتمنى فتاة بالذات، ويعشق امرأة بعينها، ولكن لأنه يريد أن يقع في الحب نفسه، فتجربة الحب تستهويه، ويستميله منها أن يكتوي بنارها، وأن يعرف حرارة الشوق ويكابد عذابات الحب، على عكس الراشد فيما بعد الثلاثين، فالحب عنده يرتبط بإنسانة لها إسم وكيان وشكل ومواصفات معيّنة، ويريدها لنفسه زوجة، وأن يكون له منها الأولاد، وأما قبل ذلك فالحنين عند الشباب هو معاناة، ينصهرون بها، وتصقل تجاربهم، وتصنع شخصياتهم، وتثري خبراتهم، ولذلك كانت أكبر القصص الرومانسية بأقلام شباب، وأشخاصها من الشباب، وكانت أيضاً أكبر المآسي في الحب، فهكذا كانت مجدولين، وروميو وجولييت، وهكذا كان شعراء مثل مجنون ليلى، وجميل بثينة، وكُثيّر عزّة.

وتواجه الشاب تحدّيات، ولعل أبرزها توقعاته لنفسه، وهي التوقعات التي تستهدي بصورته عن نفسه. وتوقعاته لها «حضور نفسي»، وتشتملها أحلام يقظته، وتختلط بها توقعات أهله له، وتوقعات أصدقائه وأحبابه ومدرّسيه. والشاب في باله هذه التوقعات جميعها، وهي دوافع له توجّه سلوكه، وتتَّحد بها أهدافه، ويعمل من أجلها، وتكوّن ما يُسمَّى شَبكَة التوقعات، وبسببها يكون حضور أهله وأصدقائه وأحبابه ومدرّسيه في ذهنه وفي نفسه، هذا الحضور الذي يربطه بهم ويجعل للعمل معهم قيمة خاصة، ويكون به التزامه، وبسببه قد يقبل المخاطرة، وقد يخطّط لأهداف بعيدة قد تستغرق منه السنوات، وقد تستنفد الكثير من الجهد ويضحّي في سبيلها بالعاجل من أجل الآجل. ورغم أن الشباب متعجلون إلا أنهم أيضاً يتعلمون الصبر ويمارسون «الانتظار»، والتوقعات تلزمهم بالانتظار ولا بد لهم منه، غير أن الانتظار عندما يطول يولد التوتر

ويستجلب القلق. ويتعلم الشاب أن يحتمل حتى لا يعاق عمله ويتهدّد مستقبله، وهذا «الاحتمال» بمثابة تحدٍّ يومي لطاقاته وقدراته ومقومات شخصيته، ولسوف يتعلم أن تكون له «هواياته» لهذا السبب، ويسعى جاهداً ليعرف أي الهوايات تناسبه في هذه السن المبكرة من الرشد، كما يجهد أن يعرف أي المهن يمتهن، وأي الأعمال يتقلد، وسيعرف ما يناسب ميوله واتجاهاته وقدراته فيما بعد عندما يصل إلى «سن الرجولة»، أي بعد الثلاثين. وقبل هذه السن سيمارس كل الهوايات، ويشترك في كل الرياضات، ويتعلم من أسرار كل مهنة سراً، ومن فنون كل حرفة فناً. والهوايات ضرورة من مقتضيات الشبوبية. وسنجد الشباب يلتحقون بالأندية الرياضية، ويشاركون في الأنشطة الاجتماعية، وينضمون للجمعيات الخيرية، وتشملهم قوائم الأحزاب السياسية والتنظيمات المختلفة، وهي ضرورة لأن فيها وفي اهتماماتها يكون صرفهم للتوتر والقلق اللذين يتولّدهما الانتظار الطويل لتوقعات لا بد لها من السنوات لتتحقّق، ثم ان هذه الأنشطة تعطيه جَلَداً أكبر، وتصقله نفسياً وبدنياً وذهنياً، وتعدّه من كل النواحي لمواجهة التحدّي الأكبر الذي ينتظره، والذي يقتضي تكويناً نفسياً وبدنياً وذهنياً واجتماعياً خاصة، وهو التحدّي الذي يستلزمه مشروعه الخاص لنفسه، ومشروعه الجمعي لبيئته، ويلزم له أن يكون على وعي بطموحاته وآماله وتصوراته للمستقبل، وعلى بصيرة بتوجهات مجتمعه ونواقصه وعيوبه، وسلبياته وإيجابياته، والحِرَف فيه والتقاليد والأهداف والسلوكيات، وبذلك يتوازن المشروعان ولا يتصادمان، ويتكاملان، فيجعل منهما مطلبين غير متعارضين.

«وتأجيل مشروع الزواج» تحدّ من تحديات سن الشباب، والشاب يكتمل نموه الفسيولوجي نحو هذه السن، وفيها تكون فورة الجنس وشِرّته أيضاً. وللجنس فورة وشِرّة. والجنس علامة من علامات الصحّة العامة والفتوة. والفتى في هذه السن يكتمل جنسياً، وكذلك الفتاة تنضج ويظهر نضجها. وسن الشباب هو سن التجارب الجنسية، وكان سن المراهقة

«سن العادة السريّة». وفي عهد الشباب يكون التواعد باللقاء، «والحب من أول نظرة»، وتكون خبرات «الحب العُذري»، والحب المادي، ويكون الظمأ الشديد للزواج، وتأجيله للزواج بمثابة التحدي لقدرته على الاحتمال والصمود، ولمثابرته ليتحقّق له أن يتزوج بأسرع ما يستطيع. ويبدو أن نسبة عالية من الشباب يستطيعون أن يمارسوا الجنس بدون زواج، وقيل إن نحو ٥٠٪ من الشباب في سن الرشد ربما قد مارسوا الجنس ولو لمرّة واحدة، وانه ببلوغ الثلاثين تزيد هذه النسبة إلى نحو ٧٠٪ (Kinsey: Sexual Behaviour in the Human Male)، إلا أنه من ناحية أخرى فإن هذا التصرف غير الشرعي للجنس، قد يزيد من وطأة التحدّي الجنسي بما يخلقه من مشاعر ذنب وقلق وصراعات، قد تكون لها أوخم العواقب على تصدّع الشخصية وشذوذ السلوك أو انحرافه. والبعض يرقى بتحدي الزواج ويجعله تحدياً أخلاقياً أو يجعل مضمونه أخلاقياً، وبه يكون اختبار الكثير من أفكار الشاب، ومُثُله، وثقته في قدراته، واحترامه لنفسه. وهو يواجه هذا التحدّي كاختبار لقدرته على الملاءمة بين دوافعه الجنسية وسلوكه الاجتماعي. والجنس إمتحان حقيقي للشباب لأنهم يواجهونه بأنفسهم منفردين، دون عون من أهل أو قريب أو صديق أو ناصح. والجنس يشعرهم بالاستقلال لأنهم فيه إما يختارون السقوط أو الفضيلة، وإما أن يكونوا على مستوى المسؤولية وتحملها، وإما أن يسلكوا بإباحية، وهو تحدٍّ هائل لسيطرة الشاب على نفسه، وأن يفرض إرادته، وأن يكون له نظامه، وتعلو به أخلاقه ومُثُله. والزواج معناه تنظيم الجنس، وإذا اقتنع الشاب بالزواج كنظام، فمعنى ذلك أنه قد اقتنع أيضاً أن يشمل النظام كل مستويات حياته الأخرى. ويحتاج المتزوج إلى نضج في التفكير والعاطفة ليتفاهم مع زوجته ويحقّق التوافق المطلوب في الزواج. وليس الزواج هو مجرد إجتماع بين اثنين في بيت واحد، وعلى الشباب أن يدركوا أن الزواج أكبر تحدٍّ لشخصياتهم ولذكائهم ولصحتهم النفسية.

وأما «تربية الأطفال» فهي تحدٍّ آخر ولكنه لاحق لمرحلة الشباب. وهي تحدٍّ

للأبوة والأمومة. والأبوة مسألة شديد التعقيد وتتطلب إعداداً نفسياً ومزاجياً وعاطفياً وذهنياً معيناً، «والأبوة والأمومة» عطاء خالص. وليس للأب أو للأم أن ينتظر مقابلاً من الطفل. وليس لهما أن يطلبا الإنجاب قبل أن يستشعرا الرغبة فيه. والأبوان منذ البداية هما القدوة للطفل، وهما نموذج لكل سلوك ونشاط، ومنهما يتلقى القيم البنّاءة.

والتحديات كثيرة لا حصر لها في مجتمعاتنا العربية بالنظر إلى كثرة المذاهب فيها: الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والفوارق الهائلة بين الطبقات، وأنواع التعليم المختلفة، وانتشار الأمية، وغلبة الأساطير والخزعبلات على العلم والمعرفة. ويواجَه الشاب بكل ذلك، وعليه أن يجتاز كل هذه الصعوبات وينفذ من خلال كل تلك الحواجز. وتشكّل «الواجبات الاجتماعية» تحدٍّ كبير للشباب، وخاصة عند شباب الطبقة البورجوازية والطبقات الكادحة من العمال والفلاحين، ولعدم وجود الضمانات الاجتماعية في حالات كالوفاة والعجز عن الكسب. وتُعوِّل الكثير من الأسر على شبابها في الرزق ومواصلة رسالة الآباء وتعليم الإخوة، ولذلك ضغوط هائلة قد تحيد بالشاب في التفكير وتنحرف به في السلوك.

وللأوضاع الاقتصادية تحدّياتها أيضاً، وبصرف النظر عن تأخيرها للشباب عن تحقيق آمالهم، والوفاء خصوصاً بمشروع الزواج، فإنّ تردّي هذه الأوضاع في مجتمعاتنا قد تدفع بالبعض إلى أفكار ثورية، أو تتسبب لهم في الجُناح. ويبدو أن العوامل كثيرة في الجُناح إلا أن أقواها جميعاً وأخطرها هو العامل الاقتصادي والآثار النفسية المدمّرة التي تترتب عليه.

ولم يكن الحال هكذا قديماً، وربما تغيرت الأمور كثيراً في بلادنا عن ذي قبل. ونحن نمر الآن بفترة تغيير اجتماعي واقتصادي هائل تشمل العالم كله، بين نظم بالية وأخرى حديثة، وعلاقات محافظة وعلاقات متحرّرة، ومؤسسات ونظم آلت إلى القدم وأفكار جديدة تريد أن تتحقق وتتعيّن مكانها، وعلى الشباب أن يبقوا متوازنين بين هذا كله. وعالم اليوم بمواصلاته واتصالاته الجوية

واللاسلكية وعبر الأقمار الصناعية، واضطراباته السياسية والعقائدية، هو عالَم للقلق، حتى ليطلق على عصرنا بحق «عصر القلق The age of anxiety». وهو عالم يتعامل كل يوم مع الوكالات والشركات الكبيرة والأهداف العريضة، والتجمعات السكانية الضخمة في المدن والأسواق والمستشفيات والمدارس والجامعات، الأمر الذي جعل الناس يستشعرون أنهم ما عادوا يتعاملون مع بشر، بل مع أجهزة وآلات حاسبة وبطاقات وأرقام هوية. ويخلق ذلك إحساساً بفقدان الشخصية، وانفصال عن القوى الاجتماعية المؤثرة. وهذه التغيرات بمثابة إنقلابات في أسلوب الحياة، ولها ضغوطها الهائلة على كل الناس من مختلف الأعمار، وخاصة الشباب، لأنهم أعرض الفئات، ولأنهم يتخللون كل الطبقات والفئات والطوائف.

ويُشجَّع الشباب على التعليم، وأن يأخذوا بنصيب وافر منه، بالنظر إلى ما يمكن أن يعود عليهم من مكانة واحترام وعائد مادي، وخاصة التعليم الجامعي. ويسعى الشباب في كل الطبقات إلى تحصيل نوعيات معيّنة من التعليم الجامعي يوافق عليها المجتمع ويثيبها أكبر الثواب، غير أن هذا التعليم باهظ التكاليف، وهو تحدٍّ من أكبر التحديات للشباب. وعنق الزجاجة في التعليم هو الثانوية العامة في البلاد العربية، بالنظر إلى ما يتطلبه التعليم الجامعي من مجموع كبير يستلزم الحصول عليه جهداً شاقاً. والثانوية العامة تحدٍّ للشباب وللأهل. بالإضافة إلى أن التعليم الجامعي يستنفد وقتاً طويلاً، ولربما يتخرج الشاب من كلية كالطب مثلاً وهو في الثلاثين، وعليه أن يعمل عدداً آخر من السنين ليؤمّن مستقبله، وبمعنى آخر فإن الجامعي ربما يبلغ الأربعين وهو لم يتزوج ولم يكوّن أسرة، وذلك إحباط كبير لكل مشروعاته، وله ضغوطه الهائلة على الشاب في العشرينات والثلاثينات.

ومن الممكن أن يقال الكثير عن تأثير الاستخدامات الذرية في كافة المجالات السلمية والحربية على تفكير الشباب. والأفكار في هذا المجال محتدمة والآراء متباينة، والناس بين متفائل ومتشائم، ويعيش الشباب هذا

المناخ القلق تتنازعهم مخاوف الدمار النووي، وتحدوهم آمال هذا العصر الذري الواعد بالخير في الزراعة والصناعة، وتتعلق خواطرهم بمجتمعات مثالية كاليوتوبيا، وربما كان اعتناق الكثيرين للشيوعية أو الاشتراكية لأنهما مذهبان يستشرفان المستقبل ويعدان بمجتمعين مثاليين، قيل في أوصافهما أنهما «مجتمعا الوفرة»، حيث الشعار في أحدهما «من كل حسب جهده إلى كل حسب حاجته»، وفي الثاني «من كل حسب جهده إلى كل حسب عمله». وينبئ الشعاران بأن العمل هو القاعدة، وأنه لن يكون هناك فرق بين الناس بسبب اللون أو الجنس أو العِرق أو الحسب أو النسب، وأن المساواة هي القانون، وأنه في «مجتمع الوفرة» ستتحقّق كل الأماني وستشبع كل الحاجات، وسنجد الشقق للسكن، وسنزودها بالمستحدث من الأجهزة وأدوات الرفاهية، وسيعم الخير، ويجد الجميع الطعام والشراب واللباس. ولعله لهذا السبب كان الشباب يُقبل على «الشيوعية والاشتراكية» إقبالاً منقطع النظير، حتى أنه قيل إن ٩٠٪ من أعضاء الحزبين الشيوعي والاشتراكي كانوا من الشباب دون الثلاثين.

ولا سبيل إلى مواجهة هذه التحديات إلا من خلال السياق الكلي لنمط الحياة بطرق تحترم ظروف الشباب الأدبية والعاطفية والاجتماعية والاقتصادية، وهي ظروف حسّاسة وشخصية وتتطلب إعمالاً ذهنياً وتقليباً للرأي، وبصيرة نافذة، وأحكاماً صائبة شديدة التعقيد. ويساعد على التعامل مع هذه المشاكل أو المسائل أو القضايا التعليم الذي يحصّله الشاب، والخبرة التي تتهيّأ له، فمثلاً لكي يختار لنفسه عملاً أو مهنة، ويواجه تحدي هذا الاختيار فقد يلزمه أن يجرّب عدداً من الوظائف إلى أن يجد الوظيفة التي ترضيه شخصياً وتعطيه الأجر المادي المناسب، والتي فيها يمكنه أن يمارس مهاراته ومواهبه بطريقة فعّالة، ولن يتيسر له ذلك إلا إذا نال قسطاً من التعليم الرسمي أو غير الرسمي حتى يستطيع أن يصقل مواهبه وقدراته ويتبينها. وبعد أن يجرّب عدداً من المهن أو الحرف أو الوظائف يجد أن فرص

الاختيار تقل وتتحدّد في عدد من المهن، أو ربما في مهنة واحدة، أو وظيفة بعينها هي فرصته المعقولة، والتي يمكنه فيها أن يجد نفسه بدرجة أو بأخرى ويحصل منها على أقصى ما يستطيع أن يحصل عليه. وأغلب الشباب يواجهون «تحدي الوظيفة أو المهنة» بهذه الطريقة، وكثيراً ما يلجأ الشاب إلى طلب النصيحة أو المساعدة إذا احتاجهما عندما يشق عليه أن يتّخذ القرار المناسب، وإذا أعوزته الدافعية أو إذا تكرّر معه الفشل. وقد تكون المساعدة في شكل مشورة يسألها من صديق أو من الأسرة، وقد يستنصح أهل الرأي، وربما مدرّسه أو أستاذه الجامعي. وهناك مكاتب إستشارية في الدول الكبيرة يجمع المشرفون عليها - إلى جانب التخصصات المختلفة - بين الدراسات الميدانية ودراسات علم النفس. والمرشد المهني Vocational guide يستخدم مختلف الاختبارات لتقويم المهارات والقدرات، وقياس الشخصية، وتحديد أهداف الحياة، ويساعد الشاب على أن يتعرف إلى حقيقة دوافعه. وقد يتقدّم الشاب بطلب النصح من عالم نفس أو أخصائي إجتماعي أو طبيب نفسي. ومن المهم أن نعرف متى يتحتّم علينا أن نطلب النصيحة، وأن لا نتردّد في طلبها. والشباب بهم هذا الميل لطلب المشورة، ولديهم الحسّ السليم لمن يتوجهون إليه بطلبها. ويتمتعون ببصيرة حول ماهية هذه المشورة ولأي موضوع يطلبونها، وكثيراً ما يصدرون أحكاماً بشأنها أوفق وأفضل مما يصدره الكبار أو الآباء.

وتتميز فترة الشباب بالنسبة للذكر أو للأنثى بأنها عموماً فترة يمارسون فيها «الاستقلال بالرأي» في كافة اختياراتهم وفي العمل، واحتمال الكثير من المسؤوليات، ويتحقّق لهم فيها النضج البدني والنفسي، وتكون لهم البصيرة بالأحوال الاجتماعية وتفاعلات المجتمع. وتتّجه شخصياتهم نحو التكامل، ويجربون الحب والخِطبة، وقد يتزوج «الشاب» وينجب، وفي هذه السن يبلغ أوجه نشاطه الجنسي وقدرته على التعبير عن نفسه، ويهتم بعمله، وأن ترضى عنه أسرته، وتهتم «الشابة» بأن يكون لها بيت وعائلة ترعاها، وتتسم هذه الفترة بالنسبة للاثنين بأنها فترة المشاكل

المترتبة على «الالتزامات الشخصية»، والتزام الشاب يتوجّه لمهنته أو عمله، ويتوجّه التزام الشابة إلى بيتها وأطفالها، وبعض الشبان يلتزمون بالمهنة والبيت معاً، وكذلك الشابات، وقد يبرز الاهتمام بأحدهما على الآخر، وكل شاب أو شابة يرتب إهتماماته في أولويات طبقاً لما يوليها من قيم وما تعطيه من إشباع. ويعاني بيت الشاب أو الشابة اللذين يجدان متعة أكبر في العمل عن البيت، ويسوء توافقهما وتكثر الشكاوى منهما، على عكس من يحاول أن يوفق بين كل النشاطات، فهو في البيت يعطيه كل عنايته، وفي العمل يبذل فيه جهده، ويكامل بين النشاطين.

ويختلف الشباب فيما بينهم خاصة في المجالين الاجتماعي والجنسي، فشباب «الطبقات العليا» يؤجلون اختيار المهنة حتى استكمال دراساتهم العليا، ويجعلون الزواج آخر مراحل الاستقرار. ويعجل أبناء «الطبقات الريفية» بالعمل والزواج معاً. ويميل أبناء «الطبقات العليا» إلى الانخراط في الأنشطة الاجتماعية والسياسية، والزواج في هذه الطبقات كثيراً ما يكون له مضمون إجتماعي أو سياسي. ومن رأي كينزي أن النشاط الجنسي عند المتدينين وأهل الريف والشرائح العليا من المتعلمين يقل كثيراً عن غيرهم: (Kinsey: Sexual Behaviour in the Human Male). وهناك ما يشبه «الثورة الجنسية Sexual revolution» نتيجة انتشار التعليم بين الجنسين، ويتّجه العالم إلى نوع من الأعراف المتماثلة أخلاقياً تستطرق في كل أرجائه وتتسم بالصدق والموضوعية.

ويختلف «دور الفتاة» عن «دور الفتى»، والفتاة عادةً سلبية إعتمادية بينما الفتى عدواني إستقلالي، ويُعنى الذكور بكسب العيش بينما الإناث بالبيت وتربية الأطفال. وتتباين المعايير الأخلاقية بالنسبة للجنسين، فالمباح للذكور لا يباح للإناث، والذكر أكثر حرية أن يفعل ما يشاء بعكس الأنثى، غير أن تحرير المرأة من المطبخ والغسيل والرضاعة بتأثير الاختراعات ووسائل التغدية الاصطناعية أتاح لها أن تشارك أكثر في النشاط الاجتماعي والاقتصادي، ويبدو أن الثروة الاجتماعية

قد آل أمر أغلبها إلى أيدي النساء، وأدّى إلى تشابه التوجهات عند النساء والرجال، وهو تشابه ما يزال الرجال يرفضونه ويعيشون حالة لاواقعية من المفاهيم عن النساء. وهذه الحالة أظهر ما تكون حينما تتخرج البنت والولد بالشهادة نفسها، ومن الكلية نفسها، ويتزاحمان على العمل ويتنافسان فيه، تنافساً يجعل البنات عدوانيات يتذرعن بالعدوانية ليكون لهن الفوز في مهن ووظائف هي من اختصاص الذكور. وهذه العدوانية تضطر إليها الفتاة وإلا فلن يقيّض لها الفوز. ويواجه الفتيان هذا التحوّل في الدور والهوية الجنسيين بسلبية يصفها بعض علماء النفس بأنها سلبية مفرطة قد لا تعجب الفتيات، حتى ليمكن أن تتهم الفتاة فتيان هذا العصر بأنهم قد صاروا مخنثين تنقصهم الرجولة. والنتيجة أن شباب هذه الأيام عليهم أن يعتادوا هذا التخالف في الأدوار بين الجنسين. وصار الفتى يشارك فتاته إذا تزوجا في أعمال البيت وتربية الأطفال، وصار يقاسمها تكاليف العيش، وصارت الاختلافات في الاتجاهات بين الجنسين أقل ظهوراً عمّا مضى. ويبدو أن الاتجاه الآن أن يتحمل الشباب عدوانيةً واسترجالاً أكثر من البنات، وأن تتلاءم البنات مع اعتمادية وسلبية أكثر من جانب الفتيان. ويزيد الأمر سوءاً أن الفتاة رغم أنها تعمل وتنافس الفتيان فإنها ما تزال مصرّة على أن تتجمل كفتاة، وأن تمارس عملها مع احتفاظها بأنوثتها. وأيضاً فإن الفتى ما يزال رغم انطوائه تحت إمرة فتاته التي أحبّها وتزوجها يريد أن تكون له بعض حريته التي كانت له وهو أعزب. وهذا التباين في الأدوار، والتغير الذي شمل الجميع، جعل «مفهوم الأسرة» مختلفاً عند الشباب. وتعاني البنت أكثر من الشاب من جرّاء تأخير زواجها، فالتأخير في الزواج لا يناسب أنوثتها. وهناك ما يشبه الاتفاق على أن تجاوز البنت لسن الثلاثين يجعلها غير صالحة للزواج، وذلك شيء قد يسبّب قلقها وقلق المحيطين بها، وهو ما لا يحدث بالنسبة للشاب. وفي حين قد يكون الشاب الأعزب مادة تسلية ومرح بين زملائه وأقاربه، فإن العانس محط إشفاق من الصديقات والأقارب. غير أن

الإصرار على عدم الزواج بالنسبة للشاب إذا أوغل في الثلاثينات قد يجعل المحيطين به يفكّرون عنه تفكيراً مختلفاً، وقد يتهمونه «بالعجز الجنسي». وما من شك أن الالتزام بالزواج لكلا الجنسين مؤشراً على النضج، وعنصر من عناصر الشعور بالأمان، وتتحقّق به الهوية، وأن للشخص قيمة، أو انه إختصاراً دليل على احترامه لنفسه.

وطبيعي أن يكون لفترة الشباب إيجابياتها وسلبياتها على مرحلة الرجولة وما بعدها، فالزواج السعيد أو الشقي، والوظيفة المتفقة مع الميول أو التي يسوء اختيارها قد تترتب عليهما آثار تستمر مع الشخص مدى الحياة.

وعلاج الفشل أو القصور في هذه السن يناسبه أي من الإرشادات أو العلاجات التي تقوم على التنفيس عن النفس، والكلام بحرية عن المشاكل وطرحها طرحاً صريحاً مع معالج نفسي أو موجه نفسي، وتفيد «المهدئات» أحياناً كعلاج بالعقاقير قد تتيسر به جلسات التحليل النفسي أو العلاج النفسي.

ومن الاضطرابات التي يعاني منها الشباب في هذه السن الاكتئاب، والعُصاب النفسي، والقلق، وتبلغ الإصابة بالفُصام أَوجّها في سن الشباب، وهناك أسباب عديدة للفصام أهمها الصراع بين حاجات الشاب النفسية والواقع الخارجي. ويأتي الفُصام الشاب الذي نما وجدانياً نمواً غير سليم أو توقف نموّه الوجداني، فيجد نفسه في هذه السن في مواقف تستغرقه ويضطرب بها ويتداعى بالمرض. ولسن الشباب مقتضيات من الواقع تستنفد طاقة الشاب، ولها وطأة قد ينوء تحتها جهازه النفسي. وهذا الواقع في الأحوال الصحية هو الذي يزود الشاب بكل وسائل الإشباع العاطفي وكل الفرص التي تتحقّق بها حاجاته، ولكنه بالنسبة للفُصامي يبدو وكأنه يعارض هذا الإشباع ويعوق ذلك التحقّق، لأن جهازه النفسي أعجز من أن يواكب مقتضياته ويساير مواقفه، فتغرقه المشاكل الاجتماعية، وتتحطّم بها وسائله الدفاعية العادية، فلا يقوى على التعامل بفاعلية وكفاءة مع الناس والظروف.

ولأواسط العمر أو الرشد الناضج مشاكله المختلفة عن مشاكل الشباب. والراشد الناضج يواجَه بتحديات منها «المسؤوليات» الجسام العائلية وغير العائلية الملقاة على عاتقه، فهو مُطالب بأن يعول أسرته وأن يرعاها صحياً واقتصادياً ونفسياً وتعليمياً، وهو يعطي ولا يتوقع لعطائه مقابل، وربما يضطر أن يعول أبويه، وربما حماه وحماته، وكلما زادت سن هؤلاء كلما زادت الأعباء عليه.

والراشد الناضج وسط مسؤولياته الكثيرة قد يُخشَى عليه أن يفقد ذاتيته وتتوه منه هويته وتزول عنه فرديته، ويطلق علماء علم النفس الوجودي على هذه الحالة إسم «السقوط النفسي»، وهو أن ينسى الشخص نفسه في الآخرين وتكون له قيمهم ويتخلق بأخلاق القطيع. ويواجه الراشد الناضج بتحدٍّ المحافظة على ذاتيته وفرديته وهويته ضد ما تهدف إليه وسائل الإعلام في الدولة ونظام التعليم، من مشابهة أفراد الأمة بعضهم بالبعض، وأن يكون التماثل بينهم في السكن واللباس والعقائد والأفكار والمشاعر. وعلى الراشد الناضج أن يوازن بين المطلبين: أن يكون نفسه وأن ينتمي لمجتمعه، وأن يحفظ عليه قيمه وأن يعلي من قيم جماعته، وأن تكون له خصائصه وأن تكون له خصائص قومه وشعبه.

ويعاني الشباب من «التناقض» بين ما تفرضه الحياة العملية من قواعد في السلوك لا تتفق مع ما يقول به الدين والأخلاق من مبادئ، غير أن الراشد الناضج يغلب عليه أن يوفّق بينهما، وأن يعمل على ألا يتضاربا فيه، وهو يعيش وقائع العصر المادية ويعاني أزمة الأخلاق في المجتمع، والمجتمع الحديث من سماته هذه «الازدواجية»، فبينما الجامع يدعو إلى أشياء فإن الشارع والمصنع ودور الحكومة تطبق أشياء مختلفة تماماً.

و«السقوط في الرتابة» تحدّ من تحديات أواسط العمر، وذلك أن الراشد الناضج وقد احترف وظيفة طوال هذه السنوات فقد يُخشَى عليه أن لا يتعامل معها بالإبداع اللازم، وقد تصبح حياته الزوجية مملة لتشابه أيامها ووقائعها، وقد يزهد هذه الرتابة ويصاب بالسأم،

وقد يكره مسؤولياته، ولربما يصحو يوماً ليعلن تمرّده على مهنته وأولاده وزوجته. والتحدّي الذي يواجَه به الراشد الناضج هو أن يظل على اهتمامه ببيته، وأن يوفّق بين مطالبه ومقتضيات وظيفته ومستدعيات حياته الخاصة، وأن يحافظ على خصوصيته وسط هذه العمومية التي تغرقه فيها مسؤولياته، وأن يحفز همّته باستمرار ويحافظ على طموحاته ويستحث دافعيته.

ولربما تواجَه حياته الزوجية بتحديات جنسية تدفع به إلى إنشاء علاقات بطرف ثالث. «وسن الرجولة» هو السن التي قد يتورط فيها الرجل بأن تكون له «علاقات جنسية خارج نطاق الزوجية». كما أن المرأة في أواسط العمر قد تنزلق إلى علاقات عاطفية مع غير زوجها عندما يعزّ عليها أن يفهمها الزوج أو أن تجد لديه الحنان الذي يعوزها في هذه السن.

ويُخشَى على الرجل والمرأة مع التقدم في السن أن يتثبتا على سلوكيات واتجاهات معينة. والتحدّي الذي قد يواجهاه خصوصاً في الأربعينات، يفرضه العزوف عن التجديد والخوف من كل جديد باعتباره بدعة، أو باعتبار أن زمنهما قد تخلف بهما، أو باعتبار الأفكار التي يمثلها المُحدَث والتي لا يفهمانها. والراشد الناضج في هذه السن كثيراً ما يتصادم مع الجديد، والجديد غالباً يبشّر به الشباب، ويتمثّل «صراع الأجيال» في التناقض بين مقتضيات حياة واعدة يطلبها الشباب، ووقائع يومية لُحمتها ارتباطات من الماضي، تُزكيها مبادئ وواجبات قديمة، ينهض بعبئها الرجال والنساء في أواسط العمر وسن الكهولة. والراشد الناضج الذي يحقّق لنفسه التوافق المنشود هو الذي يتصرّف بمرونة مع الأحداث، ويحاول باستمرار أن يتفهّم الجديد وأن يواليه، وألا يتخلف عن الركب، وأن يساير الأفكار الحديثة، وأن ينفتح على العالم ويحاذر الانغلاق والجمود والرتابة.

وهذه الحياة الحديثة بمتطلباتها هي تحدٍّ للراشد الناضج، وعليه أن يفهم باستمرار أن «الصيرورة» هي قانون الوجود، وأنه لا شيء ثابت، وأن كل شيء

إلى تغيّر، ومواكبة التغيّر تستنفد طاقة نفسيّة وتتطلب عزيمة، بالإضافة إلى أن إيقاع التغيّر يشتد. ولئن كانت هناك سمة تبرز على غيرها من سمات عالمنا الحديث فهي «المنافسة والسعي وراء النجاح»، وعلى الراشد الناضج أن يواجه تحدّيات التغيير والمنافسة ومتطلبات النجاح، وكلها أمور لها ضغوط نفسية مردودها على نوعية الحياة العائلية وتخلق مشاكل يعاني منها الراشد الناضج. وكان الأطفال في الماضي غير البعيد بمجرد البلوغ تكون لهم حياتهم المستقلة، وأما اليوم فإن عبء احتمال تربية الأطفال قد يستمر مع الراشد إلى عمر متأخر، وربما قد يبلغ الكهولة وما يزال أولاده يعتمدون عليه. وهذا «الاعتماد الطويل الأجل على الأبوين» من قِبَل الأولاد هو ظاهرة جديدة شديد التعقيد، يستوجب معها على الأبوين أن يطّرد إشرافهما، وأن تتغير مع هذا الاطّراد الأدوار التي يقومان بها بحسب أعمار الأولاد وتطورات نموهم وترقّيهم.

وتتفاوت الحلول التي يمكن أن يلجأ إليها الراشد الناضج بحسب شخصيته والملابسات المختلفة للمواقف التي يتعرّض لها. وعموماً فإن بلوغ هذه السن يجعل صاحبها يميل إلى أن يكون عملياً في تعامله مع مشاكله، وإنْ كان في الوقت نفسه مثالياً في فلسفته، وعفوياً في سلوكه الاجتماعي. وأواسط العمر هي السن البراجماتية من سنوات العمر التي نمرّ بها. بمعنى أننا فيها ندخل مختلف المواقف بذهن مفتوح، ونتعرض لملابساتها ونستعرض الحلول لها عفو الخاطر، ونتحمل مسؤولية ما نفعل، وقد نضطر إلى أن نغيّر من سلوكنا كلما دعت الضرورة.

وفي هذه السن نولي «المال» أهمية خاصة، مع زيادة عدد أفراد الأسرة، وارتفاع تكاليف المعيشة، وتعدّد أوجه الإنفاق، ومن ثم يكون اهتمامنا بزيادة «الدخل» والحرص على البحث عن أعمال إضافية. ومن التحديات التي نواجهها في هذه السن المواءمة بين الرغبة في أن نعمل أكثر والرغبة في أن تكون لنا «إجازاتنا» التي يمكن أن نروّح فيها عن أنفسنا. وكثيراً ما نضحّي بأوقات فراغنا والراحة التي تتوجب لنا

فيها مقابل أن نرفع من مدخولنا. وقد يكون ذلك مصدر مضايقات بين الزوجين من جهة، وبينهما وبين الأولاد من جهة أخرى. ونخطئ إذ نحسب أن المال في شكل هدايا للزوجة أو مصروف أكبر للأولاد قد يعوّضهم عن عدم تواجد الأب بينهم بحجة العمل.

وأواسط العمر هي «سن المسؤولية»، وقد يجد الأب نفسه ممزقاً بين مسؤولياته المتعارضة وخاصة في الأسر التي تعاني من ضوائق مالية. والأبوة سند وعون ودعامة قوية، والأمومة حنان وعطف ومحبة وفهم. وبقدر ما يعطي الانتماء للأسرة من إشباع عاطفي للأبوين بقدر ما تكون رغبتهما في بذل المزيد من الجهد لإسعاد كل الأطراف. والنضج في أواسط العمر يعينهما على تجاوز كل المشاكل، وتقرّب بينهما هذه المشاكل وتكون من عوامل المزيد من التفهّم والمشاركة والتكافل. ومن تحديات هذه السن الرغبة في «استشعار الأمان»، إلا أن السعي من أجل ذلك قد يتسبّب في الكثير من القلق، ولعله من نافلة القول أن نردّد أنه لا سعادة زوجية بدون هذا الأمان، ويطلبه الزوجان، وتلح عليه المرأة خصوصاً، وينشده الأولاد. وأمان سن النضج هو المقدمة لأمان قد يعمل الزوجان نهاراً وليلاً، وتستنفد الضغوط الاقتصادية الكثير من تفكيرهما ووقتهما، وقد تفسد بسببها العلاقات بينهما وخاصة في الطبقات الكادحة والمتوسطة. فأما الأولى فذلك لأنها تعيش في عوز، وأما الثانية فبسبب تطلعاتها، والمستويات الطموحة التي يريد أن يبلغها أفرادها، والمظهرية التي يريدون أن يحافظوا على أنفسهم فيها. وتفرض العلاقات الاقتصادية نوعاً من السلوك الاجتماعي، وتكون لها آدابها الخاصة سواء عند الطبقة العاملة أو البورجوازية. وفي أواسط العمر قد يظهر جمود البعض أو تسامحهم، «والراشد المتزمت» قد يصرّ على سلوكيات معيّنة يحسب أنه بها يحول دون انجراف أسرته مع تيار التغيّرات الاجتماعية والجديد من الآداب والأخلاق، وقد يقول بقدسية مدّعاة للتقاليد. وعكسه «الراشد الناضج» الذي يواكب التغيير والجديد ويسمح به،

ويعيش عصره ولكن دون تبذّل ولا إسفاف ولا تفريط ولا مغالاة، وهو الذي يوازن بين المستحدث من الأفكار والقديم من التقاليد، وعلى هذه الموازنة تعتمد ديمومة الحياة العائلية وتماسك البيت. وتختلف المفاهيم بين الراشدين بحسب الثقافة والطبقة الاجتماعية. وتطبيق هذه الموازنة يتباين في المدينة عنه في الريف، وكلما ساد الجهل، وتدنّت الأحوال المعيشية كلما ساد التعصّب وكثرت المنازعات وندر الفهم، ونحن نعيش فترة من التمزّق بين الحضارة الغربية الوافدة ولها هجمة شرسة، وبين تعاليم الإسلام بمفاهيمها السائدة، ويبدو أننا نعيش حالة من «اللاتوازن الوجداني والانفصام الفكري» تظهر آثارها جلية على الرجال والنساء في بلادنا في أواسط العمر، حتى ليبدو الناس أكبر من أعمارهم. ويصاب الكثيرون في هذه السن بالاكتئاب، وتتراوحهم تقلبات مزاجية، ويظهر عليهم القلق والتوتر، ومن الممكن أن يصابوا بالفصام، ولعله لهذا السبب ينتشر تعاطي المخدرات والخمور، وتعد بلادنا من أكثر العالم إستهلاكاً للمخدرات، ويعاني الناس فيها من اضطرابات الشخصية والكثير من الأعراض العصابية. والناس عموماً في أواسط العمر معرّضون في بلادنا وفي غير بلادنا لمختلف الاضطرابات النفسية، وهذه السن هي التي يكثر فيها المرضى الذين يعالجون بالمصحات النفسية، وعادة ما يبدأ الانهيار النفسي بالشكوى من الأرق والتعب والشرود، وقد تكون هناك أفكار غريبة يشطح إليها الذهن، أو تكون هناك هذاءات من نوع ما، وقد يتعذّر على الراشد أن يتواصل والناس من حوله، سواء في البيت أو في العمل، وقد تفيد المهدئات كعلاج مؤقت أو مساعد، كما قد تفيد الإجازات والسفر، إلا أن العلاج النفسي يصبح ضرورة أحياناً، ومنه العلاج بالتحليل النفسي، أو العلاج بالتنفيس، بمجرد البوح بالمشاكل وطرح المنغصات والمضايقات والتصريح بها، والإفشاء بالمشاعر المختلفة Talking out processes. ومن اللازم أن يكون للراشد «صديق» ينصحه ويُصدقه الرأي ويشير عليه. ويتوجب في كل الحالات أن تسود

العلاقات الزوجية روح المحبة والفهم حتى يتسار الزوجان. و«الإفضاء النفسي» مسألة حيوية في العلاقات الزوجية وللتخفيف من أعباء الحياة. وفي الحالات الشديدة قد يكون من اللازم إستشارة المعالج النفسي.

مراجع:

- Pressey & Kuhlechological Developments through the Life Span.
- Lehman, H.C.: Age and Achievement.

❖ ❖ ❖

- ١١ -
سيكولوجية السلوك

السلوك ومجاله ومحدداته ووراثته. السلوك وأنواعه. السلوك التعبيري. أنماط كريتشمر. دراسات أولبورت وڤيرنون. تأثير الضغوط النفسية على السلوك. دراسة حركات الأيدي عند الشعوب. تعبيرات الوجه. السلوكية، والاضطرابات السلوكية، والعلاج السلوكي.

❖ ❖ ❖

السلوك Behaviour هو الموضوع الذي يدور عليه علم النفس. والسلوك في اللغة سيرة الإنسان ومذهبه واتجاهه، فنقول إن أحد الناس حسن أو سيئ السلوك، ونقصد إلى وصف سيرته أو اتجاهاته أو مذهبه في الحياة. والسلوك في الاصطلاح أمر مختلَف بشأنه، وذلك أن جماعة السلوكيين Behaviorists قالوا إن السلوك هو ما يأتيه الفرد من تصرفات واستجابات واضحة للعيان ويمكن رصدها وقياسها، وقال غيرهم بتعريف أوسع للسلوك حيث ضمّوا إلى ما سبق ما يفكّر فيه الفرد، وما يتحصّل بذهنه من نتائج، وما يذهب إليه خياله وتصوّره، وتلك أمور قد يكون من الصعب ملاحظتها أو التصدّي لها، بالإضافة إلى أن علماء الطب قد رأوا أيضاً أن يوسّعوا من تعريف السلوك، فيضموا إليه العمليات التي تقوم بها الأعصاب وتنقلها إلى مناطق الجسم المختلفة، وتكون سمة لشخص بعينه، تؤثّر على سلوكه الظاهر وإن كانت هي نفسها سلوكاً مخفياً. وكذلك اعتُبرت اللغة سلوكاً فكرياً تنطرح فيها الأفكار فنصوغها كلمات وعبارات

يتفاهم بها الناس. ويبدو أن هذا الخلاف حول مفهوم السلوك قد ترتب على الرغبة في إقامة علم النفس على أساس موضوعي، له شكل وقواعد وقوانين محدّدة. ومن ناحية أخرى كانت هناك رغبة مماثلة في توسيع رقعة علم النفس، بحيث يشمل السلوك: الاستجابات الظاهرة والمخفية كذلك، والأخيرة كما نعلم هي التي تدفع إلى الأولى. والأولى أن نقول بوجهة نظر جامعة، فالسلوك من الاستجابات الكلية التي ينفعل بها الكائن الحيّ جميعه، وإن بدا أنه ينفعل بعضو دون سائر الأعضاء، ومن ثم فإننا إذا تعرّضنا لوصف السلوك الظاهر، عدّدنا أوصافه، فإذا تطرّقنا إلى ما يطرأ على الجسم من تغيّرات مصاحبة للسلوك الظاهر، فإننا قد نتناول العمليات الفسيولوجية الداخلية، أو قد نتناول ما يفكر فيه الشخص أو يتصوّره. ولنضرب لذلك مثلاً بالجائع: فإن ما يعتمل بداخله من عمليات فسيولوجية، تتعلق بالجوع، لِتجعله يستشعر وطأةً له تدفعه إلى أن يحصل على الطعام بطريقة ما من عدّة طرق ينصرف إليها تفكيره، ولكنه يختار أنسبها له ليتصرّف بوحيها محقّقاً لنفسه الشبع.

وتتعلق بالسلوك مجموعة من المصطلحات السيكولوجية، فالسلوك له مجال يتمّ من خلاله، ويُطلق عليه إسم «مجال السلوك Behaviour field»، وقد نقول «حيّز السلوك Behaviour space» أيضاً، ونعني بالمجال أو الحيّز: المكان الذي يحتوي الكائن والمثيرات للسلوك، وربما تكون مثيرات مادية من البيئة أو مثيرات من داخل الكائن نفسه. وتتبادل البيئة والكائن التأثير، وكل كائن لا بد له من مجال أو حيّز مجال، بحيث تكون هناك إمكانات لفعله أو انفعاله فيه. و«محدّدات السلوك B. determinants» هي العوامل التي تتدخل في المجال لتجعل الكائن يسلك سلوكاً معيناً. وربما تكون هذه المحددات وراثية تتعلق بأمور تجعل من الممكن أن يرث الكائن السلوك، وهذه هي الناحية التي تدرسها «وراثة السلوك Behaviour genetics، وموضوع السلوك Behaviour object» هو ما يستهدفه الكائن من سلوكه، و«السلوك التلقائي Spontaneous behaviour» هو العفوي غير

المقصود أو المتعمد. و«ملاحظة السلوك Behaviour observation» هي رصده وقياسه، ويكون ذلك في بيئة طبيعية أو داخل المعمل بإجراءات وأجهزة معيّنة. و«تشكيل السلوك Behaviour shaping» بتوجيه التعلّم وجهة يكتسب بها الكائن مهارات معيّنة تيسر له إتيان سلوك متعلم. و«المخزون السلوكي Behaviour repertoire» هو رصيد الخبرة السلوكية، والإمكانات السلوكية التي يمكن للكائن أن يمارسها، وتكون في استطاعته هذه الممارسة بحكم تكوينه وجنسه وما تعلمه. و«سجل السلوك B. record» هو الوصف التفصيلي لما لوحظ على شخص ما خلال مدّة معيّنة. و«تركيبة السلوك B. setting» هي مشتملات السلوك من حركات وأفعال ترتبط بموضوع أو مكان ما، بحيث إذا غيّرنا الأفراد لم تتغير تركيبة سلوك الأفراد الجدد عن الأفراد القدامى. و«قطعة السلوك B. segment» هي أصغر «وحدة سلوك B. unit» وصفية لاستجابة معيّنة. و«التماثل السلوكي Behavioral homology» هو أن يأتي سلوك كائن مشابهاً لسلوك كائن آخر، من حيث النمط أو ما يدفع إلى السلوك، أو ما يهدف إليه. و«ديناميات السلوك Behaviour dynamics» هي دراسة دوافع السلوك ومسبباته، والنتائج التي تترتب عليه. و«السلوك اللغوي Verbal behaviour» ضرب من السلوك وإنما لا يكون فعلاً وحركة، وإنما ينطرح في عبارات يستجيب بها المرء لمثير من المثيرات. و«السلوك الكُتَلي Molar behaviour» هو السلوك منظوراً إليه ككل، أو كوحدة. وليس كمجموعة من الجزئيات، بعكس «السلوك الجزئي Molecular behaviour»، وهو الخاص بجزئية دون غيرها من الجزئيات المكوّنة للسلوك الكتلي أو الكلي. و«السلوك المتعيّن Intrinsic behaviour» يؤدّيه عضو من الجسم، بعكس «السلوك الخارجي Extrinsic b.» الذي ليس له عضو يقوم به، فالزعامة مثلاً لا يختص بها عضو أو أعضاء، بعكس أن تطرف العين فذلك سلوك العين مجاله. و«السلوك الصريح Explicit b.» نراه رأي العين، بعكس «السلوك المضمر Implicit b.» الذي يدخل كجزء من أجزاء عدّة يتضمنها سلوكٌ

كتلي، أو أنه «سلوك مُغَطّى .Covert b»، وهو أيضاً بخلاف «السلوك المكشوف .Overt b» أو الصريح. و«السلوك المتعلّم .Learned b» نقيض «السلوك المكشوف .Overt b» أو الصريح. و«السلوك المتعلّم .Learned b» نقيض «السلوك الفطري .Innate b»، و«السلوك الجنسي .Sexual b» هو ما يكون له طبيعة جنسية. و«السلوك العُصابي .Neurotic b» عَرَضٌ من أعراض الإصابة بالعُصاب النفسي؛ و«السلوك السوي .Normal b» هو السلوك العادي الذي يأتيه أغلب الناس وليس عليه مأخذ ما؛ و«السلوك الوسواسي Obsessional .b» سلوك عُصابي يتكرر مع المرء نتيجة هواجس معيّنة ويأتيه صاحبه مقسوراً عليه. و«السلوك السلبي .Negative b» يناقض «السلوك الإيجابي .Positive b». و«السلوك الإجرامي .Criminotic b» يصف الفعل الإجرامي الذي يقوم به المجرم. و«السلوك الفوضوي .Chaotic b» ليس لاعتبارات النظام والإعداد والترتيب فيه نصيب. و«السلوك الجمعي .Collective b» يقوم به مجموعة من الناس يتشاركون في التفكير والفعل. و«السلوك كلغة Behaviour-language» هو ما نلجأ إليه من حركات أو إيماءات صامتة تقوم مقام اللغة، وذلك أظهر لدى الأطفال في مراحل العمر الأولى وقبل تعلّم الكلام، حيث قد يبكي الطفل أو يبتسم أو يضحك أو يبدي الضيق أو الانزعاج بأصوات فيها غَناء عن الكلام. و«السلوك العُقْديّ .Normal b» من مصطلحات العلاج السلوكي الجماعي للأطفال، فيُظهر الطفل أسوأ ما عنده من سلوكيات في الجلسات الأولى، ويبدو صخّاباً، وسمي هذا السلوك عُقْدياً من العُقدة – وهي نقطة التقاء مدارين، وهي أيضاً العَجُز، ومنبت الأوراق في الشجر، وفي السلوك هي النقطة التي يبدو فيها المعالج مطيعاً من ناحية ورافضاً متمرداً من ناحية أخرى. و«نُهَيْر السلوك .B. stream» هو استمرار السلوك في مجال معين صادراً لا يتوقف. و«السلوك الأمومي Maternal .b» هو السلوك العاطف الحنون الحادب الذي يميّز الأمهات في رعايتهن للصغار. «والسلوك الإحجامي .Abient b» سلوك اجتنابي، قد يكون به نجاة الكائن الحيّ من أخطار محدقة، ونقيضه «السلوك

الإقدامي .Adient b» الذي به يكون إقبال الكائن على المثير. و«التكامل السلوكي Behavioral integration» هو أن تترابط مجموعة من الأفعال المختلفة والمنفصلة عن بعضها بحيث تصنع سلوكاً كلياً يؤدّي إلى نتيجة واحدة لم تكن لتتحقق لولا اجتماع هذه المسالك عليها. وكل فعل من الأفعال السابقة هو «وحدة سلوكية Behaviour episode» مستقلة لها بدايتها ونهايتها، إلا أنها تصنع مع غيرها من الوحدات سلوكاً كلياً متكاملاً.

و«السلوك التعبيري .Expressive b» هو السلوك الكاشف عن حقائق الشخصية ويتميّز به الشخص، ويُعرف عنه ويكون دليلاً عليه، وقد يكون سلوكاً حركياً، أو لفظياً، أو الاثنين معاً، ومن ذلك الرقص التعبيري، والتمثيل الإيمائي، والتمثيل عموماً، والرسم، وخط اليد، وحركات الدين، والمشية، والأوضاع التعبيرية للجسم كالتي يتّخذها في الغضب مثلاً، وعند الاستعداد والتهيؤ، وما يظهر على الجسم من علامات الانتباه واليقظة أو التعب والتواني والغفلة.

ودراسة السلوك التعبيري تتصل بالتشخيص النفسي، وقد جاءت دراسة رسوم الأطفال الذين يعانون اضطرابات نفسية، متوافقة مع نتائج دراسة شخصياتهم وتحليل ردود أفعالهم على بطاقات رورشاخ، كما ان الدراسات على رسوم الأطفال الأميركيين أثبتت توافقاً في السلوك التعبيري عند العميان.

ويحظى السلوك التعبيري بالاهتمام منذ القدم بالنظر إلى قيمته التشخيصية. وقد نبّه أرسطو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) في كتابه «الشعر Poetics» إلى المعنى الذي يمكن أن ينصرف إليه السلوك التعبيري في الفنون، وقال إن السلوك التعبيري غايته الإظهار الخارجي للدواخل. والفرق بين السلوك العادي والسلوك التعبيري أن السلوك العادي يستهدف عملاً أو فعلاً بصرف النظر عن نتائجه، فأن تتحقق أو لا تتحقق نتيجة له، مسألة مرهونة بالظروف، والنتيجة في السلوك العادي شيء إضافي بالنسبة للفعل، وأما السلوك التعبيري فالفعل فيه ونتيجة الفعل مرتبطان. والسلوك التعبيري محاكاة

للطبيعة، ومعنى أنه محاكاة Imitation أنه يوجِد ما لم تستطع الطبيعة أن توجده على النحو الذي يمكن أن توجده الطبيعة عليه لو أنها أنتجته فعلاً، فالرقص التعبيري مثلاً، أو التمثيل، هو محاكاة للطبيعة، أي أنه يستلهم الموجود منه في الطبيعة ويبدع مثله من غير أن يكون صدى أو نسخة أخرى مكرّرة من الطبيعة.

والسلوك التعبيري قد يكون إظهاراً مباشراً لحالة نفسية، كالفرح، أو الغضب، أو الخوف، وقد يكون سلوكاً تواصلياً غريزياً بأنماط سلوكية وراثية، أو تواصلياً قصدياً بأنماط سلوكية متعارف على معانيها، وقد يكون ظاهرة تنفيس عن توترات إنفعالية، وقد يكون سلوكاً تكيّفياً، بعنى أن صاحبه يصدر به عن رغبة في التكيّف مع البيئة ومتطلباتها، أو أنه سلوكٌ شرطي وكان في الأصل سلوكاً تكيّفياً، كأن يكون تعبيرنا عن رفضنا لحكايات مقززة بأن نظهر التقزز منها بالتعبيرات المتعارف عليها، وهي تعبيرات تأتينا عفوياً في الطفولة ونستجيب بها لما يُقدّم لنا من أطعمة قد لا نتذوقها.

ولعل أبرز الدراسات النفسية للسلوك التعبيري الحركي هي الدراسات في مجال المسرح، والدراسات النفسية الحركية التي يقوم بها علم النفس الرياضي. والحركات المعبّرة التلقائية هي حركات أولية، وأما الحركات التي يكون إظهارها قصداً فهي حركات متعلَّمة ويُطلَق عليها لذلك إسم الحركات التعبيرية الثانوية، وهي تعدّل من الحركات التعبيرية الأولية وتضيف إليها بحسب الثقافة والتربية. وقد ثبت من دراسات أولبورت وفيرنون Allport-Vernon (١٩٦٠) على السلوك التعبيري، أن المهاجرين الوافدين من إيطاليا إلى الولايات المتّحدة تتأثر تعبيراتهم الحركية بالثقافة الأميركية بعض الشيء، ويقل استخدامهم لأيديهم وتعبيرات الوجه عمّا هو عليه الإيطاليون في بلادهم، إلا أن أولادهم الذين ينشأون كليةً في البيئة الأمريكية تقترب تعبيراتهم الحركية كثيراً من التعبيرات الأمريكية العادية. والتعبيرات الحركية قد تصدر مُغالَى فيها، وقد تكون ردود فعل عفوية للمشاركة الاجتماعية أو

للتواصل، وبعضها لا يتضمن تعبيراً حقيقياً عن اتجاهات دافعية، وصدوره ليس إلا من الردود المتعارف عليها من باب التحية أو المجاملة، أو يكون للتمويه والخداع، أو نفاقاً. وبعض التعبيرات يكون رمزياً، وقد تعني الشك أو الاستنكار أو عدم التصديق أو الاستحسان، وهي تعبيرات لها وظائفها اللغوية أو انها تحلّ محل السلوك اللفظي.

ومن التعبيرات الأولية ما يشترك فيه الإنسان مع الحيوان كالصراخ مثلاً، ومنها ما هو إنساني كالضحك، وبعض القرود قد يظهر أنها تضحك إلا أن الإنسان يتميّز بالضحك الصريح. ويأتي الأطفال في الأسابيع الأولى بعد الولادة ردود فعل كالبكاء، وتتقبض عضلات وجوههم ويظهر التوتر على الجسم، ثم يبدأ الابتسام بعد ذلك بقليل. وتلاحظ هذه التعبيرات على الأطفال في ظروف ليس فيها تعلّم، وتخلو من التعزيز الاجتماعي، كما عند العميان أو الحالات التي يصاحب فيها الصمم والعمى. والطفل الأعمى يبتسم برغم أنه لا يرى أحداً يبتسم ولم يتعلم ذلك. وتثبت الدراسات المقارنة تشابه التعبيرات الأولية في كل الثقافات، وصدورها عن الحالات نفسها الدافعة إليها، وتُستَخدم للغايات نفسها، فالضحك مثلاً يعبّر في كل مكان عن الفرح حتى لو كانت له أحياناً معان إضافية، أو كانت هناك أحياناً طرق أخرى للتعبير عنه. ومن الممكن استحداث بعض ردود الفعل التعبيرية كالغضب والخوف والانتباه في الحيوانات، باستثارة المخ الأوسط، وكذلك قد يضحك أو يبتسم أو يبكي الإنسان إذا عانى من تلف بالمخ، أو تعرّض لتنبيه كهربي في منطقة المعاد.

وتثبت الدراسات على أنواع الحركات التعبيرية، انها جميعاً عند الفرد الذي لا يعاني من الاضطراب، تأتي متوافقة ولا تتعارض من حيث المعنى. وجاء تحليل هذه الحركات أيضاً عند أشخاص من أنماط كريتشمر (Kretshmer: Physique and Character - 1971) متوافقاً مع المعروف من حركات هذه الأنماط. كما ان دراسة الأصوات وحدها قد جاءت متفقة مع المعروف عن الشخصيات التي أصدرتها. وأيضاً ثبت توافق الخطوط

اليدوية مع بقية الحركات التعبيرية التي يمكن أن يأتيها أصحاب هذه الخطوط. وثبت من دراسات أولبورت وڤيرنون أن أنماط حركات اليدين والرأس وغيرهما هي سمات ثابتة في الشخصية، وأن العمل نفسه الذي يمكن أن تقوم به مجموعة من العضلات عند شخص ما يتم دائماً بالحركات نفسها كلما تكرر هذا العمل، وأن الأعمال المختلفة التي يمكن أن تقوم بها مجموعات عضلية مختلفة تتم دائماً بالحركات نفسها من مجموعات العضلات نفسها، وهو ما يثبت أن هناك «وحدة في الشخصية» تنعكس على التعبيرات الحركية، وانه لهذا السبب فإن الأفعال وعادات التعبير تُظهر انسجاماً وتوافقاً بينها. وقد اكتشف أولبورت وڤيرنون ان هناك بدلاً من عامل سرعة واحد، ثلاثة عوامل مستقلة: للرسم، وللتعبير اللفظي، وللحركات الإيقاعية، وتبين من ثم أنه لا وجود لإيقاع نفسي واحد، وأن بعض الأفراد يعبّرون عن أنفسهم بتوكيد أكبر من الآخرين نتيجة ما يسميانه «الضغط النفسي Psychic pressure»، وأن البعض يميلون للاتساع في الحركات بحيث تشغل مساحات أكبر من حيث المشية أو خط اليد أو المساحات التي تدور فيها التعبيرات اليدوية، والبعض متحرر ومندفع في حركاته، ومع ذلك فهناك درجات من التوافق الحركي كما ان هناك درجات من وحدة الشخصية، وطالما أن الشخصية منتظمة فإن حركاتها متسقة مع بعضها، وانفراط عقد الشخصية يكون به تناقض الحركات فيما بينها.

وقد ثبت أن وصف الأفراد من أصواتهم فقط لا يختلف عن وصفهم مما يظهر من سلوك عياني في حضورهم. وكذلك فإن توصيف الشخصية من حركات الأيدي فقط والأوضاع التي تتخذها، هو توصيف صادق للشخصية. والمعروف أن المرضى بالفُصام الكتاتوني يستخدمون أيديهم كثيراً للتعبير عن توهماتهم، فقد يبسط المريض أصابع يديه العشرة ويتثبت على ذلك تعبيراً عن الوصايا العشر (هذا هو تفسير أحدهم وليس تفسيرنا، لأن الثقافات تختلف في ذلك)، وقد يضم يديه بشدّة رمزاً للقوة. و«دراسة حركات

الأيدي» عند الشعوب تؤكّد الخصائص النفسية المعروفة عن الشخصية القومية، فالشعب الإيطالي مثلاً يغالي في استخدام الأيدي، وفي التأكيد بها على ما يقوله الأفراد، واليهود عموماً مقتصدون في استخدام الأيدي ويستعملونها كثيراً في التعداد، كأن يقول اليهودي أولاً وثانياً وثالثاً إلخ. فيعبّر بأصابعه عن ذلك. و«المشية» عند كل شخص من خصوصياته، وترتبط بنبضه وسرعة تنفسه، ويتعرف الكثيرون على الأفراد المختلفين من رؤية مشيتهم وحدها أو سماع صوت المشية. وفي إحدى الدراسات كانت تُقرَأ القصص ويُطلَب من المفحوصين إعادة سردها، وقد تبين أن «أسلوب سرد القصص» يتأثر بالشخصية ويتوافق مع الخصائص النفسية الأخرى التي تظهرها مختلف التعبيرات الحركية أو الصوتية. وفي دراسة أخرى على «تعبيرات الوجه» تبين أن الجزء السفلي منه أكثر تعبيراً من الجزء العلوي، وأن الجزء الأيمن أقوى تعبيراً من الجزء الأيسر. وكذلك تبين من دراسة الصور للأعمار المختلفة أن تعبيرات الوجه لا تختلف في سن الرابعة عنها في سن الرابعة والثلاثين. وهناك ما يثبت أن الإنسان يتميز عن الحيوان بعضلات في الوجه، خاصة بمنطقة الحاجبين، مهمتها التعبير عن العواطف والانفعالات الرهيفة، وفيما عدا ذلك فقد يتشابه الإنسان والحيوان في الكثير من تعبيرات الوجه، كالتكشير، وإظهار الأنياب، وفغر الفم، واتساع العينين عند المفاجأة. وكثير من الناس قد يسيئون تفسير صور الوجه وتعبيراته، ودراسة الشخصية من تعبيرات الوجه تصيب في ٢٥ أو ٣٠٪ من الحالات، ولا تفيد دراسة الوجه إلا إذا اقترنت بدراسة التعبيرات الأخرى المصاحبة لمناطق الجسم الأخرى، كاليدين، وحركة الأقدام، والأوضاع التي يمكن أن يتخذها جسم الشخص.

و«السلوكية Behaviorism» اصطلاح قال به لأول مرة جون برودس واطسون John Broadus Watson سنة ١٩١٣، وهي اتجاه في التفكير، ومدرسة في علم النفس، يشار إليها أحياناً باسم المدرسة السلوكية Behaviour school، تقوم على

الدعوة إلى قصر البحوث النفسية على الظواهر الموضوعية للسلوك التي في الإمكان ملاحظتها وإخضاعها لمناهج البحوث العلمية الطبيعية. والسلوكية كحركة علمية من الحركات التي اهتمت بدراسة ما توصل إليه الاتجاه الموضوعي في علم النفس، وهو الاتجاه الذي يقصد إلى إنشاء علم نفس موضوعي، وكانت في زمنها تعتبر ثورة على المذهبين الوظيفي Functionalism والاستبطاني Introspectionism، والأول يُعنى بدراسة السلوك من حيث وظيفته أو نفعه، والثاني يدرسه من حيث عملياته الشعورية في العقل. وكان واطسون يقول بوجهة نظر تجعل العلم مساوٍ لكل ما هو مادي وميكانيكي وفيزيائي، وقال بأن كل ما يُذكر عنه أنه نفسي فهو غير علمي ومن الظواهر فوق طبيعية، ومن ثم فقد تناول قضايا الشعور بالنقد الشديد، وانتقد أية نظرية تُدخِل في اعتبارات بحوثها النواحي الذاتية والعواطف والإرادة وأية مصطلحات أخرى لا يمكن إخضاعها للملاحظة والقياس. وقال واطسون إن الاتجاه العلمي الحقيقي في علم النفس: هو الذي يقتصر على البحث في السلوك بوصفه استجابة عضلية وغُدِّية، وأما الشعور والحالات النفسية فتلك أمور ليس مجالها العلم كعلم. ووجهة النظر هذه المتشدّدة قد يُطلَق عليها أحياناً إسم «السلوكية الراديكالية Radical behaviorism»، تمييزاً لها عن اتجاهات سلوكية أخرى أقل تشدداً وبها اختلافات هامة عن سلوكية واطسون، ومن ذلك سلوكية سكينر Skinner، حيث يتوجه الاهتمام فيها إلى تأثير السلوك على البيئة وليس على السلوك نفسه كما فعل واطسون ذاهباً في ذلك مذهب باڤلوف Pavlov (١٨٤٩ - ١٩٣٦) الروسي. و«سلوكية باڤلوف» - وهي نسخة أخرى من المدرسة السلوكية، ويقال لها «السلوكية الروسية» في مقابل «السلوكية الأمريكية» عند واطسون وسكينر وغيرهما - تقوم على دراسة السلوك باعتباره فعلاً شرطياً، وتدرسه من ناحيته الفسيولوجية.

وكانت هناك تخريجات أخرى بخلاف ما سبق حول مناهج السلوكية، ومن ذلك الاتجاه السلوكي عند هل Hull (١٨٨٤-

١٩٥٢)، والاتجاه الغرضي عند تولمان Tolman (١٨٨٦ - ١٩٥٩). وبينما نجد السلوكية الأمريكية والروسية، كلاهما اتجاهان عمليان واهتمامهما بالسلوكية كمنهج في البحث، فإن «السلوكية الأوروبية» إتخذت شكل التنظير والفلسفة عند جيلبرت رايل مثلاً.

ويعرّف واطسون السلوك باعتباره حركة تُؤدَّى في الزمان والمكان، من ثم يصبح من الممكن قياسه باعتبار أن له كَمًّا، وكل كَمّ يقاس، والكمّ مجال العلوم الطبيعية.

ويتوجّه واطسون باهتمامه إلى نشاطات الكائن الحيّ باعتبارها الكليّ، إلا أنه انصرف إلى البحث في نواح معيّنة تتصل بالسلوك والعلاقة بين المثير والاستجابة، وعنده أن كل سلوك إستجابة لموقف أو لإثارة، فالطفل مثلاً تتربّى لديه اتجاهات نحو المحيطين به، وأساس هذه الاتجاهات المواقف الكثيرة التي كان ينفعل لها باستجابات تكوّنت منها هذه الاتجاهات. ويمكن ردّ العادات إلى المثير - الاستجابة، وكذلك العواطف، والتفكير. فلو حلّلنا أية عادة فسننتهي حتماً إلى أنها كانت استجابة لمثير. ومن ثم فإننا لو استطعنا أن نَخْلُص فعلاً إلى المثير الأصلي الذي ترتبت عليه الاستجابة، فإننا باستحداثه قد نستحدث أيضاً الاستجابة المتوقعة، بمعنى أننا نستطيع أن نتحكم في السلوك بتحكمنا في الاستجابات.

ويرى واطسون أن الكلب الذي يتحلّب ريقه لرؤية الطعام، قد يتحلّب ريقه أيضاً بظهور مثير شرطي Conditioned stimulus يترافق مع ظهور المثير الأصلي، كأن يكون جرساً يدق، فإذا دقّ الجرس سنجد أن الكلب يستجيب حتى ولو لم يظهر الطعام، وهو ما يسميه التعلم بالإشراط Learning by conditioning، ويُرَدّ إليه أغلب ما نتعلمه، فالطفل يتعلم أن يحبّ أمه بالإشراط، لأن وجه الأم يترافق وأن يُطعَم من الثدي، فيمتد حبّه للثدي المُطعِم إلى الأم، ويتعلم أن يستجيب لمداعباتها حتى وإن لم يكن هناك إطعام.

والطفل «ألبرت Albert» الذي أجرى عليه واطسون تجاربه في الخوف، تعلّم أن يخاف من أي شيء له فِراء، نتيجة ترافق

هذا الشيء ومثيرات يستجيب لها بالخوف. ولذلك كان واطسون يقول إنه يستطيع أن يعدّل من السلوك كيفما يشاء، ويصنع من الاستجابات والاتجاهات في الأطفال ما يريد، بحيث يتحكم في تكوين الطفل، ومن ثم تكوين الراشد الذي سيكونه من بعد!

ولقد كان اهتمام واطسون بالنواحي العلمية بحيث أنه أراد أن ينشّئ الناس أولادهم على العلم دون العواطف! ولقد قال قولته المشهورة «إن حب الأم هو أقوى ما يمكن أن يُعطَى للطفل من السموم!»، فظن الناس أن التدليل والعطف والحدب يفسد الأولاد، فكانت النتيجة أنهم أسرعوا إلى تعهد أطفالهم بالرضاعة الاصطناعية حتى يقللوا من أخطار تأثير الأم عليهم. وحتى العواطف قال عنها واطسون إنها يمكن أن تُرَدّ إلى الاستجابات الطبيعية الحشوية! فالحب مثلاً هو أصلاً إستجابة جوع أو جنس؛ وأما التفكير فيختلف عن العواطف، وأصل التفكير على ذلك ليس حشوياً مثل العواطف. وكل صور التفكير عبارة عن لغة ضمنية Implict language يمكن ردّها إلى حركات عضلية تُكتَسب بالتعلّم الإشراطي، والدليل على ذلك أنه بالإمكان تسجيل حركة الحنجرة للشخص الذي ينهمك تفكيره في حلّ مسألة رياضية، وأيضاً فإنه أمكن رصد حركة الأصابع عند المصابين بالصمم والبكم وهم يحلمون أو يفكّرون.

وكان واطسون من القائلين بتأثير البيئة، ومن دعاتها المتحمسين، وتجاهل أثر الوراثة ولم يتعرض له. وكان يرى أن الإنسان والحيوان سيّان إزاء الطبيعة والبيئة، وما يجري على أيهما يمكن أن يجري على الآخر، ولذلك خصّص الكثير من وقته لدراسة أثر البيئة على الحيوان ليستخلص من ذلك قوانين يمكن تطبيقها على الإنسان. وهناك تجارب لا يمكن إجراؤها على الإنسان ويمكن الاستفادة من إجرائها على الحيوان وتعميمها على الإنسان من بعد، بعد أن نضع في اعتبارنا تعقّد التركيب الإنساني. ونتيجة هذه النظرة أن المدرسة السلوكية كانت فيها التجارب الكثيرة على الحيوانات وخاصة في مجالات علم النفسي الفسيولوجي والسلوك المتعلّم.

وهناك أوجه نقد عديدة للمدرسة السلوكية: فدعواها العريضة أنها تقوم على «الموضوعية» يمكن دحضه بأن الموضوع الواحد قد يختلف رصده من ملاحظ لآخر، «والذاتية» موجودة طالما كان هناك «ملاحظ». وكان اهتمام السلوكية «بالعالم المادي» دون «النفس» باعتبار أن القول بالنفس يردّنا إلى القول بالروح في الديانات وغيرها، فأسقطت «الدراسات النفسية»، وكان الأولى بها أن تُدرِج الظواهر النفسية ضمن دراساتها العلمية. ولم توفق السلوكية عندما ردّت «العواطف» إلى أصول من الاستجابات الحشوية، وردّت «التفكير» إلى الحركات بالحنجرة، وذلك شيء قد تبدو معه الأقوال أو الآراء التي ذهبت إليها أقوالاً أو آراء علمية، أو لها وجه علمي، وهو ما يمجّه الذوق ويرفضه العقل. وجانَبَ السلوكية الصواب إذ ردّت عمليات التعلّم المعقّدة جداً إلى شيء بسيط غاية البساطة هو «العلاقة بين المثير والاستجابة». و«الإنسان ليس هو هذا الكائن الآلي» الذي يمكن التحكّم في تعلّمه واستجاباته، بحيث إذا عَلِمنا بالمثير فيمكن أن نستحدثه لنستحدث الاستجابة، فالإنسان له «إرادة» ويترسّم «غايات» معيّنة لنفسه، ولا يمكن أن يخضع هذا الخضوع الآلي لما يُفعَل به، بالإضافة إلى أن السلوكيين - ومنهم واطسون نفسه - يستبعدون فكرة «الشعور»، بما يفيد أن الإنسان لا يعي ما يفعله، وذلك أمر غاية السُخف! ويذهب بعض السلوكيين إلى تأجيل البحث في الشعور حالياً مما يجعل مذهبهم مذهباً ناقصاً، طالما أن «النشاط الشعوري» هو حقيقة لا تُنكر من حقائق الحياة. ورغم كل هذه المثالب في السلوكية إلا أن أفضالها على الفكر السيكولوجي لا تُجحَد، فقد أسهب السلوكيون في التجارب وجعلوا من علم النفس علماً موضوعياً وتطبيقياً، ولفتوا الانتباه إلى مجال لم يلتفت إليه علماء النفس من قبل، ألا وهو الناحية التطبيقية للمعرفة العلمية بالسلوك البشري، بهدف حلّ الكثير من المشاكل الحقيقية بدلاً من الانصراف بالكلية إلى دراسة أحوال الشعور دون غيرها.

و«الاضطرابات السلوكية Behaviour disorders» إصطلاح فضفاض أدّعى إلى إدراجه ضمن الاضطرابات الطبية النفسية، ويُقصَد بها الانحرافات السلوكية عند الجانحين المراهقين، كالهروب من المدرسة، والشجار، والسرقة، والتزييف، وإشعال الحرائق، وإتلاف الممتلكات، وتعاطي المخدرات والمشروبات الكحولية، وارتكاب الجرائم الجنسية، والصعلكة، والقوادة، وقد نُلحِق بها العادات السيئة عند الأطفال كقضم الأظافر، والبوال، والاستمناء باليد، ومصّ الإبهام، ونوبات الغضب وسورته التي لا مبرر لها. وغالباً ما تعني الاضطرابات السلوكية كل الأفعال التي يأتيها الشباب ولا يرضى عنها المجتمع وتحاربها الشُرطة، ويمكن أن توصف بأنها أفعال أو أنشطة مندفعة، ومتهورة، ومعادية للمجتمع. وقد تتضمن اضطرابات السلوك بعض الأفعال التي تُعدّ أعراضاً عُصابية مثل اللوازم، والتهتهة، والتجوال الليلي، والنشاط الزائد، رغم أنه من شروط الفعل ليكون اضطراباً سلوكياً أنه لا يصدر عن قلق عُصابي أو سوء فهم ذُهاني للواقع.

والعلاج السلوكي Behaviour therapy نوع من العلاج النفسي يقوم على النظرية السلوكية، بمعنى أن المشاكل الانفعالية لا يصاب بها البعض إلا لأنهم قد فشلوا في تعلّم استجابات ذات جدوى، أو لأنهم اكتسبوا أنماطاً من السلوك الخاطئ، ومن ثم فإنه لكي نصلح حالهم ينبغي أن يخضعوا لعملية تعلّم جديدة من شأنها فكّ الارتباط بينهم وبين الاستجابات الخاطئة أو الفاشلة وتعلّم استجابات جديدة مجدية وفعّالة وناجحة، ولهذا السبب فقد يُفضَّل أن يُطلَق إسم «العلاج بمقتضى نظرية التعلم Learning theory therapy» على إسم «العلاج السلوكي».

وليست ثمة حاجة في هذا النوع من العلاج النفسي لكشف المخبوء في اللاشعور، أو لزيادة استبصار المريض بحالته ومشاكله وأسبابها، أو للتوجه بالتغيير لشخصية المريض تغييراً يتناولها من أساسها، وإنما يهدف العلاج إلى مراجعة الأنماط الحالية لسلوك المريض، والعمل على أن يتخلص من

السيئ منها - وهو عادةً ما يشكّل أعراض الاضطراب، وبتعبير أحد السلوكيين «لو استطعنا أن نعاون المريض على التخلص من الأعراض فإننا بذلك نقضي على العُصاب» (Eysenck ١٩٦٠).

والعلاج السلوكي له عدّة طرق، ومن ذلك طريقة الإشراط التقليدي البسيط Simple classical conditioning، وتُستخدم لتغيير بعض أنماط السلوك دون البعض الآخر، ومنها البُوال، بأن ننيم الطفل البوّال على حشيّة موصلة كهربائياً بحيث يُدَق جرس إذا بدأ يبول فيوقَظ، وبتكرار ذلك لعدد من الليالي يعتاد على الاستيقاظ كلما امتلأت مثانته واحتاج أن يبول، فإذا تحقّق هذا التعديل لم تعد ثمة حاجة أن ينام على تلك الحشية واستقامت حياته.

ومن طرق العلاج السلوكي أيضاً طريقة الإشراط الإجرائي Operant conditioning، واستُخدمت مع بعض المرضى بالفُصام الذين يُضرِبون عن الطعام رافضين أن يتناولوه وحدهم، ويحتاج الأمر لتغذيتهم أن تقوم به ممرضة، وبعض من دأبهم أن يزعموا أن الطعام مسموم، أو أن الله قد أمرهم أن يصوموا، وبعضهم كان شديد الانطواء على نفسه ويعتزل الجميع ولا يفعل شيئاً البتة. وتقوم طريقة العلاج على اشتراط بعض الإجراءات ليمكن للمريض أن يتناول طعامه، فمثلاً لا يُدفع المرضى إلى المطعم، بل يُتركون أحراراً يدخلون إليه أو لا يدخلون، ويستمر الباب مفتوحاً مدّة ثلاثين دقيقة يُغلَق بعدها ويُترك المرضى بدون طعام، فإذا حان وقت الوجبة التالية أعلن أن الباب سيظل مفتوحاً لمدّة عشرين دقيقة فقط، وفي اليوم التالي يُعلن أن الباب سيظل مفتوحاً لمدة خمس عشرة دقيقة، وفي الوجبة التالية يُعلن أنه سيظل مفتوحاً لمدة عشر دقائق، وهكذا إلى أن لا يُفتَح الباب إلا لمدة خمس دقائق فقط. ونجحت التجربة، وفي خلال ثلاثة أيام لا غير كان كل المرضى قد واظبوا على اللحاق بالمطعم في الموعد المحدّد دون إبطاء ودون معاونة من أحد، بل وأكثر من ذلك أمكن للمشرفين على التجربة إشتراط بعض الإجراءات يقوم المرضى بتنفيذها ليمكن لهم أن يتناولوا وجباتهم، كأن يُشترط أن يكون الدخول إلى المطعم

بثياب معيّنة، أو أن يضع المريض قطعة نقدية في صندوق حتى يتسنّى له الدخول، ويُحال بين المريض والدخول إذا لم يرضخ لما يُطلب منه.

وفي العلاج بالإشراط المنفّر Aversion conditioning يمكن تغيير السلوك غير المرغوب بربطه بعقاب من نوع ما، فمثلاً قد نصبغ أظافر المريض بقضم الأظافر أو بمص الإبهام بالمُرّ، بحيث كلما رغب في مص إصبعه أو قضم أظافره أصابه النفور بتأثير المر.

وفي العلاج بالانطفاء Extinction therapy إذا لم تعزّز الاستجابة فإن المريض يقل إتيانه لها إلى أن تزول منه بالكلية، أي تنطفئ مع عدم تعزيزها باستمرار.

وفي طريقة الكفّ المتبادل Reciprocal inhibition يكون علاج الاستجابة غير المرغوب فيها باستثارة المشَاهد التي تستحدثها، ثم تعليم المريض أن يقطع الاستجابة غير المرغوب فيها باستجابة أخرى كالاسترخاء مثلاً، فمع تكرار التجربة تَكُفُ كلّ من الاستجابتين وتزولان، فمثلاً في علاج المخاوف يُسأل المريض عما يخيفه، كأن يكون مشهد جنازة، ثم يبدأ المعالج فيصف له المشهد ويطلب منه رفع يده إلى أعلى عندما يبدأ شعوره بالحزن والقلق والخوف، ويكرر ذلك عدّة مرات إلى أن تصبح المسألة عادية ويتلاشى الخوف.

وفي العلاج بالانعكاس الشرطي Conditioned reflex therapy يستحث المعالج المريض على أن يعبّر عن انفعالاته باليدين والوجه والكلام، ولا يُخفي أو يكبت شيئاً مما يشعر، باعتبار أن الصحة الانفعالية تكون من خلال التعبير التلقائي والسلوك بعفوية، ومن ثم يحاول المعالج أن يشرط أو يهيئ مريضه ليتصرف بناءً على ما يشعر به، ويظهر ذلك على وجهه (الكلام بالوجه)، أو بأن يعارضه صراحة وبصوت جهير بأن يقول متعمداً «أنا... وأنا... وأنا» دون تردّد، وأن يتقبل مديح الآخرين له ويشكرهم عليه ويبادلهم المديح، وأن يتعلم أن يعيش في الحاضر وفي المكان نفسه بدلاً من أن يفكّر ويخطّط لمستقبل ولمكان آخر.

ويبدو أن تطبيق العلاج السلوكي يزيد باستمرار وتتنوع طرقه بتنوع الاضطرابات التي يتصدّى لعلاجها. وتُعالج به حالياً الكثير من العادات السيئة كاللوازم، وقضم الأظافر، ومصّ الإبهام، والتدخين والتهتهة والكثير من اضطرابات الشخصية، كاللواط، والتشبّه، والفيتيشية، والاستعراء، والإدمان الكحولي، وإدمان المخدرات، وبعض الاستجابات العُصابية مثل التجوال الليلي، والعمى الهستيري، والفوبيا، والبرود الجنسي عند النساء، وعُقال الكاتب، وأيضاً يعالج به الضغط العصبي، والقرحة الإثني عشرية، والربو الشعبي.

وأحياناً يقال للعلاج السلوكي إنه «تعديل السلوك Behaviour modification». وقد يقال للشخص أو للطفل الذي يلزم تعديل سلوكه أنه مشكلة سلوكية Behaviour problem ، أي أن سلوكه مُشكل. والطب السلوكي Behaviour medicine فرع جديد نوعاً ما من الطب يقوم على بحوث ونظريات العلوم الاجتماعية، ويعالج الأشخاص المُشكلين علاجاً سلوكياً كالذي أسلفنا القول فيه. وأما «العلم السلوكي Behaviour science» فهو الاسم البديل للعلم الاجتماعي ويطلق على أي من العلوم الاجتماعية، وهي: علم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، وعلم الأخلاق البيئية Ethologyونقصد به دراسة سلوك الكائنات في بيئاتها الطبيعية لملاحظة العلاقة بين تركيبها الوراثي وظروف البيئة وأثرها على السلوك. ومن ذلك تأثير الازدحام على السلوك، والاختلاف بين الكائنات في ذلك. ويطلق البعض إسم «البؤرة السلوكية Behavioral sink» على المنطقة المزدحمة بالسكان من أي نوع من الكائنات، حيث يشذّ السلوك ويضطرب مع الزحام، وكأن المنطقة المزدحمة بمثابة بؤرة فساد. وكانت البحوث على ذلك على الحيوانات وخاصة القوارض في الأقفاص، غير أن بعض العلماء يرى في تطبيق نتائج هذه البحوث على الإنسان مغالاة قد تكون مرفوضة لهذا السبب.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Watson: behaviorism.
- Watson: Psychology as a Behaviorist Views it.
- Watson: Psychology from the Standpoint of a Behaviorist.
- Darwin: The Expressions of the Emotions in Man and Animals.
- Allport & Vernon: Studies in Expressive Movement.
- Skinner, B.F.: The Behaviour of Organisms.
- Hull, C.L.: Principles of Behaviour.
- Yates, A.: Behaviour Therapy.
- Teasdale, J.: Aversion Therapy and the Behaviour Disorders.

❖ ❖ ❖

- ١٢ -
سيكولوجية العبقرية

العبقرية واختبارات الذكاء والشخصية. ظاهرة العالِم الأبله. بحوث جالتون وتيرمان. العبقرية عند الذكور والإناث. علاقة العبقرية بالاضطرابات العقلية والنفسية...

❖ ❖ ❖

العبقرية Genius، قيل: نسبةً إلى عَبْقَر وهو السيد الذي ليس فوقه أحد، ويقال عبقري لكل من يُتعجَّب مِن كماله وقوته وحذقه. واللفظة الأجنبية لاتينية الأصل، لاسم جني Geni العربية، والعبقري هو الحاذق كالجن، وعَبْقَر في العربية قومٌ من الجن. والعبقرية نبوغ في ناحية من النواحي الإبداعية، والعبقري يمكن أن يكون مخترعاً، أو مؤلفاً، أو منظّراً، أو سياسياً، أو عسكرياً، يأتي بجديد ويغيّر من القديم. والعبقرية لها بصماتها في الفنون والعلوم والآداب، وفي التجارة والإدارة. ومخايل العبقرة تظهر في تصرفات العبقري منذ الطفولة، وقيل إن «سن التميّز» هي الرابعة أو الخامسة، وفي هذه السن يلفت النظر إلى «الطفل الموهوب Gifted child» حصيلته اللغوية، وتفوّقه في النطق، وسعة معلوماته، ونشاطه الفكري، وحركاته الكثيرة، وممارساته التي يسبق بها أقرانه في الرسم، أو الموسيقى، أو الحساب. وقد يقال للطفل أنه «عبقري»، كما قد يقال له أيضاً إنه «طفل متفوق Superior child»، و«طفل معجزة Prodigy»، و«طفل ذكي

Bright child». ولقد قيل إن الكثيرين من العباقرة على العكس عُرِف عنهم تخلّفهم الدراسي وغباؤهم، ومن ذلك أن الأكويني Aquinas (١٢٢٤ - ١٢٧٤م) - الفيلسوف الكبير - كان يُطلَق عليه إسم الثور الغبي Dull ox، وأن إينشتاين Einstein (١٨٧٩ - ١٩٥٥) - عالم النسبية الكبير - لم يبرز كطالب في المراحل الباكرة من عمره، إلا أنه من الصعب التحقّق من صدق هذه الروايات، كما ان المنطقي أن تكون طفولة العبقري متوافقة مع رجولته، وأن يكون تحصيله العلمي وريادته الإبداعية قد بدأهما مبكراً عن غيره.

والعبقرية يمكن رصدها وقياسها باختبارات الذكاء واختبارات الشخصية، إلا أن ذلك يكون من باب التقدير وليس التحديد. فالعبقرية ليست مجرد ذكاء، وجوانب العبقرية التي يمكن أن تكون لشخصية العبقري أكثر من أن تقاس تحديداً، واصطلاح القياس بالمعنى الذي يمكن أن ينصرف إليه في علم النفس يبدو كما لو كان لا ينطبق على العبقرية.

و«العبقرية بالإمكان Potential genius» تكون بالعبقري إمكانات تُظهرها تنشئته، والبيئة التي تتعهده برعايتها، وشخصيته التي من صفاتها الدأب، والمثابرة، وحب المعرفة والتعلم، واستطلاع الأمور واتخاذ القرارات، وحلّ المشاكل. واصطلاح «العبقرية بالإمكان» أو «العبقري بالإمكان» قال به لويس تيرمان Terman (١٨٧٧ - ١٩٥٦) نتيجة بحوث ودراسات لأحوال الأطفال من أصحاب الذكاء العالي والتحصيل المشهود، وهو يذكر أنه من بين كل مائتي طفل هناك طفل واحد له الإمكانات التي يحتمل معها أن يكون عبقرياً، وأن يحقق بها ما لم يحقّقه غيره من أقرانه العاديين أو حتى الأذكياء. ويذهب تيرمان إلى أن نسبة ذكاء العبقري تبدأ من ١٤٠، وذلك ما لم يوافقه عليه علماء وجّهوا لبحوثه النقد، باعتبار أنها نسبة متدنيّة، كما ان تيرمان إقتصر في تحديد العبقرية المحتملة على الذكاء وحده. والصحيح أن الطفل الذي لديه إمكانات العبقري يستطيع أن يبزّ أقرانه في كل شيء، ويتميّز بمجال معيّن، أو قدرة خاصة يتفوق بها في مجالها على الجميع، كأن يمهر في الحساب، أو يستطيع الرسم باتقان، أو يعزف

كالراشــديــن. وهــو ســريــع الإدراك والملاحظة، وذاكرته الحافظة لها قدرة استيعاب هائلة. وقد يقال إن ظاهرة العالم الأبله Idiot savant تدحض ما قيل عن شرط الذكاء العالي للعبقري، وهذه الظاهرة قد روّج لها بعض العلماء في إنجلترا وفرنسا خصوصاً. وقيل إن الأبله الذي تقل نسبة ذكائه عن ٥٠ قد يأتي من الخوارق ما يذهل العارفين، فقد يستطيع الجمع أو الطرح لأرقام كبيرة في سرعة مبهرة، وقد يتذكر العشرات من الكلمات أو المحفوظات ويرددها بغير خطأ، إلا أن ذلك كما قيل في مجال واحد، وهو في غير هذا المجال الأبله الذي لا يدري من أمر نفسه الكثير. ومع ذلك فربما كان البَلَه في هذا الطفل نتيجة فصام يؤثر في شخصيته، إلا أن قدراته الذهنية تبقى على حالها، أو أن البله به يأتيه وراثياً منذ الميلاد، أو يتسبب عن أذى يلحق الجنين وهو بعد في الرحم، أو يلحقه أثناء الولادة وتتعطل به قدراته إلا هذه القدرة دون غيرها التي يُظهر فيها تفوقاً، ورغم ذلك فظاهرة العالم الأبله قد تكون فردية علمية أذاعها البعض دون سند من الواقع.

وهناك من الشواهد على أن العبقرية لا تظهر إلا في العائلات الموهوبة، وان ظهور أحد أفرادها كعبقري يزيد من احتمالات أن يظهر فرد آخر منها، وثالث ورابع كعباقرة. ولقد أجرى فرانسيس جالتون Galton (١٨٢٢ - ١٩١١) بحثاً إحصائياً في العائلات البريطانية التي خرج منها علماء وتبين له أن العائلات التي تتميز بالتفوق في التحصيل العلمي وتُعقد لها الريادة فيه هي عائلات بعينها، وأن تاريخها حافل بالأفراد المتميزين في كافة المناشط الفكرية، مما يذكر أن جالتون نفسه كان قريباً لداروين شديد القرابة، وكأن ظهورهما معاً في التاريخ نفسه تقريباً لدليل على صدق حدسه العلم، وفي القرآن عندنا نحن المسلمين ما يصادق على مقالته في الآية: ﴿ذُرِّيَّة بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران - ٣٤). وذهب هافلوك إليس في بحثه المشابه إلى تأييد جالتون على نظريته، وقال إن من المحتمل وجود ميكانيزمات وراثية تنقل الاستعدادات من جيل إلى جيل في

الأسرة الواحدة، وذلك ما ذهب إليه تيرمان أيضاً في كتابه «دراسات جينية في العبقرية Genetic Studies of Genius» (١٩٢٦).

ويكاد ينعقد إجماع الدارسين والمنظّرين على أن العبقرية نتاج الوراثة والبيئة معاً، فالاستعدادات الموروثة لا بد أن تتسلمها بيئة مواتية تشجع على التحصيل، وتنمّي المواهب وتتيح لها فرص التفتح، وإلا فمصير هذه الاستعدادات إلى الذبول والاضمحلال. وحتى مع وجود المورثات للعبقرية فإن ميكانيزم الوراثة لا يمكن أن يعمل عمله إلا في شروط معيّنة وبيئة رحمية واجتماعية صالحة، وبغرض تأمين ذلك كله فلا يمكن أن نأمن عامل الصدفة، سواء أثناء الحمل، أو بعد ذلك خلال عملية النمو. وأما عامل البيئة فالتاريخ يقدّم الشواهد على أن بعض البلاد كان لها في فترات من التاريخ تأثيرها الحاسم في إظهار عبقرية من كان لهم باع طويل في المعارف والعلوم والفنون، وكانت أثينا في المدة من سنة ٥٠٠ ق.م، وحتى سنة ٢٠٠ ق.م، وكذلك فلورنسا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، مثلين واضحين لما يمكن أن تقدمه البيئة من فرص للتعبير الخلاّق وتطوير المواهب. وكذلك كانت بغداد في عصر العباسيين، والقاهرة في زمن الفاطميين. ومن المحتمل أن هناك المئات من العباقرة يولدون إلا أن عبقرياتهم يُضيّق عليها، وتتضافر عليها عوامل الانحراف بها أو إفسادها وتضليلها، أو ذبولها وأفولها، حتى لتبدو الأمة وكأنها قد صارت عقيماً.

والعبقرية أظهر بين الذكور عنها بين الإناث، وقيل إنه في مقابل «كل أنثى عبقرية» هناك «ألف عبقري ذكر»، وتختلف هذه النسبة من نشاط إلى نشاط، ففي مجال الموسيقى والشعر والرياضيات، وفي الهندسة والعلوم الطبية والبحوث اللغوية مثلاً لا يكاد يوجد عباقرة من النساء، وفي مجال الأدب هناك متميزات من النساء ولا توجد عبقريات، وقيل: ربما كان السبب أن هناك فرصاً متاحة للتعبير ولتطوير المواهب بالنسبة للذكور عنها بالنسبة للإناث، وكذلك فإن الفروق البيولوجية

بين الجنسين في صالح الذكور بالإضافة إلى تعطّل الإناث بأشغالهن، بالزواج والحمل وتربية الأطفال وأعمال البيت وهن في سن العطاء، ولذلك تأثيره على انصراف المرأة عن الاشتغال بالتميّز والتفوق. والمرأة بطبعها أرق وأضعف في البنية، ومن ثم لا تحتمل الجِدّ والمثابرة والاجتهاد الذي يستلزمه التفوق والتميّز، والذي لا بد منه لظهور العبقرية وتفتّحها. والمرأة لا تميل بشكل عام للتجديد، وميولها محافظة أكثر من ميول الرجل. والمرأة أقل إقداماً وميلاً للمخاطرة التي تستلزمها ريادة الجديد والبديع. ولا فرق في الذكاء بين الذكر والأنثى، والفروق البيولوجية والاجتماعية والثقافية والحضارية هي الفروق الوحيدة بين الذكور والإناث. وفي بلادنا وقد صارت تُكلّف النساء بأعمال الرجال المضنية، فمن غير المظنون أن تتاح الفرصة للنساء أن يبرزن وتكون لهن عبقرية مشهودة في المجالات الفكرية. وعموماً فإن العبقرية في أي من بلاد العالم يُضيّق عليها ولا تتاح لها الفرصة إلا بشق الأنفس، وربما ذلك لأن الناس عموماً يتشككون في سلوك العباقرة من حيث أنهم دائماً الخارجون على المألوف والمتمرّدون على العرف والتقاليد، والذين يفكّرون في الأمور بطريقة مختلفة، ويتصرّفون بطرق مغايرة، ناهيك عن أن بعض العباقرة لهم فعلاً أوجه شذوذهم في السلوك والتفكير حتى قيل إن العبقرية مرض عقلي، وقيل إنها سلوك تعويضي عن نقص، وإن العبقري إما له شذوذ المرضى العقليين، أو شذوذ الذين يعانون العُقَد النفسية، غير أنه قد ثبت من بحوث تيرمان أن غالبية العينة من العباقرة يتميّزون بالصحة النفسية والانضباط، كما أثبت هافلوك إليس Havelock Ellis (١٨٥٩ - ١٩٣٩) أن احتمال إصابة العبقري بالاضطراب العقلي أو النفسي تتساوى واحتمال إصابة الأفراد العاديين به. والعباقرة عموماً لديهم الحسّ العالي بالواقع حتى وإن تصرّفوا أحياناً بشذوذ أو كانت لهم إنفجاراتهم الانفعالية. والعبقري بوسعه أن يصحّح نفسه بعد فترات من اللاتوازن، وهذه الفترات نفسها ضرورية له ليعاني فيها ويجرّب الفكرة الجديدة

وإن كانت غريبة، وغرابتها هذه ربما هي التي يكون فيها تحوّل الفكر إلى آفاق جديدة. والتعلّم وإن كان لازماً للعبقري إلا أن تواريخ حياة العباقرة تثبت أنهم عصاميون، يتوفرون على تعليم أنفسهم أكثر مما يتعلمون من الغير. وربما كان التعريف الذي يقول: «إن العبقرية ٩٩٪ منها مجاهدة وعرق، وواحد في المائة إلهام» هو تعريفٌ صائبٌ، فالعبقري يلزمه عشرة عقول إلى جانب عقله طالما هو يلزم نفسه بالعمل الشاق، والانضباط الشديد في الأمور التي يرى أنها ضرورية له، وطالما لديه دوافع قوية تتملكه وتستحثه لأن يمهر في الفن أو العلم الذي ينصرف إليه، وان تكون له السيادة أو الريادة فيه، وأن يحيط بدقائقه، لأن ذلك سيقرّبه من بلوغ أهدافه أسرع. وربما يضيّع المجتمع على نفسه العشرات من العباقرة بالتوجيه التعليمي الخاطئ وبتغليب مصالح الأغنياء على مصالح الشعب وإهمال تعليم الفقراء. ومن دأب الطبيعة أن تنجب الأفراد باستعدادات العبقرية بدون تفريق بين غني وفقير أو حاكم ومحكوم، ولكن الذي يحدث بعد ذلك لهذه الاستعدادات متروك للحكومات، ولهؤلاء الأفراد أنفسهم، وللمجتمع الذي ينشأون فيه.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Anastasi, A.: Differential Psychology.
- Terman, L.M. et al: Genetic Studies of Genius.
- Vernon, P.E.: Creativity.
- Harms, E.: Handbook of Child Guidance.

❖ ❖ ❖

- ١٣ -
سيكولوجية الدور الاجتماعي

نظرية الأدوار، والمسرح واصطلاحاته فيها. توقعات الدور والأدوار الرئيسية ومتطلباتها والتدريب عليها وتمثلها وأداؤها. الدراما النفسية.

❖ ❖ ❖

كلمة Role أصلاً فرنسية، من Rôle، وتشتق من لفافة الممثل من الورق المكتوب فيها نصّ دوره في المسرحية. ومفهوم الدور Role من المفاهيم المسرحية - Dramatic r. - التي أخذها علم النفس من مجالها ليستخدمها بمعنى «الوظيفة» التي تكون للفرد في مجتمعه، أو ما يضطلع به من «عمل» في موقف معين، مثل دور الأب، أو دور الأم، أو دور القائد، وهكذا، باعتبار أننا في الحياة نتلبّس شخصيات متعدّدة باختلاف المواقف، وكأننا ممثلون على خشبة المسرح، ولنا في كل مسرحية دور، وكأن الحياة كما يقول شكسبير: مسرح كبير، والأشخاص ممثلون، أو أنه بالأحرى ليست هناك «شخصيات مطلقة» في الحياة، وإنما نحن «شخوص مسرحية»، يعرفنا المجتمع من بينها بالأدوار التي نقوم بها. ونظرية الأدوار Role theory: هي وجهة النظر التي تقول بأن السلوك مظهر لأدوار نمثلها إجتماعياً، وأن التعليم والتربية والتنشئة الاجتماعية عمليات يُقصَد بها تفهّم «الأدوار الاجتماعية Social rs» والتدريب على القيام بها، وأن المعوّل عليه أن كل إنسان يختار من الأدوار النمط الذي يناسبه، وأن القيام بهذه الأدوار منذ الطفولة وتمثيلها يُصقِل الشخصية وينمّي سماتها ويوسّع من مفهوم الذات، وأن لكل مجتمع «مخزون أدوار Role repertoire» كالفِرَق المسرحية، وأن «توزيع الأدوار Role distribution» يتم اجتماعياً ويُراعَى فيه مناسبة هذه الأدوار للشخصيات التي تمثلها، فيكون التوافق النفسي بين الممثل وأدواره التي يضطلع بها. وربما لا يكون الدور الذي يوكل بأحد الأفراد من اختياره، أو يجيء دوره أكبر من إمكاناته أو أقل منها، وعندئذ لا يكون أداؤه للدور Role playing كما يجب، وقد يغالي في التمثيل Overacting؛ أو قد يجيء تمثيله بحيث يقصر عن الدور وأبعاده Underacting. وليس اضطراب السلوك في الحياة إلا لعدم مناسبة الأدوار الاجتماعية للقائمين بها، أو عدم إدراكهم لأبعادها وقصور وعيهم عن تفهمها، أو عن تفهم ذواتهم وما يحتاجون إليه نفسياً. وتفترض نظرية الأدوار أن يسأل كل شخص نفسه عن حقيقته، ومن

يكون، ومن هو الآخر أو الآخرون الذين يتعامل معهم، وما هي أدوارهم، وما هي علاقة دوره بأدوارهم. ولا يكون التفاعل بين الأفراد على وجهه الصحيح إلا من خلال فهم كل شخص لنفسه وللناس المحيطين به. وكما في المسرح فإن المكلف بدور هاملت مثلاً، يتوقع منه أن ينهض بتمثيل هذا الدور بكل ما يمكن أن يكون لهاملت من حركات وسكنات، وأن يقلده فيها حتى ليمكن أن نحسبه هاملت على الحقيقة. وبالمثل في الحياة فإن الشخص الذي يقوم بوظيفة ضابط الشرطة أو المدرس الجامعي عليه أن يمثّل دوره، ويقوم بكل ما يُفترض أن يقوم به ضابط الشرطة أو المدرس الجامعي من واجبات وأعباء، وأن يفكّر مثله يكون له خصائص الدور، وهو ما نسميه «توقعات الدور Role expectations»، وهي مجموعة التصورات، وتقمّصه للشخصية يُطلق عليه إسم «إخراج الدور r. enactment»، كما يطلق على خصائص الدور إسم «شخصية الدور r. personality». وقد تتضارب الأدوار التي يقوم بها الشخص الواحد أو تتصادم مع شخصيته الحقيقية Actual personality. وعندئذ يستشعر الصراع. و«صراع الأدوار r. Coflict» كما في المثل السابق لضابط الشرطة، كأن يجد نفسه مضطراً للقبض على شقيقه فيقوم به صراع بين دوره كضابط ودوره كأخ، أو بين الواجب والحب. وبعض الأدوار تحتاج في الحياة لعدد من «الأدوار المساعدة Auxiliary r.»، فلكي يقوم شخص بدور ضابط الشرطة فإن ذلك يستلزم أيضاً أن يكون هناك شرطة وجمهور، ونطلق على ذلك إسم «مجموعة الدور Role set»، وهي مجموعة الأشخاص المرتبطة أدوارهم بدور ضابط مثلاً حيث هو الدور الرئيسي The leading role. ويتكامل الدور الرئيسي بالتنسيق مع بقية الأدوار المساعدة، وهذا التنسيق مطلوب حتى مع الشخص الواحد وهو يقوم بأدواره المختلفة. وكل منا يقوم بالعديد من الأدوار عليه أن ينظم بينها وينسق حياته على منوالها، بحيث لا يضطرب سلوكه بأعبائها، ولا تختلط عليه خصائص الأدوار. وتفيد نظرية الأدوار في الحكم على سلوك الناس بحيث لا نحسب فظاظة شخص

في موقف سمة من سمات شخصيته، فربما تكون هذه الفظاظة من مستلزمات الدور في هذا الموقف بالذات، فضابط الشرطة الحازم مع المجرمين قد نجده حانياً عطوفاً محباً مع أسرته، وذلك أيضاً من مستلزمات الزوج أو الأب. ولكل دور «مستلزمات أو متطلبات r. demands»، ونحن نتدرب على الأدوار منذ طفولتنا، وهو ما نسميه التعيّن Identification بالآخرين، و«التدريب على الدور rehearsal .r» يزيد استبصارنا بتوقعات الأدوار، ويزيد من إدراكنا لأبعادها Role perception، ويُصقل من قدرتنا على تمثّلها Role taking aptitude ثم إخراجها. وهذه القدرة تكون بنا موهبة خاصة من الله، فبعضنا يتمتع بهذه القدرة لدرجة ملفتة للنظر، وبعض الأطفال تكون بهم باعتبارها قدرة تنضاف إلى بقية القدرات الخاصة التي يكون علينا اكتشافها فيهم في وقت مبكر لنعمل على صقلها. والقائم على الدور باعتباره كالممثل، فإنه يحتاج إلى جمهور، وكلما أتقن دوره وجاء تمثيله متوافقاً مع توقعاتهم للدور، كان استحسان الجمهور له، فضابط الشرطة الذي يقوم بدوره، وينفّذ ما عليه، ويحفظ الأمن، ويصون الأعراض، ويحمي الممتلكات، يُعطَى الأنواط ويُردَد اسمه بالافتخار. وكذلك الطفل وهو يتمرّس على الأدوار، ويزعم أنه الأب مثلاً، أو المدرس، ويسير كما يسير هذا أو ذاك، ويأمر كما يأمر، فنهشّ له ونضحك، فذلك منا الإثابة له A reward على سلوكه، وأيضاً هو تعزيز Reinforcement لهذا السلوك. والتدريب على الأدوار للأطفال يرفع مستوى طموحاتهم. ويدفعهم إلى التحصيل. وليست رسالة المسرح المدرسي The scolastic theatre إلا بعضاً من هذا الذي نذهب إليه. وتؤثر الأدوار التي يحاول الأطفال تقمّصها في تكوين شخصياتهم، ويُكثر الأطفال من هذا التقمّص في أحلام اليقظة، ففي قصة سندريلا Cinderella مثلاً يجعلها تقمُّص دور الأميرة تسلك في الحياة كالأميرات، ويرفع من طموحها فيتحقّق لها الزواج من أمير. ولا شك أن كل ممثل يتأثر بمخزون أدواره التي مثّلها في حياته، ومن الممكن أن نحكم على

الشخصية من مجموعة الأدوار التي يقوم بها صاحبها، أو من «الوظائف» التي تقلّدها، ومن اختياره لها، وأدائه الذي يكون مؤشراً على نضج شخصيته، و«حُسن اختيار الدور» الذي يناسب الشخصية دليل نضج، لأنه يعني أن صاحب الشخصية فاهم لنفسه ولأبعاد الدور، وناضجٌ يتحكم في سلوكه، ومن ثم يستطيع أن يقوم بالدور. ونحن جميعاً من خلال تكرار تعرّضنا لمواقف بعينها ننمّي في أنفسنا طرقاً للاستجابة تتثبت معنا، وهي التي نستدل منها على سمات الشخصية. وكلما اتفقت متطلبات الدور مع فكرة الشخص عن ذاته، كان ذلك أدعى لحُسن أدائه، ولتنافي الصراعات بين متطلبات الدور وفكرته عن ذاته. ونلمس أثر استحسان «الجمهور المشاهِد» لتمثيل الأدوار مما نلحظه من حُسن استقباله، أو مما يجري من مناقشات حوله في جماعات المناقشة أو على صفحات الجرائد والمجلات، أو في محطات التليفزيون، وداخل صالات الألعاب والساحات الرياضية، وبعد العروض الموسيقية. وللجمهور مزيتان، الأولى أنه يؤكّد باستحسانه ويعزّز عنده هذا السلوك ويدفعه إلى المزيد من طلب الإتقان. وقد يحدث أن يتقمّص الشخص دوراً يناسب سياقاً معيناً، إلا أن أسلوبه في القيام بالدور قد يحدث أن يتكرر معه في النهوض بأدوار أخرى، ولسياقات مختلفة، بصرف النظر عن مناسبة حرفية الدور لها، ونطلق على ذلك إسم «إنتشار الدور Role diffusion»، وذلك من تأثير الخلط عليه، فتتوه أهداف الدور عنه، وتضل عنه هويته أو شخصيته، ويتلبّس الدور ويسلك من وحيه، سواء على المسرح أو في الحياة في كل ما يتقلّد من أعمال ومهام. وتقوم فكرة العلاج النفسي بالدراما النفسية Psychodrama على نظرية الأدوار، باعتبار أن المريض وهو يمثل أدواراً من حياته يعايش المواقف التي تسببت له في الاضطراب، ويطرح عنه عُقدَه، فيستبصر مشكلته وصراعاته، فيتحقّق له من ذلك العلاج.

❖ ❖ ❖

مراجع:
Biddle, B.J.: Role Theory: Role Theory: Concepts and Research.
- Gross, N., Mason, W.S. & MC Eachern, A.W.: Explorations in Role Analysis.
- Sader, M.: Rollentheorie.
- Sarbin, T.R.: Role Theory.

❖ ❖ ❖

- ١٤ -
سيكولوجية المهارات

المهارات وأنواعها والتدريب عليها واكتسابها. المهارة في المجالات الاجتماعية والتربوية والرياضية إلخ...

❖ ❖ ❖

المهارة Skill نشاط معقد يُظهر الشخص الماهر على قدرة وكفاءة تميّزانه عن غيره من الأفراد العاديين في نشاط من الأنشطة، وتُكتَسب المهارة بالتعلّم والتدريب والممارسة. وقد نتحدث عن المهارة فنقصد بها في المجال الاجتماعي مهارة الشخص الواعي بالتفاعل الاجتماعي في بيئته، والذي يترقّى صُعُداً في هذه البيئة من حيث الأدوار الاجتماعية وتمثلها والتعامل بكفاءة مع مختلف المواقف الاجتماعية - وهو ما نطلق عليه إسم المهارة الاجتماعية Social skill. وقد نقصد بالمهارة في المجالات التربوية إجادة القراءة والكتابة والعمليات الحسابية مما يقال له المهارات الأساسية Basic or fundamental skills واكتسابها ضروري لاكتساب المهارات الأعلى Higher-skills، أو Higher level skills، كالمهارة اللغوية Language skill تعبيراً وإنشاءً وبياناً. فإذا كانت المهارة قدرة على القراءة السريعة المُجملة للمعاني Skimming s.، أو على الاستيعاب Comprehension s.، أو على التلخيص Summerizing s.، فهي مهارة دراسية Study skill تتعلق بالدراسة والبحث. والمهارات من هذا النوع «مهارات ذهنية Intellectual skills»، في مقابل «المهارات الحركية Motor skills»، والأولى عملياتها ذهنية، بينما الثانية

عملياتها حركية. وبالطبع فإن أي عملية ذهنية قد تترافق معها عمليات حركية، وكذلك فإن أية عمليات حركية لا بد أن تصاحبها عمليات ذهنية، غير أن الأغلب والأعم في المهارة الذهنية أو المهارة الحركية هي العمليات الذهنية أو الحركية التي تطبعها بطابعها، بحيث يمكن أن نصفها بالوصف الذهني أو الحركي فقط، وغالباً ما نتحدث عن المهارة ونقصد بها المهارة الحركية، حيث يرتبط «اكتساب المهارات Acquisition of skills» بالأنشطة الرياضية كالسباحة وغيرها، وبالأنشطة الانتاجية في مجال الصناعة. ومحك المهارة عند العمال والفنيين هو قضاء فترة تدريب، وبلوغ العامل أو الفني مستوى من الإجادة في الأداء يزيد به الانتاج ويجود. ويتضمن «السلوك الماهر Skillful behaviour» عدداً من الاستجابات الحركية غالباً، أي غير اللفظية، التي توظف فيها أعضاء الحركة، كالقدمين، والساقين، والذراعين، واليدين، والأصابع، في تآزر، بحيث يقوم الشخص الماهر بأداء النشاط المنوط به في سرعة ودراية، وبأقل الجهد وأقصر الطرق. وتتألف الحركة في السلوك الماهر من وحدات حركية هي مثيرات واستجابات تتسلسل في انتظام هرمي، بحيث تؤدي الأبسط إلى الأعقد، ويكون الجسم وهو يؤدّيها في وضعه المريح الذي يناسبه للقيام بالأداء الجيد. ومع التقدم في الأداء يستغني الشخص الماهر عن بعض الحركات ويقتصد فيها. وتعمل أعضاء الحركة في تآزر مع أعضاء الحسّ كالعينين والأذنين، ولذلك فقد يقال عن المهارات الحركية إنها «مهارات إدراكية حركية Perceptual-motor skills». ومن خواص المهارات عموماً أن «التآزر» فيها غالباً يشمل الجسم كله، بأعضائه وحواسه، في شكل تكيّف عام، وبالأخص في المهارات الدقيقة كما عند الطيارين مثلاً. ويلزم لتعلّم المهارة الانتباه لطريقة أدائها، ولفت نظر المتعلم إلى طبيعتها، والمكونات الحسيّة والعضلية التي فيها. ويقتضي ذلك أحياناً وصف هذا الأداء وصفاً لفظياً، وتوجيه المتعلم إلى أسلوب الاستجابة الذي قد يفضل أسلوبه الذي قد يختاره لنفسه لو تُرِك بدون إرشاد.

ويَفْضُل «التوجيه الإيجابي» أسلوب التوجيه بالتنبيه إلى الأخطاء. وقد يحتاج المعلم إلى «عرض توضيحي» قد يفيد في التعلم بالمحاكاة لنموذج الأداء الماهر. ولعل استخدام «الأفلام» من خيرة الوسائل التوضيحية بالنظر إلى إمكان عرضها عرضاً بطيئاً يمكن به ملاحظة تفاصيل الأداء. وبعض المهارات تفيد في التدريب على أدائها «الطريقة الجزئية» عن «الطريقة الكلية»، بتقسيم السلوك الماهر إلى وحدات، بحيث تُمارَس كل وحدة منفصلة إلى حدّ اتقانها، فيكون الانتقال إلى الوحدات التالية. وبعض المهارات قد يكون في التدريب على أدائها بالطريقة الكلية إقتصاد في الجهد واختصار للوقت. ويفيد التمرين الموزّع عن التمرين المركّز في اكتساب المهارة. وبعض المهارات أثناء تعلّمها لا يمكن اكتسابها إلا بمعرفة نتائج التعلم، وهو ما يسمى «التغذية الرجعية الإخبارية Informative feedback»، والأفضل في التغذية الرجعية أن تتم مترافقة مع التدريب، وباستمرار مع تكراره. وهناك من الشواهد ما يؤكّد أن وصف المتعلم لما يؤدّيه أثناء الأداء يفيده في اكتساب المهارة. وقد يفيد «التسميع الذهني Mental rehearsal» للخطوات التي يتم بها السلوك الماهر، وهو نوع من التدريب المتخيّل يصلح أكثر مع المبتدئين. وكذلك يصلح مع المبتدئين «التوجيه الآلي» كما في تعلّم الخط، باستخدام النقط المكوّنة للحروف، بالسير عليها بالقلم. وللدراسة التحليلية القَبْلية لسلوك المهارة فائدة الإحاطة بتفاصيل تكوينه - أي السلوك - وشكله. ويبدو أنه في اكتساب المهارة فإن الأسلوب الأمثل هو الذي يبلغ بالمتعلم إلى محك الاتقان بأيسر الطرق وأسرعها، فإذا بلغ المتعلم «محك الاتقان»، فإن أي محاولة تفوق ذلك هي من قبيل الزيادة التي لا مبرّر لها، ويمكن الاستغناء عنها إلى حين الاحتياج إليها من بعد إذا تدنى مستوى السلوك الماهر، أو بعد انقطاع طويل عن الممارسة.

❖ ❖ ❖

مراجع:
- A. Bilodeau: Acquisition of Skill.

❖ ❖ ❖

- ١٥ -
سيكولوجية الملكات

المَلَكات وفراسة الدماغ. بحوث جول وسبورزهايم. فرضية المطبّعات. فرويد والملكات...

❖ ❖ ❖

الأساس في سيكولوجية الملكات أن للعقل وظائف متميزة وطبيعة فيه كالذاكرة والإرادة والحكم والانتباه، وأن هذه «الوظائف أو الملكات Faculties» لها مواضعها من الدماغ، بدليل أن إصابة الدماغ في أي منها يحرم الشخص من الوظيفة أو الملكة العقلية Mental f. المختصة. ومن ذلك أيضاً ما يقال له «فِراسة الدماغ Phrenology»، أي قراءة معالم الشخصية من شكل وحجم الرأس، وما عليه الرأس من بروزات في مواضع، باعتبار أن الرأس هو مخزن القوى العقلية، ومن ثم فإن بعض المواضع قد تكون أكبر عند بعض الناس عنها عند غيرهم، أو قد تكون عند الشخص نفسه أكبر من غيرها في دماغه، فنحكم بأن هذا الشخص لديه القوة العقلية في الموضع البارز أكبر من سائر القوى، أو أكبر من مثيلتها عند غيره من الناس، ومن ثم فإن المتمرس بهذا العلم يستطيع أن يتعرّف إلى ما يتميز به شخص ما من ملكات أو قوى عقلية بأن يتحسّس رأسه ويدرس جغرافيته.

وكان فرانز جوزيف جول Gall (١٧٥٨ - ١٨٢٨) - عالم التشريح الكبير - أول من اشتغل بدراسة مواضع الملكات العقلية في الدماغ، وأما الذي وضع أسس هذا العلم - إن كان علماً على الحقيقة - فهو يوحنا كاسبار سبورزهايم Spurzheim (١٧٧٦ - ١٨٣٢)، وهو الذي ابتدع إسم «فراسة الدماغ»، ووضع المتخصصون في الفراسة Phrenologists من المشايعين له «خرائط» للرأس، حدّدوا فيها مواضع

المَلَكات أو القوى العقلية، وجعلوها سبعاً وثلاثين مَلَكة، تنقسم إلى ثلاثة أقسام، فإذا غلب قسم إنطبعت الشخصية به. والأقسام الثلاثة: قسمٌ منها يصنع الشخصية العاطفية أو الانفعالية، وقسمٌ يصنع الشخصية الفاعلة ذات الحركة والنشاط، وقسمٌ يصنع الشخصية المفكرة. ومن شأن كل قسم أن يؤثّر على بِنْية الجسم بحيث تأتي متوافقة مع نمط الشخصية، ومن ذلك تأثيره على الوجوه وأساريره، فيعدل مظهر الوجه وعلى المزاج والخُلق، وهو ما عُرف باسم «فراسة الوجوه Physiognomy». وبرغم أنه لم يثبت علمياً وجود هذه الملكات، ولا أقسام الرأس الثلاثة، إلا أن القول بالملكات، وبمواضعها في الرأس، وبنسبة الاضطرابات العقلية إلى الاضطرابات في شكل الرأس، وبالتبعية إلى الاضطرابات في مواضع المَلَكات، وفي أحجامها، أرسى دعائم علم النفس كعلم يندرج ضمن العلوم وليس كفرع من الفلسفة الميتافيزيقية. وسيطرت «نظرية المَلَكات» أو «علم نفس الملكات» f. psychology على التفكير النفساني لفترة طويلة إلى أن دالت وعفا عليها النسيان، وحلّت محلها نظريات أخرى، ومنها نظرية أو «فرضية المطبّعات Modularity hypothesis»، و« المطبّع Module» إسم حديث للملكة. فبحسب بروكا Broca (١٨٢٤ - ١٨٨٠) - عالم المخ الكبير - تتحدد في المخ مناطق لها أهمية في التعلّم الإدراكي والوظائف اللغوية. والمطبّعات - كما يقول جرانيت - عالم التشريح الكبير - أعضاء استقبال في هذه المناطق مهمتها تعديل الإحساس الوارد ليتحقق الإدراك بالطريقة التي يتم بها في الإنسان أو في الحيوان. والمطبّعات بذلك بديل للمَلَكات. كما أن القول بالاستعدادات والقدرات العقلية شبيه بالقول بالملكات، وكان فرويد - وهو مؤسّس مدرسة التحليل النفسي - يقول بأقسام للنفس شبيهة بالملكات، ومن ذلك قوله بالمَلَكة الناقدة Criticizing faculty، ويقصد بها الضمير. ومع أن سيكولوجية الملكات غير موجودة الآن على المستوى الرسمي فإن الكثيرين جداً ما يزالون يستخدمون اصطلاح الملكة لوضوح معناه، وما يزالون يشيرون إلى

«ملكة التذكّر»، أو «ملكة التخيل»، أو «ملكة الرسم» وهكذا، ويقصدون بها القدرات الخاصة.

❖ ❖ ❖

مراجع

- T. Acquinas: Summa Theologia.
- R. Descartes: Meditations on First Philosophy.
- C. von Wolff: Psychologia Rationalis.
- W. James: The Principles of Psychology.

❖ ❖ ❖

– ١٦ –
سيكولوجية المشاركة الوجدانية

التعاطف والمشاركة الوجدانية. الأطفال والمشاركة الوجدانية. التجارب الفنية. التقمص الوجداني. المشاركة الوجدانية حاسة سادسة. المشاركة في التربية وفي التحليل النفسي والألعاب الرياضية. زيادة المشاركة الوجدانية عند النساء. الأمزجة والمشاركة في الصحة والمرض.

❖ ❖ ❖

المشاركة الوجدانية Empathy نوع من التعاطف Sympathy، إلا أن التعاطف يكون في الأحزان دون الأفراح، بينما في المشاركة الوجدانية نحن نتشارك في كل الانفعالات سواء بالفرح أو الحزن. والتعاطف عمل نأتيه عن إدراك بما نفعل، ولا نفقد فيه هويتنا أو ذواتنا، ولا ننسى أننا لسنا الآخرين، وأن ما نشعر به هو مجرد تعاطف معهم وليس انفعالاً بالأحداث التي جرت لهم. وليست كذلك المشاركة الوجدانية، فنحن فيها قد نضحك لضحك الآخرين، أو يرين علينا الاكتئاب لاكتئابهم، وحتى وإن لم نعرف أسباب هذا الضحك أو ذاك الاكتئاب، بينما في التعاطف يكون إدراكنا للمصاب

أو الفجيعة، وتعبيرنا عن مشاعرنا المتعاطفة بالإشارة أو بالكلام، وأما في المشاركة الوجدانية فنحن نفعل مثلما يفعلون، فنبكي أو ننوح، أو قد نرقص ونغني، فنحن نتقمص شخصية الآخر حتى ليمكن أن نقول إننا نكون في حالة تـقـمُّـص وجـداني Emotional indentification.

ويبدأ الأطفال من سن الثانية أو الثالثة يشاركون وجدانياً غيرهم من الأطفال، فيبكون لبكائهم أو يخافون لخوفهم، ولا يكون التعاطف إلا في مرحلة متأخرة عندما يزيد لديهم الإدراك للحالات الوجدانية للآخرين وأسبابها. وفي التجارب الفنية لا نقول إننا نتعاطف مع الفنان «في» مشاعره، ولكننا نقول إننا نشاركه مشاعره، حتى ليمكن أن تستغرقنا التجربة الفنية بكل ملابساتها فننسى فيها أنفسنا، وذلك ما نقصد إليه من أن المشاركة الوجدانية قد ترقَى إلى حدّ التقمص الوجداني. وهذا التقمّص ضروري لأنه يُدخلنا أو يقدّمنا إلى التجربة الفنية من أوسع أبوابها، وهو سبيلنا لنتعرف عليها. ولا تعني المشاركة الوجدانية أننا نتعين بالشيء تعيناً كاملاً حتى لتكون ذاتنا هي ذاته، فلا بد دائماً من بعض البُعد النفسي، وهو يتمثّل في أن تمثّلنا للشيء هو تمثُّل مؤقت. وفي التحليل النفسي مثلاً يتمثّل المحلل النفسي الحالة الوجدانية للمريض، لا ليكون هو والمريض واحداً، وإنما ليفهم المريض، فهو يضع نفسه مكان المريض ويحاول أن يتصوّر مشاعره، ويتخيّل أفكاره، حتى يستطيع أن يلم بخيوط تفكيره ومشاعره. وقد يتساءل المحلل نفسه عمّا يمكن أن يظنّه به المريض أو ردّ فعله على تصوراته عنه، وذلك ما يسميه «موراي Murray» (١٩٣٣) «Recipathy»، ويطلق موراي على عملية المشاركة الوجدانية التي بهدف تقويم أحوال الآخرين ذهنياً ووجدانياً إسم «المشاركة الوجدانية الناقدة Criticizing e.». ويجعل سوليڤان Sullivan (١٨٩٢ - ١٩٤٩) من المشاركة الوجدانية حاسة سادسة A six sense، ويقول إنه ليس من الضروري أن نعبّر عن المشاركة الوجدانية باللغة، وإنها أقوى ما يمكن عند الأطفال في السن بين ستة شهور وسنتين، وإنها وسيلة التطور الباكر

في الشخصية، لأنه عن طريقها يقلّد الطفل أبويه في اتجاهاتهما وقيمهما وأوجه القلق عندهما. ويبدأ الطفل مبكراً في ملاحظة هذه الأمور عند والديه، وينتقل إليه أثرها ويتمثّلهما. ومن رأيه أنه حتى في تذوق الطعام، ينتقل إلينا استحسان الطعام أو استهجانه مما نلاحظه على الأبوين أو المرضعة أو الخدم وهم يتذوقونه. ويرتبط هذا الاستحسان أو النفور عند الأطفال الصغار من رؤيتهم لسلوك الكبار والمشاركة الوجدانية التي يبدونها تأييداً أو نفوراً مثلهم. ويلزم للمربين والمدرسين والآباء أن يكون لديهم قدر من المشاركة الوجدانية، لأنه وسيلتهم لفهم الصغار. وحتى القياديون The leaders فإنهم في حاجة إلى قدر من المشاركة الوجدانية ليكون فهمهم لمن يتزعمونهم أو يقودونهم. ونحن كمتفرجين Spectators إذا كان لدينا بعض من المشاركة الوجدانية فقد نستطيع أن نتفهم دور الممثل، بأن نتصور أنفسنا فيه، ونحكم على سلوكه من تصورنا لهذا السلوك. وكذلك الممثل The actor، فبقدر ما يتقمّص الدور وجدانياً يكون ذكاؤه في تمثّله وعرْضه. ونحن نتشارك وجدانياً ونحن نشاهد مباريات كرة القدم حتى لنتوهم أننا نلعب مع اللاعبين، فنصرّ على أسناننا، أو نركل بأقدامنا، أو تندفع أذرعنا في حركات كما لو كنا ندفع الكرة هنا أو هناك، ونصحّح بعض الألعاب التي لا تعجبنا. وينجح الشعراء والفنانون في أن يجعلوا تصوّرنا لوجدانيات الآخرين تصوراً أرقى أو أرق. ويبدو أن المشاركة الوجدانية تتوقف على مستوى النضج الانفعالي للشخص، ومستوى ذكائه وثقافته، والاتجاهات السائدة عنده. وعموماً فإن الأطفال تكون لديهم المشاركة الوجدانية أقوى أو أكثر احتمالاً من الكبار، وكذلك النساء، وتزيد المشاركة الوجدانية بين الأفراد إذا وجدوا في جماعة كبيرة، أسرع منهم إذا وُجدوا في جماعة صغيرة. ويختلف الأفراد عن بعضهم البعض في قابليتهم للمشاركة الوجدانية بحسب أمزجتهم، فصاحب المزاج الذي يميل إلى المرح يكون أسرع في التأثّر بحالات المرح،

بينما صاحب المزاج الذي يميل إلى الحزن، لا يشارك إلا فيما يكون فيه حزن. وقد نكون أميل إلى الحزن في حالات المرض، بينما نميل أكثر إلى المرح في حالات الصحة. ونلاحظ أن الجماعات تميل إلى أن تتجانس في الوسط الوجداني الذي يسودها.

❖ ❖ ❖

مراجع

- Murphy: Social Behaviour and Child Personality.

❖ ❖ ❖

- ١٧ -
سيكولوجية التعيُّن «التعيّن أو التقمّص أو التوحّد بالغير»

التعيّن الاجتماعي والكوني والمتعدّد. تفسيراته المختلفة بحسب مختلف المدارس. التعيّن الأوّلي والثانوي والإسقاطي والاستدماجي.

❖ ❖ ❖

التعيّن Identification هو التوحّد والتقمّص أيضاً، ونلجأ إليه كثيراً وخاصة في الطفولة، إذ تُعوزنا الحيلة ونعاني من النقص أو العجز أو الإحباط أو الفشل، فتكون استعانة الأنا بالتعيّن - نتعيّن بموضوع .Object i، نرفع به عن أنفسنا هذه السلبيات، فنتوحّد بالكبار والمشاهير والقادرين وأصحاب النفوذ والأقوياء في محيطنا، ونتقمّص شخصياتهم، أو نتعيّن بقيمهم واتجاهاتهم، وبمثُلهم العليا وسلوكياتهم، ونصوغ شخصياتنا على منوال شخصياتهم، فالتلميذ قد يتعيّن بأستاذه الذي يحبّه، والطفل يتعيّن غالباً بذويه، والرياضي يتعيّن بفريقه أو ببطل من الأبطال، والممثّل قد يتقمّص الدور في المسرحية حتى ليتلبّسه في الحياة كما في المسرح من طول معايشته له. والتعيّن لذلك قد يكون وقتياً، وقد يستمر لفترة أطول، ويساعد على نمو الذات، ويسرع بالتعلم، ويطلق البعض على مثل هذا التعيّن إسم التعيّن الاجتماعي .Social i، وهو أحياناً خفيف لا يظهر، وأحياناً يكون بشكل مغالى فيه حتى لتنمحي شخصية

المتعيّن في شخصية المتعيّن به وتذوب فيها، ومثل ذلك يحدث عند الصوفية، وتعيّنهم يقال له التعيّن الكوني Cosmic i.، لأن الصوفي تذوب بالتعيّن شخصيته تماماً في الوجود كله أو تفنى به، وهذا هو معنى الفناء الصوفي Mystic annihilation، وكان ذلك ما ذهب إليه الحلاّج وغيره من صوفية وحدة الوجود Pantheism، وهو أيضاً ما يشعر به بعض المرضى بالاضطرابات النفسية كما في فقدان الشخصية Depersonalization، فيزعمون أن وجودهم غير واقعي، وأنهم يتلاشون في العالم، أو في بعض أنواع الفصام فيكون إحساس المريض بأنه ليس نفسه وأنه شخص آخر، وقد تتعدد الشخوص التي ينتحلها لنفسه ويتقمّصها، وذلك هو التعيّن المتعدد Multiple i.، فيكون مرة هتلر مثلاً، ومرة أخرى يكون نابليون. والمرضى بتعدد الشخصية Multiple personality يكون لهم هذا التعيّن المتعدّد أيضاً. ومن محاذير التعيّن أن المتعيِّن كثيراً ما يتوحّد بشخصية المعتدي - التعيُّن بالمُعتدي i. with the aggressor، وتفسّر ذلك نظرية التعيّن بالمنافس أو الخصم i, with the rival or with the opponent theory، فالشخص الذي يكون في موقف منافسة معنا لمدة طويلة ولا نستطيع أن نهزمه، قد نلجأ إلى التوحّد به، بأن تكون لنا لغته وقيمه وعاداته ولباسه، لعلنا بذلك لا نكون في موقف مواجهة معه، وذلك ما يحدث كثيراً عند الأمم المهزومة أو المغلوبة على أمرها والمستعمَرة، فليس تقليد الأوروبيين والأميركيين بخاصة إلا من هذا القبيل، وكلما اشتدت شراسة الخصم أو المعتدي أو المنافس وظهر تفوقه كلما راج التعيّن به وكَثُر. وشبيه بذلك موقف الطفل في أول حياته، وهو الموقف الذي يشير إليه المحللون النفسيون باسم الموقف الأوديبي Oedipus situation، حيث يختار منافسه الأوديبي من جنسه ليتعيّن به كحلّ للصراع بينهما، فالولد الذي يحب أمه يجد أباه في موقف المنافس له على هذا الحب، ويجده الأقوى والأقدر والمعقود له الغلبة. وكذلك تميل البنت إلى أبيها لأنه عكس جنسها، وتجد في أمّها مزاحماً لها على حبها له، وينحلُّ الإشكال بأن يتعيّن

الولد بأبيه ليكون مثله، وتتعيّن البنت بأمها، ويأخذان عنهما دور الذكورة أو الأنوثة حسب جنس الطفل.

وللتعين تفسيرات أخرى، منها تفسيره بنظرية النفوذ الاجتماعي The social-influence theory، حيث نميل دائماً إلى أن نتعيّن بالأشخاص الناجحين ونقلّدهم، لعلنا بذلك نصل مثلهم إلى النجاح ونحقّق الشهرة، وليست عبادة البطل Hero-worship إلا من هذا القبيل، حيث أصحاب النفوذ هم دائماً أبطال تحتذيهم أممهم، وخاصة في مرحلة المراهقة التي ما يكاد يخلو الشاب الذي يمرّ بها من أن يكون له بطل يتعشّقه ويقتدى به، ويكون له نموذجاً لتفكيره وسلوكه.

وقد يذهب البعض وخاصة الارتباطيين Associanists إلى تفسير التعيّن بالإشراط Conditioning، وأنه نتيجة التعزيز الثانوي Secondary reinforcement، فالطفل الذي يربط بين ما يتحصّل عليه من إشباع بيولوجي ووجود الأبوين، قد نجده يقلّدهما من بعد عندما يصبح في إمكانه أن يأتي بعض الأفعال، لأنه يدرك أنه بهذا التقليد يقترب في سلوكه من مستوى سلوكهما الذي كان مشبعاً له، ومن ثم يعطيه الإحساس بأنه يتابعهما على ما يفعلان، الشعور بالرضا نفسه الذي كان له قديماً.

ويطلق أصحاب التحليل النفسي على التعيّن في الطفولة إسم التعيّن الأولي Primary i. أو البدائي Primitive ، لأن الطفل فيه يتصرف دون تمييز بين ما هو له وما هو من العالَم من حوله، والأم وثدياها والأشياء التي يلعب بها هي امتداد لجسمه، وهي منه، ويغضب أشد الغضب لو حُرِم منها أو حُجبت عنه، فإذا كَبُر تمايز عمّا حوله ومن حوله، ورأى العالم يتسع كثيراً، وعانى من الانفصال عمّن يحبّ وما يحبّ، فيتعين بهذا أو ذاك، ويرى فيه نفسه ويلاعبه أو يحادثه توهّماً، وقد يحتضن الدمية ويقبّلها لأنها نفسه، وهو محروم من أمه التي سافرت أو خرجت لتعمل، فيعوّض نفسه عنها بأن يكون هو نفسه الأم، وتكون الدمية نفسه، وذلك ما يسميه علماء التحليل النفسي التعيّن الثانوي Secondary i.، وهم يقولون أيضاً بتعين إسقاطي Projective i.، بأن نرى أنفسنا في الأشياء أو الناس من

حولنا، فنبرر سلوكهم بحسب دوافعنا لمثل هذا السلوك لو صدر عنا لا بحسب دوافعهم، وكثيراً ما نلمس ذلك بين الزوجين بعد مشاهدة مسرحية أو أحد الأفلام، فينتصر أحدهما لسلوك معيّن بينما يدحضه الآخر، ويذهب الاثنان إلى تبريرات إسقاطية ترجع إلى ظروفهما، وليس لموقف وظروف الشخصية في المسرحية أو الفيلم. والتعيّن قد يكون تعيّناً شعورياً Conscious i. مقصوداً ومتعمداً Deliberate، وقد يكون لاشعورياً Unconscious i.؛ وقد يكون فردياً Individual i.، وقد يكون جمعياً Collective i.. وهناك أيضاً التعيّن الاستدماجي Introjective i.، بأن يتّجه توحّدنا أو تعيّننا إلى ناحية من نواحي الشخصية التي نتعيّن بها، كأن نستدمج آراءها في مجال معيّن، فيكون جزءاً من بنائنا الفكري مثلاً، حتى لنتصرف كأنها آراؤنا نحن على الحقيقة. ويبدو أن التعيّن الثانوي والاستدماج Introjection مترادفان في التحليل النفسي، وكان فرويد يستخدمهما بمعنى واحد، والصحيح أنهما ليسا كذلك، حيث الاستدماج هو وسيلة أو ميكانيزم التعيّن، فلا تعيّن بلا استدماج، غير أن كتابات هذه الأيام لا تفرّق في الاستخدام بين المصطلحين.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Freud: Introductory Lectures on Psychoanalysis.
- Freud: The Ego and the Machanisms of Defence.
- Miller, N.E. & Dollard, J.: Social Learning and Imitation.

❖ ❖ ❖

- ١٨ -
سيكولوجية اللعب
Psychology of Play

اللعب في وقت الفراغ. اللعب والعمل. أدبيات اللعب. شخصيّة اللاعب. اللعب ومراحل العمر. اللعب الإنفرادي والإستكشافي، والإيهامي. المحاكاة.

اللعب الدرامي كوسيلة إسقاطيّة. أنواع أخرى من اللعب. اللعب كعلاج...

❖ ❖ ❖

نحن نلعب في وقت الفراغ، واللعب من أنشطة وقت الفراغ، وله شروطه بهذا الاعتبار، وبدونها لا يكون لعباً، ومن ذلك أن اللعب ليس التزاماً، ولا يستهدف الكسب، ويصدر عن رغبة حقيقية في تحريك الأعضاء، وممارسة الرياضة والترويح عن النفس Recreational play، بالانطلاق دون قيود، وصرف الطاقة الحبيسة أو الزائدة، والتحرر من التكاليف الاجتماعية والرسميات. واللاعب الذي قد يجعل من مهارته في اللعب حرفة يكتسب منها، لا يصبح ما يأتيه لعباً ولكنه «عمل»، وقد يتحصّل له منه الإرهاق، وقد يصاب وهو يؤدّيه بالإحباط، وقد يفشل دون تحقيق أهدافه المادية أو الاجتماعية وتعتريه من ذلك مختلف الاضطرابات النفسية التي يمكن أن يتعرّض لها العامل الفاشل أو المُحبَط. والفرق بين «العمل واللعب»: إنه في اللعب يكون السعي لتحقيق نوع من الرضا عن النفس والإشباع الذاتي اللذين هما غاية في حدّ ذاتهما، وذلك يجعل من اللعب نشاطاً له طبيعة إستمتاعية خاصة تختلف عمّا يمكن أن يتيحه لنا أداء «العمل» أحياناً من استمتاع، غير أن «المتعة التي يهيؤها العمل» ترتبط بالتزامات مهنية أو عائلية أو اجتماعية، وذلك شيء يجانب طبيعة المتعة التي تتحصّل في اللعب Play-pleasure، فأنت إذ تعمل تُضطَر إلى استكمال ما تعمل، وأن تنهض به على الوجه الذي ترى أنه أنسب وأفضل، فهناك أصول دائماً لا بد من مراعاتها في العمل، وهي أصول تحكم العامل من خارج نفسه أو ذاته، وأما في اللعب فأنت حرّ أن تلعب بالطريقة التي تحب، وأن يستغرق لعبك ما تشاء من وقت، ولك أن تتوقف عن اللعب إذا تعبت أو أصابك منه السأم، وذلك ما يجعل البعض يقول بأدبيات اللعب Play moralities كأدبيات العمل، فأنت لست مضطراً لأن تلعب «لتُرضي أحداً»، وهذا على الأقل هو حال اللاعب الهاوي Amateur player، بخلاف حال اللاعب المحترف Professional player،

ويكفي في اللعب أنه «يرضيك» وحدك، وينصرف إليه انتباهك كاملاً، حتى أن البعض وهو يلعب قد يستغرقه اللعب تماماً عن كل ما حوله. وفي اللعب تبين شخصية اللاعب Player's personality فيما يختار من ألعاب، والطريقة التي يمارسها بها، ويُظهِر اللاعب إمكاناته وقدراته ومهاراته، ويطرح من خلال اللعب صراعاته، وعُقده، وميوله، واهتماماته، واتجاهاته، واللعب نشاط مهم من ثمّ كأهمية نشاط العمل سواء بسواء، وحتى النظريات الاشتراكية التي تعتبر الإنسان عاملاً بالدرجة الأولى، تجعل من اللعب ضرورة نفسية، كما أنه ضرورة ترفيهية، وضرورة إجتماعية، وضرورة تعليمية. والإنسان يبدأ نشاطه بعد أن يولد كنشاط له طبيعة اللعب، وتتفتح حواسه ويزيد وعيه بما حوله من العالم من خلال لهوه بالأشياء واستمتاعه وهو يلعب بها - Ludic play أي اللعب العشوائي - ويتعرّف إليها، ويتعلّم أن يميز أثناء ذلك بين مختلف الأشكال والألوان والأصوات. وتتعاقب مراحل النمو علينا منذ الميلاد، ومعها تتزايد استعداداتنا وننضج أكثر، ومن ثم تختلف قدراتنا على إتيان اللعب ونُقبِل على الألعاب التي تشتمل على حركات يمكن أن نقوم بها، والتي تشبع فينا إتجاهات واهتمامات وميولاً ونزعات معينة تنسجم مع مرحلة العمر التي نمر بها. والطفل الصغير يكون لعبه في أول الأمر إنفرادياً Solitary play، أي أنه يُلاعب نفسه، وقد يستمر ذلك معه فيما بعد، ومع أنه قد يحب أن يلاعبه الآخرون إلا أن هذا اللعب الانفرادي قد يستمر معه إلى مراحل أخرى، وحتى الراشد منا قد يؤثّر أحياناً أن يلعب اللعب الانفرادي Solitary playing. وفي اللعب الانفرادي تكون حركات الطفل عشوائية، وكأنما يعبث بالأشياء. ويشبه لعبه لعب صغار الحيوانات، وهو لعب إستكشافي Exploratory play، وهو نفسه اللعب الذي يظل معه مع تنظيم أكثر في المراحل الأخرى من العمر، والذي به يكون إقباله على الأشياء من باب حب الاستطلاع والعلم بالأشياء، فيحاول أن يفك أجزاءها ويتعرّف إلى دخائلها، والطفل في سن ما قبل المدرسة يكون ذلك دأبه، ويستمتع أيما استمتاع بأن يرفع الأغطية

والملاءات لينظر ما تحتها، أو ينحّي الستائر جانباً ليرى ما يكون خلفها. وقد يلذّ له أن يشاهد الآخرين وهم يلعبون، فيحاول أن يحاكيهم، والمحاكاة Imitation شكل جديد من اللعب، والفُرجة Spectating على الآخرين يلعبون لها متعة اللعب، وتستمر المحاكاة والفُرجة معنا حتى النهاية، ويقوم اللعب الإيهامي على المحاكاة، أي استرجاع الخبرات التي يمر بها الطفل فيعاود طرحها ولكن بطريقته وذلك يجعله يسيطر عليها. والفُرجة ميل شديد يكون بالأطفال لمطالعة كل ما يجري حولهم ويكبر معهم ليكون من بعد عند الكبار «حُمّى الفُرجة Spectatoritis» التي تستبد بهم، ويكون من خلالها تعينهم بكبار اللاعبين أو الفرق الرياضية المشهورة، وانتصارهم لها وفرحتهم البالغة بفوزها، واكتئابهم الشديد وحزنهم الواضح إذا حدث وهُزمت هذه الفرق أو خذلهم لاعبوها. ويعني «اللعب الإيهامي Make-believe play» أو «let's ptetend p.»: أن الطفل يتصور نفسه في أدوار Roles معينة. هذا التصور يعني أن الطفل قد بلغ مرحلة التصوّر من الذكاء، وهي مرحلة لا تأتيه إلا ابتداءً من سن السنة والنصف، وتستمر معه حتى نحو السابعة أو الثامنة، وفيها يستطيع الطفل أن يشير إلى الأشياء في حالة عدم وجودها بإشارات أو رموز تحلّ محلها ويعمّمها من بعد، ومن ثم فقد يرمز لأخيه بالدمية ويخاطبها ويتصوّرها تبكي ويهدهدها، وقد يقذف في الهواء بِكُرة مُتَصَوَّرة لا وجود لها، ويصبح في استطاعته دون أن يرجع إلى الأشياء الأصلية أن يقوم بسلسلة من الأفعال الإيهامية بالتفصيل، وأن يكرر مشاهد كاملة من الأحداث اليومية كأن يلعب «لعبة الآباء والأمهات»، أو «لعبة الشراء والبيع» في المحلات، ولا تكون الأشياء المتخيلة مجرد أشياء واقعية، بل قد تكون أشياء مخترعة لم تمر في خبرة الطفل. والكثير من الأطفال يكون لهم مثلاً رفقاء لعب متخَيَّلون - Imaginary play companions، ويعطونهم أسماء مُتَخيلة أيضاً هي في أحيان كثيرة تحريف لأسماء واقعية. ومع التقدّم في السن يتطور اللعب الإيهامي ليكون أكثر اتساقاً وتكون أحداثه أكثر تماسكاً. وعادة ما يكون تفكير الطفل

في اللعب الإيهامي تفكيراً إحيائياً Animistic، أي تفكيراً يضفي على الأشياء الجامدة من حوله حياة وروحاً بحيث يتخيّلها تضج من حوله بالحركة والكلام. ويؤثّر الغضب والإحباط في نوع اللعب الإيهامي، فيكون أبطال القصص في هذا اللعب هم الشخصيات التي تتسبب في الضيق للطفل. ويتسم اللعب الإيهامي للطفل الذي يتعرض للمضايقات بطابع عدواني صريح، ويخفف عنه أن ينفّس عن غضبه أو إحباطه في لعبه. وعندما يتيح اللعب الإيهامي للطفل أن يتخفف مما به من عدوانية في لعبه، فإنه يكون أقل عدوانية في سلوكه العادي مع الأطفال أو المربيات أو ذويه. ومن سمات الدُّمَى Dolls التي يلعب بها الطفل إيهامياً، أنها كلما كانت أكثر تجريداً من حيث الشكل كلما يتيح ذلك للطفل أن يتخيلها ممثّلة لمختلف الأشخاص أو الموضوعات، فمثلاً قد يُذكِي عُود من الحطب خيال الطفل فيعامله كحصان أو حمار أو أي حيوان يعرفه، أكثر مما يمكن أن تهيؤه له دمية حقيقية لها شكل الحصان أو الحمار فعلاً. ومن دأب الأطفال أن يتخيلوا الأشخاص الذين تقع منهم مضايقات لهم باعتبارهم أشراراً أو عفاريت أو سحرة أو مُسوخاً شائهة. ويكشف الطفل في لعبه الإيهامي حقيقة مشاعره نحو الناس والأشياء، ومن ثم يكون اللعب الإيهامي وسيلة إسقاطية ويسمى «اللعب الإسقاطي Projective p.»، ويستخدمه علماء التحليل النفسي كوسيلة تشخيصية لمعرفة ما يضايق الطفل ويتسبب عنده في المخاوف أو التهتهة أو التبوّل الليلي أو غير ذلك من الاضطرابات، عندما لا تكون أسبابها عضوية وتدفع إليها عوامل نفسية محضة. ولا ينتهي هذا اللعب الإيهامي ببلوغ الطفل السابعة أو نحوها عندما يزيد احتكاكه بالحياة ويتجه تفكيره لأن يكون منطقياً وليس انفعاليا، ويصبح هذا اللعب من بعد هذه السن «لعباً تخيلياً Fictional play»، وقد يتحقق عنده وهو يحاول أن يقلّد الناس من حوله ويحاكي حركاتهم وطريقتهم في الكلام ويعتمد على المحاكاة في رواياته للأحداث، ومحاكاته ليست طبق الأصل ولكنها لأبرز ما يسترعي الانتباه عنده فيهم. واللعب التخيلي يساعد الطفل على

التمثّل بمختلف الأدوار وإدراك مضمونها والتمييز بينها، والتعيُّن ببعض الناس وتمثّل أخلاقياتهم وأهدافهم، وقد يكبر معه أكثر من ذلك ويكون لعباً درامياً Dramatic play يظهر كقدرة على التمثيل، ويكون دافعاً للطفل إلى أن ينخرط في الفرق التمثيلية، وأن ينمّي هواياته تلك حتى ليمكن أن يكون التمثيل موضوع دراسته ويحترفه من بعد، أو يكون التمثيل موضوعه الأثير للفرجة وتستهويه الروايات التي لموضوعاتها وشائج تربطها بميوله واتجاهاته وعُقَده والمكبوت في نفسه من الرغبات والصراعات.

واللعب في الطفولة الباكرة عندما يكون بقصد التنشيط وأن يمارس به الطفل وظائف أعضائه يُسمَّى لعباً وظيفياً Functional play، ويظل هذا اللعب معه باستمرار مع مراحل عمره كلها يهدف منه إلى أن يصقل مهاراته الحركية. واللعب الذي يتمثل في تعشّق الطفل للحكايات والاستماع إليها، وتأمل الصور، ومشاهدة أفلام الكرتون ومسرحيات العرائس، ومحاكاة ما تعرضه ولو محاكاة داخلية، هو «لعب إستقبالي Receptive play»؛ فإذا انهمك الطفل في أن يجرّب الرسم بالألوان أو الطباشير، أو أن يصوّر الأشياء بالصلصال والرمل والطين، أو أن يشكّلها بالمكعبات، فلعبه يطلق عليه إسم «اللعب الإنشائي Constructive play»؛ وإذا جرّب أن يصدر أصواتاً، أو يلعب بآلات موسيقية، أو يغني، فلعبه يقال له «اللعب الموسيقي Musical play»، وكل ذلك أنواع من اللعب يأتيها الأطفال في نحو الثانية وقبل أن يلتحقوا بالحضانة في الثالثة، حيث يبدأ اللعب يتخلّى قليلاً عن انفراديته، وعن أن يكون «لعباً منزلياً Indoor play»، ويبدأ يكون بمشاركة الآخرين، و«خارج البيت Outdoor play»، أو يكون محاكاةً للآخرين في لعبهم، وهذا هو «اللعب المتوازي Parallel play». فقد يظل الطفل يلعب بألعابه دون أن يتعاون مع الأطفال الآخرين أو يتبادل معهم ألعابه، إلا أنه يلعب بها في حضور الأطفال، وهو يُقبِل على اللعب أكثر كلما تواجد مع الأطفال، ولا يبدأ «اللعب التعاوني Collaborative play» الحقيقي إلا في نحو السابعة، وكلما تقدّم الطفل في

السن كلما كان أقدر على اللعب التعاوني، ويتوقف التعاون بين الأطفال في لعبهم على درجة صعوبة الألعاب. واللعب التعاوني يزيد قدرتهم على التواصل فيما بينهم، ويزداد حجم الجماعة التي يلعب معها الطفل مع تقدم السن، ففي نحو سن الثالثة قد تقتصر «جماعة اللعب Playing team» غالباً على ثلاثة أطفال، ولعبهم معاً لا يستمر عادة لفترة طويلة فسرعان ما ينفرط عقدهم، إلا أنهم في نحو سن الخامسة تكبر جماعتهم فتضم أربعة أو خمسة أطفال ويدوم لعبهم لمدة أطول. ومن الملاحظ أن الأطفال قبل سن الثانية أو الثالثة ليس بوسعهم أن يتواجدوا معاً لأكثر من طفلين غالباً يترافقان معاً، والطفل لا يمكنه أن تكون له علاقة حسنة بأكثر من طفل في الوقت نفسه والمكان نفسه، وحينما يوضع ثلاثة أطفال معاً فإنه لا يلعب منهم معاً في أية لحظة إلا اثنان فقط. ويطمئن الأطفال إلى اللعب معاً في حضور الأمهات أو إذا كانت البيئة التي يلعبون فيها مألوفة لهم، ولعبهم مع إخوتهم أكثر. ومن المألوف أن يتلامس الإخوة بين الثانية والثالثة، وأن يقعوا معاً، ويتمرغوا على بعضهم البعض في نوع من «اللعب بالتلامس Tactile play» كما تفعل صغار القطط والكلاب وغيرها من الحيوانات. ولا يعني قيام اللعب التعاوني بين الأطفال أن استجاباتهم لبعضهم البعض فيها مشاركة وجدانية، أو أنها استجابات تعاطفية تجاه شركاء اللعب. وكثيراً ما يكون اللعب التعاوني في السن قبل الحضانة تخيُّلات جماعية، فمثلاً يحب الأطفال في هذه السن لعبة القاطرات، إلا أن كل طفل لا يتخيل نفسه إلا في دور السائق، بينما الأطفال غيره يراهم في أدوار الركاب. ولا يرقى اللعب التعاوني أو المتشارك إلى مستوى «اللعب الاجتماعي Social play» إلا بعد أن يتعلم الأطفال الكثير. واللعب الاجتماعي عندما يبدأ الأطفال ينمو معهم ويستمر في الترقّي إلى ما نعرفه من اللعب المنظم بين الكبار. و«اللعب المنظم Organized play» هو الذي يسير وفق القواعد والأصول، ويكون بالمشاركة، ويقوم على التعاون، وتُحصَى فيه الكثير من العلاقات الاجتماعية. وهو بقدر ما يقوم على المشاركة والتعاون من ناحية فإنه يقوم

أيضاً من ناحية على التنافس. ولا يعني أننا نحتاج إلى شركاء في اللعب أن ترتفع المشاجرات بين الشركاء، وليس التنافس في اللعب وتأكيد اللاعب لذاته على شركائه إلا نتائج للعب الاجتماعي أكثر منها أسباباً له. وقد يرقى هذا اللعب ليصبح هواية Hobby، ومن ذلك «هوايات تربية الحيوانات Animal hobbies»، والهوايات الحرفية Craft hobbies كالنجارة، والتصوير، والتفصيل، والبستنة .Gardening hs.

وعادة ما يتوجّه الطفل قبل سن الثانية بثورات غضبه إلى الكبار من حوله، وأما بعد الثالثة أو الرابعة فإن العراك مع الأطفال الآخرين تكون له الصدارة، وهي السن التي تكون للأطفال أهمية بالنسبة لبعضهم البعض، وقبل الثانية لا يلحظ الأطفال بعضهم البعض كثيراً، وفي الثالثة يضطربون إذا تبين لهم أن آخرين يلحظونهم وهم يلعبون، وذلك أن أداءهم لأي لعب لا يكون بالمستوى والإنجاز الذي يعجبهم، إلا أنهم بعد ذلك وفي نحو الخامسة يختار الطفل طفلاً آخر يلعب معه، ولعبهم يكون أفضل إذا جرى وهم أزواج أكثر منه وهم فرادى، ويرتفع الأداء مع النمو في السن ووجود التنافس، والأطفال بعد الثالثة يميلون إلى التنافس، ولو حدث واجتمعوا وقال واحد منهم أن لديه قاطرة، يقول الباقون: هم أيضاً لديهم قاطرات، وهكذا في كل شيء. وقيل إن سن السابعة أو الثامنة هي السن الانتقالية التي يكون فيها تحوّل اللعب التعاوني إلى لعب الجماعات والعصابات Gangs، ويستمر هذا التحول حتى الثانية عشرة، والطفل في هذه السن يبدأ يعزف عن ألعابه الانفرادية، وينتظم في الجماعة أو العصابة، ويكون التنافس ليس بينه وبين طفل آخر ولكنه التنافس بين جماعته وجماعة أخرى، أو بينهم كجماعة أطفال وبين جماعة الكبار، والتحدي هو سمة هذا التنافس، ويندرج الأطفال في ألعابهم الجماعية في شكل الركض والقفز والمصارعة، وكل أنواع الألعاب التي فيها الحركة والعنف والتحدي، ويلاحظ ذلك على الصبيان أكثر من البنات، وفي هذه السن يكون الافتراق بين الصبيان والبنات، وتدوم الجماعة أكثر وكذلك يقل تقلب الطفل في

صداقاته الفردية. ويعتمد قيام العصابة على ظروف أفرادها الاجتماعية والتركيبات النفسية التي لهم. وربما كان انفراق البنات عن الصبيان في هذه السن مرجعة للضغوط الاجتماعية، وقد لوحظ أن «جماعة اللعب» التي تواجَه بالمقاومة من الكبار يزيد تماسك أفرادها. وتميل جماعة اللعب المسماة باسم العصابة إلى أن يؤلفها الأطفال الذين طالت معاشرتهم لبعضهم بحكم المعرفة الوثيقة من الطفولة الباكرة، وتكثر كظاهرة إجتماعية في الأحياء الفقيرة، حيث يكون لها إشباع نفسي كبديل لحالات العوز والفقر والحرمان العاطفي، بالنظر إلى التفسّخ العائلي الذي يعيشه أطفال هذه الأحياء. والعصابة أو الشِلّة لها قواعد سلوك خاصة بها يدين لها الأطفال بالولاء في ألعابهم.

وربما تكون هناك ممارسات جنسية للأطفال حتى قبل البلوغ. و«اللعب الجنسي Sexual play» يعرفه الأطفال عموماً منذ الحضانة، فقد يجد الطفل متعة جنسية وهو يمسك قضيبه، وقد ينخرط الأطفال الكبار في التنافس على التبوّل لأبعد مدى، أو في الاستعراض بالقضيب، وقد يكون لهوهم باستعراض الاستمناء الجماعي، أو تبادل الاستمناء، أو إتيان الجنس صريحاً واستعراض معاودته لمرات.

والكثير من اللعب في المراهقة وما قبلها يقوم على المحاكاة والتقليد بتأثير ما يسمى «الأقران Peers» أو الصحاب من أعضاء الشِلّة أو العصابة. والكثير من هذا اللعب تُسنَد فيه الأدوار للاعبين وتكون له قواعد وأهداف. ويخلص اللاعبون للجماعة وتكون لهم تخيلاتهم العالية، فقد يحسب اللاعب في مباريات كرة القدم أو غيرها أنه يلعب ليرفع إسم بلده، وربما يتصور أنه يلعب لفتاته أو لكي يصفق له الجمهور.

واللعب قد يقبل عليه الناس في أي عمر وأية مرحلة كممارسة ونشاط، وقد ينمو ذلك معنا ويلازمنا دائماً، حتى انه في تدريبات الجيش - وهي آخر ما يمكن أن يقال عنها إنها لعب، قد تُمارس كألعاب ولو أنها في الواقع تدريبات. واللعب من هذا النوع هو تسام بغرائز القتال

والصراع، ومن شأن هذا التسامي أن يجعل هذه الغرائز تمارَس تحت إسم الفروسية والشجاعة والتضحية والفداء، أو في شكل رقصات الحرب. وهناك فروق لذلك بين الشعوب والأفراد في ألعابهم.

ويميل الناس في الشعوب التي لها حاصل ذكاء عالٍ إلى الألعاب التي تشتمل على الكثير من النشاط العقلي، وكذلك يميل الأفراد من ذوي الذكاء العالي إلى الألعاب التي ليس فيها صخب. ويكثر بين الأطفال الموهوبين أن يختاروا شركاء لهم في اللعب من تخيلاتهم، ويكثر كذلك أن يلعبوا وحدهم. ويتميز لعب الطفل الذكي بأنه أكثر تنوعاً وتلوناً ونضجاً، وعلى عكس ذلك يكون لعب الطفل المتخلف عقلياً، فهو أقل تجديداً في لعبه ويفضل الألعاب التي ليس لها قواعد معقدة. والصبيان بشكل عام أكثر خشونة في ألعابهم من البنات، وتشجّع البنات في كل الثقافات على اللعب الهادئ، ويحب الصبيان «ألعاب التنافس Competitive plays» عن البنات. والطفل الذي يُحرَم اللعب ينشأ متبلد المشاعر والذكاء وعاطل من المهارات الاجتماعية. ويؤثّر الحرمان من الأسرة وخاصة الأم، والنشأة في الملجأ أو المدرسة الداخلية، يؤثر في فاعلية الطفل في اللعب، وهو يأتيه بدون اهتمام، وربما ترجع السلبية عند هذا الطفل إلى حرمانه من المؤثرات في اللعب، بالنظر إلى اختلاف طبيعة المؤسسات عن البيوت، فطفل المؤسسة إنفعالاته محصورة في سريره وأقرانه ودميته، بينما الطفل في البيت يُحتَضن كثيراً ويُحمَل ويتحدثون إليه ويضحكون معه. ولاتجاهات البيت تأثيرها كذلك على اتجاهات اللعب عند الطفل الراشد. ومن دأب الطفل الذي ينشأ في البيوت التي يُطلق عليها إسم البيوت المتسامحة Tolerant homes، والتي تقوم التربية فيها على التحرر من القيود والمخاوف، أن يكون لعبه متحرراً ومنطلقاً ويتميز بالأصالة والتجدد، وعلى عكس ذلك يأتي الطفل الذي يتربّى في بيت مستبد Authoritative home فإنه يكون خانعاً ويميل إلى الألعاب الهادئة ويخاف من التجديد. كما أن الزيادة في تدليل الطفل Child-pampering تطبعه بطابعها فلا يحب الألعاب التي فيها مجازفة، ويخشى

على نفسه من الخشونة، ومن ثم يكبر وبه نقص واضح في المهارات الاجتماعية.

وليس من المستخب أن يكثر الآباء من شراء الدُّمَى وأدوات اللعب للطفل، فذلك يشغله بها عن الاتصال الجماعي، ومن ناحية أخرى فإن نقص هذه الدمى والأدوات يصرف الطفل الى اللعب بالرمل والتراب والحجارة والطين والماء ويتعرض لأن تتسخ ملابسه. والطفل الذي يجد ما يلعب به في حدود ذكائه وطاقته الحركية تنمو فيه الميول للتنشّط والاستكشاف والبناء. وكذلك تختلف تأثيرات الألعاب على الأطفال، فالألعاب التي تحتاج لشركاء تساعد على تنمية الاتصال بالآخرين، والطفل الذي يلعب بالعروسة أو يلوّن بالقلم يميل إلى أن يتحدث مع زملائه، على عكس الطفل الذي ينهمك في قصّ الورق أو التلوين بالزيت أو مطالعة الصور في الكتب. ويألف الأطفال بسرعة الألعاب التي لها ملمس ناعم، و«الدمية ذات الملمس الناعم» أهم بالنسبة للطفل من الدمية ذات الشكل الحسن، ويفيد احتضان الدمى من هذا القبيل في تخفيف توتر الطفل وقلقه، وقد تقوم مقام الأم عنده، وتستخدم كوسائل إسقاطية يعبر الطفل من خلال تعامله معها عن مشاعره تجاه نفسه وذويه والآخرين.

وكان فرويد هو أول من استخدم اللعب كعلاج ووسيلة تشخيص لحالة طفل صغير إسمه هانز، وعُرفت حالته في تاريخ التحليل النفسي باسم «حالة هانز الصغير Little Han's case». وطوّرت ميلاني كلاين Melanie Klein (١٨٨٢ - ١٩٦٠) طريقة فرويد واستخدمت «اللعب الحرّ Free playing» مع الأطفال في مكان التداعي الحر للألفاظ مع الكبار، وافترضت أنه في اللعب الحر يُسقط الطفل صراعاته ورغباته دون أن يعي ذلك، ومهمة المعالج النفسي تكون بأن يُصادق الطفل ويلعب مع ألعابه، ويستوضحه مشاعره وسلوكه، ويفسّر له ذلك من خلال اللعب واضطلاعه بالأدوار المختلفة التي يلمس أن الطفل يريده أن يضطلع بها، وتساعده على إظهار حقيقة مشاعره، ويكون تفاعله فيها مع الطفل إيجاباً. وتؤكّد أنّا فرويد Anna Freud (١٨٤٧) على دور المعالج النشيط في

توجيه الطفل من خلال اللعب أكثر من تفسير العلاقات له في اللعب. ومن خلال اللعب تكون إعادة تشكيل سلوكياته وتعليمه تربوياً، على عكس طريقة ميلاني كلاين التي تعتمد على التفسيرات التي تقدّم عن ألعابه الرمزية، حتى أن بعض المعالجين الذين يأخذون بمذهبها لا يهتمون باللعب إلا لأنه مجرد طريقة للتواصل مع الطفل المريض، بالنظر إلى ما يمكن أن يخلقه اللعب من ظروف ومواقف إجتماعية ومناسبات وموضوعات للكلام معه. وربما كان اللعب الحر بطريقة «العلاج غير الموجه Non-directive psychotherapy »، أو «العلاج المتمركز حول العميل -Client centered psychotheray»، بدون أي توجيه أو تفسير من الكبار، له ميزة علاج الكثير من الاضطرابات الانفعالية. ويقتصر دور المعالج على أن يكون لعب الطفل تحت إشرافه، فيوافق أو يسمح أو يبيح له أن يأخذ زمام المبادرة، ويفترض أن الطفل في هذه الحالة سيُخرج في اللعب صراعاته واندفاعاته غير المقبولة إجتماعياً، ويكون اللعب بمثابة التطهير Purgation أو Catharsis له منها، وذلك لأن إفراغ Cathecting الانفعالات عن طريق اللعب في مناخ يوحي بالطمأنينة للطفل ويَشعُر فيه أنه آمن، يؤدّي بالضرورة إلى خفض ما عند الطفل من قلق، فيستطيع بعد ذلك أن يتوافق مع المتطلبات الاجتماعية بشكل أسرع وأيسر. ويُطلق على العلاج بالطرق السابقة إسم «العلاج باللعب Play therapy»، وتتنوع أساليبه بتنوع المدارس النفسية، فنظريتا الجشطلت والمجال تفترضان مثلاً أن تطور الشخصية يتوقف على نوع التمايز الذي للأفراد. واللعب هو طريقة الطفل لاكتشاف العالم والتوافق معه وتعلّم التناسق الحركي واستخدام الرموز والتخيّل، ومشاركة الكبار للأطفال في ألعابهم يؤكّد للأطفال صلاحية ما يقومون به وما يتضمنه لعبهم من المعاني. ويستخدم اللعب في كل المذاهب النفسية لقيمته التربوية، وبهدف التعديل في سلوك الطفل، أو لمساعدته على فهم مشكلات مثل مولد أخ له، أو خَلْق العالم، أو التغلب على

غيره من الأطفال. واللعب في التحليل النفسي يصدر عن تنامي الطاقة الليبيدية ويتطور بتطورها، وهو سلوك بديل لما يمكن أداؤه في الواقع، وتكون به السيطرة على أنواع القلق، من حيث أن الطفل يمكن أن يعيد تمثيل المواقف المسببة له، ويتعامل معها من جديد التعامل الذي يدعّم أناه ويقوّي ثقته في ذاته، فيستطيع من ثم مواجهة أية اضطرابات مستقبلة بثقة أكبر (أنظر أيضاً المحاكاة، والعلاج النفسي).

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Millar, S.: Psychology of Play.
- Piaget J.: Play, Dreams and Imitation in Childhood.
- Beach, F.A.: Current Concepts of Play in Animals.
- Lehman. H.C. & Witty, P.A.: The Psychology of Play Activities.
- Schlosberg, H.: The Concept of Play.

❖ ❖ ❖

- ١٩ -
سيكولوجية المحاكاة

التعلّم بالمحاكاة. أنواع المحاكاة. المحاكاة الرمزية. النموذج في المحاكاة. الاستهوائية. المحاكاة الخلاّقة والهستيرية...

❖ ❖ ❖

يتم اكتساب الكثير من المهارات والقيم والتقاليد والعادات والاتجاهات بتقليد الآخرين عليها، ونحن نتعلم بالمحاكاة Imitation، ونتعلم أيضاً أن نحاكي في المراحل المبكرة من العمر. وقيل إن الطفل في أسابيعه الأولى بعد الولادة يدرك الانفعالات، ويلحظ تغيرات الوجه في نحو الشهر الثالث ويفهم معانيها، ويأخذ في تقليد الآخرين عليها، فإذا كان في الشهر السادس فهو يتجاوب مع ما يُطلَب منه ويرى ذويه يؤدّونه أمامه، ويتعلم أن يقلّدهم مودعاً وملوحاً بيديه، أو واضعاً يده على فمه

كأنما يعني أنه يرسل قبلة في الهواء، وهو في الشهر الثاني عشر يبدأ يقلّد الأصوات. والحافز إلى التقليد يبلغ أشدّه في العمر من السنتين إلى الثلاث سنوات عندما يبدأ يُلبِس نفسه، ويأكل بنفسه، ويحاول أن يسيطر على نطق الكلام، ويحاكي الوالدين والمحيطين به من الكبار فيما يأتيانه من حركات وخصائص، وما يصدر عنهم من أقوال يردّدها ترديداً، ويلحظ ذلك كله منهم ويكرّره المرّة تلو المرّة وكأنه يدرّب نفسه عليه، ومن ثم يتعلم الكثير حتى ليعجب مَن حوله متى تعلّم ذلك وأين تعلمه، ولكنها قوّة الملاحظة فيه وتنبّهه لما يدور حوله وتقليده له. وقد يساعده الكبار على التقليد بأن يتحدّثوا إليه في وضوح، ويكرروا الكلمات أمامه ويُسمِعوها له كثيراً، ويشجعونه على التقليد، ويطلعوه على الأشياء ويفكّوها أثناء مطالعته لهم، ويطلبوا منه أن يفعل الشيء نفسه. وكلما حاول المحاكاة إمتدحوها فيه، وكلما كرّر واسترجع وقال ما يريدونه أن يقول، أثنوا عليه وعزّزوا فعله واستحسنوه.

ومن المحاكاة ما قد يكون كأنما هي عدوى سلوكية Behavioral contagion، كالتثاؤب نأتيه عفوياً ولا إرادياً دون إعمال فكر أو إرادة لمجرد أن آخر يتثاءب. ومنها ما يكون منابةً لإتيان سلوك كسلوك الجماعة، وعندئذ لا يكون السلوك المحاكِي طبق الأصل كالسلوك المحاكَى «بفتح الكاف» مثلما يرى أطفالٌ أحدَهم يرسم فيطلبون ورقاً وأقلاماً ليرسموا هم أيضاً، فرغم أنهم يحاكونه في فعله إلا أن رسوماتهم تختلف قطعاً عن رسومات بعضهم البعض. وهناك المحاكاة بالملاحظة i. through observation، وهي التي يقوم عليها التعلّم غالباً كما أسلفنا، وكانت مدار بحث وتجريب من علماء النفس منذ القرن الماضي. والمعروف أن مصطلح المحاكاة لم يدخل علم النفس إلا سنة ١٨٩٠، عندما بدأ البحث في مجالها من قبل علماء أمثال جابرييل تارد Tarde (١٨٤٣ - ١٩٠٤) في كتابه «قوانين المحاكاة Les lois de l'imitation»، ووليام مكدوجال (١٩٠٨) صاحب كتابه «مقدمة في علم النفس الاجتماعي Introduction to Social

«Psychology». والمحاكاة في أول عهدنا بالحياة تكون «تلقائية وعفوية Spontaneous»، أو أنها «غريزية Instinctive»، نأتيها من غير تعلّم وبدون خبرة ولا قصد. وهي شيء أشبه بالانطباع Imprinting، مثل أفراخ البط التي بمجرد أن تخرج من البيض تتابع أمها في السير، وقد تبين أنها من الممكن أن تتابع أي شيء يتحرك ككرة متدحرجة أو المجرّب نفسه. والفطري فيها هو «سلوك» المتابعة وليس «موضوع» المتابعة. وكذلك المحاكاة عند الطفل في الأسابيع الأولى، فإنه يأتيها كأنما هو «مطبوع» المتابعة. وكذلك المحاكاة عند الطفل في الأسابيع الأولى، فإنه يأتيها كأنما هو «مطبوع» على ذلك، ثم من بعد ذلك تكون المحاكاة تصوّراً وتمثّلاً للمواقف والناس، ويتم ذلك بالتشجيع على المحاكاة من قبل الأهل والأقارب. ولو لم يكن هذا الاستعداد للمحاكاة موجوداً لدى الطفل ما طاوع أهله عليها. والمحاكاة من النوع التلقائي، وكذلك «المحاكاة الرمزية» عند الأطفال الكبار، لازمتان لنمو الطفل وتعلّمه، وبدون المحاكاة لن يتعلم الطفل اللغة، وقيل إنه حتى في اللغة فإن أساسياتها البسيطة فطرية في الطفل، ولهذا يسهل عليه من بعد إستحضارها صوتياً بالمحاكاة عليها، وليس خطأ الطفل في المحاكاة في اللغة لأنه يسمعها خطأ ويقلّد الخطأ، ولكن لأن هذه الأساسيات النحوية عنده بسيطة جداً، فلا تسعفه بفهم الفروق بين الحاضر والماضي، والمفرد والمثنى، ومن ثم فرغم حرصه على المحاكاة إلا أنه بسبب عدم النضج والتهيؤ الكامل للمحاكاة الصحيحة، يجانبه التوفيق فيها، ولهذا السبب كثيراً ما تضحكنا محاكاة الأطفال. والمحاكاة لازمة للطفل لتنشئته إجتماعياً، والطفل يحاكي الطفل الأكبر، كما يحاكي الراشد، بسبب أنهما أكبر منه. والناس عموماً تحاكي الأكبر سناً، أو مركزاً، أو علماً، أو الأكثر أناقة أو بلاغة أو فصاحة. ويُطلق على من يحاكونه إسم «النموذج Model» أو «المثال». ومن الممكن أن يحاكي الطفل الشخص المؤثّر في حياته، أو الذي يهديه الحلوى،

أو يقصّ عليه القصص. والشخصيات الجذّابة يمكن أن يحاكيها الكبار أيضاً. وأما الذي يقوم بالمحاكاة فهو «إستهوائي» غالباً، وقد يعاني من نقص في اعتبارات الذات، أو قد تكون له شخصية اعتمادية، أو ربما يعاني من كثرة الفشل فتتزعزع ثقته بنفسه ويميل لذلك إلى مسايرة الآخرين. وربما لهذا السبب كانت البنات أكثر ميلاً عن الصبيان إلى المحاكاة، بسبب تنشئة البنات تنشئة تطبع فيهن الانقياد، ومع ذلك يتوقف سلوك المحاكاة عند المفاضلة بين الذكور والإناث على من يكون صاحب الشخصية الأقوى في موقف المحاكاة. والصبيان عموماً أميل إلى محاكاة سلوك العنف من البنات. وليس من الضروري تواجد النموذج في الموقف لكي نحاكيه. ويختلف مفهوم «القوة» بحسب التربية، وهناك ما يثبت أن الأولاد الصغار يميلون إلى محاكاة شخصيات الأفلام الطيبة، والشخصيات القادرة، وقد تكون «القدرة» في القصة أو المسرحية للشخصية الشريرة، فتكون محاكاتهم لها. ويبدو أنه كان لا بد للمحاكاة في الطفولة الباكرة أن تكون فطرية، حيث يكون الطفل لا حول له ولا قوّة، وليس من سبيل أمامه إلا أن يحاكي ليستمر في البقاء، وتمكّنه المحاكاة من التعيّن بالأكبر منه، والأقدر، فيسلك سلوك القدرة ولو لم يتهيأ له، ويتعلم من المحاكاة كيف يتصرف بالبكاء، وما الذي ينبغي أن يقول ويفعل. والتعيّن والتصوّر الإيهامي من أهم ظواهر الطفولة ومقوماتها على المحاكاة. وفي المراهقة وما قبلها يساعدانه على أن يعثر لنفسه على هوية، ويشق لنفسه طريقاً، ويجد ذلك فيما يسمى عبادة البطل Hero-worship، حيث قد يتعيّن بمُصلح كبير، أو زعيم، أو قائد، أو شاعر، أو ممثل، ويحاول أن يحاكيه في سلوكه، ومن شأن ذلك أن يطوّر تمثّلات الطفل وينمّيه عقلياً ووجدانياً. وفي الكِبَر يستمر معنا سلوك المحاكاة، وربما يكون أيضاً لمشايعتنا للأقوى، أو ربما تيمُّناً واستجلاباً للبركة أو للمنفعة. ولو لم تكن المحاكاة لما كان ميلنا إلى مسايرة الأغلبية واعتناق أفكارها،

ومتابعة أهل الرأي والحل والعقد والثقاة من أقوامنا. ويستغل المعلنون هذا الميل للمحاكاة للمرموقين، فيفضلون أن تكون الدعاية لسلعهم عن طريق الممثلين المشهورين، أو لاعبي كرة القدم البارزين وهم رموز المجتمع، والمحاكاة لذلك رمزية Symbolic i.، ولها تأثير كبير على سلوك المستهلكين.

والمحاكاة لا تعني النقل Copying، ولا المماثلة Mimicking، لأن النقل هو تقليد طبق الأصل لا أصالة فيه ولا ابتداع، والمماثلة نقلٌ مبالغ فيه، وأما المحاكاة فهي صياغة Modelling للسلوك، فيشكل المحاكي ما يقول أو يفعل على منوال الآخر، ويقتضي منه ذلك أن يفهم القواعد التي يقوم عليها السلوك الآخر، فيلتزمها دون أن ينقل السلوك نفسه، وذلك عملٌ خلاّق يميل بالبعض إلى أن يقول بما يسميه «المحاكاة الخلاّقة Creative imitation»، وربما كان هذا هو ما يلتزمه الأتباع والحواريون بصدد محاكاتهم للنموذج أو المثال.

وللمحاكاة مزايا وأوجه قصور، ومن مزاياها أنها اختصار للوقت في التعلّم، ويكفي فيها قاعدة «إفعلْ كما أفعل Do as I do» ليتعلم الشخص الطريقة دون أن يُلمَّ بالأسباب التي حدت إليها أو الفلسفة خلفها. ويكفي العامل أن يلاحظ العمال يعملون ليقلدهم على عملهم، أو يكفيه أن يشاهد فيلماً عن ذلك. و«المحاكاة الاجتماعية Social i.» يكون بها تعلّم العادات الاجتماعية التي بدونها لا يكون الاجتماع. والذي يحاكي يستشعر بعملية المحاكاة أنه واحد من أعضاء المجتمع، وتتأكد بمحاكاته لبقية الأعضاء ولاءاته الاجتماعية، ويقوى به الانتماء للمجتمع. ومن جهة أخرى فإن الغلو في المحاكاة والأخذ بها كأسلوب حياة يجعل الشخص تابعاً دائماً، ويقضي على استقلاليته، وينفي عنه التفكير الإبداعي، ويُرديه في حمأة الآلية، دون فهم للأمور ولا إعمال فكر في المشاكل، وقد يقبل لذلك آراء الآخرين دون تمحيص، وينخرط في الانحيازات، ويكون تقليدياً في حياته.

ومن المحاكاة سلوك مَرَضِي يقال له «المحاكاة الهيستيرية Hysterical imitation»، فيأتي المريض به الأعراض

السلوكية نفسها التي يراها على آخر يتعيّن به فتتلبسه الأعراض ويأتيها مثله، فلو كان الآخر يشكو الشلل مثلاً فقد يصاب المريض بالمحاكاة الهستيرية بشلل أيضاً ليست له الأعراض التشريحية للشلل، ويقال له الشلل نفسي المنشأ، كأن يشكو الخدر في الذراع دون الساق، أو في الكفّ دون الذراع. وربما نلحظ هذه المحاكاة الهستيرية في بعض الناس حيث تجدهم يردّدون ما يقوله الغير أمامهم ترديداً بلا وعي ودون حاجة إليه، وهي الظاهرة المرضية التي يقال لها الصداء اللفظي Echolalia. وهناك الظاهرة المماثلة والتي مجالها الحركة وتسمى لذلك الصداء الحركي Echopraxia، وهي محاكاة قد يأتيها البعض أيضاً دون وعي، فإذا قَطّب المتحدث مثلاً فقد يُقطّب أيضاً المستمع، وإذا ضحك المتحدّث ضحك المستمع، وقد ينهض فينهض مثله وهكذا، وتلك ظواهر مرضية نلحظها واضحة جلية عند مرضى الفُصام بالذات.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Millar & Dollard: Social Learning and Imitation.
- A. Bandura: Social Learning and Personality.
- Ervin, S.M.: Imitation and Structural Change in Children's Language.
- Flanders, J.P.: A Review of Research on Imitative Behaviour.

❖ ❖ ❖

- ٢٠ -
سيكولوجية النَّوم Sleep Psychology

النوم والموت، واضطرابات النوم، وطقوسه، والحرمان منه، ودورة النوم.

❖ ❖ ❖

النوم: غشية ثقيلة تهجم على البدن فتُبطل عمل الحواس، وهذا المعنى في العربية غير موجود في أسماء النوم

الأوروبية، ففي الانجليزية الكلمة Sleep، أصلها جرماني من Sleps وSlaf، ومنها Schlaf الألمانية، وSlaap الهولندية، والمعنى فيها جميعاً هو: التعب الخامل، نقول Schlafen أي خمل، نتيجة التعب، ومنها Schlapp الضعيف المنهك أو الخامل، وليس هذا هو المعنى للنوم في العربية؛ وكذلك كلمة Slumber الإنجليزية فإنها أيضاً تعني الخمول، ونترجمها في العربي النعاس. وأما كلمة Doze، ومنها Dizz، فهي الدوخة، ونترجمها الغفوة، ومثل ذلك Somnus اللاتينية، وSommeil الفرنسية، وSen الروسية، وSan الصربية، وجميعها ترجع إلى Sona الهندية، ولا تفي منها بوصف حالة النوم إلا الكلمة العربية «النوم»، فهي أدقها وأفضلها، لأنها تعني إضطجع ورقد، وسكن واطمأن، وهمد، تقول: نام العرق أي لم يعد ينبض.

والنوم Somnus إله النوم، إبن إريبوس ونوكس Nox، وهو صنو الموت – ثاناتوس Thanatos، ويقال للموت إنه نوم أبدي Somnus longus، والاثنان من أولاد الليل، ولمّا تناولت جولييت في مسرحية شكسبير «روميو وجولييت» عقار النوم، كان القليل منه يسبب النوم، والكثير يسبب الموت، فالنوم والموت شقيقان، وجولييت ماتت بالكثير من العقار. وأما «سنو وايت» في قصة «Snow White and the Seven Dwarfs» من تأليف الأخوين Grimm (١٨١٢م) فإنها أخذت القليل من عقار النوم فعاشت ولم يدركها الموت. وخلط «المسيح في قصة ليعازر» بين النوم والموت وساوى بينهما (يوحنا ١١/٤). والنظريات كثيرة في سيكولوجية النوم وفي فسيولوجيته، فعند إمبادوقليس Empedocles (٤٩٣ - ٤٣٣ ق.م.) فإن النوم يسببه ابتراد الدم ابتراداً طفيفاً، واعتبر أبقراط Hippocrates (نحو ٤٦٠ ق.م) هذا الابتراد بسبب انسحاب الدم، ونسبه أرسطو Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) إلى أن أدخنة الجسم تتجمع في الرأس فيبترد البدن وينام، وقال الأفروديسي Alexander of Aphrodisias (٢٠٠ م) إن الجسم يفقد حرارته في النوم، وقال غير هؤلاء إن النوم يتسبب فيه هزال يطرأ على المخ من طول اليقظة، وإن الأرواح الحيوانية تقل في

الجسم باستنزافها في العمل فيتراخى ويخمل، أو أن الأوكسيجين يقل بالمخ فتكون الحاجة للنوم لتجديد كل ذلك.

ولم يكن للنوم مكان معيّن قديماً، ثم صارت غرف النوم المستقلة، وأوقات النوم الخاصة. ولا يأتي النوم إلا على مراحل متتابعة، ويكون عميقاً في الساعات الأولى، ثم يخفّ بالتدريج، وله موجات كهربية بالمخ، وبروفيل خاص، ففي البداية تكون تموجات ألفا صغيرة وسريعة وغير منتظمة، ويتذبذب السجل الكهربي للعينين ذبذبات بطيئة تماثل حركة دوران العينين، ثم تظهر تموجات أكبر تُعرف بمغازل النوم، ويتدنى التوتر العضلي، وتهدأ العينان وتسكنان، وهذه هي المرحلة الثانية، ثم تزداد تموّجات السجل الكهربي وتصبح أشد بطأً وتسمى تموجات دلتا، ثم يكون الطور الثالث فتزداد التموجات كبراً، وكذلك في الطور الرابع، والمرحلتان هما مرحلتا النوم العميق، والتموجات فيهما من نوع دلتا، وقد تتغير حركة الجسم فيبدأ التسجيل من جديد، ثم نعود إلى المرحلة الأولى وهكذا، وفي الليلة الواحدة تكون هناك أربع دورات أو خمس، وسميت المرحلة الأولى والثانية مرحلتي النوم المُرمّش REM sleep، والمرحلتان الثالثة والرابعة مرحلتا النوم غير المرمش NREM sleep.

وزمن النوم حدّده البعض بست ساعات، أو بخمس للشباب والكهول، وست للتجار، وسبع للمترفين، وثمان للكسالى والخاملين. ويقضي الرضيع ثلثي اليوم نائماً، وفي الشهر الثالث قلما يستيقظ في الليل، وفي سن ستة شهور يقضي اثنتي عشرة ساعة نائماً، ثم يتحول نمط النوم بالتدريج مع تقدّم السن من النمط متعدد المراحل إلى النمط ذي المرحلة الواحدة. ويتساوى النوم المرمش والنوم غير المرمش عند الرضيع، وتزيد الحركة عنده عنها عند البالغ في فترات النوم المرمش، وتزيد أكثر عند الأطفال مبتسري الولادة، وتتناقص مدّة هذا النوم حتى تبلغ ٢٥٪ من الزمن الكلي للنوم في العام الثاني أو الثالث للطفل. وتأخذ كبار السن غفوات من النوم أثناء النهار، وينتشر نوم القيلولة Nap بالنسبة للكثيرين. والنوم المبكر والاستيقاظ المبكر أفضل صحياً

ونفسياً. والناس في النوم أنماط، فالبعض لا يجدون مبرراً للنوم المبكر في الليل، والبعض ينامون أول الليل ويستيقظون في الصباح أكثر نشاطاً وحيوية، والبعض ينامون لأربع ساعات فقط، وهناك من تطول فترات نومهم، وكان إينشتاين ينام عشر ساعات يومياً، وأنسب مدّة للنوم سبع ساعات، وما زاد عن ذلك أو قلّ دليل على وجود عوامل داخلية تتسبب فيه، ويكثر الموت بين من ينامون أقل أو أكثر من الساعات السبع.

ومن خواص النوم أننا نرى فيه الأحلام عن مشاهد من الماضي القريب أو البعيد، لها طبيعة جذابة، غير أن الأحلام عموماً تفتقر إلى الخيال، وكثيراً ما لا نتذكر ما حلمنا به في الصباح، وفي معظم الأحيان تكون ذكرياتنا عن الأحلام باهتة غير مشوّقة، وكل أحلامنا يظهر فيها على الأقل شخص من معارفنا، وفيها حركة، ومضمونها سلبي، والشفاء والهزيمة والفشل أكثر وقوعاً بها من الرضى والنجاح. وتكثر الكوابيس Nightmares بأحلام الأطفال، وهم يحلمون بالحيوانات، وتتمتع أحلامهم بقدر من النشاط، والأطفال في سن الابتدائي يكونون أكثر إيجابية وفعالية في أحلامهم، ومعظمها ليس من النوع المخيف.

وبعض الناس قد يرون أنهم لا يحلمون، وهذا وَهْم، وعلى العكس فإننا نحلم عدّة مرات أثناء النوم الواحد، وكلما طال النوم طال وقت الحلم، فإذا قصر النوم قصر وقت الحلم، وتتماثل وقائع الحلم مع الطول الفعلي لزمن الحلم. ولا يوجد إرتباط مباشر بين الرَّمَش ومحتوى الحلم. غير أن أحلام النوم المرمّش أكثر حيوية من أحلام النوم غير المرمّش.

وفي النوم نفقد السيطرة على مجرى الأفكار، وليست الأحلام خداعات، ولكنها مجموعة من الرغبات، أو المخلفات Day-residues من انطباعات الحسّ في اليوم السابق، أو أن للمثيرات الحسيّة الخارجية دوراً رئيسياً في استثارتها، وتنشأ حالة الحلم Dream-state من نشاط المخ نفسه، كما تنشأ حركات العينين من نشاط الشبكات العصبية المرتبطة بالبصر، وتنشأ إنطباعات الحركة عن إستثارة المناطق الحركية.

والأحلام لها مغزى حضاري، ومن خلالها نتصل بصور أخرى من صور الحقيقة أو الواقع. وقيل إن العالم الخارجي للحلم ليس فعلاً هو العالم الخارجي، ولكن منطقةٌ في ذهن الحالم، فالحالم لا يحلم بأشياء لا يعرفها وإنما بالأشياء فقط التي يعرفها. وتحتوي الأحلام على معنى ظاهر ومعنى خفي كامن. والحلم لغة الذهن أو العقل، ولا يقل عالم الأحلام في واقعيته عن عالم اليقظة، وإنما واقعيته واقعية مختلفة. وللأحلام نواح إبداعية تلهم الحلول، وتتيح الاهتداء إلى ما يَعْمى عنا في اليقظة، وقد يفيد البعض من الأحلام فيطلب أن يحلم، لعله في الحلم يرى حلاً لمشكلته، ولذا كان الذين يحلمون محظوظين، ولهذا قال الشاعر هيلدرلين Hölderlin (١٧٧٠ - ١٨٤٣): الناس ملوك عندما يحلمون، ومتسولون عندما يستخدمون العقل والحكمة!

ولاستجلاب النوم قد يلجأ الناس القادرون مادياً إلى استخدام الأقراص المنومة، وهي عادةً غالية الثمن لا يقوى على شرائها إلا المترفون، والمتوقع أن خُمس مواطني الدول الغنية يتعاطى الأقراص المنومة، ومنهم أربعون في المائة يبلغون الستين من العمر. وكان الناس في الماضي كلما أعوزهم النوم يلجأون إلى الخمر، إلا أنها تصيب متعاطيها بالصداع، بالإضافة إلى سوء رائحتها وبذاءة لسان شاربيها وسوء أدبهم. وفي العالم الثالث كانوا يتعاطون الحشيش لاستجلاب النوم، وكان المتدينون والفقراء يلجأون إلى استخدام بعض الأعشاب يغلونها أو ينقعونها لعلها تفيدهم كمهدئات، وكمدخل للنوم، مثل الينسون، والكاركاديه، وزهور الشيخ، ولم تعرف الأقراص المنومة Sleeping pills إلا ابتداء من سنة ١٨٦٥، حينما اكتشفت الباربيتورات Barbiturates، إلا أنها كانت تسبب الإدمان، وتُحدث جرعاتها الزائدة التسمم، فاستعيض عنها بالبنزوديازيبين من نوع الليبريوم والفاليوم، وانتشر استخدامهما بسرعة، وتأكّد أنهما يؤديان إلى الإدمان ويتطلبان زيادة الجرعة باستمرار.

وتستحدث الأقراص المنومة آثاراً سيئة على دورة النوم Sleep-cycle، ولها

نتائج نفسية خطيرة، وتؤثر بالإضعاف والإنقاص من النوم المُرَمَّش وغير المرمَّش، وتغيير السجل الكهربي للمخ، واستحداث الخلل في وظائف المخ، وفي قدرة النوم على تعويض نشاط المتعاطي. ولهذه الأقراص آثار لاحقة، ويغلب على المتعاطين النعاس في اليوم الثاني، ويختل بها التنبيه والأداء، ويضعف التركيز، وتتسبب فيما يسمى الأرق المرتد Rebound insomnia عند التوقف بعد فترة طويلة من التعاطي، وتظهر أعراض الانسحاب، ولذلك يتزايد استهلاك الأقراص عند كبار السن، وعند النساء بخاصة في منتصف العمر، ويشيع الإدمان بين هؤلاء، وقد يتسبب لهم ذلك في فقدان الذاكرة، والنسيان الكثير، والخلط، والدوار، وقد نظن ذلك عند النساء من أعراض الشيخوخة المبكرة، وعند كبار السن من أعراض الشيخوخة. وثبت جلياً أن من المستحيل تحقيق أن يوجد قرص النوم المثالي الذي يمكن أن يُعين مَن يتناوله على النوم في يُسر من غير مضاعفات لاحقة، وأن أقراص النوم شديدة الخطورة سواء على وظائف المخ أو انتظام النوم، ولذلك وجب أن يكون تعاطيها في أقل الحدود، ولأقل الفترات.

واضطرابات النوم أعراض شائعة لها أسبابها النفسية قبل أسبابها الفسيولوجية أو العضوية، وتبلغ نسبة الذين يعانون من هذه الاضطرابات بين الرجال ٧٪، وبين النساء ١٢٪، وعلى ذلك فاضطرابات النوم أكثر بين النساء منها بين الرجال، وتزيد مع تقدم العمر، وأكثر الشكاوى منها في صعوبة الدخول في النوم، وفي كثرة الاستيقاظ في الليل، وفي الاستيقاظ المبكر. وبعض الناس يشكون من الأرق في حين أنهم ينامون فعلاً، غير أنهم لا يشعرون أنهم في حالة طيبة في الصباح.

وتتنوع أسباب اضطرابات النوم، فالأرق مثلاً، الغالب فيه أن أسبابه نفسية، وأن صاحبه تلح عليه أفكار معينة كأنها الحواز، وربما تكون شخصيته من النمط القلق، أو أنه يعاني من صراعات نفسية، ومشاكل خارجية، ولعل شخصية ماكبث Macbeth في مسرحية وليام شكسبير، نموذج للمعاناة من الأرق نفسي المنشأ، وقد تتسبب الأمراض الداخلية

في الأرق، وكثيراً ما يرجع إلى أسباب من المحيط والبيئة الخارجية، وربما تكون الضجة في الشارع، والتلوث السمعي من أسبابه، إلا أن ما يعنينا هو الأرق النفسي، وهو الذي يتسبب في الأرق المزمن. وللطقس والتغيرات المناخية علاقة بانصراف النوم عند البعض، وقد يُحدث تغيير سرير النائم أو حجرة نومه أرقاً من نوع ما، وتؤثر في النوم الطريقة التي يقضي بها النائم الساعات السابقة على نومه والتي تسبق موعد نومه، والأوفق دائماً أن لا ينغمس من يعزم على النوم في أي أنشطة جسمية أو نفسية تتسبب له في الإجهاد البدني أو العقلي أو النفسي، وقد يكون الأرق من علامات الاكتئاب.

ولتحسين النوم عدّة وسائل، منها أن يكون التوجّه إلى السرير في موعد معيّن يدأب عليه الشخص ويواليه، والنوم جزء من إيقاع بيولوجي على امتداد اليوم بطوله، فإذا اضطربت مواعيد النوم المنتظمة فإن الشخص يعاني من اضطرابات النوم، وعليه أن يلجأ إلى التدريبات للاسترخاء، وأن يترك همومه وينصرف عنها ويركّز في أن يترك نفسه على سجيتها، وأن يستمع إلى موسيقى هادئة لو أحب، أو يقرأ قصة مبهجة، وأن يتجنب الإثارة والمهيّجات، وما يولّد التعب البدني والنفسي، ويتجنب نوم القيلولة، لأن الذين يعانون من اضطرابات النوم ليلاً يكونون عادة من الذين يُقبلون على النوم في الظهيرة. وعلى النائم أن يختار حجرة نومه بألوان معيّنة هادئة، وأن يكون سريره مريحاً، ومرتبته مستوية.

ومن اضطرابات النوم المشي أثناء النوم Sleep-walking أو Somnambulism، وهو اضطراب نفسي عضوي معروف من قديم الزمان، والمرضى به كثيراً ما يُشاهَدون يسيرون مفتوحي العينين ومبسوطي الذراعين فوق إفريز أسطح العمارات أو الشرفات، وكانوا قديماً يظنون أن المشي أثناء النوم إنما يكون تحت وقع أحلام معيّنة، وثبت خطأ ذلك، حيث أنه لا يكون إلا في فترات النوم العميق .Deep s وليس النوم الخفيف - أي في المرحلتين الثالثة أو الرابعة من مراحل النوم، عندما تكون الأحلام نادرة الحدوث. والصورة المألوفة بهذا

الاضطراب أن يُرى المريض به جالساً على سريره، نائماً أو مستلقياً مفتوح العينين، وقد ينهض ويقول بضع كلمات ثم يعود إلى النوم. والكلام أثناء النوم Somniloquy كالمشي أثناء النوم. وقد يتهيأ النائم للخروج ويغيّر ملابسه ويرتدي الملابس الخارجية، وهو يسمع ما يقال، ويرى ويبصر، ويتجنب أن يصطدم بشيء، ومن الممكن أن يجيب على ما يوجه إليه بكلمات من مقطع واحد، وكثيراً ما يعود إلى النوم ولكنه في هذه المرة لا يستلقي على سريره، وإنما ربما يستلقي في مغطس الحمام، ومن الخطأ الظن أن بوسعه أن يتجنب المخاطر، وعندما يستيقظ من نومه فإنه لا يذكر أبداً ما كان منه أثناء مشيه.

ومن اضطرابات النوم أيضاً: النوم المرضي أو الناركوليبسيا Narcolepsy، والنوم المفرط Hypersomnia، وفي النوم المرضي يأتي النعاس في شكل هجمة لا يستطيع المريض دفعها Paroxysmal sleep، وينام المريض لفترة قصيرة ويستيقظ أكثر نشاطاً، ويتكرر نومه واستيقاظه، وعندما تأتي الهجمة فقد يكون مضاجعاً لامرأته فيسترخي فجأة ويكف عن الحركة ويسقط نائماً، وقد تأتي الهجمة أثناء تناول الطعام أو وهو في الحمام، وسبب المرض سوء التوازن بين النوم الخفيف وبين اليقظة، وهناك حالات توصف بأنها رغبة مفرطة في النعاس Excessive drowsiness، وتأتي بالنهار، ويعاني المريض من صعوبة شديدة أن يبقى يقظاً. وهناك الإفراط في النوم ويرجع إلى اختلال نظام النوم واليقظة. و«مرض النوم Sleeping sickness» هو غفوة مستمرة بسبب التهاب في الدماغ. و«شلل النوم Sleep paralysis» يكون فيه النائم كالمشلول فلا يفتح عينيه ولا يغلقهما. و«النوم السُّكْري Sleep - drunkness» (من السُّكْر) يكون كالغفوة ويعاني النائم ما يشبه الكابوس. ونوم المساطيل Yen sleep من أثر المخدر، وYen كلمة صينية بمعنى الأفيون، ونوم المخدَّر كما يقولون: He sleep like a log، يعني ينام كلوح خشب، وكما يقولون: Dead to the world، يعني ميت عن العالم لا يدري بشيء.

والشخير Snoring، وتوقُّف التنفُّس Sleep apnea من اضطرابات النوم، ويقال إن ١٠٪ من البالغين يشخّرون شخيراً يُسمع من الغرفة المجاورة، ومن الممكن أن يصل علو الشخير إلى مستوى ٨٠ ديسيبل (وحدة قياس الصوت)، أي مستوى صوت الحفّار الميكانيكي في الشارع، وأنه من بين كل مائة رجل فإن ٣١ منهم غالباً يشخرون، بينما تبلغ هذه النسبة عند النساء ١٩ من كل مائة امرأة. ويحدث الشخير بسبب النوم على الظهر، وانزلاق اللسان والفك الأسفل أثناء ذلك، والتنفس من الفم، وتذبذب سقف الحلق، والسمنة المفرطة أو زيادة الوزن. وأما «توقُّف التنفُّس» فيستحدثه غالباً نقص شاذ في التوتر العضلي للحلق، والمريض يتوقف تنفسه عدّة مرات في الليلة الواحدة لعدّة ثوان، وعندئذ يتقلب في سريره، ثم يستأنف التنفس بشخير إنفجاري، ويتسبب ذلك في نقص الأوكسجين بالجسم، وزيادة ضغط الدم في مجرى الرئتين، وعدم انتظام ضربات القلب.

وللنوم طقوس عند «الحيوان»، ولكل حيوان طريقته الخاصة في استجلاب النوم، والمكان الذي يختاره لنومه، وله أوضاعه المفضلة عند النوم. ويلاحظ النوم عند كل الفقريات. ولا يستوي السُّبات الشتوي Hibernation الذي هو من عادة أنواع من الحيوانات. والنوم. وتلاحظ مراحل النوم الخفيف والنوم العميق عند الثدييات، والتناسب عندها بين النوم واليقظة متفاوت، وكلما صغر مخ الحيوان وارتفع معدل أيضه، تقصر دورة النوم غير المرمش والنوم المرمش. وتقضي الحيوان ذات الظفر وقتاً طويلاً في الاغفاء. و«للطيور» أنماط سلوك النوم نفسها كما عند الثدييات، والمؤكّد أن الطيور المهاجرة التي تضطر إلى عبور البحار والمحيطات والطيران بالأيام بشكل مستمر لا يمكن أن تستغني عن النوم أثناء الطيران، والغالب أنها تنام وهي منزلقة على التيارات الهوائية. ويختلف نمط النوم عند «الزواحف»، وتتعاقب أطوار الراحة والنشاط عندها جميعاً، وكذلك في «النباتات»، ويتعقّد النوم كلما اتجهنا من الكائنات البسيطة إلى الكائنات العليا، وكل حيوان أو كائن

يفقد جزءاً من النوم فإنه لا بدّ أن يعوّضه.

والحرمان من النوم يمكن أن يؤدّي إلى خفض قدرة الشخص على الأداء، وقد تكون له عواقب مأساوية على سائقي السيارات وعمّال الصناعة والعسكريين. وكان الناس قديماً يلجأون إلى أسلوب الحرمان من النوم كوسيلة للضغط على الشخص أو لدفعه على الاعتراف، والبعض كانوا يلجأون إليه كوسيلة تعذيب - التعذيب باليقظة Tormentum vigilae، أو التعذيب بالأرق Tortura insomniae، واستخدموا الحرمان من النوم لقياس بطولة الشخص، كما حدث مع البطل الأسطوري جلجاميش Gilgamesh (ملحمة من الفولكلور الشعبي البابلي لملك بطل كان هذا هو اسمه). وبعض الناس يعتبرون النوم مضيعة للوقت، وأجريت تجارب لقياس تأثير الحرمان من النوم، وثبت أن المحروم يعاني من هلوسات وخداعات بصرية وحسيّة، وتسهل استثارته، ويكثر عنده الشك فيمن حوله، والبعض إستطاع أن يستمر يقظاً لمدة سبعة أيام، وتسعة أيام، وقالوا في تبرير قيامهم بهذه التجارب إنها لمجرد قياس قدرة العقل على التحكم في الجسم، ومع استمرار الحرمان كانت هناك هذاءات واضطرابات في الإدراك، وأعراض لفقدان الشخصية، وآلام في الأطراف، وارتعاشات طفيفة. وبعض الناس يعيشون حياتهم ويعملون دائماً على خفض أوقات نومهم خفضاً إرادياً، والناس عموماً يعانون من حرمان مزمن من النوم. ولذلك يعوّضون عنه أيام الإجازات، وفي تجارب الحرمان كان النوم التعويضي يتركز على النوم العميق، واكتشف الباحثون إمكان علاج الاكتئاب بالحرمان من النوم، إلا أن ذلك لم يتأكد تماماً. وتُعالَج بالنوم إضطرابات كالفصام، وذهان الاكتئاب، ويستمر المريض نائماً ثمانية أو عشرة أيام متواصلة ويُغذّى بالحقن.

وللنوم إيقاع بيولوجي سيكولوجي خاص، وكل إنسان لا بد له من الراحة كمقابل للنشاط، والله قد خلق الليل لباساً والنهار معاشاً ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾ (النبأ - ١٠)، وتبلغ الراحة في المتوسط ما بين خمس

إلى سبع ساعات، ووقتها هو الليل غالباً. وفي الليل تقل فرص النشاط، وتزيد المخاطر، والاستعداد للنوم يبدأ من بعد الغروب، فإن كان العشاء فإن أكثر الناس يغلب عليهم النوم، ومن الصعب أن نتخيل بيئة لا زمن فيها، وأن بوسعنا أن نهرب من تأثير الليل والنهار على حياتنا، وفي التجارب التي تمّ فيها عزل المفحوصين تماماً عن أي تأثير لليل والنهار، وأي إشارة إلى الزمن، كان المفحوصون ينامون في المتوسط سبع ساعات يومياً، وقد تختلط عليهم الأمور في البداية، ولكنهم بشكل عام لديهم الإحساس الداخلي بالزمن، وبالليل والنهار، وبذلك يكون لدينا يومان: «يوم موضوعي Objective day» - وهو الذي يتألف من أربع وعشرين ساعة، و«يوم ذاتي Subjective d.» يركن فيه الإنسان إلى حسّه الداخلي بالزمن، واليوم الذاتي يزيد عن اليوم الموضوعي، ورغم ذلك فإن نسبة النوم إلى اليقظة تظل كما هي لا تتغير إلا قليلاً. وكل كائن حيّ لديه ساعته الداخلية بالزمن إن افتقد الساعة الخارجية، وحتى النباتات المعروفة بانتحائها إلى الشمس، فإنها لو وضعت في الظلام، فإنها عندما يحين وقت انتحائها ستنتحي رغم عدم وجود ضوء الشمس، والثابت أن إيقاع الساعات الأربع والعشرين هو الإيقاع النفسي والبيولوجي الغالب على كل الطبيعة. والساعة الداخلية، أو ما يسمونها «الساعة النفسية»، أو «البيولوجية»، هي المسؤولة عن تدبير العمليات الإيقاعية النفسية والبيولوجية في الطبيعة. وعندما يفقد الكائن الحيّ الإحساس بالزمن، كأن يعيش في مكان معزول زمنياً عزلاً كاملاً فإن إيقاع الأربع والعشرين ساعة يحلّ محله ما يسمونه «الإيقاع التقريبي Circadian rhythms» أو «الإيقاع الحرّ Free-running rhythm»، بمعنى أن الشخص المعزول عن الزمن أو عن الإحساس بالليل والنهار ينام وقتما يكون في حاجة إلى النوم، وقد يتصادف ذلك في وقت الليل أو وقت النهار، والمهم أن «إيقاع النشاط - الراحة» يستمر، فينام الشخص الساعات السبع المطلوبة في أي وقت، وعلى ذلك قيل إن الساعة البيولوجية تتحكم فيها «إيقاعات الليل -

النهار»، والساعة النفسية تتحكم فيها إيقاعات النشاط - الراحة. وهاتان الساعتان ليستا من باب الافتراض، ولكنهما من الواقع المادي، ويقال لهما معاً «الساعة الداخلية»، وهي في جانب منها نفسية، وفي جانب بيولوجية، ومكانها في المخ، وتنظّم العمليات النفسية والبيولوجية المختلفة في الجسم، ودورتها ثابتة، ومقدارها أربع وعشرون ساعة، والنفسية هي التي تتحكم في إيقاع «النوم - اليقظة»، أو «الاسترخاء - والاستنفار». ولذلك تزداد الحاجة للنوم كلما طالت الفترة التي قضيناها إيقاظاً، ليبقى الإيقاع سليماً، وكلما انخفضت درجة حرارة الجسم زادت الحاجة للنوم، فإيقاع النوم معاكس لإيقاع درجة الحرارة، والميل إلى النوم تتحكم فيه العملية الإيقاعية، وبينما نجد أن هذه العملية أكثر تحكماً في النوم الخفيف، فإن النسبة المئوية للنوم العميق تعتمد على طول فترة اليقظة السابقة.

وعملية النوم يمكن أن نعدها نوعاً من التكيف للظروف الداخلية جسمياً ونفسياً، وللظروف الخارجية الطبيعية والبيئية والاجتماعية. والنوم من كل ما سبق هو نوع من الراحة المفروضة، وبدون النوم ليس بوسع أي كائن حيّ أن يواجه الظروف والأخطار. وتضمن الخاصّة الدورية للنوم أن لا يغادر أي كائن حيّ مسكنه في ساعات الخطورة، فأنواع الحيوانات التي يكون أعداؤها نهاريين تخرج في الليل، والحيوانات المفترسة تكيّف نومها حسب نوم ضحاياها، والحيوانات آكلة العشب ليس عندها الضرورة التي تفرض عليها النوم في وقت معيّن، ونومها لذلك موزّع. والتكيف لا يكون مع البيئة فقط، وإنما مع ظروف الكائن الداخلية، والنوم هو الذي يوفّر له الطاقة بانخفاض معدلات الأيض، ومعدلات تبديد الحرارة. والخمول في النوم إقتصاد في مواد الطاقة المحدودة. والنوم عموماً يقي من الإنهاك والإجهاد الذي يترتب على بقاء النشاط لمدد طويلة. وكما أننا نأكل إذا جعنا، فنحن أيضاً ننام إذا كانت بنا حاجة للنوم. وتجري أثناء النوم عمليات من التركيب الأيضي أو التخليق، فلا عجب إن كان النوم من أعظم النِّعَم والمِنن وجعله الله

آية على قدرته تعالى، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ (الروم ٢٣).

❖ ❖ ❖

مراجع:

- The Use and Misuse of Sleeping Pills: Mendelson, W.B.
- Sleep Disorders: Gartfield: Snoring and Sleep Apnea.

❖ ❖ ❖

- ٢١ -
سيكولوجية الإيحاء والاستهواء

الاستهواء في الصحة والمرض، وفي الحرب والسلم. أحوال العقل في الاستهواء. إستهواء الأضعف. الاستهواء الإيجابي والسلبي والمضاد والأولى والمغنطيسي. الإيحاء الوجداني والعلاج الإيحائي.

❖ ❖ ❖

الاستهواء Suggestibility قابلية للإيحاء Suggestion، يكون إستعداداً يميل بصاحبه إلى تصديق ما يقال له من غير تمحيص ولا تحقيق. وبعض الناس يتميّزون بالاستهوائية الشديدة. ومن السهل استهواء الجماهير عند اجتماعها، والسلوك الجماهيري المتجاوب مع الإيحاء سلوك شديد العدوى، والأثر الاستهوائي للسلوك أكبر من الأثر الاستهوائي للكلام. والمَرضى مع ضعف الصحة والتهافت تقل بهم القدرة على مقاومة الإيحاء. وفي الحرب النفسية تضعف الروح المعنوية، فتكون الجماهير أكثر تقبّلاً للإيحاء الذي يتمثّل في الإشاعات، بل إنها لتطلب هذه الإشاعات وتسعى إلى مصادرها لتَوافُقها مع توقعاتها ومخاوفها والحالة الوجدانية المسيطرة عليها. ومن المهم لنجاح الإيحاء أن تكون الحالة الوجدانية متوافقة مع الأفكار المراد الإيحاء بها. وكذلك للحالة العقلية دورها في تقبّل الإيحاء، فمثلما أن الخائف يميل إلى أن يصدق ما يبرر له مخاوفه، فإن الذي يأخذ بفكرة معيّنة يميل إلى أن يستمع

ويتقبّل من الأفكار ما يناسب تفكيره. وكلما تدنّى النضج العقلي للمتلقّي للإيحاء وتدنّت ثقافته، قلّتْ مقاومته للإيحاء، وزاد ميله للتأثّر بما يقال له. ونلاحظ أن الأطفال يميلون إلى تصديق ما يقوله الكبار، كما أن النساء أقل مقاومة للإيحاء من الرجال. ويتعلق تأثير الإيحاء بمكانة المؤثر Suggestionist، وذلك ما نسميه الإيحاء المعتمد على المكانة للمؤثّر Prestige suggestion. وأغلب الإيحاء إجتماعي .Social s، أي أنه يقوم على ميل الناس للانتماء، واحتذاء المجتمع، وتقليد بعضهم البعض فكرياً، وكلما كان الفرد قليل الدراية متدنّي الوعي إجتماعياً، ومتخوّفاً من استقلالية الرأي، كان أميل للاستهواء Suggestible.

والاستهواء منه السلبي .Negative s، ومنه الإيجابي .Positive s، فالذي يطاوع ميوله الاستهوائية ويشايع الغير فيما يفكّر فيه إستهوائي إيجابي، والبعض قد يفعل أو يفكّر على عكس ما يقال له، وذلك هو الاستهوائي السلبي، واستهواؤه قد نُطلق عليه إسم الاستهواء المضاد .Counter-s. وأيضاً فإن الاستهواء الذي يتمّ في الظروف العادية التي لا تعمُّل فيها ولا اصطناع، نسميه إستهواءً أوّلياً .Primary s. وقد نقصد إلى الإيحاء ونتعمد استحداثه بخلق ظروف مؤاتية له وأجواء نفسية تساعد عليه، كما في التنويم المغنطيسي وفي العلاج بالإيحاء، ويطلق على الإيحاء الأول إسم الإيحاء المغنطيسي Hypnotic s.، ويقوم على تقبّل الوسيط لما يطلبه منه المنوم، وقد يطلب إليه أن يقوم بأشياء بعد أن يصحو دون أن يتذكّر أنه قد طلب منه ذلك. وكذلك فإن في العلاج بالإيحاء «Suggestion therapy»، أو «الإيحاء العلاجي .Therapeutic s»، يهتم المعالج بتقوية ذات المريض واستنفار قوى المقاومة للمرض عنده، وقد تكون للمريض إتجاهات إيمانية فيقوّي المعالج من هذه الاتجاهات، وبعض الاضطرابات النفسية قد تشفى فعلاً شفاءً إيمانياً، ويوصف الإيحاء في هذه الحالات بأنه «إيحاء وجداني .Affective s»، أي يقوم على مخاطبة المريض وجدانياً وعاطفياً دون مخاطبة عقله منطقياً. ونلاحظ أن هذا النوع من الإيحاء يُسمَّى أيضاً باسم «الاستهواء الذاتي Autosuggestion »، أي

أن الشخص نفسه وقد قويت ذاته وارتفعت معنوياته يوهم نفسه بنفسه بالشفاء. والإيحاء الذاتي يكون بتأثير الشخص في نفسه على عكس الإيحاء الغيري «Alter-s.» الذي يكون تأثراً بأفكار الغير، وأغلب الإيحاء غيري، أو أن الإيحاء يكون ظاهرياً إيحاءً غيرياً ثم يكون الجزء الإيجابي فيه إيحاءً ذاتياً، فبعد أن يتأثر الشخص بغيره فإنه يؤثّر هو نفسه في نفسه. وفي الإيحاء المغنطيسي لا يكون الإيحاء سلوكياً، وإنما يقوم كليةً على الألفاظ، ولذا يسمونه «إيحاءً لفظياً Verbal s.». والبعض يطلق على عملية الإيحاء من خلال التنويم المغنطيسي إسم «تشكيل الأفكار Ideoplasty»، حيث ينصبّ اهتمام المنوِّم على توجيه أفكار الوسيط وتشكيلها بالطريقة التي يريدها. ومن ذلك أيضاً أنه في عمليات غسيل المخ Brain-washing يعقب ذلك عملية «إيحاء بالأفكار Thought s.»، ويكون العميل المراد تشكيل أفكاره شديد التهافت معنوياً، وناقداً لكل ما كان يعتقده من قبل، وتكون إستهوائيته ظاهرة حتى ليسهل ملء دماغه من جديد بالأفكار الجديدة المناقضة لأفكاره السابقة. ويعتمد هذا الإيحاء أو الاستهواء - وكل استهواء - على تكرار وترديد ما يُلقَى على السامع، ويُتّبع هذا التكتيك في الإعلان، وفي الحملات الانتخابية، وفي الحرب الدعائية والحرب النفسية.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- K.G. Stukat: Suggestibility.
- Schultz, J.H.: Die Seelische Krankenbehandlung.
- Schmidbauer, W.: Schamanismus und Psychotherapie.

❖ ❖ ❖

- ٢٢ -
سيكولوجية الانطباع

السلوك الانطباعي غريزي وهو تعلّم محدود. إكتشافه حديثاً ودراسته عند

مختلف الأنواع. الانطباع والغريزة المفتوحة والغريزة المغلقة. الانطباع والخوف. الانطباع عند سبولدنج وكونراد لورنز. الانطباع والفترة الحرجة...

❖ ❖ ❖

الانطباع Imprinting، سلوكٌ فطري يُضرَب به المثل على التعلّم المحدود Restrictred learning، وهو نوع التعلّم الذي مجاله حدود الغريزة، فأفراخ البط Ducklings مثلاً تخرج من البيض ولديها استعداد موروث أن تَتْبَعَ To follow أي شيء يتحرك، ولذلك فهي تتبع أمها، إلا أننا لو حجبنا عنها الأم واستبدلناها بأي شيء آخر يتحرك كأن يكون إنساناً أو كلباً، أو حتى كرة من المطاط، فإن الأفراخ ستتبع هذا الشيء في حركته، بشرط أن يأتي تعلّمها لمتابعة هذا الشيء في الوقت المناسب لهذا التعلّم، وهو الوقت الذي يتلو مباشرة قدرتها على المشي بكفاءة. وإذا استمرت متابعتها لهذا الشيء مدّة كافية، كأن تكون خمس عشرة دقيقة، فإنها تنطبع بهذا الشيء وتُؤثره على البط من بني جنسها، وقد تشحنه شحناً جنسياً من بعد عندما تنضج وتحاول أن تأتيه، ويظل ذلك معها مدى الحياة. وهذا السلوك - أي الاتباع - غير متعلّم، وهو نوع من ردّ الفعل الغريزي الذي يعتمد على استعداد يظهر في الوقت المناسب. والفطري في هذا السلوك هو الاتّباع نفسه وليس اختيار الشيء المتّبع، ولذلك يُدرَج ضمن ما يسمى الغريزة المفتوحة Open instinct، على عكس الغريزة المغلقة Closed instinct التي لا تستجيب إلا لمثير معيّن وليس لأي مثير. وأفراخ البط لديها استعداد الاتّباع، إلا أن موضوع الاتّباع عندها يمكن أن يكون أي مثير طالما أنه يتحرك. وقد تحدّث عن الانطباع كسلوك لأول مرة (١٨٧٣) العالم الإنجليزي سبولدنج Spolding، وأعطاه الاسم (١٩٣٧) العالم كونراد لورنز Lorenz، وذكر كشرط له أن يتم قبل أن يتعلم الكائن الحي أن يستجيب بالخوف من الأشياء المتحركة، لأنه عندئذ سيهرب منها ولن يتبعها. ومن

رأي البعض أن ابتسامة الطفل الوليد في الأسبوع الثاني أو نحوه إنطباعية، أي أنها فطرية فيه ولكنه يتعلم أن يطلقها لدى رؤية وجه الأم وهو يتحرك أمام ناظريه، ومن ثم ترتبط بهذا الوجه، ثم يتعلم من بعد أن يطلقها لدى رؤية أي شيء آخر يتحرك كأن يكون دمية أو حيواناً أليفاً، طالما أن أمه تبتسم له مشجعة أثناء ذلك. وتسمى الفترة التي يستغرقها التعلّم بالانطباع «الفترة الحرجة»، وهي تختلف من كائن لآخر، فهي عند الدجاج من ١٣ إلى ١٦ ساعة بعد الفقس، وعند الكلاب تستغرق من ثلاثة إلى سبعة أسابيع، وعند الخراف العشرة أيام الأولى بعد الولادة. وفي رأي البعض أن الانطباع هو أسرع أنواع التعلّم ويلزم لكل تعلم إجتماعي تالٍ.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Sluckin, W.: Imprinting and Early Learning.
- Smith, F.V.: Attachment of the Young, Imprinting and other Developments.
- Thorpe, X.H. & Zangwill. O.L.: Current Problems in animal Behaviour.
- Thorpe & Zangwill: Learning and Instinct in Animals.
- Fabricius, E.: Crucial Periods in the Development of the Following Response in Ducklings.
- Gray, P.H.: Theory and Evidence of Imprinting in Human Infants.

❖ ❖ ❖

- ٢٣ -
سيكولوجية العواطف

العواطف مادية ومعنوية. العواطف السائدة. عواطف حب الذات واحترام الذات واعتبار الذات. النضج العاطفي...

❖ ❖ ❖

العاطفة Sentiment صفة مزاجية مكتسبة تتكون باجتماع عدد من

الانفعالات المتشابهة حول موقف أو موضوع معين، وتستثار مرتبطة بهذا الموقف أو الموضوع دون غيره. ومن شأن العواطف أنها تنظّم الانفعالات بربطها بالموضوعات. وقيل عن العواطف: إنها استعدادات عقلية مكتسبة وعادات إنفعالية تنظّم بعض نواحي النشاط الانفعالي أو المزاجي حول موضوعات معيّنة تبعاً لمؤثرات البيئة وعوامل التعلّم.

وأحياناً يقال إن العاطفة Emotion، ولكننا نؤثر ترجمة عاطفة بكلمة Sentiment، وأما Emotion فنترجمها بكلمة إنفعال. (أنظر الانفعالات في المقال التالي).

والعواطف مادية ومعنوية، فحب الأم أو الأبوين أو الأسرة أو الوطن «مادي»، بينما حب الشرف أو العدل أو كراهية الظلم «معنوي». والعواطف أيضاً فردية وجمعية، فأن أحب فتاة بعينها هو عاطفة فردية، ولكن أن أحب النساء جميعاً هو عاطفة جمعية. والتطور الطبيعي لتكوين العواطف أنها تبدأ مع الأطفال مادية وفردية، ومع النمو واكتمال النضج العاطفي Sentimental maturity تكون معنوية وجمعية، فالطفل يبدأ مثلاً يحب أمه ثم يُشرِك معها أباه، وتكبر الدائرة لتشمل الإخوة والمحيطين به، ثم المدرسة، فالمدينة، ثم يكون حب الوطن، بل وحب الإنسانية جمعاء. وتسود إحدى العواطف غيرها عند البالغ وتتحكم في سلوكه، فالشخص الذي يحب العِلْم مثلاً لدرجة أن يوجهه هذا الحب في كل علاقاته بالناس وتقويمه لهم، ويسيطر على سلوكه وكل توجهاته، هو شخص لديه عاطفة سائدة Master sentiment، والعلم بالعواطف السائدة عند الآخرين ييسِّر التنبؤ بسلوكهم في المواقف المختلفة. ومن العواطف السائدة عند البعض مثلاً عاطفة حب الذات Self-sentiment، والمحب لذاته يُكبِر من يعظّمه، ويرضيه أن يمدحه الناس، ويكثر من الحديث عن نفسه، وقد يحب أن يتجمّل بالقول الطيب والهندام الأنيق، وقد يطيل النظر لنفسه في المرآة. ومن الممكن قياس النضج الوجداني أو العاطفي بكشف ما إذا كان الشخص مهتماً بنفسه فيكون ما يزال في الطفولة الوجدانية لم يبرحها، أو كان متمرداً على الناس وعاداتهم ونظمهم

فهو ما يزال في المراهقة، فإن كانت إهتماماته منصرفة إلى الجماعة ومصالحها والوطن ومشاغله والقضايا الإنسانية فهو في مرحلة تمام النضج الوجداني. والمحب لذاته عاطفته السائدة هي حب الذات، وهي غير عاطفة إحترام الذات Self-respect sentiment، لأن الذي يحترم نفسه لا يرضَى لها الصَّغار. وتفرض عاطفة اعتبار الذات Self-regarding sentiment إعتبارات معينة على الفرد لا يتجاوزها، وإنْ فَعَلَ استشعر الاستياء من نفسه، ويشعر بالرضا عن نفسه إذا حقّق لها ما يتفق وفكرته عنها. ومن رأي مكدوجال أن عاطفة إعتبار الذات هي المنظّم الأساسي للسلوك، وهي القائد الأعلى للنزعات، والتي تتوقف عليها قوة الشخصية، ووحدة إتجاهاتها، وتناسق أفعالها، وتوازن تصرفاتها.

❖ ❖ ❖

مراجع

- McDougal: Outline of Psychology.
- McDougal: Social Psychology.

❖ ❖ ❖

- ٢٤ -
سيكولوجية الانفعالات

الوجدان والشعور. الانفعالات الأولية والثانوية. المزاج العام والانفعالات المشتقة. العادة الانفعالية والانفعالية العامة. النضج الانفعالي ودراسات الانفعالات. التبلد الانفعالي ونظرية الانفعالات...

❖ ❖ ❖

الانفعال Emotion من الفعل Emote وMovere بمعنى يحرّك، ومن ثم كان الاسم الانفعال أي المسبب للحركة والفعل، وهو كل «سلوك» أو «إستجابة» ذات صبغة وجدانية. وتُطلق كلمة وجدان Affect على الجانب الشعوري الذاتي أو الاستبطاني لحياتنا الانفعالية، حتى لتستخدم الكلمتين «إنفعالي» و«وجداني» كثيراً كمترادفين، فنَصِفُ الانفعال بأنه خبرة وجدانية Affective، ونَصِفُ الوجدان بأنه خبرة إنفعالية Emotional، وهي صعوبة نصادفها كلما كنا بصدد

تعريف أية خبرة إستبطانية، فنحن نستطيع أن نصف ما يصاحب السرور والكدر من أحوال جسمية أو مظاهر سلوكية، ولكننا إذا أردنا تعريف السرور أو الكدر كخبرتين ذاتيتين فلا نملك إلا أن نصف أحدهما باعتباره عكس الآخر. ويُطلق إسم «الوجدان» على أبسط أنواع الانفعال وهو «الشعور Feeling» وكون ذاتياً، أو هو الجانب الانفعالي لكل إدراك حسّي، وهو أيضاً الإحساس بالرضا أو بالكدر. ومن العلماء من يذهب في تعريف الانفعال مركّزاً على الجانب العضوي النزوعي. ويؤكّد فرويد على الجانب الوجداني، ويذهب إلى أنه من صميم الانفعال أن نستشعره - أي نستشعر الانفعال - ومعنى استشعارنا له أن نستدخله الشعور، يشير فرويد بذلك إلى قدرة الانفعال باعتباره شحنة وجدانية، على الاستقلال عن الموضوع المصطبغ به، وقد يُدفَع الموضوع إلى اللاشعور، وأما الانفعال فإنه وإن تابعه لفترة إلى اللاشعور، فإنه ينطلق من بعد في صورة شحنات وجدانية تلتصق بموضوعات أخرى بديلة. ويذهب مكدوجال McDougal (١٨٧١ - ١٩٣٨) إلى أن لكل غريزة جانباً إدراكياً يثير الغريزة، وجانباً وجدانياً يكون به الانفعال، وجانباً نزوعياً يهدف إلى تحقيق الغرض من الغريزة. ويسمِّي مكدوجال الجوانب الوجدانية للغرائز «الانفعالات الأولية Primary emotions»، ففي غريزة الهرب مثلاً تكون رؤية الخطر الداهم جانباً إدراكياً، والشعور بالخوف هو الجانب الانفعالي أو الوجداني، وهو إنفعال أوّلي، واتجاهنا للهرب هو الجانب النزوعي. وحيث أن الانفعالات متعلقة بالغرائز الفطرية فهي فطرية أو أولية، ولكنها تترقّى وتتهذّب وتتعدّل وتنضج مع النمو، فتخفّ حدّتها ولا تستثار إلا لمنبّه كاف، فلا ينفعل الراشد بما كان ينفعل به وهو طفل، وكذلك يتحوّل الجانب النزوعي إلى الناحية الاجتماعية الأخلاقية، فيتخذ الغضب مثلاً شكل النقد الموضوعي، ويترقّى العدوان فيصبح مثلاً منافسة رياضية. وقد تتجمع الميول الانفعالية حول موضوع وتصبح عاطفة Sentiment، وقد يمتزج إنفعالان أوليان أو أكثر فينشأ عنهما إنفعال ثانوي Secondary

emotion، أو إنفعال مزيج Blended emotion، وهو مزيج من أكثر من انفعال، كالرهبة - فهي مزيج من الإعجاب والخوف. وهناك نوع ثالث من الانفعالات هو الانفعال المشتق Derived emotion، ويتركب من إحساسات وجدانية لا ترتبط بالغرائز، بل تحتدم في النفس كلما كان هناك دافع قوي مثل الفرح أو الحزن أو الأمل أو اليأس. وتسمى شدّة الانفعال أو حدّته سورة الانفعال Passion، كسورة الغضب مثلاً. وأما الحالة المزاجية Mood فهي حالة إنفعالية أخف من السورة وأطول أمداً، وأحياناً تكون بسبب القمع، أي عندما لا يأخذ الانفعال حقّه في التعبير أو التنفيس، وأحياناً تكون مرحلة من مراحل سورة الانفعال وهي في طريقها إلى الزوال، فعندما تخفّ حدّة الغضب مثلاً تتخلف لدى الغاضب حالة مزاجية يكون فيها مزاجه نكداً فتسهل استثارته. وقد تترتب هذه الحالة المزاجية على الاضطرابات الفسيولوجية، مثل عسر الهضم، واضطرابات الغدد، وما ينشأ عن ذلك من استثارات للمراكز العصبية المصدّرة للانفعالات. ويختلف المزاج العام Temperament عن الحالة المزاجية من حيث ديمومته وانطباع الشخص إنفعالياً به، وهو القابلية العامة للفرد لأن ينفعل بأسلوب يخصّه هو وحده دون سواه، ويرجع للفطرة، وقابلية الجهاز العصبي للاستثارة، وحالة الغدد الصماء، وكيمياء الجسم، وتؤثر خبرات الطفولة في توجهاته. وحدة المزاج Temper تختص بالناحية السلوكية التي ينصرف فيها المزاج. وعندما يتكرر السلوك الانفعالي بتكرر المواقف الانفعالية تتولد العادة الانفعالية Emotional habit، وشأنها كالعادات تُكتَسب بالتعلم، وقد تكون عادات إنفعالية سيئة أو صحية. وقد يطلق على العادة الانفعالية إسم العاطفة Sentiment، إلا أن العاطفة ذاتية أكثر، في حين أن العادة تتعلق بموضوع وتُكتَسب بالخبرة. وقد تثير العاطفة الواحدة عدّة إنفعالات، فعاطفة الأمومة قد تثير انفعال الحنو حيناً، وقد تثير انفعال الغضب أحياناً إذا تهدّد شيء المولود فتهب الأم دفاعاً عنه، في حين أن الانفعال تلقائي أو غريزي. والانفعالية العامة Emotionality

هي العامل المركزي العام وراء كل نشاط إنفعالي، ولها في التكوين المزاجي العام للشخصية المكانة نفسها التي يحتلها الذكاء العام في النشاط العقلي، أي أنها عامل مشترك بين كل الانفعالات ويصطبغ بها كل النشاط الانفعالي.

والانفعالات لكي تُستثار لا بد لها من مثير أو منبّه، ولا بد لها من منفعل ترتبط الانفعالات بتكوينه النفسي والعصبي والجسمي، ومزاجه وانفعاليته أو درجة توتره، وخبراته واستعداداته الفطرية واتجاهاته الوجدانية، وثقافته والبيئة التي يعيش فيها، والقيمة أو المعنى الذي يضفيه على المنبه، وحالته الصحية ونشاط جهازه العصبي عموماً وبعض منه خصوصاً، كبعض أجزاء الفصّ الجبهي للحاء المخ، والدماغ الحشوي، والمهاد أو الثلاموس، والمهيد أو الهايبوثلاموس، والتكوين الشبكي بالدماغ، والجهاز العصبي المستقل، ونشاط الغدد الصماء، وكيمياء الدماغ عموماً، ووجود أو عدم وجود بؤرات مثيرة ذات عتبات منخفضة.

وتكون دراسة الانفعالات إما برصد السلوك الانفعالي الظاهر، الذي يشمل التغيّرات في أوضاع الجسم وحركاته، والإيماءات والنظرات، والصوت وتعبيرات الوجه، أو قياس التغيّرات الفسيولوجية الداخلية كالتغيّرات في كيمياء الدم، ونبض القلب، وضغط الدم، والتنفس، والتمثيل الغذائي، وكهربية الجلد ودرجة حرارته، والتوتر العضلي، والنشاط المَعِدي المعوي. وقد يسهل أحياناً على المنفعل أن يتحدث عما يعتريه من تغيّرات من حيث أنه يكون الأقدر على ملاحظة حالته الانفعالية ومشاعره الذاتية، إلا أنه قد تبين أن الناس يتفاوتون في القدرة على التعبير عن تجاربهم الذاتية، وأن بعضهم قد يغالي في الوصف، ويقتّر آخرون أو يحاولون صرف النظر عن انفعالاتهم، وقد يحدث أن يمثّل البعض في أدائه الانفعالي ليعطي المشاهدين إنطباعاً مغلوطاً عنها، وحتى الحيوانات والطيور يمكن أن تمثّل وتموّه الانفعالات، ومن ثم فقد لا نعوّل على المظاهر الخارجية عند دراسة الانفعالات، كعدم تعويلنا على الوصف الشفهي للخبرة الانفعالية. وتتجه

الدراسات في معظمها حالياً إلى الناحية الفسيولوجية، غير أن علم النفس يؤكّد أن الانفعالات ليست مجرد عمليات فسيولوجية، حيث أن هذه العمليات تتأثر بمكونات الشخصية، وبالثقافة، وبالتعلّم والمواقف الاجتماعية. وتختلف القيمة الانفعالية للمواقف الاجتماعية باختلاف الثقافات، فلربما يكون تقبيل الغير للزوجة غير مثير إنفعالياً في ثقافة، بينما هو في ثقافة أخرى أمرٌ في غاية الإثارة والغضب. والثقافة هي التي تحدّد المواقف الاجتماعية المثيرة للانفعالات، وما تثيره منها، وحدّتها، وطرق التعبير عنها، ومن ثم يكون الحذر عند تصنيف الانفعالات باعتبار أن مسألة التصنيف مسألة نسبية. وقد يرى البعض كواطسون Watson (١٨٧٨ - ١٩٥٨) - ممن درسوا الانفعالات عند الأطفال الأميركيين - أن الانفعالات الأساسية ثلاثة، هي: الخوف، والغضب، والحب، وقد رآها ديكارت Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) ستة كما لاحظها على أطفال فرنسا. وتتجه الدراسات المعاصرة إلى ردّ الانفعال إلى الانفعالية العامة، أو الاستعداد الانفعالي الفطري، يكون منذ الولادة بسيطاً ولا تتميز فيه أيٌّ من الانفعالات، ويمكن أن تستثار هذه الانفعالية العامة بأي منبه فجائي كالصوت العالي مثلاً. ومع التطور والنمو وفي مراحل من العمر معينة تختلف من كائن إلى آخر، وبحسب المنبّه المناسب، تتمايز الانفعالات ويرتقي التعبير عنها، ويستمر ذلك مدى الحياة وبالتدريج حتى يكتمل النضج الانفعالي Emotional maturity للكائن الحيّ، فتكون الخبرة الانفعالية هي جُماع الاستجابات الانفعالية المتعلَّمة أو نتيجة امتزاجها.

وتتفاوت الاستجابات الانفعالية في الشدّة، وفيما تستحدثه من بهجة أو كدر، وما تتضمنه من ميل نحو بعض المنبهات أو نفور منها. وتتطور الاستثارة الانفعالية الفطرية فتصبح من بعد إستثارة متعلمة، ويلعب الإشراط دوراً رئيسياً في تعلم الاستجابات الانفعالية - الانفعال الشرطي Conditioned e. وتتزايد أهمية التعلّم والمواقف الاجتماعية كلما صعدنا السلم التطوري. ويمكن للخبرة الانفعالية أن تتسع باستمرار لتشمل موضوعات أخرى للانفعال بخلاف المثيرات التي

كانت تصنع الاستثارة الولادية، فالخوف مثلاً الذي كان يمكن أن يستثار عند الوليد بالصوت العالي الفجائي، قد يشمل من بعد كل ما هو غريب على الطفل وحتى على الراشد، ويمكن أيضاً أن تمتد المخاوف - كمصادر للانفعالات Sources of emotions، فتشمل موضوعات أخرى عن طريق التعميم وعن طريق التقليد، فمن يخاف من الفأر قد تشمل مخاوفه منه كل ما يمكن أن يماثل الفأر أو يكون به وجه شبه، كالفراء، وتنتقل عدوى الخوف إلى الأولاد عن طريق الآباء.

ولربما يكون المنبه أو المثير للانفعال مدرَكاً حسياً، أو فكرة أو تصوراً، وربما يكون منبهاً ذاتياً كما في بعض الحالات المرضية كالاكتئاب، وهو انفعال يترتب على الإخفاق أو الإحباط، أو لدوافع لاشعورية نحتاج للكشف عنها إلى التحليل النفسي وتحليل الأحلام. وبعض الحالات الانفعالية دوافع Motives في ذاتها أحياناً، والدافع عبارة عن حالة توتر في الكائن الحيّ تستثير فيه حاجة تتطلب الإشباع، فيخف التوتر، ويستعاد التوازن الفسيولوجي والنفسي، ومن ثم يكون الشعور بالراحة أو بالرضا وهو حالة إنفعالية. كما ان السعي للطعام يعطي شعوراً بالراحة، ورؤية الطعام تعطي أيضاً شعوراً بالراحة، وكذلك فإن عدم الراحة هو حالة إنفعالية Emotional state مصاحبة للجوع.

وترتبط الانفعالات بالتكيّف، وتتجه معظم البحوث في الانفعالات على اعتبارها عوامل إضطراب تشتمل العمليات الحشوية الداخلية والسلوك الخارجي وتمتد إلى الخبرة الشعورية، ففي الخوف مثلاً تتوقف حركة المعدة وتصاب بما يشبه الشلل، وهو اضطراب لا شك فيه، إلا أن هذه العمليات نفسها هي طريقة الكائن الحي للتكيّف مع ظروفه المهدّدة، وذلك أن الدم بدلاً من أن يُضَخّ للمعدة فإنه يُضَخ للعضلات والمخ واللب والرئتين والغدد لمواجهة النشاط الذي يواجه به الكائن الحيّ الخوف، فكأن هذه العمليات الداخلية ليست مظهراً للاضطراب ولكنها تنظيمية لتسمح للكائن الحيّ بالتعامل مع الموقف المهدِّد. وما يتبع ذلك من سلوك ليس من فعل الاضطراب وليس سلوكاً مضطرباً، ولكنه

سلوك منتظم يتفق والحالة الجديدة التي عليها الكائن. وكذلك في الناحية الشعورية فالتفكير الذي يناسب الموقف الجديد هو تفكير منظم يتفق وطبيعة الموقف، إلا في حالات الانفعالات العنيفة، وعند وقوع صدمة إنفعالية Choc émotif، أو نوبة إنفعالية Crise émotive، أو Crise de nerfs، عند الانفعال الفجائي Ictal e.، فقد يطيش عندئذ السلوك ويكون التفريغ الانفعالي Emotional release شديد الوطأة طائشاً، وقد ثبت أنه في الانفعالات العنيفة تقل كفاءة الفرد وقدرته على التصرف في المواقف المختلفة. وثبت أن الكثير من الاضطرابات النفسية الجسمية أسبابها إنفعالية كالربو والقولون العصبي وقرحة المعدة والامعاء وجلطة الشريان التاجي. وكل إنسان له قوّة إنفعالية Emotional stength. ويؤدّي عدم النضج الانفعالي Emotional immaturity أو عدم الاستقرار الانفعالي Emotional instability إلى سورات أو تقلبات إنفعالية. والشخصية غير المستقرة إنفعالياً Emotionally unstalbe personality هي نمط الشخصية التي يشكو صاحبها من إضطراب إنفعالي Emotional disorder، فتأتي انفعالاته غير متناسبة مع سِنّه أو عُمره الانفعالي Emotional age، ومع المواقف الانفعالية التي تستدعي هذه الانفعالات، وقد تكون أقل إستجاباته الانفعالية مما تستلزمه هذه المواقف أو أكثر. والبعض قد يكون مصاباً بتبلد إنفعالي Emotional apathy، ويلاحظ ذلك خصوصاً على ذوي الشخصية الفُصامية وأصحاب الذكاء المتدني، فقد تستدعي المواقف إنفعالات عنيفة فيواجهها الشخص المتبلّد إنفعالياً ببرود إنفعالي وكأنها لا تعنيه. وأحياناً قد تكون للمواقف الانفعالية شدّة أو وطأة إنفعالية تصدم البعض حتى ليصابوا بما يسمى الذهول الانفعالي Emotional stupor. وبعض الأطفال تكون لهم سورات غضب فيلقون بأنفسهم على الأرض ويصرخون ويركلون، ويتكرر ذلك معهم حتى ليصبح عادة إنفعالية Emotional habit. وبعض الناس لهم سمات إنفعالية Emotional traits تجعلنا نتوقع منهم إنفعالات معيَّنة في ظروف معيّنة. والنمط الانفعالي Emotional type من أنماط

الشخصية، ويغلب عليه الجانب الانفعالي عن الجانب الإدراكي. ويتفاوت الناس في طبائعهم الانفعالية Emotional attitudes، واتجاهاتهم المزاجية، ومن ثم تتفاوت إستجاباتهم الانفعالية Emotional reponses، ومن المستحيل أن نفصل الاستجابات الانفعالية عن الشخصية وعما يجري لها في البيئة الاجتماعية.

ونظريات الانفعالات هي تلك النظريات حول مسببات الانفعالات، وهي إدراكية وفسيولوجية، ومنها نظرية جيمس - لانجي James-Lange's theory، وكان لانجي (١٨٣٤ - ١٩٠٠) فسيولوجياً دانمركياً قدّم نظرية في الانفعالات مشابهة كثيراً لنظرية (وليام جيمس ١٨٤٢ - ١٩١٠)، حتى أن النظرية صارت تنسب للاثنين معاً، مع أن النظرية هي في الأصل نظرية جيمس ووضعها سنة ١٨٩٠، ويقول جيمس إن نظريته تقوم على فكرة أن التغيرات الجسمية تتبع مباشرة إدراك الاستثارة، وأن شعورنا بالتغيرات نفسها وهي تحدث هو الانفعال. وتشبه هذه الفكرة فكرة لانجي باستثناء أن لانجي حذف خطوة الإدراك وخلص إلى أن التغيرات الحشوية الحركية (الجسمية) هي الانفعال.

وتعرضت النظرية للكثير من النقد وكان أقواها هو نقد كانون (١٨٧١ - ١٩٤٥) الذي شكّك في دور التغذية الرجعية من الأعضاء الطرفية. وتعرف نظريته باسم نظرية كانون - بارد Cannon - Bard theory أو النظرية المهادية أو الثلاموسية في الانفعال The thalamic theory of emotion (١٩٢٩)، ويذهب فيها إلى أن تكامل التعبير الانفعالي يتحكم فيه المهاد أو الثلاموس الذي يقوم بإرسال أنماط إستثارة مناسبة إلى اللحاء في الوقت نفسه الذي يقوم فيه المهيد أو الهايبوثلاموس بالتحكم في السلوك. وهو يطرح وجهة نظره هذه كجزء من نقده لنظرية جيمس - لانجي التي تفترض أن التغذية الرجعية الحسيّة هي التي تتحكم في التعبير الانفعالي. وتعرضت نظرية كانون للنقد في صورة نظريات أحدث منها وأكثر تطوراً، ومنها نظرية الاستثارة أو التيقظ Activation (or arousal) theory وتحاول تفسير الاستجابة الانفعالية، وكذلك الدافعية،

في صورة إستثارة نسبية للّحاء، وتفترض أن الـومضـات الـحسـيّـة والـحشـويـة والـجسـمية تتجه إلى التكوين الشبكي أسفل جذع المخ، ثم تتكامل وتتوزع إلى الـهـايـبـوثـلامـوس حيث تنشّط مركز اليقظة، وكذلك تتوزع إلى أنوية ثلاموسية تنشّط اللحاء،والوارد خلال هذا النظام إذا كان منخفضاً فإن الكائن يكون في حالة إسترخاء، ويشبه النشاط الكهربي للمخ النشاط الكهربي في حالة النوم، وإذا كان الوارد زائداً يتم تنبيه الكائن فيوجه نفسه نحو مصادر التنبيه. ويصبح النمط الكهربي مماثلاً لحالة اليقظة. وتقع الانفعالات وكذلك العوامل الدافعية على مدى من التيقظ يمتد من النعاس وحالة إنفعالية منخفضة إلى حالة قوية مثل الهياج.

ومن نظريات الانفعالات النظرية السلوكية Behavioristic theory. وكما يمكن أن نتوقع فإن هذه النظرية تتعامل مع الانفعالات إما باعتبار أنها غير مشروطة، بمعنى أنها فطرية وعامة للنوع، أو مشروطة أي متعلمة أو مكتسبة. ولا تهم العناصر الفسيولوجية ولا الإدراكية، وتركّز النظرية على الظواهر الموضوعية التي يمكن قياسها، والتي يؤثر السلوكيون أن يطلقوا عليها إسم السلوك الانفعالي Emotional behaviour.

وتذهب نظرية التقدير الإدراكي Cognitive-appraisal theory إلى اعتبار الانفعالات حالات ذاتية هي نتاج لمثير منبّه ومجموعة من التغيّرات الفسيولوجية المصاحبة، ثم التقدير الإدراكي أو التفسيري للموقف باعتباره موقفاً ضاراً أو مفيداً، صالحاً أو غير صالح بالنسبة للفرد. والفكرة الأساسية هنا هي فكرة التقدير الإدراكي نفسها، بدعوى أن حالة التيقظ الفسيولوجية الواحدة يمكن أن تستحدث عدداً من الانفعالات، وقد تكون متعارضة مع بعضها، ومن ثم تكون الأهمية في المرتبة الأولى لتأويل أو تفسير الفرد للموقف.

وتعتبر «نظرية بابيز في الانفعال Papez's theory of emotion» من أولى المحاولات النظرية للكشف عن الميكانيزمات اللحائية الخاصة التي تكمن خلف الانفعالات. والنظرية قال بها بابيز في الثلاثينات، وافترض فيها أن

أنظمة ثلاثة حسيّة، وهايبوثلاموسية وثلاموسية متضافرة تشترك جميعها عن طريق اللحاء في تنظيم السلوك الانفعالي. ولا تنهض النظرية على دراسة تشريحية سليمة ولكنها كانت ذا أثر في التنبيه إلى دور الهايبوثلاموس، والدور التكاملي للحاء. ولقد قام ماكلين بمراجعة نظرية بابيز، واشتهرت مراجعته باسم نظرية ماكلين في الانفعال Maclean's theory of emotion ويذهب فيها إلى أن هناك مناطق أخرى من الجهاز الطرفي وخاصة فرس البحر Hippocampus ومُركّب اللوزة، لها أدوارها أيضاً في تنظيم السلوك الانفعالي بالإضافة إلى الهايبوثلاموس، وأن الطبقات الأقدم من اللحاء لها دورها الرئيسي في تكامل المعلومات.

❖ ❖ ❖

مراجع

- Hebbo, D.O.: The Nature of Emotion. Selected Readings.
- Arnold, Magda: Emotion and Personality.
- Davitz, J.R.: The Language of Emotion.
- Gelhorn, E. & Loofbourrow, G.M.N.: Emotions and Emotional disorders.

❖ ❖ ❖

- ٢٥ -
سيكولوجية الإحساس

المحسّات وإدراكها. عتبة الإحساس. الحساسية العضوية ومستوى الإحساس. النمط الحسّاس. الحسّ الكاذب. الخلط الحسّي. الحسّ الخلُقي. الشعور الحسّي والانطباع الحسّي. تدريب الحساسية وسلب الحساسية. المذهب الحسّي والفلسفة الحسّية...

❖ ❖ ❖

الإحساس Sensation شعور أو وعي بظروف داخل أو خارج الجسم تستحدثه إستثارة مستقبِل حسّي Sensory receptor

أو النظام الحسّي Sensory system المستقبِل. وهذا التعريف بمثابة المبدأ الذي يقوم عليه عدد من النظريات في الخبرة الحسية Sense experience، وهي نظريات تفرّق بين الإحساس وإدراك الإحساس Sense perception، فأما الإحساس فهو ما أسلفنا، وأما إدراكه فينبني عليه ويقوم بتأويله وتمييزه. ومن علماء النفس من ينكر وجود الإحساس منفصلاً عن إدراكه وتمييزه. وفي البداية تكون دائماً المُحسّات Sense ثم ترتقي إلى المعنويات. والمحسّات منها الأولى كالألوان (الحمراء والزرقاء إلخ) والأصوات، والحرارة والبرودة، والضغوط. والإحساس هو فرع من علم النفس الذي يدرس الخبرات الحسيّة، والذي يولي عنايته بتمحيص وتدقيق المبادئ الأساسية الفسيولوجية والنفسية لهذه الخبرات الحسية. وعندما بدأ علم النفس الحديث شغلت العلماء عمليات الإحساس وميكانيزماتها الفسيولوجية، وأسهمت البحوث المعملية لعلماء كبار أمثال ڤيبر Weber (١٧٩٥ - ١٨٧٨)، وفخنر Fechner (١٨٠١ - ١٨٨٧)، وهيلمهولتس Helmholtz (١٨٢١ - ١٨٩٤)، وڤونت Wundt (١٨٣٢ - ١٩٢٠)، في تطوير الدراسات على السلوك الإنساني. وتتجه البحوث الحالية إلى الناحية التطبيبية أكثر مما تتجه إلى النواحي النظرية. وتأتي أكثر البحوث في الإحساس من المنظور السيكولوجي في المجالات الحربية والصناعية والفضائية. وتقوم أهمية هذه البحوث سواء التنظيرية منها أو التطبيقية على حقيقتين، الأولى أن كل ما نعرفه عن العالم المحيط بنا والعالم الداخلي لنا يأتينا عن طريق أعضاء الحسّ Sense organs فينا، والثانية أن كل فعل أو نشاط نقوم به ينبني على المعلومات التي نتلقاها من خلال الحواس. وتتناول هذه البحوث مسائل مثل نوع الإحساس، هل هو حراري أو ميكانيكي أو كيميائي، ومداه، وعتبة الإحساس Sense limen، أي الحد الأدنى الذي يمكن أن تنزل إليه قدرة عضو الحسّ على الإحساس، وقدرة هذا العضو أو ذاك من أعضاء الحس على التمييز بين المثيرات المختلفة، وقدرته على التكيّف مع المثيرات بحيث يحتملها

إذا زادت، أو يستمر تمييزه لها إذا تدنّت تأثيراتها إلى أدنى حدودها، والأساس الفسيولوجي للإحساس في الأعصاب، ومراكز الإحساس في المخ. وربما كانت البحوث على الإحساسين البصري Visual والسمعي Auditory هي أكثر البحوث في مجال الإحساس، وذلك بالطبع لأنه عن طريق السمع والبصر تأتي أغلب الخبرة الحسية وتتسبب المعرفة ويكون السلوك. وهناك الكثير من المسائل التي تشغل العلماء فيما يخص السمع والبصر، ففي البصر مثلاً تبرز مسائل اللون ودرجاته، والعمى اللوني، وحدّة البصر واضطراباته، وفي السمع درجات الصوت، والأصوات المركبة، والضوضاء، وفي الشم Smell تصنيف الروائح وطبيعة المثير الشمّي، وفي التذوق Taste ما يتصل بالطعوم وانقسامها إلى مالح وحلو ومرّ وحمضي، وفي الإحساس الجلدي Skin sense أو Cutaneous إنقسامه إلى إحساس بالسخونة والبرودة، وإحساس بالضغوط وبالألم، وأماكن هذا الإحساس في الجسم، وطبيعة هذا الإحساس، والتمييز بين ما يكون إحساساً سوياً وإحساساً مضطرباً. ويتّصل بحاسة الاتزان Static sense الشعور بمواضع الجسم وحركاته، وتصحيح أنفسنا إذا وقعنا، وتأثير الحركة على البصر، وطبيعة دوار الحركة. ويتصل الإحساس بالحركة Kinesthetic s. تقديرنا للأوزان ولمواضع الأشياء، وللحركة في الظلام، وطريقة المشي والكلام، وحركات العضلات التي تأتي تلقائياً إذا أردنا تناول الأشياء أو بلوغها إلخ...

والحساسية العضوية Organic sensitivity هي شعورنا بما يجري داخلنا مما يتّصل بأعضاء مثل المعدة والكليتين والامعاء والمثانة وغير ذلك، مما يتّصل بالشعور بالجوع أو بالعطش أو بالرغبة في التبول أو التبرز أو الرغبة الجنسية وإشباعها إلخ. وتفيدنا الحساسية العضوية في التعرف إلى ما نحتاجه داخلياً، وهي بمثابة الإنذار في حالة تعرضنا داخلياً لمرض من الأمراض.

ومستوى الإحساس Sensation level هو إحساسنا بما عليه مثير ما من قوة، فمثلاً في اللون يكون مستوى الإحساس به هو مقدار ما نراه عليه من لمعة أو شدّة

ضوئية، وكذلك في الصوت فإن مستوى الإحساس به هو مقدار ارتفاعه أو انخفاضه من حيث سَمْعنا له.

وقد يوصف أحد الناس بأنه باحث عن الأحاسيس Sensation-seeking، وذلك يُعَدّ من أبعاد الشخصية يتمايز به الناس من حيث رغبتهم وسعيهم واستمتاعهم بالخبرات الحسية والمشاركة فيها، طالما كان المستوى الحسّي الذي عليه هذه الخبرات عالياً بحيث يشعرون بها شعوراً فيه امتلاء ولذّة، وبعض الناس هذه هي حياتهم فعلاً. ولعل ذلك سببٌ حدا بيونج Yung (١٨٧٥ - ١٩٦١) إلى أن يقول بأنماط الشخصية التي قال بها على أساس من الوظيفة، من حيث أن الوظائف أربع، هي: الشعور، والتفكير، والإحساس، والحدس، وكلنا بنا هذه الوظائف، غير أن وظيفة منها قد تعلو على بقيتها وتغلب على الشخص، بحيث تتلوّن بها تصرفاته وسلوكه وتطبعها، فنقول مثلاً إنه من النمط الحسّاس Sensitive type، بخلاف النمط المفكر Thinking type الذي يغلب عليه العقل، ويفكّر بعقله لا بحواسه لو جاز التعبير.

والحسّ Sense قد نعني به عضو الحس، فنقول حسّ السمع Hearing sense، وحسّ البصر Vision sense، وحسّ الشم smelling sense، وحسّ الحرارة Temperature sense، وهكذا، غير أنه قد يوجد الحس دون أن يوجد عضو مرتبط به كما في ظاهرة الحس الطرفي الكاذب Phantom limb، وتقع أحياناً لمن بُترت أعضاء من أجسامهم، حيث يشعرون بعد بتر العضو بإحساسات ينسبونها إليه وكأنه موجود، فمثلاً قد يشعر من بُترت ساقه بعد العملية بوقت، أنه يريد أن يهرش في الساق وكأنها قائمة لم يحدث لها شيء. وأيضاً قد يوجد الحسّ ولا يكون مرتبطاً بالعضو المتّصل به، وإنما بعضو آخر ليس له، وذلك كما في ظاهرة الخلط الحسّي Synesthesia، وهي حالة مرضية وليست من الصحة في شيء. ومجال دراسة هذه الظواهر الشاذة هو اضطرابات الحساسية Sensitivity disturbances.

واضطرابات الحساسية تتشوه بها الحساسية فتزيد عن حدّها، أو تنقص، أو تفسد، ومن ذلك الخُدار Anesthesia وهو

فقدان الحساسية تماماً نتيجة تخدير أو تنويم أو تلف يلحق بالعصب، والنوع النفسي منه لا يتماشى موضعه من الجسم مع تشريح الأعصاب، فيكون الخُدار مثلاً باليد وحدها من المكان الذي نضع عليه القفاز، أو يكون بالمعصم حيث نضع الساعة، ويسمى لذلك بالخدار الهستيري Hysterical a.، لأنه ليس عضوياً، أي ليست له أسباب عضوية. وفي كلال اللمس Hypoesthesia يكون فقد الحساسية جزئياً، وهو عَرَض هستيري أيضاً، أي منشؤه نفسي، وكذلك النوع المسمَّى فرط الحساسية Hyperesthesia، فيزيد إحساس المريض بمؤثرات من نوع بصري أو سمعي أو لمسي، إلخ، أو يكون شديد الحساسية للحرارة أو البرودة، وذلك شيء قد نجد له أسباباً نفسية أو عضوية.

ومن اضطرابات الحساسية كذلك ثلاثة أنواع يصاب بها المرضى بالاستجابة التحولية، وهي فقد الألم Analgesia، وفرط الألم Hyperalgesia، وتشوّش الحس Paresthesia كما في النَّمَل والخَدَر. وهناك أنواع أخرى قد تكون لها أسباب نفسية أو غير نفسية كخدر الدغدغة Gargalesthesia، فلا يكون هناك إحساس بالدغدغة لو حدثت، وعكسه فرط خدر الدغدغة Hypergargalesthesia، وفرط التذوق Hyperageusia وعكسه نقص التذوق Hypoageusia، وفرط الحركة Hyperkinesthia ونقص الحركة Hypokinesthia، وفرط حسّ الحرارة Hyperthermoesthesia، وفقدان الإحساس بها Thermoanesthia، وفرط اللمس Hyperbaresthia ونقص اللمس Hypobaresthesia، وفرط الحساسية للاهتزازات Pallesthesia، وفقدان الحساسية للاهتزازات Palmanesthesia، وفرط الحساسية للألم Hyperalgesia ونقص الحساسية له Hypoalgesia، وفرط الحساسية للصوت Hyperacusia ونقص الحساسية للصوت Hypoacusia.

وقد ننسب الحسّ إلى غير أعضاء الحس فنقول الحس أو الإحساس بالمكان Sense of place، والإحساس بالزمان Sense of time، فنربط بين الحسّ وأحد

أبعاد العالم المادي، ونقصد بالحسّ هنا الوعي، فالحسّ بالمكان هو وعي بالمكان، والحسّ بالزمان أو الوقت هو وعي بالزمان، والمقصود بالوعي هنا الإدراك، وإدراك المكان أو الزمان هو إدراك بالوجود المكاني بالنسبة إلى موضع شيء من أشياء أخرى، أو إدراك للوجود الزماني أي موقع حدث معين من أحداث أخرى وقعت قبله أو بعده أو ترافق وقوعها معه، وكأننا نعني هنا بالحس أننا نُقصر هذا المكان أو الزمان على المكان أو الزمان عندما يكونان ذاتيين. وأما المسافة الحسيّة Sense distance فهي الفترة التي تنقضي بين إحساسين. وأيضاً فقد يقترن الحسّ بشيء معنوي فنقول «الحس الخُلُقي Moral sense» ويكون كالمَلَكة بالشخص يستشعر الأمور بها بالنسبة إلى الأخلاق. والحسّ الخلقي من الأسماء التي يتسمّى بها الضمير، وهو أداة تقويم الأفعال والأقوال خُلُقياً.

والإحساس بالانتماء Sense of belonging شعورٌ قوي بالانتماء للجماعة، يدفع الفرد لاستدماج مبادئ الجماعة وقيمها، وتبنّي أهدافها والدفاع عنها.

والإحساس بالهوية Sense of identity شعور المرء بأنه شخص منفصل ومتميّز عن الآخرين. والإحساس بالذنب Sense of guilt هو إحساس بالكدر ناتج عن نقد الأنا الأعلى أو الضمير لبعض الدوافع، أو لطريقة التعبير عنها، وخاصة الدوافع الجنسية والعدوانية. وقد يكون الإحساس بالذنب شعورياً جزئياً، بمعنى أن الإحساس يكون شعورياً ولكن أسبابه تكون لاشعورية، كما قد يكون هذا الإحساس بالذنب لاشعورياً، ناتجاً عن حاجة المريض إلى العقاب، ويعمل فيه دون أن يدري، فيرتكب من الأفعال ما يعرّضه للمساءلة دائماً. والشعور الحسّي Sense feeling هو حلاوة أو كدر نستشعرهما عقب خبرة حسية. والإدراك الحسّي Sense perception هو هذا الإدراك القائم على المنبّه الحسّي، وقد أسلفنا القول فيه. والخداع الحسّي Sense illusion إدراك خاطئ لمثير خارجي، ويرجع للتفسير الخاطئ لقوانين الطبيعة، مثل ظاهرة إنكسار العصا في الماء، أو إلى الخلط النفسي، وهو من إضطرابات الإحساس والإدراك.

والمُعطَى الحسي Sense datum إصطلاح جديد نسبياً عن فكرة قديمة قِدَم الفلسفة، وهي فكرة الموضوع المباشر للإدراك الحسّي. ويعتقد الكثير من الفلاسفة بأن الأشياء المادية الخارجية ليست هي موضوعات الإدراك الحسي المباشر، إذ أنه في أي موقف إدراكي بوسعنا أن نشك دائماً في أن ما ندركه بالحسّ هو شيء مادي حقيقي، لأنه ربما كان نوعاً من الخلط أو الحلم، إلا أننا رغم ذلك، ومهما كان الأمر مع الواقع الخارجي، فلا يمكن إلا أن نكون على يقين من أن حواسنا تتأثر به على نحو ما. وعلى الرغم من أننا قد نشك فيما قد تكون عليه الأشياء إلا أننا لا يمكن أن نشك في الكيفية التي تبدو لنا بها ساعة إدراكها. وهذه الكيفية هي ما نُطلق عليه إسم المُعطَى الحسي. فأنا الآن أرى الكرسي، وأنسب إليه ظهراً وملمساً ووزناً، ولكن لا الظهر ولا الملمس ولا الوزن حاضر أمام حواسي. فالعناصر المستدل عليها في إدراكنا هي العناصر القابلة للشك، وأما ما هو غير ذلك، أو الذي يتبقى بعد ذلك فهو المُعطَى الحسّي.

والانطباع الحسّي Sense impression إصطلاح عند السلوكيين أرادوا به تجنّب الحديث في الإدراك، لأنهم كانوا يقصرون كل شيء على الإحساس، فأطلقوا على نوع التفكير المتخلف عن الإحساس إسم الانطباع، ونسبوه إلى الحسّ، فهو انطباع حسّي، أي عقابيل فكرية للإحساس.

والفترة الحسّاسة Sensitive period هي مدّة زمنية يكون فيها الكائن حسّاساً لموضوعات معيّنة، ويستجيب فيها إستجابات فسيولوجية ونفسية لمثيرات بعينها، مثل الدورة النزوية في الحيوان. وقد نقول الفترة الحساسة لاكتساب المهارات اللغوية، ونعني بها الفترة التي يكون الطفل فيها قادراً على تعلّم اللغة واستيعاب وظائفها، وهي تقع في السن بين نحو السنة والبلوغ.

والحساسية Sensitivity هي القابلية للاستثارة لمثير، وقد تزيد الحساسية لسبب ما، وزيادة الحساسية Sensitization تعني أن الشخص ربما يكون حساساً حساسية مفرطة لمثير دون مثير آخر، وربما تزيد الحساسية بمنطقة

من الجسم دون منطقة أخرى. والمنطقة الحسّاسة Sensitive zone هي منطقة تشتد بها الحساسية لمثيرات معينة، فمثلاً المنطقة الشهوية من الجسم هي منطقة حسّاسة جنسياً، وقد يضرب الأب إبنه على مقعدته باستمرار فيزيد بها الحساسية وقد يجعل ذلك من الولد مأبوناً. وسلب الحساسية Desensitization طريقة من طرق العلاج بأن ندرب الشخص الذي يشكو الحساسية المفرطة من نوع ما على أن يسلك إزاء المثير المعين بطريقة عادية، بحيث يقل به عدد الأفكار والخواطر المشحونة بالقلق التي يثيرها هذا المثير أو الموقف، وبذلك يتمكن الشخص من معاودة التعامل مع المثير أو دخول الموقف واستئناف نشاطه السوي. وتدريب الحساسية Sensitivity training طريقة من طرق العلاج السلوكي الجماعي طوّرها كورت ليفين Kurt Levin (١٨٩٠ - ١٩٤٧) وكارل روجرز Carl Rogers في الأربعينات، ودخلت ضمن علم النفس الصناعي، وهي خطوة مهمة من خطوات تعليم الكبار، حيث يدرّب العمال على التعبير الحرّ عن أنفسهم، وعلى أن تكون لهم ردود فعل شخصية تترتب على اجتماعهم بغيرهم، فيلتقون بغيرهم ويتسنّى لهم عن طريق هذه اللقاءات أن يتخلصوا من أية أفكار مسبقة لديهم عن الآخرين، ويكتسبون حساسية إجتماعية مطلوبة.

والمذهب الحسّي Sensualism هو القول بأن كل إدراك هو إدراك حسّي أصلاً، وأن المذهب الحسّي هو الذي له دعوة معيّنة تقول باللّذة وتجعل الاستغراق فيها اتجاهاً في الحياة وأسلوباً للعيش.

والفلسفة الحسّية Sensationalism تردّ كل العمليات العقلية ومحتوياتها إلى عناصرها، باعتبار هذه العناصر وحدات من الأحاسيس يجمع بينها الترابط، وإذن فكل الفكر مستمد من الحسّ وحده.

وللإحساس عتبة يقال لها عتبة الإحساس Sensation threshold، والإحساس العتبي Threshold sensation هو الإحساس الإدراكي المدخلي. والعتبة المطلقة Absolute threshold تعني المستوى الأدنى أو الحدّ الأقل الذي يمكن أن نرى عنده بالعين، أو نسمع بالأذن، أو نتذوق باللسان، إلخ، فإذا قلّ المثير بحيث

لا يبلغ في قوته هذا الحدّ الأدنى من الإحساس من فرط ضعفه فإننا لن نراه، ولا نسمعه، ولا نتذوقه. والناس تتباين بشأن هذا الحدّ المطلق، وأعضاء الحسّ أيضاً تتباين بشأنه وتتغاير فيما بينها، ولهذا كان هذا الحدّ إفتراضياً بالنظر إلى أنه حدّ نسبي جداً. وكانت لتجارب العتبة المطلقة في الإحساس نتائج مذهلة أظهرت لنا حقائق عن أعضاء الحسّ لم نكن نعرفها من قبل، ومن ذلك مثلاً أن العين شديدة الحساسية للمثيرات لدرجة أنها تستطيع أن تتبين في الليلة الظلماء ضوء عود الكبريت المشتعل على بعد - قيل ثلاثة أميال، وأيضاً فإن الأذن يمكنها أن تسمع دقات الساعة على بعد عشرين قدماً إذا كانت الحجرة هادئة.

والتكيّف الحسي Sensory adaptation هو أن تقل بنا الحساسية لمثير معيّن مع طول المسافة التي يظل بها تأثير هذا المثير سارياً، ونسمي ذلك التكيّف السالب، مثلما يحدث إذ نسمع ضجة القطار وهو سائر فنعتادها حتى لننام فإذا توقف القطار وتعطلت الضجة صحونا.

والحرمان الحسّي Sensory deprivation هو أن يُسلَب الشخص من إمكانياته الحسية، كأن تتعطل حواسه عن العمل أو يعيش في عزلة حسيّة باختياره أو مفروضة عليه.

ومراحل التطور الحسّي Stages of sensory development هي التي يمرّ بها الفرد إبتداءً من الفترة التي يكون فيها استخدامه لحواسه إستخداماً ذاتياً مركزياً، إلى الفترة التي يكون فيها خروجه بحواسه إلى غير ذاته. وفي الفترة الأولى يكون استخدامه للشمّ والتذوّق واللمس، وفي الفترة الثانية يكون استخدامه للسمع والبصر، يمدّ بهما أحاسيسه إلى العالم البعيد من حوله.

والدافع الحسّي Sensory drive هو رغبة شديدة أو حاجة ماسة في أن يخبر الشخص موضوعاً خبرة حسية. والتمييز الحسّي Sensory discrimination هو القدرة على التمييز بين التنبيهات المتفاوتة في الكم أو في الكيف. والمجال الحسّي Sensory field هو مجموع ما يتصل بشخص ما من مؤثرات حسيّة يمكن أن ينفعل بها ويستجيب لها في زمان

ومكان معينين. ويوصف هذا المجال بأنه مجال ثري حافل بالمحسّات، أو مجال فقير مجدب من شأنه أن يعيش الشخص فيه في حرمان حسّي.

والعادة الحسيّة Sensory habit هي سلوك مكتسب تكون لنا به القدرة التلقائية على التمييز بين المؤثرات أو المحسوسات والتجاوب معها عضوياً وبتلقائية.

والتكامل الحسّي Sensory integration هو أن تستثار أكثر من حاسة معاً بمثير واحد، ويتكرر ذلك حتى يقترن تجاوب الحاستين أو أكثر، فإذا حدث واستثيرت إحداهما فإن الأخرى تستثار أيضاً بالتقارن، وذلك ما عليه الحال في التعلم الشرطي مثلاً.

والاستجابة من النمط الحسّي Sensory-reaction type هي التي يتوجه فيها الانتباه إلى ملاحظة المؤثر، بينما مثلاً في الاستجابة من النمط الحركي يولي فيها الشخص إنتباهه للحركة التي يستجيب بها للمؤثر وليس للمؤثر نفسه أو نوعه وماهيته وما إلى ذلك.

والمؤثر الحسّي Sensory stimulus هو الذي يتوجه بتأثيره إلى حاسة من الحواس. والعملية الحسيّة Sensory process هي العملية التي يقوم عليها الإحساس. والإحساس الأولي Protopathic sensation هو إحساس فطري كالجوع والجنس، والإحساس الثانوي Secondary s. هو إحساس مكتسب كالابتهاج بالموسيقى أو السرور لاحتساء كوب شاي في يوم بارد. والإحساس الذاتي Subjective s. مصدره ذاتي وينسب إلى الحسّ الخاص به، فمثلاً الجرس في الأذن دون وجود جرس خارجي أو جرس من داخل الجسم، إلا أن الأذن تطن كالجرس وكأنها تسمع جرساً أو كأن بها جرساً. وتزايد الإحساس Sensation increment من مصطلحات الفيزياء النفسية، عبارة عن تسارع في الحساسية الذاتية تتنامى به الخبرة الحسيّة الذاتية. والإحساس الوجداني Affective s. والتفاعل الحسّي Sensory interaction هو أن تتداخل العمليات الحسية مع بعضها البعض بشكل تلقائي متزامن، فإذا أمكن تنظيم هذا التفاعل بهذه الطريقة فإننا نطلق عليه إسم التنظيم الحسّي Sensory

organization. والإحســــــــاس الأقصـــــــى Maximal sensation هو أقصى ما يصل إليه الإحساس بمثير، فلو زادت قوّة المثير عن ذلك لما زاد الإحساس بها عن هذا المستوى. والحساسية المطلقة Absolut sensitivity هي القدرة على الإحساس بمثير وهو في أقل حالاته تأثيراً، أو في أضعف حالاته.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Boring, E.G.: Sensation and Perception in the History of Experimental Psychology.
- Milner, P.M.: Physiological psychology.
- Hensel, H.: Allgemeine Sinnesphysiologie.

❖ ❖ ❖

التحليل النفسي للأحلام

إسم الموسوعة	:	موسوعة عالم علم النفس
إسم المؤلّف	:	الدكتور عبد المنعم الحفني
إعــداد	:	قسم الدراسات في دار نوبلِيس بـإشراف الأستــاذ غسّان شديـد
قياس الكتاب	:	27.5 × 19.5 سم
عدد صفحات الجزء	:	320
عدد صفحات المجموعة	:	6436
إسم الكتاب	:	التحليل النفسي للأحلام
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبلِيس
تلفاكس	:	961 1 583475
تلفون	:	961 1 581121 961 3 581121
الطبعة الأولى	:	2005

عالم عِلم النفس

17

الدكتور عبد المنعم الحفني

التحليل النفسي للأحلام

NOBILIS
MAISON D'EDITION

التحليل النفسي للأحلام

الكتاب الجامع لنظريات تفسير الأحلام،
والطريقة العلمية الحديثة للتفسير،
ولزوم التحليل النفسي للأحلام كأداة
لتشخيص وعلاج الاضطرابات النفسية
ومعرفة الجوانب النفسية والاجتماعية
والثقافية للحالم. والفروق بين أحلام
الشباب والشيوخ والأطفال والأسوياء
والمرضى والذكور والإناث...

رحلة حلم

رأيتُ أشياءَ شتَّى لا عِدادَ لها	والعينُ مغمضةٌ والحِسُّ في عَدمِ
وطرتُ في الجوِّ أحياناً وسرتُ إلى	أقصى البلادِ ولم أخطر على قدمِ
وكلَّمتُ من لم يكلمني ونُحتُ على	مَن لم يمُت وبلا خطٍ جرى قلمي
وشدّ ما خفتُ من غول بلا سبب	رام اغتيالي بغْياً وهو لم يرمِ
وكم رأيت بداري اللص يسرقني	وإنه حول داري قطٌّ لم يحُمِ
وكم تَسوّرتُ أسواراً وهِمْتُ على	وجهي فراراً ولو نُبِّهت لم أهمِ
وكم تصوّرتُ من ضغطٍ أناخ على	صدري وحاول تعجيلاً لمخترمِي
وكلّ ذاك وهذا في الحقيقة قد	لِفيتُه وأنا في غفلة الحُلمِ

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

المقَدمة

كانت الأحلام دائماً محل اهتمام كبير من الناس وخاصة في زماننا هذا حيث الظروف المضطربة عائلياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، ووسائل الاعلام لها ضغوطها، والناس يكبتون أو يتعلمون أن يخفوا ما بأنفسهم ولا يظهروا انفعالاتهم وتطلعاتهم وطموحاتهم، فتكثر الأحلام، ويكثر تناول الصحافة والاذاعة لموضوعات الأحلام ولتفسيرها وتأويلها، تترضّى بذلك القارئ أو المشاهد.

وتفسير الأحلام كوسيلة من وسائل مطالعة الغيب أو استكناه المستقبل ينضاف إلى وسائل أخرى كثيرة لعلها أكثر شهرة من تفسير الأحلام. وربما كان الاقبال على قراءة الكف أو الفنجان من الممارسات اليومية للناس، وربما كان ذلك عن حاجة حقيقية أو للتسلية. وليس تفسير الأحلام من ذلك. وبعد أن كان الاهتمام بالأحلام منذ فترة ليست بالبعيدة عظيماً حتى لكأنَّ تشبيه هذا المجال الجديد بأنه كاكتشاف أميركا، لم تعد الأحلام تحظى من العلماء وخاصة علماء النفس والتحليل النفسي والأنثروبولوجيا بالاهتمام نفسه، ويبدو أنهم تركوا أمرها كالسابق لمرتزقة قراءة الطوالع فصرنا نقرأ إعلانات لكتب في تفسير الأحلام ليست من العلم في شيء، وليس مؤلفوها من العلماء، ومن ذلك كُتب في الأحلام وكأنها القواميس، كأن يحلم الشخص أنه تلقّى رسالة، فيفتح الكتاب على حرف الراء مادة رسالة، ليجد أن الحالم الذي يحلم أنه تلقى رسالة فإن ذلك يشير بأنه سيتقلد منصباً أو يرزق مالاً أو ولداً!!

وما تشهده سوق الكتب العربية لا يعدو إعادة صياغة لكتابين مشهورين هما «منتخب الكلام في تفسير الأحلام» لابن سيرين، و«تعطير الأنام في تعبير المنام» لعبد

الغني النابلسي. وتتناول الصحف أو كتّاب هذه الصحف مقتطفات منهما يسوقونها سياقة عصرية وبأسلوب العصر، ويشفع لهم أن الكتابين السابقين خلاصة الحكمة القديمة في مجال تفسير الأحلام وهو ما سنعرض له من بَعد.

وهناك ترجمة لكتاب فرويد «تفسير الأحلام» لا يجرؤ صحفي ولا كاتب على الاقتباس منه، ولا يشار إليه، ربما لصعوبة في النقل عنه، وربما لصعوبة في الإحاطة به وفهم مراميه، وللأسلوب الاستطرادي الذي اتبعه فيه فرويد، والذي جعله عند الترجمة جافاً شديد الجفاف، مع أن الكتاب في الأصل الألماني سهل العبارة وكثير التشويق.

وربما يكون انصراف أطباء العلاج النفسي عن تفسير الأحلام بالنظر إلى الاتجاهات المادية التي تسود حياتنا الفكرية المعاصرة، حتى لقد صار علم الاقتصاد هو العلم الأول، وصار تفسير كل قيمة في ضوء ما تعود به على الناس من نفع مادي. ولو خُيِّر الناس بين أن يناموا أو يقضوا بقية عمرهم في السعي دون نوم لاختاروا عدم النوم. والنوم عند الغالبية وقت ضائع. ولئن كان من الضروري أن ننام فلا بأس أن يخلو ذلك من الأحلام. ويختلف اتجاه الناس بشأن الأحلام، فمن كانت له ميول غيبية فإنه يحب أن يعرف ما تعنيه الأحلام التي يراها في المنام، وقد يكون لها تأثير على سلوكه في الحياة ومع الناس، وقد يقبل على تفسيرها إقباله على قراءة تنبؤات الفلك ومطالعة الفنجان. ومن لم تكن له هذه الميول وله طبيعة جافة عملية إنصرف عنها بالكلية ولا يكاد يحلم، وإذا حلم لا يكاد يذكر ما يحلم، وما يذكره يحسبه أضغاث أحلام.

والناس هذه الأيام عمليون وماديون. وحتى توجهات علم النفس المعاصر توجهات مادية تعتمد على دراسة حاجات الناس وتصنيفها وتبويبها والتنبيه إليها. وما يعنيهم من أمر النفس اليوم هو الأنا وليس اللاشعور، والأنا هو الجزء الواعي والحاضر من النفس بحاجاته الملحة وتطلعاته المادية، واللاشعور هو ذلك الجزء المستور من النفس والذي يتعلق غالباً بالماضي، والناس يعنيهم الظاهر دون الباطن، ويهمهم أن يعرفوا من أمر الذات والأنا ما يساعدهم في لقاءاتهم مع غيرهم بحيث يخرجون منها بفائدة، أو بحيث يستطيعون أن يتنبأوا بسلوكياتهم، فيكيفوا أنفسهم على ذلك، ويغيّروا من

معاملاتهم، ليجنوا أكبر الفائدة، أو لضمان النجاح. وسيكولوجية الأنا تجد إذن رواجاً دون سيكولوجية اللاشعور، سواء من الجمهور أو علماء النفس. وتعتمد الأحلام في تفسيرها على الإحاطة بمجريات اللاشعور، ولعله لهذا السبب يمكن أن نعزو الانصراف عن تحليل الأحلام كوسيلة من وسائل الكشف عن ديناميات الشخصية في مجال العلاج النفسي. وهو موقف بالتأكيد خاطئ من أساسه لأنه حتى مع هذه التوجهات المادية والاهتمام بالحاضر دون الماضي فإن الحلم يبقى من أهم الوسائل الكاشفة عن مكونات الأنا وأعماق النفس وأبعاد الشخصية. وإذا كانت مذكرات الشخص أو يومياته أو كتاباته التي بينه وبين نفسه هي من وسائل الإحاطة بما يفكر فيه، وما يشغله، وما يخبئه ولا يفصح عنه إلا لماماً ويمكن أن يفيد في العلاج، فإن الأحلام أكثر فائدة في هذا المجال، وذلك لأن الكبت يعمل عمله في استبعاد أمور وستْر أخرى، والتمويه على الكاتب والقارئ. وأما في الحلم فالكبت أقل عملاً. والحلم أقدر على التعبير عن الأماني والرغبات والحاجات والآمال والمخاوف. ويصف عالم كبير مثل مورفي (Murphy: Personality) عمل الحلم فيقول إنه ليس كالحلم وسيلة غنية بالتعبيرات عن الشخصية، وهو سجل للشخصية، فضلاً عن أنه شكل تعبيري للسلوك كالطريقة التي نتميز بها عن الآخرين في الكتابة أو في المشي أو في الكلام، مع الفارق أننا يمكن أن نصطنع كل ما سبق لنؤثر على الآخرين. أما في الأحلام فنكون على سجيتنا ونعبر عن أنفسنا بتلقائية. والحلم لا يراعي الأصول الاجتماعية، وهو وسيلة إسقاطية بمعنى أننا نُسقط في الحلم كل ما نتمنى ونرغب متحررين من أية قيود، ونُخرج كل ما عندنا من المعاني، وكل المشاعر بعفوية لا يمكن أن نخبرها في أي موقف آخر، ونمارس الخيال في الحلم، خيالاً ليس فيه أعمال كما في ممارسة الخيال في ممارسة الكتابة مثلاً. والحالم في حلم النوم ليس كالحالم في حلم اليقظة، فإن كان حلم اليقظة يتجه إلى الحاضر ويقدم مشاهد خيالية لأجواء مستقبلية فإن حلم النوم فيه التوجهات للماضي والمستقبل معاً. والحلم منه ما هو هروب من الحاضر إلى الماضي، وما هو هروب من الحاضر إلى المستقبل، ففي الحلم تتصارع الرغبات، بعضها من الماضي يلهبه الندم، وبعضها يمتُّ الى

المستقبل ويستشرفه، والحلم ينظمها جميعاً بعد شتات، وينفخ فيها حياة جديدة لها وحدة درامية فريدة تجعل كل حلم نسيج وحده، وتضمه لبقية أحلام الشخص كفصول المسرحية الواحدة أو تابلوهاتها المتتابعة، فيفسر كل حلم أحلاماً أخرى ويضفي عليها معانٍ جديدة.

وحتى لو لم تكن الأحلام تهم الحالم، فإن عملية الحلم نفسها ضرورية كنشاط حيوي. والكثير من الناس يحلمون أحلاماً مبهرة تعطي لحياتهم بريقاً أو لمعة ليست لها، وكأن الأحلام تعويض أو استكمال لحياة تخلو من كل بهرج أو جمال.

والحالم قد يحلم لأنه يريد أن يحلم، وقد كان المصريون القدماء يستجلبون الأحلام ليستلهموا منها حلول مشاكلهم وعلاج أمراضهم، ومن ذلك حلم فرعون يوسف. وكان الملوك القدماء والغزاة والفاتحون يطلبون الأحلام ويعيّنون في بلاطهم المفسرين، لعلهم يستفتحونها تواريخ الأحداث الكبرى والنتائج المسبقة لها. وفي عصرنا من يفعل ذلك، وقد قيل إن الروائي دي كوينسي مثلاً كان يفتعل الأحلام موضوعات لقصصه، والشاعر كوليردج كان ينسج قصائد من أحداث أحلامه.

وللحلم لغته ومنطقه العالميان، ولعل ذلك هو السبب في تشابه قواميس الأحلام في اللغات المختلفة، مع فارق أن معاني بعض النباتات أو الحيوانات قد تختلف باختلاف الثقافات، فمن يحلم بالخنزير مثلاً في بلاد الاسلام قد يؤول الحلم تأويلاً مختلفاً عما يمكن أن يؤوله الحالم من دائرة الثقافة الأوروبية.

ويبدو أن الساميين كانوا أكثر الأجناس اهتماماً بالأحلام. وقد قيل إن أقدم كتاب في الأحلام سجلته ورقة بردى مصرية من الأسرة العشرين (من ٢٠٠٠ إلى ١٧٩٠ ق.م.). وقيل إن البابليين مهروا في تفسير الأحلام، وكانوا يعتبرون الأحلام رسالات سماوية منبئة أو منذرة أو مبشرة، ومفسرو الحلم هم «البارو»، وهم طبقة متميزة من الكهنة. وكان المرضى وأصحاب المسائل يتوجهون إليهم فيؤدون الصلاة ويبيتون ليلتهم بالمعبد ليحلموا، وإله الأحلام عندهم هو الماخير، ويخاطبونه قائلين: «فلتتجلَّ علينا

أيها الربّ ماخير ولتباركنا بالأحلام نرى فيها مصائرنا وأقدارنا» :Hastings) Encyclopedia of Religion and Ethics. Vol 5) وكانت الأحلام المنذرة كثيرة ومطاعة بحرفيتها، ومن ذلك أن اشور بانيبال حلم أنه يعبر النهر، وكان ذلك مستحيلاً ولكنه رضخ للحلم. وحلم نابينودس أنه يبني معبداً في حرّان ففعل. وعندما حلم سيدنا ابراهيم أنه يقتل إبنه اسماعيل صدّق الرؤيا وهمّ أن يقتله. وفي مصر القديمة حلم تحتمس الرابع أن مُلك مصر سيؤول إليه، فلما تحقّق له الحلم أعاد بناء المعبد أسفل أبي الهول حيث كان قد غفا وحلم حلمه المُنبئ.

وكانت نظرية الحلم المصرية أن الأحلام تأتي الناس أصحاب الشفافية، وأن الأحلام وقائع تستشرفها الأنفس مقدماً.

وفي اليونان القديمة ساد الاعتقاد أن الأحلام يلهمها زيوس، ولكن إلهامها في مواضع معينة أصدق أو أفصح منها في مواضع أخرى، ومن تلك الأماكن معبد دلفي المشهور وإلهه هو أبوللو. وكان الإله بشخصه يظهر للحالم الذي ينام في معبد إسكوبيوس بأبيدوروس.

والأحلام صادقة في الديانة اليونانية الأورفية، وأورفيوس فيها هو إله النوم أو الأحلام. وورثت الفلسفة الفيثاغورية معتقدات الأورفية، وورثت اليهودية والمسيحية كل الميراث السابق، ومن ذلك، أن الأبطال والأنبياء كانت تأتي البشارة بهم من خلال الأحلام، ففي الديانة المصرية أن ساتوى الكاهن «توجه لينام فحلم كما لو أن البشر قد جاءه وقال له ان زوجتك قد حملت، وأنها ستلد ولداً ذكراً إسمه سينوسيريس، وأنه مبارك وتتم عليه الكثير من البركات (Encyclopedia of Religion and Ethics). وشبيه بذلك الحلم الذي رأى فيه ملك اليونان فيليب أن الصقر المصري قد أتاه وبشّره بميلاد الإسكندر (Seafield: Litetrature and Curiosities of Dreams). والحلم الذي عاينته داجهدو أم زرادشت، حيث جاءها الإله بنفسه يقول لها إن الطفل الذي ستحمل به سيكون خيراً للعالم ومصدر بركة للأجيال القادمة. وفي العهد الجديد يقول القديس ماتيو «إن الإله ظهر في الحلم ليوسف النجّار وقال له تقدّم يا يوسف يا ابن داود وخذ

إليك مريم زوجة، ولا تخش شيئاً، لأن الذي تحمل به هو من روح الله وستسميه يسوع، وهو الذي سيخلّص شعبه من خطاياهم». «وجاءها الملاك وبشّرها بابنٍ اسمه يسوع، سيكون عظيماً، وسيقال له ابن العلي، وسيجلسه الله على عرش أبيه داود، وسيسود بيت يعقوب للأبد، ولن تكون هناك نهاية لمملكته».

ولقد حلم خسرو أحد ملوك ساسان أن لساناً من الدخان والنار إنطلق من السماء فأخفى مجد أسرته وأعلن ميلاد النبي محمد. وحلم أحد جدود تيمورلنك بأن من نسله سيأتي مَن يؤسّس إمبراطورية جنكيز خان. وكانت هناك أحلام مشابهة عند أكتا أم أوغسطس، وأرلوتا أمّ وليام النورماندي، وفي قصة ميلاد سيروس، وفي التاريخ الحديث سكاندربرج والقديس برنارد.

ونخلص من الدراسة الأنثروبولوجية للأحلام أنه كانت هناك دائماً نظرتان للحلم، إحداهما تُرجع الأحلام كرؤى إلهية وتجسدها كتعبير عن القَدَر وعن تعامل الأحلام كرؤى إلهية وتجسدها كتعبير عن القدر، وعن الإيدلوجية الدينية السائدة في الأمة والثقافة التي تميّزها، والأخرى نظرة عقلانية تعامل الأحلام كرؤى خاصة بالأفراد وتصنّفها كأنماط، وتُعمل فيها الرأي والاجتهاد بخلفية فلسفية. والنظرتان موجودتان في الثقافة العربية، فابن سيرين يقسّم الأحلام إلى قسمين، فقسم من الله، وقسم من الشيطان. ويطلق على الحلم من القسم الأول إسم الرؤيا الصالحة، وينسب إلى القسم الثاني أن بعضها أحلام فسيولوجية مصدرها الجسم وما يصيبه من امتلاء بالطعام أو خلوّه منه، فالجائع يحلم بالخبز، والمحروم جنسياً يحلم بمضاجعة الحسان، وبعضها أحلام نفسية فيها الآمال والمخاوف والأحزان.

وأما عبد الغني النابلسي فيجعل تفسير الأحلام علماً يقول إنه من أشرف علوم الأوائل، ويذهب إلى نظرية في مصدر الأحلام فيقول إن النائم يرى في منامه ما يغلب عليه من الطبائع الأربعة، فإن غلبت عليه السوداء رأى الأحداث والسواد يجللها، والأهوال والأفزاع تتخللها. وإن غلبت عليه الصفراء رأى النار والمصابيح والدم والمعصفرات، وإن غلب عليه البلغم رأى البياض والمياه والأنهار والأمواج، وإن غلب

عليه الدم رأى الشراب والرياحين والمعازف والمزامير. ويطلق النابلسي على هذه الأحلام إسم الأحلام النفسية أو الأحلام التي من همّة النفس، ويقول إنّ أصحّ الرؤيا هي البشرى، وهي التي تبشّر الرائي بالخير، بعكس الرؤيا الزاجرة التي تحذّر الرائي من شيء. والرؤيا البشرى صريحة بعكس الزاجرة، وهي المرموزة التي تكثر فيها الرموز، كأن يحلم الشخص بأن زوجته تخونه فيراها تدس له السم، والسم هنا رمز للزنا. أو كأن يرى الرائي نفسه يغني في المسجد بدلاً من أن يصلي، فذلك رمز إلى إتيان المعصية وافتضاحه. وما يذهب إليه النابلسي أو إبن سيرين يعكس الإيديولوجية العربية حول الأحلام. ويُخضع تعبيرها أو تفسيرها للمكان والزمان بعكس الإيديولوجية العربية حول الأحلام. ويُخضع تعبيرها أو تفسيرها للمكان والزمان ولنوع الثقافة.

ويقول النابلسي: «واعلم أن تربة كل بلد تخالف غيرها من البلاد لاختلاف الماء والهواء والمكان، فلذلك يختلف تأويل كل طائفة من المعبرين لاختلاف الطبائع والبلدان كالذي يرى في المنام في بلاد الحر ثلجاً أو جليداً أو بَرَداً، فإنه يدل على الغلاء والقحط. وإن رأى الرائي ذلك في بلد من بلاد البرد فإن ذلك لهم خصباً وسعة. والوحل لأهل الهند مال، ولغيرهم محنة وبلية. والسمك في بعض البلاد عفونة وفي بعضها مصيبة».

ويذهب الكثيرون من ثقافات الأنثروبولوجيا إلى ردّ الصور الحلمية إلى بداية الإنسانية أو أنها كالفطرة، ويقولون إنها لغة بدائية، وتشبه الديانات الأولى أو البدائية، وكأنما التفكير الأول أو البدائي أو الفطري يجمع بين الاثنتين، ولعل ذلك سبب القول إن بعض الأحلام مصدره إلهي، وكل الثقافات تعتبر بعض الأحلام موحى بها إلهياً، وتوصف بأنها رؤيا صادقة. ويطلق العرب على الملاك الموكل بالأحلام إسم صادوق.

ومن رأي عالم كإدوارد تايلور أن كل الثقافات تقول إن الروح تخرج من الجسد عند النوم وتتجول، وإن جولانها هو هذه الأحلام، وإن الأصل في هذا القول ما يسميه علماء الأنثروبولوجيا الإحيائية Animism، وهي أن كل شيء في الطبيعة حيّ وله روح، وأنه في الأحلام تتواصل الأرواح وتبوح الكائنات والموجودات بأسرارها

(Tylor: Primitive Culture). ويذهب إلى ذلك أو ما يشبهه النابلسي فيقول: إن المعبّرين من المسلمين، الرؤيا عندهم أن الانسان يراها بالروح، ويفهمها بالعقل. ومستقر الروح القلب، والقلب متصل بالدماغ، والروح معلق بالنفس، فإذا نام الإنسان إمتد روحه مثل السراج أو الشمس وبذهاب النوم ترجع إلى النائم نفسه فتعود الحواس باستيقاظها إلى أفعالها.

وقال بعضهم إن الحسّ الروحاني أشرف من الحس الجسماني، لأن الروحاني دال على ما هو كائن، والجسماني دال على ما هو موجود، يعني أن الأرواح في الأحلام تستشرف ما سيكون. وبتعبير العالم سيليجمان: While the body slept, the dream was the reality experience of the soul or shadow (Seligman: Anthropology and Psychology) يعني ان الحلم هو التجربة الواقعية للروح أو النفس بينما الجسد نائم.

والكثير من العبادات مصدره الأحلام، فلم تكن زيارة الموتى في القبور إلا لأن الموتى يأتوننا في الأحلام، وتعبير ذلك أن نزورهم. ويبدو أن الاعتقاد في الروح جاء أصلاً من شيوع الأحلام بينما الانسان نائم. فكيف يتسنى للنائم أن يحلم والمفروض أن كل حواسه متعطلة؟ ولم يكن هناك تفسير إلا القول بالروح، فإذا كنا نحلم بالموتى: فإن الموتى لا يموتون على الحقيقة، بل هم أحياء، وذلك مصدر القول بالخلود.

ويذهب علماء الأنثروبولوجيا أكثر من ذلك إلى ردّ فكرة التناسخ إلى الأحلام، طالما أنه في الحلم يتحول الحالم أو أشخاص الحلم إلى حيوانات أو أناس آخرين، ومن ثم ذهب تفكير الناس إلى القول بإمكان التناسخ. ولعل ذلك سبب للقول أيضاً بالتوتم Totem، وهو أن يكون لنا جميعاً كقبيلة أو شعب أصل إلهي من حيوان أو كائن يسري فينا، ويجعل من ثم من الممكن أن نتحول شكلاً إلى بعضنا البعض.

ولعله من البديهي أن يكون للشخصية ومكوناتها والأحداث التي تمر بها تأثير على الأحلام، غير أن القليلين جداً هم الذين تحدّثوا في تأثير الأحلام على سلوكياتنا وعلى الثقافة التي نتفيأها. ومن الذين أفاضوا في هذا التأثير جماعة العلماء النفسانيين

الذين لهم اهتمامات ثقافية أنثروبولوجية، ففضلاً عن أن الأحلام تجعل الحالم بمزاج معين بعد أن يصحو من نومه، فيتوجه لأفعال معنية، أو يفكر بطريقة خاصة، كأن يحذر أحد الناس، أو يحاذر فيما يسلك، فإن الكثير من الإنتاج الفكري القومي هو من وحي الأحلام، والكثير من الأساطير والملاحم والشعر الملحمي والعقائد والخرافات يمكن ردّه إلى الأحلام. (Seligman: Huxley Memorial Lecture). ولنا أن نتساءل: ألم يكن تعيين النبي يوسف وزيراً لمصر بناء على حلم؟ وألم يكن بناؤه لصوامع الغلال من مترتبات التفسير؟ وأيضاً أليس احتفال المسلمين بعيد الأضحى، وما يصنعون من الأضاحي هو من نتائج حلم النبي ابراهيم؟ أكان من الممكن أن يكون هناك عيد للضحية لو لم يُفتدى النبي اسماعيل؟ لقد صدّق ابراهيم الرؤيا، وفسّر الحلم تفسيراً حرفياً لو لم تتداركه رحمة الله، والتي نعلم بمقتضاها أن الأحلام رمزية، وأننا لا ينبغي أن نأخذ الحلم بحذافيره، وأن للحلم محتوى وظاهراً هو الحلم كما نراه، وأما الباطن فهو الذي يحتاج إلى تفسير، ولم يكن إبراهيم قد تعلّم تأويل الأحلام ففسّر الحلم على ظاهره، وأما يوسف فقد تعلم التأويل وبرع فيه، حتى أن القرآن يذكر ذلك من مناقبه. وكذلك كان حفر زمزم بناءً على حلم. وكانت توجهات موسوليني للسياسة لأنه نشأ يسمع إلى أبيه وتفسيره للحلم الذي رآه له. ونحن نفعل الأشياء الكبيرة وكذلك الصغيرة لأننا حلمنا بها. وفي بلادنا إذا حلمنا مثلاً بميّت لنا فإننا نصحو لنتصدق على روحه، أو لنقرأ على روحه القرآن. وقيل إن ملحمة جلجامش تصوّر قصة الفيضان بناءً على حلم. ويذهب فريزر إلى تفسير التوتم هذا المذهب، ولو طبّقنا نظرية فريزر على ثقافتنا لقلنا إن الكبش هو توتم العرب، والعرب رعاة غنم، وعيد الأضحى هو عيد التوتم عندهم، والمسلمون جميعاً الآن يتشاركون في هذا التوتم الذي كان عند الشعوب التي دخلت الإسلام وليسوا من رعاة الأغنام. وقيل إن اسماعيل هو أبو العرب، وهو الذي تدور حوله قصة الفداء والحلم. وكانت البقرة والعجل والقطط من أحلام المصريين تواتم لقوى الخير في الطبيعة، فكانوا الآلهة حاتحور وإيزيس وتوت وأبيس وبسطة. وسلوك المصريين يوجهه في القديم رؤياهم

لهذه الحيوانات. ولكل حيوان في الحلم هيئة يكون عليها التفسير وتوجيه السلوك في الغد. فالكبش رجل عظيم في قومه، والبقرة امرأة، والأخذ بقرون الكبش يعني المنعة، والأخذ بإليته يعني التسيّد، وذبح الكبش انتصار، والبقرة الحلوب امرأة مخصبة، وذات القرون المرأة المنيعة، والعثور على بقرة يعني الزواج المبارك. والتوتم الذي يحكي عنه فريزر (Frazer: Golden Bough) جعل فليتشر له شبيهاً خصوصياً يقول إنه التوتم الخصوصي، وهو الحارس والحامي والبركة للشخص، يراه في منامه فيتفاءل ويستبشر، وهو الشيء أو الشخص الذي يتردّد باستمرار في أحلامه، وقد يكون الرسول أو الشيخ أو الولي (Fletcher: The import of the Totem).

والعرب يفسرون ذلك بأن الرائي ربما يبلغ منزلة على قَدْر التوتم، وله كيفيات فقد يظهر في المنام راضياً أو غاضباً، وقد يتوارى منه الحالم، وقد يراه في هيئة والده أو أخيه أو أحد من ذوي قرباه، وسُخط التوتم معناه سخط الوالدين أو ذوي الأمر، وغضبه قد يعني سقوطه من مكان رفيع. والتوتمية ليست كما قد يتبادر إلى الذهن شيئاً من الماضي، فما زالت حتى اليوم. وتتخذ الأحزاب السياسية مثلاً أشكالاً من الحيوانات كالحمار رموزاً وتعويذة لها كما في أمريكا، ولقد اتخذ ست أخو إيزيس شكل الحمار في إحدى تحولاته، ولعل ذلك سبباً أن الحمار في الحلم يعني الخير، وقد يعني الحكمة، وقد يعني الصبر. والحمار أيضاً امرأة معينة على المعيشة، كثيرة الخير، ذات نسل. وقيل إن لفظ الأتان والأتانة من الإتيان، والاتيان للأنثى، والمباشرة إتيان. وقيل مَن مات حماره في الحلم فقد ماله. وإنه لأمر ذو بال أن يتم هذا التبادل النفسي بين الحالم وقوى الطبيعة والكائنات بحيث يُضفي الناس عليها معانٍ وقيماً في الأحلام، يُسقطونها عليها من بعد في الحياة، وبالعكس.

والأحلام قد تلهم الدواء وتستحدث الشفاء، وهكذا كان حلم أيوب. وقد تستحدث الإيمان والتحوّل من ديانة مثلما حدث مع بولس الرسول. وقد تلهم أعمالاً أدبية كبيرة كما عند دانتي والكوميديا الإلهية. ولقد كتب كوليردج قصيدته Kubla khan مباشرة من الحلم. وقد استغرق الأمر طويلاً ليتحول الملهم في الحلم من روح أو إله أو ولي أو أحد

الأسلاف أو الشيطان، إلى القول باللاشعور. وينبغي التنويه بأهمية كتابَي ابن سيرين والنابلسي بالمقارنة إلى نظرية فرويد في الأحلام، فقد ذكر المؤلفان العربيان الكثير من تفاصيل نظرية فرويد في كتابيهما، غير أنهما لم يطورا ذلك إلى نظرية لها عملها العلاجي مثلاً كما عن فرويد.

والأحلام فسّرها الإنسان كرسالات إلهية مُوحىً بها، وكإشراقات روحية وتأثيرات شيطانية، وإنذارات وتحذيرات أو مُبشرات، أو فسِّرت بأنها انعكاسات للتفاعلات النفسية والاجتماعية للمُدركات (توماس هوبز)، وقد تكون رغبات تنفّس عن نفسها أو تحقّق نفسها (فرويد)، أ محاولات من قِبَل الحالم لاستكناه أحواله النفسية والتبصُّر بمشاكله وحلولها لتدبير نفسه مستقبلاً (يونج)، وقد تعبر عن أسلوب كل حالم الذي ارتضاه لنفسه في حياته وينعكس على أحلامه (أدلر)، أو قد تكون محاولات من الحالم لحلّ صراعاته (شتيكل). وقد تكون بعض ذلك أو كلّ ذلك، فالمحاولات من الحالم لتفسيرها لن تتوقف، وسيظل اهتمام الناس بتفسيرها طالما كانت هناك أحلام، وكان بالإنسان قصور عن تحقيق ما يصبو إليه، وناله الإحباط وأصابته خيبة الأمل، وطالما كان له أعداء ومعارضون، وكانت له أشواق وعواطف، وطالما اعتملت به الآمال أو انتابته المخاوف من الحاضر والمستقبل. وستظل الأحلام بالناس طالما كانوا مشروعات، أو كما يقول الوجوديون، طالما لا يتطابق حاضرهم مع ما يرجونه، وطالما كانت لهم مخططات للمستقبل.

عبد المنعم الحفني

لوس أنجلس كاليفورنيا سنة ١٩٨٨

❖ ❖ ❖

الباب الأول
«النظريات قبل العلمية وتفسير فرويد للأحلام»

نحسب أن كلّ توتر أو دافع يمكن أن يؤثر في الأحلام، وقد يكون التوتر شديداً أو الدافع قوياً حتى ليصبح مركز الحلم، وتبعاً لذلك فإن الجنس قد تصطبغ به أحلام المراهقة والأحلام التي قد تكون لنا ونحن في مطالع البلوغ، غير أنها على الأساس السابق قد تقل في فترة الطفولة المتأخرة، وتندر في الطفولة، وتتهافت في الشيخوخة بحسب سطوة الجنس في كل مرحلة من مراحل العمر. ولذلك فقد يكون تعميم فرويد أن الأحلام جنسية الطابع هو ابتسار لا يجوز. إلا أن فرويد أصدر عما يوصف في الدوائر العلمية بأنه حالات نفسية تاريخية، وظروف تخصه هو نفسه كباحث، فقد لاحظ فرويد أن الدافع الجنسي قوي عند المرضى الذين يتردّدون عليه للعلاج من أنواع العصاب، وأنه قد يكون واضحاً أشد الوضوح أو مستتراً، إلا أنه يكاد يكشف عن نفسه ويعلن عن وجوده. وقد سارع فرويد يعلن عن اكتشافه أمام الجمعية الطبية العصبية في فيينا، ولم يقتنع الأعضاء ورفضوا ملحوظته واستنكروها، ووصفوها بأنها تفكير لا أخلاقي، الأمر الذي جعل فرويد يحفظ عليهم، ويسعى لتأكيد فكرته بأن يداوم البحث عن المرضى الذين تظهر الدوافع الجنسية في سلوكياتهم، ويكتب عنهم، ويتحدث عن الجنسية فيما يقولون ويفعلون ويحلمون، وهو ما يبرّر إصرار فرويد على صبغ نظريته في العلاج النفسي للعُصاب بالجنسية، والقول بنظرية في الجنسية. ولقد ألّف فرويد كتابه في تفسير الأحلام، وفيه يقارن بين الحلم الظاهر والحلم الكامن، أو بين ما يبدو عليه الحلم وما هو عليه في الواقع، وتفسير الحلم: هو عملية الكشف عن المعنى الحقيقي للحلم من السياق الظاهر لأحداثه.

ولكن ما الذي يجعل الحلم يتخفّى ولا يكون صريحاً؟ ويجيب فرويد بأن السبب: هو أن غالبية أحلامنا تدور حول موضوعات جنسية محرّمة لا ترضى عنها النفس، ومن ثم تحاول رغباتنا الجنسي

أن تستتر وتخرج من اللاشعور إلى الشعور عن طريق الرموز التي تشير ولا تفصح، وتنتهز فرصة النوم لتبين في شكلها الحلمي، بالتمويه على الرقابة النفسية التي تفرضها النفس على كل رغبات محرمة، ففي النوم تضعف الرقابة ولكنها لا تُرفَع نهائياً. والترميز الذي تلجأ إليه الرغبات في الأحلام هو إحدى الوسائل التي تستعين بها للتخفّي والتمويه، فمثلاً قد نحلم بالمياه تحيط بنا فيكون ذلك رمزاً للميلاد حيث أن الطفل وهو جنين يخرج من ماء الرحم المحيط. وتستخدم الأحلام ضمن ما تستخدم بخلاف الترميز - التكثيف والنقل، والأول أن يُبتَسر الحلم ويتكثّف ويتصاغر حتى لتستطيع أن تحكيه في كلمات أو سطور، مع أنه في الواقع يتحدث عن حوادث تستغرق ازماناً قد تبلغ السنوات. والحلم من أهم صفاته أنه مقتضب وهزيل ومليء بالثغرات إذا قارناه بسعة أفكار الحالم وغناها. وعندما نحكي الحلم نختصر الحديث، إلا أنه لو طلب منا أن نوضحه لزدنا الكلام حتى قد نملأ الصفحات، ونكشف بذلك أن وراء ما ابتُسر حياة وحكايات وذكريات وأفكاراً خاصة كثيرة لا تنتهي، وهو ما يجزم أن للحلم معنى آخر خلاف ما يبدو لنا. ثم إن حوادث الحلم قد تنقلنا إلى التفكير في أمور أخرى نهتم بها ونؤكّد عليها ونتريث عندها ويطول شرحنا لها، الأمر الذي قد يعني أنها هي المقصودة بالمعنى الحقيقي للحوادث وليس ما يظهر لنا منها، غير أن النفس تمهر في النقل من المعنى الحقيقي أو عقدة الحلم إلى الأحداث الظاهرة، وذلك ما يعنيه فرويد بالنقل. ومما يذكره أن ابن سيرين والنابلسي كلاهما يتحدث عن هذه الوسائل الحلمية للتخفي كما يتحدث عنها فرويد، إلا أن فرويد يقصدها لذاتها ويطوّرها، والعالمان العربيان يقتصران على ذكرها عابراً دون تطوير لما يقولان. وهذه الوسائل في الوسع التغلب على ما تستحدثه في الحلم من تحوير من قبل المفسّر المدرّب النابه عن طريق ما يطلق عليه فرويد إسم التداعي الحر، وهو أن يتحدث الحالم نفسه عما يراه من تفسير لحلمه، وعما تعنيه رموز

الحلم، وعما قد يكون معناه الحقيقي بصرف النظر عن المعنى الظاهر له والذي قد يبدو سخيفاً أحياناً. وهذه التداعيات الحلمية للحالم قد تُعين المفسّر على تفسير الحلم، وأن يضع يده على الأصول الحقيقية للحلم، وهي أصول من الرغبات والذكريات، والغالب أنها رغبات محرمة وذكريات حول مسائل تستثير الندم أو الشعور بالخجل، وذلك ما يقصد إليه فرويد عندما يقول إن للعُصاب أصولاً جنسية، وهو ما يراه العلماء قصوراً في نظرية فرويد، فمثلاً قد يحلم الحالم بأنه يصعد جبلاً، ويذهب فرويد إلى القول بأن الصعود رمز للعملية الجنسية، ونحن نقول في الجماع إن الذكر يعتلي الأنثى، أو قد يعني صعود الجبل أو أي ارتفاع صدر المرأة أو الفرج، ونحن نصف الأخير فنقول ارتفاع العانة وجبل الزهرة به. وفرويد يذكر ذلك دون أن يذهب به التفكير إلى أن حلم الصعود قد يكون رغبة حقيقية في صعود الجبل عندما تقصر الهمة عن ذلك عند طالب مثلاً يرى زملاءه ينجحون في الصعود.

ولقد نقل فرويد وجهة نظره إلى تلاميذه، فبعد أن نشر «تفسير الأحلام» إشتهر وتردّد عليه الحواريون يستزيدونه العلم باللاشعور، وبالتحليل النفسي، وموقف التحويل، والدوافع والرقابة، وصارت مصطلحات فرويد أبجدية من أبجديات العلاج النفسي لا يستغني عنها الطالب لعلم النفس أو الطب النفسي، ويعززها أنها مصطلحات لمظاهر واقعية كلينيكية، ولم يعد من السهل التخلص منها أو تحرير علم النفس من آثارها.

ولقد كان من أروع ما ذكر فرويد في كتابه العبقري قوله بالظاهر الحلمي والمعنى الباطن الذي للظاهر، وتفرقته بين ما يكون عليه الحلم، أو ما نذكره منه، أو نحكيه عنه، وبين حقيقة ما تمثله الأحداث أو الشخصيات أو الأشياء، أو بمعنى آخر قوله بعالَم مادي للحلم، وعالَم نفساني له، فالمحتوى الباطن يأخذ شكلاً ظاهراً بحسب الشخص نفسه وثقافته وعمره وجنسه. وعمل الحلم Dreamwork هو إلباس المحتويات الباطنة صورة تنكرية قبل إخراجها إلى المحتوى الظاهر حتى لا تقف الرقابة في

سبيل خروجها. والرقابة الكابتة تضعف بعض الشيء أثناء النوم، فتنتهز بعض المحتويات النفسية - من ذكريات وأماني ورغبات مكبوتة - الفرصة لتتسلل متنكرة إلى الحلم. ولا يعني ضعف الرقابة أنها تتعطل تماماً، ولذلك تضطر هذه المحتويات المكبوتة إلى التنكر حتى تستطيع الظهور ضمن مسرحية الحلم دون أن يوقفها الرقيب ويمنعها، ولذلك لا تظهر الذكريات وتتحقق الرغبات المكبوتة سافرة في الحلم، وإنما في صورة رمزية أو بديلة. وقد يحدث في الحلات النادرة أن تخرج بعض محتويات اللاشعور إلى مسرح الحلم سافرة وقد غافلت الرقيب، فتسبب للأنا اضطراباً شديداً يوقظ الحالم من نومه مذعوراً أو خائفاً، كأن يحلم أنه سقط من حالق، أو أنه قتل أباه، أو زنا بأمه أو بأخته أو اعتدى عليه صديقه.

والحالم قد يحلم بأحداث الأمس القريب، ولكن هذه الأحداث رغم أهميتها التي تظهرها في الحلم، إلا أنها أهمية ثانوية، وذلك لأن استغلالها لا يكون إلا كخلفية مسرحية للمحتوى الباطن.

وأحداث الأمس التي تكون على هامش الشعور أدعى أن يستدعيها الحالم من المادة التي يقبلها الأنا ويدخلها في تركيبه النسقي الذي يواجه به اليقظة، فمثلاً قد نستمع إلى واعظ يعجبنا قوله ونسرّ له ويستدمجه الأنا فيه فتكون أفكاره أفكارنا، وقد يحدث أن تكون للواعظ لوازم حركية أو قد يتصرف بطريقة معيّنة تلفت نظرنا ونعيها وعياً ليس بالكامل ولكننا نذكرها كالشيء بالشيء يذكر، وهو ما نعنيه أنها تكون على هامش الشعور، فإذا حلمنا فغالباً ما لا نحلم بما قبِله الأنا من الواعظ من أفكار، ولكننا قد نحلم بلوازمه أو قد نرى بعض تأثير تصرفاته التي استبقيناها على هامش الشعور. وقد أثبتت التجارب العملية أن ما يرد في الأحلام على أشخاص التجارب هو غالباً ما لم يكن مقصوداً أن يذكره الحالم من التجربة وهو يقظان، فما يمكن أن يمر عابراً هو الذي يمسرحه الحلم ويقصد إليه أكثر مما كان الأولى بالملاحظة. وإذن فالحلم كما يتناول الأحداث بالتحريف ليمرّرها على الأنا قد يُمسرح كلّ شيء ليستفيد مما هو مهم

وغير مهم للتعبير عن المحتوى الباطن، وذلك ما يصفه فرويد بأنه overdetermination، بمعنى أن أكثر من عامل يدخل في مسرحية الحلم، وأكثر من دافع، وأكثر من حدث، ومن ثم كان طبيعياً أن يكون هناك معنى جنسي للحلم مثلما يمكن أن تكون له أسباب فسيولوجية كسوء الهضم مثلاً، أو قد يكون له معنى جمالي كأن يدفع إلى اعجاب جمالي محض بموضوع من الطبيعة أو من غيرها. وما يحدث في الواقع هو أن كلاً منا يركز على ناحية دون سواها، وهذه الناحية هي التي يضعها تحت المجهر ويلاحظها ويهتم بها ويحاول أن يستكنه معناها. والمعنى أو المحتوى الجنسي للحلم شيء وارد طالما أن الجنس محور من المحاور الكبرى التي يدور عليها سلوكنا، والذي نعرف مدى ما يمكن أن يدفع إليه في مختلف نشاطاتنا المهنية، سواء كشعراء أو قصّاصين أو قضاة في المحاكم أو صحفيين إلخ. ولا اعتراض لنا على أن يحاول الفرويديون أن يستخرجوا معنى جنسياً مباشراً أو غير مباشر للحلم.. ولقد حاول فرويد باستمرار أن يذكّرنا إنه حتى في مجال الجمال الخالص فإن المعنى الجنسي موجود، والدافع الجنسي إليه، وكذلك من الناحية الأخرى فإن المعنى الجنسي خلف تصوير الجيوكنده، ومهما كان المستوى الجمالي للوجه فإننا قد نصل في تحليلنا للوضع الجمالي والملامح والتعابير بالوجه واليدين وشكل أعضاء الجسم إلى وجهة نظر جنسية، ومن ناحية أخرى فقد تُخفى النظرات الوديعة في العينين واسترخاء اليدين والأنامل وامتلاء الصدر والشفتين - وكلها إيحاءات جنسية - بمعنى جمالي للصورة ككل.

ولقد حاول تلاميذ فرويد الخروج عليه، فبمجرد أن تعلموا منه وأخذوا عنه صاروا يطلبون أن تكون لهم فلسفاتهم التي يصدرون عنها، فخالفوه الرأي، وأمعنوا في الخلاف وكانوا كأنما ينشدون الخلاف للخلاف، أو ليؤكدوا ذواتهم إلى جانب ذات الأستاذ. وتوجه نقضهم لنظرية فرويد إلى شيئين، الأول دور المفسّر، والثاني طريقة التعامل مع الأحلام وتقويمها وردّها إلى مصدرها.

والواقع أن فرويد كان قد قصر نفسه على تحرّي ميكانيزمات الأحلام، يحدوه في ذلك صلة الحلم بالاضطراب النفسي الذي يشكو منه الشخص، وهو يقول إن نظرته إلى الأحلام نظرة عالم في الطب النفسي (مقدمة الكتاب)، وليست أي عالم، وهي نظرة فيها إبداع وينقصها التوثيق التاريخي، وما يعرضه من الصفحات الأولى تحت باب المصنفات العلمية في مشكلات الأحلام عرض شديد الايجاز ومتسرّع ، ويبدو منه أن فرويد لم يقرأ المراجع التي أشار إليها على الحقيقة ولكنه قرأ عنها، على عكس تلاميذه فقد كانوا أوسع منه أفقاً وأكثر ثقافة، فجاء خلافهم نتيجة قراءاتهم الموسوعية وبأكثر من لغة في باب الأحلام والأنثروبولوجيا والإثنرولوجيا والثقافات البدائية والأديان وغير ذلك، ونذكر على سبيل المثال ما كان يتمتع به يونج من أفق واسع يرجع إلى تنوع هائل في مصادره الثقافية. ونذكر أيضاً من أوجه القصر في علم فرويد أن يقول إن أرسطو أول من أعاد البحث في الأحلام من عالم الميتافيزيقا إلى دنيا الواقع، وجعل الحلم نشاطاً نفسياً يخص النائم، وان أرسطو أفرد لذلك صفحات من كتابين له يعرض فيهما للأحلام، وينتهي كلام فرويد دون ذكر لاسم أي من الكتابين، أو شرح لنظرية أرسطو، وتلك مغالطة لأن أرسطو قد أسهم في مجال الأحلام بثلاثة بحوث تضمنها كتابه Naturalia Parva، فإذا أضفنا إليها الملحوظات القليلة التي علق بها أفلاطون، مع صلة ذلك بما كان العالم القديم يعرفه من الفسيولوجيا، فإن النظرة التي يقدمها كل ذلك يمكن أن نصفها بحق أنها نظرة علمية عصرية.

ومن رأي أرسطو أن مفتاح الأحلام هو النوم، وهو الذي يمهّد لأن نحلم بأن يجعل وعينا بالواقع أقل ويخفض من درجة إحساسنا به، فالعينان مغمضتان، وبقية الحواس شبه معطلة، وذلك دليل على تغيير يلم بالجسم ويتناول جهاز الوعي المركزي به، ألا وهو القلب، لانشغال القلب بعملية تغذية الجسم أثناء النوم، فيتوجه نشاطه إلى تلك العملية عن تهيئة أعضاء الحس لوظائفها السليمة، ومن ثم كانت الأحلام التي تأتي أثناء النوم

مرتبطة بتدنّي مستوى الإحساس لدى وظائف الجسم وتعطّل الوعي عن الحسي لانصرافه إلى وظائف أخرى أهمها تغذية القلب للجسم. والوعي الذي يغيب عن أعضاء الحس لا يغيب كاملاً، فهو وعي منقوص ومن ثم تكون الصور الحلمية مشوهة وناقصة التكوين، ومصدرها أن الحواس لبطء عملها تستبقي صور المُدرَكات أو المحسوسات أكثر من اللازم بعد أن تذهب هذه المدركات أو المحسوسات، ولطول بقائها وقصور الوعي يكون إدراكها أو الوعي بها مشوهاً، ويعيها الشخص على أنها حقائق أو وقائع في صورها المشوهة أو المحرّفة، والوعي بها يثير في الحالم انفعالات ويستحث أحكاماً، وتغلب الانفعالات على الأسس المشوهة أو المحرّفة فتجيء الأحكام مغلوطة. ويقول أرسطو ان ملكات الحالم التي تسيطر على الوعي أهمها ملكة التصور أو الفانتازيا، ولأن الحُكم أو القدرة عليه معطلة أثناء النوم فإن التصورات تشطح، وما كان الوعي به في اليقظة هو المهم والذي يتصل بالحُكم السليم فإنه يغيب في الحلم، وتجيء فقط الصور للأشياء غير المهمة التي كان يلحظها الحالم في اليقظة ولا يتوجه إليها اهتمامه، وتتلون بعواطف النائم وتكون بها انفعالاته التي تطبع الحلم. وأرسطو ينبه إلى أن ما نحلم به قد يكون نتيجة ما يعتمل داخلنا من تغيرات فسيولوجية، فلربما يكون الشخص في طريقه إلى أن يمرض، وعوامل المرض الداخلية تكون كالمنبهات تستحث الأحلام وتستبق التداعي بالمرض. ولربما إذن قد ينبئنا الحلم بشيء عن المستقبل من هذه الزاوية. ولربما أيضاً تكون الأحداث الماضية والحاضرة في حياة الشخص أو ما يعرفه منها عن الآخرين بمثابة الارهاصات بأحداث مستقبلية، فيكون الحلم من هذه الناحية بمثابة النبوءة ويحكي عن شيء من المستقبل. وإذن فأرسطو ربما يكون أول من تنكّر للتقسيم القديم الذي يقول بأحلام إلهية توصف بالصدق. وأحلام نفسية مصدرها أحوال الشخص البدنية والعامة وعواطفه. وقد يكون هو أول من ردّ تفسير الأحلام إلى المنبهات الفسيولوجية والنفسية للحالم دون سواها. وفرويد لا يدعي أنه قرأ

نظرية أرسطو بل يذكر صراحة أنه قرأ عنها في كتاب عن الأحلام!!

ولم يقرأ فرويد أفلاطون الذي تتلمذ عليه أرسطو، وأفلاطون كان إلهياً على عكس تلميذه المادي، ويذكر أفلاطون في محاورته «تيماوس Timaus» أن الأحلام تلهمها الآلهة، إلا أن ذلك يأتي عابراً. وأما في محاورته «الجمهورية» فهو يقول على لسان سقراط إن الأحلام تكشف ما يدور في خلد كل انسان من أفكار شريرة، وتبين عما في أعماقه من عواطف وانفعالات معادية للناس والمحيطين به. وإذا كان أرسطو قد نبّه إلى أن العواطف من مصادر الحلم، فهو يذكر ذلك عرضاً، ولكنه يركز على أحوال البدن وما يشكو منه من اضطرابات فسيولوجية كمصدر أصلي للأحلام، بينما نجد أفلاطون يركّز على العكس على أعماق النفس وما فيها من رغبات وعواطف محرّمة، ولا يذكر فرويد ذلك عن أفلاطون، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنه لم يقرأه. ونظرية أفلاطون مع ذلك تقرب من نظرية فرويد، إذ يذهب أفلاطون الى القول إنه عندما يغيب العقل عن الوعي خلال النوم، فإن عناصر النفس التي عمادها الرغبات والغضب تُستثار، وتسود الرغبات وتسيطر على الوعي العاطل بعض الشيء، ولولا أن الوعي غير معطّل تماماً لخرجت سافرة، إلا أن الوعي الموجود برغم أنه غير كامل يشوّهها ويحرّفها، ومن ثم نجد الشخص في المنام يقوم بما لا يجرؤ على القيام به في اليقظة، وقد يغتصب ويزني ويسرق ويعربد. وحتى أكثر الناس احتراماً لأنفسهم لن يعدموا أن يحلموا أحلاماً شريرة، وأن يفصحوا عن هذه الميول في أنفسهم. ومن رأي أفلاطون أن النفس تحلم أحلاماً أو رؤىً فيها سمو كما فيها انحطاط، والأحلام من النوع الفاضل تكون عندما لا تكون بالشخص رغبات شريرة، وتكون من النمط الوديع غير الغضوب، وبه إشراقات دائمة للتسامي، وعندئذ فرغم أن الوعي تعطل بالنوم إلا أن العقل عند الحالم يكون دائماً مستنفراً وفي وضع أقوى من وضع الرغبات والعواطف الشريرة أو المحرمة.

ورغم هذه النظرية في الأحلام عند أفلاطون وأرسطو فإن الفيلسوفين لم

يشغلا نفسيهما بالأحلام كما فعلا في مسائل النفس الأخرى. ولم يحدث أن شُغِل أي من الفلاسفة بالأحلام كانشغال أرتيميدوروس الإفسي Artemidorus. وحتى الفيثاغوريون لم يهتموا كثيراً بالأحلام، ولم يكن كتاب «عن الأشياء الطبيعية De Rerum Natura للوكريتيوس بذي بال في هذا الشأن، وكل ما قدّمه متهافت لولا قوله إن الأحلام انعكاس لتأثيرات العالم الخارجي على النفس، وان كل شخص له أحلامه التي تصنعها شخصيته أو تتوافق معها. وأرتيميدوروس السابق ذكره على العكس هو واضع معجم الأحلام Oneirocritica. وكان طبيباً يهتم بالاضطرابات النفسية والعقلية. وفرويد يذكر عنه أنه قسّم الأحلام إلى فئتين، الأولى: أحلام تتأثر بالحاضر أو الماضي وتخلو من دلالات المستقبل، ومنها المنامات التي تصور الأفكار وعكسها كالجوع والشبع تصويراً مباشراً، والخيالات التي تشطح في الخيال وتضخّم الفكرة مثل الكابوس. والثانية: أحلام مستقبلية ومنها النبوءة المباشرة في الحلم، والرؤيا التي تتحدث عن واقعة مستقبلة، والحلم الرمزي الذي يحتاج إلى تأويل.

ويبدو أن تقسيم النابلسي للأحلام هو تقسيم أرتيميدوروس مع تحريف يناسب الإسلام، وكذلك فعل الاسلاميون في الكثير من الأفكار القديمة. والنابلسي يقول بثلاث فئات من الأحلام، الأولى لرؤيا البُشرى من الله، والرؤيا الصادقة، والرؤيا المرموزة. ويفرع النابلسي على هذه الفئات الثلاث تفريعات أخرى يمكن أن يُدرَج فيها الحلم الذي يستوجب الغُسل (الحلم الجنسي)، والكابوس، والرؤيا النفسية كأن يشتهي الشخص أن يكون مع حبيبته فيراها في المنام ويحادثها، ورؤيا الصبيان.

ويميّز أرتيميدوروس لأول مرة بين الرؤيا Somnium وقد تكون مباشرة أو محذّرة وتتحدث عن أشياء في المستقبل، والمنام Insomnium الذي هو حلم بمجريات الحاضر وتأثيراتها: «فالمحب يحلم بحبيبته، والجائع يحلم بالطعام، والخائف يحلم بعدوه، والعطشان يحلم بالماء».

وأحلام عظماء الناس أصحاب الهِمّة

رؤى وليست منامات، لأن نفوسهم لا يعكرها ما يعكّر نفوس العامة من آمال ومخاوف ورغبات وشهوات. وأما العامة فأحلامهم من نوع المنامات.

وأحلام مفسري الأحلام وتفسيرها تتلون بما يقرأون أو يعرفون، بمعنى أنها تغرق في الرمزية وتوغل فيها، فإذا حلم الواحد منهم مثلاً بمعشوقته فإنه لا يراها صريحة وإنما قد يراها فرساً جميلة يمتطيها وينطلق بها، وربما يراها مرآة أو سفينة، أو قد تظهر بأحوالها النفسية فيرى البحر لجياً، أو قد يحلم بها كأنثى حيوان، أو قد يراها مَلبساً من ملابس النساء يشتريه أو أي شيء قد يرمز للمرأة. وربما يعني أرتيميدوروس من ملحوظته هذه عن الأحلام الرمزية أنها تحتاج إلى معبّر، وأن تعبير الأحلام علم يحتاج إلى موهبة وصقل بالقراءة، ومن ذلك أن المعبّر إذ يُعرض عليه الحلم ينظر فيه ويصنّفه بحسب نوعه وبحسب حوادثه، فهي إما طبيعية، أو مشروعة، أو اعتيادية بالنسبة للحالم، وأيضاً ينظر فيه بحسب ظروف الحلم وقت أن حلم الحالم، ويعرف صنعته، واسمه، وذلك ما يشير إليه أرتيميدوروس على أنه النقاط الست في الحلم: الطبيعة Natura، والشرعية Lex، والعادة Consuetudo والزمن Tempus، والصنعة Ars، والاسم Nomen.

ويسوق أرتيميدوروس نموذج حلم قد يرى فيه النائم أنه يحلق شعر رأسه، وحلاقة الرأس عادية بالنسبة لحلاّق، وعادية بالنسبة لمهرّج صناعته إضحاك الناس بأن يظهر على المسرح وقد يحلق رأسه، وعادية بالنسبة لبعض الديانات التي يحلق معتنقوها رؤوسهم إيماناً وتبركاً. ولكن هذه الحلاقة في الحلم لغيرهم فأل سيء، فإذا كان الحالم بحاراً غرقت سفينته، وإذا كان مريضاً انتكست حالته. ومن الغريب أن تفسير أرتيميدوروس لحلم من نوع حلمي صاحبي يوسف في السجن هو التفسير نفسه، فالطير تأكل الحَبّ وفي رأس أحدهما يعني موته، وعصر الخمر للمَلِك يعني الترقّي في المنصب. ويدرك أرتيميدوروس تأثير الرغبات والهشوات على تشكيل الأحلام، ولا يقبل الشروع في فك رموز الحلم إلا إذا ألمّ بحياة الحالم

وظروفه المعيشية والعائلية، ويحذر دائماً القارئ لكتابه من اللجوء إلى وسيلة التأويل بالضدّ، كالقول في البكاء أنه فرح.

والحق أننا لو قارنا النابلسي وابن سيرين بأرتيميدوروس لتفوّق كل من الاثنين عليه، ففي باب حيل الأحلام يقول ابن سيرين:

الرؤيا تأتي على ما مضى وخلا وفرط وانقضى، بغفلة عن الشكر قد سلفتْ، أو بمعصيةٍ فيه قد فرطتْ، أو بتوبةٍ منه قد تأخرتْ.

ويذكر ابن سيرين: أن الشيء الواحد يختلف التعبير عنه بحسب صنعة ومركز الرائي، فالكورة التي يمتلكها الحالم قد تعني مدينة يسيطر عليها ويحوزها لو كان ملكاً، تجارة يربحها لو كان تاجراً، وكتاباً يؤلفه لو كان عالماً، ولذلك يحتاج المعبّر إلى أن يكون أديباً ذكياً فطناً نقياً تقياً، عارفاً بحالات الناس وشمائلهم وأقدارهم وهيأتهم، والأزمنة وعادات البلدن وأهلها وخواصها، وما يناسب كل بلدة وما يجيء من ناحيتها، وعارفاً بتفاصيل المنامات الخاصية من العامية. وتأويل الرؤية مرة من لفظ الاسم ومرة من معناه، ومرة من ضده، ومرة من المَثَل السائر، فأما التأويل بالأسماء فيحمله على ظاهر اللفظ، وأما التأويل بالمعنى فأكثر التعويل عليه، وأما التأويل بالمثَل السائر واللفظ المبتذل كقولهم إن الصائغ كذوب لما جرى على الألسنة من قولهم فلان يصوغ الأحاديث أي يكذب فيها، وقولهم في المرض إنه نفاق، وقولهم في الناس إنهم الغوغاء لأن الغوغاء هي الجراد. وأما التأويل بالضد والمقلوب مِثل قولهم في الضحك إنه حُزن، وفي السيل إنه عدو. وأما تعبير الرؤيا بالزيادة والنقصان فكقولهم في الضحك إنه حُزن فإن كان تبسُّماً كان صالحاً.

ومن شروط المفسر عند ابن سيرين غير ما سبق أن يستوثق مما يَرد عليه من المسائل، وان يقدِر على تأليف الأجزاء ليخلص منها الكلام الصحيح.

وللحالم عند ابن سيرين آداب لتكون رؤياه أقرب إلى الصحة، فمنها أن يتعود الصدق في أقواله.

ولم يكن فرويد فيما يبدو قد قرأ ارتيميدوروس أو إبن سيرين أو النابلسي. وإننا لنجد كلام العرب في الأحلام قريباً

من مصادر مسيحية في الأحلام، والنظرية الإسلامية تناظر النظرية المسيحية وخاصة فيما يتعلق بالرؤيا المبشّرة، ويمكن أن نرد الكثير من أقوال إبن سيرين السابقة إلى ترتوليان (نحو ٢٠٣م)، وجريجوري النيساوي (٣٨٠م) والأخير له كتاب «عن صنع الانسان On the Making of Man» إلا أن جريجوري مادي ولا يذهب مذهب القائلين بأن الأحلام تعود إلى تجوال الروح أو النفس أثناء النوم، ولكن مصدرها عنده هي الرغبات والتغيرات في الجسم والبيئة وحياة الناس، وأما الأحلام المنبئة فهي ليست من الأحلام العادية ولكنها إلهامات. وعن محتوى الأحلام يقول جريجوري: إن الأحلام تقوم على ذكريات الماضي والحاضر القريب. وأهم ما يدفع إلى الأحلام الرغبة الجنسية وعاطفة الغضب أو العدوان، وكلاهما من الحيوان إلا أن الانسان يرقيهما وينظمهما.

وكل ما يذكره فرويد عن هؤلاء وعن نظرية العرب لا يعدو ملحوظات على هوامش كتابه، ويسمي ذلك كله نظرة قبل علمية. ويعتبر كتاب فرويد تفسير الأحلام أول محاولة علمية حقيقية في باب التأويل والتعبير، ويقدم تعليلاً سيكولوجياً للأحلام، وما يزال يواصله الفرويديون، وهؤلاء هم الوحيدون الذين يأخذون بتفسير الأحلام ككاشف لديناميات الشخصية ومساعد على العلاج بطريقة التحليل النفسي.

وفي الوسع تلخيص النظريات التي سبقت نظرية التحليل النفسي في الأحلام فنردها جميعاً إلى ثلاث نظريات يذكرها فرويد فيقول إن الأولى: نظريات تزعم أن النفس في الحلم لا تنام وجهازها يظل سليماً، ومع ذلك فهي تخضع لشروط حالة النوم بأن يختلف أداؤها لوظائفها خلال النوم عنه في يقظتها. ولا تقدم هذه النظريات أية وظيفة للحلم. والثانية على العكس من الأولى تنتقص من النشاط النفسي أثناء النوم الذي يسد عليها كل المنافذ إلى العالم الخارجي، وتجعل الحلم كأنه تفكير خلطي لشخص ضعيف العقل، أو أنه تفكير كالتفكير اليقظ إلا أنه أقل منه بالنظر إلى أن النوم هو في الحقيقة حالة

يقظة جزئية، ومن ثم فمع التيقظ الكامل وعودة الوعي تماماً تُنسى أحداث الحلم جزئياً أو يتناولها التحريف. والثالثة تلك التي تنسب إلى النفس الحالمة قدرة ونزوعاً إلى أنواع معينة من النشاط النفسي تعجز عن إتيانها في حياة اليقظة أو انها تأتيها بشكل ناقض.

ويبدو من أقوال فرويد أن التفسيرات الفسيولوجية للحلم لا يوافق عليها كثيراً، إلا إذا كانت لها ارتباطات نفسية، غير أن البحوث في الأحلام من هذه الوجهة ما تزال مستمرة وحقّقت نجاحات كثيرة، ولعل عالماً كبيراً في مجال الأحلام والعلاج بالتحليل النفسي مثل كالفن هول قد يرى أن البحوث الموضوعية في مجال صلة الأحلام بالحرمان البدني من وظيفة من الوظائف، أو بالحرمان إطلاقاً، لا تودّي إلى معرفة لماذا نحلم مثلما فعلت طريقة فرويد في تحليل الأحلام بواسطة التداعي الحر.

الباب الثاني
«التفسير الفسيولوجي للاحلام»

يعتمد المنهج الفسيولوجي على تحديد ارتباطات الحلم بالمتغيرات البدنية، فإذا أمكن رصد هذه المتغيرات بالارتباطات الحلمية فإنه يكون من السهل من ثم الإجابة على كثير من الأسئلة المتعلقة بالأحلام وبتفسيرها وردها إلى أصول من متغيرات البدن وليس من متغيرات النفس، أو لأمكن القول إنه حتى المتغيرات النفسية التي تسبّب الأحلام مباشرة هي رجع صدى غير مباشر للمتغيرات الفسيولوجية.

ويعيب طريقة التحليل النفسي من وجهة نظر الفسيولوجيين أنها تعتمد على تفسيرات يسوقها الحالم ولا يمكن التنبؤ بها أو بأثرها ولا يمكن التأكد منها، ومن ثم كان التحليل النفسي للأحلام طريقة غير علمية، وذاتية، وغير موضوعية. والمنهج العلمي منهج يعتمد على القياس الدقيق، وما لم تكن الطريقة المستخدمة تقيس الظاهرة الحلمية وتردها إلى أصولها فهي طريقة غير علمية.

ولقد أمكن رصد تحركات لمقلتي العينين عند أشخاص التجارب أثناء النوم، فإذا أوقظوا ذكروا أنهم كانوا يحلمون، وكان تذكرهم لأحلامهم قوياً، فإذا لم يوقظوا واستمروا في النوم تلاشت حركات العينين لتعود بعد فترة، فإذا استمر النائم إلى أن يصحو عادياً فقد لا يذكر أحلامه أو قد ينسى بعضها، فإذا افترضنا أن النائم ينام ثماني ساعات فإنه طبقاً لنتائج التجارب المختلفة قد يحلم ٢١٪ من الناس في الساعتين الأولتين من النوم، بينما قد يحلم ٢٩٪ في الساعتين التاليتين، و٢٨٪ في الساعتين اللتين تأتيان في الترتيب الثالث، ثم ٢٢٪ في الساعتين الأخيرتين من النوم. والنوم الذي تحدث فيه حركات لبؤبؤ العين هو النوم الخفيف، ويوصف بأنه النوم المرَمّش REM sleep، أو Rapid Eye - Movement Sleep باعتبار أنه النوم الذي فيه حركات Movements (M) سريعة Rapid (R) للعين Eye (E)، واختصاراً REM. وأما النوم العميق deep sleep فهو

نوم خالٍ من حركات العينين السريعة هذه NREM (No Rapid Eye Movements).

ويبدو أن فترة النوم المُرَمّش تتراوح بين ثلاث دقائق وخمسين دقيقة، وتكون في المتوسط عشرين دقيقة، وتطول لأكثر من ذلك في الهزيع الأخير من الليل. ولا تتحرك العين طوال الفترة ولكنها تنشط مرة أو مرتين نشاطاً مفاجئاً، وقد تتحرك حتى الخمسين حركة، وقد تتجاوز ذلك إلى المائة. وتختلف الحركات كمية وحجماً ونمطاً من فترة إلى الأخرى وتحدث فترات النوم المُرَمّش منتظمة طوال الليل بالنسبة للفرد الواحد، وقد رصدت حركات للعينين أثناء النوم كل سبعين دقيقة، وأحياناً كل خمس وسبعين دقيقة، وأحياناً كل مائة دقيقة وأربع، بمعنى أن فترات النوم المُرَمّش الذي تكون فيها الأحلام تأتي في المتوسط كل اثنتين وتسعين دقيقة. وأمكن الربط بين هذه الحركات في العينين والأحلام، فالحالم يحرك بؤبؤ العين وهو نائم مع حركة واتجاهات موضوعات الحلم، وتستمر الحركة مع استمرار الحلم، وتتوقف بانتهائه. وهكذا تتراوح الأحلام على النائم في الليلة الواحدة لأكثر من مرة، ويطول الحلم بطول فترة النوم المُرَمّش، وقد تكون هناك عدة أحلام في الفترة الواحدة، ولا يذكر الحالم عند الاستيقاظ إلا ما يستطيع أن يتذكره منها، وربما ظن لذلك أنه لم يحلم إلا لثوان، والتذكر يلعب دوره الكبير في استعادة الأحلام، وتكون حركة العينين كبيرة أو ضئيلة بحسب أهمية الموضوع الذي نحلم به، ويحدّد الموضوع اتجاه حركات البؤبؤ وسرعة الحركة، ومن ثم فهناك تماثل وارتباط بين الحركات ومحتوى الأحلام، فمثلاً قد يحلم الحالم بأنه يصعد درجاً ومن ثمّ فقد تكون حركة البؤبؤ إلى أعلى، وقد يتراءى له أثناء ذلك أن ينظر إلى أسفل فيتحرك البؤبؤ باتجاه سفلي، وقد ينظر الحالم من حوله بحثاً عن مخرج فيتحرك البؤبؤ حركة أفقية بانورامية. ولا تكون هناك حركة عند النظر إلى الأشياء عن بعد، بينما تزداد الحركة إذا قربت الأشياء. وثبت أيضاً من هذه التجارب أننا بحاجة إلى أن نحلم، فالحلم بالنسبة لنا

ضرورة كضرورة النوم، ويميل الجسم إلى أن يعوض نفسه من النوم المرمش والنوم غير المرمش إذا حُرِم من أيهما، غير أن الحاجة إلى النوم المُرَمّش - أي الذي تأتي فيه الأحلام - أكبر، وكأننا إذا لم نحلم نمرض، والغالب أن الفرد الذي يحرم لمدة طويلة من هذا النوم الحالم قد يصاب بالذهان ويلحقه الإعياء الشديد والنَهَك وقد يموت إذا استمر ذلك!!

وما تزال البحوث مستمرة حول الارتباط بين النوم والأحلام والاضطرابات الفسيولوجية أو الحركات غير العادية للجسم وأعضائه أثناء النوم. ولا شك أننا قد نحلم أحلاماً لها طابعها الذي يضايقنا أو يبهجنا خلال النوم، فاضطرابات المعدة والامعاء قد ترتبط بأحلام مزعجة، وقد ينثني القدم فنحلم بما له صلة من قريب أو بعيد بألم القدم.

ومن البحوث حول تذكّر الأحلام يكون التذكر أقوى ما يمكن للأحلام التي تأتينا في الهزيع الأخير من الليل، ويقل تذكرنا لما قد نحلم به في بواكير النوم. وليس هناك ما يدل على أن زمن الحلم لا يعدو الثواني أو الدقائق، بل العكس هو الصحيح فالزمن الذي يستغرقه الحلم هو الزمن نفسه الذي قد تستغرقه أحداثه في الواقع ونحن في اليقظة وإنما يكون مكثفاً، غير أن استدعاء الحلم Dream recalling لا يكون للوهلة الأولى إلا للعموميات دون التفاصيل، وتلك لا يستغرق سردها إلا الثواني، فإذا جلسنا إلى الحالم نسأله التفاصيل بدأ يتذكر ويحكي ما لم يكن قد ذكره، وقد يستغرق منه ذلك الدقائق الطوال وربما الساعات. وتذكّر الحلم عملية تخضع كذلك للكبت والتحريف والنسيان، وما لا نستطيع تذكّره قد نلفقه تلفيقاً.

ولقد كانت هناك أسئلة كثيرة حول الأحلام ما كانت الطريقة التحليلية تستطيع أن تزودنا بالجواب عنها، ولكن هذه الطريقة القاسية المعملية زودتنا بما نريد، فعرفنا مثلاً متى نحلم، ومتى نتذكر، ومَن يحلم، وعلمنا أن حركة الجسم أثناء النوم تقطع أحداث الحلم، وأن حركة العينين تتوقف أثناء تحرك الجسم أو تقلبه في النوم، ثم يُستأنَف الحلم من بعد، وربما لم يكن هو نفسه

الحلم قبل الحركة، بل ربما كان حلماً جديداً، وأن الوعي أثناء الحلم ربما يمكن تشبيهه بالوعي عند الطفل الصغير أو الشيخ الطاعن في السن، وان أغلب ما نحلم به لا نستطيع أن نتذكره لهذا السبب، وأن الصحيان مباشرة بعد فترة نوم مُرَمّش يمكّننا من التذكر برغم أنه تذكّر فج يجعلنا نشبّه الوعي لدى النائم بأنه كهذا الوعي عند الأطفال الصغار والشيوخ الطاعنين، وقد لا نستطيع أن نتذكر ما سردناه من الحلم حال اليقظة من النوم المُرمّش إذا طُلِب منا أن نتذكره في الصباح. وليس من شك أن الوعي في النوم يتدنّى إلى أقل الحدود ولكنه لا يتوقف تماماً، وهو في مرحلة النوم المُرمّش أو الخفيف أعلى منه في مرحلة النوم غير المرمش أو العميق. والحالم يتأثر بما يجري داخل جسمه من تغيّرات فسيولوجية ويستجيب لها ويستدمجها في أحلامه، وكذلك المؤثرات الخارجية من البيئة، فالأحلام ليست نفسية فقط. ولقد تبين أن استحداث صوت بجوار النائم خلال مرحلة النوم المرمّش قد يحيد بالحلم الذي يحلمه ويجعله يحلم بأشياء لها اتصال بهذا الصوت، فلربما يحلم بمركب عابرة أو قطار يمر أو سيارة تمرق، وإذا كان الصوت عالياً فقد يحلم بأن شيئاً يحترق، أو أن البرق يومض، أو أن نور الحجرة يتوهج فجأة، وإذا سكبنا نقاطاً من ماء بارد على مكان ما من جلده فقد يرى أن المطر ينهمر. وهذه الدراسات وأمثالها قد أكدت ما قاله الأوائل وذكرناه في المقدمة عن إبن سيرين والنابلسي من تأثير لأحوال الجسم وللبيئة على الأحلام فضلاً عن الأحوال النفسية.

الباب الثالث
«أحلام الأطفال»

يذكر القرآن، ومن قبله التوراة، أن سيدنا يوسف عليه السلام حلم حلمه المشهور وهو بعد لم يبلغ الرابعة، وأن أباه يعقوب عليه السلام صادقه على حلمه وطلب إليه أن لا يخبر إخوته ﴿إذ قالَ يوسف لأبيهِ يا أبتِ إني رأيتُ أحدَ عشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين. قال يا بُنيَّ لا تقصِصْ رؤياكَ على إخوتِكَ فيكيدوا لكَ كيداً﴾ يوسف ٤/٥.

والطفل يحلم كما يحلم الكبار، وينفّس الأطفال عن أنفسهم ما يعانون ويكابدون، ويصبون في الأحلام آمالهم ومخاوفهم، وتعكس الأحلام إحباطاتهم وفشلهم وعداواتهم. غير أن الفارق بين التركيب النفسي للطفل والتركيب النفسي للبالغ أن أحلام الأطفال تتسم بالمباشرة والبساطة والوضوح. ولقد قيل إن يوسف قد حلم وهو بعد صغير - يعني أصغر من أربع سنوات، وكان نائماً في حجر أحد إخوته، وله قضيب خفيف صغير يتوكأ عليه ويهش به على الغنم، فحلم أن قضيبه قد غرز في الأرض وغرزت حوله قضبان إخوته العشرة، فإذا قضيبه أصغرها وأقصرها، فلم يزل يترقّى ويطول حتى طال عصيّهم وتثبّت في الأرض وتفرَّشت عروقه من تحتها حتى أنه قلع عصيّهم وانتصب قائماً وسكنت عصيهم حوله. فلما استيقظ ذكر لإخوته حلمه فقالوا: يوشك إبن راحيل أن يقول أنتم عبيدي وأنا سيدكم - والحلم كما نرى رمزي، ولو أنه في التحليل النفسي نستطيع أن نفسر الحلم تفسيراً آخر بحسب ما يقال في هذا المجال من التنافس بين الإخوه Sibling Rivalry والإخصاء، فقضيب يوسف الصغير - وهو هنا بتعبير فرويد قضيبه على الحقيقة ورمز ذكورته - إن أُعطي الفرصة والوقت سيكبر حتى ليبز قضبان اخوته جميعهم، يعني ذكورته ستتفوّق على ذكورتهم، وعطاؤه ورجولته سيكونان أكبر من كل عطائهم ورجولتهم: حلم طموح، ورغبة في التفوق، وتعبير عن العجز، أو تعبير عن اعتبارات عالية

للذات. ورموز الحلم كلها من البيئة ومن أحوال العلاقات بين يوسف وإخوته من غير أمه، وبين يوسف وأخوته والأب وهو سيدنا يعقوب. ويوسف يعيش الموقف الأوديبي كأعمق ما يُعاش - وهو ما سنتناوله من بعد، وسيتعين بأبيه ويرى نفسه فيه، بل إنه ليعظّم أناه حتى ليرى هذا الأنا يطغى على أنا الوالد يعقوب، وهو ما عبّر عنه في الحلم الآخر الوارد في القرآن ﴿إذ قالَ يوسف لأبيهِ يا أبتِ إنّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجِدين﴾.

والحلمان للصغير يوسف فيهما كل الحيل التي تحتال بها الرغبات في الأحلام على الظهور برغم الرقابة النفسية، وكأن ما يستشعره يوسف ولا يستطيع أن يفصح به لسانه مباشرة يجد التعبير عنه تعبيراً غير مباشر في الحلم الذي تفسيره ما قاله إخوته «يوشك إبن راحيل أن يستعبدنا».

وإننا لنلاحظ أن الحلمين اللذين حلمهما يوسف يُكثر الأولاد في مثل ظروفه من الأحلام القريبة منهما، وخاصة في الريف حيث يعتاد الرجال الزواج بأكثر من واحدة، وتكون الغيرة بين الأبناء غير الأشقاء والتنافس على قلب الأب، وعجز الابن الأصغر الذي يأتي الأب وهو في سن طاعنة له أبناء كبار، فيوغر صدره على إخوته وعلى أبيه الذي له مثل هؤلاء الأولاد الكبار، وتكون أحلام القدرة المطلقة Omnipotence dreams هذه، وهي النقيض الخالص لوضع العجز الذي في هذه المرحلة من العمر للأطفال الصغار.

إذن فالأطفال يحلمون، وأحلامهم تتأثر بظروف معيشتهم وأحوالهم العائلية والاجتماعية والصحية وخبراتهم اليومية وذكائهم وأعمارهم وبناء شخصياتهم. وليس من السهل رصد هذه الأحلام بالنظر إلى حداثة عمر الصغير وقلة خبرته ودرايته وضآلة محصوله اللغوي. ويميل الطفل إلى إسقاط ما لا يفهمه ولا يحبّه من الحلم عند روايته، وقد تختلط عليه أحداث الحلم بالخيال وشطحاته، ومع ذلك أمكن رصد الكثير من الأحلام للأطفال وخاصة عقب الاستيقاظ من النوم. وكذلك أمكن رصد ظواهر حركية

وكلامية للأطفال الذين هم دون السن التي يقدرون فيها على التعبير عن أحلامهم بالنظر إلى ما يبدو منهم من ضحك أثناء النوم أو ابتسام أو تأوّه وبكاء وصياح، أو صرّ على الأسنان أو ركل بالأقدام، أو جولان أو كلام أو إيماءات. ويؤكّد كثيرون أن الأطفال في الشهر الثامن يحلمون (Erickson)، وكان فرويد يقول إن ابنته الصغرى في شهرها التاسع عشر تحلم. وأحلام الأطفال الذين يعانون من الحرمان العاطفي أو الذين يعيشون في عوز مادي أكثر من أحلام الأطفال الذين يعيشون في يُسر مادي وحضاري. وكذلك فإن الأطفال الذين ينامون في سرير وحدهم يحلمون أقل من الأطفال الذين يتشاركون وآخرين في سرير واحد، سواء كان هؤلاء الآخرون إخوة أو أحد الوالدين. وتختلف موضوعات الأحلام بحسب انتماءات الأطفال الطبقية، فالأطفال الفقراء يحلمون بامتلاك أشياء تعوزهم كالأكل والثياب والألعاب، وتغزر أحلامهم في الأعياد والمناسبات حيث يزداد شعورهم بالعوز والحاجة.

وغالباً ما تكون أحلام الأطفال عن حوادث اليوم السابق، ويقول فرويد إن أحلامهم تجعلنا لا نشك أن ما يستحثّها هو الرغبات التي لم تتحقق خلال اليوم الفائت. ويعوض الطفل عما فاته في ذلك اليوم بالحلم، فإن كان قد فشل في التغلب على مسألة تغلّب عليها في الحلم، وإن كان قد أهين فهو يرد الإهانة، وإن كان قد حُرم إحدى الألعاب فهو يلعب بها حتى يشبع. والطفل الذي يقرأ قبل النوم يتأثر بما يقرأ وقد يحلم به ويتقمص الشخصية من القصة التي أعجب بها ويرى نفسه فيها.

والطفل الصحيح البنية يحلم أقل من الطفل المعتلّ الصحة. والصحة والمرض يوثران في السلوك سواء في اليقظة أو في النوم. وإذا مرض الطفل وارتفعت درجة حرارته زادت أحلامه، ومع التغيّر الكمي في الأحلام يكون التغير الكيفي أيضاً، فتصبح الأحلام أوضح ولها طبيعة عصبية. وقد يذهب بتفكيره في الحلم إلى الموت، وتتنوع صور الموت، فإذا شفي الطفل وخفّت الحرارة عادت أحلامه إلى القلّة بعد

الكثرة واختلفت أيضاً في طبيعتها. والأطفال الذين يصابون بالانفلونزا والذين يتجاوزون سن الحادية عشرة تكون أحلامهم من نوع الكوابيس مع ارتفاع درجة الحرارة بشدّة والامتناع عن الأكل، وتكون الهلوسات في اليقظة مع الكوابيس في النوم.

ويرتبط الذكاء مع كثرة الأحلام وإتيانها، وكلما زاد الذكاء كثرت الأحلام غير المبهجة، إلا أنه مع ارتفاع الذكاء عن ١٢٠ فإن نوعية الأحلام تختلف فيحلم الأطفال بكائنات غير إنسانية، وبالسقوط وبالتواجد في أماكن عالية، وبالعجز، وعدم القدرة على الحركة، وبأماكن غريبة وأناس لا يعرفونهم. وأما الأطفال بحاصل ذكاء أقل من مئة فإن أحلامهم ترتبط بالأفلام والقصص والحكايات عن الجرائم. والأطفال الجانحون أكثر أحلاماً من الأسوياء. والطفل الذكي في ظروف اجتماعية وعائلية غير مؤاتية أكثر أحلاماً من مثيله في ظروف أفضل. وتكثر أحلام الأطفال غير المبهجة والمسببة للكدر إذا حُرِم الطفل من أمّه لمدة طويلة ولم يكن هناك من ينوب عنها ويعوضه عن غيابها. وأطفال الملاجئ والأطفال اليتامى والذين تُطلّق أمهاتهم أكثر أحلاماً من غيرهم..

وكلما تقدّم الطفل في السن تغايرت أحلامه، فإذا زادت خبراته وكبر وعيه زادت أحلامه تعقيداً. وتنضج أحلام الطفل مع نضوجه العاطفي. وتبيّن من تحليل أحلام الأطفال في السن بين الثانية والخامسة أنهم يتأثرون جداً بالحيوانات، وحتى ما هو أليف منها فإن الصور الحلمية عنها لا تكون مبهجة، ورغم أن المحيطين بالأطفال قد يكونون محبوبين منهم إلا انهم إذا رأوهم في الحلم فقد يرونهم من هيئة هذه الحيوانات من البيئة وفي أدوار مخيفة أو مكروهة. والحيوان في الحلم سادي بالنسبة للطفل، ومخرّب أو مدمّر، وكذلك بعض الناس.

والطفل بعد الخامسة يتحول إلى أناه هو نفسه ويرى نفسه في أحلامه. وهو بعد الخامسة يتوجّه إلى بيئته ويحلم بها ولا يكون هو مركز أحلامه ولكنه يكون أيضاً في الأحلام وإنما في دور المتفرج،

فهو لا يشارك ولكنه يشاهد، وأحلام الأطفال لذلك بعد الخامسة ليست أحلام حركة بقدر ما هي صور ومشاهد، ومعظمها أحلام مثيرة للخوف فيها العفاريت واللصوص ورجال العصابات والكلاب الضالة والقطط المؤذية. ومع بلوغ الثامنة أو نحوها حتى ما بعد البلوغ فإن الكوابيس تكثر، والأحلام فيها الهروب ومحاولاته، والمطاردة والعجز والهلع واليأس. والأطفال يخبرون فترات النوم المرمّش أقل في المراحل الأولى من النوم، ويكثر هذا النوم بعد الخمس ساعات الأولى، وعندئذ تكون الأحلام أكثر بعد هذه الساعات الخمس الأولى، وتأتي الكوابيس وهم نيام على الجنب، والنوم المفضّل بالنسبة للطفل على الجنب. ومعظم الخوف الذي تظهره أحلام الأطفال هو خوف لم يخبروه فعلاً ولكنهم استلهموه مما قيل لهم من قصص أو قرأوا عنه (Piaget). والأحلام قبل العاشرة أحلام من الخارج، أي أن موضوعاتها خارج ذوات الأطفال، وبعد العاشرة تكون الأحلام من الداخل، أي أن موضوعاتها أفكار داخل أذهانهم وإن رأوها بعيونهم، ويفسر بياجيه ذلك فيقول إن الفكرة تنطرح خارج الذهن في شكل حلم يراه الطفل وقائع يقينية.

ولا تبدأ أحلام الحركة إلا بعد العاشرة، ومع تقدم السن حتى الرابعة عشرة تكثر الحركة في الأحلام، وهي الظاهرة نفسها التي تُلاحَظ على الأطفال في اليقظة من حيث غلبة الحركة على نشاطاتهم.

والبنات يحلمن في سن البلوغ الجنسي بالحرام والحلال من ناحية الجنس، وتكون لأحلامهن طبيعة جنسية، وتكثر مشاهد الغيرة، وأحلام سندريللا، والرغبة في الظهور، والرومانسية، وامتلاك الملابس والمال.

والأطفال عموماً لا يقلقهم الموت إلا بعد البلوغ، وتأتيهم صور الموت بعد هذه السن. والموت ربما يتمثّل على أنه يلحق بالطفل، أو انه يحلم بشخص قريب منه أنه يموت أو مات. وهذه الموضوعات جميعها، وخاصة إذا صاحبتها الانفعالات الشديدة، تتحكم فيها طبيعة شخصية الطفل الحالم. ويحلم الطفل العُصابي بالموت أكثر من الطفل السوي.

والطفل العدواني أحلامه عدوانية. وإذا كانت للطفل تجارب صادمة في حياته الباكرة كثرت الأحلام التي يرى فيها نفسه يسقط من حالق أو التي يكون فيها موضوع عدوان من الآخرين. ولا يستحث القلق الأحلام عند الأطفال بقدر ما يستحثه الكبت أو القمع. والطفل القلق يكون نومه مضطرباً ولكنه لا يحلم أحلاماً مزعجة بالضرورة. وكذلك الطفل الذي يبول أثناء نومه فإن تبوله يشيع الاضطراب في نومه، فإذا عانى الطفل أثناء اليوم من خبرات إستثارته ولم يعبّر عما يجيش بصدره من انفعالات وكبته أو قمعه فإن هذا الكبت أو القمع هو الذي يجعله يحلم وتكون أحلامه مزعجة. وكلما شعر الطفل بعدم الأمان وبالخوف كلما زادت أحلامه المزعجة.

ويؤثر العمى والصمم على أحلام الأطفال، والطفل الأصم يحلم أحلاماً كلها بصرية وتخلو من الأصوات، وخاصة إذا كان هذا الصمم قد أصابه من الطفولة الباكرة، وأحلامه فيها التمنّي أن يسمع، بعكس أحلام الطفل الأعمى، فإذا كان العمى به قبل سن الخامسة فإنه لا يميل إلى الأحلام كثيراً لأنه لم ير من قبل ولا يستطيع أن يرى في الحلم، وإذا كان العمى به بعد السابعة فإنه يرى في أحلامه كالمبصر تماماً. وأحلام الأعمى هي أحلام فيها التمنّي، وهو يحلم بأنه يرى رأي العين أشخاص بيئته وأنه يتحرك بحرية، فإذا خاف أو زال عنه الشعور بالأمان يحلم بالنار، والنار هي أخوف ما يخافه الطفل الأعمى. وحركة الطفل الأعمى في الحلم محدودة رغم ذلك وأقل من حركة الطفل المبصر، والحركة في أحلام الأصم معدومة تماماً.

والأطفال الجانحون واليتامى، يحلمون بكثرة أحلاماً أكثر وضوحاً من أحلام الأسوياء، وذلك لأنها صادرة عن حاجات محدودة وملموسة. والطفل الجانح أو اليتيم يستشعر هذه الحاجات بقوة فتخرج في الأحلام أماني، والخوف هو السمة الغالبة على أحلامه، وليست فيها الحركة الكثيرة كالطفل العادي، ويقدر جوردون أحلام الأطفال من هذا النوع والتي مدارها العودة إلى البيت

بنحو ٨٠٪ من مجموع ما يحلمون (Gordon, H.L. A Comparative Study of Dream Analysis and the Thematic Apperception Test as Projective Techniques)، وأحلام البنات أقل حركة من الأولاد، ولا توجد فروقات في الموضوعات بحسب نوع الجناح الذي للطفل.

والفروق الجنسية بين الأطفال الذكور والإناث تستتبع فروقاً في نوعية الأحلام وكثرتها عند الجنسين، والبنات أكثر إتياناً للأحلام، والسبب أن الضغوط التي تقع على الأطفال البنات أكثر من التي تقع على الأولاد. وأكثر أحلام البنات أنهن مطاردات ومهددات. والولد في السن من الخامسة حتى السابعة يحلم بالحيوانات ويخافها أكثر من البنات. وهو في السن من السابعة حتى الثانية عشر معرّض لأحلام فيها الحوادث والسقوط والإصابة أكثر من البنات. ويتأثر الأولاد أكثر بالأحلام، وخاصة في سن السابعة، وتكثر أحلامهم بتأثيرها عن البنات. والبنات عموماً في السن من الثمانية حتى الرابعة عشرة أدق في سرد أحلامهن ويستطعن بمهارة وحذق أن يصفن أشخاص الحلم، إلا أنه لا فرق بين البنت والولد من حيث كمية الأحلام المفرحة أو المحزنة. وهناك فرق واضح بينهما في أحلام التمنّى، والبنات يحلمن أكثر بالهدايا والأطعمة والسفر والزيارات والضيافة والملاهي. والبنات يمارسن الكلام والثرثرة أكثر من الأولاد في الأحلام. وأحلام الأولاد عن الشجاعة والبطولة أكثر، إلا أن أحلام الخوف تأتيهم أكثر. وفي السن من ٨ إلى ١٤ يكون الخوف من الحيوانات متساوٍ عند الجنسين وعلى عكس ذلك في السن من الخامسة حتى السابعة. والحيوانات التي يخافها الأولاد هي الثور والحصان والحمار والكبش، أي الحيوانات كبيرة الحجم، وأما البنات فخوفهن من الحيوانات صغيرة الحجم كالقطط والكلاب والفئران والثعابين.

الباب الرابع
«مادة الأحلام»

كل حلم له حوادث، والحوادث يقوم بها أشخاص، وهي تقع في مكان، وكل حلم له طابع إنفعالي خاص به، والأحلام بوصفها تدور في مكان فلربما يكون المكان قارباً في بحر فيغلب اللون الأزرق، أو يكون المكان متنزهاً فتسود الخضرة، أي أن للحلم لوناً أو ألواناً.

وأغلب الأحلام مكانها البيوت لأن الناس في أغلب أوقاتهم في البيوت، ثم قد يكون مكان الحلم الشارع أو المنتزه أو السوق، وهي أكثر ما يؤم الناس من أماكن إذا خرجوا من بيوتهم. وتقل الأحلام التي مكان حدوثها العمل، أو الفصل الدراسي، أو المستشفى، أو الجامع.

وأكثر الأحلام في البيت تكون في الحجرات التي يتعايش فيها أهل البيت أغلب الوقت، وهي غرفة الجلوس، ثم غرفة النوم، ثم المطبخ، وقد يكون مكان الحلم بالقرب من الباب الخارجي للشقة، أو بسطة السلم المجاورة، أو السلم نفسه.

ولقد كان جل اهتمام علماء النفس تحليل أحلام المرضى بالعُصاب، ولم يهتموا كثيراً بأحلام الأسوياء، غير أن الاتجاه الحالي أن يكون التحليل لأحلام الأسوياء والمرضى بالعُصاب على القدر من الأهمية نفسها.

وأحلام العُصابيين ستكون مناقشتها لاحقاً، وما يهمنا هو أن نعرف عن أحلام الأسوياء، والأماكن التي تدور فيها أحلام الأسوياء عادية، وليس فيها شيء غريب، وذلك عكس أحلام العصابيين. والوقت الذي نقضيه في مكان ما ليس شرطاً أن يضفي الأهمية على هذا المكان، فالمكتب نقضي فيه وقتاً كبيراً إلا أنه نادراً ما يكون المكان الذي تقع فيه أحلامنا، وذلك لأن شرط المكان هو أن نشحنه انفعالياً بعواطفنا وتعلّقاتنا النفسية، وعلى ذلك يجيء البيت في المكانة الأولى من بين كل الأماكن التي نرتادها ونتردّد عليها في أحلامنا. وكذلك فإن المكتب أو الوظيفة مكان منفر، وإذا حلمنا بأيهما فإننا نحلم به أحلاماً مزعجة أو منفرة.

وأشخاص كل حلم بالنسبة للبالغ تتحدّد بحسب عمر هذا البالغ، والناس

إما أطفال أو شبّان أو شيوخ. ولقد تناولنا أحلام الأطفال وسنعود إليها لماماً، وأما أحلام الشبان فعادة ما تكون الشخصية الرئيسية في الحلم هي الحالم نفسه، وقليلاً ما يكون وحده في الحلم، والأغلب أن يكون مع آخرين، وربما كان هؤلاء الآخرون شخصاً أو شخصين أو أكثر من ذلك، إلا أنهم في المتوسط شخصان بالإضافة إليه، وفي ٤٣٪ من الحالات يكون الآخر أو الآخرون من الأصدقاء والمعارف، وفي ٤٩٪ منها يكونون أغراباً غير معروفين له، وفي ١٩٪ منها يكونون من الأقارب والأصهار، وفي ١٪ فقط قد يكون الآخر شخصية معروفة أو مشهورة إجتماعياً وذلك دليل أن الأحلام غالباً ما تدور حول موضوعات تهم الحالم نفسه وليست مجرد موضوعات إجتماعية، ولكن قد يحدث فيما ندر أن يكون الآخر هو الله أو الرسول، إلا أن المقصود رمزياً قد يكون الوالد أو المُرَبّي أو صاحب العمل، وربما كان المقصود به الضمير، أو أي شيء آخر بحسب سياق الحلم وشخصية الحالم وصناعته، وأغلب ما يكون الآخر من الأقارب هو الأم في ٣٤٪ من الأحلام، ثم الأب في ٢٧٪، ثم الأخ في ١٤٪، وأخيراً الأخت في ١٢٪.

وكذلك أمكن تصنيف الآخرين في الأحلام بحسب الجنس والعمر، فالرجال يحلمون برجال مثلهم وبنساء ولكن الأحلام التي أشخاصها من الرجال ضِعْف الأحلام التي أشخاصها من النساء، بينما أشخاص أحلام النساء من الجنسين بالتساوي.

ويبين تحليل الأحلام أننا نحلم بأناس من سنِّنا، وفي أحلام الشباب في السن من ١٨ إلى ٢٨ فإن ٤٢٪ من أشخاص الأحلام يضاهون الحالم في العمر، و٢٠٪ أكبر منه، و٣٪ أصغر منه، و٣٥٪ لا تتضح حقيقة أعمارهم.

وليست هناك فروق كبيرة بين أشخاص أحلام الشبان والشيوخ، فالشيوخ يحلمون أكثر بأفراد العائلة والأقارب، وأقل أحلامهم بالأصدقاء والمعارف، ولعل ذلك يرجع إلى أن الشبان لا يكونون في السن قبل الثلاثين قد تزوجوا وصارت لهم عائلات. وكذلك يحلم الكبار في السن بأشخاص من الشباب، وأقل أحلامهم بأفراد من الكبار

المساوين لهم في العمر، وقد يعني ذلك بعبارة أخرى أنه بينما يحلم الأطفال بالأبوين، فإن الآباء يحلمون بالأطفال، وبينما يحلم الأزواج بزوجاتهم فإن الزوجات يحلمن بأزواجهن.

ولقد استطعنا موضوعياً أن نجيب على السؤال: بمن نحلم؟ والآن نجيب على السؤال: ماذا يفعل الناس في الأحلام؟ هل يمشون أو يركضون أو يتحدثون أو يشتغلون؟ والغالبية منهم يتحركون (٣٤٪)، أي يمشون ويركضون ويركبون... إلخ. وكان يقال إن أحلام السقوط وأحلام الطيران كثيرة، والواقع غير ذلك. ويأتي الكلام بعد الحركة في الترتيب (١١٪)، ثم الجلوس (٧٪)، والفرجة (٧٪)، والزيارات (٦٪)، واللعب (٥٪)، والشغل اليدوي (٤٪)، والتفكير (٤٪)، والمجاهدة أو المحاولة (٤٪)، والشجار (٣٪)، والاكتساب (٣٪). ويتبين من ذلك أن أغلب الأحلام سلبية، أو أن الحالم وأشخاص الحلم لا يفعلون شيئاً ذا بال، وأقل الأحلام يكون فيه عمل ما كالطبخ أو الحياكة أو التنظيف أو غسيل الصحون، والكثير من الأحلام فيها الترفيه كالسباحة والغطس ولعب الكرة والرقص إلخ. ونفهم من ذلك أن الحالمين يميلون إلى الترويج عن أنفسهم أكثر من ميلهم إلى العمل، ونشاطهم سلبي أكثر منه إيجابي.

فماذا عن العلاقات التفاعلية بين الحالم وأشخاص الحلم؟ كما نعرف فإن الناس إما ودودون أو معادون، والأحلام تأتي في الغالب عن تفاعلات عدوانية بين الحالم وأشخاص الحلم بأكثر من الضعف. والسلوك العدواني يتراوح بين: القتل (٢٪)، والتماسك بالأيدي والتضارب (٢٨٪)، والتنابذ والتشاتم (٢٧٪)، ومجرد الشعود المعادي (٨٪). وأما السلوك الودود فغالباً ما يتمثل في تقبّل أو إعطاء هدية، وكثيراً ما يكون مجرد شعور بالامتنان أو المحبة.

وتصنّف مشاعر الحالمين إلى مخاوف (ويتضمن ذلك القلق والحيرة)، وربما تكون مشاعر غضب (ويشتمل على الإحباط)، أو حزن، أو سعادة، أو استثارة (وتتضمن الدهشة أو المفاجأة). والشعور بالخوف وبالقلق والترقب يشمل ٤٠٪ من الأحلام، ثم يأتي الغضب والسعادة

والاستثارة (وكل منها ١٨٪)، ثم الحزن وهو أقلها (٦٪) فقط، بمعنى أن ٦٤٪ من إنفعالات الأحلام سلبي أو غير سار (الخوف والحذر والترقّب والقلق والغضب والحزن)، و١٨٪ فقط (سعادة) يكون إيجابياً ساراً.

ولو سألت الحالم: هل أحلامك من النوع السار؟ فإنه على عكس الإحصائية السابقة قد يقضي أقل من نصف الحالمين (٤١٪) بأن أحلامهم من النوع السار، وقد يحكم نحو الربع منهم (٢٥٪) بأنها غير سارة، وقد يقول نحو الثُمن (١١٪) إنها خليط من السارة وغير السارة، وقد يزعم نحو الربع (٢٣٪) أنهم لا يدرون ولم يفكروا في الأحلام من هذه الزاوية.

وأما بخصوص الألوان في الأحلام فالناس عادة لا ينتبهون للألوان إلا إذا كانت فاقعة كاللون الأحمر أو الأخضر أو الأزرق، وتذكّرهم لها أو إتيان الأحلام في هذه الألوان نتيجة الشحن الانفعالي للحلم. والحالم لا يمكن أن ينسى لون الدم أو النار، ويسعده أن يرى الخُضرة في الزرع وهو يتنبه إليه، وكذلك زرقة ماء البحر، واللون الأبيض في الغيوم، وسواد وجه البعض أو صفرته، وبشكل عام فإن الرُبع من الأحلام يأتي ملوناً، والغالبية تكون بلا لون، وأحلام النساء تكثر فيها الألوان عن أحلام الرجال، وتقل الألوان عند كبار السن عنها عند الشبان.

وهذه الخصائص السابقة عن الأحلام تجعل لمحتواها معان معيّنة وتصنع لها بما تضفيه عليها سمات يفسّرها بها المفسّرون. والحلم ضرب من التفكير، وإن يكن تفكيراً بدائياً، وهو تفكير يكون في النوم، وأدواته الصور البصرية بدلاً من الكلمات والخطوط كما في اليقظة، والأفكار فيه لا تكون مجرّدة ولكنها تتجسّد في أشكال مرئية. والحالم يرى في النوم أفكاره صوراً، فإذا استيقظ عاد يصوغ الصور أفكاراً في كلمات ينقلها للآخرين، سارداً ما رأى في الحلم. ولعله لهذا السبب كان تعبير العرب عن الحلم بأنه تعبير يفوق أي لفظ آخر بأي لغة من اللغات.

والحالم في الحلم يطرح مشاكله ومسائله ومخاوفه وآماله، لعله بهذا الطرح الثاني يجد الراحة والحل والطمأنينة. وهو في الحلم يعيد التفكير

في نفسه وفي شخصيته ويحكم على نفسه، وقد يكون حلمه تساؤلاً من نفسه لنفسه عن مدى قدرته على الاحتمال، أو على التصدّي لمخاوفه، أو على مواجهة أسباب القلق. وهو في الحلم يفكّر في الناس من حوله، ويسلّط عليهم مرآة نفسه، ويرى صورهم وأبرز ما فيهم مجسداً. ومن ثم كان تفسير الحلم أو تأويله بترجمة الصور الحلمية إلى كلمات وأفكار. وكان المصريون القدماء يرسمون الفكرة في صورة لطائر أو حيوان على وضع معيّن، فإذا رأى الناس الصورة فهموها وفسّروها. وهكذا تفسير الأحلام، هو عملية فك لطلاسم الصور الخاصة بالشخص، أو العامة التي تصطلح عليها الثقافة ويصور بها الناس أفكارهم في الأحلام، فإذا نجح المفسر في ذلك فإنه يكون قد أدرك أهداف الحالم ونفذ إلى شَفرته، وعرف أسرار ما يفكّر فيه ويشعر به ويدبّر له، وما يكمنه للناس وما يحسب أن الناس تكنّه له، وتصوُّره للدنيا، وفكرته عن الاجتماع والأسرة والزواج والطلاق، وكأنه في الحلم يتبلور كل شيء، وينكشف الشخص برمته، وهذا هو ما يجعل لتفسير الأحلام أهمية بالغة لعالم النفس.

وفي الحلم يلعب الحالم أدواراً، فقد يظهر فيه بمظهر الضحية، وقد يبدو كما لو كان هو المعتدي، وقد يرى في نفسه أنه المنتصِر برغم الظروف غير المؤاتية، أو قد يرى أنه يخسر مع أن لديه كل امكانات النصر. وقد يرتدي في الحلم مسوح الولي، أو يكون له زي الخاطئ الآثم، وقد يتصرّف على نحو مستقل، أو يركن في الحلم إلى آخرين، أو قد ينفق عن سعة، أو يكون مقتراً وبخيلاً. ويبدو أن إيمرسون بلغ أوج الحكمة عندما قال: إن الإنسان المحنك هو الذي يقرأ أحلامه ليعرف نفسه.

وقد تتعدّد أشخاص الحلم، إلا أنهم جميعاً - طالما أنهم ظهروا على مسرح الحالم - مترابطون بسبب، وهو علاقتهم بالحالم، وهم متورطون عاطفياً بحياته. وقد نسأل: ولكن لماذا نرى أغراباً في الحلم إذا كان كل من يظهر فيه لا بدّ أن تكون له بنا علاقة عاطفية؟ والجواب: إن من يبدو أنهم أغراب لا يمكن أن يكونوا أغراباً على الحقيقة، فهم الناس الذين نعرفهم ولكننا نراهم في الحلم كما

نتصورهم، وصورُهم قد لا تبين لنا للوهلة الأولى، ولكننا بالتمعن والتمحيص سرعان ما ندرك أن هذه الصور هي الناس الذين نعرفهم، فمثلاً قد يكون للحالم أب متزمت، أو صَلِف، أو قاسٍ، فيراه في الحلم على صورة ضابط شرطة، أو ضابط جيش، أو ناظر مدرسة ملتزم بالضبط والربط، وقد يرى من الأب سمات أخرى تبدو في صور تناسبها بحسب هذه الصور في ذهن الحالم وقت الحلم. وهذه الصور الحلمية للأب لا يعرفها الحالم لأبيه، وهو فيها يبدو غريباً عليه مع أن ما تمثله من صفات يعرفها الحالم جيداً له.

وبالمثل فإن العالَم يظهر للحالم في صورة ليست له في الواقع ولكنها في ذهن الحالم عنه، فلو أن العالَم بدا كئيباً فإن صورته التي ستظهر له في الحلم ستكون صورة كئيبة، كأن يرى الحالم نفسه يسير في خرابة أو بين القبور أو في طريق مقفر، فإذا كان الحالم يغلي من الداخل ويحتدم به الغضب فإنه لن يرى من العالَم كخلفية للحلم إلا بحراً لجياً وعواصف عاتية، وقد يرى نفسه في سوق مزدحم والمناكب فيه متلاصقة، وهو يشق طريقه بالكاد، أو قد يرى الدنيا ممطرة.

وفي الأحلام قد نشبع دوافعنا الجنسية ودوافع العدوان فينا، أو قد نحاول أن نشبعها، وتُطلعنا الأحلام على حقيقة الاعتبارات الجنسية والعدوانية عند الحالم، فالحالم الذي قد يتمنّى مضاجعة امرأة بعينها ولكن هذه الرغبة يكبتها لأن المرأة مثلاً زوجة لأخيه، ومن ثم فقد يراها في الحلم صراحةً ويضاجعها، أو قد يرى بديلةً لها باسمها، ولكنه عندما يضاجعها أو يحاول مضاجعتها يتلقى منها صفعة، أو تهدّده بإفشاء سرّه، وقد يهوله ذلك ويفزع له بشدّة، فنتعلم من الحلم أية رغبات تكون له، وكذلك نعرف إعتبارات هذه الرغبات عنده من حيث الحرام والحلال مما يناله من عقاب في الحلم.

وتكشف الأحلام عن مفهوم الحالم لصراعاته، فالحلم له نكهة درامية خاصة تتمثل في عُقدة الحلم، وفي الشدّ والجذب الذي يتعاور الشخصيات والحوار، والجو الدرامي الذي يخيّم على صوره من حيث توزيع الأضواء وظهور العتمة أو الظُلمة، والتخللات الضوئية والصوتية وكأننا

نشهد فيلماً حقيقياً له كل مقومات الأفلام. ومع انتهاء الحلم تكون نهاية الفيلم أو القصة، ولكن النهاية لا تكون حاسمة وإنما هي نهاية مفتوحة، لأن الصراعات التي هي محتوى الحلم، والتي يدور عليها، والتي تلونه بألوانها، وتصبغه بصبغتها، ما تزال لم تحل، لأنها صراعات أساسية كانت معه منذ الطفولة، وتظل معه دائماً تلاحقه وتتابع حصولها وكأنها خيط أريان الأسطوري يسير خلفها ويلاحقها عبر متاهة الحياة. وقد تبدو هذه الصراعات وكأنها اختفت لبعض الوقت، ولكنها تكون موجودة دائماً ومعلّقة، تعمل عملها وكأنها العدو الخفي، أو كأنها حروب داخلية لا يدري بها في حياة اليقظة، وتُستنفر إذا جنّ الليل، وتدور رحاها حامية الوطيس.

وهناك صراعات عامة يتشارك فيها الناس جميعاً وتتقاسمها أحلامهم كالصراع بين النضج والاستقلالية وبين الطفولة والاعتمادية والسلبية. ويظهر هذا الصراع محتدماً عند البلوغ وفي المراهقة المتأخرة وأوائل العشرينات، وقد يظل يعمل عمله عند بعض الناس إلى سنّ متأخّرة ويعود قوياً كما كان في الشيخوخة.

وهناك صراع داخلي آخر نخبره جميعاً بين قوى الخير وقوى الشر فينا ونطلق عليه لهذا السبب إسم الصراع الأدبي أو الأخلاقي Moral conflict، وصراع ثالث بين الميول البنّاءة والميول الهدّامة، ونعني بالأولى تلك التي من شأنها إعلاء قيم الحياة وتأكيد المحبة وتأصيلها في النفوس، ووصل الأرحام وإشاعة السلام (Tendencies of integration)، وأما الثانية فهي التي يكون بها قطع الأرحام واستحداث الانقسام والفُرقة والتخريب وبذر الكراهية وإعمال الموت (Tendencies of disintegration)، ويتمثل هذا الصراع في الكوابيس وأحلام القلق. ودراسة الأحلام تطلعنا على هذا الجانب وتزيد فهمنا لدوافع السلوك، لأن الإنسان يُصدر في سلوكه عن تصوّره للناس من حوله والحياة، وهذا التصور نتعرف عليه من دراسة الأحلام، فهي مجال واسع وهام ومصدر من مصادر المعرفة بالإنسان لا ينضب معينه ويعين بالتأكيد في العلاج.

الباب الخامس
«الفروق بين الجنسين في الأحلام»

يتخالف الناس فيما بينهم في الكثير ويتفقون في الكثير أيضاً، وينطبق ذلك على الذكور والإناث، وفي مجال الأحلام قد نعلم وجوه الاتفاق فالكل مثلاً يحلم سواء الطفل أو الشاب أو الشيخ، الذكر أو الأنثى، ولكن وجوه التباين مؤكّدة بين الجنسين. ولقد كان علماء النفس عندما يدرسون الأحلام عند المرضى لا يفرّقون بين الذكر والأنثى، وما يعنيهم هو الاضطراب الذي له مظاهره في الحلم ويمكن أن تشير إلى الأسباب، غير أن دراسة الفروق بين الجنسين في الأحلام تكشف لنا عن جانب جديد، قد لا نعتبر بمقتضاه مَن كنا نظنهم مرضى بالاضطراب من المرضى حقيقة. ثم إن الدراسة قد استمرت للمرضى دون سواهم وقد آن الأوان أن تتوجه الدراسة للأسوياء. والحق أن هناك الكثير من الأسئلة تحتاج إلى الجواب، فهل الذكور يحلمون أكثر من الإناث أو العكس، أم أنهما متساويان؟ وهل تلوّن الحياة العاطفية للإناث أحلامهن وتجعل لها طابعاً أنثوياً خاصاً؟ وهل الحياة العامة للذكور والعمل وأدرانه، وهموم إعالة الأسرة وغير ذلك، يمكن أن يجعل أحلام الذكور مختلفة عن أحلام الإناث؟ وما هي حقيقة الأحلام الجنسية عند كل من الجنسين؟ وأيهما يحلم أحلاماً جنسية أكثر؟ وما هي موضوعاتها وحقيقة الإشباع المتحصّل منها؟ وما هو عمل الكبت فيها وما يستحدثه من تحريفات؟ وما هي الأحلام التي يمكن أن نخجل منها أو لا نخجل منها؟ وما هي أحلام المتزوجين وأحلام المطلقين؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي يمكن أن تعيننا على فهم ديناميات الشخصية والسلوك الإنساني. والأحلام كما قلنا سلوك كالسلوك الذي لنا في اليقظة، وكلاهما يحتاج إلى فطنة للفهم.

وفي إحدى الدراسات حول هذا الموضوع (Husband, R.W.J., of Abn and Soc. Psych. 1963) تبين:

١ - إن الإناث تكون أحلامهن عاطفية، وهي أكثر وضوحاً في صورها ومعناها.

٢ - موضوعاتها تنحو أكثر إلى أن تكون موضوعات فيها الحُزن والشَجَن.

٣ - إن الإناث يكثرن من الأحلام التي يكون فيها لصوص ومجرمون، أو اغتصاب، أو التي فيها ضحايا للسقوط أو للمطاردة، أو التي يغلفها الخوف عموماً.

٤ - إن الكثير من أحلامهن ليس عن أشياء حدثت ولكن عن أشياء يتمنين أن تحدث لهن.

٥ - إن الأنثى تتعرض أكثر من الذكر لأن ترى مشاكلها اليومية في أحلامها، أو أن مشاكلها وهمومها اليومية تلاحقها في منامها أكثر من الذكر.

٦ - إن أحلام الإناث غالباً ما تأتي ملونة نتيجة العاطفية التي يشحن بها الأحلام، والخيال الذي يذهب بهن كل مذهب في الأحلام.

٧ - إن الأنثى مثلها في ذلك مثل الذكر تحلم، وحلمها يدور حول، نفسها، إلا أن أحلام الذكور الغالب فيها أن الذكر هو الفاعل، بينما أحلام الإناث يطبعها أن الأنثى سلبية واعتمادية وهي التي تقع لها الأحداث، أو تقع عليها، على عكس أحلام الذكور. والأنثى في كثير من أحلامها لا تصنع حياتها بل تُصنَع لها هذه الحياة.

٨ - إن الذكور يحلمون أحلاماً جنسية أكثر من الإناث، أو أن المحتوى الظاهر لأحلام الذكور هو في الغالب جنسي، والكثير من هذه الأحلام ينتهي بالإمناء، والكثير منها يدفع إليه التهيّج الجنسي الخالص وكأن الحلم الجنسي يأتي الذكور كحتمية فسيولوجية غالباً وذلك شيء لا يحدث للإناث، فالأنثى تحلم جنسياً لمجرد قُبلة تلقتها في اليقظة، وتُلهبها القُبلة عاطفياً فتحلم بالمزيد منها، ولكن الذكر ينتصب للقُبلة، وانتصابه إن لم ينته بالإمناء في اليقظة فغالباً ما تدفعه الناحية الفسيولوجية لأن يحلم ليُمني. وقد يحدث أن يستيقظ الذكر بعد الحلم الجنسي متهيّجاً وذلك نادر، في حين أن الأنثى قد يوقظها التهيج غالباً.

٩ - وكثيراً ما يلتقي الذكر بالصدفة بأنثى يعجبه قوامها وقد يحلم بها ويواقعها في الحلم، في حين أن الأنثى لا تحلم جنسياً إلا بمن تعرف من الذكور

معرفة جيدة ترقى إلى الصداقة أو المحبة. ويبدو أن الذكر يمكن أن يكون متعدّد العلاقات الجنسية، في حين أن الأنثى تميل إلى أن تكون لها علاقة جنسية بواحد فقط توثره بحبها وبجسمها. والجنس عند الأنثى لا بد أن تكون فيه العاطفة، في حين أنه عند الذكر يحتمل الحب ويحتمل أيضاً أن يكون مجرد عملية فسيولوجية.

١٠ - والأنثى لا تحلم جنسياً بالذكر في مواقعة جنسية إلا إذا كانت في قمة الحب له، في حين أن الذكر يمكن أن يواقع أية أنثى بدون حب.

١١ - والأنثى إذا غاب عنها ذكَرها تحلم به جنسياً، وذلك يستوي عند الذكور.

١٢ - وقلما يحلم الذكر المتزوج حلماً جنسياً، ولكن المرأة المتزوجة قد تحلم جنسياً إذا افتقدت الإثارة الجنسية في حياتها الزوجية.

١٣ - والإناث في الأحلام الجنسية الشاذة أكثر ما يحلمن بالاغتصاب، وأقل ما يحلمن بمواقعة الحيوانات كالكلاب مثلاً. وهن يمارسن كثيراً الاستعراض أو الاستعراء الجنسي، وذلك نادر عند الذكور. وأحلام اللواط عند الذكور أكثر، وأيضاً أحلام مواقعة المحارم. وقد يبدو أن المرأة وطبيعتها الجنسية سلبية، قد يرضي طبيعتها أن يغتصبها آخر بدلاً من أن تكون هي الفاعلة للجنس، وذلك رأي فرويد على أي حال. وأيضاً فإن الذكر الذي لا يجد الفرصة لتكون له علاقة بأنثى قد ينصرف بتفكيره إلى الممارسات الجنسية الشاذة كمواقعة الحيوانات والمحارم. وأكثر ما تكون أحلام مواقعة المحارم بالأم أو الأخت. ويناسب المرأة أن تكون إستعراضية أو إستعرائية وذلك يحدث كثيراً في اليقظة، ويحدث كثيراً أيضاً في الأحلام. وأما الاستعراء أو الاستعراض بالنسبة للذكر فهو قليل في اليقظة وأقل منه في الأحلام، ولا يأتيه النساء والرجال في الأحلام إلا إذا كانت بهم أو بهن ميول كامنة لا تتحقق في اليقظة فتتحقق في الأحلام.

١٤ - المرأة لا تحلم جنسياً وهي في الحيض وقد يحلم الرجل المتزوج أحلاماً جنسية وامرأته في الحيض.

الباب السادس

«الأحلام الجنسية والاحتلام»

تحتلم المرأة كاحتلام الرجل، والاحتلام Nocturnal dream هو أن يستثار الرجل أو المرأة إستثارة جنسية تؤدي به أو بها إلى الإنعاظ، وذلك شيء عادي نسمع به من المراهقين والمراهقات ومن نساء متزوجات ورجال متزوجين. والاحتلام يأتي عندما يكون هناك حلم جنسي من نوع ما، والكثير من كُتب الأدب تحكي عن الاحتلام عند المراهقين خصوصاً، وقلما هناك أدب نسائي فيه الاحتلام، ولكن الاحتلام واقع وحقيقة بالنسبة للإناث، واقعيته وحقيقته بالنسبة للذكور، والأنثى تشبق في الاحتلام وترتجف وترتعش وتتشدد عضلاتها وتتأوه وتتأود عندما تقارب الإنعاظ، تماماً مثلما تفعل عندما تنعظ وهي مستيقظة، وكثيراً ما يحدث في المدارس الداخلية أن تتحاكى البنات فيما بينهن عن زميلاتهن اللاتي يشاركنهن الأسِرّة وهن يُنعِظن احتلاماً.

وهذا الاحتلام مقياس حقيقي لقدرة الأنثى الجنسية لأنه يأتيها تلقائياً ومن داخلها بتأثير حاجاتها الجنسية ولا تُغصَب عليه كما في الجماع وهي مستيقظة، فقد لا تكون بالأنثى رغبة جنسية ولكنها تنصاع يومياً لممارسات زوجها، وهذا الجماع لهذا السبب مفروض عليها وليس دليلاً على شهوانيتها، وإنما نعرف شهوانيتها فقط من خلال الاحتلام من حيث أنه يأتيها عفوياً وبتأثير من الاهتياج الداخلي الذي يكون بجهازها العصبي المستقل عن طريق مناطق جسمها الشهوية ويشمل جهازها العصبي جميعه من بعد، وتستجيب له كل عضلات الجسم بحركات إيقاعية هي التي نميز بها حركات الجماع. فإذا بلغت شهوتها غايتها كان التشدّد الذي يشمل الجسم والرجفة، وذلك شيء معروف عند إنعاظ المرأة إذا جومعت في اليقظة، فكأن الاحتلام فيه إشباق وإنعاظ كما في الجماع في اليقظة مع فارق واحد هو أن جماع اليقظة فيه شريك، أو قد يُستحدَث إنعاظ اليقظة بالإهاجة الذاتية كما في الاستمناء باليد،

بينما إنعاظ الاحتلام يأتي والأنثى نائمة تحلم حلماً جنسياً.

والاحتلام أسرع في إنعاظه من الجماع العادي في اليقظة، فالأنثى التي قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي تنعظ يقظانة قد لا يستغرق إنعاظها في الاحتلام ثوان. وفي الاحتلام لا تخضع الأنثى ولا يخضع الذكر لضغوط الكبت والقمع والكف فكلاهما على سجيته ومن السهل عليه إذن أن ينعظ بسرعة. وثمة سمة أخرى للاحتلام هو أن الإهاجة الجنسية فيه قد تتم بطرق ملتوية شاذة قد لا يرضى بها في الواقع الذكر أو الأنثى، وقد تمارس فيه الأنشطة الجنسية المحرمة، وربما يكون موضوعه من محارم المحتلم كأن تكون أخته أو أمه، أو قد يكون شريك المحتلمة أباها أو أخاها. والحدث الصغير سواء كان بنتاً أو ولداً قد يخبر الاحتلام قبل أن يخبر الاستمناء باليد أو الجماع الحقيقي.

والاحتلام عند كل من الذكر والأنثى قد يبدو أنه فسيولوجي خالص، بمعنى أن الإثارة تكون فيه والشخص نائم على وضع معين من الجسم، بحيث تحتك أعضاؤه التناسلية بالحشيات أو يزيد بها الدفء فيكون الانتصاب أو الإشباق، بالإضافة إلى الحالة الصحية للمحتلم من حيث إفرازاته الهرمونية وما قد يكون به من تعب أو راحة أو حرارة الحجرة ونوع التغذية التي يتغذّى عليها، فذلك كله له تأثيره على المحتلم، ولكن هذه الظروف كلها متواجدة كل يوم ولا يحدث الاحتلام إلا في ليال دون أخرى، الأمر الذي يجعلنا ننحو إلى أن نقول إنه لا بد في الظروف السابقة من توافر عوامل نفسية تهيّج الشخص في اليقظة، ويستثار بها خياله ورغباته، وتلاحقه هذه الرغبات في منامه وقت أن تكون رقابته على نفسه متدنية مع تدنّي الوعي أثناء النوم، فيكون تأثيرها على الجهاز العصبي وتنبيهها للمراكز الحسية، فيكون الانتصاب والإشباق.

ولعل ما يدفعنا إلى القول بأن الاحتلام في أساسه نفسي وليس فسيولوجياً هو ندرة أن يحدث بدون أحلام، وحتى عند الإناث اللاتي قد يمارسن الاستمناء باليد بدون أن يصحب ذلك تخيّل جنسي من أي نوع ما، فإنه لم تعرف إلا حالات قليلة

للغاية لا يعتد بها انعظت فيها المحتلمة دون أحلام، الأمر الذي يكاد يجمع عليه أغلب علماء النفس بأنه لا احتلام بدون أحلام جنسية، والادعاء بغير ذلك قول مغلوط. غير أن بعض علماء النفس وقد لاحظوا أن الإناث لا يحتلمن بالكثرة التي يحتلم بها الذكور ذهبوا إلى القول بأن الأنثى التي يكثر احتلامها لا بد أن تكون مضطربة نفسياً وتعاني من اعتلال عُصابي ما، أو أنها غير ناضجة انفعالياً وتؤثر فيها المواقف الجنسية البسيطة والاحتكاك اليومي بالذكور، ويتابعها هذا التأثير في منامها. وعلى أي الأحوال فإن أغلب الإناث جرّبن الاحتلام ولو لمرة في حياتهن، ويذكر كينزي أن نحو ٦٥٪ من عينات النساء اللاتي أجري عليهن استقصاءه عرفن الأحلام الجنسية، وأن نحو ٢٠٪ منهن قد خبرن الاحتلام، بمعنى أنهن أنعظن، بينما ذكرت الباقيات (٤٥٪) أنهن لم يبلغن في أحلامهن حدّ الإنعاظ أبداً، وكان السبب دائماً أنه قد حدث في الحلم ما تسبّب في قطعه دون النهاية. وتقول إحصاءات كينزي أن ٣٧٪ من نساء عيناته دون الخامسة والأربعين جرّبن الاحتلام، ويعني ذلك أن نسبة ٦٣٪ من النساء دون سن الخامسة والأربعين لا يصلن إلى الإنعاظ في أحلامهن الجنسية. وأيضاً فإنه إجمالاً ولكل الأعمار يخبر ٧٠٪ من النساء الأحلام الجنسية سواء مع الاحتلام أو بدون الاحتلام (Kinsey: Sexual Behavour in the Human Female)، على أنه كانت هناك حالات ضمن العينة قد خبرت النساء فيها الاحتلام لثلاث أو أربع مرات في السنة كلها، وأخريات عرفنه بمعدل مرة أسبوعياً. وعندما تدمن المرأة المخدرات ثم تمتنع عنها فإنها غالباً ما تحتلم، ويبدو أن الاحتلام هنا من أعراض الامتناع عن التعاطي، بدليل أنه يزول بزوال الأعراض أو بالعودة إلى التعاطي.

ويحتلم الذكور أكثر من الإناث، حتى لقد يحتلم الذكر من أربع إلى سبع مرات في المتوسط أسبوعياً، وهناك حالات قد يحتلم فيها الذكر حتى أربع عشرة مرة في الأسبوع ولعدد من السنين، أي بمعدل مرتين في اليوم الواحد. وإذن فالفروق بين الذكور في مسألة الاحتلام كبيرة

جداً، وهو شيء لا نجده بين الإناث، فليست هناك هذه الفروق الكبيرة بينهن، وهذه خاصة من خواص النساء حيث يتقاربن في مجال الاحتلام كمنصرف جنسي في حين أنهن يتباعدن جداً عن بعضهن البعض وتظهر الفروق الكبيرة بين آحادهن في مسألة الإنعاظ باليد، فالغالبية من النساء لا يفعلن ذلك سوى مرة أو ربما مرتين في العمر كله، بينما هناك أخريات قد يدمن الإنعاظ باليد لدرجة أنه كانت هناك حالات في عينة كينيزي لنساء يمكن أن يمارسن الإنعاظ باليد لمائة مرة في الساعة الواحدة، وهو شيء مذهل حقيقة!! وتفسير علماء النفس هذه الفروق الكبيرة في مجال الإنعاظ باليد بين النساء بأن الاستجابة فيه استجابة محسوسة، بمعنى أن الاستثارة تتم حسياً بدعك الفرج، وأن النساء فيما يبدو حسيّات ويلجأن من ثم إلى هذه الطريقة للإشباع الجنسي، وبعضهن متميزات في هذا المجال حتى ليمكن أن يفعلن الإنعاظ لمثل هذا العدد المهول في الساعة الواحدة، بينما الذكور فيهم الخيال أكبر، ولا بد لهم أن يصاحبوا الاستمناء باليد بأن يتخيّلوا معه موضوعات جنسية، ومن ثم فالاستمناء باليد لأنه حسي قد يكون وسيلة غير مطروقة مثل الاحتلام الذي يقوم على التخيّل، ولا بدّ أن تصاحبه الأحلام الجنسية، ومن ثم يكثر بين الذكور بالمقارنة إلى الإناث. ويذكر كينزي أنه كانت هناك امرأتان ضمن العينة النسائية التي يجري عليها استقصاءه تعتمدان على التخيّل في الإنعاظ باليد مما يدل على ارتفاع مستوى التجاوب النفسي عندهما، مما يجعلنا نقول إنه في حالة زيادة التجاوب النفسي عند النساء فإنه من الممكن أن يزيد عدد مرات الإنعاظ باليد.

والفروق في الاحتلام بين النساء إن وجدت فإنما بسبب السنّ، وأيضاً للعلاقة بين الاحتلام والزواج. والأنثى في المراهقة نادراً ما تحتلم، ولا تزيد نسبة المحتلمات في المراهقة عن ٢٪، فإذا تقدمت الأنثى في السن تزيد النسبة حتى تتراوح بين ٢٢٪ إلى ٣٨٪ في السن بين الأربعين إلى الخمسين، ثم تتدنى النسبة بعد هذه السن، وكانت هناك امرأة واحدة

في عينة كينزي تجاوزت السبعين وكانت تحتلم. والعكس تماماً عند الذكور، فقمَّة الاحتلام عندهم في المراهقة، فإذا قارنا ذلك بقمة الاحتلام عند النساء وهي في السن بين الأربعين والخمسين، فإننا سنجد أن هناك فرقاً زمنياً قد يصل إلى ثلاثين سنة.

والأنثى التي تحتلم تظل معدلات الاحتلام عندها ثابتة تقريباً من حيث عدد المرات في السنة، فإذا كانت تحتلم نحو أربع مرات في السنة فقد يظل هذا هو معدلها طوال حياتها ما لم تكن هناك مناسبات أو موانع تحول دون ذلك، كأن تتزوج المرأة فيقل هذا المعدل وربما يتوقف الاحتلام نهائياً، وربما تعود إليه المرأة المتزوجة في سن الخمسين، إذ ربما تقل كفاءة زوجها الجنسية في هذه السن بالنظر إلى أنه يكون أكبر منها سناً، وعندئذ تعود إلى الاحتلام كمنصرف جنسي، وفي هذه السن أيضاً تكون قمة الاحتلام عند المتزوجة. وأيضاً فإن المرأة العزبة والتي ظلت كذلك قد تزيد عندها مرات الاحتلام بعد سن الأربعين، وهي سن قمة الاحتلام عند العزبة، فأما المطلقة أو الأرملة فسن قمة الاحتلام عندها هو الخامسة والخمسين.

أما علاقة الاحتلام بالمستوى التعليمي لكل من الأنثى والذكر فقد ثبت أنه واحتلام الأنثى قليل فإن مستوى تحصيلها التعليمي لا يؤثر في كونها تحتلم أو لا تحتلم، وذلك لارتباط الاحتلام كما ذكرنا بالتجاوب النفسي وهو ضعيف عند الإناث، بينما يزكّي التعليم مخيلة الذكر فيتجاوب بسرعة مع المؤثرات الجنسية بتأثير من عواطفه ومن ثم تأتيه كثيراً الأحلام الجنسية ويحتلم. وبينما نجد أن طالب الجامعة يحتلم في المتوسط أضعاف مَن لم يحصل على قدر من التعليم، فإن طالبة الجامعة لا تأتيها الأحلام الجنسية التي تنتهي بالإنعاظ أكثر مما تأتي البنات اللاتي لم ينلن قسطاً من التعليم.

وللتدين علاقة بالاحتلام، فالبنت المتدينة لا تحتلم بالنظر إلى أن الحياة التي تحياها تخلو من الإثارة الجنسي ومن ثم يكون نومها هادئاً.

وهناك اعتقاد بأن الاحتلام يخفّف عن الذكور والإناث وطأة الجنس، وانه من

المفيد لهما أن يحتلما طالما أنه لا يوجد منصرف آخر للجنس، وكأن الاحتلام له وظيفة تعويضية. ولقد ثبت خطأ هذا الاعتقاد، وذلك لأنه بالرغم من أن عدد مرات الاحتلام يزيد مع الامتناع الجنسي أو مع التعفف، إلا أن هذه الزيادة لا تتناسب مع عدد مرات الجماع الذي كان يمارسه سجين قبل أن يسجن ويفرض عليه الامتناع الجنسي، أو الذي كان يمارسه صائم قبل أن يصوم عن الطعام والجنس وكل الشهوات، أو الذي كان لبغي قبل أن تتوب، وهو ما يثبت بطلان الزعم بأن الاحتلام منصرف جنسي تعويضي وإن كان بالقطع يزيد مع الامتناع.

وما يهمنا في الأحلام الجنسية عموماً، وأحلام الاحتلام خصوصاً، هو أن موضوعها جنسي، ولأن الحلم ينتهي عادة بالإنعاظ فلا بد أن يكون الدافع إليه جنسياً. ولقد ثبت كما رأينا أن الأغلب والأعم أن يكون الدافع إلى الحلم الجنسي دافعاً نفسياً. والحلم الجنسي دون بقية المنصرفات الجنسية لا تثريب على الحالم به أدبياً، وهو غير مسؤول عنه. وأكثر ما يكون موضوعه مشاهد غرامية وعلاقات جنسية. وبعض الأحلام الجنسية تأتي غير مزوّقة، بمعنى أنها تكون مضاجعة جنسية مباشرة دون رتوش، حتى أن الحالم قد يقص حلمه في الصباح فيقول حلمت أني أضاجع امرأة واستيقظت وأنا أمني، أو قد يقول حلمت أني أقبّل فتاتي وأحضنها فأمنيت. وتعكس الأحلام الجنسية تجارب الحالم الجنسية سواء كان أنثى أم ذكراً، ومن النادر أن نحلم أحلاماً ما لم تكن لها تجارب في حياتنا، ولربما تكون هذه التجارب سماعية فنحب أن نخبرها عملياً. ولا يتسنى لها ذلك فنخبرها في الحلم الجنسي، فكأنه يمثل رغبة في تجربة جنسية. ويذهب فرويد إلى القول بأن الحلم الجنسي يشير إلى وجود رغبة مكبوتة، وربما كان ذلك صحيحاً إلى حد ما، وخاصة أن معظم هذه الأحلام يكون الشريك فيها في الفعل الجنسي وكأنه مجهول وغير محدّد الهوية، أو كأنه صورة عامة لشريك غير محدّد الشخصية. ومن الممكن بتحليل الحلم وبمساعدة الحالم نفسه تحديد شخصية الشريك، غير أنه أحياناً ما يكون المطلوب هو الفعل

الجنسي نفسه بصرف النظر عن أنه مع شريك معيّن. والحلم بالصورة التي يأتي عليها يدل على حقيقة لا يمكن التنازع حولها، وهي أن الحالم يريد بالحلم إشباعاً جنسياً، ويندفع بتأثير قوي أكبر من أخلاقياته ومُثله لتفريغ الشحنة الجنسية عنده تفريغاً فسيولوجياً مباشراً. والحالم في الأحلام الجنسية المباشرة والتي يكون فيها احتلام لا يعنيه الشريك، ولا العواطف، بقدر ما يعنيه التفريغ، ولذلك قد يحلم الحالم بأنه يضاجع فرجاً، وكأن هذا العضو هو كل ما يعنيه من الأنثى. إلا أنه من ناحية أخرى فإن هذه الأحلام بالصورة الفجّة التي هي عليها نادرة. والحلم على أية حال يعكس نفسية وذهنية الحالم. والغالب أن الأحلام تأتي صورة للثقافة التي عليها الحالم، والأحلام الجنسية كثيراً ما تكون مبهجة، ونستطيع أن نعرف من خلفية الحلم ومن أحداثه المستوى الثقافي والانفعالي للحالم، وفكرته عن الجنس وعن الجنس الآخر، وتأثير ذلك على شخصيته وتفكيره وسلوكه. ولا شك أن الدافع الجنسي من الناحية البيولوجية دافع محوري تدور عليه الكثير من تصرفاتنا، وهو لذلك يوثر علينا نفسياً وفكرياً. وتأتي الأحلام الجنسية متوافقة مع نمط الشخصية.

وكثيراً ما تكون خلفية الحلم الجنسي حديقة أو ملهى أو شاطئ استحمام، ولربما تركب الحالمة لُعبة من ألعاب الملاهي أو حصاناً خشبياً أو حصاناً حقيقياً. ويأتي الاحتلام مع نسمات الحديقة، أو دفق ماء الشاطئ، أو اندفاع الحصان الخشبي في الملهى، أو إسراع الحصان الحقيقي، وذلك شيء يدل على أن الجنس غالباً هو متعة، كهذا الحلم لشاب:

- كنت على شاطئ البحر مرتدياً ملابس البحر، وكنت أسبح والماء يتدفق من حولي، ورصدت البنات إلى جواري، وقصدت واحدة ترمقني بنظراتها وحادثتها، فطلبت منها موعداً وابتسمت ولم أعول على ذلك كثيراً وابتعدتُ عنها، ولهوتُ بالماء قليلاً ثم عُدت إليها وابتسمتُ من جديد، فأخذت يدها في يدي وسبحنا سوياً.

وإننا لنلاحظ أن الشاب يتردّد في

إنشاء علاقة بالفتاة، فبعد أن يحادثها وتبتسم يبتعد، ولكن رغبته الجنسية تتصاعد بدليل أنه يحاول صرفها باللهو في الماء ولكنه لا يفلح، فيعود ويلامسها، وكأن لهما غاية واحدة أو رغبة واحدة، بدليل أنهما يسبحان معاً متلامسين، إلا أنه مع ذلك ما يزال متردّداً لأنه لا يقضي منها وطره.

وهذا الحلم لسيدة متزوجة كبيرة السن نوعاً ما، وزوجها أكبر منها سناً، وتحلم بأنها وزوجها يريدان سيارة، جديدة، فيذهبان إلى معرض سيارات، ولا ينبس الزوج ببنت شفة، والزوجة تطلب سيارة، والبائع يعرض عليها سيارة ذات طراز قديم، ولكنها تشير إلى سيارة صغيرة وحديثة لها شكل غريب، ويقول لها البائع إنها سيارة شبان، وتصر عليها ويرضخ البائع ويُركبها إلى جواره، فتنطلق بضجة عالية وسرعة فائقة، وتحلم بأنها «كانت تطير بالسيارة في شوارع فسيحة على جانبيها حفرة ولا يوجد فيها أحد سوى نفسها في السيارة وهذا البائع المجهول الذي لا تذكر شكله، وكانت تلهث من شد الفرح».

وواضح أن المرأة تتحسر على شبابها وتريد أن تعود إليه، وأن حياتها الجنسية مع زوجها غير مشبعة، وهي تركب سيارة اللذة أو سيارة الشبان مع بائع وكأنه بائع الهوى، مجهول، وتنطلق رغباتها متحرّرة مع السيارة، ولكنها رغبات محرمة فلا يراها أحد، وهي رغبات لا تقوى عليها لكبر سنها، ومن ثم فهي تلهث من شدّة الإشباق، ومع ذلك لا تنعظ، وربما كان لهاثها لهذا السبب، فهي تسعى للإشباع دون فائدة.

والسينما مكان يلهب الخيال ويرضي النزعات الحسيّة. وهي مكان يمكن أن يكون خلفية للممارسات الجنسية، وكثيراً ما يلتقي فيها العشاق، ويكون داخلها ووسط الظلام والموسيقى المصاحبة والأحداث المتفاعلة، التشابك بالأيدي، والأحضان والقُبَل، وكأنه مع هذه الملابسات تنحلّ الكوابت، وتختفي الزواجر، ولا تبقى سوى الشهوة الجنسية تطلب الإشباع، كهذا الحلم لرجل متوسط العمر.

- كنت في حيرة من أمري إلى أن أذهب، ورأيت السينما، وكانت أضواء

الإعلان تخطف بصري «الحرمان»، وقطعت تذكرة، وكانت البائعة صغيرة السن وتبتسم ابتسامة خاصة، ونقدتُها الثمن في يدها، وتناولت التذكرة وضغطت على يدها لتستبقي الباقي. ثم رأيت نفسي داخل السينما جالساً والفتاة البائعة إلى جواري، وأنا أضع ذراعي حول كتفها وأقبّلها بشدة، ويدي الأخرى بين فخذيها، واستيقظت وأنا أمني.

وفي الحفلات يكون الجنس، إذ الحفلات فيها الصخب، والجنس صخب، وصخب الجنس يقولون عن إنه Orgy، والكلمة أصلها سُرياني وتوجد في اليونانية واللاتينية واللغات الأوروبية، وهي في العربية الأرج، وتقول أرَج الناس اضطربوا وضجّوا، وأرَج بين الناس هيّجهم، كهذا الحلم لطالب جامعي:

– حلمت كأني في حفلة الكلية، وكان الطلبة والطالبات في أبهى ثياب، والزينات معلّقة في القاعة الكبيرة، والزحام شديد، والاحتكاك بيننا قائم، والدنيا حر، وخرجت إلى الهواء بالخارج وجلست على الخضرة، والضوء خافت، والموسيقى تأتيني بعيدة بعض الشيء، ثم رأيت كأن كلّ طالب أخذ طالبة وافترشا الحشيش يمارسان الحب.

وقد يستحث المناخ نفسه الأحلام الجنسية، أو تكون الأحلام الجنسية على خلفية من مناخ مثير جنسياً كهذا الحلم.

– وجدت نفسي في سريري، وكان الوقت الفجر، والدنيا برد، وأنا أشعر بالبرد فأغطي نفسي بالبطانية، وتتقارب أعضائي وأحسّ الدفء، وفجأة تشرق الشمس وتملأ الحجرة بالنور والدفء فأمنيت.

وهذا الحلم لفتاة يمثل التغيُّر في الطقس تغيراً في عواطفها:

– حلمتُ وكأن خطيبي جاءني وخرجنا للنزهة، وكان الوقت صيفاً والدنيا حر، ثم بدأ يغازلني وكنت أكره منه ذلك، وشعرت أن الحرارة بجسمي كله حتى ليكاد يلتهب، ثم أحسست برجفة تشملني، وكنت أهتز بشدة، وفجأة وجدت الدنيا تتغير، والشمس تختلفي، والريح تهب، والبرد يشملني.

والفتاة تتهيج، ورغم أنها تكره ما يعتريها في التهيج إلا أنها تستسلم له حتى ليكاد يقضي عليها وتنفعل به بشدة،

والهزة هي هزة الإنعاظ، وبعد أن تنعظ تشعر أن كل شيء قد تغيّر، ربما لأن شعور الكراهية لما فعلت هو الذي يسود الموقف برمته.

وإذا كان المناخ يرمز للشهوة مثلما ترمز لها الريح العاصفة، وهبّة النسيم، وغياب الشمس أو شروقها، وسقوط المطر والبَرَد، أو الاحترار بالجو، فإن الموقع أو المكان هو أيضاً من الرموز الحلمية الجنسية، فالشهوة العارمة قد تمثلها الطبيعة على سجيتها دون اعتمال من إنسان، كأن يقع الحلم بين الحقول أو عند شلاّل ماء. والحرمان الجنسي قد تناسبه الصحراء. والحبّ المتّقد قد ترمز إليه وردة حمراء، كهذا الحلم الذي لشاب مثقف تلعب الثقافة دوراً في ترقيق مشاعره بحيث يأتي الحلم رومانسياً:

- حلمتُ كأني وفتاتي نجتاز صحراء جرداء، ومن بعيد تمثلت لنا نخلات باسقات، واقتربنا منها، واخترت منها نخلة جلسنا تحتها، ومددتُ يدي وقطفت بَلَحة، وأعطيتها لحبيبتي، فكانت تلوكها وتقول إذن فنحن قد تزوجنا الآن، فأقول وستلدين حالاً بنتاً جميلة.

والحلم تختلط فيه الثقافة الدينية (مريم وميلاد النبي عيسى تحت النخلة والرطب والتقوّي به) بالثقافة الجنسية حيث النخلة رمز للقضيب، فتسأل الفتاة وإذن فقد تزوجنا الآن، ولولا أنه انتصب في الحلم لما حلم بالنخلة. والصحراء التي اجتازها هي المعاناة من الحرمان في اليقظة، والحلم هذا بمثابة الفَرَج للحالم، أو الواحة لمن يجتاز الصحراء، وهو يحلم بأن تكون له فتاة جميلة ترفع عنه هذا الحرمان.

والحلم كالكاتب، فقد يريد أحياناً أن يضفي على الجو العام صفات تزيد من حدّة المشاعر، فمثلاً في قصة الملك لير عَمَدَ شكسبير إلى أن يجعل العاصفة تهب، فكأنه ينذر بما سيحدث من بعد، وكذلك الحلم فقد تصوّر العواطف الملتهبة أو الانفعالات المتأججة بمصاحبة العواصف المزمجرة، والشمس الحارقة، والفيضانات الجارفة، والزلازل المدمرة، وقد يرى الحالم نفسه في حلم وكأنه ينظر من حالق صخور مرتفعة إلى البحر المضطرب أسفله، وينتهي حلمه بالإنعاظ. والسيارة وسيلة احتلام، وهي

قد تصور فكرة الحالم عن القوة والقدرة لأن من يقودها ويسرع بها وكأنه صاحب سلطان يتحكم مطلقاً في هذه الآلة العجيبة، وقد ترمز السيارة إلى الطاقة الجنسية كما في هذا الحلم:

- كنت أقود سيارة أمريكية جديدة، ذات سقف متحرك، وأحاول أن أنزل السقف ولكني لم أستطع بسبب عطل في آلة الإنزال. وقدتُ السيارة في طريق عمومي ووجدتُ نفسي في زحام المدينة وتوقفت، وهنا شعرت أني أمنيت.

وقد يصوّر الحلم الدافع الجنسي باعتباره سيارة تشتعل فيها النار، أو تصطدم بإشارة مرور، أو تتعطل بها الفرامل، أو تنحرف عن الطريق وتصطدم بشيء. وقد يحلم الحالم المحتلم بأن غطاء الموتور قد ارتفع من تلقاء نفسه وتعرّت الماكينة، وكأنها ستطير منخلعة كهذا الحلم:

- عندما حدث ذلك قفزت إلى الغطاء، وحاولت إنزاله وأفلحت في أول الأمر، ثم خارت قوتي وغلبني الغطاء، وكنت أجاهد في معركة خاسرة وقبل أن تنخلع الماكينة إستيقظت.

ومن الواضح أن الحالم كان «يجاهد في معركة خاسرة» لئلا ينتصب ويُمنى. وكان يخشى الشهوة الجنسية وكان لا يريد أن يستحم فقد كان الوقت شتاء.

وأيضاً قد تكون الطائرة رمزاً للجنس، فهي بالإضافة إلى أنها وسيلة قوة وترمز للقوة والميل إلى السيطرة، فإنها تثير خيال الراكب وتستثيره جنسياً، والسرعة في الطائرة تماثل العملية الجنسية، وهي تبدأ وتتّقد، ثم تخبو وتنطفئ. وبالمثل فإن أية آلة قد ترمز إلى الجنس. ونحن نسمي عضو الذكورة في الرجل آلة الرجل.

والسلالم، والصعود عليها والهبوط، فيه تماثل مع الجنس، وفعل ذلك متعة بدليل أننا نلاحظ أن الأطفال يحبون ذلك كثيراً ويستمتعون بالصعود والهبوط ويتنافسون فيه وكأنهم يتنافسون وهم يجربون أنفسهم في الاستمناء باليد. وهناك الكثير من أحلام السلالم عند الكبار والشباب. وعند إبن سيرين السلم بخلاف ذلك فصعوده الترقّي في المنصب، وهبوطه فقدان منصب أو خسارة في تجارة.

ونحن هنا نتحدث عن الأحلام الجنسية التي تنتهي بالإنعاظ، وهذا الإنعاظ المترافق مع الصعود والهبوط هو الذي نفسره هذا التفسير الجنسي، وأما في الأحلام الأخرى غير المترافقة بالاحتلام فالحلم يفسّر على حسب تفاصيله وبالإحالة إلى أحلام أخرى للحالم، وبالنظر إلى الحالم نفسه وما يراه في حلمه أو ما يثيره فيه، وقد يكون من ذلك ما ذهب إليه إبن سيرين. وهذا الحلم الجنسي الذي نسوقه لا يمكن أن يفسر بطريقة إبن سيرين:

- حلمت أني أطارد فتاة وأقتفي أثرها صاعداً سلماً حلزونياً، ولحقت بها على بسطة عريضة فضاجعتها.

وفي أحلام أخرى من هذا القبيل قد يُمنى الحالم وهو يصعد الدرج، والمرأة قد تحلم بالسلالم يطول صعودها وترتفع بها وتنخفض وتصبح عندها رمزاً للجماع، وفي هذا الحلم فإن السلالم ترمز أيضاً لقضيب الذكر، وتتثبت عندها كرمز ذَكري.

وهذا حلم لشاب إكتشف أنه مريض بالقلب ولم يعد يمارس مضاجعة زوجته خوفاً على صحته فكان حلمه كالتالي:

- حلمت أني أصعد سلماً، وطال صعودي حتى تعبتُ وانتابني الخوف، وأخيراً وصلت، فوجدت حجرة بدت كأنها حجرة نوم، وعثرتُ على السرير برجل وامرأة يتضاجعان، فانصرفت وأنا أشعر شعوراً غريباً.

والرجل الذي يضاجع المرأة هو نفسه المريض وزوجته، ولكن لأنه يخشى الجنس فقد حلم بنفسه وكأنه شخص آخر، وكأنه يتأمل هذا الشخص ويشعر لذلك بالغرابة. ثم إنه يعلم أنه سيتعب، ولذلك يقول إن الصعود «أتعبني» وهو يريد بذلك أنه «يتعبه» ولذلك يكون المشهد التالي الذي يرى فيه الآخر يضاجع، وكأنه بذلك يرضي نوازعه بطريقة غير مباشرة تشبعها وتطامن من خوفه على نفسه.

ويتأثر الناس في البيئات المتدينة بما يقال عن الغرائز الجنسية أنها حيوانية، ويسلك الكثيرون بحيث يطامنون من هذه الغرائز الحيوانية، ومن ثم فقد يتدافعون شهواتهم، وتجعلهم الصراعات الجنسية يحلمون بحيوانات مسعورة جنسياً، وهذا

التصوير للشهوة الجنسية بالحيوانات يقال له التحويل الحيواني Theriomorphy، كما يقال للأحلام التي تشتمل على حيوانات من هذا النوع الشهواني أحلام الشهوة الحيوانية Theriomorphic dreams، ومنها نوعان، أحلام تشتمل الحيوانات المدجنة كالكلاب والقطط والخيل والحمير والخراف والماعز والبقر والجاموس، وأحلام موضوعاتها الحيوانات المفترسة. ويغلب في الأحلام أن تجيء الحيوانات مدجنة. وتكثر في الريف الأحلام التي فيها الحيوانات من نوع البقر والجاموس والخراف والماعز والحمير، كما تكثر في المدن أن يحلم المراهقون والمراهقات إلخ بالكلاب والخيل. وقد تكون هناك أحلام طيور. والحصان من أبرز الحيوانات التي يمكن أن تحلم بها النساء، خصوصاً بالنظر إلى شهوته من حيث القوة الجسدية والجنسية، وضخامة آلته الجنسية، وإشباقه العنيف الذي قد يرضي مخيلة البعض والهوس الجنسي عندهن. ولعل خير تشبيه لجموح الشهوة بالحصان ما ذكره أفلاطون في فيدروس Phaedrus حيث يقول إن عربة المحبة يجرها حصانان، أحدهما وديع لطيف والآخر شرير جامح، والجموح قد يعني أن ينزو المحب على الحبيبة ولو كان ذلك ضد الشرف والفضيلة وكل القيم. وليس أجمل من هذا الجزء من عبارات أفلاطون التي يصور بها الصراع بين الإقدام الشهواني والإحجام بدافع من الإرادة العاقلة. ونادراً ما يأتي الحصان في الأحلام ليصور الفضيلة أو العقل، ولكنه يأتي حيواناً جامحاً شهوانياً. والحصان يصور الذكورة بحجمه وطاقته وجرأته واندفاعه. ومن رأي البعض أنه يظهر في أحلام النساء ضعف ظهوره في أحلام الذكور. ولعل الإثارة للمناطق الجنسية عند الرجل والمرأة أثناء امتطاء الخيل هي إحدى مُتع ركوبها، وهناك شَبَه بين حركة الحصان الهابطة والصاعدة والعملية الجنسية، وهناك أحلام لمرضى بالفصام كان فيها المريض يصهل كالحصان وهو يُنعظ، وقد تحلم المرأة بأنها تركب الحصان من بطنه بدلاً من ظهره، بالنظر إلى وضع المرأة السفلي

أثناء الجماع. والنساء يحلمن كثيراً بالخيل باعتبار أن الحصان يهاجم المرأة في الحلم ويوحي ذلك بأنه يغتصبها، كهذا الحلم لفتاة:

- حلمت أني كنت أسير في حديقة، وكنت سعيدة كل السعادة ولكني كنت كمن يتوقع حدوث شيء، وفجأة ظهر حصان به بياض وسواد وتقدم نحوي وحطّم السور الذي أمامي ثم أركبني فوقه وانطلق.

والسور في الحلم قد يرمز لفكرة الفتاة عن غشاء البكارة، وأنه المعوق عن استمتاعها بالجنس. والحصان الذي به بياض وسواد يشير إلى المفهوم الذي عندها عن الجنس من أنه خير وشر، أو لذة وألم، ولعل افتضاض البكارة، وهو الافتضاض المتوقع، هو من ذلك، أي فيه اللذة والألم، ولعل وضعها العلوي على الحصان هو ميل ذكوري عندها يجعلها تقبل الجماع لو أنها كانت هي في الوضع العلوي.

والسباحة رياضة مثيرة جنسياً، ولذلك لن يكون غريباً أن ترتبط السباحة بالجنس في الأحلام الجنسية ارتباطهما في اليقظة. وقد تأتي أحلام السباحة جنسية صريحة أو قد تأتي رمزية. وقد تحلم المرأة أنها أضاعت خاتمها، وهي تسبح وذلك يسبب لها حزناً يكشف عن أنها فقدت بكارتها. وهذا حلم لشاب يشبه الحلم السابق سوى أن الفتاة تخشى أن تفقد حافظتها على الشاطئ.

والحلم يعكس رغبة الشاب وإنما يقلب ذلك ويجعلها مخاوف للفتاة، وهو يريد أن يفتض بكارتها على الشاطئ ولكنه يخاف المغبة فيجبن، ومن ثم ينسب نكوصه إليها ويقول على لسانها هي أنها تخشى أن تُسلَب عذريتها على الشاطئ.

وهناك فكرة أن العمال والفلاحين أكثر فحولة جنسياً بالنظر إلى أنهم ما يزالون على الفطرة، ومن ثم فقد تحلم السيدة من الطبقة الراقية أن سائقها أو الميكانيكي الذي تتعامل معه أو الحلاّق أو الطاهي أو البستاني قد اعتدى عليها واغتصبها، وشبيه بذلك الحلم المشهور في رواية «عشيق اللادي شاترلي» للورنس.

والأحلام من هذا النوع هي أحلام اغتصاب، تعكس رغبة الحالمة أن تعيش قصة حب جنسي عنيفة يكون فيها الرجل

هو المسيطر عليها، ويكون أخذه لها عنوة، وهي ميول ماسوشية عند بعض النساء تحب فيها المرأة أن تشعر أنها الضحية. وكثيراً ما نسمع في الواقع أن نساء من هذه الطبقة مات عنهن أزواجهن فتزوجن وكيل الأعمال أو خولي العزبة. والفكرة السائدة أن الرجل البسيط والبنت البسيطة من الطبقات الدنيا بهما فحولة جنسية ليست في رجال أو بنات الطبقات الموسرة، وهناك كثير من الأحلام لأناس من هذه الطبقة الأخيرة هي أحلام جنسية صريحة يكون فيها الخادم مضاجعاً للسيدة أو الفتاة، وقد يهولها ذلك في الصباح ولكنها لا تملك إلا أن تعترف بأنه كان يفعل ما يفعله بفن ودراية وقوة، وهذه الفكرة نفسها موجودة عند الرجال عموماً، وهناك العديد من النكات عن العمال والفلاحين تصور فحولتهم، ولربما يصور هذا الحلم ما سبق أن قلناه:

- حلمت أني جالس في حديقة وزوجتي، وكانت زوجتي تقرأ كتاباً، وغير بعيد بستاني صعيدي يعمل بجد في الأرض، وكان رافعاً لملابسه وينحني على نباتاته فتبين عورته وكانت ضخمة وخجلت وقلت: إن رفعت زوجتي عينيها عن الكتاب ونظرت ناحيته فسأنهض وأعلّمه الأدب، ولكنها لم تفعل وانتهى الرجل من عمله وانصرف.

وتحليل الحلم بسرد صاحبه يكشف عن أن الزوجين لم ينجبا، وكان السبب من الزوج، وكان يقول في نفسه إنه ناقص الرجولة وإلا لكان قد أثبت رجولته وأنجب.

والحلم الجنسي كما ذكرنا قد تدفع إليه حاجات بيولوجية تريد الإشباع، أو حاجات نفسية لها ارتباطاتها بديناميات شخصية الحالم. والفرق في المفاهيم الجنسية عند الناس يجعل هناك فروقاً في الأحلام من حيث الموضوع والأهداف والطريقة، كهذين الحلمين:

- حلمتُ بأن صديقة أختي جاءت إلى بيتنا ودقّت الجرس ففتحتُ لها وكنتُ وحدي، وابتسمت لي وسارت أمامي تتلفت خلفها نحوي، فتبعتُها، فتوجهت إلى الحمام، ودخلت وأغلقت الباب خلفها، ففتحته ودلفت فأمنيت، واستيقظت وأنا أمني.

وهو حلم كما نرى مباشر وجاف، وأن الجنس عبارة عن إمناء يحدث في مكان التصريف الفسيولوجي وهو الحمام، ولا شيء غير ذلك، وعلى عكس هذا الحلم الثاني:

- حلمت أني ورفيقاتي - وكنا نلهو - ذهبنا إلى الشاطئ، وكان الجو صحواً، والبحر ساجياً، والماء بارداً، وخلعنا ملابسنا فبقينا بأردية الاستحمام، وهرعنا إلى الماء، وكنا ننشر الماء على بعضنا ونضحك، وفجأة انقلب الجو، واختفت الشمس، وغامت السماء، وارتفع الموج، وسعينا إلى الشاطئ، ولكني كنت كأن الموج يقذفني إلى داخل البحر، وكدتُ أغرق، وصحتُ ولم أتبين إلا وشاب مفتول العضلات يحملني ويضرب الماء بقوة وأنا شبه مغمى عليّ ورأسي يدور، والشاب يسبح بقوّة ويحضنني إليه وكأنه قد فعل ذلك لساعات، وما عدت أخاف شيئاً وكأني أريد ذلك أن يطول للأبد، ثم استيقظت.

وهذا الحلم السالف يدل على خيال صاحبته وذوقها الفني، فالجنس لا يتم عندها في الحمام ولكنه على خلفية طبيعية كأنها بانوراما عريضة من مشاهد متعاقبة تصور في تتابع انفعالاتها وعواطفها وتعكس العملية الجنسية ولكنها تعكسها في تصوّر جمالي أخّاذ، وليس ذلك الاختلاف في الصورة الحلمية بين الحلم الأول والحلم الثاني إلا لأن مفهوم الجنس عند الحالمين مختلف. والجنس كأي موضوع آخر يمكن أن يأتي في الأحلام على أي صورة بخلاف ما ذكرنا، ولكننا بتحليله نستطيع أن نتبين توجهات الحالم وثقافته وميوله وأفكاره. والحلم الجنسي نتعرف منه كل ما سبق من مفاهيم وذلك يعيننا على أن نفهم سلوك الفرد في الحلم أو في الحياة، لأن مفهوم الجنس أو أي مفهوم هو الذي يحدّد السلوك وليس العكس.

الباب السابع
«كيف تفسّر الأحلام»

من المستحيل أن نتعرف إلى الكاتب من قصة وحيدة كتبها، أو مسرحية فريدة لم يكتب غيرها، ولكن من خلال قراءة عدّة قصص أو مسرحيات لهذا الكاتب نستطيع أن نلم باتجاهاته وأسلوبه والمفاهيم العامة عن الحياة، وأفكاره المختلفة وتصوره للإنسان في مختلف مواقفه. وهكذا الشأن في الأحلام، فبالإمكان أن نفسر الحلم بمساعدة صاحبه، ولكننا لو جمعنا عدداً من الأحلام للشخص نفسه سنتنبه إلى أن هناك أشياء بعينها تتكرر فيها، وجواً عاماً يسودها، وشخصيات لها صفاتها، وأماكن يتردّد عليها، ولو وصلنا بينها جميعاً فالأرجح أن يأتي تفسيرنا لأحلامه في هذه الحالة أقرب إلى الصحة مما لو اكتفينا بالحلم الواحد.

وعند وجود عدد من الأحلام للشخص يمكن عمل مقارنة بينها، وبيان المتماثلات فيها والمتغايرات، وأن نربط بينها، ونجرّب ذلك عدّة مرات حتى تتضح لنا مناسبة هذا الجزء من الحلم مع ذلك الجزء من حلم آخر، وكأننا أمام لوحة من القطع الصغيرة، تلصق القطعة من هنا مع القطعة من هناك لتصنع جميعاً صورة كليَّة، ونقارن تفسير كل حلم على حدة في ضوء الصورة الكلية المتحصلة، فما لم يكن التفسير متعارضاً معها فهو تفسير صحيح، وإذا تعارض معها نعتبره تفسيراً خاطئاً فنجرب تفسيراً غيره.

وبعض مجموعات هذه الأحلام من فرط تفسيرها لبعضها البعض لا تحتاج لكبير إعمال لتأويلها وتسمى لهذا السبب أحلاماً مكشوفة Bareface dreams فهي تفسر نفسها، ونبدأ بها لننفذ إلى عقل الحالم، وهي أحلام كاشفة Spotlight dreams لأنها تكشف غيرها من الأحلام العسيرة على الفهم والتفسير، وعندما نهم بتحليل أحلام أي شخص نبدأ بالبسيط منها ونسير إلى المركب بخطوات وئيدة إلى أن يكشف أشد الأحلام غموضاً عن لثامه ويفصح عما فيه من رسالة يضمها بين رموزه

وأحداثه. فمثلاً هذه السلسلة من الأحلام لفتى في الثامنة عشرة أحب بدون أمل لصغر سنة وعجزه عن أن يتزوج، وكانت تجربة الحب هذه هي الأولى له، وهو يفكّر في فتاته بالليل والنهار ويتخيلها إلى جواره فيما يسمى أحلام اليقظة، وفي الليل يحلم بها أحلام الليل هذه:

- حلمت أني في مكان فسيح والأضواء الغامرة من حولي، والناس في زحام وكأننا في عُرس، وكانت هناك الكثير من البنات، وكنت ألاطفهن وألاعبهن ونضحك، وانحنت واحدة وقبّلتني فسعيت خلفها، وتماسكت منا الأيدي، وكنا في غاية النشوة حتى أننا ما درينا بمن حولنا، وكأننا صرنا في السحاب، وكنا نقبّل بعضنا البعض ونحتضن بعضنا البعض.

والحلم كما هو واضح من الأحلام الراغبة التي تحقّق أمنية تجيش بنفس صاحبها وتدغدغ حواسه وترضي نزعته الجنسية، ولكنها تتوقف دون كمال الإشباع. وليس ذلك كل شيء، فلنلاحظ أن الفتاة هي التي تنحني وتقبّله، وكأنه يتلقى هو الحب، وهو سلبي كما نرى، ولولا أنها فعلت ذلك ما سعى خلفها. وإليك هذا الحلم الثاني:

- كنت أقود سيارتي في طريق مفتوح مسرعاً، وفجأة رأيت فتاة تقف مشيرة لكي تركب، وحاولت أن أوقف السيارة ولكن قدمي ما كانت تجد الفرامل، وبحثتُ عنها كالمجنون وكأنما اختفت، وفجأة رأيت فتاتي، نعم كانت فتاتي هذه المرة، وحاولت أن أوقف السيارة وفجأة وجدتُ الفرامل في مكانها ووقفت.

والسيارة في الحلم هي الطاقة الشهوية للحب، وقوتها من قوة هذا الحب، والفرامل ترمز للقدرة على السيطرة على الدوافع الجنسية. وعندما يرى الفتى الفتاة الأولى تدير رأسه ويندفع في اشتهائها حتى ليفقد القدرة على أن يتحكم في اندفاعه، ولكن فتاته تظهر له وظهورها ليس على الطريق ولكنه ظهور من فراغ، فكأنها ظهرت له في خواطره، أي أن خواطره اتجهت إليها وهو في قمة انفعالاته، وحينئذ فقط صارت الأمور في نصابها وعثر على الفرامل، أي أنه وجد نفسه بعد ضياع. والمعنى الذي يريد الحلم أن يقوله أن

فتاته كانت بمنزلة المرفأ له من حياة عابثة سابقة، وأنها ضميره، فهي المُنجي له من الانحدار الأخلاقي، وكلما همّ بفعل قبيح كان خاطر فتاته هو المنقذ له والكابح لجماح عواطفه.

وفي هذا الحلم يلعب الحالم دوراً إيجابياً أكبر من دوره في الحلم السابق، فهو يقود سيارة، ومع ذلك فالفتاة في الحلم هي بمنزلة الكابح لدوافعه الجنسية وليس الكابح من داخله هو. وفي هذا الحلم الثالث سنرى أن الجنس يظهر في رمز السباحة في حمام عميق:

- حلمت أني ذهبت أسبح في حمام له مغطس عميق لم يحدث أن سبحت فيه من قبل، وخلعت ملابسي ووضعتها على رصيف المغطس، وسبحت ما شئت من السباحة، وخرجت من الماء أبحث عن ملابسي فلا أجدها. ورأيت فجأة إحدى الفتيات تمسك بها وتشير إليّ لكي أسير إليها وآخذ ملابسي، وعندما توجهت إليها أخذت تعدو وأنا ألاحقها إلى أن بلغت كهفاً وضعت فيه الملابس واختفت.

والتجرّد من الملابس في الأحلام قد يعني التجرّد من الأخلاق وأن يبدو المرء مفضوح المقاصد. والفتى يتجرّد ويسبح ويعني ذلك أنه غارق في الجنس. فإذا سعى إلى ما يستره لم يجد الملابس ووجدها في يد فتاة تؤمئ إليه كالحلم السابق، أي انها البادئة وليس هو البادئ. وإننا لنلاحظ أن الكثير من الأحلام لأشخاص بعينهم تكون كأن الأنثى هي البادئة، وهي الغاوية كما في الحلم التالي:

- حلمت أني وخطيبتي نجلس متجاورين في بيتها. وفجأة مالت عليّ ومدّت يدها إلى جيبي وأخرجت منه مسدساً ناولتني إياه، طالبة أن أضربها بالرصاص، وفزعت، وكانت تلح، فنهضتُ متجهاً إلى الباب أهرب من الموقف، ولكنها سعت خلفي تستحلفني أن أقتلها بالمسدس، وكنت أعلم أن أمنيتها الوحيدة أن أقتلها بالمسدس فعلاً، فأمسكته مصوباً عليها وأطلقت رصاصة وبدأت أضحك.

وتبيّن من التحليل أنه لم يحدث أن طلبت منه فتاته أن يقتلها، ولم تكن تفكّر في الانتحار، وإنما الحلم من النوع الجنسي، والمسدس آلة تشبه ذكر

الرجل، والفتاة في رأيه من النوع اللعوب، وقولها اضربني بالرصاص يعني «غويني» أو «فض بكارتي». والحالم يفزع لقولها، ثم إذا أطلق الرصاصة ضحك، والفزع والضحك المتلازمان نوعان من التقلب بين درجات التلذّذ وليسا من القتل في شيء، والقاتل هنا يفزع ثم يضحك لأن فزعه غير حقيقي، والفزع الحقيقي في مشهد الغواية الحقيقي عن النبي يوسف حيث تحاول امرأة العزيز أن تغويه فيفزع. والضحك يلزم بعد الفزع عندما يكتشف المفزوع من بعد أنه لم يكن ثمة ما يفزع فيضحك من نفسه ومما كان منه. والمهم في هذا الحلم أيضاً أن الفتاة هي التي بيدها المبادرة وأنها التي تقوم بدور الغواية.

فماذا تقول هذه الأحلام المتتابعة والتي تتكرر فيها فكرة واحدة كما رأينا. التفسير أن هذا الحالم إنسان يشكو الجوع الجنسي ولكنه لا يستطيع أن يقوم بنفسه بإشباع جوعه الجنسي بأن يسلك السلوك الإيجابي الذي يحقّق له ذلك، فهو ينتظر دوماً الخطوة الأولى من الطرف الآخر، وكأنه يخشى تأنيب الضمير فيترك المسؤولية للطرف الآخر وكأنه هو نفسه المعتَدى عليه والضحية.

وفي الحلم التالي سنرى له مفهوماً آخر عن الجنس:

- كنت أسير على الشاطئ وأوغلتُ في السر، وفجأة إكتشفت أني وحيد ولم أدرِ أين أنا، ولم أعرف كيف أعود، كأني قد ضللتُ الطريق، وصرتُ متحيراً أضرب أخماساً في أسداس، وعندئذ وجدتُ قدميّ تغوصان في الرمال، وحاولت أن انتزعهما دون فائدة. وكنت أغوص بسرعة في الرمل، وفجأة ظهرت فتاتي ومدت إليّ يديها وانتزعتني من الحفرة وأنقذتني.

والجنس قد يراه بمنزلة السقطة والكبوة، وذلك يعني أن الجنس ضلال وخطيئة ومن عمل الشيطان. وفي هذا الحلم تلعب الفتاة دور المنقذة وهو عكس أدوارها السابقة كغاوية تغريه وتغويه فينصاع لها ويخضع لأهوائها، ومع ذلك فدور المنقذة مثله مثل دور الغاوية كلاهما يعني أن المبادأة في يد المرأة، لو شاءت لكانت المنجية ولو شاءت لكانت المضلة، وهي في كل الأحوال الفاعلة

وذات الشخصية القوية. والحالم هذا رأيه في المرأة أو في النِّساء أنهن صنف أقوى شخصية من الرجال. وهذا الحالم يشكو دائماً من أنه والغ في الجنس، وأنه قد ضلّ الطريق، فهو لا يعرف الطريق إلى بيته، فلقد باعد هذا الطريق الذي تنكبه بينه وبين أهله، أو أنه «ضل»، وتلك فكرته عن الجنس، وهي فكرة الكثيرين في هذه السن في المراهقة، وهي الفكرة التي تسبب للكثير آلاماً نفسية ويترتب عليها وهن نفسي وتهافت في الشخصية، وقد ينشأ عنها اضطرابات تُلحق أبلغ الضرر بأنا المراهق.

والقلق الذي يعيش فيه هذا الحالم، والذي يدفع عنده إلى كل هذا الزخم من الأحلام، يجعله في هذا الحلم المكمل يطلب العون، ولكنه في هذه المرة يطلبه من زميل وليس من امرأة:

- كنت كأني على الشاطئ، وكأنما شيء يشدني إلى الماء فأدخل فيه، حتى وجدت الماء يغمرني وأنا أحاول السباحة دون جدوى، والماء يكتنفني من كل مكان فأصرخ بكل قوتي طالباً النجدة، وألمح زميلاً لي من أيام الدراسة، وكان كثير المعاكسة لي ولم أكن أحبه حقيقة، ورجوته أن ينقذني ولكنه كان يضحك مني في شماته، وكلما صرخت كلما زادت ضحكته وجلجلت، وخارت قوتي وأحاط بين الماء، وكنت أسقط بسرعة والظلام يزداد، وكان آخر ما أعيه ضحكة هذا الزميل المنفرة الشامتة.

ولنا أن نتساءل: ينقذه من ماذا؟ لو عُرِض علينا هذا الحلم وحده دون بقية الأحلام ما خطر في بالنا الجواب، ولكن طريقة تفسير الحلم في ضوء الأحلام الأخرى، وبالربط بينه وبينها نعرف الجواب، فهذا الفتى يشكو من انغماسه في الجنس ويحاول أن يلقي بمسؤولية ضلاله على غيره. وهو في هذا الحلم يحاول أن يطلب النجدة من شخص يعرفه منذ زمن ولكن هذا الشخص يخذله، وهو رجل مثله ومع ذلك يخذله، والمرأة في الحلم السابق لم تخذله، وتطوعت لنجدته دون سؤال منه. وفكرة الحالم عن الذكور سيئة، وهو قد عانى منهم منذ أن وعى الحياة، فهذا الشخص زميل قديم من أيام الدراسة، وأيام الدراسة حافلة بالمشاجرات مع الأنداد،

وبالتحالفات والمخاصمات، ويبدو أن ذكرياته مريرة، وهو لا يثق في الرجال من نوعه، وعنده أنهم غلاظ القلوب حقراء، بينما الشهامة والنجدة في النساء. فماذا يحدث لو ظهر له في أحلامه أشخاص من النساء والرجال؟ ويجيب على ذلك هذا الحلم له أيضاً:

- حلمت أني أسير وخطيبتي في شارع خال، وكنا نتحدث وفي غاية الانسجام، وفجأة ظهر رجل وأخذت خطيبتي تتحدث معه وتركتني، وحاولت أن ألفت انتباهها إليّ ولكنها كانت منهمكة في الحديث معه فلم تعرني التفاتاً، وجزعت وركبني الهم، وفكرتُ أن الرجل سيسرق مني خطيبتي، فبحثت عن حجر أضربه به، ولكن هيهات. كان لا يتأثر بالضرب وأنا أحاول، ولكنه صامد، حتى شعرت بأني عاجز ولا حول لي ولا قوة، وعندئذ التفتت إليّ خطيبتي وأخذت بذراعي وانصرفنا.

وفي هذا الحلم يثبت الحالم أنه عاجز ولا حول له ولا قوة، وهو يضرب ذكورته بذكورة الآخر فيبرهن على أنه ليس رجلاً كالآخر، وأن ذكورته لا شيء، فضربه للآخر لا فائدة منه، فهل كان يشكو منه هذا الفتى العجز الجنسي؟ أو حتى النقص الجنسي بحيث لا يستطيع أن يدخل في منافسة على فتاة مع ذكر آخر؟ هذا هو ما سنحاول أن نلم بالإجابة عليه من الأحلام التالية:

- حلمت أني وفتاتي نجلس في بيتها، وقَدِم أبوها ورمقني طويلاً، وكانت معه سيجارة أحذ منها نَفَساً طويلاً نفخه في وجهي، ونفض السيجارة فوقي، فغضبتُ وصرختُ وهو يضحك ثم ركلني ومشى.

والفتى لأنه صغير السن لا يستطيع أن يتزوج ويعول أسرة، ويبدو أن الأب لا يحبه ويهزأ به، ونفخ السيجارة في الوجه من ذلك، وكذلك نفْضُها عليه، وهو لا يفعل إلا أن يصرخ كالأطفال بدلاً من أن يهب مدافعاً عن نفسه ويذود عن كرامته. ويبدو أن هذا الضعف يسيطر عليه ولكننا لا نجده في كل أحلامه:

- حلمت أني أوصِّل فتاتي إلى بيتها، وكنت أقبّلها مودعاً عندما ظهر أبوها وطلب مني بعنف أن أنصرف، ورفضت فدفعني بقوة، فما تمالكتُ نفسي ورفعت حجراً ضربتُه به، فسقط على الأرض وهربتُ مع فتاتي.

وفي هذا الحلم نجده يضرب والد الفتاة التي يريد أن يتزوجها، ولا يمكن أن تكون كل هذه الأحلام حول والد الفتاة إلا لأن الحالم قد اتخذ موقفاً معادياً منه، وهو موقف يتصرف فيه كالطفل وليس تصرف الرجال المسؤولين، وواضح أن «أناه» ضعيف وطفولي، ورغم ذلك فضربه للرجل يَفلح، لأنه يشعر برغم ذلك أن موقفه أفضل، لأن الفتاة تحبّه وتريده زوجها، وهي نقطة محسوبة له على الرجل، إلا أنه يهرب بعدها.

وفي الحلم التالي يتعرّض للاعتداء من والد الفتاة، إلا أنه يحتمي فيها وتموت الفتاة دفاعاً عنه:

- كنت مع فتاتي وظهر الأب وكان بيده مسدس، وطلب مني الانصراف فثارت إبنته عليه، ووقفت بيني وبينه، وهدّدني الرجل، فتعلّقت به ابنته تحميني، وأطلق الرصاص فسقطت الابنة بين ذراعيّ.

وفكرة هذا الحالم عن النساء أنهن لسن فقط الأقوى شخصية من حيث أنهن يخترن الرجل المناسب لهن ويبدأن العلاقة ويحافظن عليها أو ينهينها، بل إن المرأة لتدافع عن اختيارها وتذود عنه حتى الموت، ولا يملك الرجل الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه حيال عدوان الرجال الأقوى منه إلا أن يجد الحماية تحت مظلة إمرأة كفتاته التي يحبها، وكأنها تقوم بدور الأم بالنسبة له. وهذا المفهوم المزدوج لدور المرأة: إنها تستطيع أن تغوي، وهي التي تعطي الجنس والتي بها تكون المتعة في الحياة، وهي أيضاً الأم الرؤوم الحانية التي تحمي طفلها، هذا المفهوم المزدوج للمرأة ودورها نجده عند غالبية الرجال.

ويحيرنا من هذا الفتى موقفه من والد الفتاة وهذه المدافعة المستمرة له، والتي يظهر فيها الأب دائماً في دور المعتدي، ويجعلنا ذلك نسأل الحالم حول علاقته بأبيه، فلربما تكون هذه العلاقة السيئة له بوالد الفتاة نتيجة لعلاقته السيئة بوالده هو، ولربما يكون قد أحل والد الفتاة محل والده هو ويعامله على هذا الأساس لا شعورياً. وهو يذكر هذا الحلم عن أبيه:

- حلمت أني تسللت إلى حديقة جارنا وقطفتُ إحدى ثمار المانجو، وكانت كبيرة ومغرية، ولكن صاحب الحديقة ضبطني وأخذني إلى أبي الذي غضب

بشدّة وعاقبني بأن دفعني إلى المطبخ وفتح دولاباً كان مخزناً للمانجو الذي يسقط من شجرة بيتنا، وأمرني أن آكل كل المانجو به، ولم أستطع حتى كدتُ أن أتقيأ فبكيت، وهو مُصِرّ، فعَلا صوتي، فأمسك والدي بثمار المانجو وضربني بها الواحدة بعد الآخر على وجهي ورأسي وجسمي.

والصورة التي يقدمها هذا الحالم لأبيه مشابهة للصورة الحلمية لوالد الفتاة التي يحبها وللصورة الحلمية لزميل الدراسة الذي تركه في الحلم يغرق ولم يمد له يد المساعدة، وكان يضحك وهو يغرق. وهي صورة متكرّرة لفكرة مسيطرة عنده عن عالَم الذكور، ولم تتحصل له هذه الفكرة إلا نتيجة معاملة والده له معاملة نفّرته منه ومن كل الذكور.

وهو في الحلم السابق يسرق الثمار، ونحن نقول ثمار الحب، وطالما أن الذي يعاقبه على سرقة الثمار هو أبوه فلا بد أن ثمار الحب هذه هي ثمار حب أمه لأنها المقابل للأب، والأب قاس والأم المقابلة له لا بد حانية، وأبوه لا يريد أن يتركه يهنأ بثمار حبه لأمه أو حب أمه له، وهو يعاقبه، ويبدو أن هذا الفتى قد خرج من مرحلة الصراع الأوديبي، وهو الصراع الذي أطرافه ثلاثة كما سنشرح ذلك من بعد هم الأب والطفل والأم، وقد خرج بنتائج استمرت معه من بعد ولاحقته وهو شاب وطبعت تفكيره عن دور الرجل (الأب)، وهو هنا دور المودّب القاسي السادي ودور المرأة (الأم)، وهي هنا دور الحامية الحانية المضحية بنفسها (لأولادها)، ولكنها من جهة أخرى اللعوب التي تغوي الرجل (علاقة أمه الجنسية بأبيه). وهذا الحلم الذي نسوقه للفتى ويشتمل على الموضوعات السابقة نفسها بطريقة أخرى:

- حلمت أني رأيت رجلاً يتسلق النوافذ إلى دكان بقالة قريب، فزعقتُ عليه وطاردته وأمسكت به واقتدتُه إلى المخفر، ولكنه قال للضابط إنه صاحب الدكان، وأخرج بطاقته يثبت بها ذلك، ولامني الضابط وخجلتُ من نفسي حتى بكيت، وخرج الرجل من المخفر يضحك.

لقد ظن الحالم أن مالك الدكان لص، ولكن أي دكان؟ وأي لص هذا الذي يتسلل

ليلاً إلى دكانه ويعتلي النوافذ إليه؟ وما هي حكاية المخفر أو الضابط؟ ولماذا يبكي؟

والجواب، هو: إن المالك هو الأب، والأم تمثل الدكان الذي يملكه، والدكان أو المحل أو الشقة كلها رموز للمرأة، والأب يملكها، والحلم من ذكريات الطفولة، فلقد كان الأب يتسلل ليلاً إلى مخدع زوجته ويعتليها مجامعاً (كان يعتلي النافذة). ولقد أظهر الطفل في إحدى المرات أنه يراهما فعاقبه الأب وأفهمه أن هذه العلاقة بينه وبين أمه مشروعة لأنها زوجته، وكان الأب يضحك وهو يفهمه ذلك. والفتى يحلم بهذا الحلم الآن لأنه يرى كما أفهمه أبوه مشروعية دفاع الأب عن ابنته، وأنه لا حق له في هذه اللقاءات بفتاته طالما أن الأب غير راض عنها، وهو ينقل موقف أبيه منه في علاقته بأمه إلى موقفه وفتاته وأبيها. وفي الحلم التالي سنرى المعاملة التي عاملها له أبوه والتي يتوقعها من كل أب يحله محل الأب:

- رأيت نفسي ألعب الكرة، ولعبت كثيراً وقذفت الكرة بشدة فجاءت في نافذة كسرت زجاجها، وجاء صاحب البيت وكان شيخاً عجوزاً يعمل ناظر مدرسة، فنزع مضرب الكرة مني وضربني به علقة بكيتُ منها.

وتحطيم النافذة بالكرة كلاهما رمز جنسي للفعل الجنسي، والعجوز ينتزع المضرب رمز الذكورة منه ويضربه به عقاباً له على الفعل الجنسي. وكان والد الفتى يعمل ناظر المدرسة فعلاً عندما كبر في السن.

وكل هذه الأحلام السابقة لا معنى لها بمفردها، ولكننا عندما نربط بينها جميعاً تنسجم مع بعضها وتعطينا المعنى الباطن الذي تحتويه وتفصح رموزها عن دلالاتها، وتسلمنا صورة عامة لصراعات محتدمة لفتى في مقتبل العمر وهو في المرحلة الحرجة من عمره المستشرفة لمرحلة ماضية من الطفولة، والمرحلة القادمة من الرجولة. وهو فتى يرى أنه انسان ضعيف وعاجز من جهة الرجولة. ولقد كان يحب أمه وأحب النساء اللاتي على شاكلتها من بعد، وهي أم حامية لطفلها وتعيش في علاقة جنسية قوية مع زوجها، ولذلك فهو يطلب في النساء هذا النوع، وكره أباه لأنه قاس، وقسوة أبيه

كانت لعلاقة الطفل بأمه، وهو لا يستطيع أن يزاحم الرجال الأقوى على فتاته، وأبوه هو الذي أحاله هذا الانسان العاجز، وكان يكرهه ويكره كل الرجال على منواله. وكان لفتاته أب قاس أو هكذا هو يراه، وهذا الأب لفتاته هو الذي يحول بينه وبينها، مثلما كان أبوه الحائل بينه وبين أمه. وعلاقة البنت بأبيها هي التي تزعجه وتقلقه. ودائماً يحول الأب بينه وبين ما يتمنى. ودائماً هو يتمنى إنسانة يمتلكها رجل قوي وبدلاً من أن يصارع أباه على أمه فإنه يُسلم نفسه للبكاء في الطفولة، وفي شبابه ها هوذا لا يستطيع شيئاً أمام الأب فيسلم نفسه للصراخ في أحلامه، وهو يصرخ كلما استشعر الظلم من الرجال. ويتلخص صراعه في رغبته أن تمتلكه امرأة ولكنه يخشى من انتقام رجل ما منه، وهناك دائماً رجل ما ينتظره في الظلام ويهبط عليه من حيث لا يدري يريد أن يضربه، والثالوث الذي يعيشه حالياً هو نفسه والفتاة وأبوها، وكان ثالوث طفولته هو نفسه وأباه وأمه. وهذا الصراع الأوديبي الثلاثي الذي تحدثنا عنه من شأنه أن ينحلّ مع الأولاد حلاً مُرضياً بأن يتعيّن الولد بأبيه ويتسامى بحبّه لأمّه، ولكن مع هذا الفتى لم ينحل الصراع لمصلحته، ولم يتعيّن بأبيه، وامتلأ قلبه من ناحيته بالكراهية، وهكذا شبّ عن الطوق ليجد نفسه من جديد في مواجهة صراعاته الأوديبية بتأثير وجود الأب للفتاة التي يحبها. وليس شرطاً أن يكون هذا الأب الجديد قاسياً ولكنه هكذا يسقط مشاعره القديمة لأبيه على هذا الأب، وتلعب البنت دور الأم بينما يحل الأب محل الأب القديم. وهو لسبب ما لم يستطع أن يصوغ نفسه كأبيه وعلى نمط شخصيته ليحوز مثله الثقة في النفس والقوة اللازمتين لتجعلا منه المحب الناجح المسيطر.

وهذا الشعور بالنقص لا يأتيه مع الرجال كبار السن وحدهم، ولكن مع كل الذكور حتى وإن كانوا شباباً في مثل سنه، ولقد رأينا ذلك في علاقته بزميل الدراسة الذي تركه يغرق وأخذ منه فتاته. وهذا الوضع يزيد موقفه سوءاً لأننا لو حاولنا تغيير فكرته عن الرجال كبار السن لكان ما يزال أمامنا أن نساعده على مجاهدة صورته عن نفسه كلما وجد

نفسه حيال منافسين له أقوياء من سنّه. وهو جبان أمام كل الذكور من جنسه إذن، وذكورته من أوهن ضروب الذكورة في مراتبها من الأضعف إلى الأقوى. وليست له وسيلة دفاع حيال تهجّمهم عليه سوى أن يبكي أو يصرخ كطفل أو يهرب، ولا عجب أن نراه يحلم هذا الحلم الأخير في هذه السلسلة التي رتبناها بحسب أحداثها ترتيباً منطقياً.

- حلمت كأنما كنت مسافراً بالقطار إلى جهة لا أعلمها. وكنت كلما اقترب القطار من إحدى المحطات أخرج إلى الممر وأنظر من النافذة. وفي إحدى المحطات أشار إليّ رجل وتأملته فأشار مرة أخرى وهو يبتعد، ووجدتني مشدوداً إليه وكأنما قوة داخلية تدفعني دفعاً لملاحقته، وتركت القطار ونزلت وتبعت الرجل فوجدتني أطير في اتجاه السماء، ووجدتني أمام جدّي الذي كان قد مات منذ سنتين، وبكى جدّي عندما لاقاني فرحاً بي.

والقطار في هذا الحلم هو رحلة الحياة، تهديها - خصوصاً عند الشباب - غريزة بقاء قوية، ولكن هذا الفتى يرغب في الموت، ورغبته في الموت قوية شديدة «كأنما قوة داخلية تدفعني دفعاً لملاحقته»، والرغبة في الموت عنده أصبحت غالبة على الرغبة في الحياة، وذلك شيء لا يحدث في الشباب إلا إذا تمكن منه الاكتئاب نتيجة اليأس القاتل، وهذا الفتى أحلامه يغلّفها الأكتئاب، ويؤكدها هذا الحلم الأخير. ولولا أننا لم تتح لنا هذه الفرصة لتتبع هذه الحلقة المترابطة من الأحلام لما استطعنا أن نلم بحالته ونحللها هذا التحليل الذي يقوم عليه استبصاره من بعد وعلاجه من وهدته هذه. وهذه الطريقة في الربط بين الأحلام واستقرائها بناء على ما يتكرر فيها، ينبه هذا التكرار إلى أهمية المادة المكرّرة ويصل بين أجزائها ويلقي الأضواء على المعاني الخبيئة بحيث لا يتبقى للمحلل إلا أقل جهد من التأويل والتفسير. وهذا التأويل أو التفسير يمكن أن يتم بالطريقة العلمية وحدها ويمكن أن يمد المحلل بعدد هائل من المعلومات الأساسية عن الحالم. وليس تفسير الأحلام أو تأويلها بالشيء العسير، لأن الأحلام ليست بلاغات تهبط على الحالم أثناء نومه،

وإنما هي لغة يفكّر بها العقل في شكل صور لها منطقها الخاص وتحتاج فقط لمن يتعلم هذه اللغة ويتدرب على فك شفرتها وتحويلها إلى أفكار منطقية مترابطة. وليس المهم أن نعلم عن الأحلام ولكن المهم أن نستقرئ الحلم نفسه. ومعنى الحلم ليس في نظرية نحيط بها عن الأحلام، ولكن معناه فيه هو نفسه. والمهم في فهم الحلم أن ندرك هذه الحقيقة الأولى عن الأحلام: إنها من وضع عقل الحالم، ومن اختراعه. والحالم كالمؤلف والمسرحي والمنتج والمخرج ومصمّم المشاهد ومدير المسرح والملقّن والممثّل الرئيسي والمتفرجين، فهو هؤلاء جميعاً وهو يؤلّف ويعدّ الحلم للإخراج، ويجهّز المسرح، ويصمّم الأزياء، ويحضّر المؤثرات الصوتية والموسيقى المصاحبة، ويدرّب الممثلين مفسراً لهم أدوارهم، ثم هو يلعب الدور الرئيسي، ويشاهد نفسه وكل ما حوله، ويستمتع بما يجري على المسرح، أو يتأسى لما يتفرج عليه، أي أن الحلم، أي حلم، هو إسقاط لما يفكّر فيه الحالم عن نفسه والناس من حوله والعالَم الذي يعيش فيه.

وليس الحلم صورة طبق الأصل للواقع الموضوعي ولا ينبغي النظر إليه من هذا الاعتبار، ولكنه من ناحية أخرى أو بمعنى ما صورة طبق الأصل للواقع كما يبدو للحالم. وهو لذلك واقع نسميه الواقع الذاتي. والواقع الذاتي ليس في الأحلام وحدها، فلكل منا واقع ذاتي للواقع الموضوعي الذي يعيشه، وهو رؤيته لهذا الواقع الموضوعي. والواقع الذاتي في الأحلام قد يقرُب من التطابق مع الواقع الموضوعي بدرجة أو بأخرى، وقد يتباعد الواقعان جداً بحسب الحالم، ونحن لا نستطيع أن نقضي برأي بخصوص الحد الذي قد يقترب منه الواقعان، فمثلاً في مجموعة الأحلام السابقة لا نستطيع أن نجزم ما إذا كان والد الفتى ووالد الفتاة قد عاملاه بقسوة في اليقظة أم لا، إذ ربما قد تخيّل هو ذلك، ثم إن الفتى لا يمكن أن يصحو من النوم بعد الحلم فيكره والد الفتاة لأنه عامله في الحلم بقسوة، وإذن فهذا واقع وذاك واقع وبينهما إتصال لا شك فيه، وعلى المحلل أن يتفهم حدود هذا الاتصال وانعكاسات كل على الآخر.

والحقيقة الثانية عن الأحلام التي يجب أن نفهمها ونضعها في الاعتبار عند تفسيرها أنه ما من شيء يظهر في الحلم إلا وللحالم فيه يد وهدف. والحالم هو الذي يؤلف الحلم وهو المسؤول عن كل ما فيه، وطالما أنه قد حلم به فهو قد فكّر فيه. ولقد قيل إن عملية الحلم تعني أننا نفكّر في أنفسنا، وليس معنى أننا نفكّر في نفسنا أن أفكارنا تقتصر على ما يخصّنا، فنحن نفكّر أيضاً في الآخرين، والأشياء من حولنا. والحلم بلغة الاقتصاد مُنتج من عمل الحالم، وهذه حقيقة، مثلما أفكارنا في اليقظة تخصّنا فلا يوجد أحد يفكّر عنا أفكارنا، فنحن نفكّر لأنفسنا إلا إذا كنا واقعين تحت إيحاء أحد، أو كنا مرضى نحسب أن غيرنا يؤثّر في أفكارنا، وما سوى ذلك فكل ما نقول ونفعل سواء في النوم أو في اليقظة هو من وحي أفكارنا وتفكيرنا. وهذا هو ما نقصد إليه عندما نقول إن كل شخص مسؤول عن أحلامه، وان تفسيرها أو تأويلها أو تحليلها عملية تقود إلى عقلية الحالم وشخصيته، والعالَم الذي تعكسه الأحلام والأشخاص التي بها هي صور الحالم عن العالَم الموضوعي والأشخاص الحقيقيين، ومن ثم فإنه لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن من نتعامل معهم من أشخاص الحلم ليسوا الأشخاص في الواقع الموضوعي ولكنهم تصورات الحالم عنهم، وإذن فنحن أولاً وأخيراً في نطاق أفكار الحالم، وهذا هو ما يجب أن يعيه الحالم حتى لا يتعامل مع أفكاره هو باعتبارها واقعاً موضوعياً.

والحقيقة الثالثة عن الأحلام أن الحالم قد يكشف في الحلم الواحد عن تصور واحد أو أكثر من تصور للشخص نفسه، وقد يكشف أيضاً في أحلامه المتعددة عن الشخص نفسه تصوراً واحداً أيضاً أو عدداً من التصورات. والأحلام عادة للحالم الواحد تعرض عدة تصورات أو أفكار لا ينبغي بحال من الأحوال اختزالها إلى تصور واحد أو فكرة واحدة، فكل تصور أو فكرة قد تكون لجانب من جوانب الشخص موضوع الحلم أو لناحية من نواحي المشكلة، فمثلاً قد يتصور الحالم أمه كريمة فيحلم بها كذلك، ثم يحلم أيضاً أنها غيورة، أو أنها متزمتة، أو أنها حاسمة إلخ. وكلها جوانب لا تختلف ولكنها تأتلف وتصنع كلاً هو الشخص موضوع

الحلم أو هي بعضه، ونحن نطلق عليها إسم النسق الحلمي، لأنها تنتظم في نسق هو الصورة الحلمية للواقع الموضوعي للشخص أو لغيره. والمشكلة في الأحلام أن الصور الحليمة فيها لا تأتي مترابطة ترابطاً منطقياً، ولا تتابع تتابعاً منطقياً، ولكنها كأجزاء إنتزعت من صورة كلية ووضعها الحالم بدون ترتيب وفي غير انتظام بحيث قد نرى الشخص هنا يبكي وفي صورة أخرى يضحك فلا ندري أيهما نصدق. والمحلّل أو المفسّر هو الذي يرصد الأحلام للحالم وينظمها في مجموعة ويرتبها بحيث تتابع في منظومة من التصورات تلقي الضوء على بعضها البعض، وتفسّر بعضها البعض، وهو عمل شاق يحتاج إلى سعة فهم ودراية ودربة وعلم غزير لا يتوافر لكل إنسان ولا لكل مفسّر. وما قد يبدو لنا متناقضات في الصور الحلمية ليس في الحقيقة من المتناقضات، فالتصور في هذا الحلم أو ذاك نفسّره من داخل السياق الحلمي، وكل تصوّر له مبرّراته في السياق الحلمي، فالأم الحانية في حلم هي كذلك لأن حوادث الحلم كانت تقتضي أن تظهر الأم هكذا، فإذا حلم بها غيورة أو غضوبة في الحلم نفسه أو في حلم غيره فإنما لأن السياق كان يتطلب ذلك في كل مرة، وكل تصور هو تصور منطقي مع سياقه ويتّفق معه فلا تناقضات هناك.

والحقيقة الرابعة التي ينبغي أن نراعيها في تفسير الأحلام أن الحلم كل عضوي، فلا يجوز أن نعزل جزئية من الحلم عن السياق ونفسرها وحدها، ولا تفسير إلا للحلم ككل، لأنه يعكس مجموعة متشابكة متصلة فيما بينها من الأفكار للحالم، ولا تفسير للحلم وحده بمعزل عن أحلام الشخص الآخر المتقاربة الموضوع أو الطابع أو الفترة الزمنية، لأنه كما تفسر الجزئيات الحلم ككل، كذلك تفسر الأحلام المفردة مجموعة الأحلام المتقاربة بانتسابها إلى الشخص الحالم نفسه، وبتقارب موضوعاتها أو طابعها أو زمانها. والتصدي بالتفسير للأحلام المتقاربة والمترابطة في مجموعة يكشف لنا النسق التصوري لشخص الحالم. وفي كل حلم نواجه دائماً بصعوبة تأويل الرموز وهو ما سنعالجه حالاً (Hall, S., The Meaning of Dreams).

الباب الثامن
«الرمزية في الأحلام»

تحفل الأحلام بأشياء نركز عليها أو قد نعجب لأمرها، كأن نرى مثلاً أننا نطير في منطاد، أو أننا نركب حصاناً يتكلم، أو كحلم سيدنا يوسف حيث رأى القمر والشمس ساجدين له، فكيف نفسّر هذه الأشياء؟ وماذا نسميها في الأحلام؟ ومن قديم الزمان ذكرها الحكماء وقالوا إنها رموز، بمعنى أننا لا ينبغي أن نأخذها على الحقيقة ولكن على المجاز، إذ كيف يمكن أن نصدّق أن الشمس والقمر قد يسجدان للإنسان؟ والتفسير العلمي للأحلام بدأ بفرويد، وتأويل الرموز ركن من أركان نظرية فرويد في تفسير الأحلام، ولكن تأويل الرموز أقدم من ذلك، فيروي فرويد أن شتيكل قد سبقه إلى مثل تأويلاته للرموز. والرمزية لغة أولى أو أنها لغة فطرية هي أبسط ما يمكن أن يعبّر به الإنسان عن نفسه، فيربط بين مجموعة من الأفكار بينها شيء مشترك، كأن يربط بين الجرأة والجسارة والأسد وأحد الناس، وبدلاً من أن يقول بالكلام أو الكتابة هذا كله «فلان جريء وجسور جرأة وجسارة الأسد» فإنه يرى في الحلم الأسد فقط مثلما في اللغة المصرية القديمة التي كانت تستغني بالصور عن الأفكار. وتمثل الرموز الأفكار التي تستمد منها معناها، أو التي تضفي عليها هذا المعنى أو المغزى، ونستخلص هذا المعنى من الصور المترافقة مع الرمز والتي يثيرها فينا، والصور المستثارة يقوم بها فينا لا العقل البالغ أو الواعي ولكن الذي يتمثلها ويراها فينا هو الذهن اللاواعي أو الفطري والذي يسوّي بين الأشياء التي بينها شيء مشترك. وهذا العقل الطفولي البسيط فينا لا يأخذ إلا بالمحسوس وبالمادي، ولذلك فاللغة التي يتحدث بها هي لغة رمزية تستخدم الوسائل الأولية البدائية للتعرف الإدراكي التي يأتي الطفل بها إلى الحياة، وذلك نفسه ما نراه أيضاً عند المرضى بالذُهان بخلاف الأطفال، وفيما يستخدمه الفنانون. وقد يستعصى حالياً أن نفهم المقصود بالرمز وليس ذلك إلا لأننا بَعُدنا كثيراً بالحضارة عن لغة الطفولة

ونسينا كيف نفكّر كأطفال وإن يكن الترميز حتى الآن من بواقي هذه المرحلة أو من بواقي اللغة الطفولية أو الأولية. ونحن عندما ننام يغفل الوعي أو العقل الواعي ونرتد في الزمن إلى ما كنا في الطفولة الباكرة، عقولاً فطرية أولية تربط بين الأشياء بما فيها من عناصر مشتركة وتختزل الحديث عنها بأن تورد الكلام بالصور أو الرموز.

والرموز كانت دائماً وسيلة من وسائل التعبير عبر العصور، وحيثما كان الإنسان كان للرمز وسائله في الإدراك والتواصل والتعبير، سواء في الحياة أو في الأدب أو في الفن أو في الدين أو في الفولكلور والأساطير. وكذلك كان الرمز في الأحلام، غير أن التصدّي للرموز في الأحلام كان مثار الخلاف الكثير والجدل. وتأويل الرموز لا يسهّل مهمة تفسير الأحلام، بل يزيدها صعوبة كما يقول فرويد. وقَبْل فرويد كان من الصعب أن نركن إلى مشيئة المفسّر لعدم وجود منهج علمي نحتكم إليه، وذلك جعل فرويد يصطنع منهجه في التفسير فيستند من ناحية إلى مستدعيات الحالم ويكمل المفسّر الثغرات في هذه المستدعيات Associations بما يعرفه عن دلالات هذه الرموز، ويقتضي ذلك منه أن يكون واسع المعرفة - كما يقول إبن سيرين - باللغة ودلالاتها والفولكلور، وأن يكون حذراً فلا ينساق وراء الهوى في التفسير، لأن الرموز تملك في كثير من الأحيان أكثر من معنى واحد بحيث لا يمكن فهمها في كل مرة فهماً صحيحاً إلا من السياق الحلمي وحده كما هو الشأن في الكتابة الصينية مثلاً. وقد نسأل: أليس من الممكن أن تكون للرموز دلالات ثابتة مثل علامات الاختزال، وعندئذ فقد يسّهل مهمة التفسير أن يوضع كتاب في تفسير الأحلام كأنه المعجم وفق منهج الشفرة بحيث يمكن فوراً أن نترجم رموز الحالم إلى لغة عصرية؟

والجواب أن الرموز بسبب أنها ليست خاصة بالأحلام وحدها، بل هي من خواص التفكير اللاشعوري والتفكير الشعبي بنوع خاص، حتى لنجدها في الأغاني الشعبية، والأساطير، والروايات المتوارثة، والتعابير الدارجة، والحِكَم المأثورة، والنكات بأكثر مما نجدها في

الأحلام، فليس أمامنا إذن أن نشط بعيداً عن مشكلة تفسير الحلم إذا كان علينا أن نستوفي الرموز معانيها. والمشكلة في التصوير الحلمي بواسطة الرموز أن هذا المنهج الحلمي لا يمكن مع ذلك أن ندرجه ضمن أنواع التصوير غير المباشر، فالجامع المشترك بين الرمز والمرموز في الحلم قد يكون واضحاً أحياناً وخفياً في كثير من الأحيان، حتى ليبدو اختيار هذا الرمز في الحلم شيئاً محيّراً. ومصدر الحيرة أن الرمز بدلالته ربما يكون قديماً وموغلاً في القدم من اللغة العينية القديمة للإنسانية، حتى ليمكن أن نكون قد نسينا ملابساته. وبعض الرموز ترجع إلى تاريخ ما وراء الجماعات اللغوية المختلفة، وبعضها قديم قِدَم الكلام نفسه، وبعضها حديث حداثة المخترعات الجديدة.

ومن رأي فرويد أن الرمز يستخدم في الحلم من أجل تصوير أفكار كامنة تصويراً مقنّعاً. ومن رأيه أن عدداً كبيراً من الرموز يُستخدم ليعني دائماً الشيء نفسه، ولكن من الممكن أن يستخدم الحالم هذا الرمز ذي المعنى الثابت إستخداماً خاصاً حسب المحتوى الموضوعي لأفكار الحلم. ولدينا الآن مدرستان في التفسير، إحداهما تقول بالتفسير المادي للرمز، فالرمز له معنى ثابت، كرمز الثعبان، فقد يتصل في الحلم بالمعنى الجنسي بالنظر إلى التشابه بين الثعبان وبين القضيب، وقد يكون للثعبان معنى وظيفي، أي ان وجوده في الحلم له وظيفة يخدمها، وقد يمكن أن نعرفها من استخداماتنا الأخرى للثعبان في اللغات التصويرية الأولى، فقد يرمز للغواية، وقد يرمز للحكمة، وما نزال في الصيدلة نستخدم الثعبان رمزاً للحكمة، وما زلنا في اللغة الدارجة نختزل صورة الشرير فنقول إنه ثعبان. وهذه المدرسة لذلك تسمى بالمدرسة الوظيفية، وتفسيرها هو التفسير الوظيفي.

ولنتناول التفسير المادي للأحلام، وهنا قد يبدو للمفسر المحنك أن يعتمد على ما في الأحلام من رموز واضحة نمطية معروف تأويلها مقدماً، ويقول بتفسيرها على هذا الأساس دون أن يستهدي بمستدعيات الحالم ولا أن يحيط

بظروفه المادية وأحواله النفسية، وذلك شيء قد يحاوله البعض عندما يبدو لهم أن ظاهر الحلم من الوضوح بحيث لا يستدعي سؤال الحالم، ثم إن المحلل قد يغريه على ذلك أن اتّباع هذه الطريقة محك لقدرته الفكرية، غير أن هذا المنهج فيه من المخاطرة ما يجعل من الأفضل تنكّبه، وكذلك فإنه منهج غير علمي ويعتمد تماماً على المفسّر، وربما يذهب في ذلك إلى شطحات تجعله محل نقد شديد. وهذا المنهج هو في الواقع منهج الأوائل كابن سيرين، وما يزال منهج غير المشتغلين بالتحليل النفسي.

ونحن لا ينبغي أن نغامر بتفسير الحلم إعتماداً على الرموز وحدها، فالرموز جزء من الحلم ولا يجب أن نعزلها عنه. ثم إن الرموز تحيل إلى أشياء محدودة العدد إذا حاولنا أن نجعل لكل رمز مرموزه العام والمطلق، وسننتهي إلى ما يشبه قاموس الأحلام ككتاب «تعطير الأنام في تفسير الأحلام» أو كتاب «تأويل الأحلام لأرتيميدورس». وغالباً إذا اتبعنا هذا المنهج نجد أن الرموز كلها تدور حول موضوعات أساسية هي الميلاد، والموت، والجسم وأعضاؤه ووظائفه، والأعضاء الجنسية، والناس وخاصة أفراد العائلة. ورغم أننا قد نجد كماً هائلاً من الرموز يختلف باختلاف ثقافة الحالم، إلا أن المرموزات هي تلك الموضوعات القليلة السابقة. ولا بد لدارس الأحلام أن يحيط علماً بأكبر قدر من الرموز، وما يمكن أن تعنيه حتى وإن تضاربت المعاني الشعبية للرمز مع مستدعيات الأحلام والمنهج العلمي، كما في تأويل العامة لخلع السن في الحلم، بأن الحالم سيموت، أو أن له قريباً لصيقاً به سيموت، مع أنه لو استمعنا إلى مستدعيات الحالم فلربما يكون الحلم جنسياً محضاً أو أن له تفسيراً مختلفاً تماماً.

وكما قلنا إن الأحلام تدور حول أشياء بعينها مثل الميلاد، فمثلاً الحلم بالماء، وخصوصاً الغمر في الماء، قد يشير إلى الحمل والولادة. ومن ناحية أخرى فللماء صلة بالتبوّل وخبراته وتصورات الحالم له. والعدوى بالحشرات ربما تشير إلى المني والإخصاب. ولربما يكون النوم، والصمت، والنزول إلى الأرض، والتضاؤل

في الحجم، والسَفَر خصوصاً إلى ناحية الغرب، والتدثّر ببطانية رموزاً مختلفة للموت.

وأما الجسم وأعضاؤه فقد كانا دائماً مصدر إلهام رمزي للفنان القديم والحديث، وأبدع الإغريق أيما إبداع في تصوير الجسم البشري رمزياً بالنحت، فمن الممكن أن نصوره في شكل المباني، وأن نرمز بالنوافذ والأبواب إلى فتحات الجسم. وقد نرمز لأعضاء الجسم بأشياء من الطبيعة كالجبال والوديان والغابات والزهور. والكهوف قد ترمز لتجاويف الجسم، والشرفة تصلح كرمز للثديين، والفم قد يكون بديلاً عن الفرج، ولربما ترمز المجوهرات لأعضاء المرأة الجنسية، وكذلك قد ترمز الأدراج والمحلات والدواليب للمهبل، وخصوصيات المرأة من ملابس داخلية قد تحل محل أعضائها الجنسية. وأيضاً قد تأتي السلالم والممرات والدهاليز والأنفاق معبّرة عن المهبل. والشارع أيضاً هو رمز جنسي. واللون الأحمر قد يوحي بالحيض. والسقوط قد يعني للبنات الدورة الشهرية. والعينان ربما تشيران إلى الفرج، وكذلك المصاعد والطائرات والطيور والمقذوفات والسهام والأقلام كلها يمكن أن تكون رموزاً للقضيب. والرجل الذي يحلم بأن سيارته قد عطبت وأنه حاول أن يصلح ماكينتها ربما يكون مصاباً بالعجز الجنسي. وتبين أن العدد ٣ في كثير من بلاد العالم والثقافات المختلفة يمكن أن يرمز لعورة الرجل. وترمز الحيوانات للأعضاء التناسية عند المرأة أو الرجل، فالثعبان رمز للقضيب، وبالمثل الحبل والخرطوم. والمرأة التي تحكي عن «صغيرها» ربما تشير إلى عورتها، وكذلك الرجل الذي يحكي عن «صغيره» وأيضاً أربطة العنق المدلاة لا يخفي مدلولها. وربما تقول المرأة انها ولدت طفلاً وأنه نزل يتكلم ويمشي، كبديل في تصورها للقضيب الذي ترى أنه رغم صغره فهو يفعل الأعاجيب في الجماع المشبع. والشمس رمز للذكورة وأيضاً النار، والقمر رمز للأنوثة. وأحياناً يرمز الذراع الممتد أو الساق المرفوعة أو الأنف أو الذيل للقضيب. وللأسنان عموماً معنى

جنسي، وفقدان الأسنان بالنسبة للرجل قد يعني قلقه من أن يصاب بالعنّة. وإذا كان الحالم قد حلم بأن أسنانه كلهـا قد انخلعت فربما هو مصاب بقلق الخصاء. ذلك بعض مما تعنيه الرموز في إطار التفسير المادي للأحلام.

وهذه عينات من أحلام من هذا القبيل ويمكن تفسيرها هذا التفسير:

١ - كنت ألعب الكرة مع أبي ثم تبين لي أنه صديقي، ورمينا الكرة لبعضنا عدة مرات، ثم تراءى لي أن أضربها بقوة ففعلت ورأيت وجه صديقي وقد اصفر، ثم رأيته يبصق ويستخرج من فمه ثلاثة أسنان قد انخلعت بسبب الكرة.

٢ - حلمت أني كنت نائماً ثم تذكرت موعدي مع طبيب الأسنان وقمت قليلاً ولكن أدركت أني قد جئت من عنده تواً بعد أن حشا لي ضرسين واحداً إلى اليمين وواحداً إلى اليسار، وعندئذ استيقظت فوجدت أني قد استحلمت.

٣ - حلمت أني أشدّ شعرة من أنفي فإذا بكتلة شَعر تخرج بدلاً من الشعرة الواحدة.

وأحلام الأنف كثيراً ما تأتي كبديل للاستمناء كالحلم السابق، فعندما يخشى الشخص في اليقظة أن يمارس الاستمناء مخافة أن يصبح عادة عنده فإنه قد يصرف الطاقة المتوجهة للاستمناء إلى أنفه ويرفع يده إلى الأنف بدلاً من أن تتوجه للقضيب ويحكها بها، وقد تصبح لازمة عنده، وحكّ الأنف كلازمة هو من بدائل الاستمناء.

وقد يمثل الرقص الإيقاعي أو أي فعل توقيعي العملية الجنسية، وكذلك الصعود والهبوط، والدخول والخروج. وقد ترمز أحلام الطيران للانتصاب. وقد تُمثّل الشهوة العارمة في الحلم بالمآدب الحافلة والولائم الفاخرة وأكوام الفاكهة أو الحلوى.

والتلذّذ ذاتياً قد تمثّله كل الأنشطة كاللعب، أو الحركة بأية أنواعها، كأن يدفعنا شخص في الحلم، أو أن نحلم بأننا محمولون. وهذا المثال لحلم يرمز للاستمناء:

- حلمت أني أدخل مصعداً وكنت ألهث، ثم بدأ لهثي يزيد. واشتغل المصعد، وبدأت سرعته تزيد وبلغت الدور الأخير، ولكن المصعد لم يتوقف بل

اندفع في الهواء وانقذفت خارجه.

والسوائل الملونة كأن تكون صفراء ربما تعني المني، وقد يعني إعطاء المال النعوظ. والبراز إذا حلمت به فالمعنى يختلف باختلاف اللون، فاللون البني يعني الشيء يخرج مني لا قيمة له، وإن كان لونه أصفر كالذهب فالخروج يعني الخروج عن المال القيّم.

وهذا الرجل إستشعر الإمساك، فأعطى نفسه حقنة شرجية هيّجته جنسياً، فضاجع امرأته ونام فحلم كالآتي:

- عثرت على كومة ضخمة من النقود الذهبية فأخذتُ أكيلها مبتهجاً وفي حماس كبير. وكانت تبدو كأنها في كل مكان.

وكما يقول إبن سيرين قد نحلم بشخصيات كبيرة فترمز للأبوين. والحُجرة امرأة وأيضاً القطة، والملكة هي الأم، وقد نرمز لها بالساحرة أو العنكبوت. والنساء يمكن أن يشار إليهن في الحلم كأقمشة وخشب وورق أو أشياء تصنع منها. والحيوانات ترمز للناس عموماً والوالدين خصوصاً. وتظهر الأطفال في الأحلام كالنمل أو القمل أو الحشرات أو الحيوانات الصغير جداً.

وهذا الحلم لرجل بدأ يرى زوجته بمنظار جديد:

- نظرت إلى السجادة في حجرة نومي فلم تعجبني. كانت بها أشياء كأنما قد تغيّرت في الشكل فصارت أقبح، وتآكلت وتفلطحت من أماكن. وطمأنني صديقي فقال يمكنك أن تستبدلها بسجادة جديدة.

وكما رأينا فالأحلام طبقاً للنظرية المادية في التفسير لا يمكن أن تكون كلها جنسية، وفرويد نفسه يقول إنه من العجيب أن يوجه خصومه إلى نظريته النقد بأنها نظرية في الأحلام ترى أن كل الرموز جنسية لا غير، ويذكر فرويد أنه لم يحدث أن قال مثل ذلك أبداً في أي من طبعات كتابه «تفسير الأحلام»، بالإضافة إلى أن القول بأن كل الرموز جنسية هو قول يتناقض مع النظرية (Freud, S.: Interpretation of Dreams).

والنظرية المقابلة لنظرية فرويد هي التي تقول بأن للرموز وظيفة في الحلم كما أسلفنا القول، ولذا نطلق عليها إسم

النظرية الوظيفية، وهي تعيب على النظرية المادية السابقة أن الرموز معناها ثابت وتصلح أن تُضَم في كتاب لتصنع مرجعاً في تفسير الأحلام يستقي منه الجميع، وهذا خطأ برغم أن فرويد يذكر أنه من الأوفق أن يكتمل ذلك بالرجوع إلى مستدعيات الحالم عن الحلم. وأصحاب النظرية الوظيفية يقولون أن الرموز ذات المعنى الثابت يسهل تفسيرها ويتاح لآحاد الناس. وكان فرويد يرى أن سبب ظهور الرموز في الأحلام في شكلها كرموز هو أنها تشير إلى أشياء كريهة لا يحب الحالم أن يواجهها في الواقع وهو يقظ، وإذا جاءه التفكير فيها وهو يقظ صرف ذهنه عنها وغيّبها عن وعيه، ومن ثم كان لا بد لهذه الأشياء الكريهة أن تستخفي وتتقنّع وتظهر في أشكال رمزية تفوت على الرقيب باعتبار أنها رموز لا ضرر منها. ولذلك يذهب أصحاب النظرية الوظيفية إلى أن الرمز في الحلم هو قناع لتفكير لا يرضى عنه الحالم، كأن يحلم الحالم مثلاً أنه يتسلق شجرة بدلاً من أن يستمني، لأنه إذ يحلم بتسلق الشجرة فإن ذلك لا يجد الغضاضة من نفسه، في حين أن رغبته في أن يستمنى بيده تُقابَل منه بالرفض الشديد. وبالنظر إلى أن فرويد كان يرى أن الأحلام يدفع إليها غالباً رغبات أو أفكار جنسية، فالرموز تأتي في الغالب جنسية أيضاً وإن تقنّعت، ومن ثم فإن ركوب الخيل مثلاً، أو حرث الأرض، أو صعود السلالم، أو إطلاق بندقية، هو رمز للجماع الجنسي. فلماذا يقول فرويد إن البندقية ترمز للقضيب والنافذة للفرج؟ لماذا يكون الرمز رمزاً؟ والجواب عند فرويد أن الرمز يرمز للمرموز لأنه يشبهه، فالمحراث ينفذ في الأرض كما ينفذ القضيب في الفرج، وصعود السلالم يشبه تزايد الرغبة الجنسية، وكل شيء مدبب كالقلم أو الحقنة يمكن أن يشبه عضو الذكورة، والتشابه في الألوان قد يجعل أشياء تشبه أشياء كَشَبه اللون الأصفر بالبول، واللبن بالمني، وكذلك التشابه في القيمة يفسر لنا لماذا يمكن أحياناً أن نشبه أعضاء المرأة التناسلية بأنها كنوز تملكها، والتشابه في الكيف قد يجعلنا نحلم بالحيوانات كرموز للشهوة.

والتحليل النفسي لا يكتفي بالشَبَه

ولكنه يضيف إليه العكس، كأن نحلم بأننا نسير في زحام شديد فيكون الزحام رمزاً للوحدة التي نعيشها، أو أن نحلم بأننا نموت والموت عكس الحياة، أو أن نحلم بأننا مرتدون لثيابنا فتكون الثياب رمزاً للعكس وهو العري، ومبدأ التأويل بالضد قال به أيضاً إبن سيرين من قبل فرويد بنحو ألف سنة، فالبكاء قد يرمز عند إبن سيرين للفرح، والضحك قد يرمز للحزن، والسيل قد يعني العدو. والاعتراض الموجّه لنظرية فرويد ليس استخدامها للرموز في الأحلام ولكنه للسبب الذي من أجله يلجأ الجهاز النفسي لاستخدام الرموز، فهو عند فرويد لإخفاء شيء كريه، بمعنى أن هناك أمراً بغيضاً على النفس لا ترضى عنه وتحاول إخفاءه فلا يظهر في التفكير ولا يبين في السلوك، فإذا نام الشخص وقلّت رقابته الواعية على تفكيره استطاعت هذه الأمور البغيضة أن تظهر في التفكير والوعي مرة أخرى، ولكن بشكل مقنّع تموّه به على رقابة الشخص على نفسه وتفكيره. والنقد الموجّه لنظرية فرويد هو الآتي: إذا كان الأمر أمر رقابة وتمويه عليها فلماذا نحلم يوماً بفعل جنسي محظور فعله ومحرم، كأن نحلم بأننا نضاجع أحد والدينا في ليلة من الليالي، ونحلم في ليلة أخرى بالفعل نفسه ولكنه مقنّع؟ ولماذا تقول جوكاستا لأوديب «إن الكثير من الشبان يحلمون بأنهم ينامون مع أمهاتهم»، أي يحلمون ذلك بصراحة مرة، ويحلمون مرة أخرى أحلاماً غير مباشرة فيها رموز ويمكن تأويلها أيضاً على المنوال نفسه؟ ثم لماذا يسهل على العامة أحياناً أن يفسروا الرمز بسهولة ويشق ذلك عليهم مرة أخرى؟ وكيف يتسنى تأويل الرمز بسهولة إذا كان المقصود أن يكون رمزاً ولا يكون من السهل تفسيره حتى يمكن أن تنطلي حيلته على رقابة الحالم على نفسه؟ وتعتمد نظرية فرويد على التشابه في اللغة العامية بين الفعل أو العضو الجنسي والشيء المرموز به، فمثلاً المني يقول عنه العامة صراحة اللبن، فلماذا يتخفّى المني في الحلم الجنسي فيرمز له باللبن، وذلك شيء معروف وعادي وليس فيه تخفٍّ وكأنه لا وجود للرمز؟ ثم هناك اعتراض آخر حول القول بأن الرمز جاء

ليخفي شيئاً، فلماذا هناك عشرات من الرموز للشيء الواحد؟ ما الداعي إلى ذلك؟ هل يخدم قضية التخفي أن يكون هناك كل هذا العدد من الرموز للشيء الواحد؟ أي تخف هذا؟ لقد أمكن إحصاء الرموز التي يمكن أن ترمز للقضيب في أدب الأحلام فبلغت ١٠٢ رمزاً، وللفرج فبلغت ٩٥، وللجماع فبلغت ٥٥، فهل من المعقول أن يكون القصد من الرمز إخفاء المرموز إليه وهناك هذا الثراء الذي ما بعده ثراء في التعبير عن معناه؟ أو أن المقصود بالرمز لا يمكن أن يكون التمويه على الحالم وتمرير شيء مكروه إليه وبغيض عنده ما كان يمر وهو في اليقظة؟ وإذن فما هو إن لم يكن هو التخفّي والتمويه؟ وهنا تقدم النظرية الوظيفية في تفسير الأحلام سبباً تقول إنه أكثر إقناعاً، وهو أن الرموز توجد في الأحلام حقاً لا لكي تخفي أموراً ولكن لتخدم وظيفة، وهي ليست وظيفة الإخفاء والتمويه، ولكنها وظيفة التعبير عن الشيء وليس إخفاء الشيء.

إن الحلم نوع من التفكير، وفي التفكير تكون الأفكار، وعندما نحلم فإن عملية الحلم هي عملية تفكير بالصور، والحلم يحيل الأفكار إلى صور، والصور الحلمية تجسّد أفكار الحالم، والتفكير في الأحلام هو تفكير بالصور، أو أن وسيلته هي الصور. والرمز في الحلم لا يشير إلى شيء في الواقع، وليس بديلاً عن الشيء في الواقع، ولكنه يشير إلى فكرة الحالم عن الشيء الذي في الواقع، فمثلاً البندقية، وهي شيء منظور ومحسوس، لا يمكن أن ترمز إلى القضيب وهو شيء منظور ومحسوس آخر، وإنما البندقية قد ترمز لفكرة أو تصوّر الحالم للقضيب إذا كانت فكرة الحالم عن القضيب أنه خطير خطورة البندقية، ويمكن في الوقت نفسه أيضاً أن تكون البندقية رمزاً لفكرة أو معنى في تصور الحالم ليس منها القضيب على الإطلاق، وإنه لمن الخطأ البين إذن أن نقول في كل مرة يحلم فيها الحالم بالبندقية أن البندقية هي عضو الذكورة عنده.

ولنفترض أن حالماً حلم عن بقرة، وأن مقتضى الحلم كان تفسير رمز البقرة بأنه أمه، فلماذا يحلم بها على أنها بقرة؟ والجواب طبقاً للنظرية الوظيفية في

التفسير أن الحالم لديه الانطباع أن أمه فيها الكثير من البقرة، فهي تهتم بغذائه وتمدّه به كالبقرة الحلوب. وليست هذه هي الصورة الوحيدة لأمه عنده، ولكنه في هذا الحلم لأمر ما يركز على هذه الصفة فيها دون غيرها. وكان الممكن أن يرى أمه في الحلم في أشكال أخرى خلاف أن تكون بقرة، كأن يراها في شكلها الإنساني العادي تخدمه وتحنو عليه وتفيض عليه من رعايتها، وذلك أكثر احتراماً لها وأليق بها بدلاً من أن يراها كحيوان، إلا أن اللغة في الأحلام بسيطة وعلى الفطرة، ولو طلبت من طفل أن يرسم مثل هذه الأم الحنون فلن يجد أبلغ من أن يصورها كبقرة، وستكون الصورة بليغة بلاغة العبارة التي قد نقول بها مجازاً إن أمي بقرة حلوب.

والشيء نفسه لو طلبناه من فنان مثل بيكاسو فلن يكون أبلغ من أن يصورها أيضاً كبقرة، إذ كيف يمكن تصوير صفة في إنسان إن لم تكن هناك استعارات وكنايات في التصوير كوجودها في اللغة؟ والعبارة البليغة في الأدب تقابلها صورة بليغة في التصوير، والحلم تصويري، وليس أبلغ من أن يأتي التعبير عن الصفة على الصورة التي تأتي بها في الحلم. واللغة التصويرية في الأحلام لغة اختزالية عقلية كاللغة التي نستخدمها في اليقظة، فنحن في اليقظة عندما نريد أن نصف شجاعة إنسان نقول له إنك أسد، فالأسد رمز للشجاعة، والثعلب رمز للخداع، والبومة للشر، والمسيحيون يرمزون للمسيحية بالصليب، والاتحاد السوفياتي كان يرمز للشيوعية بالمطرقة والمنجل. وكل هذه الرموز تصوّر المرموز تصويراً مختصراً ودقيقاً ومستوفياً لمعانيه بحيث يمكن أن تستحضر الصورة كل معانيها وتستوفيها.

ولا بد أن تكون فكرة الحالم عن الرمز متمشية مع فكرته عن المرموز إليه، فإذا كان الحالم سيحلم أن أمه كالبقرة فلا بد أن تكون صورة البقرة في ذهنه متمشية مع صورة أمه في ذهنه، وسيرى في البقرة وأمه تشابهاً من حيث أن كلاً منهما حلوب، وأما إذا كانت صورة البقرة في ذهنه صورة حيوان مفترس فلن يختار البقرة لتصوير أمه في الحلم.

وتفسر هذه النظرة للرمز السبب في

كثرة وجود رموز متعددة للشيء الواحد، ولا يعني ذلك أن الشيء الواحد يمكن تصويره بطرق مختلفة، وإنما يعني أن الشيء الواحد يمكن أن تكون له صور مختلفة في الذهن بحسب منظورنا لهذا الشيء، فقد نرى أن الجماع وسيلتنا للتكاثر والتوالد فتكون صورته عندنا هي صورة حرث الأرض وبذرها، وقد لا ترى إحدى الفتيات في الجماع إلا أنه وسيلة بربرية في الحب، فيها العنف والتعدّي على الأنثى، وعندئذ فقد تأتي صورة الجماع عندها في شكل إطلاق بندقية أو الطعن بالخنجر.

وقد تكون الصورة المتحصلة عن المرموز جامعة لعدد من الجوانب فيه، فمن الممكن أن يرمز القمر لصورة المرأة في أذهاننا، فأولاً ينظّم القمر الدورة الشهرية، ولقد كانت تسميتها بالدورة الشهرية لأنها تأتي كل شهر قمري، وكأنما للقمر تأثير في الحيض وبالتالي له تأثير في رغبات الأنثى الجنسية من حيث الفترات التي يشتد فيها إشباقها فسيولوجياً. وقد نقول عن المرأة الحامل إنها استدارت واكتمل حملها من حيث تكامل استدارة بطنها مع قرب الولادة بالنظر إلى أن القمر هو أيضاً يكبر وتتم استدارته بتمام وقته. والقمر أوهن من الشمس، والشمس قد تصور الذكورة من حيث قوتها وعنفها بينما قد يصور القمر الأنوثة من حيث ثباتها ورسوخها، بينما القمر قد تصوّر به عواطف الإناث من حيث سرعة تغييرها، وهو يبدأ وليداً ضعيفاً كالحب ويكبر إلى أن يصبح بدراً، وكل ذلك في شهر، وبعد الشهر يعود إلى الأفول، وما أسرع ما تتقلب المرأة في عواطفها وكأنها القمر، بل وما أكثر ما تتقلب المرأة في أحوالها فهي أولاً صبية، ثم شابة تحيض، ثم عروس تُفَض بكارتها، وحامل تتراوحها ظروف الحمل والولادة والإرضاع، وأمّ ترى وجوداً لها جديداً ووافداً في ابنها الصغير الذي تحمله بين ذراعيها أو يحبو إلى جوارها، وكأن للمرأة إيقاعاً منتظماً كالإيقاع الذي يستحدثه القمر مداً وجزراً في مياه البحار، فهي المحبة لأبويها والتي تنقل حبّها لزوجها، وهي المُطيعة والمستسلمة التي تستكين للحب ودغدغاته، وهي الحامل الوالهة بحملها،

والأم المُغرمة بأولادها. وكل هذه الأحوال والأفكار والصور للمرأة تُختَزل جميعها في صورة واحدة هي صورة القمر!

ويبدو أننا بما قدّمنا من أفكار حول الرمز قد زدنا الأمر صعوبة عمّا كان يراه فرويد فيه، ففرويد كان يرى أن الرمز يرمز للشيء مباشرة ولذلك كان يرى أن الرمز ثابت غالباً، فكل ما هو مشقوق مثلاً قد يصلح رمزاً للفرج، وأما في النظرية الوظيفية في تفسير الأحلام فالرمز صورة ذهنية عند الحالم هي تصوّره للمرموز، ولا تنفصل هذه الصورة عن الحالم وتعكس ديناميات شخصيته، ولذلك فحلّ شفرة الرمز مسألة صعبة تحتاج إلى الإحاطة بتصوّرات الحالم عن العَالم المحيط به، واستقراء النصّ الحلمي الذي ترد فيه الصورة المرموز بها عن الشيء. ولو كنا نحلم بالأشياء مباشرة لرأينا الأم في حلم الأم البقرة مثلاً وهي في شكلها الانساني تقوم بواجباتها الغذائية للأسرة في صبر وأناة ورضا دون أن نراها في صورة البقرة. وأما ونحن نراها كبقرة فلا بد أن نقوم بعملية ترجمة بحيث ندرك أن المقصود بالبقرة هي الأم في حالة من حالاتها وهي أنها الحلوب للأسرة، وعلينا أن تتحصل لنا المعرفة بتصورات الحالم عن البقر لكي يتحصل لنا العلم بتصوراته عن أمه.

والآن كيف يتسنى لنا أن نفسر الحلم؟ وما هي الطرق التي ينبغي أن نتبعها ليسهل علينا تفسيره؟

هناك عدّة طرق لذلك لعل أولاها أن نرى رأينا في الحلم فلعله يكون بسيطاً لا يستدعي إعمال فكر، وهناك أحلام من هذا النوع الذي لا يحتاج إلى تأويل، وليس لهذا النوع ظاهر وباطن، فإن كان الحلم لا يبدو أنه بسيط ومباشر وهو غالباً كذلك، فعلى المفسّر أن يحلل الحلم ويجزّئه ويرى ما فيه من أشخاص وأشياء كحلم البقرة، فأن يحلم الحالم ببقرة فهذا شيء ليس بالبسيط لأنه لا دخل للحالم بالبقرة حتى تتابعه في منامه ويحلم بها، وإذن يتبقى أن يحاول المفسر فك طلسم الرمز فيجد له المرموز، فإن توافق الحلم مع التفسير وصار له معنى فالتفسير غالباً صحيح. ولنضرب المثل بهذا الحلم وهو لامرأة:

– حلمت أني أركب حصاناً، وكان كل

شيء على ما يرام، وفجأة أفلت مني الزمام وانفك السرج، وكان الحصان ضخماً وقوياً. وقال الحصان إنه سيحاول أن يلقي بي، وأجبته اني لن أنزل مهما كان السبب، ورفس الحصان وجرى بين الأشجار كأقصى ما يمكنه، وبقيت فوقه واستيقظت.

ولعل أول ما يُبده المفسر لهذا الحلم الرمز فيه حيث الحصان يتكلم، وما دام أنه يتكلم فالحصان رمز لإنسان، ولأننا نشير إلى الحصان بقولنا «هو» فلا بد أن هذا الإنسان ذكر، ولأن الحصان ضخم وقوي فلا بد أن هذا الإنسان الذكر بالغ، وإذن فالحلم يحكي عن علاقة الحالمة برجل. والحلم يقول إنها كانت في علاقتها به على خير حال، إلا أن الأمور ساءت بينهما، فاللجام انفلت والسرج انفك، إلا أنها ظلّت متشبثة بالحصان أو بالرجل برغم أنه يحاول أن يلقيها عنه ويقطع صلته بها، وهي تجرب شطارتها بشطارته، وكلاهما يحاول، وتنتصر المرأة.

فمن يكون هذا الرجل؟ لا يقول لنا الحلم بالضبط، فهذه العلاقة بين الحصان والراكبة لا يمكن أن يكون إلا علاقة أب بابنته، أو علاقة شقيق أكبر بشقيقته، أو علاقة زوج بزوجته، أو علاقة غرامية لرجل بامرأة. ولا يمكن تحديد هذه العلاقة بالضبط من هذا الحلم وحده، ولا بد أن نستمع لهذه المرأة في أحلام أخرى، أو أن نسألها هي نفسها عن تفسيرها لهذا الحصان - من يكون؟ أو أن نستمع إلى مستدعياتها ونطلب إليها أن تقول لنا ما يخطر على بالها من خواطر حول الخيل عموماً - تصوراتها وربما ذكرياتها، وهكذا.

وهذه الطرق السابقة سنتناولها الآن واحدةً واحدة. وإليك هذا الحلم لامرأة تحتفل بالعيد الأول لزواجها، بأن تستعيد وزوجها ليلة العرس ويمثلانها، وتبحث عن فستان الزفاف دون جدوى:

- وأخيراً وجدتُه إلا أنه كان متسخاً وممزقاً، ولكني أخذته وأسرعت إلى زوجي فسألني عن سبب استحضاري للثوب، وحرت جواباً وشعرت أني أتصرف بغباء، وزاد إحساسي بأني وحيدة.

فلو فرضنا أن الفستان يرمز لتصوّر الحالمة لزواجها فما هي الشواهد التي

تجعلنا نقول بهذا التفسير؟ نعرف ذلك من جملة أحلامها الأخرى المترافقة لهذا الحلم إما في الموضوعات أو الجو العام أو الزمن. ولقد حلمت هذه السيدة أيضاً بزميلة لها قد تركت بيت الزوجية وطلبت الطلاق، وهذا دليل على أن فكرة الطلاق عندها هي نفسها كذلك. وفي حلم آخر رأت نفسها وقد ضلّت د' يقها إلى بيت الزوجية وتاهت. وهذا الحلم يبين أنها لا تريد أن تعود إلى بيت الزوجية وتتمنى لو تتركه لغير عودة. وحلمت أيضاً أن خاتم الزواج ضاع منها ولم تجده، وذلك قد يكون رغبة منها أن تنهي هذا الزواج الذي يرمز إليه الخاتم. وهذه الأحلام المترافقة في الموضوع والزمن تقوّي من احتمال صحة افتراضنا أن هذه المرأة تعاني من زواجها وتريد الطلاق، وأن فستان الزفاف الممزق والمتّسخ رمز لحياتها الزوجية المهترئة والفاسدة. ويتبين منها أن الأفضل دائماً النظر في جملة أحلام وليس حلماً واحداً لفك طلاسم الرموز لدى الحالم، ولقد فعل فرويد ذلك كما في حلم القبعة عنده ضمن باب الرمزية في الأحلام، فهو يقول إنه استطاع أن يفسّر هذا الحلم بناء على أحلام أخرى لها طبيعة مادة هذا الحلم للحالم نفسه.

وأيضاً فمن الممكن أن نسأل الحالم عما يعنيه عنده هذا الرمز أو ذاك. وغالباً ما يعطينا الحالم تفسيراً يكاد يقرب من الصحة، ولقد فعلت المرأة السابقة ذلك، فإذا وجدنا أن تفسيرها يعطينا تأويلاً معقولاً للحلم فقد نأخذ به، وخاصة إذا توافق مع الاتجاه الذي نراه للحلم. والطريقة الأخيرة هي أن نسأل هذه السيدة أن تذكر لنا أية مستدعيات يثيرها عندها الفستان أو الحلم عموماً، وذلك منهج التداعي الحر المشهور عند فرويد الذي يتوخّى أن يميط اللثام عن المخبوء من الأمور والحوادث والعلاقات، وييسر بلوغ اللاشعور وأعماق المكبوت.

وفي التحليل النفسي بمقتضى منهج التداعي الحر يتناول المحلّل كل كلمة، وأحياناً كل عبارة في الحلم، بالمناقشة مع الحالم، ثم يركّب كل المعاني على بعضها لتصنع معنى كلياً للحلم. وهذا الحلم التالي يمثل طريقة العمل بمنهج التداعي الحر في تفسير الأحلام:

- حلمت أني أعمل في محطة خدمة سيارات، وكان على صديقي أن يكشف على زيت السيارات، وكان يستخرج مسطرة قياس الزيت من عُلبتها وينظر إليها ثم يعيدها، ولم يعجبني ذلك، فتوجهت إليه وقلت له يا صديقي إنك تفعل الخطأ، فعندما تسحب المسطرة إمسح الزيت الذي عليها ثم أعدها إلى العلبة، وأخرجها من جديد لتقرأ علامة الزيت. وشكرني صديقي وانتهى الحلم.

وعندما سألنا الحلم عما يظنّه بمسألة الكشف على الزيت قال إن ذلك يذكّره بالمسائل الجنسية، وكأن إيلاج المسطرة وسحبها من عُلبة الكشف على الزيت هي العملية الجنسية، وصديقي هذا يهوى جماع البغايا وذلك خطأ حاولت كثيراً أن أثنيه عنه. والطريقة التي يكشف بها صديقي على الزيت طريقة ميكانيكية بحتة كالجنس الذي يفعله، بلا حرفية ولا علم.

وحلم آخر لفتى كان فيه يعزف لبعض الوقت ثم انتهى وقام إلى المايسترو وقبّل يده، فلما سألناه عما يعنيه له تقبيل يد المايسترو قال إنه يخيل له إن هذا المايسترو هو أبوه، وكان منضبطاً شديد الانضباط ولكنه لم يكن متعسفاً معه، بل يحاول أن ينظم له حياته ويرشده ويعلمه كما يفعل المايسترو. وحياته الآن ناجحة نجاحه في العزف في الحلم، ولأنه يرى الآن ثمرة انضباط والده وتعليمه له فهو يشكره، ويتمثل هذا الشكر له في تقبيله ليده، وهكذا تكثفت تصورات الحالم لأبيه كمرشد وقدوة ومعلّم في صورة واحدة أو رمز واحد هو المايسترو.

والتداعي الحر يمكن أن يأتيه الحالم وحده إذا رغب بصدق في ذلك ولم يحاول أن يكبح جماح اعترافاته، أو يحاول أن يحذف منها، أو يزيّف فيها، أو يقمع ما يظهر منها على تيار الشعور. وأفضل ما يكون ذلك والشخص مسترخ وقد اعتزل كل ما يمكن أن يصرفه عما هو فيه، ويستحسن أن يستلقي على سرير أو كنبة في حجرة هادئة. وعليه أن يستحضر صور الحلم في ذهنه كلها مرة واحدة، ثم يبدأ يسرد مستدعياته عن كل صورة وكل جزئية في ترتيب، ويستوفيها بأن يذكر كل ما عنده عنها وحولها، ثم ينتقل إلى الأخرى، وبهذه الطريقة فقد

يحصل فعلاً على تفسير للحلم، وقد يفضي الحلم له بما فيه من أسرار. ولا ينبغي أن ننسى أن: هناك أحلاماً لا تستدعي منهج التداعي الحر لبساطتها وتفسيرها لنفسها كهذا الحلم لزوجة:

- حلمت أني في بيتي وكان زوجي يتحدث مع أمّه، وكلّما اقتربت منهما سكتا، فإذا ابتعدتُ عادا إلى الحديث وعيونهما عليّ. وزوجي وحماتي اعتادا أن لا يقولا لي أحسنت إذا أحسنت، فإذا أخطأت وجّها لي اللوم الشديد. وشعرت بأني وحيدة وأنه ليس لي صديق، وأنه لا أحد يفهمني، وأنه لا لزوم لأذكر ذلك لأحد حتى لزوجي.

ألا يقول لنا هذا الحلم كل شيء عن الزوجة وحياتها مع زوجها وحماتها أو بالأحرى تصورها لعلاقتها بهما؟ فإذا طلبنا إليها أن تذكر ما عندها عن زوجها وحماتها ولا تتحرج من الإفصاح عن شيء، وأن تقول كل ما يعنّ لها من خواطر، فبالقطع ستعطينا صورة مكملة توضيحية للحلم الذي كثّف كل ذلك في هذه الصورة الحلمية المفردة شديدة التركيز، وبالرغم من ذلك فلن نفهم من المستدعيات أكثر مما أفهمنا إياه الحلم. وقد نصل حقيقة من المستدعيات إلى ذكريات أبعد للحالمة، وربما كان ما تراه انعكاساً لمعاملات سابقة مع أمها أو مع أبويها معاً، أو ربما كان لاتجاهات الحالمة دخل في تصوراتها هذه عن معاملة زوجها وأمه، وعلى كل فالطريقة ستحدّدها الغاية من اللقاء بين الحالم وبين المحلّل وبين المفسّر، ومجرد التفسير قد يكفي فيه الطريقة الأولى البسيطة مع الحلم البسيط، ولكن مع التحليل بقصد العلاج فلا بد من استخدام طريقة التداعي الحر وهو ما سنعود إليه من بعد.

والآن وقد أتينا على المدرستين بخصوص الرموز الحلمية، فماذا بشأن المدرسة القديمة التي ترى أن جانباً من الأحلام منبئ؟ ونحن من القائلين إن الإنباء في الأحلام هو محصلة ما نعرف، وهو النتيجة لمقدمات موجودة في واقعنا، فإذا حلمنا مثلاً بأن مريضاً قد سافر فطبقاً لابن سيرين وغيره فإن هذا المريض سيموت لأن الرحيل بالنسبة للمريض هو موته، فهل هناك إنباء بالمستقبل إذا كان هذا المريض مريضاً

مرض الموت ثم مات فعلاً؟ وقد يحتج المحتج بحلم فرعون بالسبع بقرات العجاف التي تأكل السبع بقرات السمان، وتفسير يوسف للحلم، والاحتياطات الاقتصادية التي اتخذها بناءً على التفسير، وابن سيرين نفسه يقول إن الملك إذا حلم بالبقر فتفسير ذلك يختلف عما إذا كان الحالم فلاحاً مثلاً، وحلم الملك بالبقر يعني أنه مهتم بمسائل إقتصادية لبلده، وإنه لأمر لا إعمال ذهن كثير فيه أن نقول لهذا الملك إنه سيعاني من ضائقة بعد يسر، والملك وقت الحلم يعيش هذا اليسر، والعسر سيتلوه، ومن ثم يتوجب على الملوك في هذه الحالة ما لا يتوجب على غيرهم، وهو أن يعملوا لتلافي هذه الضائقة القادمة. والحلم بملابساته يعرب عن قلق ملك بأمور هي من صميم عمله اليومي. ولا بد أنه كانت هناك إرهاصات بالعَسر الوافد استشعرها الملك ولاحقته في منامه فكان هذا الحلم وغيره، وذلك ما نقول به أن الأحلام صدى للواقع الذي نعيشه، فإذا قمنا بتفسيرها وبناءً على التفسير إتخذنا سلوكاً معيناً إزاء بعض الناس من حولنا، بمعنى أن الحلم يتسبّب في تعديل سلوكنا، فهذا من شأننا وليس لأن الأحلام منبئة.

والناس قد تعتقد أن الأحلام قد تبشّر وقد تنذر ولذلك يهمهم كثيراً أن يقرأوا كُتب التفسير ويستشيرونها، إلا أن ذلك منهم ليس سلوكاً علمياً وليس له ما يبرره. ومن كُتب التفسير ما لا يقدم بشارات أو انذارات كتفسير للأحلام ولكنه أيضاً غير علمي، لأنه يذهب إلى عموميات في تفسير الرمز، ويجعل مدلول الرموز ثابتاً في كل الأحوال. ولغة الأحلام لغة خاصة جداً، برغم أنها أيضاً لغة عالمية، فإذا قيل مثلاً إن الرحيل قد يعني الموت بالنسبة للمريض فذلك لأن هذا القول شائع بين الناس، وهو من الأدب الشعبي الذي يتثقف به الجميع وينشأون عليه، والأحلام تترجم عن الشخص وتصدر عن ثقافته، وقد يكون للرحيل معنىً خاص عند الحالم بالإضافة إلى المعنى الشعبي، ويصح أن يكون الرمز في الحلم هو بهذا المعنى الخاص وليس بالمعنى الشعبي. وعلينا كمفسرين أن لا نعول على معرفتنا بالمعنى الشعبي كثيراً، وعلينا أن

نستشير الحالم نفسه في كل الأحوال، ولقد ثبت أنه رغم أننا جميعاً لنا إطار مرجعي ثقافي واحد، أو حتى إطار مرجعي حضاري إنساني، إلا أن لكل فرد تصوراته ومعانيه التي لا يمكن أن يجتمع عليها اثنان من الأفراد ولو كانا من دائرة الثقافة الواحدة. والرموز في الأحلام شخصية ولا يمكن أن نجعل لها معان عامة نسجلها في قاموس نرجع إليه، غير أنه يفيدنا أن نحيط علماً بما قد يتشارك فيه الناس من تصورات ومعان، ولا تعارض بين التصورات والمعاني العامة والخاصة، وحتى التصورات والمعاني العامة لا تظل لمدة طويلة عامة، وهناك دائماً العام والخاص في كل شيء، وينبغي الحذر من استخدام هذا المنهج الذي نطلق عليه إسم المنهج الميكانيكي في تفسير الأحلام، والذي مؤداه الرجوع الى كتب التفسير لتأويلها، سواء كانت كتب قديمة صفراء أو كتب حديثة مصقولة الورق والأغلفة، وليكن جديدنا دائماً أن نترك الحلم نفسه أو جُملة الأحلام تُفضي بأسرارها ومكنوناتها وتفسّر رموزها دون أن نفرض معنى معيناً عليها نعثر عليه في كتاب وهو ليس منها في قليل أو كثير.

والآن وبعد كل ما أسلفنا لنا أن نتساءل من جديد – لماذا توجد رموز في الأحلام؟ والجواب: إن الرموز لازمة للأحلام لزوم الاستعارة والكناية والبيان والبديع للشعر، ولزوم اللغة الدارجة في الحديث اليوم، والإنسان في كل الأحوال يريد أن يعبر عن أفكاره بأكبر قدر من الوضع بأي لغة، ينقل بها معانيه بدقة وإيجاز. وهو يُلبس تصوراته ما يناسبها من ثياب، وربما كان ما يهدف إليه هو أن يجمّل أفكاره ويزيّنها، ولعله لهذا السبب كانت الرموز لازمة في لغة النوم لزومها في لغة اليقظة (Hall, C.: The Meaning of Dreams).

الباب التاسع

«نظريةٌ في الأحلام أنها صور عقلية»

تتوالى المشاهد في الحلم كأننا نشهد دراماً، والحلم قد يتكون من مشهد واحد أو عدّة مشاهد، وقد يقوم الحلم على شخصية واحدة أو عدّة أشخاص بالإضافة إلى الحالم، وقد يتضمن الحلم حدثاً واحداً أو سلسلة من الأحداث. والحلم يشبه الهلوسة، فنحن في الهلاوس نتوهم أننا نرى أو نسمع أشياء، وكذلك في الحلم نتوهم أشياء كما لو كنا نحسّها بحواسنا وتؤثّر فينا كإحساسنا بالعالم الخارجي. والحلم إسقاط كامل، أي أن ما يكون بأذهاننا يخرج أو يسقط خارجاً فنتوهَم أنه حقيقي، وتتجسد أفكارنا في شكل الصور الحلمية، فكأن ما كان مجرد أفكار يصبح محسوساً في الأحلام، مثلما أن اللغة تجسّد الأفكار في اليقظة فكذلك الصور تجسّدها في الأحلام، وتجسيد الأفكار هو الوسيلة لنقلها أو توصيلها، غير أن توصيل الأفكار في اليقظة يصل للناس وأحياناً يكونون بالملايين، وأما في الحلم فالتوصيل يكون للشخص نفسه، ولذلك كانت الأحلام مَعْرَضاً شخصياً جداً لأفكار الحالم طالما أنه الوحيد الذي يتاح له أن يستعرضها من خلالها.

والتفكير عملية تصوّر، وغاية التفكير أن نتحصل على تصوّر ما، والتصوّر فكرة، والفكرة معرفة، وفي الفكرة نصوغ الخبرة صياغة عقلية نفهمهما بها ونعرفها من خلالها. ومع أن الفكرة تقوم أساساً على مدركات حسيّة مصدرها العالم الخارجي أو الجسم، إلا أن الفكرة يمكن أن تكون بالعقل دون أن تكون لها صلة بالمدركات الحسية ودون أن يكون للجسم دخل في تأسيسها، ومعنى ذلك أن الصورة الذهنية بخلاف الصورة الحسية، والإدراك الذهني شيء والإدراك الحسّي شيء آخر، فإذا كانت الصورة المُدرَكة أساسها جسم المُدرِك أو العالم الخارجي قيل إنها صورة حسيّة وإن إدراكها كان حسياً، وإذا كانت الصورة المطروحة في الذهن قد استقت وجودها من الذهن وحده وقامت به دون اتصال

بالأحاسيس فهي صورة ذهنية وإدراكها كان ذهنياً، فمثلاً قد يتحصل لنا الإدراك الحسي لمنظر طبيعي بأن نراه بأعيننا وينطبع به حسّ البصر، وقد نبصر منظراً طبيعياً ونكون في مكان أبعد ما يكون عن المناظر الطبيعية ثم يسألنا سائل عن المناظر الطبيعية فتتحصل في أذهاننا صورة لما هي عليه ونبدأ في وصفها وصفاً ليس مصدره رؤية واقعية ولكنها رؤية ذهنية خالصة، وهذا هو الفرق بين الإدراك الحسي Perception والإدراك الذهني Conception. وربما صارت لنا الكثير من المعرفة بأمور الإدراك الحسي، ولكن الإدراك الذهني ما يزال يحتاج إلى البحث المستفيض، ونحن نعرفه من خلال معرفتنا للصور الذهنية التي يستحدثها عندما تصبح صوراً حسية سواء في اليقظة فيما نتحدث من لغة، أو في النوم في شكل الأحلام. والفنان يصنع تصوراته الذهنية لوحات نبصرها إبصاراً، والشاعر يطرحها صوراً شعرية يقرأها الناس وتصل إلى وجدانهم، والكاتب يصوغها عبارات يخاطب بها العقل، وعلماء الرياضة يكتبونها معادلات رياضية وأرقاماً، والموسيقيون يستخدمون للتعبير عنها الأنغام والأصوات، والراقصون ينظمونها إيقاعات وحركات، والنحّاتون يشكّلونها أبعاداً ثلاثية، والمهندسون يشيدونها بنايات وعمارات. وإذن فجوهر كل إبداع هو توصيل هذه الأفكار، أي تحويلها من مدركات ذهنية إلى مدركات حسية بحسب نوع مجال المبدع.

وفي عالم الأحلام يحدث الشيء نفسه، ففي الحلم يكون استيلاد الأفكار أو التصورات، والحلم إذن عملية تصوّر تنطرح فيه الأفكار في صور تجسّدها، وما لا يُرى وهو الفكرة يصبح مرئياً في الحلم، والصور الحلمية هي صور ذهنية. والحلم عمل فني غير أنه لا يتطلب من الحالم مهارة خاصة، فالجميع يمكن أن يحلموا وأن تكون لهم إبداعاتهم الحلمية. فإذا كان الحلم عبارة عن عملية تحويل الصور الذهنية إلى صورة محسوسة، فإن عملية تفسير الأحلام هي عملية عكسية، بمعنى أنها تعيد الصورة الحسية إلى أصلها التصوّري، أي تعيدها كما كانت

فكرة، فيكون بوسعنا عندئذ فهمها والتعامل معها، ونحن نقول عندئذ إننا نُأوّل أو نترجم الصورة الحسية لكي نحصل على الصورة الأصل، ويتم ذلك بشواهد من الحلم نفسه ومن تفسيرات الحالم المختلفة، وبمضاهاة أحلام الحالم ببعضها البعض، أو بتحليلها من واقع ما نعرفه عن الحالم. وعملية تفسير الأحلام هي عملية اكتشاف تصورات الحالم أو أفكاره، أو عملية كشف عن أنساقه التصورية الذهنية، ويمكن أن نستخلصها من عدة مصادر، منها:

١ - سلوك وحالات الحالم في الحلم أي ما يقوم به من أدوار.

٢ - ما يكون في الحلم من شخصيات وأنماط هذه الشخصيات وما يصدر منها، وتفاعلاتها مع الحالم والأدوار المنوطة بها.

٣ - التفاعلات المختلفة بين هذه الشخصيات بعضها ببعض.

٤ - المشهد الحلمي.

٥ - التنقلات بين أجزاء الحلم.

٦ - نتيجة الحلم أو الخاتمة فيه.

وينبغي أن ننبّه إلى أن الغاية من تفسير كل حلم ليست هي معرفة الحلم ولكنها معرفة الحالم.

فما هو نوع هذه التصورات الحلمية التي نتحدث عنها؟

لربما تغرينا الأحوال الحلمية إلى أن نقول إن الحلم يمكن أن يضم كل أنواع التصورات الذهنية، إلا أن ذلك ليس صحيحاً تماماً، فلم يحدث أن حلم أحد بقضايا سياسية أو اقتصادية لا صلة لها به وليس لها مردود عليه، فما ليس يعنيني لا أحلم به، وحتى حلم فرعون يوسف وقد قلنا إنه حلم اقتصادي، فإنه ما كان يمكن أن يحلم به يوسف للملك، لأن يوسف ليس وظيفته الحُلم، وإنما الملك هو الذي كان لا بد أن يحلم به، لأنه مهتم بالظروف الاقتصادية والسياسية، فهو يحلم بها، وهي تعنيه، وهي من الأمور الشخصية من هذه الزاوية. وأما أن أحلم بفضيحة ريجان، أو ووترجيت، أو الحرب العراقية الإيرانية، أو مشكلة الشرق الأوسط، وأنا مثلاً موظف في وزارة الصحة وليست لي مصلحة أو علاقة شخصية بأي منها فهذا لا يكون. والأحلام تستبعد كل هذه القضايا أو الاهتمامات من مجالها. وحتى

ما يظهر في الأحلام من الشخصيات المهمة أو المرموقة أو المعروفة هو أمر نادر الحدوث. وقد يحلم شخص بأنه سلّم على الرسول (ﷺ)، أو أن الله كلّمه، أو أنه التقى بجمال عبد الناصر، ولكن ذلك لا يحدث طوال عمره إلا مرة واحدة في الأغلب. ولا تتناول الأحلام مسائل من الفلسفة أو الرياضيات أو الكيمياء أو التجارة والمال. وكما قلنا ما لم تكن هذه المسائل لها صلة مباشرة بالشخص فلن يحلم بها، وحتى إذا حلم بها فحلمه لا يتعدى زاوية الاتصال بها وليس المسألة أو المشكلة نفسها. ولم يحدث أن استيقظ شخص فجأة ليقول: «وجدتُها وجدتُها» مثلما فعل نيوتن عندما سقطت التفاحة من الشجرة فاستوعب من سقوطها الدرس الرياضي في الجاذبية أقول: لم يحدث أن استوعبنا من الحلم درساً أو خرجنا بحلٍّ لمشكلة.

وإذن فما الذي نحلم به؟

الجواب: إننا نحلم بكل شيء شخصي له علاقة مباشرة بنا ونتصل به وجدانياً لأنه لصيق بنا. ونحلم بما يتصل بصراعاتنا اليومية الظاهرة أو الخفية، التي نعيها أو لا نعيها وتعمل عملها فينا لا شعورياً. وذلك هو ما يأتينا في الأحلام لأنه يزعجنا أو يقلقنا أو يهمنا، أي نصاب منه بالهم.

ونحن أولاً نرى في أحلامنا صوراً عن أنفسنا، فالحلم مرآة تعكس الصور الذهنية للحالم عن نفسه، أي تعكس أفكاره عن نفسه، وهو يراها فيما يقوم به من أدوار في الأحلام المختلفة، ولكل حالم مخزون أدوار Repertoire كمخزون أدوار الممثل المسرحي، ولربما يكون هذا المخزون بسيطاً جداً وليس فيه إلا عدد محدود من الأدوار، وربما يكون مخزوناً كبيراً يضم عدداً ضخماً منها.

وقد يحلم الحالم في المجموعة أو السلسلة الواحدة من الأحلام المتشابهة أو المترابطة موضوعياً أو زمانياً أنه يقوم بدور القائد، أو الرجل الإداري الحصيف، أو الرأسمالي الواسع الإمكانيات، أو السياسي المحنّك، وفي كل مرة ربما يحلم بأنه ينتهي بتأثير قوة أكبر منه وظروف تطيح به، وهنا سنجد أن هذا الحالم لديه فكرة راسخة عن نفسه بأنه عظيم، إلا أنه يشعر أن عظمته أو سلطته

أو قوته من أي نوع لن تستمر للأبد، وأن مآلها للزوال بتأثير قوى أو ظروف أكبر منه. وهذا حلم نمطي عن القوة التي تستحيل إلى ضعف:

حلمت أني أجلس وأمامي كل ثروتي، والناس تدخل فرادى تحاول أن تسطو عليها، وأنا أذود عما أملك وأطاردهم الواحد بعد الآخر، إلا أنهم دخلوا جميعاً مرة واحدة، وأعملوا النهب في الحجرة كلها وأنا كالعاجز لا أستطيع لهم دفعاً وهم بهذه الكثرة وقد تكالبوا جميعاً عليّ، فأخذت أبكي وارتميت على الأرض لا حول لي ولا قوّة.

وهذا الحالم إنسان يتراوحه الضعف والقوة، وتصوراته عن نفسه متناقضة، وتغلب فيها تصورات الضعف على تصورات القوة.

ولربما لا يوجد مجال يمكن أن يقدّم لنا تصور الشخص عن نفسه بمثل هذا الوضوح كالأحلام، ولربما كان أوعى قول في الأحلام هو هذا القول الحكيم لإمرسون: إن الحكيم هو من يستقرئ أحلامه ليعرف نفسه.

ونحن ثانياً نرى في أحلامنا صوراً للآخرين، وهي تكشف لنا ما نفكّر فيه عن أمهاتنا وآبائنا، واخواتنا وأطفالنا، ومختلف أنواع الناس من حولنا. وهذه التصورات الحلمية تكون عنهم في شكل أدوار تناط بهم في الأحلام، فإذا كان الحالم يرى في الواقع أن أباه إنسان متزمت، صعب، شديد المراس، آمر، فإنه سيراه في أحلامه يمثل أدواراً تتفق مع ما يراه فيه، وإذا كان يرى في الواقع أن أمه إنسانة صبورة تتحمل الكثير من أجل أولادها فإنه سيراها في الحلم أيضاً في أدوار تثبت هذه النظرة أو الفكرة التي لديه عن أمه. وكثيراً ما يشكو الشباب من أحلام تأتيهم وفيها الآخرون يعتدون عليهم وينالهم منهم الأذى، وذلك تصوير لواقع الحال حيث تكثر المشاجرات والمساجلات بين الشبان في أعمارهم الباكرة. وتقل الأحلام التي يتودّدون فيها لبعضهم ويبدون لطفاً وأدباً، وذلك لأن المنافسة والمجاهدة هي الأكثر شيوعاً عند الشباب. وأيضاً يحلم النساء بالرجال في أدوار المعتدين والغاصبين، ولو أن هناك أحلاماً غير ذلك فيها تصورات أخرى عن الرجال

بخلاف أنهم على ما سبق. وعموماً فإن الحالم في الأغلب لا يحلم بالشخص الآخر في دور واحد، وقد يحلم به في أحلام متوالية في أدوار عدة أو تصورات مختلفة وإن كانت، لو ترجمناها إلى أصولها الفكرية، تستقي من مصدر واحد هو الفكرة التي لدينا عن هذا الشخص أو ذاك، والتي تظهر وقد تدثّرت بمختلف الثياب في مختلف الأدوار، فإذا نزعنا عنها ثياب الدور لظهرت الفكرة الوحيدة التي لدينا عن الشخص. وهذه التصورات تشكل معاً إذن نسقاً System واحداً لأنها في جوهرها واحدة وإن تعدّدت شكلاً، ومهمة تحليل الأحلام أن نكشف عن هذا الفحوى أو الفكرة الواحدة التي خلف النسق الواحد من التصورات المختلفة.

ونحن ثالثاً نرى في أحلامنا صوراً للعالَم، والعالَم الذي نقصد إليه هو البيئة الكلية للحالم، وهي كل ما ليس من نفسه. ونحن في الشعر مثلاً قد ننفخ في الأشياء من خيالنا حتى لتكون كأنها أشخاص تفكر وتشعر وتنفعل، فنقول مثلاً إن الطبيعة قاسية، أو كان البحر رحيماً، أو عطفت السماء على أحوالنا، أو دثّرنا الليل بردائه، أو تنفّس الصبح، وذلك كله بحسب المزاج النفسي للشاعر وما يكون لديه من تصورات عن الأشياء. وهو يطرح في تصوراته أفكاره عنها ويجسّدها، وذلك ما يحدث أيضاً في الأحلام، فالحالة المزاجية قد تتجسد في الحلم باللونين الأسود والأبيض، أو قد تصبغه بطيف من الألوان، والطبيعة قد تظهر في الحلم مؤاتية أو تكون ثائرة أو غاضبة إلخ.

ونحن نرى رابعاً في أحلامنا صوراً للمحظورات وللعقوبات وللدوافع، وتمتلئ الأحلام بالأحداث التي غايتها أن تشبع ما يكون لدينا من دوافع مختلفة، وخاصة ما كان يتعلق منها بالجنس والعدوان، والله سبحانه وتعالى قد جعل هذين الدافعين أقوى الدوافع فينا وربط بينهما برباط متين، فالجنس لازم لاستمرار الحياة، والله سبحانه وتعالى زيّن لنا الجنس وجعله من المحاور الكبرى التي ينبني عليها السلوك، وكذلك العدوان لأننا بالقدرة عليه ندفع عن أنفسنا، وما يبنيه الجنس يحميه العدوان، غير أن هذين الدافعين كانا أيضاً من أكثر الدوافع

إساءة للاستخدام، ولذلك كان التقنين الشديد من قبل المجتمعات لمنصرفاتهما، وأي انحراف في السلوك الجنسي غير مقبول اجتماعياً، والعدوان غير مباح بشكله الصريح إلا في الحروب. وتأتي الأحلام وفيها الكثير من الجنس، والكثير من وجوه العدوان. ولم يكن غريباً إذن أن يقول فرويد في باب الرموز في الأحلام «كلما زاد اشتغالنا بحل مشكلة الأحلام زاد استعدادنا للتسليم بأن غالبية أحلام الراشدين تعالج مادة جنسية وتعرب عن رغبات شهوية (Freud: The Interpretation of Dreams). وانتهى فرويد إلى أن الأحلام تحقق الرغبات التي لم تتحقق في اليقظة والتي تطلب الإشباع، ويتم هذا التحقّق أو الإشباع بطريقة غير مباشرة أو مباشرة. ويروي فرويد أمثلة لذلك فقد قال له صديق يوماً «سألتني زوجتي أن أخبرك أنها حلمت بالأمس أن الحيض قد جاءها»، ويعلّق فرويد أن هذه الزوجة الشابة إذ تحلم بأن الحيض قد جاءها معناه بالمقلوب أن الحيض قد انقطع عندها أي أنها قد حملت، وكأن الحلم كان طريقتها الماهرة لكي تنبئ عن حملها. وهناك هذا المثل أيضاً لفرويد فقد كتب إليه صديق أن زوجته قد حلمت بأنها تلحظ بقعاً من اللبن على صدارها، والحلم ينبئ بالحمل وكان هذا الحمل هو حملها الثاني، والأم تريد أن تقول في الحلم إنها تأمل أن يدر صدرها لبناً أكثر لوليدها الثاني، عما كان يدرّه لوليدها الأول. ولعله لهذا السبب ذهب فرويد إلى القول إن لب الأحلام هو أنها تحقّق الرغبات، وأن هدف تحليل الأحلام هو الكشف عن الرغبة أو الرغبات التي يحقّقها الحلم، غير أننا نزيد على ما قاله فرويد أن الحلم لا يقول لنا فقط عن أن هناك رغبة تريد أن تتحقق، ولكنه يكشف عن تصورات الحالم لدوافعه ورغباته، وطالما أن أغلب الأحلام تدور حول الجنس والعدوان فإنها تقريباً واحدة عند الجميع بهذا المعنى، إلا أن الأحلام تختلف من شخص لآخر باختلاف تصوراته لهذه الدوافع، وما يعنينا عند تحليل الحلم هو أن نكشف عن هذه التصورات فنتبين الدوافع إليها، ونحن جميعاً نحب ونشتهي جنسياً، ونحلم أحلاماً جنسية، ولكن اعتبارات الجنس

تختلف عند كل واحد منا، فلربما نعدّ الجنس نعمة من الله، وربما نعتبره نقمة، وربما نسلكه في عداد ما هو نجس، وربما الجنس عندنا شهوة حيوانية، وربما هو مسألة فسيولوجية محضة بهدف الإنسال والتكاثر، وقد يكون الجنس من أرق مجالات النشاط الإنساني، فيه الحنان واللطف والحب، وقد يلهمنا الجنس التضحية من أجل من نحب، وقد يدفعنا إلى أخس السلوكيات وتقوم بسببه الحروب، ولنذكر أن الكوميديا الإلهية ألهمها الحب، وأن حرب طروادة اشتعلت بسبب الحب. والكثير من الأحلام الجنسية التي تنتهي بالاحتلام الجنس فيها عملية بيولوجية محضة كالتبول، مثل هذا الحلم:

- حلمت أني نهضت من سريري وتوجهت إلى الحمام، وفتحت الحنفية فلم ينزل ماء، وحاولت مراراً بدون فائدة، فقررت أن أستدعي السبّاك، ثم فُتح الباب ودخل السبّاك وتأملته فوجدته لدهشتي شابة. واستغربت أن تعمل النساء في السباكة، وتهكمتُ على ذلك ولكنها لم تبال، وتوجهت إلى الحنفية وأخرجت أشياء من حقيبتها وجرّبتها في الحنفية، ثم فتحتها فنزل الماء، واحتلمت.

وتكشف الأحلام عن تصورات الحالم للعراقيل التي تقف دون تحقيق رغباته أو إشباع دوافعه. وهذه العراقيل كثيراً ما يكون مصدرها داخلياً، أي يكون السبب فيها ضميره، فيرى الحالم أن الحوائط تقوم بينه وبين ما يريد، وقد يجد الأبواب مغلقة، وقد يحاول أن يسير بسيارته ولكن الفرامل تمنعه، أو قد يمنعه ظهور شخصية تمثل السلطة كأن يكون الأب أو ناظر المدرسة أو مدير الشركة إلخ، فإذا أشبع حاجته في الحلم وتحققت به رغبته فإنه من المحتمل أن يحلم في الوقت نفسه بعقاب ينزل به نتيجة ذلك، ولربما يكون العقاب مباشراً كأن يضربه أحد الناس، أو تحل به كارثة فتنقلب به السيارة أو يصطدم بشيء. ونحتاج دائماً إلى أن يرى المفسر في أمر العقاب ووسيلته، والعقبات التي قد تحول بين الحالم وما يتمنى، ليحلل تصورات الحالم وينفذ إلى طبيعة الأنا الأعلى عنده. ولكل منا أنساقه الحلمية التي

تكون بها تصوراته لهذه الأمور، ومع أنها أنساق لا تتصل بالأنا وسيكولوجيته وإنما نستقي من الأنا الأعلى إلا أنها على أي الأحوال تشكل الأيديولوجية الأخلاقية للحالم.

وتقدم الأحلام خامساً تصوراتنا للمشاكل والصراعات، ولعل أهم ما يمكن أن تزودنا به الأحلام من معلومات هي تلك المتعلقة بما نعانيه من أزمات، والأزمات كالحب والعنف كلنا نخبرها، ولكن في الأحلام تبين الاختلافات بين الناس فيما يتصورونه لمشاكلهم. والحلم يكشف داخليات المشاكل دون مواربة، ويلقي الضوء على الجانب الشخصي جداً للمشاكل، وما يقدمه من تصورات هو طرح تجسيدي لها يختلف عما يمكن أن نقرأه عنها من تقارير في اليقظة، والصورة أبلغ في تعبيرها من الكتابة فإن الإطلاع على ما نتصوره داخلياً للمشكلة ضروري لفهم تصرفات الإنسان. ومن الممكن أن نرسم هيكلاً تخطيطياً لصراعاتنا بتحليل جملة أحلام أو مجموعة منها لنفس الحالم. ومعرفتنا لتصورات الشخص الحلمية تساعد الأخصائي النفسي على فهم الشخص ومن ثم التنبؤ بسلوكه في المستقبل، كما انها تساعد المحلل النفسي على السيطرة على سلوك الشخص المراد السيطرة على سلوكه وينبغي أن لا نفهم من اصطلاح التصورات الحلمية أنها الأفكار التي لدينا عن الواقع وأنها أفكار تتطابق لذلك مع الواقع، فالواقع شيء وما نتصوره عنه شيء آخر، فقد تكون صورة الأب مثلاً عند الابن صورة لإنسان متزمت وقاس وعنيف في حين أن الأب ليس كذلك في الواقع طبقاً لرواية آخرين منصفين ولا مصلحة لهم في التحيّز للأب أو ضده. وبناءً عليه لا ينبغي أن تلتبس علينا التصورات التي نتحصل عليها من الأحلام بالواقع الموضوعي فنتعامل مع الناس بحسب ما نراه لهم من تصورات في أحلامنا. وليست الأحلام إلا مصدراً للمعرفة يمدّنا بالمعلومات عن واقع ليس هو الواقع الموضوعي وإنما هو واقع ذاتي، والإحاطة بهذا الواقع الذاتي تفيدنا في معرفة سلوك الناس لأن هذا الواقع الذاتي يؤثر في السلوك ويصنعه،

فإذا كان الحالم يرى أن أباه مسيطر فسيكون رد فعل هذه الرؤية تعامله مع الأب باعتباره كذلك، وإذن فهذه الأفكار الخاصة التي تدور عنها الأحلام بمثابة معارف شخصية أو ذاتية للسلوك، وهي المقدمات التي يكون السلوك نتيجة لها. ونحب أن نؤكد هنا ما نقول به من تأثير للمعارف الذاتية على السلوك، ونحسب أن تجاهل ذلك من علماء النفس يضر بمسيرة علم النفس، ولربما يكون العامل الحاسم الدافع إلى السلوك هو هذه المعارف الشخصية وليس ما اصطلحنا على دراسته ووصفناه بأنه الدوافع الموضوعية من ملابسات الشخص أو بيئته. والناس قد يستجيبون استجابات مختلفة لأن ما لديهم من تصورات لنفس المثير ليس واحداً، وربما تتشابه تصوراتهم فيستجيبون للمؤثرات المختلفة بالطريقة نفسها. ونحن نعتقد أن لكل منا تصوراته الخاصة التي تتزامل كالأمشاج بحيث تتكون في مجموعات تتصل ببعضها البعض، فمثلاً لدينا تصوراتنا عن أفراد عائلتنا، ولربما تتصل هذه المجموعة المتشابكة مع مجموعة تصورات أخرى متشابكة تكون لنا عن نظام الحكم أو عن الدين أو عن النظام التعليمي. وتثبت الدراسات النفسية والاجتماعية على الأقليات أن أفكارهم عن الأسرة ترتبط بأفكارهم عن الحكومة والدين والاقتصاد.

ونرى أن من مهام علم النفس دراسة هذه الأنساق من الأفكار أو هذه الإيديولوجيات الخاصة ليكشف عن طريقة ترابطها وتطورها وتأثيرها في السلوك وتنظيمه والتحكم فيه، ولإماطة اللثام عن تغيرها إذا تغيرت وشروط هذا التغيير. ولكي يحقق علم النفس ذلك لا بد أن يؤلف الطرق التي يستطيع بها أن يكشف عن تصورات الناس. وعندنا طرق إستفتائية لقياس الاتجاهات والآراء بلغت شأواً عظيماً من الدقة والتطور ويمكن بها أن نتعرف على معتقدات الناس مهما كانت، ورغم القيمة الهائلة التي لهذه الطرق إلا أنها محدودة بسبب عوامل داخلية فيها، فلربما لا يجيب المقدم إليه الاستفتاء على أحد الأسئلة لأنه لا يريد أن يجيب، أو لأنه لا يعرف الجواب، أو ربما يجيب عليه إجابة لا تعبّر عن رأيه فعلاً

ويتعمد فيها أن لا يصدق، أو ربما هو يتعمد الكذب. وأيضاً فإن صياغة الاستفتاء مهمة، وأقصى ما نحصل عليه من معلومات هي معلومات عن التصورات الواعية للشخص التي تقبل التعبير عنها بالكلام. فإذا كانت هناك تصورات لاشعورية أو أنها قبل شعورية فإنه يتوجب اصطناع طرق تفيد في هذا المجال، ومن ذلك الطرق الإسقاطية وخاصة ذلك النوع الذي يطلب من المفحوص أن يعطينا قصة عن الصورة، إلا أن هذا النوع من اختبارات القصة الصورة لم يستخدم في هذا المجال للكشف عن التصورات الشخصية، وحتى إذا استعمل لهذا الغرض فإن مجموع الصور التي يمكن تقديمها للمفحوص مهما كان هذا المجموع يستحيل أن يستوفي كل تصورات الشخص. وأوجه القصور هذه في أية من الوسائل السابقة يجعل الأحلام هي الوسيلة الوحيدة المثلى في هذا المجال، فالحالم يصنع صوره الحلمية لتصوراته الذهنية، وهو دائماً يعلي التصورات الأهم ويقدمها على غيرها بعكس أي وسيلة اختبار أخرى من الوسائل الموضوعية، علاوة على أن الأحلام تكشف عن اللاشعور وتدفع ما فيه من أفكار أو رغبات أو صراعات إلى السطح في شكل الصور الحلمية. وهذه التصورات المختزنة في اللاشعور هي تصورات لأشياء جرت للحالم في الماضي البعيد - في الطفولة - ومن الصعب أن تطفو إلى سطح الشعور إلا في الأحلام. ودفعها إلى السطح يأتي في الأحلام عفوياً. وإذن فالأحلام هي أنسب وأفضل ما يمكن أن تكون به دراسة انساق الأفكار أو التصورات التي لكل شخص، وهذه الدراسة أو المعرفة تلزم للإحاطة بسلوك الناس وفهم الدوافع إليه. فكيف يكون ذلك؟ سنحاول في الحلم التالي أن نستخدم المنهج السابق لتحليله، وصاحب هذا الحلم من الشباب:

- حلمت أني في المدرسة أقف قبالة السبورة وأحاول أن أحل مسألة رياضة دون جدوى، وكدت أضع الطباشير يائساً، وإذا بفتاة تتقدم نحوي وتأخذ بيدي وتدور بي، وكانت هناك موسيقى

رقيقة إلا أنها أحياناً تسرع وأحياناً تبطئ فتكون نشازاً، إلا أني كنت منسجماً تماماً مع الفتاة، وكانت رائعة. وعندما توقفت الموسيقى وجدت أني وهي في الحمام نأخذ حماماً بملابسنا، وحاولت أن أقنعها أن تخلع ملابسها وغمزت لها بعيني، ولم أكن من قبل قد ارتكبت أي فعل من أفعال الزنا، وقلت لها ذلك وضحكنا وكنا نتراشق برذاذ الماء. ثم رأيت نفسي خارج المدرسة، والدنيا ليل والنوافذ من حولي مضاءة، وهناك حفلة صاخبة قائمة على قدم وساق. وأحسست بالوحدة، وأردت أن أدخل المدرسة ولكن شيئاً كان يشدني بعيداً، ثم سمعت الموذن يوذن للصلاة.

في هذا الحلم نرى الحالم في البداية يحاول أن يحل مسألة، وصورته عن نفسه أنه طالب مُجِدّ ولكن المواد التي يدرسها صعبة عليه. وتأتي الفتاة وتمسك بيده وتدور به، والفتاة هي التي تفعل ذلك، والمبادأة بيدها فهي الغاوية وهو الضحية، وهي التي تصرفه عن دراسته فيترك النشاط الفكري الذي كان يمارسه والذي لم يكن مؤهلاً له ذاتياً إلى نشاط آخر فيه الفتاة والموسيقى والدنيا من حوله غارقة في الملذات والحفلات الصاخبة، ويستفيق من الفرجة على صوت المؤذن يدعوه للفضيلة والواجب، وكأن المؤذن هو تصوره للأخلاق، وهو تصور ديني كما نرى.

ويكشف الحلم عن نسقين من الأفكار يتعارضان، أحدهما النسق الذي يشتمل على تصور الحالم لنفسه كإنسان يتعلم ويجهد أن يعرف، والآخر النسق الذي فيه تصوره لنفسه شخصياً يطلب الملذات. والتصوران منفصلان كلاهما يلغي الآخر، فهو لا يستطيع أن يعيش كالناس غارقاً في الملذات، فإذا حاول أن يرتكب الخطأ فالواجب والأخلاق والدين يدعونه دونه، وكأن الشاب لديه تصور عن نفسه أنه غير كفوء للمذاكرة، وأيضاً لأن يعيش حياة شهوانية. ونرى من الحلم أن الجنس في ذاته لا يعني شيئاً بالنسبة إليه، ولكن تصوره للجنس هو الذي يجعل إتيانه له محرماً.

وتُكمل أحلام أخرى الصورة العامة للشاب، ففي حلم ثانٍ يمارس الجماع فعلاً ولكن ذلك لأن الفتاة جهدت أن

توقعه في الخطأ، ويعني ذلك أن هذا الفتى يمكن أن يتنازل عن مبادئه إذا وقع تحت الضغوط. وهو يبدي الندم على فعله ويأسف لأنه خضع لامرأة لعوب، وكأنه يريد أن يقول إنه كان الأولى به أن تكون علاقته بفتاة شريفة، فكأن النساء عنده صنفان: فهن إما المرأة اللعوب أو الفتاة الشريفة. وهو في حلم ثالث يمزج العمل بالجنس وتلتبس تصوراته الخاصة الأخلاقية باللاأخلاقية:

- حلمت أني أذاكر مع زميلة في بيتها وكنا نجلس على سريرها، فكلما ثارت مشكلة علمية تحول نقاشنا لها إلى ملاعبة، ومع كل سؤال علمي تكون ملاطفة جديدة، غير أني لم أزد إطلاقاً على التقبيل.

الباب العاشر
«أحلام العنف»

لقد كان حديثنا حتى الآن عن الأحلام الجنسية، والكثير من أحلامنا جنسي الطابع فعلاً، لكن الجنس ليس وحده محور الأحلام، فلئن كان الدافع الجنسي دافعاً أساسياً في الإنسان فإن الدافع الثاني هو العدوان. والناس يخشون أكثر الجنس إذا انفلت أمره ولذلك كانت القيود والأوامر والزواجر والنواهي بخصوصه. وأيضاً فإن الناس يكرهون العدوان ويبغضون العنف ويفرضون أنواع العقاب على من يمارسهما. ولقد سبق أن قلنا إن الجنس والعدوان من نعم الله سبحانه وتعالى علينا، فلكي تستمر الحياة لا بد من الجنس، ولكي يكون إعمار الدنيا لا بد من العدوان، فالنحّات يعتدي على الحجر ليصوغه تمثالاً، والمهندس يستغل العدوان عنده ليدمّر الجبال ويصنع نفقاً فيها، والجندي يدفع عن وطنه بالعدوان، والأب عن بيته. وهم جميعاً يستخدمون العدوان لأنه فيهم وفي طبيعة تكوينهم.

والجنس لا بد من تنظيمه وإلا استحال فوضى اجتماعية، والعدوان ينبغي تقنينه وإلا نزل القوي على الضعيف. وتتوجه التربية إلى التسامي بالجنس والعدوان وصرفهما في منصرفات مشروعة تفيد الفرد والأسرة والمجتمع. ويمارس الناس مضطرين القمع والكبت لهذين الدافعين الأساسيين، فتكون الأحلام من ثم منصرفاً لما نكبته أو نقمعه منهما في اليقظة. وإننا لنتأمل ما يعتمل فينا في النهار من رغبات وما تذهب إليه توهماتنا وتخيلاتنا الجنسية والعدوانية ولكننا نمسك أنفسنا عن الإفصاح عمّا يجيش داخلنا، وتظل العواطف مع ذلك في بواطننا تعمل عملها وتفور وتغلي، فإذا جنّ الليل واضطجعنا لننام وخفّت رقابتنا على أنفسنا ظهر كل ما أفلحنا في قمعه أو كبته إلى السطح من الأعماق، ومسرحته الأحلام مشاهد وشخصيات وحوادث، ومن ثم كان الكثير من أحلامنا عدوانياً أو له طابع العنف، طالما أن الكثير مما يواجهنا في الحياة قد يثير حفيظتنا ونغضب له أو نثور، ونود لو نطلق لغضبنا العنان ونعمل في الأشياء أيدينا أو حتى

أسناننا، وقد يتراءى لنا أن نقتل أو ندمر. وقد يكون ما يثيرنا لا يثير غيرنا وذلك لأننا لا نثور للفعل نفسه ولكن ثورتنا تكون لما نتصوره عن هذا الفعل، فالمثير هو ما يتحصل عندنا من انطباع.

والموقف العدواني له مكونات ثلاثة رئيسية، وهي الشخص الذي يقوم بالعدوان ونطلق عليه اسم المعتديAggressor، والشخص الذي يتوجّه إليه العدوان ونطلق عليه اسم الضحية، ثم هناك فعل العدوان نفسه. وتناولت العديد من الدراسات الأحلام من هذه الزاوية، وتبين أن العنف في الأحلام يأخذ إما شكل عدوان مادي أو عدوان بالكلام أو أنه فيه الاثنان. والقتل نادر في الأحلام، وكذلك السرقة، وتخريب الممتلكات، والتمرد. والعدوان في أحلام الذكور العنيفة مادي أو بدني، بينما أحلام الإناث العدوان فيها بالكلام. والذكور أعنف من الإناث في أحلامهم، ويكثر إتيانهم للعنف، ويتمشى ذلك مع القول المأثور أن الذكور أعنف عموماً من الإناث سواء بتأثير من تكوينهم العضلي والعظمي واتجاهاتهم الطبيعية أو المتعلمة أو بتأثير البيئة والتربية والثقافة.

وقد نتساءل عمّن يقع عليه أكثر العدوان سواء من الذكور أو الإناث؟ والجواب أنه أكثر ما يتوجّه إلى الحالم نفسه فهو في الغالب الضحية، وسنعرف أن من الحيل المتبعة في الأحلام حيلة القلب أو العكس، فبدلاً من أن يعترف الحالم بأنه يعتدي على الناس فإنه يصور نفسه أنه كثير الأعداء، يتربصون به الدوائر لأنه أخطأ في حقّهم فطلب أن يؤكد ذاته وتكون له نفسه، وأن لا يكون لأحد سلطان عليه، أو لأنهم يغارون منه لأنه متميز كما يرى بينما هم عاديون.

والذَّكَر عندما يحلم أحلاماً عنيفة يتلقى الاعتداء عليه من ذكور مثله غالباً، وكثيراً ما يكونون أكبر سناً، والكبير السن في حلم الذكور غالباً ما يكون الوالد، فإذا كان الطرف الآخر في الحلم في سن الحالم فالعدوان يتبادله الطرفان، ولا يكون الحالم في دور الضحية كما في الأحلام التي يكون الطرف الآخر أكبر منه سناً. ومثل ذلك في أحلام الإناث مع اختلاف بسيط، فأحلام الإناث فيها

الطرف الآخر قد يكون أنثى وقد يكون ذكراً، والأنثى كبيرة السن تعني الأم، والبنت تكون الضحية، بينما إذا كانت الأنثى في سن الحالمة فالعدوان يتبادلاه على قدم المساواة. والأنثى في الحلم قد تحلم بأن العالَم كله ضدها ذكوراً وإناثاً، بينما الذكر لا يتلقى العدوان إلا من الذكور. ومن هذه الزاوية تعاني الإناث في أحلامهن حيث الجميع معتدون إناثاً وذكوراً.

وقد يحلم الناس بالأغراب، ونحن نميل إلى أن ننسب العدوان إلى الأغراب أكثر مما ننسبه إلى الأهل أو الأصدقاء أو حتى المعارف، ويتوجه عدوان الحالم إلى الغريب ولا يجد تثريباً في ذلك طالما أنه غريب، ولا إثم على أن يتشاجر الحالم مع الغريب. وكثيراً ما يمثل الغريب جوانب من شخصية الحالم غريبة عليه، وأحياناً يرمز إلى أناس يعرفهم، ومن ثم فالشجار مع الغريب قد يكون في الحقيقة شجاراً مع النفس أو مع الأهل أو الأصدقاء.

ويتفاوت العنف في الأحلام، فبعض الناس يحلمون دائماً بأحلام عنيفة، والبعض قد لا يحلم بها، والبعض قد يكون العنف فيها عدواناً عليه، والبعض قد تكون أحلامه العنيفة عدواناً على الآخرين، وبعضهم العنف من أحلامهم مجرد تقطيبة حاجبين أو عبوس وجه، والبعض يتمثلون العنف ضرباً ولكماً. ويختلف الناس فيما بينهم في مقدار العنف في أحلامهم، والمدى الذي يصل إليه العنف عندهم سواء كان موجهاً إليهم أو يمارسونه هم أنفسهم على الآخرين. وإليك هذين المثلين من أحلام شخصين من البيئة والمستوى الثقافي نفسه وينتميان إلى أسرتين متشابهتين تقريباً في كل الظروف ويدرسان في الكلية نفسها، ولنرمز للأول بالرمز «س» وللثاني بالرمز «ص». وفي عدد من أحلام «س» بلغ عشرة لم يكن هناك عنف على الإطلاق، وكانت كل أحلامه مبهجة ولطيفة من هذا النوع:

- كنت مع فتاتي نسير في حديقة، وكانت مهمومة وتحسب أن أهلها صاروا يعلمون بعلاقتها معي، ويبدو أن حالتها انعكست على الجو فكانت الدنيا غائمة والهواء به لسعة، ولكني سارعت فقلت لها لماذا كل هذا الحزن. سأسوس المسألة

معهم وسترين، وملت عليها وقبلتها طويلاً، وفجأة ارتفع الغمام، وأشرقت الشمس، وشاع الدفء، وابتسمت ثم ضحكت، وضحكت معها.

وكما نرى فاتجاهات «س» سليمة، ويميل إلى المهادنة وإرضاء الناس، وحل مشاكله بالتفاهم، ومن يعرفه يسعد ولا يعرف الحزن.

وأما «ص» فعلى العكس تماماً فهو مشاكس ونكد، ولا يحلم بالحب، وهو إما معتدٍ أثيم أو معتدَى عليه وضحية، والجميع ضده أطفال وشيوخ وشبان ونساء، وهو يتشاجر مع طوب الأرض ولأسباب تافهة، وعنده أن الناس إما سمك ضعيف أو حيتان وغيلان، والمثل الذي يردّده دائماً «اتغدّى بعدوِك قبل أن يتعشى بك». وإذا خلت أحلامه من العدوان فهناك العنف، ويتمثل في حوادث تقع له أو لمعارفه، أو انه مجرد أن يرى جنازة في الحلم أو طائرة تسقط. وتحليل أحلام «ص» تبين أنه يعاني من صراعات داخلية هائلة بين شهواته وبين ضميره. ولقد تمثلت هذه الصراعات في حلم من أحلامه، فقد رأى نفسه في الكلية وهناك مظاهرة، وكانت هناك جماعتان، الأولى أفرادها ملتحون ويبدو أنهم من الجماعات الإسلامية، والثانية كان واضحاً أن أفرادها أفضل في لباسهم وأقوى في أجسامهم، والجميع يتراشقون بالطوب. وقوات الشرطة تقف غير بعيد بالعصي والخوذات على رؤوسهم، واحتار إلى أي فئة ينضم، على أنه كانت هوية الجماعة الأولى واضحة فهم من الإسلاميين المتزمتين، بينما الثانية تعلن عنهم ملابسهم وأجسامهم، وأنهم أناس يعيشون في بحبوحة وترف. وهكذا كان يرى العالم الكبير خارج الجامعة رؤيته للعالم الصغير داخل الجامعة، فئات متناجزة ومتناحرة وحرباً تشمل الجميع كأنها حرب أهلية.

وإذن فالشخصية «س» نقيض الشخصية «ص»، والشخصية «س» بميله إلى المهادنة يتصرف كالإناث، وهو فعلاً يتمتع برقة كالإناث، وتعبيراته منتقاة ولباسه فيه ذوق، وبه لمسات فنية فهو يحب الرسم ويعشق الطبيعة ويهوى أن يطلق شعره ويسرحه كالبنات، وأما «ص»

فهو جلف ومتوحش سواء في خلقه أو لباسه أو طريقته في التعبير أو حتى عباراته، ويهوى الأفلام البوليسية وأفلام الحروب، ولم يكن في أحلامه وعددها مماثل لأحلام «س» سوى حلم واحد رأى فيه نفسه كأنه يطير سابحاً في الهواء مبتعداً في الفضاء، ولم يكن له تفسير سوى أنه في هذا الحلم يتمنى لو يموت فتنتهي متاعبه، وأحلام الطيران من هذا النوع تعبير عن العجز عن التعامل مع ظروفه ورغبته في أن يهرب منها، بل ومن الحياة كلها، ولكن هيهات فلا منجاة له حتى بالهرب، لأن الحرب الأهلية ليست بين جماعتين أو ثلاث جماعات في الخارج ولكنها نفسه، حرب داخل وبين ضميره (الجماعة الإسلامية) ونوازعه (الجماعة المقابلة) وأسرته (المتمثلة في الشرطة).

والعنف في الأحلام قد يأتي صريحاً كالشجار والسباب والضرب وما أشبه، وقد يكون حوادث عنيفة تجري للحالم أو لإحدى الشخصيات في الحلم. ولا يحدث كثيراً أن يكون هناك موت أو مرض خطير أو مصائب، والغالب في الأحلام وخاصة ما تعلق منها بالحالم نفسه أن تكون الأحداث العنيفة من النوع التافه، فإذا كان هناك مرض فهو مرض خفيف، وإن كانت هناك مخاطر فهي ليست مهلكة.

ولقد فسرنا الأحلام العنيفة بأنها التي يكون فيها عدوان، ولكننا قلنا إن الحوادث تعبير غير مباشر عن العدوان، والحوادث لا تشكل عدواناً في الظاهر ولكنها كذلك في الأحلام، لأن الأحلام كما سبق أن قلنا تعبير عما يجري في ذهن الحالم، ولأن الحالم يحلم فلا بد أن هناك فكرة ما في ذهنه تخرج في الحلم في صورة ما، فلو فرضنا أن شخصاً حلم أن أباه قد مات فما الذي يجعله يحلم هذا الحلم؟ هل هناك حقاً قوة خارجية ألهمته بالحلم وأنذرته بأن أباه سيموت؟ نحن لا نذهب إلى هذا الرأي، ويمثل بدلاً من ذلك إلى أن نقول إن فكرة موت الأب نبتت في ذهن الابن، والابن يكره أباه ويتمنى له الموت، وهو لا يستطيع أن يقتله بنفسه، ولكنه لو رآه يموت في حادث، أو لو سمع بموته في طائرة فإن المسؤولية لن تقع عليه وسيكون مرتاح الضمير لأنه لم يقتله بيديه، وتسجل الأحلام الكثير من

المضمون السابق، وفي أحد الأحلام حلمت زوجة بأن أسرتها كلها بما فيها زوجها وأولادها غرقوا في البحر وجرفتهم أمواجه، وبهذه الحيلة تخلّصت منهم دون أن ترتكب جرماً، وأتاحت لها الحادثة أن تستشعر الشفقة على نفسها وترثي لحالها لأنها صارت وحيدة في الدنيا. وكم يذكرنا ذلك بحال الفتى الذي قتل أباه الطبيب وأمه المذيعة في مصر منذ سنوات، بدعوى أنه كان يرثي لحالهما ويشفق عليهما ويطلب لهما الراحة من عناء العيش، أو حال الفتى الذي فعل الجرم نفسه وقتل والديه ثم طلب من القاضي الرحمة لأنه يتيم!!!

وإذن هل أحلام العنف المتمثلة في أحلام الموت هي أحلام رغبة تريد أن تتحقق؟ ألا يمكن أن تكون تعبيراً عن الخوف أكثر منها تعبيراً عن رغبة؟ ألا يمكن أن نحب أهلنا فنخاف عليهم من الموت؟ وهل نحن دائماً نكره أهلنا حتى نتمنى لهم الموت؟ إن فكرة أننا نخشى على أحبائنا من الموت فكرة بعيدة، وذلك لأننا لو فكرنا على هذا النحو فإن معنى ذلك أن فكرة الموت تتملكنا وتلاحقنا وأننا مرضى بها فيما يسمى خواف الموت، وهذا الخواف من الاضطرابات النفسية من نوع العُصاب. والموت حقيقة بسيطة، ونحن نتقبله ونتوقعه دائماً في كل حين، وفي كل شارع، وعندما نركب الطائرة أو نقود السيارة، أو نقف أمام آلة في المصنع، أو نُمسك بموسى، ولكنا نعيش مع ذلك وننسى حكاية الموت هذه، ونستمتع بحياتنا. إذن فأحلام الموت ليست لأننا نخاف على أحبائنا، وليست أيضاً لأننا نتوقع لهم الموت إذا كانوا مرضى، فالمريض الذي يموت لا نحلم قبل موته بأنه مات، لأن معنى ذلك أن قوة خارجية تطلعنا على الغيب وذلك موقف غير علمي. ولم يتبق إذن إلا أن تكون فكرة الموت فكرة منبثقة عن تفكير الحالم، وهو يحلم بأن أباه مثلاً قد مات، ويصحو من النوم متكدراً ومنزعجاً بشدة، والسبب أنه في الواقع كان يتمنى لأبيه الموت، وليس صحيحاً أن هذا الأب المريض وقد طال مرضه وأتعب من حوله حتى صاروا يتمنون له الموت ولكنهم لم يستطيعوا أن يفصحوا عن

ذلك، وإنما الصحيح أن الحالم كان يكره أباه أصلاً وكان يتمنى له الموت حتى قبل المرض، ولنقل أن تكدره وانزعاجه ليسا في الحقيقة لأنه قد ضايقه أن يموت أبوه في الحلم، ولكن لأنه قد جرؤ وأسقط رغبته الشريرة في الحلم الذي حلمه، لدرجة أنه قد يلوم نفسه متسائلاً لماذا أحلم مثل هذا الحلم الفظيع؟...

ولربما نسأل أنفسنا: لماذا لا نحلم للمريض المشرف على الموت بأنه يشفى بدلاً من أن نحلم بأنه يموت؟ والجواب أن كل شخص يحلم بما لديه من أفكار، ولو كانت فكرة تمنّي الشفاء له موجودة لتجسّدت في الحلم، ولكن الموجود هو فكرة تمني الموت. وفي الكثير من الأحلام نحلم فعلاً بأن المريض يشفى، وقد نحلم بأنه عاد إلى الحياة وبُعِث من جديد.

وقد يمكن أن نذهب في تفسير أحلام الموت مذهباً آخر بخلاف أننا نتمنى الموت لشخص ما، فلربما يعني الموتُ الموتَ الأدبي للشخص وليس الموت على الحقيقة، كأن يكون قد فعل جُرماً فنحلم بأنه مات، كقولنا في اليقظة إن فلاناً من الناس قد انتهى أمره ومات. ولربما يعني الموت أن علاقتنا بالشخص الذي نحلم بموته قد انقطعت عاطفياً، وقد نحلم به ميتاً ثم بُعِث حياً، ومعنى ذلك أنه قد كانت بيننا القطيعة وبينه ثم عادت المياه إلى مجاريها وصار منا في المنزلة التي كانت له، كهذا الحلم لفتاة أحبت بعد مدة من موت أخيها وكانت لهذا الأخ منزلة كبيرة عندها.

- حلمت بأخي يقول لي إنه يريد أن يقابل خطيبي، واني لا يمكن أن أتزوج دون أن يتعرف به. وقلت له إنك ميت فكيف تريد أن تتعرف به؟ فقال إنه لم يمت حقيقةً!!.

ويكشف تحليل الحلم أن الفتاة كانت متعلقة بأخيها، ولا تعقد أمراً دون أن تشاوره، وهي تتمنى لو كان حياً فيقضي برأيه في خطيبها، وأنها رغم موت الأخ وانقضاء مدة طويلة على ذلك فإنها ما تزال تحت تأثيره فهو الذي كان يخطط لها حياتها، والزواج حدث ضخم جعلها تحلم بأخيها في هذا الوقت بالذات لحاجتها إلى الأخ ونُصحه، وكان ارتباطها

بأخيها قوياً لم يفلح الموت وانقضاء زمن كبير بين موته والحلم في زعزعته، وهي لذلك تقول على لسان أخيها إن هذا الأخ لم يمت حقيقة، بما يعني أنه وإن كان قد مات فعلاً فإنه لم يمت بالنسبة لها.

ولربما ذهب إبن سيرين إلى شيء من هذا التفسير السالف لولا أن إبن سيرين يجعل أحلامه كلها من النوع النذيري أو التبشيري الذي يهتم بالإخبار فيها عن شيء سيحدث وذلك ما نخالفه فيه، والموت عنده قد يعني أيضاً الموت الأخلاقي، وقد يعني الموت الأدبي أو الاجتماعي، وربما الموت الديني. ونزول الموت بساحة العالم قد يعني أن تحل به مصيبة، ونذهب نحن إلى القول إن المصائب ومنها الموت عندما تنزل بالحالم أو بشخصية من شخصيات حلمه قد يكون استنزالاً منه للعقاب لنفسه كما تقول في اليقظة إني أستحق العقاب، وكذلك يفعل الحالم أحياناً وكأنه يعاقب نفسه لأنه يستشعر الذنب على أنه ارتكب فعلاً شرّاً، أو فكّر في ارتكابه، أو طاف به مجرد خاطر شرير. والجدير بالذكر أن الأشرار لا يحلمون هذا النوع من الأحلام بل يحلم به الطيبون، فهؤلاء بهم حساسية شديدة لما يفكرون فيه أو يفعلونه، ويلاحقهم الشعور بالذنب والندم باستمرار. وهذا المثل لسيدة كثيرة الأحلام بالمصائب والأمراض، وهي متزوجة وسعيدة ولكنها ترى أنها لسبب من الأسباب لا تستحق كل هذه السعادة، وتخاف من المستقبل وتحلم أحلامها تلك. وسيدة أخرى نشأت في بيت دين وتصلي كثيراً ولكنها تطاوع زوجها على الفعل الجنسي وتحس لذلك بالذنب، وتعاقب نفسها على شهوانيتها في الليل عندما تنام بأن تحلم بمثل ما سبق لدرجة أنها تنهض من نومها متعبة ومجهدة وجسمها يوجعها، مع أن المصائب التي تحلم بها تحلم بها لغيرها وليس لنفسها.

- حلمت أن زوجي كان ينام بجواري، ثم جاءني أبي الذي مات منذ زمن بعيد وابتسم لي وقال سآخذ زوجك معي أفضل. ومددت يدي أمنع ذلك وقمت من نومي مفزوعة.

والحالمة ترى أن شهوانيتها السبب فيها زوجها، وأبوها أو ضميرها يقول لها إن الأفضل لها لو أن زوجها مات، وكانت

هي تحب أباها، وهي أيضاً تحب زوجها، ولكن الحل الذي تراه أن يموت هذا الزوج برغم حبها له، ولِمَ لا وأبوها قد مات!

وهذا حلم ثانٍ لها:

- حلمت أني مدعوة لوليمة وجلست، وكانت المائدة حافلة، وأكلت كأني لم آكل في حياتي. وقلت لنفسي إني دائماً أقول كأني لم آكل في حياتي. وكنت سعيدة غاية السعادة، والبهجة في وجهي، وأخذت ورك ديك رومي وقضمت عدة قضمات وبلعت، وفجأة أحسستُ كأن عظمة دخلت زوري وأني أختنق بها، وحاولت أن أصرخ وشعرت أني سأموت ولم يكن أحد إلى جواري.

والوليمة الحافلة هي اللذة الجنسية التي تستمتع بها يومياً تقريباً مع زوجها، والرومي هو زوجها، والعظمة التي دخلت فمها تكاد تغص بها رمز جنسي للقضيب أو لفحولة زوجها، ولذتها مترعة حتى لتكاد تغص بها، وعلاقتها الحميمة بزوجها أنستها الناس، وهي تخاف أن يتركها هذا الزوج، وخوفها هو عقابها لنفسها على استمتاعها، ولو تركها فلن تجد أحداً حولها يواسيها.

وهذا الحلم لها أيضاً:

- حلمت بأني أسير أمام بيتنا وأدخل النادي المواجه لنا وأنظر من حديقة النادي على شقتنا، وكانت مظلمة ولا أحد في نوافذها وشعرت بالوحدة، ونظرت إلى كل العمارات المجاورة فوجدتها مظلمة والسواد يلفها جميعاً، وشعرت اني أريد أن أركض ولكني خفت لو أفعل ذلك أن تؤلمني ساقيَّ فأنا أشكو وجعاً بهما مستمراً وقلت لو تحركت ربما انتهي تماماً.

والركض يعني عندها أنها تريد أن لا تُسلم نفسها لشهواتها، وعندها أن الأفضل أن تجد نفسها وحدها على أن ترضخ لنزوات زوجها، وهي نزوات شريرة «سوداء» ولكن بيتها القائم عليها ليس وحده في ذلك فكل البيوت هكذا، والشهوة السوداء تلفها جميعاً، لو فعلت وهربت من بيتها أو زوجها فإنها تخشى أن تتألم، وربما قد يعني انفصالها عن زوجها نهايتها بالكلية، وهي لا تخشى في بيتها إلا عندما يأتي الليل لأنه زمن الاستسلام للشهوات! والمهم أن هذه السيدة لا تعاني من رغباتها الجنسية

ولكن من أفكارها عن الجنس، فتصوراتها نتيجة التربية المتزمتة، ونتيجة التعيّن بالأم التي كانت قوية الشخصية ومسيطرة على بيتها وأولادها، وكانت الأم تقرّب منها هذه البنت بالذات - هذه التصورات هي مرضها الحقيقي - وكما نقول إن الفضيلة ليست تمثالاً منطرحاً في الخارج نتعبّد له ولكنها تصوّر داخل أذهاننا نقيس إليه الأشياء، ويسعدنا أو يشقينا أن لا نجد ما نحب منسجماً مع تصوراتنا. واللذات البدنية، بما أنها لذات مبهجة، ولكن ما يوجع منها هو الضمير، فالجرح ليس في البدن ولكنه في الضمير الذي ينكأ جرحه كلما أتينا ما فيه لذة للجسم، ويأتينا منه الألم في الضمير.

ومن العلماء من يقول إن الحلم لا يعرف الالتزامات الخلقية، وانه لا مكان للضمير فيه، واننا في الأحلام قد نرتكب أبشع الجرائم ونسرق ونقتل ونغتصب دون أن يلحقنا من ذلك ندم، وهذا صحيح إلى حد ما، لأنه لا يستشعر الندم، ولا تزوره المصائب في الأحلام كعقاب على فعل أو خاطرة آثمة في اليقظة إلا من له ضمير. والأحلام مرايا النفوس حتى لقد قال قائل: خبِّرني بأحلامك أخبرك ما دخيلتك. ولا يهم ما نظهر عليه في اليقظة فقد نملك أنفسنا سلوكياً ونزني بخواطرنا، فإذا نمنا وجاءت الأحلام إنطلقت مستدعيات الخواطر واتصلت دون التفات إلى العقل أو الضمير أو الذوق أو الحكم الخلقي أو الديني، وكما قيل إن مَلَكة الحُكم تضعف حتى التهافت في الأحلام. ونحن نسلك في الأحلام ونتحدث بما يتفق وطباعنا، فالفاضل يبقى فاضلاً في أحلامه، والأثيم لا يرى سوى صور سبق أن خطرت له في يقظته. وفي الأحلام نرى أنفسنا على ما نحن عليه في الحقيقة، والفاضل إن فكر أو ارتكب إثماً نزل به العقاب في الحلم لأنه يستفظع الإثم في اليقظة. ولم يخطئ الإمبراطور الروماني الذي أمر بموت أحد أفراد حاشيته لأنه رأى في المنام أنه يطيح برأس الامبراطور، وبرّر الامبراطور قوله بأن مثل هذه الرؤيا لا تأتي إلا مَن كانت له في يقظته مثل هذه الخواطر، إلا أن الامبراطور من جهة أخرى ربما كان خطؤه أنه لا يستطيع تفسير الأحلام،

وربما كان الامبراطور المعني ليس هذا الامبراطور على الحقيقة بل أبو الحالم نفسه!!

والأحلام إذن قد تأتينا عنيفة أو جنسية، بحسب ما تكون السيطرة على الحالم من تصورات تتوارد كنشاط نفسي لاإرادي تُستثار باندفاعات باطنة، فينكشف الانسان لنفسه ويكون كالعاجز تماماً أمام انفعالاته التي قد ينهانا عنها وهو متيقظ الضمير ولا يبدي الخوف من شيء. والذي ينكشف في الحلم على الأخص هو الإنسان الغريزي كما يقول البعض، فالإنسان حين يحلم يعود إلى الفطرة إن جاز التعبير، وكلما قلّ تأصل الأفكار المكتسبة في نفسه زاد احتفاظ النوازع المخالفة لها بسلطانها عليه في الحلم (فرويد: تفسير الأحلام باب الحاسة الخلقية في الحلم).

والعنف وثيق الصلة بالجنس، وهكذا كانا في الأدوار الأولى من التخلق عند الجنين، فلم تكن النوازع الجنسية والعدوانية قد اكتمل انفصالهما، ولذلك فالحلم العدواني يحمل في طياته غالباً جنساً، والحلم الجنسي قد يكون العدوان أو العنف من مكوناته الأصيلة. والتبادل الذي يحدث بين الجنس والعنف هو الذي يصنع محتوى الحلم الكامن ويحتاج إلى التفسير. وتذهب نظرية التحليل النفسي إلى القول بأن العدوان يطبع الجهاز النفسي جميعه، فهو موجود في اللاشعور ويحركه كلما نام المرء أو غفل الرقيب عنده، والعدوان يحرك دفاعات الأنا، وهو الذي يبدو على السطح كلما مارس الأنا الأعلى أو الضمير وظائفه. وتفسير الأحلام هو الذي يكشف عن الصور في مخزون العقل نتيجة الأطوار الأولى من النمو النفسي، فقد تأتينا أحلام عنيفة فيها الغرق مثلاً أو الفيضانات، وقد تكون أحلاماً بحرائق، وذلك من مخلفات الأطوار الاحليلية والقضيبية التي يكون فيها التبول وتنشأ الصور أو الأفكار عنه وتبقى من مخزون التصورات أو الأفكار القديمة في الذهن. وربما يكون أصل صور العض والبلع أو الالتهام والتسمم من مخلفات المرحلة الفموية، وكذلك ربما ترجع أفكار التلوث وتصورات الوسخ والتبقع وغيرها من مخلفات الطور الشرجي. وقد ترجع أحلام العنف مع

الأبوين أو كبار السن إلى تصورات من المرحلة الأوديبية. وقد تقوم التصورات للعلاقة بين الجنسين على العلاقة بين النوازع الجنسية والعدوانية في أي من المراحل السابقة، بحيث تأتي أحلام الاغتصاب وأحلام أعمال التشويه أو الثلم بإحدى الضحايا كنتيجة لها. ويحول عمل الحلم Dream work العدوان ويغير منه كماً وكيفاً، ويجعل المعتدي ضحية أو يصنع منه متفرجاً بريئاً، وقد يصنع من العنف سَكينة، ومن الحقد محبة ورقة. وما يزال التحريف يعمل عمله في الحلم مخفياً الأفكار العدوانية والمشاعر العدائية خلف قناع من البراءة. ولربما يكون الحلم الظاهر الذي فيه المطاردة والهجوم والتعدّي مضللاً للغاية لو أخذناه على وضعه وقوّمناه كما يبدو، ولربما يشتمل المحتوى الباطن للحلم على أشياء تذهلنا للتناقض بينها وبين المحتوى الظاهر. وقد يحدث أن تتخفى الكراهية خلف قناع الحب، أو يتخفى الحب خلف مظاهر الكراهية. ومرة أخرى لا ينبغي أن يغيب عن بالنا للحظة واحدة أن الحلم له محتوى ظاهر ومحتوى باطن، وان المحتوى الظاهر يحتاج دائما إلى تأويل. ونحن كمفسرين أو محلّلين للحلم نختار التفسير الذي يتلاءم مع السياق الحلمي، فإذا توجهنا إلى عنصر من عناصر الحلم دون عنصر فإننا نضع في الاعتبار الأهمية النسبية لهذا العنصر ووزنه النسبي داخل المحتوى ككل، ونقارن بين ما هو قبل شعوري وما هو لاشعوري، وبين ما هو من الماضي وما هو من المستقبل، وبين ما هو دفاعي وما هو دافع، وبين ما هو شهوي وما هو عدواني، ونختار أكثر ما يمكن أن يكون له معنى عند الحالم ونؤكد عليه.

الباب الحادي عشر
«أحلام الصراع الخُلُقي»

شغلت مشكلة الخير والشر، والحلال والحرام، والحقّ والباطل، والجمال والقُبح، والصحيح والخطأ كل تاريخ البشرة، وكانت محور الكتب السماوية وكتابات الفلاسفة والشعراء والمسرحيين والقصاصين، ودار عليها التعليم كله، واحتوتها الحكمة، ونهض بها أفذاذ إستشعروها قوية فيهم فتوفروا عليها بحثاً ودراسة وتفكيراً ودعوة، وسُجن بسببها من سُجِن، وقُتِل مَن قُتِل، واستشهد مَن استشهد، وبدا كأنه ما كانت لتكون هناك مشكلة لو أن الإنسان كان له سلوك معيّن تلخّصه سطور قليلة سهلة الحفظ والفهم تضمنتها الوصايا العشر في التوراة، ثم كانت لها شروح في الإنجيل وطوّرها القرآن، ومع ذلك ظلت على بساطتها وبلاغتها هي نفسها الوصايا العشر أو اللاءات العشر، وظل الإنسان أيضاً في الحضيض الذي هو فيه فلا هو عمل بالوصايا ولا هو ارتفع من وهدته، واستمر يهين والديه، ويقتل، ويزني، ويكذب، ويسرق، ويشهد الزور، ويحسد جاره على بيته وعلى امرأته وعلى خدمه وحشمه والنِعَم التي هو فيها. والسبب أن الانسان له غرائز أو نوازع أقواها جميعاً النزوع الجنسي والنزوع العدواني، وغرائزه أو نوازعه أقوى من كل نواة أو زواجر، وعندما تشتد به فإنه يسقط ويأثم وهو واع تماماً بما يفعل. وتتآمر عليه ظروفه والضغوط الواقعة عليه من الخارج مع نوازعه الداخلية فلا يملك إلا أن يخرج على العرف الأخلاقي. والنتيجة أنه يستشعر الذنب لما فَعَل، ويندم بعد كل فعل، ويقسم أن يصلح من نفسه، وقد يفي بقسمه، إلى أن تلح عليه غرائزه أو نوازعه من جديد وتحاصره الإغراءات، وحينئذ ينهزم أمامها ويتجاوز القواعد الأخلاقية ويعود إلى مشاعر الذنب والندم من جديد وهكذا، وكأننا يتعاورنا الليل والنهار، وكأن الإنسان يتراوح بين قطبي الشر والخير.

ونحن نستشعر الذنب عندما نصنع الشر بسبب الضمير أو الأنا الأعلى الذي يستحدث الرضى فينا فنرضى عن

أنفسنا إذا فعلنا الخير، ويعذبنا بمشاعر الذنب إذا فعلنا الشر. وعذاب الضمير هو قلق أخلاقي يكون بنا كلما هممنا بالشر. والضمير أو الأنا الأعلى هو صوت المجتمع وقد استدخلناه فينا بالتعيّن بالوالدين، فالوالدان يأمران وينهيان بحسب العُرف الأخلاقي، ونحن نستدمج أوامرهما. ويعرف الأطفال الصواب والخطأ، والخير والشر، والقبيح والجميل، والحق والباطل، من الأبوين، والأبوان يثيبان على الصواب والخير بالاستحسان والمكافأة، ويعاقبان على الخطأ والشر بالاستهجان والتأنيب والضرب أحياناً، ومن ثم يتنامى الضمير بما يستدمج من النواهي والزواجر، وتكون له أيضاً القدرة على الثواب والعقاب، وثواب الضمير هو حالة الرضا التي يستحدثها في فاعل الخير والصواب كما قلنا، وعقابه هو مشاعر الذنب.

ونحن لا نستشعر الذنب إذا فعلنا الشر فقط ولكن لمجرد التفكير فيه، والتفكير في الشر هو شر، ومن يفكر في الشر ولا يفعله قد يستشعر عذاب الضمير أكثر من الذي يفكر فيه ويفعله. فالذي يفعل الشر قد يجد المبررات لفعلته، ولكن الذي يفكر فيه لا يجد لتفكيره الشرير أي عذر، وهكذا نجد أن الخطّائين أقل معاناة لعذاب الضمير من أصحاب الضمائر المرهفة من الصالحين أو من أولياء الله.

ونحن جميعاً بلا استثناء خطّاؤون في أحلامنا، فعندما ننام تغفل رقابتنا الأخلاقية على أنفسنا فتأتينا الأفكار والتصورات في شكل أحلام نحقق فيها ما يُشبع رغبات النوازع أو الغرائز، وما لم نستطع أن نحقّقه في اليقظة، وننفّس عما قمعناه منها وما كبتناه فينا من توجهاتها. وأقوى النوازع أو الغرائز - كما سبق أن أفضنا - هي ما يلح علينا في أحلامنا بكثرة، وليس أكثر من الجنس والعدوان في هذه الأحلام. ونحن نأتي في أحلامنا بما لا نتصور أن نأتيه في اليقظة. والأحلام صور تتجسد مشاهد وشخصيات وأحداثاً لتصورات أو أفكار تحتشد في العقل، وما نحلم به كأننا نخبره في الواقع، فإذا كان شراً إستشعرنا بالذنب له، وإذا كان خيراً رضيت نفوسنا.

وما يُستحدَث فينا من مشاعر الذنب

أكثر مما نستشعر له الرضا النفسي. وما كان من المفروض أن تتحقق به الرغبات المكبوتة والنزوعات المقموعة، يصير بما يسببه لنا من عذابات نفسية كابوساً. وليس هناك ما هو أكثر شهوداً للصراع بين نوازع أو غرائز الجنس والعدوان وبين الضمير من مجال الأحلام، لأنه في الأحلام تخرج النوازع أ الغرائز تريد التحقّق والإشباع كأنها العفريت يخرج من القمقم، ويستثار الضمير. ومع الحرية في الأحلام تجول الغرائز أو النوازع وتصول، ويكون الإرهاف الأشد للضمير عما هو في اليقظة، وتكون معاناته الأكثر، والعذابات الأحد. وفي الأحلام تكون الجريمة سبباً والعقاب نتيجة أكثر مما في اليقظة، كما في هذا الحلم:

- حلمت أني قتلت شخصاً واكتشفت أن بواب عمارة مجاورة رآني أقتله فقتلته هو الآخر حتى لا يبلّغ عني. ورأيت نفسي في النيابة والحجرة التي يستجوبونني فيها كأنها المستشفى وكل الناس الذين أعرفهم رقود على أسِرّة كأنهم المرضى. وكان هناك أبي وإخوتي وأمي. وكان هناك شهود شهدوا ضدّي. وكنت آخر من استدعاه وكيل النيابة ولم يسألني السؤال المباشر هل ارتكبت الجريمتين، وكانت أسئلته بحيث يسهُل عليّ التخلّص من الجُرم. ولما انتهى من استجوابي ذهبت إلى سريري مثل الآخرين واضطجعت عليه أفكر: لماذا لم يسألني مباشرة رغم أني أنا القاتل؟ وهل سيتركني أفلت بجلدي؟ ولكن الشخصين اللذين قتلتهما - هل يذهب دمهما هدراً؟ وشعرت بفظاعة الجرم واستبد بي عذاب لم أعد أحتمله فقمت من فوري وتوجهت إلى وكيل النيابة وطلبت الكلام واعترفت واسترحت. وعدت لسريري ولكني أخذت أفكر: ماذا بشأن خطيبتي وأهلها والناس من الجيران، ماذا سيقولون عني؟ واخوتي ما الذي سيقولونه للناس وما تأثير ذلك عليهم؟ وعدتُ أتعذب. ونظرت إلى أهلي فوجدت الجميع وقد أشاحوا بوجوههم عني، وقلت: هل كنتم لا تريدونني أن أعترف؟ واستيقظتُ وكلي عرق وخوف.

والتحقيق مع الحالم كما نرى في مستشفى، ويعني ذلك أنه يرى نفسه وقد

ارتكب هذا الجُرم كأنه مريض، وتصوّره للجريمة هو تصوّر المريض، ولا مسؤولية على المريض، وعائلته كلها مرضى مثله، وذلك يبين أن فكرته عن الجريمة الاجتماعية أن المجتمع كله مسؤول عنها، ولا يعجبه هذا التصور أو هذه الفكرة، ورغم أنه يزوغ من المحقق ويهرب من المسؤولية التي يريده أهله أيضاً أن يهرب منها (الجميع مرضى) إلا أنه يعاني العذاب، ويقرّر الاعتراف ويرتاح، وعندئذ يبدأ عذاب جديد وهو وضعه كمجرم في المجتمع، والأذى الذي يلحق بأحبائه نتيجة اعترافه، وكأن الحالم يتراوحه عذابان: عذاب الضمير لما ارتكب، والمعاناة التي تستتبع تصنيفه كمجرم، ولربما يستطيع كل مرتكب لجُرم أن يحتمل عذاب الضمير لأنه معاناة داخلية، ولكنه لن يستطيع احتمال ازدراء المجتمع له (المتمثّل في إشاحة أهله بوجوههم عنه)، وهذا هو الصراع الأبدي بين القلق الذي يسببه ارتكاب الجرم (القلق الأخلاقي Moral anxiety) والقلق الذي يسببه سقوط المجرم إجتماعياً (القلق الواقعي Reality anxiety).

ويمثل الشرطي في الحلم الضمير، لأنه يجسّد القانون والنظام، ولأنه يقبض على الناس إذا أساءوا السلوك. وهذا حلم نمطي من هذا النوع:

- كنت أتحدث مع زميل وكان معي مسدس أمسكه بيدي، وكان زميلي قد ناولني إياه، وكان يضحك مني لأن شرطياً كان قادماً نحونا ولا بد أنه كان سيقبض عليّ لأني أحمل سلاحاً بدون ترخيص.

والحالم يرى في الحلم أنه سيُقبض عليه لحمله سلاحاً بدون ترخيص. والمسدس في الحلم بخلاف أنه سلاح عدواني فإنه رمز للذكورة، والحالم يشعر بالذنب لمسألتين عنده وهما نوازعه الجنسية ونوازعه العدوانية.

وهناك أحلام يرى فيها الحالم نفسه يخالف قواعد المرور ويُقبَض عليه إما للسرعة أو لكسر إشارة المرور إلخ. وترمز السيارة غالباً للقوة من أي نوع، وللفحول الجنسية، وبصفة خاصة للفورة الجنسية، ومن ثم كانت المخالفة المرورية عبارة عن تصور الحالم لإساءة السلوك جنسياً، وهو ما يجعله يحلم كعقاب له أنهم قبضوا عليه.

وقد يظهر الشرطي في الحلم بوصفه حامي الآداب وليس مَن يُنزِل العقاب بالمخالفين. وفي أمثال هذا الحلم فإن المعنى أن الحالم يستنجد بضمير ويستحثه أن يمنعه من ارتكاب عمل لا أخلاقي، كهذا الحلم لفتى:

- حلمت أن رفاقي استدرجوني معهم وخرجنا سوياً وفعلنا شيئاً لا أذكره ولكننا كنا نجري معاً وهربنا. وكنت شديد الغضب وتركتهم وتوجهت إلى الشرطة وأبلغت عنهم.

والتفسير لهذا الحلم أن الحالم عير راض عن نفسه وعما يعتمل فيه من أحاسيس جنسية ولم يكن يعجبه سلوكه، وهو يستنجد بضميره كي يخلّصه من هذا كله.

وهذا حلم مماثل لفتاة:

- كنت مع أترابي، وكنا ليلة العيد، وكان حديث قريتنا هروب سجين من أبناء القرية كان قد قُبِض عليه سياسياً. وفجأة رأينا هذا الفتى أمامنا وركضنا مذعورات وهو يطاردنا وأفلحنا أن نحبسه في إحدى الحجرات ونستدعي الشرطة.

والسجين هو تصوير الفتاة لنوازعها، وهي تشعر أنها محبوسة، وحبسها ليس لجريمة حقيقية ولكن لأسباب اجتماعية، وهي تخشى على نفسها أن تصطدم بالمجتمع إذا تمردت وتكون مطارَدة من المجتمع كهذا السجين، وهي لا تستطيع شيئاً حيال نوازعها التي تطاردها وتستنجد بضميرها.

وهذا حلم لفتى يحل فيه شرطي المطافئ محل الشرطي العادي:

- حلمت أني كنت أقف متأملاً، فجاءت سيارة المطافئ ووقفت قُبالتي، وطلب مني الشرطي أن أتوجه معه إلى مركز الشرطة لتحرير محضر عن بلاغ كاذب بحريق.

والحريق رمز للعواطف الجنسية المشبوبة، والحريق الكاذب بديل عن الإشباع الحقيقي للجنس، كأن يكون الحالم مستغرقاً في العادة السرية وهي مُنصرَف جنسي كاذب، وهو متهم بهذه التهمة، وشرطي المطافئ هنا هو الضمير الذي إن استيقظ فسيحول بينه وبين أن تستغرقه هذه العادة.

وقد يُرمَز للضمير في الأحلام بضابط الجيش، وبالمدرسين، والقضاة،

والوزراء، وكل من يمكن أن يمثل السلطة.

وهذا حلم لفتى رَمَز فيه لضميره بفرامل السيارة:

- رأيتني أقود سيارتي بسرعة وأحاول أن أوقفها دون جدوى، وكنت أعلم أنه لا نجاة لي إلا إذا ضغطت على الفرامل وعثرت عليها قدمي، وضغطت ولكن دون جدوى فقد كانت السيارة مسرعة رغم ذلك.

ورغم أن الفتى ذكر ضمن مستدعياته عن الحلم عند تحليله أنه في اليوم السابق على الحلم كان على موعد مع فتاته وكانا منخرطين في الحب، وظل يردّد على نفسه أنه لا ينبغي أن ينسى نفسه معها ويرتكب شيئاً يندم عليه، وقد أفلح أن يتوقف، إلا أن الحلم كان يقول بنهاية غير التي أوردها هو، فكأنه كان يكذب عن واقعة الحب، لأن الحلم يقول إنه لم يتوقف واندفع بسرعة السيارة إلى ارتكاب ما كان يحذر أن يندم عليه.

وقد يرمز درابزين السلم أو سور أي شيء للضمير يحجز الحالم عن إتيان ما يحذره، وللغُسل عقب الاحتلام، أو عقب جماعه مع زوجته، ويستوي في ذلك الرجل والمرأة، بالإضافة إلى أنه ينبغي أن يتوضأ قبل كل صلاة، فالوضوء والغُسل لازمان لرفع النجاسة وللنظافة. والنجاسة تكون بالجسم ويمكن أن تلحق بالقلب والعقل، والتطهُّر يكون جسماً على الحقيقة، ومجازاً بالقلب والعقل، بأن لا يستشعر المُسلم الغلّ للناس، ولا يفكر في الشر، وأكثر الشر هو الجنس يفسد الجسم والقلب والعقل، والتطهُّر وسيلته الماء، وهو في الأحلام له هذه الرمزية، وله معنى الولادة الجديدة:

- حلمت أني أستحم، وكنت أقف في البانيو والماء ينزل فوقي حاراً، ولكني سمعت أصواتاً من خلف ستارة الحمام وأزحتها قليلاً ورأيت الكثير من الناس رجالاً ونساء لم أكن أعرفهم، وكلهم يشيرون إليّ ويتكلمون بقرف، وكانوا يقولون إني لا أستحم وإني نجس. وفزعت وأحكمت الستارة وتخفّيت خلفها، وسمعتهم ينصرفون فأكملت حمامي ونظرت إلى نفسي فوجدتني نظيفاً، وظللت أشتُم في الناس الذين اعتقدوا في نجاستي.

ومشاعر الذنب عند الحالم تتمثل في

أقوال الناس عنه واتهامهم له بالنجاسة، وهو ما يفكّر فيه في نفسه ويُسقطه خارجه وينسبه إلى الناس. والاستحمام يعني تطهّره من الشر الذي رمزُه العُري، وشتْمُه للناس بعد الاستحمام بمنزلة التعبير عن استيائه من ضميره المتزمّت خلقياً الذي يحاكمه بهذه القسوة ويقضي في أمره على لسان الناس أنه نجس، ومع ذلك فهو يرضخ لهذا الضمير ويكمل الاستحمام.

وتكوين الضمير يبدأ من الطفولة باستدماج أوامر وزواجر الوالدين، ويظل الضمير يعمل عمله حتى وإن بدا أن الشخص قد أسقط من حسابه كل ما استدمجه أو تعلّمه أو تلقّاه من تربية دينية أو خُلقية. وما كان الوالدان يزجران طفلهما بشأنه وينهيانه عن إتيانه ويأمرانه أن يتصرف بوحي منه يبقى يلاحق الشخص فيما بعد ويشكّل بالنسبة إليه قيوداً تحول بينه وأن يفعل ما يخالف ضميره. والكبير من مشاكل الزواج سببها هذه القيود، فكم من زوجة يشكو زوجها من برودها الجنسي، وكم من زوج لا يتهايأ مع زوجته وقد يصاب بالعُنّة نتيجة استبقائهما تصورات الطفولة عن قذارة الجنس أو نجاسته أو انحطاط من تأتيه مشاعره. وهذا الحلم لفتى تزوّج وعاد من شهر العسل وكان يسكن مع والديه:

- حلمت أني في حجرة نومي وبجانبي زوجتي، وكنت أبتعد عنها، فقالت إقترب مني، فقلت لها عيب، وشدّتني إليها فنازعتها نفسي، وكنت شديد الخوف أن يدخل علينا والدي أو والدتي، وفجأة دخلت والدتي فلملمتُ ملابسي وابتعدتُ بسرعة، ونظرتْ إلينا أمي نظرة فيها غضب شديد ولكني أقسمت لها إني ما كنت أفعل شيئاً. وأشرت إلى زوجتي وقلت هي السبب. ودخل والدي فتمنيت لو أن الأرض انشقت وابتلعتني. وردّت زوجتي على نظراتهما قائلة «إنه ملكي وأنا حرة أفعل به ما أشاء»، وأسرعت إليَّ أمي واحتضنتني، وأمسك أبي بيدي وقال اصمد، ثم خرجا واستيقظت.

والحالم ما يزال يستشعر الذنب من الجنس حتى بعد أن تزوج، وما يزال واقعاً تحت تأثير نواهي وزواجر الوالدين، وهما هنا ضميره، وضميره يؤنبه أنه قد انخرط في الجنس بمجرد الزواج، وكان قبل ذلك

يعتبره شراً، إلا أنه يتحلَّل من الإثم ويبرّر سقوطه بغواية المرأة له وهي هنا زوجته، ويحمّلها مسؤولية ما آل إليه أمره. وينقسم الحالم على نفسه ويحتمل الصراع بين ضميره متمثلاً في الأبوين، وبين نوازعه متمثلة في زوجته. والزوجة عندما تتحدث إنما تتحدث باسمه، ويظهر هو في دور الزوجة التي تدافع عما يخصها منه. وهو لم يعد حراً كالسابق، وارتباطه بزوجة تترتب عليه واجبات لها، وهو موزّع بين واجبته تجاهها وواجباته تجاه والديه، أي بين مقتضيات الشهوة ومقتضيات الضمير، فإذا نازعته شهواته فإن ضميره يشدّه ناحية الأبوين لتمسك به الأم ويأمره الأب أن يصمد، أي لا ينهار أمام مطالب الجنس.

وعندما يظهر الضمير في الحلم فإن ظهوره يعني أن عقاباً ما سيوقع على الحالم نتيجة فعلٍ ما، أو تفكيرٍ في فعل لا يرضى عنه. ويتفاوت العقاب بحسب تصورات الحالم عن الجُرم وعن العقاب. وقد يكتفي الضمير بتأنيب الحالم، وقد يحكم عليه بعقاب شديد. وهذا الحلم لشاب يبدو أنه ارتكب ما يؤثّم عليه، برغم تأكيده هو نفسه لدى تحليل الحلم أنه لم يفعل ما يؤاخذ عليه:

- حلمت أنهم حكموا عليّ بالإعدام، فلما أردتُ أن أجلس رفعني الشرطي وقال إنك لا تستحق حتى أن تجلس، ثم صوبوا البنادق ناحيتي وأطلقوا الرصاص فاستيقظت مفزوعاً أتحسّس نفسي وكنت لدهشتي منتصباً.

والعقاب في الحلم لا بد كما قلنا أن يتناسب مع الجرم كما يتصوره الحالم، وما كان من الممكن أن يحكم هو على نفسه بالإعدام لو لم يكن قد أتى كبيرة من الكبائر، وليس أكبر من الزنا، وهو أشد ما يكون إيغالاً في الإثم عندما يكون زنا بالمحارم، وبعض الناس يستوي لديهم الإحساس بالذنب إذا اشتهوا محارمهم أو زنوا بهم، ويبدو أن هذا الفتى يعاني من هواجس تتعلق بمحارمه، وتحتدم به رغبات لأمه أو أخته، تعتمل في باطنه ولا يدري بها، أو أنه يحسّها ولكنه يبعدها عنه، وتأتيه الأحلام ليلاً عقاباً له على أفكاره أو رغباته وهو ما كشف عنه التحليل النفسي، فقد كانت أمه صغيرة السن وتزوجت بآخر وتركته في رعاية

جدّته، وكان يزورها وهو طفل لماماً، وكان يبيت عندها إذا كان زوجها في سفر فكانت تنيمه في سريرها وتحتضنه طوال الليل وتقبّله، فتفجّرت به رغبات جنسية تجاهها ظلت تلاحقه طوال حياته، وكان ينازعها باستمرار وخاصة بعد أن طُلّقت من زوجها وجاءت لتعيش معه وهو فتى، وكانت ما تزال شابة وقوية وجميلة وتلعب معه لعبة الجنس البريئة في مظهرها والتي كانت تهزه هزاً عنيفاً من داخله، فكانت تكثر من تدليله وتقبيله وتأخذه إلى حضنها وهو ما لم يكن يرضى عنه.

ولقد عالجنا حتى الآن الصراع الأخلاقي الذي يتمثل في أحلامنا في مختلف الأشكال والصور، نتيجة ما تتراوحنا من رغبات وأفكار جنسية أو عدوانية تصادم ما نشأنا عليه من تربية واعتقادات، فيكون الصراع بين النوازع وبين الضمير أو الأنا الأعلى وهو محصلة التربية. ولعل القارئ قد لاحظ أن أكثر ما أوردنا من أحلام في علاجنا للصراع الأخلاقي هي لذكور، والسبب أن الذكور أكثر معاناة للقلق الخُلُقي وللصراع بين النوازع والضمير. والفروق بين الجنسين في هذا الأمر لا ترجع إلى أن الذكور نفوسهم أمّارة بالسوء أكثر من الإناث، بل لأن الذكور يعانون أكثر من الإناث أن تستبد بهم الرغبات الجنسية أو الميول العدوانية. ويبدو أن الإناث أكثر واقعية من الذكور وأقل معاناة لتأنيب الضمير، فهل ذلك لأن الضمير عند الأنثى أقل تطوراً وأضعف بناء؟ لا ندري سوى أن التاريخ يُظهر الذكر كصانع للقِيَم، وهو مناط التكليف السماوي والأخلاقي، بينما الأنثى مناطها الزواج وإنجاب الولد، وهي لذلك أقل اهتماماً بالقيم وأحرص على الناحية المادية التي بها تكون أسرتها ورعاية الولد.

ولقد رأينا أن الجنس والعدوان تدور حولهما أغلب مشاعر الذنب إن لم تكن جميعها، والتي تأتي الناس في أحلامهم في مختلف الصور فتقضُّ مضاجعهم وتفزعهم وتلاحقهم في يقظتهم، وتحكم تصرفاتهم وسلوكهم اليومي حيال أنفسهم ومع الناس، فإذا كان هذا هو واقعنا الذي نعيشه فإننا نكون إزاء مشكلة عويصة لا ندري لها حلاً، فمن ناحية نحن نعيش هذه النوازع الجنسية والعدوانية،

وهي جزء من طبيعتنا، وإن لم نوجد لها المنصرفات فإنها ستجد لنفسها هذه المنصرفات شئنا أم أبينا. ومن ناحية أخرى فإن هذه النوازع إذ تأخذ طريقها إلى التعبير عن نفسها فإنها قد تأخذ شكل تعبيرات مباشرة، وقد تتخفى وتتقنع وتكون لها المنصرفات غير المباشرة، وربما تكون الأخيرة أشد ضرراً لنا وللمجتمع من الأولى، ولنا أن نتصور شخصاً يغضب لأن غيره لم يوله اعتباره فينبري بالعدوان المباشر على هذا الغير بأن يسبّه أو يضربه، وشخصاً آخر مريضاً بالسادية ويهوى ضرب النساء وإيذاءهن ويبرّر ذلك بأن ذلك ما يُردنه، أو أن المرأة تحب من يضربها، ولنا أن نحكم أيهما أشد إيذاءً وأكثر ضرراً لنفسه وللناس؟ ومن هذا النوع الأخير نصادف الكثير من الأمثلة، ولعل أظهرها لنا في هذه السنوات الحكومات الديكتاتورية التي يرأسها أفراد ساديون والغون في العدوان يغرقون بلادهم في متاهات الحروب ويجرّون العالم إليها.

الباب الثاني عشر
أحلام صراع الأدوار الجنسيّة

قدّر الله سبحانه وتعالى أن يأتي الناس ذكوراً وإناثاً، وأن تكون الطيور والحيوانات والنباتات ذكوراً وإناثاً. والإنسان منذ أن يكون جنيناً تتحدّد هويته الذكورية أو الأنوثية فلا الإناث تصبح ذكوراً، ولا الذكور تصبح إناثاً. وهذه الضرورة التي لا تتغير هي ما نطلق عليه إسم الدور الجنسي البيولوجي Biological sex role.

ودور الأنثى البيولوجي أو الحيوي أن تحمل وتُرضع وليدها، ولكي تتوفر على هذا الدور خلق الله لها الرحم والمبيضين والفرج والثديين، كي تنتج البويضات فإذا خصبت تكوّن الجنين فترعاه تسعة أشهر في الرحم، وتلده ثم تُرضعه من صدرها وليداً حتى يصبح في استطاعته أن يأكل ويهضم الطعام الصلب. وهذا الجهاز التناسلي الأنثوي يخص الإناث، إلا أنه لا بد للأنثى من ذكر كي يكون لها الجنين والولد، وعلاقتها بالذكر وبالولد تمليها حاجاتها النفسية، وتتحكم فيها إفرازاتها الهرمونية الأنثوية، وهي المسؤولة عن

رغبة الأنثى أن تعرف الذكور وتتزوج، ومن هذه الإفرازات الهرمونية هرمون الأمومة، وهو المسؤول عن هذا الوله الذي يكون بالأم حيال طفلها.

وأما الدور الجنسي للذكر فهو أقل تعقيداً وأهمية من الدور الجنسي للأنثى، وليس على الذكر إلا أن يعطي الأنثى الحيوان المنوي الذي يلزم لتخصيب البويضة، فإذا فعل ذلك فقد قام بدوره الذكوري البيولوجي، إلا أنه يلزمه لهذا الدور الخصيتان ليفرزا المني، والقضيب ليوصله إلى رحم الأنثى من خلال الفرج. والذكر لا بد أيضاً أن يستشعر هذه الحاجة إلى الأنثى، ونزوعه لها يدفع إليه هرمون جنسي ذكوري. وليس عند الذكر هرمون أبوّة كما عند الأنثى هرمون أمومة، وذلك أن دور الأب - لرعاية الطفل بيولوجياً - غير ضروري.

وللجنسين مظاهر جنسية جسمية ونفسية أخرى، فالذكور أطول وأثقل وزناً وأمتن عضلاً من الإناث. والأنثى تكون ممتلئة ورقيقة، والذكر مربع وخشن. وجلد الذكور أسمك، وشعر الجسم عندهم أغزر، وأصواتهم أعمق. وتتصرف الأنثى بخنوع بينما الذكر عدواني. وتتناسب عدوانيته مع حجمه الأكبر وقوته العضلية وقُدرته على الانتصاب والإيلاج. ويتفق خنوع الأنثى واستسلاميتها مع صغر حجمها ورقتها وطبيعة جهازها الجنسي المستقبِل. ومن سمات الإناث والذكور أنهما يتجاذبان جنسياً لبعضهما البعض، ولو لم تكن هذه الجاذبية الجنسية تشدهما إلى بعضهما لما كان هناك حب ولا زواج ولا إنجاب، ولنَضَب البشر. ولو كان الذكور ينجذبون جنسياً للذكور، والإناث للإناث، لما كان هناك حَمْل ولا تكاثر، فالطبيعي أن تكون الجنسية بالذكور والإناث غيرية، ومن غير الطبيعي أن تكون الجنسية بينهم للجنس ذاته فيما يسمى اللواط.

إذن فالأنوثة تعني أن يكون للأنثى جهاز تناسل أنثوي، ورغبة في التزاوج مع ذكر لكي تحمل وتنجب. والأنوثة تعني أيضاً أن تكون الأنثى رقيقة ومُستقبِلة وتابعة للذكر.

والذكورة هي أن يكون للذكر جهاز تناسل ذكوري ورغبة جنسية تدفعه إلى

مضاجعة الإناث، وهو بدنياً قوي وعدواني وفعّال.

وللثقافة دورها في تشكيل معاني الذكورة والأنوثة، بحيث تختلف مفاهيم الدور الأنثوي والدور الذكوري من ثقافة إلى ثقافة، وأيضاً تختلف هذه المفاهيم في الثقافة الواحدة بحسب الطبقات والعائلات والفئات والطوائف، وتختلف في الأسرة الواحدة بحسب تصورات الأبوين للدور الجنسي الذي يرجوانه لطفلهما. ولا ينبغي أن نعمِّم متناسين أن هناك دائماً حالات فردية، ومن الواجب أن نكون على وعي بما يمكن أن يُفرَض ثقافياً على الأفراد من أدوار معيّنة برغم السمات الجنسية التي تخصّهم.

وينصرف معنى صراع الأدوار الجنسية إلى المحاولات داخل كل منا لتتغلب فيه السمات الجنسية التي تخصّه، لأن فينا جميعاً من سمات الجنسين، فالذكر فيه سمات أنثوية وإن غلبت السمات الذكورية، والأنثى فيها سمات ذكورية وإن غلبت السمات الأنثوية. والسمات الأغلب تحاول أن تطبع الفرد بطابعها، والمفروض أن تساعدها الثقافة والتربية على ذلك. فالأنثى تنتصر فيها الأنوثة وتنشأ بوصفها أنثى، والذكر تنتصر ذكورته وينمو كذكر.

والصراع الذي ندخله جميعاً داخلي، يدور دون أن ندري به وتستغرقه السنوات، فإذا حدث مثلاً أن وُلِد لأسرة ولَد، وكانت الأم تريده بنتاً، فقد تعامله على أنه أنثى، فكأن التربية تذكي الصراع البيولوجي لكي تتحدّد هوية دور الطفل على عكس ما يغلب عليه بيولوجياً. وبالمثل قد تسخّف الأسرة أن تكون البنات إناثاً، وتنشأ البنت لترى أن وضعها أدنى من الولد، وقد تستحث الأسرة البنت أن تتصرف كولد ويلبسونها كولد فيعجلون بظهور الصراع حول دور البنت كأنثى. وفي البلاد الإسلامية وخاصة في الريف، وعند البدو، وبين الطبقة المتوسطة، للذكر حظ أكبر من حظ الأنثى، وتنشأ البنات وبهن الرغبة أن تكون لهن أدوار الذكور، ومن ثم كانت مظاهر الصراع على الدور الجنسي أبلغ عند الإناث المسلمات. والمجتمع الذي يذكي سمات جنسية في أي من الجنسين ليست له، يذكي من صراع الأدوار الجنسية، وعليه أن يتحمل

مسؤولية هذا العمل من بعد عندما يشب الصغار ويصبحون رجال ونساء الغد. ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أنه لا وجود للذكر المطلق ولا للأنثى المطلقة، فكل منا به من هرمونات الإناث قدر يختلف من ذكر إلى ذكر، وكل أنثى بها قدر من هرمونات الذكور، بحيث يمكن أن نقول إننا جميعاً مزدوجو الجنسية Bisexual، فالقاعدة أن ازدواج الجنسية هو الأصل، وإن كان ما يبدو على السطح أننا إما ذكور أو إناث. ولو قارنا بين رجل ورجل لوجدنا أن هذا الرجل به قدر أكبر من هرمونات الذكورة، وقدر أقل من هرمونات الأنوثة، بينما ذاك الرجل به قدر أقل من الآخر من هرمونات الذكورة، وقدر أكبر من هرمونات الأنوثة. والذكر الذي تزيد به هرمونات الأنوثة يكون شكله أميل إلى الإناث، وكذلك صوته ومزاجه النفسي. وإذا زادت نسبة الهرمونات الذكورية عند أنثى من الإناث فإنها تأتي شبيهة للرجال في البِنْية والتصرفات. واختلاف هذه النسب في الذكور والإناث يجعل من الذكورة والأنوثة في الجميع مراتب ودرجات، فهناك الرجل الرخو المُستأنَس، صغير الحجم، ضعيف الصوت، واهن العزم، سلبي الإرادة من ناحية، ومن ناحية أخرى هناك الرجل متين التركيب، قوي العصب، حاد الطبع، عدواني السلوك، يفرض إرادته على الآخرين. وحتى في هذا الرجل الأخير لن نعدم أن نجد قدراً من الأنوثة تصارع الذكورة فيه بحكم ما به من إفرازات هرمونية أنثوية ولو كانت ضئيلة القدر للغاية، وقد تتمثل هذه الأنوثة فيه في لحظات ضعف العزم وغلبة رقة المشاعر. إذن نحن جميعاً نعاني هذا الصراع بين الجانبين الأنثوي والذكوري فينا، سواء كنا ذكوراً أو إناثاً، فجزء فينا يحاول أن يتشدّد ويعتدي وينزو، وجزء يميل إلى السلوك برقة، وأن ينتظر وأن يوافق ويركن إلى الدعة، ويحب أن يترك المبادأة للآخرين، وأن لا يفعل شيئاً. وجزء فينا ينجذب إلى الجنس الآخر ويكون غيري الجنسية، وجزء يجذب الجنس نفسه ويريد أن يكون مثلي الجنسية. وهذان الجانبان من طبيعة الإنسان في حرب مستمرة، وصراعهما هو ما نطلق عليه إسم صراع الأدوار

الجنسية، أو هو صراع ازدواج الجنسية Bisexual conflict.

وتكشف الأحلام هذا الصراع، وهي مجال يظهر فيه واضحاً جلياً بحيث تنطبع به أحلام كثيرة نحار في تفسيرها لغلوها في الرمزية. ولعل هذا النوع من الأحلام يحتاج فيه تفسير الرموز وتأويلها إلى جهد فكري لا يحتاجه تفسير الأحلام الأخرى، فمثلاً قد يرى الشخص نفسه في الحلم في دور عكس دوره الجنسي كهذا الحلم:

- حلمت أني نائم وكنت أبسط يدي أتحسس بها نفسي فوجدت أن صدري كبير، ووجدتني في ثياب حريرية ملونة جميلة، ثم رأيت نفسي أنتصب واقفاً وتأكدت أنه قد صار لي ثديان.

وتحليل هذا الحلم يتم من داخل تحليل أحلام أخرى، ومن مستدعيات الحالم حول حلمه، ونعرف أن به ميولاً أنثوية، ويحسد البنات أنهن بنات، ويقول إن نصيب البنات في الحياة أفضل من نصيب الذكور، ويعجب بجسم المرأة ويأنف من التركيب الجسمي للرجل، وهذا الحلم يحقّق رغبته في التحوّل إلى أنثى.

وهذا حلم لفتاة من النوع المسترجل حيث تلبس كالذكور وبها خشونتهم، وتركيبها عضلي، وصدرها يخلو من الثديين، وأعرض من الحوض:

- كنا نلعب، بناتاً وصبياناً، وخيّل إليّ أن البنات صارت صبياناً والصبيان صاروا بنات.

التفسير: الحالمة لا تتمنى فقط أن تصير ولداً ولكنها تريد أن تنتقم من كل الأولاد بأن يتحولوا إناثاً أي يكونوا الجنس الأضعف.

وقد ترمز الأحلام إلى فقدان الرجولة بأن يفقد الحالم ساقه أو يصاب في ذراعه في حادث. وفي أحد الأحلام رأى الحالم أنه كان مُلقَى على الأرض لا حول له ولا قوة والفئران تنهش في ساقه، وقد نرى في الأحلام أن قطاً يعض في الساق أو الذراع.

ويرمز الشَعْر إلى الرجولة، وفقدان الشعر يعني إصابة الحالم بالعجز الجنسي، وإننا لنعرف أن شمشون في قصة التوراة قد قصّت له دليلة شَعْرَه، فذهبت عنه قوته وفحولته، ولم تعودا إليه إلا بعد أن طال شعره من جديد. وفي هذا

الحلم سنرى قلق الحالم على شعره، وهو بعد التحليل يتبين أنه قلق على رجولته، إذ انه كان سيتزوج قريباً، وكلما اقترب موعد الزفاف زاد قلقه:

- حلمت أني كنت أغسل رأسي، ولما ذهب عني الصابون أحسست أن هناك شيئاً غريباً في رأسي كأني فقدت شعري، وركضت إلى المرآة ولدهشتي وجدتني أصلع إلا من خصلة تتدلى نحو بوصة ونصف على جبهتي ولا شيء أكثر من ذلك.

وترمز الخصلة المدلاة إلى قضيبه رمز رجولته، وليس هناك من هذه الرجولة سواه، وأما هو في حقيقته فليس رجلاً فبرغم وجود القضيب فهو لا ينتصب لأنه «أصلع».

وحلمت امرأة أنها قد نبتت لها لحية وشارب ليرمزا إلى رغبتها في أن تتحول رجلاً. وقد يحلم الرجل بأنه كُسِر قلمه، يعني فقد رجولته. وقد يحلم بالعاصفة وقد كسرت الأشجار وألقت بها، والعاصفة قد ترمز لعواطفه المشبوبة وتهافته على الجنس، وقد يستبد به القلق نتيجة انشغاله الجنسي فيخشى أن يفقد رجولته لهذا السبب. والمرأة عندما تحلم بأنها فقدت سناً فقد يعني ذلك أنها مقبلة على الإياس، وأن حيضها سينقطع، وفقد السن بالنسبة للرجل هو إخصاؤه. وربما يُرمَز للإخصاء بالرصاص الفشنك كهذا الحلم:

- هاجمنا اللصوص وخشيت على أسرتي وكنت أكثر خشية على زوجتي، وكنت أقول لها سيهاجمونك أنت، فتقول ولماذا أنا، فأقول بسبب الذهب في صدرك، إخلعي هذا الذهب، فترفض. وأمسك مسدسي وأضرب في الهواء ولكن الرصاص الخارج لدهشتي ما كان يتعدى السنتيمترات وكان يسقط لا حول ولا قوّة.

ومسدسه الذي هو قضيبه لم يعد قادراً على القذف إلا لسنتيمترات، والمني يخرج منه لا قوّة فيه ولا نفع كالرصاص الفشنك. واللصوص هم عالم الرجال يخشى منهم على زوجته الفاتنة، والذهب الذي يبرر به خوفه هو الذهب على صدرها وهو أنوثتها. والتحليل يكشف أنه أراد من زوجته أن تتحجب بسبب ما يرى من جمالها فرفضت وهذا هو معنى طلبه

منها أن تخلع الذهب أي تتخلى عن فتنتها بالحجاب.

وهذا الحلم للرجل نفسه:

- كنت أطارد ديكاً كبيراً طلبت مني زوجتي أن أحضره لها، وجاهدتُ والديك يزوغ مني. ثم رأيت أني أحمل حربة وتابعت الديك إلى أن حاصرته تماماً في زاوية، وصوبت الحربة أحاول أن أقذفها ولكني تبينت أن ذراعي غير قادر وعاجز عن القذف.

والحلم جنسي خالص ورموزه واضحة ويكشف عن قلق جنسي هائل، والديك هو فحولته أو رجولته يحاول أن يحضرها لزوجته، ويفعل المستحيل وعندما يكاد ينجح يتبين أنه غير قادر على الإيلاج لأنه يصوب ولكنه لا يصيب، وهو يقول صراحة أن ذراعه - أي قضيبه عاجز عن القذف.

وهذا الشخص نفسه يعوّض عن رجولته بأن يدخل في معارك مع كل أنثى يحاول أن يُفقدها هي أيضاً أنوثتها ويجرّدها من أسبابها.

- حلمت أني دخلت البيت فوجدت زوجتي وعدداً من صديقاتها، وكان معهن شيء يحاولن إخفاءه، ويدارين ما يفعلن باصطناع أن تذهب أيديهن على صدورهن وأردافهن ولكني أدركت اللعبة وضحكت هازئاً، وتوجهت فوراً فانتزعت ما يخفين، وكان مسدساً كبيراً لا يناسب الإناث، فأخذته أصوبه على أشياء وليس على حيوانات أو بشر، وأطلِق حتى انتهى منه الرصاص.

وهو يريد أن يقول إن القوة الجنسية للرجل وليست للمرأة، وإن النساء لا حديث لهن سوى الجنس، وإن هذا شيء لا يمهر فيه إلا الرجال - المسدس لا يناسبهن - لكنه في حالته بدلاً من أن يصيب برجولته النساء، الطالحات منهن والصالحات يعني سواء كن بغايا أو سيدات مجتمع، فإنه يطلق قذائفه على غيرهن، إذ يبدو أن هذا الرجل كان يكثر من العادة السرية ويظن أن ذلك دمّره تماماً وأفقده فحولته.

وقد تكشف الأحلام عن خوف مرضي يصيب المتخنّث من الخنوثة برغم أنها تغلبه على أمره:

- حلمت أني أركب دراجة مسرعة. وقيل لي هناك صرخات إنسانة تلد،

وصعدت الدرج مسرعاً فوجدت رجلاً يطلق كأنه سيلد، وغضبت جداً لأنه رجل وأخرجت مسدسي وقتلته.

والحالم غاضب لأن الميول الأنثوية توجد في ذكر، ويرديه قتيلاً يريد أن يقتل فيه التعبير الخنثي. وهذا العمل منه كأنه يريد أن يغلّب فيه التعبير الذكوري على التعبير الأنثوي، وإذن فالحالم يريد لو تسود ذكورته على ميوله الأنثوية وتلغيها، وبدلاً من أن يقول إنه هو المصاب بالتخنّث يحلم به لآخر، بينما دوره هو أن يعبّر عن رغباته في أن يكون ذكراً كاملاً.

وهذا الحالم نفسه يحلم بأنه متهافت وينقذه صديقه:

- شعرت كأني مريض وتخذلني ساقاي، وأسرعَ إليّ صديقي وحملني بين ذراعيه القويتين، وكانت عيناه تدمعان من أجلي ويقبّلني محموماً.

والحالم وهو يستدعي أفكاره عن الحلم يقول إن صديقه في الحلم بديل عن فتاته التي هجرها منذ زمن لانشغاله مع هذا الصديق. وطبعاً هو مشغول مع صديقه أكثر من فتاته لأنه يميل جنسياً إليه، ولقد رأيناه يجعل هذا الصديق يحمله كأنه أنثى ويقبّله محموماً كأنه يقبل أنثى، وهذه الميول اللواطية إن لم يتسنَ لها أن تظهر في اليقظة فذلك بسبب قمعها، وهو ما يجعله ينفّس عن رغباته في الحلم. وفي الحلم التالي يرى شيئاً مشابهاً وينسب لغيره ميوله الجنسية المثلية، وتلك حيلة دفاعية يدفع بها عن نفسه ما لا يعجبه فيها:

- كان لي زميل يحاصرني بنظراته، وخفت منه فذهبت إلى زملائنا الواحد بعد الآخر أشكو أمره وأقسم لهم أنه مريض باللواط، وأنه يريدني لنفسه، ويضحكون. ووجدتني أنصرف مبتئساً، وإذا بي أجده جالساً غير بعيد يقرأ فتولاّني الخوف منه، لكني سرت ومررت به، ولدهشتي لم يرفع عينيه عن الكتاب وانصرفت.

وزميله المصاب باللواط هو نفسه، وميوله حتى الآن كامنة لا يعلم بها أحد، وهو يتّهم نفسه باللواط، ويُفشي سرّه، أي انه يخشى أن ينفضح حاله، أو أنه يتمنى لو يُعرَف عنه ذلك، ويبدو أن المحيطين به لا يعاملونه باعتبار ميوله الكامنة، وذلك يضايقه لأنهم منصرفون عنه، ويا

ليتهم يعرفون.

ومع ذلك فأحلام الفتيان تكثر فيها أن يروا زملاء لهم يصاحبونهم، والأمر ليس أكثر من ذلك غالباً ولا يعني وجود انحرافات جنسية، وكثيراً ما لا تظهر خلافات الشبان في الأحلام، وإنما الذي يظهر توددهم لبعضهم البعض فيلعبون ويسبحون ويتسابقون ركضاً ويضحكون، وإذن فليس شرطاً أن يكون لأحلام الشباب معنى جنسي مثلي، أو أن ترمز إلى الجنسية المثلية، وكما قلنا لا بد لتفسير الحلم من أحلام أخرى لنعرف نَسَق تصورات الحالم، ولا بد أن يساعدنا الحالم بمستدعياته حول الحلم. وبعض الحالمين الشبان كانوا مجندين سابقين، وللزمالة في الجندية ذكريات عزيزة، فإذا حلم مجند سابق بزملائه السابقين وكان له معهم لهو فلن يكون هناك معنى جنسي شاذ لهذا اللهو معهم. والشبان غالباً عندما يكونون في معسكرات لا يعايشون فيها إناثاً تكثر أحلامهم وتتكون شخصياتهم من زملائهم أي من الذكور. وقد تعني النظرة الخاصة للشاب بزميله، أو للفتاة بفتاة زميلة لها، تصعيداً وتسامياً للجنسية المثلية تتحول به الرغبة الجنسية لامثلية إلى وُدّ حقيقي وحب وإخلاص وولاء. وقد تتعانق المرأة والمرأة في الحلم وفي اليقظة، وقد تتماسكان بالأيدي. وكانت بأفلاطون ميول مثلية ولكنها متسامية، واستطاع أن يحولها إلى عواطف جميلة تجاه أصدقائه الذكور، وذلك شيء لم يستطعه أبو نواس، على عكس الشاعر الأمريكي والت هويتمان الذي يرى أسمى الحب بين الذكور، ولكنه الحب الذي يلهمه التفاهم والمشاركة الفكرية. ومن الملاحظ أن أحلام النساء حول صديقاتهن أكثر من أحلام الذكور حول أصدقائهم، بتأثير الثقافة التي تبيح للنساء أن يتعانقن وأن يتساررن بعكس الذكور. والرقة هي جوهر الأنوثة. بالإضافة إلى أن النساء قد يُؤذَن لهن بأن يسلكن مسلك الرجال ولا يُسمَح للرجال بأن يسلكوا أبداً كالإناث. وعندما تلبس الفتاة أو المرأة قميصاً وبنطلوناً لا ينتقدها أحد، ولا يُسمَح للفتى أو الرجل بأي حال من الأحوال أن

يرتدي فستاناً. ولعل هذه التفرقة في المعاملة من الثقافة هي التي تجعل الذكور يعانون في أحلامهم من القلق نتيجة الصراعات المزدوجة الجنسية أكثر مما تعاني النساء في أحلامهن.

وقد يُرى الرجل يترقق للرجل، وعندئذ قد يُقابَل من الآخر بالضرب واللّكم والسباب. وقد يتصرف الذكور برقة ولكنها الرقة المؤقتة التي سرعان ما يحل الغضب والجدية مكانها، والثورة لأي شيء وعلى أي شيء. وتتمثل هذه الأدوار المتراوحة في الأحلام كالحلم التالي:

- حلمت أني في رحلة مع زملاء لنا إلى الفيوم، ووصلنا إلى هناك وكنا نستمتع بوقتنا، ومررنا على جماعة مثلنا يقفون بسيارتهم، وكانوا يمسكون بخرطوم طويل يغسلون به سيارتهم، وضحكوا عندما رأونا وضحكنا منهم، وقال واحد منا نحتاج إلى خرطوم كهذا لنغسل سيارتنا.

وهذا الحلم أيضاً للشخص نفسه:

- حلمت أني كنت مع صديق لي ثم جاء موعد النوم فقال لي ألن تنام؟ وأعددنا سريرنا سوياً وكان عليّ أن أنام معه، ثم فجأة جاءت فتاتان لتلقيا علينا تحية المساء، فقام صديقي وحيّاهما ودعا إحداهما إليه فاستجابت، وبدأ يغازلها ويلاطفها ولكني لم أستطع ذلك لأني كنت خجلاً من ملابسي التحية.

وفي الحلم الأول يجد الحالم لذّته وسعادته في صُحبة رفاقه، ويقول إن الكل في صحبة رفاق، والسيارة هي الطاقة الجنسية، ومن رأيه أن طاقة زملائهم أفضل من طاقاتهم، بما يعني أن ذكورته هو أقل من سائر الذكورات. وفي الحلم الثاني يذهب لينام مع رفيقه، ثم تجيء الفتاتان، وتختبر ذكورته فيرفض أن تكون له علاقة غيرية بإحداهما مع أنه كان سينام مع رفيقه، وهو حائر بين ميوله الجنسية المثلية وبين ميوله الجنسية الغيرية، ومستعد أن يمارس اللواط مع صديقه ولكنه غير مستعد لأداء الجماع مع فتاة، ويخجل من ملابسه الداخلية وهي رمز لباطنه اللوطي. وصراعات هذا الحالم حول جنسيته المزدوجة هي التي تسبب له القلق في يقظته ومنامه.

الباب الثالث عشر
«التشخيص بتحليل الأحلام»

إنفرد التحليل النفسي منذ صدور كتاب فرويد «تفسير الأحلام» بالتفسير أو التأويل للأحلام كطريقة من طرق التحليل النفسي. ولم يدخل تفسير الأحلام مجال علم النفس إلا مؤخراً بعد أن امتدَّ هذا المجال ليشمل البحث في الشخصية، وفي الخُلق والمزاج، وخاصة أن الحلم يمكن فعلاً أن يخضع للبحث العلمي بالنظر إلى أنه سجل للشخصية، وهو أيضاً وسيلة إسقاطية. والحلم باعتباره سجلاً للشخصية أصدق إنباءً من المذكرات التي قد يدونها الشخص عن نفسه، وباعتباره وسيلة إسقاطية فإنه أفضل من كل الوسائل الإسقاطية لاختبار الشخصية، وذلك لأننا فيه لا نحتاج لبقع الحبر ولا للصور كي نُخرج ما بداخلنا فنستعرضه أمامنا. والحلم شخصي جداً، وإسقاطي جداً، أكثر من أي شيء آخر يمكن أن تتيحه لنا الدراسات في الشخصية.

ويضم كتاب فرويد «تفسير الأحلام» أغنى ما يمكن أن تقدمه أية نظرية يشتمل عليها كتاب من الكُتب النفسية؛ كما ان ما كتبه وليام شتيكل في مجال تفسير الأحلام يجعل القارئ على يقين من أن الأحلام تكشف عن كل شيء، وعن كل صغيرة وكبيرة، ولا تترك شيئاً إلا وتتناوله، وتغوص في أعماق الشخصية وتُخرج الخبئ منها. ولم يحدث أن كانت هناك كتابات في التنظير لعلم النفس كالتي قدّمها علماء التحليل النفسي، وكانوا فعلاً منظّرين أكثر منهم عمليين، وكانت بهم قدرة عجيبة على التأمل والاستنباط، ولم يكن ينقص نظرية التحليل النفسي إلا أن يصدقها التطبيق، وأن تخضع للمعايير العلمية وللإختبار المقنن. وهذا ما تصدّى له بعض علماء النفس فحاولوا سدّ هذا النقص ليجعلوا من تفسير الأحلام طريقة صادقة علمياً من طرق التشخيص للشخصية نستطيع بها أن نحصل من الأحلام على الكثير جداً من المعلومات ذات المغزى والمفيدة في تحليل الشخصية والإحاطة بدينامياتها.

والطريقة لتحقيق ذلك هي اختبار سلسلة من الأحلام للشخص نفسه كما سبق أن نوهنا إلى ذلك، وقد تبين جدوى تلك الطريقة. ولقد أجريت تجارب من هذا القبيل على طلبة الجامعات على وجه الخصوص وخاصة في أوائل السنة الدراسية وقبل امتحانات النقل وأثناءها، والطالب يكتب ما يحلم به يومياً عقب الاستيقاظ من النوم، ويُفهَم أن أحلامه سرية. ومن غير المطلوب معرفة اسمه. ولا يعطى لمحلل الأحلام أية معلومات عن أي من الطلبة حتى لا يقع المحلل في خطأ توهم صدق تفسيراته Fallacy of pseudo-validity. وهو الخطأ الذي يكثر في تفسيرات الكثيرين من المحللين عندما يتأكدون من أن الشخصية المطلوب تفسير أحلامها تعاني من صراعات معينة فيميل المحلل إلى تفسير سلسلة الأحلام في ضوء ما يعرفه من هذه الصراعات.

ويبدأ تفسير الأحلام كخطوة تالية، وهنا تبدأ الصعوبة حيث يتوقف التفسير لأجزاء الحلم على المدرسة أو النظرية التي يتبعها المفسر أو المحلل. فمثلاً قد تحلم طالبة جامعية أنها أصيبت بشلل أطفال وأن عليها أن تترك الدراسة، ولربما يذهب المفسّر إلى القول - تفسير الحلم - بأن الفتاة تتمنى لو تصاب بمرض يقعدها عن تكملة تعليمها؛ وقد يُفسّر الحلم بأنها مصابة بما يسمى خواف الإصابة بشلل الأطفال؛ وقد يحسب أن الإصابة بالمرض في الحلم هو شعور بالذنب على جُرم أو إثم اقترفته الفتاة، وليس المرض سوى عقاب تُنزله بنفسها على ما اقترفت؛ ولربما يذهب في التفسير إلى أن الحلم نكوص إلى الطفولة التي كانت فيها مشلولة الإرادة لا تُحقّق لها رغبة وتقصُر إمكانياتها فيها عن أن تعيش حياتها كما تحب؛ ولربما يكون المحلل من الذين يفسرون ظاهرة الحلم بالمرض بأنها انعكاس للشعور بإرهاصات مرض يعتمل في الجسم داخلياً ولم يتضح بعد، والمريض به يحلم بما يداخله منه أو بما يشعر بإرهاصاته؛ وقد يقول المفسر ببساطة العامة إن الحلم انعكاس لشيء أكلت وتعبت منه؛ وقد يكون المفسر ممن يرجعون لكتاب إبن سيرين فيقول إن الشلل عن الحركة معناه العجز نتيجة ذنب عظيم. وكل تفسير من هذه

التفسيرات يقوم على افتراضات، والسبيل لتجاوزها جميعاً هو أن نفسر الحلم بأجزائه، وبما فيه، ونترك هذه الأجزاء تتحدث عن نفسها. وما تقوله كل الأحلام هو أنها طريقة يحاول بها الشخص الحالم أن يحلّ صراعاته، وقد تكون هذه الصراعات بين نوازع متعارضة متناقضة، كأن يتعارض الجنس والعُرف السائد، وقد تكون الصراعات بين عواطف متناقضة، كأن يتناقض الحب والكراهية، أو بين دافع وعائق، كأن يكون هناك الدافع للنجاح ككاتب ولكن القدرة المحدودة للشخص تحول دون تحقيق الدافع. وربما يكون الصراع بين عاطفة وعائق، كالسيدة المتزوجة من رجل تكرهه ولا تستطيع أن تفصح عن كراهيتها لحاجتها إليه مادياً. وقد يشتمل الصراع على قطاعات عريضة من التركيب الوجداني والنزوعي للشخص لدرجة أن يقسم الشخصية كلها، كحالة الدكتور فاوست في رائعة جوته، أو حالة الدكتور جيكل والمستر هايد، فيحتدم الصراع بين أجزاء الشخصية وتأخذ بتلابيب بعضها البعض. ومن النادر أن يقدم الحلم حلاً للصراع، وفي الغالب أن الحلم يعكس القلق الذي يستحدثه الصراع. وأحلام القلق قد لا تقول شيئاً، أو انها قد تقول القليل عن أسباب القلق، وربما كانت مجرد بلاغ بأن الحالم يعاني من الصراع. ولما كانت الصراعات تقوم بين الدوافع والعواطف فإن رواية الحلم وتحليله بالتفسير والتأويل يكشف عن مكوناته الفاعلة ودينامياته الباطنة، وينبّه إلى حاجات الحالم وقيمه ودفاعاته وإحباطاته ومشاعره ومجاهداته. والنظرية التي تقول بذلك تذهب إلى أن الأحلام إسقاطات لكل ديناميات الشخص الباطنة. ومن رأي أصحابها أن تفسير الأحلام مسألة قد استحالت صعبة بتأثير مقولات فرويد في ميكانيزمات الحلم أو الحيل التي يلجأ إليها، والتي تخفي مضمونه وتموّه على محتواه الباطن. وهذه الحِيَل التي نقصد إليها والتي سنتناولها من بعد هي التكثيف والإبدال والإسقاط والتعويض والقلب والتصوير المسرحي، فإذا كانت هذه العمليات تُجري تغييراتها على المضمون الباطن فتُحيله شيئاً آخر يمكن أن يفلت

من الرقيب ويخرج في شكله الظاهر وهو الحلم، أفلا يكون من المنطقي أن لا نعتمد على حلم واحد لنغامر بتفسيره، إلا إذا كنّا نعرف من حياة الحالم ما يجعلنا نفهم ما يقصد إليه الحلم بالإحالة إلى ما نعرفه من حياته؟ ولعل ذلك هو ما قصد إلى بيانه فرويد عندما توجه بتحليله لأحلامه هو لأنه أدرى بحياته الخاصة ويعرف ما تعنيه رموزها أو ما خفي من أمرها بما استُحدث فيها من تحريف وتشويه وقلب وإبدال إلخ. وإذا كنا نعرف ديناميات الشخصية للحالم قبل أن تفسّر أحلام، فعلام إذن يكون تفسيرنا لهذه الأحلام؟ ولهذا كان منطقياً أن نفترض أننا لا نعلم شيئاً عن الحالم من بواطن حياته وشخصيته، وأن لا نغامر بأن نقول إننا سنكشف ذلك من تفسير حلم واحد، أو أن من الممكن أن يكشف لنا الحلم الواحد عن ديناميات الشخصية، وأن نعوّل على أن نتناول لأسباب السابقة عدة أحلام، أو كما نعبر عن ذلك «زُمْلة أحلام»، ونستقرئ جوها العام، ونتبين رموزها من السياق ومن تردّدها داخل السياقات المختلفة، ونكشف الصراع الذي يشملها جميعاً والذي ينفرد به الحالم؛ ومع ذلك فإنه كثيراً ما يكون الحلم الواحد مستكفياً بنفسه بحيث نستغني بما يقوله - إذا كان يقول الكثير - عن أن نطلب المزيد من أحلام الحالم، وغالباً ما يكون هناك حلم يتوسط كل زُملة الأحلام كواسطة العِقد، يلقي الضوء على سائر الأحلام، وينبّه إلى الصراع الذي يجمع بينها جميعاً بحيث يمكن أن نقول إن سائر الأحلام تكون تكراراً لهذا الحلم الوسطي. ولكن كيف نجمع بين المجموعة أو الزملة الواحدة من الأحلام وسط طوفان أحلام الحالم؟ الطريقة أننا نرى رأينا في كل حلم، فإن رأينا الخط العام فيه يتمشى مع غيره ضممناه إليه حتى تجتمع لنا مجموعة مترابطة منها. والغالب أن تتميز زُملة الأحلام بأن بها صراعاً واحداً رئيساً، إلا أنها قد تجمع فيها أيضاً عدة صراعات رئيسة.

وعلينا أن نجرّب التفسير الذي نغامر به للحلم على بقية الأحلام الزملة، فإن وافقها فالأغلب أنه تفسير صحيح، وإلا

فعلينا أن نجرّب تفسيراً آخر حتى نجد التفسير الذي يوافقها جميعاً، وعندئذ فعلنا أن ندخل أجزاء ومكونات كل حلم في تركيب جديد كأننا نركب معاً أجزاء متناثرة من لعبة واحدة، فنضع جزءاً من هذا الحلم مع جزء من حلم آخر، إلى جوار جزء ثالث من حلم ثالث وهكذا، إلى أن تعطينا الأجزاء التركيب الذي له المعنى. وإليك هذا المَثَل:

الحالة لفتاة طالبة جامعية عمرها عشرون سنة، الصراع الأساسي عندها رغبتها في أن تكون لها حياتها المستقلة، إما بأن تتخرج وتعمل أو بأن تتزوج، وهي تفضل الزواج، إلا أنها إن فعلت ذلك لا تدري النتيجة، وهل ستنجح أو تفشل، وستكلفها مغامرتها الأمان الذي تعيش فيه في كنف أسرتها.

الحلم الرئيس: حلمت أني تقدمت بطلب للعمل في الكويت مدرسة، وكان عليّ أن أترك أهلي، ولقد سافرت وبدأت حياة جديدة، حدث أن تعرفت إلى أسرة مصرية هناك كان لهم إبن يريدون له زوجة، وأعجبوا بي وخطبوني من نفسي، وقد قبلت فقد كانت الأسرة كأسرتي، إلا أني ما زلت أعاني من جرّاء فراق أسرتي.

التفسير: الصراع الأساسي قد تمّ إسقاطه في الحلم بوضوح. والحالمة تترك بيتها، بل وتغادر مصر كلها، ورغم أنها تجد بديلاً عن أسرتها وتتزوج بسرعة، فإن ذلك لم يعوّضها عن أسرتها، والحالمة واعية بمشكلتها، وبالصراع الذي تعانيه. ولقد قالت هي نفسها في محاولة تفسير الحلم إنها لم يحدث من قبل أن فارقت أسرتها لأكثر من أسبوع.

الحلم الثاني: حلمت أني وأختي في محطة سكة حديد وكان علينا أن نسافر إلى مكان ما، وينبغي أن نأخذ القطار المتجه إليه، ولكننا كنا نبحث عنه بلا جدوى، وكنا نجري هنا وهناك، ونسأل ونفتش عن قطارنا بينما القطارات كثيرة، والدنيا زحام، والمحطة واسعة، والضجيج عال.

التفسير: تريد الفتاة أن تترك بيتها ولكنها لا تدري إلى أين تتجه، وقد عمي عليها القصد، واحتارت، والدنيا واسعة خارج بيتها. والخروج من البيت معناه اللاأمان مع أنها في رفقة أختها. ويبدو

أنها وأختها هذا قدرهما، ويبدو أنها تريد الزواج، ونحن نقول بالعامية فاتها قطار الزواج لمن تتجاوز سن الزواج، وهي تريد أن تلحق وأختها بهذا القطار.

الحلم الثالث: حلمت أني عدت لأيام زمان، أيام المدرسة الثانوية، ولكن الغريب أن الموضوعات التي كنا ندرسها هي موضوعات الجامعة. وكنت أجتمع مع رفيقاتي كأيام زمان ونتناقش ونتواعد.

التفسير: هذا الحلم نكوصي يرجع بالحالمة إلى أيام لم تكن بها حاجة أن تفاضل بين الزواج وبين الأمان النفسي والمادي الذي تحسه الفتاة بالإقامة بين ذويها، وضرورة أن تختار تدخلها في صراع، والعودة هذه تخلّصلها من هذا الصراع، ولو أنها من الناحية الدراسية تفضّل الدراسة الجامعية، ولكنها يا ليت تكون من غير أن تكبر في السن وتفكّر في الزواج وتَقلق أنها لم تتزوج، وتخاف من الزواج مع ذلك، وتؤثر أن تظل مع أسرتها، وتعاني من الصراع بين الاختيارين.

الحلم الرابع: حلمت أنه قد وقع لي حادث وكُسرت ساقي فصنعوا لها جبيرة وكان عليّ أن ألازم الفراش، وكانوا يعنون بي ويحيطونني بالرعاية. والغريب اني ما كنت أشعر بألم الكسر، وكنت استمرئ البقاء في الفراش.

التفسير: التداعي بالمرض يخلّصها من حيرتها ومن الصراع الذي تعانيه والقلق أنها لم تتزوج، ثم الخوف من أنها لو تزوجت افتقدت أسرتها والأمان في البيت. وهي تؤكّد هذا العنصر - الرعاية والعناية اللتان يحيطانها بهما في البيت.

الحلم الخامس: حلمت حلماً غريباً. وكان هناك ابن خالتي الضابط، وحاولت أن أكلّمه ولكنه قال لي إنه يخاصمني، وسألته عن السبب فأشاح بوجهه، ثم كان هناك صديق أخي، وكان قد تحدث مع أسرتي بشأن خطبتي وترك أبي الأمر لي تماماً، وقد أشار بيده إلى حيث ذهب إبن خالتي، وأدار لي ظهره وسار في طريقه، وأصبحت وحدي ولم يكن هناك آخرون. وهززت كتفي فلم أكن أفهم لماذا يقاطعونني.

التفسير: تتضارب مشاعرها حيال الزواج، وهي تريده ولا تريده. وتحاول أن تستجلب لنفسها زوجاً، ولكن ابن خالتها

أولاً يخاصمها ثم يتابعه الآخر، وتسأل لماذا تقلق ولكنها تهز كتفيها، وكأنها تقول لو أن المسألة جاءت من هذين لا منّي لكان أفضل، فهي إذن تفضّل ألا تتزوج لأن في الزواج أن تخرج من بيتها إلى المجهول.

الحلم السادس: حلمت أني والأسرة سافرنا إلى الاسكندرية.

التفسير: هذا الحلم فيه الحل البسيط لأزمتها، فلا مانع عندها أن ترحل عن البيت، لكن بشرط أن تصحبها أسرتها.

الحلم السابع: حلمت أن أمي مرضت مرضاً مؤلماً وكانت تتوجع وماتت، وحزنتُ حزناً هائلاً وكانت تجربة فظيعة.

التفسير: الحلم إسقاط للصراع بينها وبين أمها، وهي لا تحبها لأنها تريدها أن تتزوج وتفارقهم إلى حياتها الخاصة، ودائماً تذكّرها بالزواج وتعود إليه المرة بعد الأخرى، والزواج عندها أهم من الدراسة، وهي لذلك في أعماقها لا تريد دوام الأم، وموتها يخلصها من عذابها، وبقدر بُغضها للأم بقدر الألم الذي ينزله حلمها بالأم في مرضها، والألم وحجمه يعكسان حجم الصراع الذي تعانيه، وموت الأم هو حل جزئي للموقف، لأنها لو ماتت فستكون هي حرّة، وتستطيع أن تبقي بلا زواج وتلازم إخوتها وأباها.

الحلم الثامن: حلمت أني في أول السنة الدراسية بعد أن نجحت وانتقلت إلى السنة الأخيرة، لكني كنت تعيسة لأني لم أعثر على الكتب المطلوبة لدراستي، ولم أفهم ما يقال في المحاضرات. واستيقظت من نومي وأنا أستشعر كآبة وهزيمة لا أدري كنههما.

التفسير: القلق الذي تعانيه هو القلق الذي يشكو منه كل طالب أو طالبة في أول يوم من الدراسة، ومعنى أنها في السنة الأخيرة أن تخرّجها قد اقترب وذلك يقلقها، فالتخرّج سيجبرها أن تترك البيت لتبحث عن عمل، وتتحمل مسؤوليات الكسب وربما تتزوج. وعليها إذن أن تختار بين الوظائف المتاحة والأزواج الموعودين، ولا مفر وقتها من حسم الاختيار، ولا سبيل إلى التسويف والتأجيل إذا خرجت فعلاً، وإذن فهي تخشى المستقبل وتخاف أن تشب عن الطوق. لكن لماذا هذا الخوف؟ أتكون هذه الفتاة من النوع الجبان غير الناضج،

والذي يرهب الدخول في تجارب جديدة وأن يتحمل المسؤولية، وأن تكون لها أعباء النساء، وتفضل أن ترتبط بعائلتها لأنهم يكفونها كل شيء ويؤمنون حياتها؟ أو ربما كان موقفها هذا هو تكرار لمواقف مشابهة سابقة فيها الفراق وعذابه وإحباطاته. والحلم الأخير من زُملة الأحلام هذه يعطينا الحل:

الحلم التاسع: حلمت بالأمس أني كنت وأختي أيام الطفولة، وكنا نمثل تمثيلية دوري فيها أن أقوم بالغناء لدقائق. وكنت أحاول أن أشترك ورفضوني ولم يقبلوا أن يعطوني هذا الدور الغنائي إلا في آخر لحظة، وتعثرت بروفاتي ولم أكن أعرف كيف أحفظ، وكانت أختي هي كل شيء، وهي الأولى، ولسبب لا أدري ما هو كنت أدخل وأظهر أمام الناس في غير وقتي وكانوا يسحبونني ويخرجونني بينما أختي تغني ويصفقون لها، وأخيراً أدخلوني فغنيت سطوري القليلة ومثّلت بيديّ وملت مع الأغنية فصفقوا لي كثيراً وكنت مندهشة فقد نجحت.

التفسير: يلقي الحلم الضوء على ما يُسمَّى التنافس بين الأشقاء والشقيقات، والحالمة تتنافس مع أختها على المركز الأول عند الأبوين، إلا أن الأبوين يؤثران الأخت عليها، فهي الأولى، وهي كل شيء، ودورها هي ثانوي، وما كانوا سيعطونها دوراً إلا في آخر لحظة وذلك أن بينها وبين أختها فارقاً في العمر الزمني، وما كان الأبوان سينجبانها إلا أنهما لظروف خاصة بهما أنجباها، وهي تحاول باستمرار أن تقول لهما إنها موجودة بين الأسرة، وتدخل في غير وقتها فيسحبانها للخارج، وأخيراً كبرت ودخلت الجامعة وقاربت أن يكون لها دور وإن كان صغيراً، وهي كما توحي نهاية الحلم يبدو أنها قد نضجت أخيراً وستقوم بدورها حتى لتنتزع من الجميع التصفيق لها، وبذلك تكون قد حسمت مشكلتها، فهي لم تعد بحاجة إلى أن تلتصق بأهلها وستشق طريقها معتمدة على نفسها، وتكون أيضاً قد حسمت الصراع بين الزواج والاستقلال لأنها في هذه المرحلة على الأقل تفضل أن يكون لها دور على مسرح الحياة، ولقد كانت تخشى أن تنفصل عن أهلها لأنها لا تأمن على نفسها بدونهم وغير مستعدة أن تضحي بالأمان لقاء

الزواج، أما وقد شعرت بالأمان فإنها تتقبل مسؤولية التخرّج وأنها قد صارت ناضجة.

ولنتحدث الآن عن مدى صدق هذا المنهج السابق، فلقد رأينا أنّا قد استطعنا أن نتحصل عن طريق زُملة الأحلام للشخص، على تشخيص للصراعات التي يعانيها وديناميات شخصيته، بمساعدة التفسيرات التي يقدمها هو نفسه لهذه الأحلام، ولكننا في الحقيقة لا ندري مدى صحة ما تذهب إليه تفسيراتنا، وربما كان ما تطوع به الحالم بإلقاء الضوء عليه ليس إلا شطحات من عنده، وربما هو قد يذهب إليه ما يذهب إلى غرض في نفسه، وقد يكون ما نذهب إليه أيضاً هو مذهب خاطئ، إلا أننا بالقطع نستطيع التحقق من صحة تفسيراتنا بما تعارفنا عليه من وسائل التحقيق من صحة أي رأي شخصي.

فأولاً: لو اتفق اثنان أو أكثر على تفسير لظاهرة فإن اتفاقهما قد يغري على التأمين على صحة ما ذهبا إليه، وطبقاً لهذا المنهج «منهج الاتفاق بين آحاد الناس» فإن الفيصل النهائي على صحة التفسير ليس هو مطابقته للحقيقة، ولكنه أن هذا الرأي هو رأي أناس خبراء أو أنه رأي الثقات، وثقات الناس يتحققون من صحة آرائهم بأن يبسطوا هذه الآراء للبحث مع زملائهم فإن وافقوهم فهو رأي صحيح. وثقات الناس يجتمعون على الرأي الواحد بأن يبحثوا أمره معاً، يتداولون الأفكار حوله ليمحّصوه ويصلوا بشأنه إلى قرار. والناس الثقات قد يصل آحادهم إلى الرأي نفسه كلٌّ على حدة، ثم يقارنوا ما توصلوا إليه ببعضه البعض ليتبينوا اتفاقهم، وهذه الطريقة الأخيرة هي أفضل طرق الاتفاق.

وثانياً: فإن الرأي الذي يذهب إليه أحد الناس إذا كان يصلح للتطبيق على أكبر عدد من الحالات فهو رأي يغلب فيه الصواب، وكلما زاد عدد الظواهر التي يمكن تفسيرها بالنظرية فإن الاحتمال يقوى بأن النظرية صحيحة، فمثلاً إذا كانت معاني زُملة الأحلام منفصلة تتوافق ويمكن أن تندرج بسبب هذا التوافق تحت افتراض واحد يجمع بينها جميعاً بحيث لا يكون هناك تعارض ما في

التفسيرات المختلفة، فإن الغالب أن تفسيراتها صحيحة. وهذا المبدأ هو «مبدأ التوافق الداخلي»، واختبار توافق البواطن أو الدخائل يجد أوسع تطبيق له في استبيانات الشخصية التي صُممت على أساسه.

وثالثاً: فإنه إذا اتفقت نتيجة اختبار مع نتيجة اختبار آخر أو مع نتائج أكثر من اختبار، فالغالب أن نتيجة الاختبار الأول صحيحة. و«مبدأ التوافق الخارجي» هذا لو طبّقناه على التفسيرات المختلفة والواحدة من جهة أخرى، لزملة الأحلام، فإن مضاهاة التفسيرات بتفسيرات أخرى، نحصل عليها من معطيات اختبارات تشخيصية مماثلة، كاختبار تفهّم الموضوع TAT، واختبار رورشاخ، واختبار التداعي الحر إزاء الكلمات، واستبيانات الشخصية، وملاحظة الحالم في مواقف محكومة أو مواقف حرة، واللقاءات معه، ورصد سلوكه المعبّر، والمعلومات التي نجمعها عنه، يجعلنا نميل بالقطع إلى الحكم على التفسيرات التي نذهب إليها للأحلام والمتفقة مع نتائج الاختبارات السابقة بأنها صحيحة.

ورابعاً: فإذا صدقت الأحداث المستقبلة مع ما تذهب إليه التفسيرات التي تقول بها النظرية، فإن ذلك لدليل على صدق النظرية. وهذا المبدأ نسميه «مبدأ الإنباء» في النظرية.

وخامساً: فإنه إذا كان الإنباء هو التنبؤ بالمستقبل، فإن هناك ما يجعلنا نستقرئ الحاضر لنتنبأ بما كان عليه الماضي. والإنباء بالمستقبل Prediction، والتنبؤ بالماضي Postdiction هو مبدأ قال به أول مرة توماس هكلسي، ووصفه بأنه «منهج صدّيق Zadig، عن شخصية ڤولتير في إحدى روائعه وهي رواية «صدّيق»، وصدّيق هذا يستخلص أشياء من الحاضر يفهم بها الماضي ويستعيده في ذهنه، وهذه الطريقة التنبؤية التي يعود الإنباء فيها القهقرى للماضي Retrospective prophecy يسميها أولبورت عالم النفس الأشهر «منهج التنبؤ بالماضي»، ولهذا المنهج ميزة على «منهج الإنباء بالمستقبل»، وذلك أن الباحث يستطيع به أن يتحقق من شيء حدث فعلاً في الماضي، وذلك أيسر وأوقع من التحقق من حدوث شيء قد يقع

في المستقبل.

وطرق التحقّق من صحة النظرية أو الرأي أو التفسير السابقة الخمس تقوم جميعاً على قاسم مشترك بينها، وهي أنها جميعاً تشترط الاتفاق، وهو اتفاق نستطيع أن نجمله على حسب ترتيبها السابق بأنه:

أولاً: إتفاق جماعي.

ثانياً: إتفاق باطن.

ثالثاً: إتفاق ظاهر.

رابعاً: إتفاق زمانه المستقبل.

وخامساً: إتفاق زمانه الماضي.

فأما الاتفاق الجماعي: فلو أننا استقدمنا عدداً من خريجي أقسام علم النفس بكليات الآداب وأعطيناهم زُملة أحلام، وطلبنا منهم إعطاء تفسيرات لها، فإن تفسيراتهم لتتشابه ويندر بها الاختلاف، فمع القدر الكافي من العلم بديناميات الشخصية وسيكولوجية تحليل الأحلام فإن المتوقع أن تكون التفسيرات على قدر من التماثل مهما تعدد المفسّرون، وذلك شيء يقوّي صحة ما نذهب إليه من أنه حيث يكون هناك اتفاق جماعي حول تفسير الأحلام فإن ذلك لدليل على صحة الأخذ بهذا المَنهج - منهج الاتفاق الجماعي - كمعيار لقياس صحة التحليل.

وأما التوافق الباطن: فهو ما يجمع زُملة الأحلام للشخص الواحد حول فكرة تتكرر فيها جميعاً بطريقة أو بأخرى، وذلك دليل على أن كل شخص وإن كانت له صراعاته التي تظهرها أحلامه، وذلك لأنَّ هناك دائماً صراعاً أساسياً يجمع بينها جميعاً كالخيط الذي يصل بعضها ببعض. وحيث تتكرر الفكرة فإن الشخص يجرّب معها في كل حلم حلاً جديداً لعله عن طريق المحاولة والخطأ يصل فيها إلى حلٍّ يرضيه وينسجم معها. وهذا الاتفاق أو التوافق بين زملة الأحلام هو ما نصفه بأنه باطن، أي يعمل عمله من داخلها، فهو سمة باطنة فيها، والمَثَل على ذلك زُملة الأحلام التي للفتاة التي تعاني من الصراع بين النضج وما يتبعه من تحمّل للمسؤولية، والرضى بأن تتزوج وبين أن تستمر في كنف أسرتها ترعاها الأسرة بدون مسؤوليات عليها، فإنْ كانت الفتاة تحلم كل مرة حلماً مختلفاً فإن باطن هذه الأحلام يقوم على الفكرة الرئيسة التي توحّد بينها.

ويدعم هذا الاتجاه في تفسير الأحلام أن نظريات الشخصية تقول بهذا أيضاً، فمن المفروض أن كل شخص تتنوع سلوكياته وتتباين تصرفاته إلا أنها جميعاً تستقي من مصدر واحد، ولا بد أن يكون هناك ما يجمع بينها وهذه الزملة من الأحلام التي نقدمها كمثال لما نقول.

الحالة: طالبة في السنة الثانية الجامعية وعمرها عشرون سنة، مخطوبة، وخطيبها متعاقد للعمل في إحدى البلاد العربية وله سنتان غائب عنها، وهي ضَجِرة من وضعها لأنها مخطوبة وليست مخطوبة، فليس هناك ما يشير إلى قرب زواجها، فلا هي تلتقي بخطيبها كالبنات فيغازلها ويرضي حاجاتها العاطفية والجنسية، ولا هي حرة تتصرف مع زملائها بوصفها غير مرتبطة فتستمع إلى مغازلاتهم وتتجاوز عن ملاطفاتهم وربما تقع في الحب وتعيش هذه التجربة الثرية مثل رفيقاتها، وربما يتقدم أحد لخطبتها فتتزوج بسرعة وهي تعاني هذا الصراع وتحلم أحلامها من حوله.

الحلم الرئيس: دخلتُ مطعماً وكنت وحدي أبحث عن طاولة ولاحظت أن الطاولات جميعاً مشغولة. وكان على كل طاولة عريس وعروسة. ولم أجد إلا طاولة منعزلة رضيت بها، إلا أني انتظرت أن يخدمني أحد ولكن عبثاً، وأخيراً نفد صبري فخرجت، وكان عليّ أن أنزل سلماً حلزونياً لأتوجه إلى موعد، فقد تقدمت بطلب لأعمل، وكنت مرشحة لهذه الوظيفة، وبدأت أنزل إلا أن الهواء كان يطيّر فستاني فيتعرّى فخذاي، وجهِدتُ أن أستر نفسي إلا أن محاولاتي ذهبت أدراج الرياح فأسرعت أنزل وقد تملكني التعب.

التفسير: يشرح الحلم حالة الحالمة، ويقول إن البنت قد عيل صبرها، ولقد قررت أن تتصرف وتتولى أمرها بنفسها. وتعكس حيرتها وتعبها ووضعها النفسي المجهد، وما يكلفها كبتها لعواطفها ونوازعها الجنسية.

الحلم الثاني: حلمت أن خطيبي قد عاد، وقد أحضر معه سيارة جميلة أخذني بها، وكنت غير مصدقة لنفسي، وظللت أقول هل أنا أحلم واستيقظت لأتبين لخيبة أملي أني كنت أحلم فعلاً.

التفسير: يصوّر الحلم ما تراه من حلّ

أمثل لمشكلتها، وهو أن يعود خطيبها فلا تكون هناك صراعات.

الحلم الثالث: حلمت أني مع خطيبي، ولكني لاحظت أنه لا يضع دبلة الخطوبة، فسألته فقال إنه لم يعد يلبسها، وقلت له غاضبة وهل تريد أن تتحرر من الخطبة؟

التفسير: الحالمة تقلب المسألة وتعكسها وتجعل خطيبها هو الذي يخلع الدبلة وتُسقط ما تنويه عليه.

الحلم الرابع: حلمت أن خطيبي مات، وكانت جثته في حقيبة سفر في غرفة نومي، وأصابني الفزع لما اكتشفت ذلك. وجاء الحانوتي وأخذه كما هو في الحقيبة، ووضعه على مسرح، وكانت الأنوار باهرة، وهناك زفاف، وكانت العروس ترتدي فستاناً أخضر، وهو اللون الذي أحبّه في فساتين الزفاف. وكنت أبكي، وفجأة خرج خطيبي من الحقيبة وضحك كثيراً لدهشتي، وكان يقول كنت أمثّل عليك! كنت أهزل معك! وبالمناسبة كثيراً ما أحلم بأن خطيبي قد مات.

التفسير: إن أية فتاة في مثل ظروفها لا بد أن ترى الحل لمشكلتها المعلّقة أن تفسخ الخطبة، وهو ما يعني أن خطيبها مات، أي أنه مات بالنسبة لها، وهي تعلّق على ذلك بأنها كثيراً ما تراه في الحلم وقد مات. وربما يعني كونه في حقيبة سفر أنها تذكر سبب فسخ الخطبة، أنه إنسان دائماً غائب في سفر، فسفره هو سبب موته بالنسبة لها. وأما الزفاف على المسرح فهو زفافها هي العلني الذي تحب أن تحتفل به، والفستان أخضر لأنها تحب لون فستان الزفاف أن يكون أخضر، وموت خطيبها على المسرح هو نهاية الخطبة علناً ليعرف عنها الجميع وبذلك تتحرر من خطيبها وتستطيع أن تتزوج بآخر. وهذا الحل أن يموت خطيبها، على الحقيقة مرفوض منها، فإن موته المطلوب هو موته بالنسبة لها، يعني فسخ الخطبة، أما أن يموت على الحقيقة فهي تقول إنه تمثيل.

الحلم الخامس: حلمت أني كنت أجلس مع شقيق خطيبي نتحدث عنه وعن غيابه الذي طال، ثم فجأة وجدته هو نفسه خطيبي وضحكنا.

الحلم السادس: كنت مع ابن خالتي نسير في شارع طويل. وجاءت سيارة أجرة فأشرنا إليها، وأخذتنا إلى جهة لا أعرفها.

الحلم السابع: حلمت أني وأخي نسير في حديقة، واكتشفت أن ابن الجيران جالس غير بعيد، وكان طالباً في السنة النهائية بكلية الطب، وكانت معه فتاة، وتقدمنا منه وسلّمنا عليه، وكان الارتباك عليه واضحاً، فقلت له هل هي قريبتك؟ قال نعم، ولكني أذكر أني رأيت هذه الفتاة في الجامعة، وكان هناك لغط كثير حول سلوكها، والولد كان عندي محترماً.

التفسير: الأحلام الثلاثة تشير إلى رغبة الفتاة أن تتعرف إلى الجنس الآخر، وأن تقع في الحب، ولكنها لا تريد أن تكون سيئة السلوك وأن يكثر اللغط حول تصرفاتها. وهي ترى نفسها مع شقيق خطيبها الذي يحل محله، ومع ابن خالتها، ومع ابن الجيران، وكلهم شخصيات محترمة يمكن أن يكونوا بدائل للخطيب الغائب، وهي تريد علاقة حب محترمة وليس علاقة جنسية. وربما يعني الحلم الأخير أنها تريد أن تبرّر رغبتها في الوقوع في الحب، وإن يكن علاقة يدور حولها اللغط، بأن تنسب لابن الجيران «المحترم» انه يحب فتاة غير محترمة.

وأما «الاتفاق الظاهر»: فهو الذي يكون بين النتائج التي نتوصل إليها عن طريق الأحلام والنتائج الأخرى التي قد نبلغها بالطرق السيكولوجية الأخرى لدراسة الشخصية، فإن الدراسات الحديثة، وخاصة في مجال اللقاءات الشخصية، تؤكده. وما نتحصل عليه من معلومات عن الحالم وبيئته وظروفه، وما نسأل عنه من المحيطين به، ومستدعيات الحالم نفسه حول حلمه، وذكرياته، كلها تتفق مع تفسيرات الأحلام التي تتماشى مع أحداثها.

وأما «الاتفاق الذي زمانه المستقبل»: فنعني به أن نختبر صدق التفسير بما يصدق منه مستقبلاً، أو تنذر به، وكانوا يسمونها الرؤيا الصادقة، وتفسيرات أحلام صاحبيّ يوسف، وفرعون يوسف، كلها صدقت. وهذا الصدق المستقبلي دليل على صحة التفسير الذي يذهب إليه المفسر. والإنباء Prediction إذن يمكن أن يكون طريقة من طرق التحقّق من صدق التفسير، ولقد جرّبه العلماء، وصدق في الغالبية العظمى من

التفسيرات. فإذا كانت الأحلام السابقة للفتاة المخطوبة لخطيب مسافر وطال سفره على ما هي عليه، أفلا نتنبأ منها أن هذه الخطبة لا محالة مفسوخة؟ فإذا صدق من بعد أن الخطبة فُسخت فعلاً فإن هذه النتيجة قد يمكن أن تستخلصها من مقدماتها السليمة. وفي زملة أحلام البنت التي تعاني من مشكلة الاختيار بين التخرّج والحرية والمسؤولية، وبين أن تتخلف دراسياً لتظل مع أهلها وترفض لهذا السبب أن تتزوج، لأن الزواج يعني أن مسؤوليتها صارت إلى نفسها - رأينا في آخر حلم لها أنها نجحت في أن تفعل ما لم تكن تتوقعه من نفسها، وما أثار إعجاب المحيطين بها، وتنبأنا بأنها ستنجح فعلاً بعد أن استبصرت حالتها من خلال التفسيرات المقدّمة لأحلامها، وقد حدث ذلك فعلاً مما أجريناه من تحقيقات حولها من بعد.

وبالمثل في التنبؤ بالماضي Postdiction فقد أمكن أن نعرف من الأحلام أحداثاً هامة من الماضي أمكن التحرّي عنها ووُجِدت صحيحة. والحالم نفسه قد لا يؤكّدها لسبب في نفسه، ولكن اللقاءات التي تتم مع أهله ومعارفه والكبار في السن من المحيطين به، قد نتعرف من خلالها على معلومات كانت دائماً متفقة مع التفسيرات الصحيحة للأحلام، والتي يذهب إليها خبراؤها من محللين ومفسرين.

إذن فأنْ نعتبر الأحلام معطيات سيكولوجية نعوّل عليها لدراسة الشخصية مسألة سليمة، ووجهة نظرنا في ذلك أن الأحلام مصدر معلومات هائل عن الشخصية، وأنها وسيلة إسقاطية، ربما كانت أثرى وأصدق الوسائل الإسقاطية إطلاقاً. والأحلام من وجهة نظرنا محاولات من الحالم لحل صراعاته الحالية. ونحن نعتمد في منهجنا في تفسير الأحلام على الأخذ بمجموعة من الأحلام للحالم الواحد، وليس التعويل على حلم واحد، فأحلام المجموعة الواحدة تفسر بعضها البعض، وتلقي الأضواء على معاني الرموز في بعضها البعض. وما نذهب إليه هو نظرية علمية يمكن تطبيق طرق التحقق من صدقها علمياً، ولقد أجملنا

هــذه الــطــرق فــي خــمس هــي الاتــفــاق الـجـمـاعـي، والاتـفـاق الـبـاطـن، والاتـفـاق الظاهر، والإنباء والتنبؤ، على اعتبار أن أسـاسـهـا الـمـشـتـرك جميعاً هو الاتفاق، وكـانـت كـمـنـهـج لـتـفـسـيـر الأحـلام. وطريقتنا إن بدت متباينة عن طريقة فرويد في تفسير الأحلام التي تقوم على التداعـي الحر، إلا أنهـا مع ذلك تدور فــي إطــار مــن الــرؤيــة الــفــرويــديــة الــعــامــة. وســنــحــاول أن نــطــرح طــريــقــة فــرويــد ونــقــارن بــيــنــهــا وبــيــن الــطــرق السابقة.

الباب الرابع عشر
«تفسير الأحلام بالتداعي الحر»

كان المنهج الشعبي في تفسير الأحلام هو المنهج السائد قبل فرويد، فمنهج فرويد هو أول منهج علمي. وقبل فرويد كان الناس يعتمدون في أول الأمر على طريقة التفسير الرمزي للأحلام، فكل شيء يعني شيئاً، فمثلاً في حلم فرعون السبع بقرات العجاف تعني سبع سنين عجاف، والسبع بقرات السمان تعني سبع سنوات من الخير، وان تأكل البقرات العجاف أخواتها السمان يعني أن يأتي القحط عقب الشبع، وما نلاحظ فإن هذا المنهج يعتمد على ثقافة المفسّر وسعة اطلاعه وحذقه، وقد يتراءى له أن الرمز له معنى معين قد لا يراه مفسر حاذق آخر مثله، ومن ثم فالتفسير كان ذاتياً، وهذا ما حذا بابن سيرين أن يضع شروطاً خاصة لا بد أن تتوافر في المفسر بهذه الطريقة.

وأخذ الناس من بعد بمنهج آخر في التفسير، يعتمد على الرجوع إلى كتاب في التفسير أو ما يشبه القاموس، فإذا رأى الواحد منهم أنه على سفر، يفتح كتاب التفسير على بند السفر، ويقرأ ما يعنيه الرمز، ثم يفك شفرة الحلم بأن يترجم رموزه وفق ما يقوله الكتاب. والطريقة لذلك تسمى طريقة التفسير بفك الشفرة أو تسمى منهج الشفرة.

وجاء فرويد، وكان قد تتلمذ على أستاذ نابه هو بروير، وكان بروير يعالج المرضى بالعُصاب، ولاحظ أنه وهو يتحدث مع المريض ويتناول أعراضه، فإن المريض يستطرد منها إلى أفكار له حولها، ومن ضمن هذه الأفكار ما يحلم به المريض، وتعلّم بروير أن يتناول كل فكرة عند المريض، ويتابعها في تفكيره بمناقشتها معه جزءاً جزءاً، إلى أن يصل إلى جذورها التي هي مصدر الخطأ في الفكرة، فإذا استبصرها المريض فإن العَرَض الذي يمثل الفكرة يزول عنه.

وأخذ فرويد بمنهج بروير، واعتبر الحلم ظاهرة نفسية، وعَرَض من أعراض الاضطراب العُصابي، ومثلما كان يناقش المريض حول أفكاره فكان أيضاً يناقشه في أحلامه، وتعلّم أن يعدّ

المريض قبل هذه المناقشة إعداداً نفسياً، بأن ينبّهه إلى طريقته وما يهدف إليه منها، وهو أن يزيد إدراك المريض لحالته، ويقتضي منه ذلك أن يقول أثناء جلسة العلاج كل ما يعنّ لذهنه من خواطر وذكريات، ومهما كانت، دون أن يحاول أن يخفي شيئاً. ولاحظ فرويد أن مَلَكة النقد تكون عند المرضى قوية كلما تواردت إلى أذهانهم خواطر «ممنوعة» أو «خطيرة»، وكان عليه أن ينبه المريض قبل العلاج أن يحاول أن يلغي مَلَكة النقد هذه، أو يعطلها أثناء توارد خواطره. وتوارد الخواطر هذا يسميه فرويد ملاحظة ذاتية، حيث تفكير الشخص يكون متوجهاً لما يرد على ذهنه، وهو ضرب من التفكير ولكنه يختلف عن التفكير، أن الأفكار هنا تأتي متحرّرة من أية قيود، وبدون قمع أو كبت، في حين أنها في التفكير العادي تغربلها ملكة النقد، فتستبعد بعضها أو توجز بعضها أو تقوم بتحريف بعضها. والمريض في الملاحظة الذاتية إذ يأخذ بمنهج التداعي الحر يكون حيادياً مع أفكاره، فلا ينحاز لبعضها ولا يعارض بعضها، وهذا هو الشرط الأساسي لإتمام العلاج. والأحلام ضرب من الأفكار، وإنما هي أفكار مصوّرة، والشخص عندما ينام يسترخي فتكون هذه الأحلام التي تنبعث أفكاراً لا إرادية. والمريض تحت العلاج بطريقة التداعي الحر يسترخي أيضاً بحيث تتوارد مستدعياته، إلا أنها لا تتوارد لا إرادياً كما في الأحلام ولكن إرادياً، ويفيده جداً ما يوفره له الاسترخاء من طاقة، فيوجهها لعملية إبتعاث الأفكار الإرادية.

وقد يسهُل التداعي الحر عند بعض الناس، لأنه من اليسير عليهم أن يفتعلوا الحيادية مع أفكارهم إذا طلبنا منهم ذلك، إلا أن البعض يشق عليهم ذلك لاعتيادهم ممارسة النقد على أنفسهم وتمحيص أفكارهم، والنتيجة أن الأفكار اللاإرادية في الحلم يقاومونها فتقل أحلامهم، كما أن الأفكار الإرادية في التداعي الحر تحرك فيهم مقاومة عنيفة تحول دون ابتعاثها. وكان فرويد من الناس الذين يسهل عليهم ابتعاث الأفكار بالتداعي الحر، فطبق المنهج على نفسه، وأورد الكثير من الأحلام في كتابه

«تفسير الأحلام»، ناقش فيها خواطر الحلم، وأحداثه وذكرياته، عن كل كلمة، أو إشارة وردت به.

وتقوم طريقة فرويد في الاسترخاء على توفير جلسة مريحة للمريض بحيث يستلقي على أريكة، ثم يبدأ المريض بسرد خواطره حرة، بما فيها أحلامه، وعند تناول الأحلام يكون تناولها جزءاً جزءاً، والحالم لا تَرِدُ على ذهنه أية خواطر لو حاول أن يعلّق على الحلم ككل، فإذا قسمناه يستطيع أن يتحدث عن كل جزء بسيل من المستدعيات، بحيث تمسك الفكرة بتلابيب الفكرة، وتنهال الأفكار التي كانت مخبوءة ومجهولة منه عن هذا الجزء أو ذاك.

إذن فوظيفة المحتوى الظاهر للحلم عند فرويد هو أن هذا الظاهر بمثابة العلامات على الطريق المؤدية للمحتوى الباطن. والمحلل يقف من الحالم وهو يستدعي خواطره موقفاً حيادياً ومشاركاً، فهو حيادي بمعنى أنه يستبقي نفسه خلف عملية التذكّر أو عملية التداعي، حتى أنه ليتخذ مجلسه خلف الحالم وهو مستلق في استرخاء على الأريكة. ويكون مجلسه الخلفي، مع الإضاءة الخلفية، بحيث لا يشغل الحالم بأيهما وينهمك في عملية ملاحظة ذاته، واستدعاء خواطره. ويسجل المحلل ما يراه مهماً، وقد يستوقف الحالم ليستزيده توضيحاً لنقطة، أو يوجّه عملية التداعي. وبقدر ما يكون الحالم وقد استغرقته خواطره، بقدر ما يكون استغراق المحلل تفكيراً في هذه الخواطر. وهذا هو ما نعنيه بالمشاركة من طرف المحلل. وتقتضي هذه المشاركة أن يكون متقبلاً للحالم ولخواطره، فلا يستثقل دمه مثلاً، أو لا يكون في مزاج بحيث يتجاوب سلبياً معه. ويُحذر المحلل أن يفرض نظرياته مقدّما على ما يسمعه، ويغصب مستدعيات الحالم في قوالب نظرياته، فتتوه منه الحقيقة، ويجانبه التفسير الصحيح والتشخيص الصادق. وليس هناك حلم سخيف، وحلم مهم، ورؤيا صادقة، فكل الأحلام سواء، وكلها منبئة، بمعنى أنها تفصح عن شيء وتكشف مستوراً. والحلم هو عمل الحالم، وإبداعه الذي يتوفر عليه بكل مكوناته الثقافية والذهنية والنفسية والحياتية، والمحلل إذ يستمع إلى الحلم،

ثم ينصت لمستدعيات الحالم، إنما يستشرف العالَم الباطن للحالم، ويستمع إليه في حوار مع نفسه، ويشاهده على الطبيعة وعفوياً يتعامل مع أجزاء الحلم فيكتشف اتجاهاته ودفاعاته واضطراباته. وأسلوب الحالم في الحلم هو أسلوبه نفسه في الحياة والحلم مفتاح شخصية الحالم، وسؤال الحالم عما يعنيه الحلم قد يكون مباشرة وقد نستقصي فيه كل جزء، وقد نتحرى عن نشاطاته في اليوم السابق على الحلم، والأمر متروك لكل محلل على حدة، ففي تفسير الأحلام طبقاً لمنهج التداعي الحر يكون لكل شيخ طريقته كما يقول المَثَل. وقد يحدث أن لا يستجيب الحالم للتداعي، ولا يتحدث بشيء ويقف موقفاً سلبياً، وقد يفيد في هذه الحالة أن يبدأ المحلل الكلام بما يعرفه من حياة الحالم، وما قد ينعكس من هذه المعرفة على الحلم من تفسيرات. وقد يدرك المحلل تفسير الحلم دفعة واحدة ولكنه لا يعلنه للحالم. وقد لا يفيد الحالم ما نعرفه عن الحلم، وقد نتريث في التفسير، وقد نؤثر أن نتأكد أنه مستعد لتلقي ما نقول. وتحتوي أحلام المرضى بالقلق على معلومات لا يفيدهم أن يعرفوها. وبعض تفاصيل الأحلام تقودنا مباشرة إلى المعنى المخبوء، وبعضها يحتاج إلى جهد كبير لتفسيره، وبعضها الغاية منه التمويه على الحالم وصرف انتباهه تماماً عن دوافعه. وقد يضطر المحلل أن يستعيد الحالم أجزاء من الحلم، أو يستعيد الحلم برمته، وقد ينتقي من الحلم شذرات يركز عليها، وهو إذ يسأل عن شيء يبدأ من المعروف وينتهي إلى المجهول، أو من المألوف ويتوقف عند الشاذ. والتفسير الذي هو الغاية والهدف من كل ما سبق ينبغي أن يكون بلغة مفهومة من الحالم، تناسب ثقافته، وتلائم ذكاءه وقدرته على الاستيعاب.

وطريقة التداعي الحر في تفسير الأحلام برغم أن فرويد طرحها في كتابه سنة ١٩٠٠م إلا أنه لم يحدث أن جُرِّبت «معملياً»، ولكن تطبيقاتها الكلينيكية كانت إيجابية في نطاق التشخيص المرضي. والتداعي الحر في تفسير الأحلام يقصر عن الوفاء بأهدافه في مجال تشخيص الشخصية، وبغاية

الكشف عن دينامياتها، فنحن مع غير المرضى نتعجل المعلومات، ومنهج التداعي يتطلب وقتاً ويستلزم الانتظار إلى أن يحلم الحالم مجموعة من الأحلام، ويتطلب تجميع المستدعيات وكتابتها وفحصها والمقارنة بينها، وذلك يستغرق زمناً نحن لا نستطيع إهداره، ولدينا مناهج أخرى أسرع. وأوفر مثل اختبار رورشاخ لقياس الشخصية المسمى «اختبار بقع الحبر Ink-blot test». وليس الناس سواء فيما يتعلق بالقدرة على استدعاء الخواطر والأفكار ومعايشة المشاعر، وبعضهم قد يقدّم مادة غنية جداً ويكون ثرياً في الكلام، وبعضهم قد لا تكون لديه موهبة الكلام ويكون شحيحاً فيما يقول، قاصراً في تعبيراته، وبعضهم قد تحول المقارنة دون أن يستطرد في السرد. وأيضاً يتمايز المحللون، فبعضهم موهوب وله البصيرة الحادة، ويمهر في استدراج الحالم واستقراء المستدعيات، ويتقن المناورة، فإذا واجهته المقاومة فقد يبدأ من جديد، أو يصوغ السؤال بطريقة مختلفة، وبعضهم ليست لديه هذه الدراية أو البراعة أو الموهبة، ومن ثمّ فقد تكون طريقة تفسير الأحلام بتحليلها أيسر في التطبيق من طريقة تفسير الأحلام بالتداعي الحر. مع الأخذ في الاعتبار أن منهج فرويد يتوجه من المحتوى الظاهر للحلم إلى محتواه الباطن، في حين أن طريقة تحليل الأحلام تقوم على التعامل مباشرة مع المحتوى الظاهر، وإن كان ذلك يتم في إطار من المقولات الفرويدية كما سبق أن نوهنا (Erikson, H.: The Dream Specimen of Psychoanalysis).

الباب الخامس عشر
«الإسقاط في تفسير الأحلام»

الإسقاط هو أن ننسب أفكاراً أو مشاعر لنا إلى غيرنا، ومن الأمور المألوفة أن يسارع الناس إلى تفسير أحلام غيرهم بمجرد سماعها مع أنهم ربما لا يعرفون شيئاً البتة عن ذلك، أو قد يعرفون النزر اليسير الذي لا يؤهلهم لأن يدلوا برأيهم فيما يسمعون. وربما كان مرد هذه العادة أننا جميعاً نخبر الأحلام وأنها قد تتشابه في محتواها، وأن منها مجموعة نمطية قد تغرينا أن نضع تفسيرات متشابهة للرموز الواحدة، أو ربما كانت عملية التفسير سهلة لأنها عملية إسقاطية يُخرج فيها المفسِّر ما يشعر هو به أو يفكر فيه حيال محتوى الحلم ويعرضه كتفسير. والواقع أن الإسقاط هو ما نحذره دائماً عند التعرّض لتفسير الأحلام. ولا يمارس المحلل تفسير الأحلام إذا تدرّب على تجنّب الإسقاط بحيث لا يُنسب ما عنده إلى مكونات الحالم ويعطيها تأويلات هي إسقاطاته عليها، ولعله لهذا السبب قرن فرويد وتلاميده تفسير الأحلام بالتداعي الحر الذي يقوم به الحالم نفسه، وشرطوا أن يشارك الحالم في تفسير أحلامه، ولا يسارع المحلل إلى إلقاء التفسير في وجه الحالم، ولكنه يستدرجه إلى هذا التفسير بحيث يصنعه والحالم نفسه، ويقول به في لحظات الاستنارة والاستبصار بمعاني الرموز في الحلم وإحالاتها على حياته في الحاضر والماضي.

والمعوّل عليه في تفسير الأحلام بتحليلها بدون التداعي الحر أن المحلل لا بد أن يعرف بعض المعلومات عن الحالم، ولا بد أن يلتقي الحالم ويجلس إليه ويعاينه بنفسه، ويسمع منه. والحلم كما قلنا هو إبداع الحالم، ولا ينفصل عنه، وهو تفكيره مطروحاً إلى الخارج، وهناك دائماً عملية إحالة بين الحلم والحالم، وقد يدأب بعض الناس على أن يرسلوا أحلامهم في خطابات ليفسرها لهم آخرون، وقد يحملها إليهم مَن يطلب منهم تفسيرها، وهو ما نسميه تفسير الأحلام الكاذب Pseudo - oneiromancy. وتثبت البحوث على الأحلام أن دراسة

تاريخ حياة المفسّر تبين أن ما يقدمه من تفسيرات ترتبط بوجهة نظره وثقافته وإطاراته المرجعية واتجاهاته واهتماماته. ويستدخل المفسر عواطفه وما يحب وما يكره وخبراته وأفكاره. ولذلك فإن الأحلام التي يكون مضمونها المشاعر والعواطف قد يصيب المفسر في تفسيراتها متكهناً الحالة النفسية السائدة فيها.

وهذه الأحلام العشرة أعطيت لخمسة وعشرين مفسراً فجاءت تفسيراتهم لها كما سنبين من بعد:

الحلم ١ - كانت الحالمة تتحدث إلى شخص عندما أخذ هذا الشخص يتضاءل إلى أن تحول إلى حشرة ثم طار.

الحلم ٢ - كانت السماء ممتلئة بالطائرات التي تسقط باراشوتات. وأدرك الحالم أن أحد الباراشوتات معلق وبه طفل وأخذت المدفعية الأرضية تصوب ناحيته، والحالم قلق على مصير الطفل.

الحلم ٣ - كانت هناك دقّات على الباب، وفَتحت الحالمة فوجدت رجلاً لم تتبينه، ولكنها متأكدة أنها تعرفه.

الحلم ٤ - كلب صغير وكلب كبير عثرا على بيضة فرخة، وأخذ الكلب الصغير يساعد الكلب الكبير على رفعها من الأرض، ولكنها تقع من فم الكلب الكبير على الأرض وتتكسر.

الحلم ٥ - عندما عاد الحالم ليلاً إلى حجرته، وجد إلى جوار سريره سريراً كبيراً قد نُصب ينام فيه رجل وزوجته لا يعرفهما.

الحلم ٦ - يذهب الحالم إلى البقّال لكنه يجد مكانه الشركة التي يعمل بها، فيعود إلى البيت ويجد مكانه مكتب البريد.

الحلم ٧ - كان على الأسرة أن تخرج للنزهة، ويبحث الحالم عن أمه فلا يجدها ويتوجه سؤاله إلى الأب والإخوة والأخوات فلا يعطيه أحد جواباً.

الحلم ٨ - حلمت الحالمة أن صاحبتها وكانت جميلة ولعوباً، تقدمت للانتقال إلى مدرسة أخرى معروفة بجديتها وبرامجها الدراسية القوية.

الحلم ٩ - ينزل الحالم وأمه في محطة السكة الحديد، ويبحث عن حقيبة سفر ويعثر عليها مفتوحة، ويحاول أن يضع على

نفسه بعض الملابس فقد كان عارياً، ولكنه لا يستطيع فيستر نفسه بالجلوس، ويضع طفلاً على حجره.

الحلم ١٠ - كانت هناك مخالب كثيرة تقترب منه حثيثاً ولم يستطع أن يهرب الحالم منها.

تحليل التفسيرات:

١ - إختلفت تفسيرات الحلم الأول إلا أن نصفها تحدث عن قطيعة عاطفية مثل: «الحالمة تخشى أن تفقد عزيزاً عليها»، أو «الحالمة تحب من طرف واحد»، أو «الحبيب سيبتعد إلى أن يطير من حياتها»، أو «الحالمة لا تريد هذا الرجل وتتمنى لو ينتهي من حياتها»، أو «هذا الشخص غير مهم لحياتها». وغير ذلك من التفسيرات مثل: «إنها لا تثق بنفسها»، و«الحلم تعبير عن الشعور بالنقص»، و«الحالمة لا تشعر بالأمان».

٢ - كانت هناك تفسيرات متباينة للحلم الثاني حول امتلاك طفل مثل «رغبة في الإنجاب»، أو «الخوف من الإنجاب»، أو «القلق على طفل»، أو «الحلم صدى لوجود مشكلة معلّقة لم تُحَل عند الحالم».

٣ - دارت التفسيرات للحلم الثالث حول التعرّف على رجل، أو أن يكون للحالمة رجل أو زوج، أو الشوق إلى لقاء شخص مهم.

٤ - الحلم الرابع قالوا فيه إن الكلب الصغير هو إبن، والكلب الكبير أب، أو أنهما أخان صغير وكبير، أو صديقان، والصغير به عقدة نقص أن يقدم يد المساعدة ولكنه يفشل، أو الكبير فاشل والصغير يقوم بواجبة، أو أنهما شخصان أحدهما كفوء والآخر فاشل.

٥ - تباينت التفسيرات فمن قائل إن الحالم هو نفسه الغريب، وهو في حالة خصام مع زوجته، أو الحالم يتمنى مضاجعة امرأة غيره، أو الحالم متضايق أن آخرين قد زاحموه ويضايقونه في عيشته، أو الحالم يعاني من إحباط جنسي.

٦ - أجمع المفسرون على أن انتقال المباني من أماكنها هو اضطراب في حياة الحالم، واختلفوا حول السبب مثل «لأنه يشعر بعدم الاستقرار»، أو «لأنه كثير المشغوليات»، أو «لأنه يسيء توجهاته»، أو «لأنه لا يعرف أين يذهب»، أو «لأنه يخشى

أن يتعطل عن العمل».

٧ - ذهب المفسرون مذاهب شتى في تعليل غياب الأم، فمن قائل إن الحالم قلق على أمه التي يحبها، إلى قائل إن الحالم لا يستشعر الأمان، أو إنه لا يثق في أمه، أو إنه يكرهها أو إن الأم ماتت من زمن غير بعيد.

٨ - الحلم الثامن فسّروه بأنه حلم غيرة، وقال أحد المفسرين إن الحلم يعني أن الجمال وحده لا يكفي بل يلزم أيضاً الذكاء، وقال آخر إن الحالمة زهدت أن يمتدحها الناس لجمالها وتريدهم أن يمتدحوها أيضاً لذكائها.

٩ - قال أحد المفسرين عن حلم التعرّي إنه حلم حلماً كهذا، وقالت واحدة إنه تعبير عن الخوف من التعرّي، وقالوا بل هو الخوف من عتاب الأم.

١٠ - وفسّروا الحلم العاشر بأنه مخاوف من موقف متأزم، ربما هو الزواج، أو ربما وظيفة جديدة، أو ربما الحالم متضايق من ملابس النوم الضيقة، أو ربما هو خوف عام تملّكه من كل شيء ولا شيء.

ولقد تبين من تحليل الاستجابات أن المفسّرين ينفعلون في الحياة في المواقف التي يتخيّلونها للأحلام بالانفعالات نفسها في تفسيراتهم، وأنهم كانوا يعانون من مشاكل قريبة مما وصفوه كتفسيرات، كأن تكون مشاكل عائلية مع الأبوين أو مع الإخوة، أو مشاكل في العمل. وكانت تفسيرات الذين قالوا بعدم الاستقرار أو الشعور بعدم الأمان واحدة في أربعة أحلام، والنتيجة أن التفسيرات جميعها لأنها من غير الثقات في تفسير الأحلام كانت إسقاطات لانفعالاتهم وأحاسيسهم واتجاهاتهم وانطباعاتهم عن الحياة على مواقف تخيّلوها لأنفسهم.

الباب السادس عشر
«الأحلام النَمطية»

- ١ -
أحلام العري

قلنا إن الأحلام تتميز بالخصوصية، ويلزم لتفسيرها إذن أن تكون هناك زُملة منها ليفسر بعضها بعضاً، وتُلقي جميعها الضوء على النَّسَق الرمزي للحالم وطريقته في التفكير الحلمي، وأسلوبه في العَرض الحلمي، وأن يساعدنا الحالم على التفسير، أو تساعدنا معرفتنا بظروف الحالم وشخصيته، وقد نجرّب في تفسير الحلم التداعي الحر للحالم حول موضوع حلمه وأحداثه الظاهرة لنخلص منها إلى المعنى الباطن.

ويبدو أن هناك أحلاماً نمطية لا تحتاج إلى كل ما سبق ويمكن تفسيرها مفردة كما هي، ونطلق عليها هذا الاسم «الأحلام النمطية»، لأننا جميعاً قد خبرناها يوماً ما، ولها عندنا معنى واحد، ويبدو أيضاً أن منشأها عندنا واحد، والمثال على ذلك أحلام العُري كالحلم التاسع من الفصل السابق. والشرط في أحلام العري النمطية - كما نلاحظ - أن العري يتسبب عند الحالم في الخجل، فإذا لم يكن الحالم يستشعر الخجل فللحلم تفسير آخر بالضرورة. وهذا الخجل الذي يستشعره الحالم نتيجة عُريه يعاني من جرّائه، بحيث تتسبب هذه المعاناة في أن تُكَف حركته فلا يستطيع الفرار من الناظرين، ولا يستطيع درء عُريه وسَتره فهو كالعاجز، وقد يتحرك ولكن حركته لا تفيده.

والعُري نفسه يختلف من حالم إلى حالم، وبحسب موضوع الحلم، فقد يكون العري لراقصة هو التجرّد تماماً، وقد يكون العُري لضابط هو أن يسير بدون الكاب على رأسه!

ومن الغريب في أحلام العُري النمطية أن عري الحالم لا يستثير الناس من حوله، فلا أحد يعيره التفاتاً. وارتباك الحالم وعدم مبالاة الناس هو تناقض يلفت الانتباه للحلم، ولولاه لما كان للحلم المعنى الذي نقول به، وذلك أن أحلام العري تعكس رغبة من الطفولة، وفيها كنا نمشي عرايا ويلذ لنا ذلك، وما كانت

النظرات تنتهبنا. وذلك نفسه ما يحدث في الحلم. فالناس لا يتنبهون لنا ونحن نرتبك من العري، والقَلب الذي يحدث - وهو من ميكانيزمات الأحلام أو الحِيَل التي تلجأ إليها - جعل اللذة للتعرّي خجلاً منه. وإذن فالرغبة التي يعكسها هذا الحلم النمطي هي رغبة في الاستعراء أو الاستعراض، وهي رغبة عميقة فينا من الطفولة البعيدة، بل هي رغبة تاريخية في الإنسان منذ الخليقة، ففيما يقال إن آدم وحواء كانا عاريين في الجنّة، ولم يخجلا من عُريهما إلا بعد أن عصيا الله. وكذلك في الإنسان، فإن الخجل يتأتى من انتصار الرغبة السحيقة التي نصفها بأنها لاشعورية، أي أنها فينا دون أن ندري عنها شيئاً أو نعيها، وانتصارها على رقابة التربية والحضارة، أي على الضمير أو الأنا الأعلى الذي موقفه هو موقف الله. فظهور الرغبة عصيان للشعور أو الوعي أو الضمير، والعقاب أن يستشعر الانسان الخجل، والمثال لذلك:

حلم ١ - حلمت أني في عملي وأجلس إلى مكتبي، وفجأة تبينت أني عار، وأخذت أهيل الدوسيهات فوقي، وأنظر حولي مخافة أن يكتشف الموظفون العري الذي أنا فيه.

التفسير: الحالم قد أتى ذنباً يتعلّق بالعمل، ويخاف أن ينكشف ويحاول أن يغطي على فعلته.

حلم ٢ - حلمت أني ليلة زفافي، وكانت زميلاتي قد تحدثن عنها، ولكني لم أكن أخاف شيئاً إلا أن يراني عريسي عارية، فأمسكت بملابسي بشدة واستيقظت من نومي مفزوعة.

التفسير: الحالمة كانت تعاني من تأجيل زواجها باستمرار وتريد إتمام الزواج ولكنها كانت تخشى إعلان رغبتها حتى لا تفسّر تفسيراً جنسياً، وكانت تسكت على مضض، وهو ما يزعجها، ويسبب لها معاناة نتيجة هذا الصراع الذي يحتدم داخلها ولا يدري به المحيطون بها.

- ٢ -
«أحلام موت الأهل»

قد يحدث أن نحلم بأن عزيزاً علينا قد مات، كأن يكون أباً وأخاً أو أختاً أو صديقاً، وعندئذ فقد نحزن ويصيبنا

الكمد ونذرف الدمع الثخين، أو قد لا نتأثر البتة وكأن شيئاً لم يحدث.

والأحلام من هذا النوع، التي يمكن أن نُدرجها ضمن الأحلام النمطية، هي التي نستشعر فيها الحزن حقاً، فبديهي أن نحزن لموت هذا القريب أو العزيز، وغير الطبيعي أن لا نحزن، ولذلك فإن أحلام الموت التي لا تقترن بالحزن لا بد أن تعني شيئاً آخر خلاف الموت، والمثال على ذلك هذا الحلم:

- حلمت أن ابن اختي الوحيد قد مات، وكنت أتأمله مسجي على الفراش ولا أبدو حزينة البتة.

- التفسير: تبين من مستدعيات الحلم واشتراك الحالمة في التفسيرات أن أختها هذه كان لها ولدان، مات أحدهما من قبل، وحضر موته قريب لهما كانت تتمنى لو تزوجته. وقد انقضى زمن على الحادثة، وعاودها الحنين لرؤية قريبها هذا لأنها لم تتزوج للآن، ويبدو أنه لم يكن هناك احتمال لزيارته لهما إلا مع حادث مهم كحادث وفاة الابن، ومن ثم فقد حلمت أن الإبن الثاني قد مات لعل هذا القريب يحضر هذه المرة أيضاً فتراه. وإذن فالحلم يعبّر عن مكسب ثانوي ستناله الحالمة لو وقع الموت لابن أختها، فليس موت ابن اختها هو الذي يعنيها، ولذلك فلم يكن هناك بكاء ولا حزن حقيقي، ولم يتعلق شعور الحالمة بالمحتوى الظاهر للحلم بل بالمحتوى الباطن، والحلم لهذا السبب ليس من الأحلام النمطية لموت الأهل، ففي هذه الأحلام الأخيرة يترافق الموت وأن يستشعر الحالم الحزن الشديد، وأن يبكي على الميت بكاءً مراً، لأن الحلم يعكس رغبة الحالم أن يموت هذا القريب موتاً على الحقيقة أو على المجاز، فقد يكون الموت بالبدن، وقد يكون موتاً أدبياً، وفي الحالتين هو موت لهذا القريب نتمناه له في أعماقنا ولا تفصح عنه ألسنتنا، ولكن أحلامنا قد تفضحنا وتكشف ما تكنّه ونحاول ستره من مشاعرنا وأفكارنا. وربما لا تعني الأحلام النمطية من هذا النوع اننا نتمنى الموت لهذا القريب الآن، فلربما كانت تلك أمنية جاشت في صدورنا يوماً من الأيام، وربما تكون رغبة من الماضي السحيق منذ الطفولة. وربما يعترض معترض فيقول: وهل من المعقول

أني لو حلمت أن والدتي توفيت اني أتمنى لها الموت؟! وهل نتمنى الموت لأبنائنا إذا حلمنا بوفاتهم؟

فأولاً دعنا نتحدث عن الطفولة، ففيها يكون الشقاق والغيرة والحسد والسباق على المكانة الأولى عند الأبوين، وكثيراً ما نرى الإخوة في الطفولة في شجار كأنهم الأعداء الألداء. وتنتهي الطفولة ونكبر في التفكير، ولكن المشاعر الأولى تظل هناك دائماً تعمل عملها، ومنها بقايا تبقى معنا باستمرار حتى الشيخوخة، فإذا جاءت حادثة ما، وما أكثر ما يتفجر منها بين الإخوة الكبار بسبب الميراث وزواج الأبناء غير ذلك، فقد تعود ذكرى الرغبات الأولى، وليس البكاء الشديد لدى رؤية الميت الأخ إلا لأن الأنا الأعلى أو الضمير، أو مكونات التربية والحضارة في الحالم، ترفض مثل هذه الرغبة الممنوعة وتعاقبه عليها بعذابات الضمير التي مظهرها هذا البكاء في الحلم. وليس للموت عند الأطفال المعنى الذي للموت عند الكبار، فالطفل يفهم من الموت أنه اختفاء الشخص، ولذلك فكلما تمنّى الكبير البالغ أن يختفي شخص من حياته فإنه يطلب له الموت، والسؤال الآن هو: مع افتراض أن رغبة الطفل أن يختفي إخوته بمعنى أن يموتوا، تفسيرها أنانيته التي ترى فيهم منافسين له، فكيف نفسر رغبته تجاه والديه اللذين يمنحانه الحب ويقضيان له حاجياته؟ والواقع أن الطفل إذا حلم بموت أحد الوالدين فهو يحلم بموت الوالد من جنسه، بمعنى أن البنت تتمنى لأمها الموت، كما يتمناه الولد لأبيه، وذلك هو ما يحدث غالباً، كما لو أن الصبي يرى في والده الذكر غريماً له كإخوته، والبنت ترى في أمها غريمة لها.

وأذكر بهذا المناسبة أن صديقاً لي سافر هو وزوجته للحج وتركا ولدين لهما عند جدتهما، وجاءت الأنباء الكاذبة تترى بسقوط الطائرة، وكانت الجدة تبكي والبيت كله في مناحة، وحدث أن رأيت الولدين يلعبان، وسمعتهما غير بعيدين مني يتساءلان إذا كان صحيحاً أن والديهما ماتا. وقال الابن الأكبر إن كان الأمر صحيحاً فهو سيرث سيارة أبيه وعمله، وقال الأصغر وأنا سأرث عفش البيت!

وتكشف لنا الخبرة بالحياة أنه خلف العلاقة بين الوالدين والأبناء لأكثر من مناسبة من مناسبات العداوة، وما لم تكن احتمالاتها قائمة ما كان القرآن قد أوصانا المرة تلو المرة بالوالدين إحساناً. وتعبر الأساطير عن ذلك، في العلاقات المحتدمة بين أفراد أسرة أوديب الملك، وكذلك تحكي الأساطير أن كرونوس إلتهم ابناءه، وأن شجرة الدر قتلت زوجها، وأن قابيل قتل أخاه هابيل، وست قتل أخاه أوزيريس، وكل ذلك نعرفه، وقد يشفع لنا إذا قلنا إننا قد نتمنى أحياناً موت أحبائنا بمعنى اختفائهم من حياتنا لو زاحمونا هذه الحياة. ونحن نعرف من دراساتنا للطفولة والأبوة أن الطفل ينزع منذ صغره إلى أن يحب الأب من الجنس الآخر، ولكنه يتعلم أن يتعين بالأب من الجنس نفسه ليكون له دوره في الحياة، ونعرف أن هناك عُقداً تتخلف من الطفولة، ومنها ما يقال له عُقدة أوديب، عن حب الطفل الذكر لأمه واستمرار هذا الحب حتى بعد أن يتعين بالأب، وتعني عقدة أوديب أنه بقدر ما يكون هناك من انجذاب من الأم نحو طفلها حتى وإن شبّ عن الطوق، بقدر ما يكون هناك من عداوة بين الأب وابنه وبين الابن وأبيه. وهناك عُقدة يقال لها عُقدة إليكترا، عكس عُقدة أوديب، توجه سلوك البنت من حيث حبّها الكامن لأبيها وبُغضها لأمها، وتوجّه سلوك الأم من حيث كراهيتها لميل الأب للبنت وتدليله لها، كما توجّه سلوك الأب من حيث هواه لابنته. وأيضاً هناك عُقَد بين الإخوة فحواها تنافسهم على محبة الوالدين، وشقاقاتهم التي لو تتبعناها لكان هذا أصلها، ومنها عُقدة يوسف التي موضوعها حسد الإخوة للأخ الصغير، وعُقدة قابيل ومدارها الدوافع النفسية التي تجعل الابن الأكبر يقتل أخاه الأصغر هابيل، وعُقدة سِت التي موضوعها دوافع الابن الأصغر لقتل الابن الأكبر (أوزيريس). ولا بدَّ أنَّ كلاً منا قد تبين في محيط حياته كيف يتهافت الأبناء على مكان الأب من المائدة إذا خلا، أو كيف تحاول البنت أن تخلف أمها إذا غابت وإذن أفلا يكون منطقياً مثلاً إذا أخذت الأم إبنها الطفل ليشاركها سريرها عند سفر الأب أن تعتمل هذه الأمنية بنفس الابن لو أن أباه يستمر

غائباً حتى لا يحرمه حضوره من أن ينام في حضن الأم؟ ومن وسائل استمرار هذا الغياب يتعلم الأبناء أن يصبح الأب في عداد الأموات، ويتعلمون بالتجربة أن الموتى يظلون غائبين مثل الجدة أو الجد اللذين ماتا، بمعنى أنهما ما يزالان غائبين. ويطلق النفسانيون على هذا الموقف الذي لا بد أن نخبره جميعاً والذي لا بد أن يخلف آثاره فينا جميعاً بالسلب أو بالإيجاب، إسم الموقف الأوديبي، وهو موقف يجمع بين الأب والأم والأبناء بحيث تدور بينهم منذ الطفولة حمى حرب مستترة فيها انحيازات وائتلافات ومرارة وقمع وتأديب وكبت، فنخرج من هذه المرحلة ولا يعلم إلا الله ماذا نكون نفسياً. ولسوف نتناول هذا الموقف في الفصل القادم إن شاء الله (الأحلام والصراع الأوديبي).

والمهم أن أحلام موت الأقارب، التي نصفها بأنها تُظهر حقيقة مشاعرنا تجاه أرحامنا، وتُفصح عن جانب منها يتستر باستمرار بحيث نبدو دائماً وكأننا المحبون ولا شيء غير ذلك. وقد ننكر أن يكون هذا هو المضمون الحقيقي لهذه الأحلام، فنقول إن إنكارنا لا يقتصر على التفسير ونحن في حالة اليقظة، فإننا ننكر أيضاً ما تذهب إليه هذه الأحلام، ونحن نيام، لدرجة أن الرقابة على الأحلام، وهي المسؤولة عن تحريفها وإظهارها بالمشاهد والرموز التي تظهر بها، لا تكون مستعدة لمواجهة هذه النوع من الأحلام من فرط بشاعتها، ومن ثم فقد تفاجئنا بظهورها وبالمعنى البشع الذي ننكره عليها، وقد يدفعها إلى الظهور قلق على حياة شخص عزيز يلم بنا كأثر من آثار اليوم السابق، ويَستغل هذا القلق الرغبة المحرمة، وتستغل الرغبة هذا القلق فتتقنّع به.

مثال: ١

- حلمت أنني أنتظر حضور أمي، وكنا نجلس واخوتي في انتظار حضورها، وأقلقنا غيابها، وتساءلنا ما إذا كنا قد بحثنا عنها في المستشفيات، وسألتُ عن مستشفى بالذات هي الأشرفية.

التفسير: الحالمة مريضة بعينيها وتخشى على نفسها، وقلقها على صحتها دفعها إلى أن تُحيي في نفسها ذكرى أمها، وهي ترى نفسها في أمها، وقلقها

على أمها الذي عانته يوماً من الأيام يتفجر من جديد قلقاً على نفسها في أمها، وترى أن فقدانها المحتمل لبصرها بمثابة الموت لها كالموت الذي وقع لأمها، وأما المستشفيات التي تسأل عنها فإنها قد جرّبت العلاج في الكثير منها ودارت على كثير منها، وتخص مستشفى الأشرفية وهي مستشفى في الأردن، إذ الحالمة أردنية، وتعالج هذه المستشفى الناس علاجاً من نوع ليس كعلاج المستشفيات الخاصة، والحالمة تعتبر هذه المستشفى هي البداية لمأساتها، وفيها كانت بداية غيابها الحاضر، أو حضورها الغائب، أو حياتها الحالية التي تشبه الموت أو يتهدَّدها هذا الموت المجازي الذي هو فقدانها لبصرها. ولنلاحظ أن الحلم ليس فيه بكاء أو حزن أو ما يدل على ميت حقيقي يرتبط بالاختفاء الدائم المصاحب للموت، ولذلك فهذا الحلم ليس من الأحلام النمطية.

مثال: ٢

- حلمت أن زوجي مات وجاء أهله يطالبونني بالميراث.

التفسير: كانت الحالمة قد تشاجرت مع زوجها في اليوم السابق، وزوجها أودع لديها كل ماله، فلما تشاجرا هدّدها بسحب وديعته عندها، وذلك يقلقها، والحلم ينفي عنها أنها راغبة في مال زوجها، وينسب قلقها إلى ما قد يثيره أهله من مشاكل في حال وفاته، ولو كان الحلم يعرب عن حزن على الزوج الذي سيموت لكانت انفعالات الحالمة مختلفة تليق بتوقعات الموت أو وقوعه.

مثال: ٣

- حلمت أني ذهبت لزيارة أمي فوجدتها قد ماتت وبكيت عليها بشدة.

التفسير: الحالمة مطلّقة، ولها ولد عهدت به إلى أمها، كي يتسنى لها أن تعمل وتعول نفسها وابنها. وكانت الأم قد رفضت فكرة زواجها من مطلقها هذا، وحقدت عليها الابنة، ولكنها نفّذت فكرتها، والابنة، أي الحالمة، تعتبر أمها مسؤولة مع ذلك، لأنها كان في وسعها أن تمنعها من الزواج، ولو بالقوة، ولكنها لم تفعل بحجة أن الابنة كبيرة ومتعلمة وخريجة جامعة. والحلم فيه الرغبة بإيقاع العقاب بأمها، وهو أن تختفي من

حياتها، فهي تذكرها بفشلها وتؤنبها دائماً، وهي بمثابة الضمير الذي يعذبها، ثم إن الأم لو اختفت بالموت فإن معنى ذلك أنها ستضطر أن تستحضر إبنها معها، وهو ما تتمناه.

- ٣ -
«أحلام الامتحان»

كثيراً ما نحلم بأننا نؤدي امتحاناً ما، وأحلام الامتحان التي هي من قبيل الأحلام النمطية، فيها الجزع الشديد، والقلق المبهظ، والخوف، وتوقّع الفشل، ودائماً ما يكون الامتحان في مادة لم يحدث أن رسب فيها الحالم، ولو كان الامتحان في مادة يخاف الحالم منها، أو قد سبق له أن خاف منها، لكان للحلم ما يبدده، ولكن أحلام الامتحان النمطية ليس فيها ما يبررها في الظاهر، فالطبيب الناجح الذي مارس الطب لسنوات قد يحلم بأنه يمتحن وأنه يسلم ورقة الإجابة بيضاء، وقد يصحو من الحلم يستشعر النكد، ويحمد الله أنه طبيب فعلاً ويمارس الطب وليس هناك ما يخشى منه أو يجزع له. والحلم لا بد أن يرتبط بمواقف من حياته الحاضرة، تلح عليه، والامتحان كما نعرف إشتقاق من المحنة، ومَن مِنا لم يجرب محنة الامتحان منذ الطفولة؟ ومَن مِنا لم يُطلق على يوم الامتحان إسم يوم الهوْل؟ والتجارب التي قد ندخلها في الحياة ونخشى منها نحاول أن نطمئن أنفسنا بخصوصها، وما دام الحلم يمتحننا في مادة نجحنا فيها فهذا دليل على أن القلق المرتبط بالخبرة الحالية يربط بين هذه الخبرة وخبرة أخرى مشابهة، بل وربما أقسى منها (يوم الهول)، وقد نجحنا فيها، فلماذا لا ننجح في هذه الخبرة أيضاً، وهي مثلها إن لم تكن أقل منها خطراً، أو مبعثاً للخوف وللقلق؟ ولقد تبين بالبحث أنه كلما كانت هناك أحلام نمطية مرتبطة بالقلق والخوف والتوقعات الباعثة على الجزع، فإنها تأتي الحالم حين تنتظره في الغد القريب أو البعيد مسؤولية يخشى أن يخفق فيها، ولذلك فإن الحالم يتلمس مناسبة من ماضيه لم يكن فيها للقلق والخوف والجزع ما يبرّره، وجاءت النتائج بما يكذبها، وكأن الحلم

في الحقيقة يحمل العزاء للحالم، وكأنه يبلّغه رسالة من ذاته أو أناه، مضمونها «لا تخشى شيئاً من الغد، وتأمل أية مخاوف وقلق وجزع تملكك قبل امتحان الثانوية العامة أو البكالوريوس إلخ، ولم يصبك أي سوء مع ذلك! وها أنت الآن طبيب بالفعل، أو مدرس إلخ!...»، أو ربما يختلف مضمون الرسالة، بحسب مستدعيات الحالم، أو بحسب ما نجمعه له من أحلام من هذا النمط، فقد يكون الحالم بحلم امتحان شيخ كبير في السن تجاوز تجربة الامتحانات، ومع ذلك فإنه قد يحلم بها إذا كان في حياته ما يشبه أنه يدخل محنة أو تجربة مقلقة.

مثال: حلمت أني أدخل امتحان الكلية الحربية وقد طلبوا مني أن أخلع ملابسي وأقف عارياً، وقد فعلت وأنا شديد الجزع، ثم صرفوني بدعوى أني لا أملك اللياقة البدنية المطلوبة.

التفسير: الحالم يعمل ضابطاً، وامتحان اللياقة البدنية للكلية الحربية قد نجح فيه، وهو الآن برتبة كبيرة وكان قد تزوج وأنجب وماتت زوجته، وعاش أعزب مدة خمس عشرة سنة إلى أن كبر أولاده، ثم تراءى له أن يتزوج وخطب فتاة تصغره بعشرين سنة، وكلما اقترب موعد الزفاف زاد قلقه وتنامت مخاوفه، وهي مخاوف تربط بين التجربة الحاضرة والماضية عندما تقدّم للكلية الحربية وكان يتمنى أن يكون ضابطاً ويخشى أن يرفضوه، فقد كان بساقه كسر شُفِي منه، ولكنه كان يوجعه أحياناً، وكان يخشى أن يُكتشف أمر هذا الكسر الماضي. ثم إن التجربة الحاضرة التي يقلق منها هي تجربة زواج، والحالم يخشى الفشل، ويخشى أن يكون بقاؤه بدون زواج خمس عشرة سنة قد أفقده رجولته، وذلك ما كان يعتقده أيضاً لو فشل في كشف اللياقة في الكلية الحربية بمثابة إعلان بكمال رجولتهم، وكمال الرجولة هذا هو ما يغري الفتيات على طلب ودّ الضباط وتصويرهم في الصورة الرجولية الكاملة، وإذن فالتجربة الحالية توقظ التجربة الماضية حول كمال الرجولة، ولكن مضمون الحلم أنه ما دام قد نجح هناك فلماذا لا ينجح هنا أيضاً، وكأن الحلم يطمئنه على نتيجة مشروع زواجه المرتقب.

- ٤ -
«أحلام الطيران»

ليس منا أحد إلا وقد حلم يوماً أنه كأنما يطير، وللطيران في الأحلام لذة تجعل الحالم يتمنى أن يطول، وفي الطيران يمارس الحالم قدرة مطلقة على التحليق والارتفاع والحركة ومطالعة الأمور من علٍ. والغريب أن الذي يحلم بأنه يطير يستطيع أن يتذكر بدقة حُلمه ويصف مشاعره فيه. والوصف في أحلام الطيران للمشاعر أكثر منه للمَشاهد، وكأن أحلام الطيران أحلام مشاعر وأحاسيس، ويحلم الحالم بحلمه وهو يعي أنه يحلم، ويستزيد من الحلم، وأحلام الطيران لذلك من الظواهر قبل الشعورية، وهي أحلام تقوم على مسرحية الأفكار، فالشخص الذي يتمنى أن يحوز القدرة والقوة يحلم بأنه يطير ويشرف على الأمور من علٍ، والذي يعاني من واقع يحس أنه فيه مُحاصَر ومنبوذ يتمنى الانطلاق والحرية دون قيود ولا سدود.

ونحن نُكثر من أحلام الطيران، والطيران أمنية الإنسان، فالطائر وقدرته على المطالعة من علٍ، وتحليقه المتحرر، كل ذلك يجعل الإنسان يحلم، ويرجو أن يكون مثله، وهو لن يكون مثله في الواقع، فيفعل ذلك مجازاً في الحلم، فأحلام الطيران فيها تحقيق رغبة، ولسوف نرى أن ابن سيرين ذهب في تفسيرها مذاهب تشبه مذاهب النفسانيين، وبين ابن سيرين وفرويد نحو ألف عاماً.

وأحلام الطيران أحلام نمطية، بمعني أنها شائعة ولها المواصفات نفسها، ولكن التفسيرات لها تتباين، وتشمل هذه الأحلام ذلك الضرب منها الذي يطير فيه الحالم أو يموج في الهواء، أو يسقط أو يعوم، وتعني في كل حالة معنى مختلفاً، ومادة الإحساسات المحتواة فيها هي وحدها التي تخرج من المصدر نفسه، ويبدو من التحليل النفسي أنها أحلام تعيد انطباعات من الطفولة، وتتعلق بالألعاب الحركية التي يغرم بها الأطفال من المهد، وكلنا يوماً من الأيام لعبنا مع أطفالنا بأن نلقي بهم في الهواء ثم نلقفهم أو نرفعهم عالياً هابطين بهم، دواليك، وقد نرفعهم عالياً ثم نعدو عبر الغرفة، وكأننا نطير بهم أو

نطيّرهم، والطفل أثناء ذلك يضحك من قلبه مسروراً غاية السرور. وليس منا إلا ورفع طفلاً وأنزله بحركة مفاجئة وكأنه يُسقطه، وقد نمسك به ونضعه على ركبتينا نحركهما حركة رتيبة صعوداً ونزولاً، وقد نكون مستلقين فنضع الطفل على ساقينا ونرفعهما عالياً، والطفل يطير من الفرح، ودائماً يستزيدنا الطفل من اللعب بهذه الطريقة، ويصيبه من هذه الحركات المفاجئة الدوار. وعندما نكبر تكون بأحلامنا الحركات نفسها والدوران والصعود والهبوط، ومع حذف الأيدي التي كانت تمسك بنا، فنبدو كما لو كنا نطير أو نسقط أو ندور أو نحلق أحراراً. ويشبّه فرويد ولع الأطفال بالألعاب التي تشبه الطيران بولعهم بالأراجيح، فهل منا مَن لم يحب الأرجوحة؟ وهل منا مَن لم يركبها ويطيّرها في الهواء عالياً حتى لتبتعد بعيداً نحواً من ستة أمتار، وقد يتمكن من أن يقلب الأرجوحة في الهواء؟ فإن لم يكن قد فعل ذلك في صِغره لسبب أو لآخر، فمن منا لم ينظر الآخرين يركبونها ويطيرون بها ويتشقلبون في الهواء وهم سعداء غاية السعادة؟ واللذة التي تصاحب هذه الألعاب تجعل لها إشباقاً تنفرد به، حتى لتتكرر اللذة مع الأحلام التي تتكرر فيها هذه الألعاب. ولربما تكون للإحساسات الفسيولوجية مثل حركة الرئتين في عملية التنفس صعوداً وهبوطاً، دخل في إثارة هذه الأحلام التي فيها الطيران والسقوط، غير أن التحليل النفسي يستبعد هذا السبب الفسيولوجي كأصل لهذه الأحلام، وإنما الأصل دائماً نفسي، وإن كان يلبس أحياناً الشكل الفسيولوجي طالما أنه شكل انساني قد تتسربل به آمالنا ورغباتنا وطموحاتنا وصراعاتنا. ورغم أنها أحلام نمطية لها شكلها الواحد، وربما أصولها الواحدة، إلا أن لها خصوصية تجعل تفسيراتها تتباين. وكان نابليون يحلم بأنه يمشي في الهواء وان قامته تطول حتى لتبز كل القامات، ونابليون كان قصيراً، وكان أعلى أهل عصره طموحاً وحباً للسيطرة والتفوق. وقد تحلم البنات كثيراً بأنهن طيور صغيرة لطيفة، فيُظهرن طبيعتهن الودودة والتي قد يُحرَمن من ممارستها في النهار.

وهناك من يذهب إلى تفسير أحلام الطيران بأنها أحلام جنسية، والرجل الذي يحلم بأنه يطير دليل على أنه كان منتصباً أثناء الحلم، والمرأة التي تحلم أنها تطير تعلن بطريقة غير مباشرة عن رغبة جنسية. ومن أسماء القضيب أنه الإير، والإير كلمة ساميّة معناها الهواء، وكان الإير إله الهواء عند الساميين، والإير في اللغات الأوروبية (air) في الإنجليزية مثلاً، والإير عند العرب هو القضيب في حالة الانتصاب، ربما لأنه يرتفع ساقماً يطاول رأسه الهواء، وربما لأنه يمتلئ بالهواء فيكون انتصابه، وكان الأقدمون يقولون بالقضيب المجنّح. وقد تكون أحلام الطيران لذلك أحلام شبقية بالنظر إلى الأحاسيس الجسمية التي تقترن بها والتي تصاحب الانتصاب والإنزال، ثم بالنظر أيضاً إلى أن الأطفال دون العاشرة لا يحلمون أنهم يطيرون، أي لا يحلمون بالطيران قبل البلوغ، فإذا كان البلوغ بدأوا يحلمون أنهم يطيرون.

والطيران كما في أحلام نابليون قد يكون تعبيراً عن شعور بالنقص أو العجز، أو قد يكون تعبيراً عن الطموح أو الرغبة في التحرر والانطلاق، أو في السيطرة والقوة. ونحن في هذه الأيام نعتبر قوة سلاح لاطيران هي القوة الفعالة في الحروب، والطائرة إنجاز حضاري هو تحقيق لأحلام الطيران من جانب الإنسانية كلها، وتمثل في الطائرة كل رغبات الإنسان في القدرة والقوة والانطلاق.

ولربما تزيد بنا متاعب الحياة، وتقسو علينا ظروفنا وتحاصرنا فيكون أن نحلم بأننا نطير مبتعدين. ومنا من يريد الخلاص من المتاعب بالموت، والطيران يماثل الموت، ونحن نقول طارت روحه أي مات، وكأن البدن الثقيل الذي لم يتحقق به الطيران، بموته تطير الروح فيتحقق إذن للإنسان ما كان يهفو إليه.

وابن سيرين يرى في أحلام الطيران تفسيرات مشابهة وإن لم تكن لها الأسباب السابقة، وهو يقول بتفسير جنسي: «ومَن رأى أنه يطير من سطح إلى سطح آخر فإنه يطلّق امرأته ويتزوج بغيرها». ويقول بتفسيرات أخرى فيها التفسيرات السابقة كلها وأكثر منها، فمَن رأى أنه يطير كالطير من مكان إلى مكان،

فإنه يدل على السفر، وبالطبع يقصد إبن سيرين التنبؤ بالسفر، ونحن نقول إنها رغبة السفر. ويستطرد إبن سيرين فيقول بما يعني ان الطيران قد يكون رغبة في علو القدر، ويقيس هذا العلو المرغوب بمقدار بُعد الحالم في الطيران عن الأرض. وقد يكون الطيران الذي يبلغ السماء طلباً للحج، ومَن رأى أنه يطير من غير ريش فإنه يعني أنه فرط إحساس بالقدرة، أو على العكس دليل العجز في الواقع فيرى أنه في الحلم يطير أي يقدر برغم أنه ليست لديه أدوات القدرة. ومما يُروى أن رجلاً جاء إبن سيرين يقول له: إنه يطير في السماء وفي الأرض أيضاً، فقال له إنه رجل كثير الانتصاب، أي لا يفرّق في الجماع ويمكن أن يجامع هذه وتلك. ويقر إبن سيرين ان الأحلام قد تعكس الرغبة فيقول إن الطيران قد يؤول بالتمنّي إذا كان الحالم يُكثر منه في أحلامه، ويقول إن الطيران فيه لذة وسعادة بدليل أننا نقول في اليقظة إننا نطير من الفرحة. والطيران قد يكون تعبيراً عن الاستعلاء. وأما النابلسي فيقول بالنسبة لطيران النساء إنه رغبة في الزواج أو النكاح، ويفسر مَن يطير فيسبق الآخرين أنه رغبة في التفوق عليهم، ومن يطير كالحمامة وهو قادر على أهل الأرض بأنه رغبة في التسيّد والتسلط، ومَن يطير وهو في غُربة أنه يرغب في العودة للوطن، ومن يطير فوق البيوت والأزقة أنه يستشعر الضيق والمعاناة والاضطراب في حياته، ومن يطير بين السماء والأرض يكثر من التمني، وقد يعني أنه يطلب العِلم إن كان عالماً، أو المجد إن كان مجيداً، أو المال إن كان من طالبيه، رحم الله إبن سيرين والنابلسي فقد كانا نابغين!!.

– ٥ –
«أحلام السقوط»

يحلم الناس كثيراً بالسقوط، كأن يسقط الواحد من حالق، أو يرى نفسه وقد هوى في جُبّ سحيق، أو قد انزلقت قدمه فهوى من السلم، ويفزع الحالم ويصيبه من ذلك الهلع، ولكنه قبل أن يرتطم بالأرض يستيقظ مفزوعاً. وقد

يتكرر الحلم مع الحالم ويعاوده الليلة بعد الأخرى، وتتشابه أحلام السقوط عند الناس فهي من الأحلام النمطية، وإن كان تفسيرها في كل حالة يختلف باختلاف ملابسات الحلم وأحوال الحالم. ودائماً تكون أحلام السقوط قصيرة الأمد، وتنتهي بأن يستيقظ الحالم.

ولربما تكرر أحلام السقوط حوادث السقوط التي نتعرض لها ونحن أطفال، ولا يكاد يوجد طفل إلا وعانى من السقوط من فراشه ثم أسرع إليه المحيطون به ورفعوه ودللوه وأعادوه إلى سريره، ويتربّى لدى الطفل الخوف من السقوط ويتوقعه، فإذا بلغ مبلغ الكبار فإن توقعات المستقبل، والخوف من السقوط والفشل، قد تجعله يعيش في قلق يدفعه إلى أن يحلم بالسقوط على الطريقة التي عرفها في طفولته.

والسقوط قد يعني السقوط الأدبي، والمرأة الساقطة هي التي تأثم جنسياً، والسقوط في الحلم عند النساء إن كان له هذا التفسير الجنسي هو رغبة جنسية محرمة، وكأن رسالة الحلم تنبيه الحالمة إلى خطوة هذه الرغبة فلو حققتها تكون قد أثمت. والسقوط بالنسبة للرجل قد يكون استسلاماً لدواعٍ يجاهدها، فالذي يقبل الرشوة لأول مرة قد يحلم بأنه يسقط في بئر عميق، والذي يستكين للظلم قد يرى في المنام أنه يسقط.

ولربما تُفسّر أحلام السقوط بأنها مخاوف من الزلل، أو من الهزيمة، وكأن الحالم يعيش حياة فاضلة ويخاف أن يخطئ، أو أنه يهفو للسيطرة والقوة وتتراوحه لذلك نواح فيه ضعيفة ونواح قوية، ويخشى أن يغلبه ضعفه على قوته.

والسقوط في التفسير الشعبي للأحلام له دلالة تنبؤية، وهو عند إبن سيرين يعني التحول من الغِنى إلى الفقر، أو من السؤدد إلى الذل، غير أن ما يذهب إليه إبن سيرين من معنى تنبؤي نقول به ولكن من منطلق ما يجري به تفكير الحالم وليس ما سيحدث فعلاً، ولربما يكون الحالم على وعي بما يعتمل به من أفكار ومخاوف، ولربما تعمل هذه عملها في تصرفاته لاشعورياً وتنعكس على أحلامه.

- حلمت أني أصعد الدرج وكنت أعاني

في صعودي وألهث، وكنت أخشى من بلوغي درجة معينة كانت تبدو مكسورة، والدرابزين عندها متداع، فلما بلغتها زادت مخاوفي وحاذرتُ قدر استطاعتي، ولكني فجأة وجدتني أهوي، واستيقظت مفزوعاً أتحسس جسمي.

التفسير: الحالم عصامي تبين من مستدعياته أنه عانى اليُتْم صغيراً، وحاول أن يتعلم، وعانى كثيراً، وأنكر على نفسه كل بهجة ولذة حتى أشرف على التاسعة والثلاثين، وكان يخشى أن يبلغ الأربعين ولم يتزوج بعد، وكان يخاف إن تزوج ربما يفشل وتضيع عليه ثمار كفاحه الطويل. والسلالم هي سنوات العمر التي تنقضي، وهي أيضاً درجات أو مراحل ترقّيه من يوم تيتّم حتى الوقت الحالي. والدرجة المكسورة هي سن الأربعين، وهي سن حرجة بالنسبة له، وعليه أن يقرر فيها أو يتخذ قراراً مصيرياً وهو الزواج، وعليه أن يعتمد على نفسه في قراره فلا سند له فيه (الدرابزين عند هذه الدرجة متداع)، والسقوط يرمز لمخاوفه من الفشل.

- ٦ -
«أحلام الحفاء»

الحفاء كالعري، وإن كان العري للجسد، والحفاء للقدمين. ولقد قلنا إن التعرّي في الأحلام ينبئ عن ميول إستعراضية، وكذلك الحفاء، وإنه لأمر ذو بال أن يكون التخفف من الملابس مقترناً أيضاً بالحفاء. مثال:

- حلمت أني أسير حافي القدمين وأكاد أطير وأرى من حولي خضرة وزرعاً في كل مكان.

التفسير: الحالم قاطع طريق مقيّد في أقسام الشرطة من الخَطرين، وسنّه ثماني عشرة سنة، أطبقت عليه الشرطة وحاصرته وكان قد أصيب بالرصاص وحلم حلمه هذا وهو نائم. والحفاء هنا رمز للتحرر الذي ينشده، وكأنه قد تخفف من كل همومه، والطيران هو رغبته أن يتجاوز كل مشاكله، فإذا حدث ذلك فإنه سيشعر وكأنه في الجنّة.

والحفاء قد يعني الفقر والعوز، وقد يعني الانفضاح، وقد يعني ذهاب السلطة، وابن سيرين يفسره بأنه مصيبة تنزل

بالمرأة، كأن تطلق، أو ينشف سترها. والأحلام كما نذهب في تفسيرها لا تنبئ بالمستقبل إلا بالقدر الذي تكون عليه أحوال المرء في يومه بحيث لا يمكن إلا أن تكون المصيبة نتيجة لها قد يشهدها الغد.

مثال:

- رأيت أني ألقي درسي وكنت أضع الروب الجامعي، والقاعة صامتة والحاضرون ينظرون وأنا أسمع لنفسي، ثم فجأة قالت طالبة في الصفوف الخلفية، «هذا الدكتور حافي القدمين!!» وضحك الجميع ونظرتُ لقدميّ فاكتشفت عريهما، وحاولت أن أستتر خلف الطاولة، ولكن الضحك المتصل من تلاميذي جعلني أهرول خارجاً.

التفسير: الحالم أستاذ جامعي نابه، وكان قصير القامة شديد النحافة والسمرة، إلا أنه كان شديد الأناقة، وقال عن نفسه مفسراً الحلم إنه ليس جميلاً، وهو يحب الملابس لكي يتجمل، وأصله المتواضع ترك بصماته على صحته وحجمه، إلا أنه كان يعوّض بالتفوّق في الدراسة، والحلم لذلك تدفع إليه مشاعر بالنقص، وهو حلم نمطي لأن هذا النوع من الأحلام النمطية عن الحفاء يقدم لنا صورة حلمية تتميز بالتناقض، فكون الحالم أستاذ جامعة ويحاضر يتناقض بشدّة وأن يظهر أمام تلاميده حافي القدمين، والارتباك هو النتيجة التي لا بد أن يستشعرها، ويذكرنا هذا الارتباك بارتباك مثله في أحلام العري النمطية. وفي أحلام العري إذا حلمت البغيّ أنها عارية فإن عريها يكون منطقياً مع كونها بغيّ، ولكن إذا حلمت الشريفة العفيفة أنها تسير عارية فذلك هو التناقض الذي يُدرج الحلم ضمن الأحلام النمطية. وأيضاً لا بد أن يوجد هذا التناقض في أحلام الحفاء. والحفاء في حالة هذا الأستاذ الجامعي يفضح أصله المتواضع. وإننا لنلاحظ أن طالبة هي التي تصرخ بالاكتشاف، وذلك يكشف جانباً من حياة هذا الأستاذ، فقد كان له غرام بالتلميذات، وعنايته بملابسه ليظهر بمظهر يعجبهن، وذلك مجال آخر يُظهر فيه شعوره بالنقص ويُثبت فيه رجولته، إلا أنه رغم نجاحه في الميدانين كان يدرك أن الناس يعرفون عنه ما يحاول أن

يستره، وهو لم يتزوج للآن لأنه يشك في الحقيقة في رجولته، كأن الحلم إذن يكشف عن صراع بين جوانب الضعف فيه وجوانب القوة، وغلبة جوانب الضعف، ولذلك يشعر بالخزي ويحاول الاستتار ويخرج مهزوماً.

والحفاء في الأحلام قد تدفع إليه منبهات حسية، والتفسير بالتنبيه الحسي جائز في حالة حلم نرى فيه أنفسنا مثلاً وكأن ماء بارداً ينزل على قدمينا، أو نرى أن أقدامنا كأنها تغوص في الثلج، وعادة ما تأتينا مثل هذه الأحلام والوقت شتاء وتتعرى القدمان منا ونحن نيام، وهناك تجارب على التنبيه الحسي للأحلام وخاصة بالنسبة للأقدام، إلا أنه في حالات الأحلام النمطية بالحفاء، والتي تأتي على الصورة السابقة، وتقوم على التناقض، كأن يرتدي الحالم في الحلم فاخر الثياب ولكنه يكون عاري القدمين، أو كأن يظهر نابه الشأن يخاطب الجماهير، أو يجلس مجالس العظماء، ويكتشف أنه حافي القدمين، لا يمكن أن نفسرها تفسيراً فسيولوجياً، وليس من تفسير للتناقض إلا أن تكون دوافعه نفسية، ومن ثم لا يتمشى معها إلا التفسير النفسي.

- ٧ -
«أحلام سقوط الأسنان»

ومن الأحلام النمطية تلك التي موضوعها سقوط الأسنان، أو الشَّعْر أو العجز يلم بعضو من الأعضاء والتفسير الشعبي هو التفسير الغالب عند الناس، وهو تفسير تنبؤي كما ذكرنا ونحب أن ننبه باستمرار، غير أن النبوءة فيه يمكن أن تكون نتيجة وانعكاساً للأحوال النفسية للحالم، وللتفاعلات الدينامية لشخصيته، وما يكشف عنه الحلم من صراعات يظهر بعضها على بعض. ولنتأمل ما يقوله إبن سيرين أو النابلسي عن سقوط الأسنان، والأسنان في التفسير الشعبي هي ما يحوزه الشخص من مال أو أملاك أو أهل أو ولد، وتشبيه ذلك بالأسنان له ما يبرره، فالمال والولد والأهل عُدّة الرجل، وسقوط السِنّ قد يعني على ذلك فقد المال أو موت الولد، والأسنان كثيرة وتعيين السن الساقط هو

تعيين لقرابة الميت من الشخص، فالأسنان العليا هم الرجال من جهة أبيه، والسفلى هنَّ النساء من جهة أمه، وأدناها من الثنايا أقربهم في النسب، والثنياتان العليا هما الأب والعم، فاليمنى الأب واليسرى العم، وإن لم يكن له أب أو عم فأخوات، أو ولدان، أو صديقان ناصحان مشفقان، والرباعية ابن عم الرجل أو صديقان يقومان مقامه، والناب هو الشخص من أهله الذي يعتمد عليه ولا يكون فوقه أحد، أو صديق حميم هو أعلى الأصدقاء مكانةً عنده، والضواحك الأخوال وبنو الأخوال أو من يقوم مقامهم بالنصح، والأضراس أجداد أو بنون صغار يباهي بهم ويأنس إليهم، والثنيتان السفليان الأم والعمة، فاليمنى الأم، واليسرى العمة، وإن لم يكن له أم أو عمة فأختان أو بنتان أو من يقوم مقامهن بالنصح، والناب الأسفل سيد أهل بيته ومن يستند إليه أو من يقوم مقامه، والضواحك السفلى بنت خالته أو بنت خاله أو من يقوم مقامهن بالنصح، والأضراس السفلى والعليا الأبعدون من أهل بيت الرجل والجدّة أو بنات صغار يباهي بهن، فإن تحرّك منها سن واحدة من هؤلاء فمرض، فإن سقطت أو ضاعت فإنه موت من يُنسَب إليه من هؤلاء، أو غيبته عنه غيبة لا يراه بعد ذلك، فإن أمسكها ولم يدفنها فإنه يستفيد بدلها من يكون له مثل ذلك القريب الذي ينسب إليه تلك السن في التأويل، فإن دفنها فإنه موت ذلك القريب، وكذلك سائر الأسنان وكذلك بقية الجوارح.

ويبدو أن تأويل سقوط السن بموت قريب هو من التراث الشعبي الذي يرقى أن يكون ميثولوجيا إنسانية، وهو كان كذلك عند الأقدمين من اليهود واليونانيين، والرومان والمصريين القدماء والأشوريين، وأهل الصين والهند، وهكذا يرد في كتبهم في تفسير الأحلام. وقد يبدو التأويل الشعبي متناقضاً مع التأويل النفسي، إلا أننا نقول إن التأويل النفسي يجعل خلع السن أو سقوطها نوعاً من العقاب يُنزله الشخص بنفسه، أو ينزل به لفعل يرى أنه قد أثم به. ويبدو أن الشعور بالذنب سمة نفسية تميّز الانسان عن الحيوان، ولقد كان الإنسان دائماً خطاء، ودائماً هو فاضل

يهفو إلى الفضيلة، وأبداً هو الشاعر بالذنب، والشعور بالذنب عقاب لأنك به تعيش في قلق وتوتر وصراع وترقّب لمكروه، وإنزال العقاب بالبدن ضرب من التكفير عن الذنب واتجاه في السلوك للتكفير عن الذنب، وإننا لنحاول أن نرى سبباً لحلاقة الرأس بعد الطواف بالكعبة، أو للختان، أو للإخصاء، فلا نجد من تفسير لذلك إلا أن يكون عقاباً ينزله الشخص بنفسه، للتكفير، وليتطهر به، وليحس بعده أنه أفضل. وسقوط الأسنان أو خلعها، وكذلك سقوط الشعر من هذا المنطلق أيضاً تكفير وتطهير للبدن. ونحن نعرف من دراسة العُصاب القهري أن المريض ينسب موت الأقارب إلى إثم إرتكبه، وهذا الإثم في أبسط حالاته أن المريض بالعصاب لم يلتزم بما فرضه على نفسه من طقوس قهرية، يفعلها في ترتيب وعلى الدوام، فإن تهاون فيها مرة، أو تقاعس فقد يتوقع أن يُعاقَب على ذلك بأن ينزِل به مكروه، لا ينزل به هو نفسه ولكن بقريب له. ولعل ذلك نفسه سبب شيوع التفسير الشعبي لسقوط الأسنان بأنه موت قريب. والميثولوجيا بعامة هي الأحلام العُصابية للإنسانية بعامة. وهناك الكثير من الشعوب تُضفي على خلع الأسنان هالة طقوسية كبيرة، مثله مثل سقوط الشعر أو قصّه، أو الختان، فيُعنى الشخص بدفن السِنّ المخلوعة، أو خُصلة الشعر المنزوعة، أو الغُرلة المختتنة، باعتبار أن الجزء من البدن يمثّل الشخص كله. وهناك ضروب من السحر بالاقتران، فقد تقع هذه الأجزاء بيد غريب أو عدو فيؤثّر فيها بسحره، فيمكن بالتالي أن يتأثر الجسم كله، ويصاب بالمرض أو يأتيه الموت. والتفكير البدائي الطقوسي يبعد الشر والمرض عن الشخص ويحيله إلى غيره، وليس أقرب إليه من القريب يحيله إليه. ولقد عرفنا مما تقدم من أبواب هذا الكتاب أننا نكن لأقاربنا الأقربين الحب الظاهر، وأمّا البُغض فنقمعه ونكبته، وتتراوحنا بالنسبة لأقاربنا الأقربين لذلك مشاعر متضاربة، قد نسلك إزاءها بالنهار بأن نُظهر الحب لهم، فإذا كنا نياماً تأتينا الأحلام كاشفة للوجه الآخر المناقض للحب، ولكنه يكون وجهاً مقنّعاً، يستر نفسَه بالرموز، ومن ذلك سقوط

الأسنان أو خلعها، وتفسير هذا السقوط بأنه وفاة الأقربين.

وكذلك نعلم أن هناك ما يسمى ببدائل الاستمناء، فالطاقة التي يمكن أن تذهب في الاستمناء قد نحوّلها إلى منطقة أخرى من الجسم نشحنها شحناً جنسياً، ونعتاد على دلكها أو دعكها أو فركها كلما زاد الشحن الجنسي فينا، ومن ذلك فرك الاذن، أو دعك الأنف، أو الربت على الشعر، أو هزّ الساقين أثناء الجلوس. وقد يحدث أن نستعوض اللذة بأن نجعلها علوية بدلاً من أن تكون بالمناطق السفلية من البدن حيث الأعضاء الجنسية، وذلك من تأثير القمع والكبت، وهذا الاستعواض [illegible] ما يسمى النقل الجنسي، ومن أمثلته الشائعة أن يُستبدَل الوجه في رمزية التفكير اللاشعوري بأعضاء التناسل، فقد نشبّه الخدّين والسمنة بهما بالمقعدتين، ونشبّه الشفرين بالشفتين اللتين تضمان فتحة الفم، والمقارنات [illegible] أمر شائع، ويزيد الشَبَه اكتمالاً وجود الشَعْر في كل من الوجه والعورة، وقد يتصور [illegible] ض العُصابيين الفرج وكأن له أسناناً يمكن أن تخصيهم في الجماع، فيكون من ثم نفورهم منه وخوفهم المرضي من النساء، وكأن الأسنان ووظيفتها القضم والتقطيع والتحطيم، أي وظيفة عدوانية، قد توظّف أيضاً جنسياً، فيكون أن سقوط السن بمعنى انتهاء القُدرة العدوانية الذكورية، أي ان الحالم لديه خوف مرضي من الإخصاء، أو انه يعاني من العُنّة، وقد يكون بالمعنى نفسه عند الأنثى، فهي تعاني من عقدة إخصاء، وتكلَف بالسلوك الذكوري، وربما تكون بسبيلها إلى الزواج، وذلك يعني أنها لن تكون من بعد قادرة على أن تسلك سلوكها الاسترجالي، أو أنها ستفقد حريتها. ونحن في الأدب الشعبي قد يخاطب الرجل زوجته أمام الأولاد، فيطلب منها أن تتيح له فرصة مجامعتها دون أن يفهم الأولاد ذلك، فيقول «سني توجعني وقلت إنك ستعالجينها». وقد يضبط الطفل الصغير أباه وأمه يتجامعان فيتعلل الأب بأن ماما تخلع له سنه، وكأن خلع السن بمثابة رمز للجماع. وبالنسبة للمراهقين يكون خلع السن بمثابة إستمناء، ولربما تكون إذن القوة الدافعة إلى أحلام المُنبّه

السنّي عند الذكور مرجعها النزعات الاستمنائية في زمن المراهقة، ولذلك قد نجد أن بعض أحلام المُنبّه السنّي يصحبها إستمناء فعلاً.

ومن التفسيرات الشعبية أن خلع السن بالنسبة للحامل هو الولادة، وطريقة الخلع تنبئ عن نوع الولادة التي تتوقعها أو تتمناها الحاملة، وما إذا كانت سهلة أو متعذرة، فالسن هي الطفل، فإذا سقطت طواعية فالولادة سهلة، وإذا كان بها ألم فالولادة متعثرة بعض الشيء، وذلك يعني أن المولود ولَد من الصعب إنزاله إلا ببعض الجهد والألم، ويأخذ بهذا التفسير يونج، ويقول به ويصادقه عليه إرنست جونز.

ويذهب فرويد وجماعة التحليل النفسي إلى تفسير سقوط السن أو خلعه بأن يردّوه إلى النزعات الاستمنائية، وخاصة أن السن له مدلول رمزي شعبي بأنه القضيب، فالألم به وسقوطه ذاتياً، قد يكون بديلاً عن الامناء الليلي، وقد يترافق معه، ونزعه باليد يرمز للنزعات الاستمنائية، وقيام طبيب بنزعه هو أثر من آثار الجنسية المثلية وإن كان أثراً لا يُعتد به.

أمثلة:

حلم ١ - حلمت أني أتألم ولم أكن أعرف مصدر ألمي، ولكني كنت متضايقاً، فأخذت شربة ماء وتمضمضت.

التفسير: الحالم كان يشكو ألماً في سنه قبل أن ينام، ولما استيقظ وتذكر حلمه أمسك بالسن بيده وقلقلها إلى أن انخلعت. والمنبّه الحسّي في الحلم واضح، وكان الحلم مرشداً له بحيث ألهمه أن يقوم بخلع السن هو نفسه.

حلم ٢ - حلمت بأن سنّي توجعني، وقد رأى زوجي ألمي فقال سأذهب بك إلى الطبيب، ولكن أمي لم تر داعياً لذلك ووضعت لي بعض الملح عليه فزال الألم فعلاً.

التفسير: الحالمة كانت حاملاً، وكانت تخشى الولادة القيصرية، وبينما كان الزوج يرى ضرورة التدخل بالجراحة من أولى الأمر، فإن الأم لم تكن ترى موجباً للخوف، وتستبعد القيصرية كلية، أو أنها كانت تتمنى أن لا تضطر ابنتها إلى الجراحة، وأما الملح فذلك لأن أمها كانت تعالج وجع الأسنان لأي فرد من الأسرة

بوضع قليل من الملح على السن المريضة، وكان علاجها ينجح، أو هكذا تتذكر الحالمة من أيام صباها، وفي هذا الحلم ترى أن نصيحة أمها لها بعدم الخوف لا بد أن تنجح أيضاً مثلما كانت تنجح نصيحتها بتطبيب وجع الأسنان بالملح، أو انها كانت تتمنى لو تتحقق لها أمنية أمها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

حلم ٣: حلمت أن أسناني توجعني، وكنت أضع يدي على خدّي من الوجع، وقد أشفقت عليّ زوجتي فنفخت في فمي فزال الألم.

التفسير: الحالم كانت به أشواق جنسية قبل النوم، ولكنه اضطر إلى تأجيلها لما رأى زوجته قد سبقته إلى النوم، وكان يخشى أن يوقظها لأنها كانت تهب في وجهه كلما فعل ذلك، فنام على مضض وحلم حلمه ذاك، وقد استيقظ من النوم فوجد نفسه منتصباً يضع يده على قضيبه، ونفخ الزوجة هو ما قال عنه «لو أيقظتها لأجامعها تهب في وجهي»، فكأنه يقول لو أن زوجتي أشفقت عليّ ورضيت بالجماع بدلاً من أن تهب في وجهي لزال الوجع. ومن ميكانيزمات الأحلام أو الحيل التي تحتال بها لتصوير صيغة «لو أن» أنها تستحضر الصورة الحلمية وتستغني بها عن «لو أن»، فتكون الصورة للزوجة وهي تشفق عليه وتنفخ له على الألم فيزول، والنفخ لدى العامة كما نعرف للتلطيف، ونحن قد ننفخ على الطعام مثلاً ليبرد.

– ٨ –
«أحلام سقوط الشعر»

أحلام سقوط الشعر من الأحلام النمطية، والشعر رمز القوة، وهو كذلك في الميثولوجيا، والتفسير الشعبي لسقوط الشعر أنه يدل على الهمّ والغم، أو زوال القوة والمنعة، وللمرأة يخاصمها زوجها أو تُطلّق، وإن لم تكن متزوجه فلا تتزوج أبداً، بينما التفسير الشعبي لطول الشعر أنه زيادة في العمر أو في المال أو في الولد، وسواد شعر المرأة يدل على محبة زوجها لها. وبالنسبة للمهموم أو المدين زيادة الشعر زيادة في الهمّ أو العيال أو في الدين، وانتشار الشعر

إضطراب في أحواله، ونظمه نظم لأحواله، وطول شعر الإبط زيادة في الجاه، ونتفه صلاح أمره. وحلق الرأس زيادة في العيال أو الجاه، وكفارة للذنوب، وزوال للهموم وقضاء للديون، وحلق الشارب إصابة خير. والمرأة التي ينبت لها شارب تلد ولداً إن كانت حاملاً وإن كانت عقيماً لا تلد، وشيب الشعر أو اللحية زيادة في الأبهة، ونقصان اللحية نقصان في الهمّ أو الدين، وطول اللحية فوق قدرها همّ وغمّ.

وفي التحليل النفسي فإن سقوط الشعر قد يعني تهافت قوة الرجل مادياً أو أدبياً أو جنسياً، وفي الميثولوجيا فإن قوة شمشون البدنية والجنسية كان يرمز لها شعره، فلما قصّته دليلة زالت عنه قوته وفحولته معاً. وفي الشعوب البدائية إطالة الشعر زيادة في القوة فيستطيع الشخص أن يتحكم حتى في الطبيعة، وكأن قص الشعر أو سقوطه بمثابة الإخصاء للرجل، ومن ثم فإن أحلام سقوط الشعر قد تفسر التفسير الشعبي بأن الحالم يعاني من صراعات يخشى معها أن تزول قوته أياً كانت هذه القوة، وخاصة ما تعلّق منها بالجنس. والدلالة الجنسية للشعر لا ينكرها منكر، فالشعر الغزير الطويل سمة الأنثى، وشعر البدن سمة الذكر، والشعر يغطي العورة، وقد تضطرب الأحوال النفسية للشخص ويصاب منها بالشذوذ فيُغرم بذوائب شعر الإناث ويعتدي عليهن خلسة أو علناً بقصّها قصاً، ويحتفظ بها يعاملها كأنها أنثى كاملة، وهو الاضطراب المعروف باسم الفيتيشية.

وسقوط الشعر مثل سقوط الأسنان، كلاهما قد يكون له التفسير الذي يناسب مقتضيات الحالم وظروف الحلم إلا أنه في كل الأحوال فإن الحالم لا بد أن يكون في صراعات مع نفسه ويعاني من القلق والمخاوف. ومن الاضطرابات النفسية الجلدية التي تصيب الرأس ويسقط بها الشعر الثعلبة، ومنها أنواع تكون الإصابة بها عقب الصدمات النفسية، أو لا يصاب بها إلا العُصابيون، فإذا نحن حلمنا بالصَلَع مثلاً وأن الشعر قد سقط فذلك دليل معاناة أكيدة قد تتحقق في الواقع، وكأن ما كنا نخشاه نتيجة أننا نعرفه بحكم الثقافة قد يأتينا في الحلم على

شكل صَلَع نصاب به، أو تساقط للشعر، كما لو كان الحلم نذيراً بما سيحدث لو استمرت حالة القلق والمخاوف تستبد بنا.

ويذهب فرويد وعلماء التحليل النفسي إلى اعتبار الإخصاء أو العُنّة، المضمون الحلمي لسقوط الشعر، بمقتضى إزاحة للاهتمام الجنسي من أسفل الجسم إلى أعلاه، فبما أن الشعر علامة فحولة في الميثولوجيا فسقوطه يعني إمّا الخوف من الإخصاء، أو من العنة، أو أنه تعبير عن حالة العجز الجنسي للذي يعاني من مخاوف إخصاء، أو للذي يعاني من العنة. ويفطن التفسير الشعبي للمعنى الجنسي لسقوط شعر المرأة بأنه طلاقها من زوجها، وانفصاله عنها، أو انصراف قلبه عن هواها. ويعتقد العامة أن بالإمكان التفريق بين الرجل وزوجته بالسحر لهما أو لأحدهما باقتناء خصلة من شعره والقراءة عليها، ومن ثم تحرص النساء بخاصة أن لا يقع شيء من شعورهن في يد أحد كي لا يعمل لهن عملاً، فكأن الإخصاء، أو العُنّة، أو النفور الجنسي، يمكن استحداثه بالتأثير في الشعر، وكأن للشعر قيمة سحرية، غير أننا لا نرى هذا الرأي ولا نذهب إليه. وسقوط الشعر أو قصّه في الأحلام قد يعني المعاناة من القلق والخوف ربما من فقدان القوة أياً كانت، ومن ذلك المال أو الجاه، أو السلطان أو الجنس. وسقوط الشعر أو قصّه أو حلقه في الحلم، قد يكون عقاباً ذاتياً ينزله الشخص بنفسه لمشاعر ذنب به، ولربما يستيقظ الحالم من حلمه فيتحسّس رأسه ليجد أن بعضاً منه قد زال فعلاً بالمرض الذي يقال له الثعلبة.

حلم ١ : حلمت أني أستحم، ونظرت في المرآة فوجدت أن شعري سقط، وقمت من النوم أتحسّس رأسي فاكتشفت أن جزءاً من المقدمة قد زال فعلاً.

التفسير: الحالمة معلّمة مصرية وكانت تعمل في مدرسة فلسطينية في الكويت عندما عُقدت إتفاقية كامب دافيد، وقد نشب صراع وقتها بين المصريات والفلسطينيات من المعلمات، وكانت هذه المصرية صديقة للكثيرات من الفلسطينيات فأصيبت بصدمة نفسية وهي ترى صديقاتها يتحدثن بكل هذه الكراهية لمصر، وكانت تريد أن

تقابل الإساءة بالإساءة، وكان يمنعها أنهن صديقات، فاضطربت أحوالها النفسية، وساء نومها، وكثرت أحلامها ومنها ذلك الحلم، وكانت تعاني من توترات سابقة تدرجها ضمن العُصابيات، وسبق أن أصيبت بالثعلبة وبالأكزيما، ومن ثم عاودتها هذه الأمراض الجلدية النفسية في ظل معاناتها الحالية.

حلم ٢: كنت أسبح بالبحر وخرجت، وإذا بي أتبين أن جسمي كله قد سقط شعره، وتحسست رأسي وأنا مضطرب فإذا بها أيضاً صلعاء، والتقيت بزوجتي فحاولت أن أخفي رأسي بيدي، ولكنها أشارت إليها ساخرة، وقالت صارت رأسك كالبطيخة القرعة.

التفسير: الحلم لمهندس في منتصف العمر يهوى زميلة له، ورفضه أهلها لقصور ذات يده وأصله الاجتماعي المتواضع، فأوعز ذلك صدره وتهالك على العمل ليقتني المال، وتزوج امرأة مطلقة وغنية ليحل بها مشكلته المادية، ولكن لأن العنصر النفسي في الجنس غير موجود فقد أصيب بالعُنة، ودار على الأطباء فنبّهه طبيبه النفسي إلى الأسباب النفسية لعُنته. وفي ضوء هذه المعلومات تتضح رموز الحلم: فالبحر هو حياته العائلية والمهنية والجنسية المضطربة، وسقوط شعر جسمه ورأسه هو ذهاب رجولته، وكانت زوجته في اليوم السابق قد طلبت أن تأكل البطيخ ووعدها بشراء واحد، وكان البطيخ في أول الموسم وثمنه مرتفع، ولكنها لما فتحت ما اشتراه تبينت أن البطيخة قرعة فسخرت منه، وظلت تردّد: أتمنى البطيخ فيُحضِر واحدة قرعة!! فكان هذا الجزء من بقايا اليوم السابق، وفيه تعريض بعجزه الجنسي.

ـ ٩ ـ
«أحلام النار»

ومن الأحلام النمطية أحلام النار، ومثلما قلنا إن ما يجعل الأحلام نمطية ورودها بمحتوى ظاهر واحد عن حالمين كثيرين. وأحلام النار أتت القدماء وتأتي المحدثين، وتفرِد لها الكتب القديمة أبواباً ذات مساحة كبيرة بالنظر إلى كثرة ما يمكن أن تأتي النار على صورته، ولا

شك أن الصور الحلمية للنار لها مضمون ثقافي يختلف باختلاف الثقافات، ولكننا معنيون بمضمونها العام ودلالاتها الأكثر شيوعاً، ومنها أن النار دالة على السلطان بتأثير جوهرها الذي يعلو على كل الجواهر، ودالة على العذاب، وبها تكون جهنم، وعذاب الضمير يُرمز له بالنار، وربما كانت النار من دلالات الهدى فقد اهتدى بها سيدنا موسى، والنار رمز الفتنة والحرب والبُغض، ونقول عن الوباء إنه نار، ويُشبّه بها الجدب يأكل الأخضر واليابس. والنار في الشتاء دليل اليسار لأنه لا يشعلها إلا القادر عليها. والنار في مكانها من المشاعل وفرة في المال، وفي غير مكانها لا يخمد لها أوار وقد تُعَطّل عن العمل. ومن أكل ناراً فإنه مال حرام، ويُشبّه أكل مال اليتامى بالنار. وما أصابت النار فأحرقت من بدن أو ثوب فهو ضرر ومصائب. ومن قبَس ناراً أصاب مالاً حراماً، ومن أصابه وهج النار إغتابه الناس، والكيّ بالنار لذعة من كلام.

تلك إذن الصور الشعبية للنار، تذكي المخيلة في الأحلام فتأتي الصور الحلمية بليغة مبينة بيانها، وإن كنا نكرّر كل حين أن التفسير بالتنبؤ بما سيكون بحيث نقول مثلاً عن الحلم بالنار تأكل قرية، إنه فرية تنتشر فيها وتصيبها الفتنة، لا نأخذ به، وإنما نقول عن تفسير لرؤيا كهذه إن الحالم بها يعاني من مخاوف الفتنة، ويعيش في قلق وتوقّع لها، ولربما يكون لمخاوفه وقلقه وتوقعاته أسبابها ودوافعها السليمة فتأتي النتائج الصحيحة كمترتبات لمقدمات صحيحة، وعندئذ تصدق رؤياه.

ومن العبارات اللغوية أن يُشبّه الحب الشديد والعشق المتيم بالنار، وكذلك تأتي النار في الصور الحلمية عن الحب، وتوصف العاطفة بأنها مشبوبة، ويقال إن لها لهيباً، وهناك دائماً علاقة بين الجنس والنار، ونحن نقول إشتعلت به الرغبة. والنار كانوا يتعبدون لها وما يزالون وهم يضرمونها فيكون الرقص حولها والجماع. والنار تطهّر. ومن المحلّلين من يردّ غُلمة إشعال الحرائق Pyrolagnia إلى الإحباطات في الطفولة والجوع العاطفي ينشأ عليه البعض، والجوع الجنسي يستبد بالمراهق أو البالغ نتيجة العجز عن إشباعه لسبب أو

لآخر، وقد تحفل الأحلام بالنار بهذا كله، ويكون ورودها فيها لهذه الدوافع أو بعضها. وقد يأتي الحلم والحالم يضرم النار، وفعل إشعال الحرائق عندما يتكرر من الأفعال المعادية للمجتمع ولا يقوم به إلا سايكوباتي، وتكرار الحلم بإضرام النار قد يدل على عقلية اجرامية، وربما يعكس تلفاً عضوياً ذهنياً يجعل الحالم مريضاً مذهوناً، وتأتي أحلامه هلوسات، وربما يكون عملاً قهرياً إستحواذياً يأتيه الحالم غصباً عنه فيتواتر الحلم بإضرام النار. ولا شك أن لأحلام الحرائق صلة بالجنس فكلما تهيّج الحالم في اليقظة فإنه لسبب ما قد يقارن بين هياجه وإضرام النيران، فيصنع الحريق في الحقيقة أو يأتيه في الحلم، ومع تنامي الحريق يزيد الهياج الجنسي فيُمني، وكأن الامناء تبوّل يريد أن يطفئ به الحريق، وهو في الحالين يطفئ الحريق المشتعل على الحقيقة أو على المجاز بقضيبه ويستشعر لذلك لذة جنسية وإن كانت لذة مضطربة، والكثير من الناس وخاصة البدو يفعلون الشيء نفسه في اليقظة فيلذ لهم إطفاء النيران التي شعلونها للطهي أو للتدفئة بالتبوّل عليها، وقد ينتصب الرجل وهو يطفئ النار ببوله، أو قد يضاجع بعدها. والامناء أو الاستمناء عند المرضى بهوس إشعال الحرائق عقب إضرامها مثل ذلك، وهو كالتبوّل على النار الذي يكون بالبعض فعلاً قهرياً متواتراً، وكلاهما من الأفعال التي يختص بها الذكور دون الإناث. ولا عجب إذن أن تكون أغلب أحلام الحرائق من النوع الجنسي - أي الذي ينتهي بالإنعاظ - يختص بها الذكور دون الإناث، ولقد تبيّن من إحصاء أحلام الحرائق عند المراهقين أنه من بين كل مائة ذكر يحلمون بالحرائق أحلاماً جنسية هناك عشر فقط من الإناث تأتيهن هذه الأحلام. والمرأة التي تحرك مشاعرها الحرائق في الأحلام غالباً من النوع البارد جنسياً. وكانت الروائية جورج صاند تقول إن النار تستثير فيها الرغبة في التبوّل، وانها تحلم كثيراً بالنار، وهي أيضاً كثيرة الاستيقاظ من النوم لتتبول. وفرويد يقرن بين أحلام النار والرغبة في التبوّل، ويردّ هذه الأحلام إلى ذكريات الطفولة عن بلل

الفراش، وما كان الأهل يحذرون منه أطفالهم بقولهم لا تلعبوا بالنار حتى لا تتبولوا على أنفسكم في الليل. وإنني لأميل إلى رأي فرويد، فالملاحظ عند التبوّل أنه يكون هناك حَرَقان يستشعره الكثيرون، والإحساس الحارق في الفرج أو القضيب خلال الهياج الجنسي لشبيه به، وقد يستشعر البعض ميلاً إلى التبوّل كلما كان هناك هياج جنسي، ويمكن أن تكون القوة التدميرية للنار رمزاً للطبيعة القوية للدافع الجنسي، فكلما استبد هذا الدافع جاءت الصور الحلمية بالنار إنعكاساً للرغبة الجنسية، وقد تكون للحرائق غُلمة في اليقظة وفي الأحلام، وربما يشبعها لدى المنحرف إشعالها، وربما كانت تلك حال نيرون وهو يضرم النار في روما، وكانت تأتيه أحلام إضرام النار، وكان كلما رأى ناراً يتعبّد لها وكأنها إله، وربما كان ذلك أيضاً هو حال الكثيرين من مثيري الفتن ومشعلي الحروب.

أمثلة:

حلم ١: حلمت أني أدخل مكاناً وكانت الدنيا شديدة الحرارة، وقال قائل أنت تستحق الكي بالنار، ووجدتني مغصوباً أن أمشي إلى النار، وأنا أقاوم ولا أستطيع ردّ نفسي، واستيقظت مفزوعاً ووجدت أني قد أمنيت.

التفسير: الحالم طالب تجارة قد أطلق لحيته ويعيش حياة تديّن وينضم إلى جماعة دينية، وهو يهفو جداً إلى الجنس، وبه حساسية لسماع حكاياته، ويتمنى الزواج، ويكره أن يكتشف الناس فيه هذا الضعف، ويعيش صراعاً بين ميوله الجنسية القوية، وبين قوى القمع والكبت فيه، وكلما تهافت جنسياً كان توغله أكثر في الدين، وحلمه هذا ضمن أحلام أخرى كثيرة يحلم فيها بالنار والعذاب، والنار في هذا الحلم هي عذاب الضمير، وهي نار مطهّرة له، وتعكس أيضاً نار أشواقه الجنسية، وكأنه بالنار يتحقّق له شيئان: التنفيس جنسياً فيُمني، وأن يعاقب نفسَه على ذلك بما يستشعره من عذابها.

حلم ٢: حلمت أني أشعل موقد الغاز فانفجر، وكنت أملأ جردل الماء وأرش عليه فانطفأت النار.

التفسير: الحالم طفل في السابعة يُعالَج من التبوّل اللاإرادي ليلاً، والحلم بالنار هنا له سبب فسيولوجي وهو امتلاء

مثانته بالبول، وانفجار الموقد هو انفجار لمثانته وتبوله رغم إرادته، ولقد تبوّل فعلاً وبلّل فراشه، فكأن ماء البول قد أطفأ نار الرغبة المحتدمة فيه أن يقوم بالتبول.

حلم ٣: هذا الحلم لفرعون موسى يورده إبن سيرين بالتفسير الذي يراه له ونقدمه نحن بما نراه له من تفسير:

«حلم فرعون حلماً فظع به وهاله. رأى كأن ناراً خرجت من الشام ثم أقبلت حتى انتهت إلى مصر فلم تدع شيئاً إلا أحرقته، وأحرقت بيوت مصر كلها ومدائنها وحصونها، فاستيقظ من نومه فزعاً فجمع لها عدداً عظيماً من قومه فقصّها عليهم، فقالوا له: لئن صدقت رؤياك ليخرجن من الشام رجل من ولد يعقوب يكون هلاك مصر وهلاك أهلها على يديه، وهلاكك أيها الملك، فعند ذلك أمر فرعون بذبح الصبيان حتى أظهر الله تعالى تأويل روياه، ولم تغنِ عنه حيلته شيئاً، وربّى موسى عليه السلام في حجره، ثم أهلكه على يديه عزّت قدرتُه وجلّت عظمته».

والحلم أصلاً تقصه التوراة، وواضح أنه من وضع الأحبار لأن الحالم وإن كان فيه أن مصر ستعاني من فتنة أو غزو يتحصل لها من ناحية بلاد الشام، إلا أن حكاية أن محدث الفتنة من ولَد يعقوب يكون هلاك مصر على يديه ملفقة تماماً، ولا تأتي في تفاصيل الحلم، ثم إننا نعلم أن موسى وُلِد بمصر وعاش بها قومه مدّة تربو على الأربعمائة سنة حتى اندثرت قوميتهم وصارت لهم عادات ولغة المصريين. ويروي فرويد في كتابه موسى والتوحيد أن العيّ بلسان موسى هو عجزه عن التحدّث بالعبرانية، وأن الختان اليهودي هو عادة مصرية لها ما يبرّرها عند المصريين وليس لها ما يبرّرها عند اليهود، وأن تحريم لحم الخنزير لأن المصريين حرّموه على أنفسهم فقد كان من الصُّوَر التي اتخذها سِت في عراكه مع أخيه أوزيريس شكل الخنزير، فكان الخنزير نجساً عند المصريين لهذا السب، وحرّمه اليهود عندهم بلا سبب، وإن تحريم اليهود للتماثيل كان لأن المصريين كانوا يتعبّدون التماثيل فكأن الديانة اليهودية مصرية المنشأ والطابع. وليس ثمة ما ينبئ بأن الفتنة أو الغزو الموعود في الحلم يمكن أن يرتبط بقوم

موسى من نسل يعقوب! والرأي عندنا أن فرعون موسى كان من الفراعنة الضعاف كحاكم، وفي عصره كان هناك ما يشبه الغزو الفكري الشامي حتى أن النساء كانت تُستورد من الشام ومعهن عادات أهلها ولغاتهم، وكان الهكسوس من أهل الشام وقد حكموا مصر أيام النبي يوسف، ولذا ظهر اتجاه وطني في مصر يرفض تكرار ذلك ويتصدّى له، ونعلم أن الملوك يمتلىء تفكيرهم بما ينفع شعوبهم، وبما يحل مشاكلها، ورؤيا الملك بالنار تأتي من ناحية الشام وتهلك مصر هي رؤيا عادية جداً تعكس هموم الملك اليومية، والحلم هو رأيه الشخصي فيما يشهد أنه غزو فكري لبلده يأتيها من الشام، والحلم بذلك نفسره بأنه تعبير عن مخاوف مَلك مصري وقلقه إزاء الهجمة الفكرية السامية.

- ١٠ -
«أحلام الولادة»

من الأحلام النمطية، والولادة من الأحداث الكبرى في حياة كل إنسان وينسب علماء النفس إلى الولادة آثاراً هائلة على التكوين النفسي للفرد باعتبارها صدمة يسمونها صدمة الميلاد. فالخروج من أمن الرحم والماء الذي يحيط بالجنين ويسبح فيه مطمئناً إلى اضطراب الحياة والتنفّس بالرئتين، ومشاعر الجوع والعطش، وأحاسيس التبوّل والتبرّز، كل ذلك يصاب منه الطفل بالمخاوف والقلق. وكلما أعوزنا الزمن في الحياة من بعد كان بنا الحنين لعُزلة الرحم، فنعتزل داخل حجرات كالرحم، ولعلنا نستشعر وقتها بمشاعرنا ونحن في الأرحام، أو تأتينا الأحلام وفيها الماء يرمز للرحم، والخروج منه يشير إلى الخروج من الرحم أي الميلاد. وكذلك النجاة من الغرق من دلالات الميلاد. ويروي فرويد حلماً لإحدى مريضاته: «حلمت بأنها تقفز إلى الماء في منطقة منه انعكس عليها ضوء القمر الشاحب». وتفسير هذا الحلم يكون بالقلب، بمعنى أن القفز إلى الماء هو في حقيقته خروج من الماء، أي ولادة، وكلمة القمر في الفرنسية - حيث كانت المريضة فرنسية - هي La lune، وتعني

أيضاً «المؤخرة»، والقمر الشاحب إذن المقصود به المؤخرة، فكأن الولادة التي تراها هذه الحالمة هي ولادة بالمقعدة وليس بالرأس، ومن شأن هذه الولادة أن تكون عسرة. وقد ذكرت المريضة أن الحلم ربما إذن يصورها وكأنها «تولد»، ولما سألها فرويد ماذا تعني بأنها «تولد» كما يقول الحلم، قالت أوليس العلاج كأني أولد من جديد، فكأن الحلم بمثابة الدعوة منها لتواصل العلاج وإن كانت ولادتها عسرة.

- ١١ -
«أحلام الحمل والسقط والميلاد والرضاعة»

أحلام الحمل من الأحلام النمطية التي لا تنبئ عن مخاوف أو قلق ولكنها تنبئ عن رغبة في الحمل، ورغبة في خير يتحصّل للواحد ويزيد به، كزيادة الحامل بحَملها، فالتاجر إذا حلم بأنه حامل، أو أن زوجته حامل فإما لأنه يرغب إما في ولد أو في زيادة ماله من التجارة. والعالِم الذي يحلم بالحمل قد يكون راغباً أيضاً في الحمل على الحقيقة بمعنى أن ينجب، أو الحمل على المجاز بمعنى أن يوفقه الله إلى حلّ مشكلة علمية، أو إنشاء نظرية، أو صياغة فكرة لم يسبقه إليها أحد. وربما يكون الحالم بأنه حامل يعاني من صراعات جنسية مثلية يسوء بسببها تعينه بدوره الذكوري ويختلط تعيّنه الذكوري بتعين أنثوي فتتوه عليه الأدوار الجنسية. وقد تكون أحلام الحمل للرجل من قبيل التخيّلات التي تفصح عن رغبة في أن ينقلب أنثى، وذلك شائع بين المتخنثين والمتشبّهين من الذكور الذين يعانون من الاضطراب الجنسي المسمى التخنّث أو الاضطراب الجنسي المسمى التشبّه. ومن أحلام الولادة أن يحلم الذكر بأنه يلد، غير أن ولادته تأتي من شرجه، والولادة الشرجية تخييلات تتراوحنا في الطفولة، وتأتي الذكور، وتلح عليهم عندما تزيد الحساسية الشهوية بمنطقة الشرج وتتثبت كمنطقة شهوية، فتكون من بعد منطقة جنسية يتعامل معها جنسياً، أي تتحول إلى منطقة للجماع وتخييلات الولادة، ولربما يتحصل الحمل الكاذب للمأبون ويكبر بطنه، فلا غرو أن

تعكس الأحلام كل ما يدور من أفكار بذهنه وتصادق على ما يتخيّله أو يتمناه، أو يذهب إليه خاطره بلا وعي منه.

❖ ❖ ❖

ومن الأحلام التي تندرج تحت أحلام الولادة أحلام السُّقط، فيرى الحالم أن حمله لم يتم، وتفسير ذلك أن ما كان يفكّر فيه وتتّجه إليه إرادته بالتفكير يميل إلى الانصراف عنه وان لا يتمه.

في حين أن الذي يرضَع يعني أنه إنسان إنتهازي أو إعتمادي، فإن كانت رضاعته من ذكر فحتماً يعاني من ميول لواطية، ومثل ذلك أن ترضَع الأنثى من ذكر لميول ذكورية فيها. والرجل الذي يحلم بأنه يرضع أنثى به ميول أنثوية، ونحن نعرف أن الذكور قد يعانون من حسد الثدي مُعاناة الإناث من حسد القضيب، والرجل الذي يعاني ذلك ربما يتزوج إلا أنه يخدم زوجته ويحب ذلك، ويقوم بالطهي والكي والغسل والكنس وتحميم الأولاد، ويسميه أصحاب مدرسة التحليل النفسي الرجل المهبلي، أي المؤنّث، الذي يتعيّن بأدوار النساء. وتكشف الأحلام من هذا القبيل كل تلك الميول والاتجاهات والانحرافات. ومن رموز أحلام الميلاد أن نحلم بأننا نمر بأماكن ضيقة، والمكان الضيق رمز للمهبل، ونعاني أثناء الحلم من مخاوف وقلق كما لو كنا محاصرين، وهو الحصر أو القلق نفسه الذي يعاني منه العُصابيون الذين يشكون رهاب الأماكن المغلقة أو الكلوستروفوبيا، فكأن المرور فيها في اليقظة أو الحلم بمثابة كابوس يرين على الصدر، وذلك بسبب أننا نستعيد من خلالها حصراً قديماً كان بمثابة التجربة الهائلة العميقة الأثر، والتي تترك هذا الأثر مدى الحياة من بعد، وتطبع الشخصية بطابعها بطريقة أو بأخرى، وهي تجربة الميلاد، أو صدمة الميلاد، وعندما تتعثر الولادة، وينزلق الجنين من المهبل، ويحاول المرور بصعوبة وتطول الولادة، وقد يشارف الموت، وقد يصاب من بعد بخواف الأماكن المغلقة، أو تمهد الصدمة لإصابته به، وقد يخاف الموت خوافاً مرضياً وتأتيه أحلام الموت

كالكوابيس فيحلم بأنه يُدفَن حياً، أو يُغلَق عليه قبر، أو يحلم بأنه يُشنق أو يُخنَق، ولعل الموت في هذه الأحلام رمز للميلاد، والقبر رمز للرحم، ولعل الحالم يعاني من مواقف حصرية في حياته تعيد إلى ذهنه موقف الميلاد فيتمثل ألم الولادة ألماً للموت، ويعاني من ألم الموت هذا، وكأنه يقول لنفسه: إنه مثلما اجتاز صدمة الميلاد فسيجتاز أية صدمة، ويولد من جديد، ولعله لهذا السبب يذهب التفسير الشعبي الأحلام من يرى نفسه وقد مات أنه يولد من جديد بمعنى سيطول عمره.

❖ ❖ ❖

ومن أحلام الميلاد والموت طائفة يحلم الحالم بها كأنما الأرض ابتلعته، أو أنه ابتلعه وحش، أو حوت، ثم قذف به إلى الخارج، وذلك تفسيره معاناة حاضرة للحالم يرجّح فيها لنفسه أنه سيخرج منها سالماً، ولعل قصة النبي يونس من ذلك، فيونس كان الصراع فيه محتدماً بين الواجب وحب الذات، وبين الغيرية والأثرية، وبين الأنا والضمير، وقد رأى يونس أن يهرب من واجباته ويسافر مرتحلاً، فغرقت المركب والتقمه الحوت، فاستغفر من ذنبه، وكأنه كان في حلم. وكأن الحلم كانت تدفع إليه مشاعر ذنب هائلة، فلما انتصر الضمير على الأنا، لفظه الحوت، وكأنه قد ولد من جديد بأنا جديد، وقد طهّره العقاب من ذنوبه، وذاك تفسير أن الموت في الحلم ولادة أخرى.

– ١٢ –
«أحلام الحيض»

أحلام الحيض من الأحلام النمطية التي تأتي البنات والسيدات والعوانس والعجائز على حد سواء، وقد تأتي الرجال، وأما إتيانها البنات فهو من قبيل ما يسميه علماء النفس حرص العذرية، حيث تكون بالبنت مخاوف من الزواج ومن الليلة الأولى، فتأتيها التخييلات بخصوص افتضاض بكارتها وعندئذ قد تحلم بالحيض ينزل عليها بديلاً عن دم الافتضاض، وكأنها بذلك تيسر على

نفسها الزواج وتلغي مخاوفها.

وقد تحلم الأم بأن الحيض يجيء ابنتها، فقد ترى أن ابنتها تأكل عسلاً أسود مثلاً، وهو ما يعني أنها ترى أن الابنة قد كبرت وحان حيضها.

والمرأة المتزوجة إذ تحلم بأنها تحيض فذلك قد يعني نفورها من الجماع، حيث بالحيض تعتذر عن إتيانه، وقد يعني أنها ترى عدم كفاءة زوجها جنسياً، فالمرأة المتزوجة لا تحيض إلا إذا كانت غير حامل، وكأنها تلوم رجلها على استمرارها تحيض، ولذلك فقد نفسر رؤية المرأة لحيضها أن بها أشواقاً للإنجاب.

ورؤية العجوز للحيض مخالف للواقع، فإذا حلمت أن الحيض قد نزل عليها فذلك ربما لأنها تتحسر على شبابها وتتمنى لو تعود الزمن القهقري، أو ربما تكون قد مرّت بمعاناة عظيمة تذكّرها بتجارب مماثلة من حياتها في ماضي أيامها، والمعروف أن الحيض ينزل على المرأة في غير أوانه إذا زعلت، والزعل يبين في الحلم فترى نفسها تفعل الشيء مثلما كان يحدث لها سابقاً.

والحيض للرجال قلب للدور الجنسي، وقد يحب الرجل امرأته حباً جماً حتى ليتعين بها، فإذا كانت بالزوجة أشواق لأن تحمل فقد يرى زوجها أنه يحيض، والمعنى بالقلب أنه يتمنى لزوجته أن يرتفع حيضها، أي أن تحمل.

ولقد قيل إن المأبون يحيض كالنساء، وليس ما ينزل منه حيض على الحقيقة ولكنه تجلّطات يضرب لونها للسواد، وتتجمع في المستقيم، بسبب سوء الاستخدام، وتنزل دفعة واحدة. ولقد تأتيه أحلام الحيض لتؤكد دوره الجنسي السالب.

والحيض قد يراه البعض في الأحلام نفوراً من الجنس الآخر، فقد يميل الشخص في اليقظة لفتاة ويراها في الحلم تحيض فينفر منها، وكأن الحلم يمدّه بالذريعة للنفور. وقد تعني رؤيته لها تحيض رغبات لا تفصح عن نفسها بفضّ بكارتها. ورؤية الحيض قد يعني ميولاً عدوانية ضد النساء، ونحن نعرف أن كل الثقافات تجعل المرأة في المحيض نجساً، وقد تغلو في ذلك كما في اليهودية فتنهى حتى عن مؤاكلتهن في المحيض.

- ١٣ -
«الأحلام الأوديبيّة»

قيل إن هذا العصر الذي نعيش فيه هو عصر القلق، وهو حقاً ما يعاينه فيه كل بصير، غير أننا نطالع التاريخ وسيطَه وقديمَه، ونقرأ كتب الأدب في الشعر والنثر والقصة والمسرحية، ونقرأ التوراة والأناجيل والقرآن، فلا نخرج من كل ما نقرأ ونطالع إلا بأن عصرنا ليس أسوأ العصور، وأن القلق ليس سمة نُختَص بها، فالقلق عام وشائع، وكان مع الإنسان دائماً وأبداً، حتى ليمكن أن نقول إن الإنسان يولد والقلق معه، وإنه مخلوق قلق، قد قُدّر عليه أن يقلق دائماً. ويبدو أن القلق سمة الوجود الإنساني، وهو دافع قوي من الدوافع التي تشكّل الأفراد والجماعات وتوجّه أهدافهم، فالقنبلة الذرية مثلاً ترتبت على الشعور بالخوف، ولم تكن سبباً للخوف، والخوف هو الذي يجعل الحكومات والشعوب تخصص نحواً من نصف ميزانياتها أو ما يزيد على ذلك للدفاع.

والإنسان مخلوق قلق لأنه يعاني من صراعات باطنة، وشخصيته تشبه البيت المنقسم على نفسه، والذي تدور بين أهله، وتملأ ساحاته حرب أهلية. ويعاني الإنسان عذاباً نفسياً وذهنياً كنتيجة لهذه المجاهدة الباطنة، ويحاول أن يخفف عن نفسه بمختلف الطرق إلا أن يمسك بالمشكلة الأصلية التي تسبّب له القلق، وذلك لأنه يتّجه لحل المشكل إلى العالَم الخارجي أو العالَم من خارجه، في حين أن المشكلة داخله هو، وإذا أراد أن يحلّها فعليه أن يستبصرها داخله، ويلتمس حلّها من داخله، ويضع يده على جذور القلق فيه.

والصراعات التي يعانيها الإنسان والتي تولّد القلق فيه مدفونة فيه - في عقله، وأعماق نفسه - ولكي يصل إلى أسبابها عليه أن يغوص خلفها إلى الأعماق وأعماق الأعماق، وأن يستخدم من الأدوات ما يمكّنه من تحرّيها وملاحقتها وكأنه يتحتم عليه أن يستعين بأشعة إكس تكشف عنها وتفضحها، والأحلام هي هذه الأداة، لأن الأحلام هي مرآة الأعماق وهي المجال الذي تنطرح

فيه الذات للخارج، فعندما ننام وننقطع عن العالم الخارجي فإنه لا يتبقى للتفكير وللتأمل إلا العالَم الباطن، وفي الأحلام ننكفئ على أنفسنا، ونعيش مشاعرنا واضطراباتنا، والقلق الذي يخترمنا، والمخاوف التي تلفنا، والآمال التي تتلألأ من بعيد وتشدّنا إلى وميضها، والصراعات التي تحتدم بنا. والأفكار التي تأتينا في النوم حول كل ذلك في شكل الأحلام تسجل لكل منا كل الغموض الذي يلف حياتنا.

ولقد تسنّى أن نبحث في مجموعات هائلة من الأحلام التي جمعناها من الأسوياء لنطالع فيها الصراعات التي تهصر الإنسان وتنغص عليه عيشه، فما هي هذه الصراعات وما كنهها، وما هي طبيعتها؟

إن أول هذه الصراعات وأهمها جميعاً هو الصراع الثلاثي الأطراف، الذي يضم الحالم وشخصين آخرين، ولعلنا نذكر أننا قد قلنا سابقاً إن متوسط أشخاص الحلم هم ثلاثة بمن فيهم الحالم، ونحن نضيف الآن أن ما نقصد إليه هو أن يكون الشخصان الآخران رجلاً وامرأة، بمعنى أن يكون الثالوث المقصود رجلين وامرأة لو كان الحلم لرجل، وامرأتين ورجل لو كان الحلم لامرأة، وذلك شأن مألوف في الحياة نفسها وليس في الأحلام فقط، على شكل رجل تتخاطفه امرأتان، أو امرأة يتنافس عليها رجلان، وهو ما تدور حوله قصص السينما والمسرح والروايات والكثير من الشعر والأغاني، ويتكرر الشيء نفسه في الأحلام، والكثير منها يقوم على هذا الموقف الثلاثي دون كلل أو ملل، ودون أن يصبح هذا الموقف ممثلاً في الحقيقة، ولا في الخيال، ولا في الأحلام، فهو موقف متجدّد يشد إليه الناس شداً ويسيطر على تفكيرهم، لأنه يعكس صراعاً باطنياً له أهميته في حياتهم، ولعلنا بهذا الطرح المتجدد له في الأدب أو في الأحلام نجد الحل له، أو نجد بعض العزاء لما نستشعره نحن من جرّائه، فإذا كانت عُقدة الموقف تنحل أحياناً في قصص الأفلام أو المسرحيات أو الروايات فلعلها أيضاً تنحل في الأحلام. ولعلنا نؤثر أن نحدّد طبيعة هذا الموقف بعض التحديد فنقول إن الأحلام النمطية له هي أحلام يرى فيها الحالم

الذكر أن فتاته أو امرأته ينافسه على قلبها رجل آخر، ويحاول الحالم المستحيل أن يبزَّ منافسه وأن يخرجه من السباق عليها، فتكون فتاته أو امرأته له خالصة، وكذلك قد تحلم المرأة أن رجلها أو فتاها تنافسها عليه فتاة أو امرأة أخرى وتحاول أن تغصبه منها.

هذا الموقف نفسه إن كنا نعيشه في الشباب أو في أي وقت وزمن لاحقين فإنه تكرار لموقف نمطي بدائي عشناه في طفولتنا جميعاً، وهو الموقف الأوديبي الذي كان يضم الأب والأم والطفل سواء كان ذكراً أو أنثى. وربما يكون من المناسب أن نذكّر قليلاً بمعنى الصفة التي وصفنا بها الموقف وهو أنه أوديبي، وهو اشتقاق من أوديب، الملك اليوناني الذي تحكى الأسطورة أنه تزوج أمه وقتل أباه. والطفل في بواكير عمره يشعر بانجذاب نحو الوالد من الجنس الآخر فإذا كان ذكراً فإنه ينجذب إلى الأم، وإن كان أنثى انجذبت إلى الوالد، ومن ثم فإنه يغار من الوالد من جنسه نفسه، فالذكر يغار من الوالد، والأنثى تغار من الأم، ويجد أن هذا الوالد من جنسه نفسه يزاحمه حبّه للوالد من الجنس الآخر، فيبغضه أحياناً، ويحبّه أحياناً، ويتراوحه الحب له والبغض، وقد يسفر ببغضه حتى ليتمنى موت غريمه أو منافسه في حبّه. وهذه هي الدراما الإنسانية التي نعيشها في طفولتنا ونحاول لمعضلتها حلاً، وقد نستطيع حل الإشكال فنتعين بالوالد من الجنس نفسه ونتشبّه به، لعلنا نكون في الصورة التي نجد أن الوالد من الجنس الآخر يحب الابن من الجنس نفسه بها. وهكذا قد نصل إلى الحل بأن يتشبّه الولد بأبيه لعله يرضى عنه، ولعل الأم ترى فيه صورة أمثل لرجلها الأب. وتتشبّه البنت بأمها للغاية نفسها، فتُرضي نزعة الأم لأن ترى فيها نفسها، ولتكون نسخة أفضل منها في عين الأب. وهكذا نحن دائماً نريد لعلاقاتنا الحميمة أن تكون علاقة بين اثنين، وليس علاقة بين ثلاثة، والاثنان صُحبة، بينما الثلاثة كثير وزحام. وينعكس هذا الموقف الأوديبي في أحلامنا حتى لنذهل من الوضوح الذي يكون عليه الصراع في الحلم فلا نصدق التفسير. وإليك هذا الحلم:

- حلمت أني أضاجع أمي، ومن الغريب

أني كُنت منتصباً، وكانت هي في كامل ثيابها، وأنا أيضاً، وكنت ألتصق بها وأضمّها إليّ في وَلَه.

وهذا الحلم أيضاً الذي ليس بصراحة الحلم السابق:

– حلمت أني متزوجة من رجل يكبرني كثيراً، وكان في العمر كأنه أبي، وكان قصيراً وسميناً. وكنت أقف في النافذة إلى جواره ننظر إلى المشهد أمامنا. وفي الشارع كان الناس مجتمعين يشيرون إلينا في غضب، لأني رضيت أن أتزوج رجلاً في عمر أبي. وكان واضحاً أني أعرف بعضاً من هؤلاء الناس، فقد كانوا صديقاتي، ولكني لم أكن أبالي، وكنت سعيدة بزواجي من رجل به شَبَه من أبي.

والحلمان يستشعر الحالمان بهما الذنب لما يفعلاه، فالشاب في الحلم الأول لا يفعل ما يفعل إلا وقد ارتدى ثيابه وأضفى الثياب على أمه، فهو يعرف أن ما يفعله خطأ ولا يجسر على أن يفعله مباشرة. والبنت تحل إشكال حبّها لأبيها بأن ترى نفسها في الحلم أنها تتزوج رجلاً يشبه أباها، وهكذا تستعيض عن أبيها بصورته طالما أن أباها محرّم عليها.

وأما الحلمان التاليان فهما لفتى يناصب أباه العداء صراحةً في الحلم، ولفتاةٍ ترى أن أمها عدوتها اللدود:

حلم ١: حلمت أني أتشاجر مع أبي وكان يمسك في يده عصا غليظة حاول أن يعتدي بها عليّ، فلكمته بقوّة أطاحت به من فوق السلم، فسقط يهوي على الدرج.

حلم ٢: حلمت أن أمي جاءتني غاضبة ومهدّدة، وكانت تريدني أن لا أخرج ولا ألبس كما تلبس البنات، فناقشتها ولكنها ما كانت تبالي بي، فأخذت أصرخ وأصرخ حتى بحّ صوتي ولم يعد يخرج، وأحسست أني أخور، ولم أستطع أن أحرّك يديّ ولا قدميّ كأنني أصبت بالشلل، واستيقظت مذعورة فحمدت الله أني سليمة، ولكني كنت في حال يرثى لها من النكد.

والحلم الثاني أكثر تعقيداً من الحلم الأول، لأن الحالمة فيه لا تعرض كراهيتها لأمها فقط، ولكنها تبين سبب هذه الكراهية، والحالمة تكره أمها لأن الأم برفضها أن تلبس وتخرج كالبنات تحول بينها وبين إتيان شيء تأتيه البنات اللاتي

يلبسن ويخرجن، ولا تريد إبنتها أن تحذو حذوهن، وفي هذه الحالة فإن الأم تجسّد ضمير البنت.

ولو أخذنا الأحلام التي يظهر فيها أحد الأبوين أو الأبوان معاً وصنّفناها بحسب ما يبدو بين الحالم وبينهما من علاقات مودّة أو بغضاء، لوجدنا أحلام الرجال تصور الأم في صورة محببة بينما تجعل الأب معادياً، والعكس صحيح في أحلام النساء، فالأم تظهر بغيضة والأب يبدو ودوداً. ولو أخذنا أية شخصية من شخصيات الأحلام التي نحلم بها بحيث تكون هذه الشخصية في سن أحد الوالدين فإننا نتحصل على النتيجة نفسها، فالرجال يتصورون الذكور كبار السن معادين، والإناث كبيرات السن ودودات، بينما تتصور النساء الإناث كبيرات السن معاديات والذكور كبار السن ودودين، ومن ثم فإن موقف الحالم أو الحالمة من الأبوين يحدّد موقفهما من أي من الناس الذين يحلمان بهما من أي من الجنسين ممن يكونون في سن الأبوين، ونلاحظ أيضاً أن النساء لا يفرّقن هذه التفرقة الحاسمة بين الأبوين بحيث يجعلن الأمهات في الجانب المعادي، والآباء في الجانب الصديق مثلما يفعل الرجال، فالنساء يمكن أن تكون لديهن مشاعر مختلفة تجاه الوالدين، وهو شيء لا يدهشنا إذا عرفنا نشأة هذه التصورات، فالأطفال من الجنسين سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً تتكون لديهم مشاعر إيجابية تجاه الأم ولا يشعرون بمثل ذلك نحو الأب، ثم من بعد المراحل الأولى ينحاز الأطفال لأي من الأبوين من الجنس الآخر بحسب المعاملة، فالبنت لا تجد أن أمها صديقتها، على عكس الأب الذي يترضّاها أكثر ويتقرّب منها، والولد لا يجد أن معاملة أبيه له ودودة على عكس أمه، ويتبين من تصرفات الأب معه خشونة في حين أن الأم تتقرب منه وتتودّد له. ومع ذلك فإن البنت لا تنقلب على أمها انقلاب الولد على أبيه، فتظل بالبنت رغم غواية الأب لها أشواق لأمها، وتتمنّى أن تفهمها الأم، ولا تقطع علاقتها بها، وتحاول وصالها باستمرار، ولذلك فإنها تعاني في حياتها أكثر مما يعاني الولد الذي يحسم الأمر وينحاز كلية ولا يتراجع عن انحيازه،

ولا تتراوحه مشاعر البُغض والحب مثلما الحال مع البنت.

وإليك هذا الحلم الذي يصور علاقة أحد الشبان بوالديه:

- حلمت أننا في الإسكندرية نقضي الصيف، وكنا على البلاج، ونزلنا الماء أنا وأمي وأبي، وأخذنا نسبح ونحن في بهجة، وفجأة وجدنا التيار يسحبنا، وكانت أمي على يميني وأبي على يساري، وسمعت أبي وأمي يقولان: التيار يسحبنا يا بني، وتطلعت نحو أمي وأبي، ولا أدري لماذا ظننت من الوهلة الأولى أن أبي سيدبّر نفسه، وأن أمي هي الأولى بالرعاية، وضربت الماء بقوة ووصلت إليها، بينما ما تزال صرخات أبي تدوي في أذني، وأخذت بيد أمي واتجهت إلى الشاطئ وتبينت بعد فوات الأوان أن أبي قد اختفى.

ونحن نرى في أحلامنا الصراعات التي تنشأ بين الأولاد وذويهم ونشهد في الوقت نفسه محاولات الحالم أن يحل بقايا هذه الصراعات من الطفولة، وتقدّم الأحلام حيلاً طريفة يلجأ إليها الحالم من الجنسين، كهذا الحلم:

- كنت أنا وأبي وأمي نركب سيارتنا إلى بيتنا في الريف، وكانت أمي هي التي تقود السيارة، بينما كنت أجلس إلى جوارها، وأبي في الخلف، وكانت أمي سارحة بينما أتناقش أنا وأبي، وكان موضوعنا ما تفعله بنات اليوم، وتطرّق الحديث إلى الحب، وكان أبي يضحك مني لجهلي، وقال سأعلمك وأخذ يربت بيده على شعري، ويدلّك كتفي ويقترب بأنفاسه من رقبتي وأذني وأنا مندهشة لتصرفاته وأحمر لها خجلاً، وأمي صامتة لا تقول شيئاً.

والحالمة تنسب الفعل الأخلاقي لأبيها بدلاً من أن تنسبه لنفسها، وتستشعر الذنب مع ذلك لأنها رغم حيلة القلب هذه ما تزال تدرك في أعماقها أنها هي التي تتمنى أن تفعل ذلك وليس أبوها، وما تريده فعل محرم وضميرها يؤنبها لهذا السبب. والحالمة تحيّد الأم، أي تجعلها على الحياد، فلا تعلّق على ما يدور، فكأنها أخرجتها من الموقف وجعلت المسألة بينها وبين الأب فقط. وحيلة القلب هنا ذكية، وتتجنب بها البنت أن تبدو في صورة الغاوية لأبيها، لأن هذه

الصورة لا يوافق عليها المجتمع والدين.

والحالمة السابقة نفسها تفصح عن كراهيتها لأمها بطريقة فريدة تحقق لها أمانيها الشريرة للأم دون أن تظهر صراحة:

- رأيت جدّي، وكان طبيباً للأسنان ولكنه اعتزل الطب، رأيته يعالج ضرس أمي، ثم شهدته يخلع الضرس، وبعد ذلك لاحظت لدهشتي أن أمي تغيّر شكلها فوراً، فشاب شعرها كله، وبدت التجاعيد في وجهها، وانحنى ظهرها، كأنها أصبحت عجوزاً شمطاء، وقد فزعتُ مِن تحولها هذا وأصابني الخوف وأخذت أبكي.

وتظهر الحالمة نفسها بُغضَها لأمها هذه المرة صراحة ولو أنها تتوجه ببُغضها لبديلة عن الأم:

- كانت المرأة إلى جواري، وكانت ترتدي ثياباً كالتي ترتديها أمي، وتقص شعرها مثلها، ولم أكن أعرفها، وكنت ما أزال أتساءل مَن تكون، عندما رأيتها تصرخ وتتلوى ألماً، وتسقط على الأرض وتمد ذراعيها نحوي، وتطلب النجدة وتشير إلى قلبها وكان واضحاً، أنها تعاني نوبة قلبية كالتي تصيب أمي، ولم أسرع بنجدتها، بل على العكس تمنيت لو تموت وأرتاح من شكلها وصوتها ووجودها إلى جواري، وشهقت المرأة ثم أسلمت الروح.

ونلاحظ أنه حيثما تكون البغضاء يكون الخوف، ولنتأمل خوف الحالمة السابقة من كل النساء في مثل سن أمها:

- كنت على البلاج، وكنت أريد أن أستلقي وأستمتع بالشمس والهواء ومِلتُ بجسدي على الرمال، واكتشفت أن هناك سيدة في نحو الخمسين (كانت أمها في الخمسين) ترمقني شذراً، وغطيت ساقيّ ولكنها ظلت تنظر إليّ نظرات حادة فاعتدلتُ في جلستي وقد تملكني الغيظ الشديد منها.

وواضح الآن السبب في كراهيتها لشبيهة الأم: إنها لا تريدها أن تستمتع بحياتها.

وأما في هذا الحلم فرأيها في أبيها مختلف وتجعله خديناً لها وشريكاً في الفعل الفاضح:

- كنت على البلاج مع شخص، وكنت وهو كأننا متفاهمان، وكان يمسك بيدي ويتحسّس شعري وأنا مستلقية على الرمل

وقد استسلمت لمداعباته تماماً، وكان هذا الشخص أشيب الشعر، وما كنت أراه كذلك، فقد أغمضت عينيّ في نشوتي، واشتدت الشمس، ففتحت عينيّ لأرى غير بعيد سيدة شعرها أشيب تشير إليّ مشمئزة، وتطلعتُ حولي لأتبين لمن تشير فوجدت أنها تشير إليّ، وأضمرتُ لها البُغض في نفسي، فقد أخرجتني مما كنت فيه.

وواضح من الحلم أن هذا الشخص هو أبوها، وهي تستمتع بحياتها معه لولا ما ينغصه عليها تزمّت أمها التي تمثلها هذه السيدة، وزملة الأحلام السابقة كلها تحكي عن التوترات في حياة الحالمة التي تردّها لأمها، في حين أنها دائماً تنشد المتعة مع أبيها.

وإليك هذا الحلم لشاب يضاجع بديلةً عن الأم ويعاقب نفسه على ذلك:

– حلمت أني أنزل في فندق، وطرقت الباب سيدة طويلة القامة بيضاء وكانت تبدو محترمة، ودفعتني إلى الداخل وبدأت تقبلني، ثم همّت أن تخلع ملابسها عندما دخلت سيدة أعرفها وأحبها، وعندئذ تلاشى كل شيء، ثم رأيتني في الشارع أشهد عراكاً بين شاب ورجل يكبره كثيراً، وكان واضحاً أن الرجل سيصرع الشاب، وألقاه على الأرض، وكاد يقتله، والشاب يتلوى، ونظر إليه الرجل ثم تركه، والشاب يبكي، فرجع إليه الرجل، وربت على رأسه وتحاضنا، وانتهى المشهد وأنا مسرور غاية السرور لهذه النهاية.

والحلم يعكس حقيقة مشاعر الحالم نحو أمه وأبيه، وهو يشعر بالحب لأمه حباً شهوياً لا يرضى عنه، فيجعل الرجل يعاقب الشاب، والرجل يمثّل أباه، وبعد أن يُنزل العقاب بنفسه يشعر أن أباه قد رضي عنه، وبذلك ينحل الصراع الأوديبي عنده وتكون الأمور على ما يرام.

ويذكر فرويد في كتابه «تفسير الأحلام» أنه كان كلما سأل مريضاً عمّا إذا كان يحلم أحلاماً أوديبية، أكّد له المريض أنه لم يرَ في حياته حلماً كهذا، ولكنه كان عندما يعصر ذاكرته يتذكر أنه ربما حلم حلماً مشابهاً، ويستطرد فرويد أن الأحلام الأوديبية تأتينا بل وربما تأتينا أكثر من الأحلام العادية، ولكننا لا نذكرها بالذات، أو ربما لا تلفت نظرنا،

فإذا جلسنا إلى المحلل فإننا بالتداعي الحر نذكر الكثير منها. والأحلام الأوديبية المُقنّعة كانت تأتي القدماء، وكانوا يفسّرونها التفسير الفرويدي. ويذكر أوتو رانك أن يوليوس قيصر قد حلم حلماً رأى فيه أنه يجامع أمّه فأوّله مفسرو الأحلام بأنه سوف يمتلك الأرض الأم. وكذلك حلم هيبياس الذي يرويه هيرودوت، والذي رأى فيه أنه يضاجع أمّه، ففهم من الرؤيا أنه سيعود إلى أثينا ويسترجع سيطرته على أرض وطنه. ويعلّق فرويد على ذلك بأن هذه الأساطير والتفاسير تكشف عن بصيرة سيكولوجية صادقة، وتؤكّد تلك التجربة حيث نلاحظ أن الناس الذين يعلمون أنهم مفضّلون عند أمهاتهم، أو لهم عندهن مَعَزّة خاصة، يبدون في حياتهم ثقة فريدة بالنفس وتفاؤلاً شديداً، قد تكون لهما مظاهر البطولة، فيكون سلوك هؤلاء الناس الناجح الذي يحقّق لهم نجاحاً في حياتهم.

وهذه العلاقة الأوديبية من جانب آخر قد تفسد حياة الطفل، فيشب غير قادر على أن تكون له علاقات غيرية سوية مع آخرين من خارج نطاق أسرته، فقد يستشعر وهو رجل أنه يخون حبّه لأمّه إذا وقع في غرام امرأة. وقد تستشعر البنت أنها تخون حبّها لأبيها لو أسلمت قلبها لآخر. ويعمل الآباء فيما يبدو على ترسيخ هذا الاتجاه عند أولادهم بأن تكره الأم خطيبة إبنها أو زوجته، ويكره الأب خطيب إبنته ويضيّق عليها من حيث الحرية التي تكفلها الخطبة للخطيبين. وكم من بنات وبنين رفض الآباء أن يعقدوا قرانهم على من اختاروهم شركاء لهم ولم يكن هناك سبب مُقنع. وهذا الحلم يبين لنا إحساس الحالمة بالذنب لأنها ستتزوج:

– حلمت أني سأتزوج، وكان الجميع فرحين من أجلي إلا أنا، فقد كان لدي إحساس بأني، بزواجي، أظلم إنساناً وأسيء إليه، ثم رأيت أبي يقف قُبالتي ويحاول أن يخنقني، وكنت أتلوى وأعلم أني أختنق، ولم أكن أخشى الموت بقدر ما كنت مفزوعة لأني قد أغضبتُ أبي لدرجة أن يريد خنقي.

وتشعر الحالمة أنها تتصرف عكس رغبة أبيها، وأن من حقّه أن يعاقبها وهو ما تراه هي من وجهة نظرها، ولا يهم أن

يكون ذلك حقاً ما يراه الأب، ولأن الإحساس بالذنب هو إحساسها هي وليس إحساس الأب.

وهذه الزملة من الأحلام لشاب كان يحبّ أمه حب العبادة، وكان يتعلل لعدم زواجه بأن أمه في حاجة إليه، وبسبب بُخل أبيه وتقتيره وشجاره الدائم مع الأم كلما وجد نفسه معها وحدهما دون الابن. وهو ينزع في هذه الأحلام إلى التدرّج بالمشكلة إلى الحل الذي يراه لها، ففي الحلم الأول يرى أن فتاته هي عزاؤه عن صراعات البيت، وفي الحلم الثاني يرى أمه تبكي منه هو وليس من الأب، ولا يدري السبب، وفي الحلم الثالث يرى أن أمّه ستكون بائسة لو أنه تزوج وتركها، فيقرّر ألاّ يتزوج، وفي الحلم الرابع يحل الإشكال بأن يموت أبوه فترضى فتاته أن تتزوجه وتعيش أمه معهما.

الحلم ١: حلمتُ أني ذهبت للقاء فتاتي وكنت بائساً ولا أدري السبب، فقالت لي حقيبتي معطّلة فأصلحها بدلاً من هذا الكلام الموجع للدماغ.

الحلم ٢: حلمتُ أن أمي كانت تبكي وحاولت أن أعرف السبب، وكانت تقول أنت السبب. ولكن كيف؟ لم تقل. فقط كانت تبكي.

الحلم ٣: حلمت أني وأمي نجلس في المطبخ ونتذكر الماضي وكنا مسرورين وقالت لي ولكنك سترحل وتتركني يا خائن فأقسمت أن لا أتركها، وأخرجت علبة احضرتها وفتحتها، وكان بها فستان أبيض فرحت به وابتسمت وقبلتني.

الحلم ٤: حلمت أن أبي قد مات، وقد انتقلنا إلى شقة أخرى تتسع لي ولزوجتي وأمي. وكانت الأمور بين زوجتي وأمي على ما يرام، وكنت أطري طهي زوجتي فتنظر إلي أمي وتقول ذلك بفضل أمك.

وهذا الحالم إنسان متهافت الشخصية، ويعيش في كنف أمّ مسيطرة وأب ضعيف، ومشكلته أنه لا يثق في نفسه، وهو لا يفكر في ضعفه ولا يجد لنفسه الحل الواقعي، ولكنه يحلم حلماً يحل به مشاكله فيميت الأب ويجد الشقة المناسبة، ويوائم بين أمه وزوجته. والواقع أن أحلام هذا الفتى كلها من النوع الذي نلمس فيه الكراهية للأب والحب المولّه للأم. والصراع الأوديبي لم ينحل عنده وما يزال يعتمل فيه ويفسد

عليه حياته، فلا يتعامل بواقعية مع المواقف المختلفة. ويأتي على الأطفال عادة سنّ معينة يدركون فيه حقيقة انتماءاتهم، ومن ينبغي أن يتعيّنوا به من الوالدين، فالذكور ينحون إلى الذكور، والإناث تتوجهن إلى الإناث، وبهذه الطريقة يضعف الحب الذي يمكن أن يقوم بين الولد وأمه ويفسد عليه حياته من بعد، وتضعف أيضاً الكراهية التي تكون بينه وبين أبيه، ويجد أنه من اللازم عليه أن يتصرف مثله، وأن يكون له دور ذكوري مثله. وقد يحدث كثيراً أن ينقلب حب الولد لأمه إلى كراهية، عندما يتبين أن حبّها له يحول بينه وأن يتطور التطور الطبيعي، وأن يكون له دوره الذكوري، وهذا الشيء نفسه قد يحدث أيضاً بالنسبة للطفلة تجاه أمها وأبيها، ومع ذلك يظل تخوّف الأطفال الذكور من جنس الذكور البالغين على ما هو عليه، ويظل تخوّف الأطفال البنات من جنس الإناث البالغات، ومهما كانت إيجابية الاتجاه الذي تنحل به عقدة أوديب فإن ما يتخلف عنها هو من عيّنة ما كان موجوداً في الأصل، وهو أن يتصور الولد والبالغ من بعد أن كل الأولاد أو كل البالغين من الذكور معادون له، وكذلك تتصور الأنثى أن الإناث معاديات. ومهما بدا لنا أن هذا الشاب أو ذاك يعامل أبويه باحترام، وأنه يحبهما كل الحب، فإن المظهر لا بد أن يخفي أشياء أخرى قد تتكشف فقط في الأحلام، ولعل العرض الذي تعرضه الأحلام أو الذي تعرضه المسرحيات والأفلام والروايات، عن هذا الموقف الثلاثي هو الذي يشدنا إلى قراءتها أو مطالعتها فاغري الأفواه مشدوهين، لأن ما نراه فيها ليس المظهر ولكنه الحقيقة التي تُبدهنا، وهذا ما نحسه تجاه مسرحية هاملت، وتدور أحداثها متلاحقة، ونحن على وعي بما جرى فعلاً، ويتابع هاملت وهو يتردّد في الانتقام لأبيه، ونشعر بشعور غامض يلهمنا السبب، وهو ان العمّ قد نفّذ الجريمة التي كانت تراود هاملت نفسه، وتراود كل طفل يرى في أبيه منافساً له على حبّ أمّه. ونسمع هاملت يلوم أمّه أنها خانت عهد أبيه وتزوجت، والواقع أنه يقول هذا الشيء عن نفسه هو، ويرى في زواج أمه خيانة له هو، ولو كانت الأم

قتلت الأب ولم تتزوج لما كانت ثورة هاملت، والمزعج لهاملت أن الأم تزوجت. أوَلا يقول كل طفل، لو سألناه عمّن سيتزوج، أنه سيتزوج أمه؟ أوَلا نرى الطفل يضرب أباه لو رآه يقبّل أمه؟

ولربما قد نذكر مقولة ديديرو التي صارت مثلاً: إن كل طفل ليتمنى أن يزيح أباه من طريقه ليخلو له حب أمه. ولكم يتمنى الأطفال الذكور أن يموت الأب ليتزوجوا أمهاتهم!! ولقد حفلت الدراما الإغريقية بهذا الصراع الأوديبي الثلاثي الأطراف، وليس أروع من مسرحية الملك أوديب لسوفوكل عرضاً لهذا الصراع، وهو ما جعل فرويد ينبّه إليها.

ولربما يكون النقد الموجّه لفرويد أن ما استقاه من أصول للصراع الأوديبي مصدره دراسته لأحلام المرضى، غير أن الكثيرين قد درسوا أحلام الأسوياء، كدراستهم لأحلام المرضى باضطرابات نفسية أو عقلية، وكانت النتيجة واحدة. وتعمل عقدة أوديب عملها في الجميع سواء كانوا أسوياء أو مرضى، ولربما يكون فعلها في الأسوياء أكثر من فعلها في المرضى، ولنضرب لذلك بهذا المَثَل الذي نلاحظه جميعاً ونعرفه في أوساطنا، وما منا من لم يسمع أن رجلاً يحاول أن ينتزع من آخر خطيبته أو زوجته، وقد يفلح في ذلك، ولربما عاينا فعلاً إمرأة تختطف خطيب أخرى أو زوجها، وليس من دافع لأيهما سوى هذا الدافع من عقدة أوديب: أن نحوز الشريك أو الشريكة لآخرين. ويفسر لنا ذلك سبب أن بعضنا يفضل أن يبقى بلا زواج، بدعوى أنه يرعى أمه أو أخته بعد وفاة أبيه أو بعد أن تركهما أبوه. وقد نسمع أعذاراً غريبة، وقد تكون مُقنعة ولكنها تخفي الدوافع الحقيقية، وتتلخّص في تعلّق الرجل الشديد بأمه، أو تعلق البنت بأبيها. وتكشف الأحلام هؤلاء الناس وتبين عن الأسباب التي من أجلها يُصابون بالقلق.

ويبدو أن كل الأحلام التي مدارها صراعات من نوع ما، منشؤها هذا الصراع الأزلي الذي نعيش بسببه في قلق، والذي يدفعنا إلى أن نحلم أحلامنا هذه عن آبائنا. وهذه الصراعات التي أهمها الصراع الأوديبي هي التي تصنع ما أطلقنا عليه إسم الأحلام النمطية.

وهي أحلام عرفها إبن سيرين وميّزها فرويد، غير أنهما قالا بأن ظاهر الحلم له باطن، ومن ثم فإن القول بالأحلام النمطية يتناقض، لأن هذه الأحلام نمطية في ظاهرها، وتختلف في باطنها. ولعله لهذا السبب نركز على تفسير ظاهر الحلم في كتابنا هذا، ولا نعول كثيراً على طريقة التداعي الحر، لأنه ربما لا تتهيأ لنا الظروف أن نتحصل على المستدعيات الباطنة، أفنترك الأحلام إذن وقد عرفنا مالها من أهمية؟ الحل هو أن نركز على ظاهر الحلم ونحاول أن نستكنهه. وقد ركّز فرويد على نوعين من الأحلام النمطية هما أحلام السقوط من الأماكن العالية، والأحلام المهدّدة التي نرى فيها أن أحداً يهاجمنا، كأن يكون لصاً أو قاطع طريق، أو كأن يطاردنا شخص أو حيوان، ونتعثر في الهروب. ونلاحظ أنه رغم أن تفصيلات هذه الأحلام تختلف من شخص لآخر فإن العامل المشترك بينها جميعاً هو نفسه دائماً، وهو في النوع الأول قلق ينتاب الحالم من أنه مفارق لموضوع كان يعيش في كنفه ويستند إليه، وهو في النوع الثاني، الذي أطلقنا عليه إسم الأحلام المهدّدة Threatening dreams، ترقّب وخوف وقلق من تهديد بالإيذاء مصدره خارجي. وثمة فارق آخر بين النوعين السابقين يجعل كل نوع منهما نسيج وحده، وهو أنه في النوع الأول، أي أحلام السقوط، يشعر الحالم أنه وحده دون أن يعينه أحد أو يسعفه أو يمسك به ويحول بينه والسقوط، وفي النوع الثاني يكون الحالم إزاء شخص أو شيء أو حيوان يخاف منه ويحاول أن يهرب ولكنه يعجز. وفي النوع الأول تكون هناك حركة ملحوظة ومفاجئة، وفي النوع الثاني يبلغ بالحالم الفزع انه يتسمّر في مكانه، بمعنى أنه تمتنع عليه الحركة أو كما نقول تُقمَع.

ولقد ثبت من إحدى الدراسات عن مجلة Psychiatry بعنوان :1 Harris, Observations Concerning Typical Anxiety Dreams، أن أغلب أحلام القلق مظهرها الحلمي هو السقوط أو التهديد الخارجي، وأن الناس تأتيهم هذه الأحلام بدرجات متفاوتة، وتؤثر فيهم أيضاً تأثيرات نفسية متباينة. ونفهم من شيوع

هذه الأحلام أنها لا تعكس إضطرابات نفسية أو عقلية، ولكنها تأتي الأسوياء وغير الأسوياء على السواء، ومن ثم فقد تكون هناك أسباب عميقة تخص تطورنا منذ الطفولة هي التي تدفع إليها. وهذا حق، فهناك أخطار نفسية نتعرض لها في طفولتنا، وهي بخصوص النمط الأول وهو نمط أحلام السقوط، أخطار أن يتخلى عنا أحد الوالدين أو كلاهما، وأن يسقطنا من حبه ورعايته وحمايته، وربما ما يستوجب الفراق. وأما أحلام التحديد الخارجي فيقابلها ما نخبره في طفولتنا من أذى يلحق بنا أو يتهدّدنا من الأبوين وخاصة بالنسبة للأولاد، حيث قد يعانون مخاوف من العقاب من الأب يصل إلى حد الإخصاء، وقد يتوجّه معنى الإخصاء إلى قطع القضيب أو بتره، وقد يتوجّه إلى ذكورة الطفل فيحال بينه وأن تنمو من حيث اعتباراتها المميزة للذكور في مجالات السلوك والتفكير والشعور والحُكم، وبالاختصار تتهدد تمثّل الطفل لدوره الذكوري. وإذن فإن أصل القلق والمخاوف ينشأ أول ما ينشأ في الموقف الأوديبي الذي يضم الطفل والوالدين.

ولعله لهذا السبب يعتبر المحللون أحلام السقوط نمطاً من الأحلام يسمونها أحلام السقوط الأدبي، بمعنى أن الحالم يتهدده أن يتداعى بالسقوط أخلاقياً، ولا يحدث له ذلك إلا لأنه قد عانى أن يسقط من اعتبارات الوالدين أو من محبتهم. ويعتبرون الأحلام المهدّدة نمطاً من الأحلام يطلقون عليها إسم أحلام الإخصاء، وأصلها المخاوف والقلق اللذان يعاني منها الأطفال نتيجة تهديدات الأبوين بالعقاب في الطفولة. وبقدر ما يعاني الطفل من أخطار أن يتخلى عنه أبواه أو أحدهما، ومن أخطار العقاب من قبلهما، فإنه سيعاني مستقبلاً من أحلام من أي من النمطين السابقين، ولقد عرفنا في أبواب سابقة أن أكثر ما يحلم به الذكور هو أحلام العنف في حين أن أكثر ما تحلم به الإناث هو أحلام الانفصال أو التي موضوعها الحب والبغض. ويفيدنا ذلك أن نعرف إتجاهات الناس وتكوينهم النفسي وديناميات شخصياتهم، فلو عرفنا أحلامهم نعرف نوع التربية التي تعرّضوا لها. ولقد ثبت فعلاً أن سلوك الذين يحلمون أحلام

السقوط يتصرفون في الحياة من منطق تجاربهم في الطفولة التي أساسها الانفصال، بينما يسلك الذين أحلامهم مهدّدة بحيث يغلب عليهم الخوف من الأخطار الخارجية. غير أنه من ناحية أخرى فإن من يخاف أن تتركه أمه يخشى أن يغضبها ومن ثم فقد يصرف غضبه على أبيه غالباً، ولا يكون أمامه أن يعلن عن هذا الغضب على الأم إلا في الأحلام فقط، ويكون عكس ذلك في الحياة، وإن من يخاف من عقاب أبيه وسخطيه عليه فقد يرهب أن يغضبه، وبدلاً من أن يتوجه بغضبه إليه فقد يصرفه على أمه غالباً، ولا يجرؤ أن يعلن عن عدائه لأبيه إلا في الأحلام. ومن ثم فقد نستنبط أنه كلما كان سلوك الفرد فيه الاحترام الشديد والتبجيل للأب كلما كانت أحلامه تجاهه معادية غالباً وتعكس حقيقة هذا الاحترام، وهو انه مبني على الخوف منذ الطفولة. وكذلك قد تكاد تقدّس البنت أمها، فنجد أن أحلامها عكس ذلك ونتبين أنها في طفولتها كانت شديدة الاعتماد عليها. وهذا ما سنناقشه من زاوية أخرى من خلال دراسات أخرى للأحلام المهدِّدة.

- ١٤ -
«الأحلام المهدِّدة من نمط أحلام الحرامي وغيرها»

نعود مرة أخرى لما أسميناها الأحلام النمطية لنؤكّد من جديد ما نعنيه بها، وهو أنها الأحلام الشائعة، أي التي يحلم بها كثير من الناس، في مقابل الأحلام الخاصة أو الفردية. فإذا كنا سنعامل الأحلام بوصفها وسيلة قياس للشخصية كاختبارات رورشاخ فإن تقسيمها هذا السابق ليشبه تقسيم إستجابات رورشاخ، فمنها استجابات عامة يأتيها أغلب الناس، ومنها استجابات خاصة تشير إلى اتجاهات وميول معيّنة تخص أحد الناس دون كل الناس.

والأحلام النمطية مثلها مثل الاستجابات العامة، ومنها أحلام السقوط، والتعرّي، والامتحان، وخلع الأسنان، وموت الأقارب، والأحلام الجنسية أو أحلام الزواج، وأحلام ركوب

الخيل أو الدراجات والقطارات إلخ، وأحلام الضياع التي مؤدّاها أننا ضللنا الطريق، وأحلام الجهد الضائع. ولقد تحدثنا عن أغلبها وضربنا لها الأمثلة وقلنا إن فرويد قد جعل تفسيرها عند الناس تفسيرات متشابهة، وردّها إلى ما يردّونه إليه وهو القلق إزاء موضوع معين، أو القلق الذي يولّده توجس الشرّ وتوقعه من موضوع مُهدّد، ولذا فقد أُطلق عليها إسم أحلام القلق Anxiety dreams، وقدّم تحليلات لبعضها فقال إن الأحلام قد تصدر أيضاً عن رغبة، والرغبة في أحلام التعرّي مثلاً هي رغبة إستعراضية، بأن نستعرض أو نستعري أمام الوالدين أو أحدهما، وأن البنت تميل للاستعراض أمام الأب، والولد يستعرض أمام الأم. والرغبة - في أحلام موت الأقارب - تعكس الإحباط من معاملة الوالدين في الطفولة، والخوف من أحدهما لسبب من الأسباب حتى ليتمنى الطفل لو أن هذا الأب يموت، ورغم أننا ننسى كل ذلك عن الطفولة بتأثير ما تتعرض له هذه الرغبات من استهجان بسبب التربية، وما تفرضه المصلحة على الطفل نفسه، بحيث يجد أنه لا بد أن لا يعلن عن رغباته ويضطر أن يكبتها، إلا أنها تستمر تعمل عملها فيه لاشعورياً، وتأتيه في أحلامه تكشف عن وجودها واستمرارها. وليس من الغريب أن نسمع طفلاً يطلب الموت علناً لمن يكرهه حتى ولو كان أحد الوالدين أو الإخوة، بل إن الوالدين نفسيهما قد يدعوان بالموت على الطفل في لحظات البُغض وكلما زادت شقاوته. ولقد سمعنا ذلك كثيراً، وعايناه بأنفسنا، أن يقول الطفل أو البالغ، «إن شاء الله تموت يا فلان». وأمّا الرغبة التي تفصح عن نفسها في أحلام الامتحان فهي أن نتجاوز محنة حاضرة، بأن نستعيد في الحلم تجربة سابقة ناجحة، يقلبها الحلم تجربة فاشلة، لينبهنا الجهاز النفسي أننا طالما اجتزنا محنة سابقة فسنجتاز هذه المحنة أيضاً، فكأننا بأحلام الامتحان نرغب في تطمين أنفسنا.

وربما يناسب طبيعة الذكور العدوانية أن تأتي أحلامهم عنيفة، وكان الأولى أن تأتي أحلام التهديد - التهديد الواقع على الحالم - أكثر بالنسبة للبنات، بالنظر

إلى كونهن أميل إلى المسالمة والاستكانة فيقع عليهن الظلم الكثير، إلا أن ذلك لا يصدق إلا في أحلام الاعتداءات الجنسية بالاغتصاب وغيره فإن أحلام الإناث بها أكثر، وهي ضعف أحلام الذكور بالاعتداءات الجنسية. وتتراوح التهديدات المقصودة من مجرد التهديد بالضرب إلى التهديد بالقتل، أو بالقبض على الحالم أو سرقته، والاعتداء الجنسي عليه، وأكثر ما تكون التهديدات في الأحلام من هذا النوع بالقتل للجنسين، ثم يأتي الضرب الثاني في الترتيب، ثم القبض على الحالم، ثم الاعتداء الجنسي، ثم السرقة. ويتراوح ردّ الفعل عند الحالم ما بين الهرب من الموقف بالركض أو تغيير المشهد، أو أن يتقدم أحد لينقذه، أو انه يستيقظ فزعاً، وعادة ما نصف هذه الأحلام بأنها كوابيس وكلها من قبيل ردود الفعل السلبية، وقد تكون هناك أحلام من قبيل ردود الفعل الإيجابية، بأن يردّ الحالم على التهديد في الحلم بتهديد مثله، أو بأن يظهر التحدّي. وبصرف النظر عن كونها ردود فعل ناجحة أو فاشلة، فإنها بشكل عام تكون في الأغلب والأعم ردود فعل سلبية، ويستوي في ذلك أن يكون الحالم أنثى أو ذكراً. وأغلب هذه الأحلام ليس فيها ما يستوجب أن يتلقى الحالم تهديداً، وحتى لو كان قد أساء الفعل فالتهديد لا يتناسب مع الفعل. وكثيراً ما يكون المهدّد حاملاً لسلاح ما وخاصة في أحلام التهديد الجنسي. وفي أحلام الإناث يكون المُهدّد شخصاً واحداً، بينما في أحلام الذكور يكون هناك عدة أشخاص.

ونخلص من كل ما سبق إليأن أحلام التهديد هي انعكاس لتصور الحالم لنفسه من حيث الضعف والقوة، والشخص الذي يحلم هذه الأحلام ويُكثر منها شخص ضعيف ومستكين وسلبي، وليس الخوف من الإخصاء هو الذي يدفعه إلى أن يحلم بأحلام التهديد، لأن الحلم يدل على أنه فعلاً قد خُصي، أي انه بتأثير سلطان الأبوين عليه في صغَره، قد خرج من الموقف الأوديبي وقد حيل بين ذكورته وأن تنمو النمو الطبيعي. وهو الآن يشعر أنه عاجز ولا حول له ولا قوة. وتعكس أحلامه مشاعره هذه، ولهذا فهو يرى أنه لا يستطيع أن يجاري التهديد

إلا بأن يركض أو يصرخ أو يستغيث أو يصحو. وإذا كنا سنفترض فعلاً مع فرويد أن أصل أحلام التهديد هو الخوف من الإخصاء فإن ذلك قد يكون مفهوماً في حالة الذكور، ولكنه لن يتمشى كتفسير في حالة الإناث. فأي إخصاء يمكن أن يقصد إليه في حالة الإناث، إلا أن يكون معنى الإخصاء منصرفاً إلى المعنى العام وليس المعنى الخاص، والإخصاء بالمعنى العام هو بتر الشخصية Amputation of personality، بأن يحال بينها وأن تتنامى وتنضج، وذلك ما يحدث كثيراً من جرّاء الصراع الأوديبي الذي ذكرناه، والذي قد يكون موضوعاً لأحلام أطلقنا عليها إسم الأحلام الأوديبية. ولفرويد رؤية في الأنوثة تعني أنها الاستسلام والخنوع والاستكانة والسلبية. والأنوثة بهذا المعنى قد توجد أيضاً في الذكور، وعندما يستشعر الذكر أنه يتصرف بسلبية وخنوع فإنه يحاول جاهداً أن لا يكون كذلك، ونقول عندئذ إنه يحاول أن يجاهد الإخصاء، أي يجاهد أن يتحول إلى أنثى ولو بالمعنى دون المبنى، فإذا غلبت عليه السلبية والخنوع قلنا إنه تقبّل الإخصاء، ومن ثم فنحن نقول إن أحلام التهديد هي أحلام خنوع وسلبية واستكانة، أي أحلام أنوثة، ويستوي في ذلك أن يحلم بها الذكور أو الإناث.

ولقد قال فرويد أيضاً عن الأنوثة إنها ميل نحو تلقي الألم واستعذابه، وأطلق على ذلك إسم البُعد الماسوشي في الشخصية، ومن ثم فإنه يكون من الطبيعي أن تأتي أغلب أحلام الإناث مُهدّدة، ولكنه ليس من الطبيعي أن تأتي أحلام الذكور من هذا النوع إلا أن يكون البُعد الغالب في شخصية الحالم الذكر هو البُعد الماسوشي الأنثوي، وهو الذي يجعله يتقبّل التهديد بخنوع، ولا يرد عليه، وقد يهرب من الموقف برمته أو يستغيث كالأطفال، وذلك يعني بلا جدال أن حلم التهديد ليس عن خوف من الإخصاء عند الذكور، ولكنه يدل على أن الحالم الذكر قد خُصِي فعلاً وصار أقرب إلى طبيعة الإناث، ويفيدنا أن نعرف ذلك لأن الحلم كما قلنا وسيلة من وسائل التعرّف إلى مكونات الشخصية ودينامياتها وتأثير التربية فيها وفي

نموها، وتحليل الحلم هو بمثابة تحليل للشخصية.

ولقد كانت هناك بحوث حول علاقة ردّ العدوان بقوة وتماسك الأنا أو الذات عند الحالم. وتبيَّن أن الأطفال بالنظر إلى تهافت ذواتهم وعدم نضجها، فإنهم يتقبلون التهديد أو العدوان في أحلامهم، وبالمثل يتقبل المريض بالاضطرابات النفسية أو العقلية التهديد أو العدوان، إلا أنه في حالة المراهقين يكون هناك رد فعل إيجابي وعنيف في نحو ٥٣٪ من الحالات، بينما تزيد النسبة عند البالغين الأسوياء إلى ٧٠٪ ومن الطبيعي أن يشعر الطفل إزاء التهديد الخارجي بالعجز، وأن يتصور نفسه غير قادر على دفع العدوان عليه مادياً ومعنوياً، إلا أن البالغ الذي يتصور نفسه على هذا الضعف لا بد أن يكون ضعيفاً فعلاً، وكأنه يتصور نفسه طفلاً، أو يتشبه بالإناث اللاتي يعرفن أنهن كالأطفال أعجز من أن يواجهن التهديد بالتهديد.

ولقد قلنا عكس فرويد إن أحلام التهديد لا تصدر عن خوف من الإخصاء، بل هي تعبير وانعكاس لحالة الإخصاء التي يعيشها الحالم، فهو ضعيف ومستكين كالإناث، وهو لا يخاف الإخصاء ولكنه يخاف ما تخافه الإناث والأطفال من مخاطر العالم الخارجي، وأن يُؤذى منها أو أن يُقتَل، وأن يُعتدَى عليه جنسياً. ومع ان أحلام الاعتداء الجنسي أقل بنحو النصف عند الذكور عنها عند الإناث، إلا أننا لا نستطيع أن نتغاضى عما ترمز إليه رموزها عند الحالم، وهي رموز جنسية مفضوحة وتُشبه القضيب، فهي بنادق وسكاكين وخناجر وإبر إلخ. وهو يخاف دوافعه وغرائزه التي يشبّهها الحلم بالحيوانات، وبقوى الطبيعة كالزلازل والفيضانات ويخاف عذابات ضميره، ويمثلها في الحلم الشرطة وناظر المدرسة والمدير والرئيس في العمل إلخ. ولا يمكن لأن يعني رفضنا أن نردّ مع فرويد أحلام التهديد إلى الخوف من الإخصاء أنه لا توجد أحلام من هذا النوع يمكن أن نردّها فعلاً إلى الخوف من الإخصاء، وهناك أحلام أمكن جمعها وفيها يحلم الحالم أن أسداً قد قضم قضيبه. أو أن حادثة وقعت فبترت إصبعه أو ساقه، ويعكس الحلم

تصور الحالم عن نفسه أنه عاجز جنسياً، وقد يحلم مثلاً أن الجنود من فرقته سلموا بنادقهم ورفض هو أن يسلمها، ويعني ذلك أن الرجال من جيله قد أصابهم العجز الجنسي ولم يصبه، فهو ما يزال يعاند، وذلك وضع يتوسط القدرة الجنسية والعجز، إلا أنه يعني بالتالي أن العجز مدركه لا محالة.

ونعود إلى الصراع الأوديبي ونتذكر أن أول من نحبه ونتعلق به هو الأم، وأن أول من نشعر تجاهه بمشاعر متباينة فيها الحب والكره معاً هو الأب، وقد تظهر له الحب وتكتم البُغض، ونلاحظ لذلك أنه في أحلام التهديد بالنسبة للذكور فإن بغضنا أو مخاوفنا من الأب. تمتد إلى كل ذكر، وذلك هو أصل أن نحلم بعدو ذكر، ومن النادر أن يحلم رجل أو فتى بأن أمه أو امرأة تناصبه العداء. ولقد قال لنا فرويد كذلك إن سلطة الأب يستدمجها الأنا أو الذات فيتكون الأنا الأعلى أو الضمير، وكلما كان الأب متزمتاً كان الأنا الأعلى أو الضمير متزمتاً أيضاً، فيأتي في الحلم على صورة رجل ولا يمكن أن يأتي على صورة امرأة!

وثمة فارق في أحلام الجنسين، فالغالب أن يتلقى الحالم الذكر التهديد إثر فعل شيء قام به، ويعني ذلك أن الرجال لديهم ضمير أكثر تشدداً من ضمير النساء كما قال فرويد، إلا أنه كثيراً ما يتلقى الرجل العون في حلم التهديد من شخص آخر، وذلك لا يحدث في أحلام التهديد عند النساء، فهل يعني ذلك أن النساء يشعرن في قرارة نفوسهن أنهن منبوذات، ولن يساعدهن أحد إذا احتجن المساعدة؟ ربما كان الأمر كذلك وهو ما يتماشى مع نظرة فرويد إلى الأنوثة، وخيبة الأمل التي تصاب بها البنت إذ تنشد العون من أمها في الموقف الأوديبي في الطفولة، فلا تجد منها الفهم ولا العون. وتخذلها أمها وهي أول من تحب، فيجعلها ذلك تتحول إلى أبيها، فيخذلها هو الآخر، وهو ما لا يخبره الولد، لأنه في طفولته يحب الأم ويستمر متعلقاً بها، وتتعلق به أمه ولا تخذله، وإنما يأتي الرفض له من أبيه فيكون مناصبته العداء.

الباب السابع عشر

«تحليل الشخصية من الأحلام: الشخصية التسلطية»

تتكون للطفل شخصية تسلطية بتأثير نشأته في ظل أسرة تأخذ بالتربية التسلطية، فقد يكون الأب أو الأم تسلطياً يحب أن يطاع، وأن تكون لابنه قيَمُه ومُثله وأفكاره وآراؤه. ويتصادم هذا الاتجاه مع رغبات الابن وتطلعاته، ولكنه لا يستطيع أن يعلن سخطه جهاراً، فيكتمه ولا يفصح عن كراهيته لأبيه، وفي الوقت نفسه يعتاد أن يُؤمَر وأن يَحترِم من يأمرون، ويتمثل أناه أوامر الأب ونواهيه فيكون له منها أنا أعلى أو ضمير ملتزم ومتزمت يعكس التزام الأب وتزمته، فكأنه من ناحية يكره الأب، ومن ناحية أخرى يتمثّله ويُنزِله من نفسه منزلة كبرى، ونسمي ذلك تناقضاً وجدانياً Emotional ambivalence.

فصاحب الشخصية التسلطية ينشأ يعاني من انقسام في مشاعره من جهة أبويه المتسلطين، فهو يكرههما ويحترمهما في الوقت نفسه، وهو موزّع بين هذين الاتجاهين. وتسلطه الذي تحصل له من المعاملة التسلطية لوالديه يعمّمه على كل الناس، فيقسمهم إلى أبيض وأسود. فالناس عنده ببساطة شديدة إما ضعاف متهافتون، وإما أقوياء أشداء، وهو يحب الأقوياء ويحترمهم، وسرعان ما ينصاع لأوامرهم ويلتزم بها حرفياً. وهذا الاتجاه فيه يعمل عمله اجتماعياً فيقسم به الناس من حوله إلى جماعتين، فهؤلاء أهله وأولئك أغراب عنه، أو هؤلاء من عشيرته وأولئك أجانب، أو هؤلاء مسلمون وأولئك مسيحيون، أو هؤلاء من أهل بلدته، أو الحي الذي ينتمي إليه أو الوظيفة التي ينتسب لها وأولئك من سواهم. وصاحب الشخصية التسلّطية يقبل قيم جماعته Ingroup بحُلوها ومُرّها، وقضّها وقضيضها، ويرفض قيم الجماعة الخارجية Outgroup مهما كانت لها حلاوة أو فائدة، فعاداتنا وأعرافنا هي الصح، وعادات وأعراف الأغراب خطأ. وعلى عكس ذلك تماماً صاحب الشخصية غير التسلطية الذي ينشأ في جو عائلي ليبرالي ليس فيه أبوان متسلطان، وتسير الأمور فيه

بالمحاجة، فالولد أو البنت قد يتناقشان أو يناقشان الأبوين فيما يطلبانه منهما، وقد يوجهان العتاب للأبوين أو يلومانهما حول قضية من القضايا، وقد يأخذ الأبوان بما يقترحه الأولاد. ولا يعاني الطفل في هذا الجو الصحي كبت أية مشاعر سلبية، لأنه إذا كانت لديه منها شيء فإنه يصرّح بها ولا يختزنها، فالتناقض الوجداني لا يعرفه، وليس له أن يصنّف الناس بالتالي إلى أناس يكرههم وأناس يحبهم، وهو لا يلوّنهم تبعاً لذلك بحيث يكون فريق أبيض وفريق أسود، ويتعامل مع الجميع بالتسامح، ولا يذهب مذهب التسلطي فيقبل كل ما يمت بصلة لجماعته على حساب الجماعات الأخرى، ولا يتعصب لأي فريق، وحاله كحال الرياضي الذي يستحسن اللعبة الحلوة سواء كانت من فريقه أو الفريق الآخر. والسؤال الآن هو: كيف تكون أحلام أي منهما؟ هل يختلف مضمونها اختلاف الشخصيتين؟ وهل نستطيع من ثم أن نميّز التسلطي من أحلامه؟ وهل من الممكن أن نفيد من ذلك فنستخدم الأحلام كوسيلة قياس للشخصية فيكون تحليلنا للحلم بمثابة تحليل للشخصية الحالمة؟

ولقد كانت هناك تجارب معملية ودراسات مستفيضة (Meer, S.: Authoritarian Attitudes and Dreams) حول هذا الموضوع، وجُمعت زُملة أحلام من أعداد كبيرة من شباب الجامعات من الجنسين، وجرى استفتاء واستقصاء حولها، ودُرست الأحوال العائلية للمشتركين، وتأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن التعصّب للأسرة وللأهل دأب التسلطي في أحلامه، وأنه مع الأغيار يُظهر العداء. ونحن جميعاً لا نعاين العداء إلا مع الأهل والأقارب والأصدقاء والأزواج والزوجات والأولاد ولكننا نكتم هذا العداء، فالمفروض أن لا نظهره، ونحاول أن نطامن منه لكي نُبقي القلق الذي يتسبب فيه في أقل الحدود. وأما بالنسبة للأغيار فلا مجال لكي نحتك بهم، فما الداعي لأن نظهر لهم العداء ونحن أصلاً لا نعرفهم ولم تكن لنا تجربة بهم؟ والأمر مع التسلطي أنه يزيح هذا العداء من أسرته أو جماعته Ingroup إلى غيرهم، ويُسقط غيظه منهم على

سواهم، وينقل ما يشعر به من مشاعر سلبية إلى الجماعات الأخرى الأقل شأناً من جماعته، والأدنى مكانة، ومن ثم تجده يناصبهم العداء بدعاوى من ديانتهم المختلفة أو عِرقهم المتباين، ونعرف أنه كانت هناك بحوث مستفيضة توفر عليها علماء أجلاء، مدارها التسلط وعلاقته بالأقليات. وأما غير المتسلط فالشأن معه مختلف، فهو لم يشب بحيث يفرق بين الناس من حيث هذا من أهله وذاك من الأغيار، ولم يعرف تصنيف الناس إلى أبيض وأسود لأنه كان دائماً يجهر بالعدوان إذا استشعره، ويناقش وينفّس عما يعتلج في صدره أولاً بأول، فلم يكظم ولم يقمع ولم يكبت، ولم يضطر أن يزيح ما يرين على صدره إلى المستضعفين من حوله. والميزة في الأحلام أنها مجال للتفريج عن النفس عمّا يلم بها من أدران أثناء النهار، ولذلك فإن المتسلّط يتوجّه بعدوانه بالنهار وبالليل إلى الأغيار، وكلما زاد ما يختزنه من عداء لأهله كان الزخم المعادي الذي يظهره في النهار أو في المنام للأغيار. والمشكلة أننا قد لا نجد من نسقط عليه مشاعر السُخط بالنهار، ولا نجد إلا المنام نوجهها فيه إلى أشخاص لا نعرفهم، وما من سبيل إلى تبيّن حقيقتهم، لنتخفف بهذه الوسيلة من القلق المصاحب لاختزان العداء، والذي يقضّ مضاجعنا إن لم ننفس عنه في أشكال السلوك العدواني خلال الأحلام.

والمتسلّط وغير المتسلط كلاهما يكون رقيقاً ولطيفاً مع أهله في الأحلام، والفرق بين الاثنين هو في درجة ما يظهرانه من العداء لغير الأهل، وهو المجال الذي نستطيع به أن نتبين هذا البُعد التسلطي من أبعاد الشخصية بتحليل أحلامهما، وتحليل الأحلام وسيلة من ثم هامة وصادقة للكشف عن ديناميات مختلف الشخصيات.

الباب الثامن عشر
«الأحلام الكاشفة للقلق»
«أحلام الفصاميين والمذهونين وغيرهم»

لا توجد سِنّ معينة تكون فيها أحلام القلق، وحتى الأطفال تكون لهم أحلام قلق. والثابت أن الأحلام غير السارة التي نحلم بها أكثر من الأحلام السارة. ولكل سن موضوعات تتسبب في أن يكون الحلم غير سار، ففي الأطفال من سَنة إلى أربع سنوات تكون موضوعات أحلامهم الحيوانات، ومع تقدّم السن تكون الأحلام غير السارة بسبب ما فيها من أغراب وأشكال مجرّدة غامضة تثير المخاوف وتبعث على القلق في السن من الخامسة إلى الثامنة، فإذا بلغ الطفل التاسعة وحتى الثانية عشرة يبدأ يحلم أحلاماً مدارها نفسه وما يكدّره منها. ولقد ثبت أن الطفل صحيح البدن تقل أحلامه عن الطفل المعتل البدن، وأن أحلام الأطفال تأتيهم مصاحبة للتوترات الانفعالية في النهار. وكان فرويد يقول إن أحلام الأطفال أقل من أحلام الكبار لأن رغبات الأطفال أقل، والأحلام تعكس الرغبات، ومن ثم تكون أحلام الأطفال أقل. وثبت أيضاً أن الفترات التي يتخفّف فيها الوعي وتتوسط المسافة بين اليقظة والنوم العميق أقل عند الأطفال منها عند الكبار، ولعله لهذا السبب أيضاً تقل أحلام الأطفال عن أحلام الكبار بالنظر إلى أن الأحلام تقع في تلك الفترات السابقة المتميزة بالنوم الخفيف.

وعند مناقشة مسألة علاقة الأحلام بالاعتدال النفسي والعقلي نواجه بصعوبات التصنيف والمواصفات التي ينبغي أن تكون لمختلف الأحلام لنضمها في هذا الصنف، أو ذاك، وكان شتيكل يقول إن كل حلم يحلل نفسه، ويصنّف نفسه، غير أنه بالنسبة للمحلل الحسّاس للفروق بين الأحلام سيجد الأمر شاقاً، إلا أننا بشكل عام نستطيع فعلاً أن نميز الشخصيات المعتلة من أحلامها، فالأحلام مرايا القلق، فإذا كان القلق بالشخصية السيكوباتية مثلاً، التي يعاني

صاحبها من مشاكل إجتماعية، فإن أحلامها تعكس مشاكل التوافق. وإذا كان القلق بشخصية يعاني صاحبها من عدم النضج الانفعالي فإن عدم النضج هذا تراه في أحلامها كاشفاً للتجارب الخاصة جداً التي تنفرد بها هذه الشخصية. وعموماً فإن الشخصيات المعتلة، كالشخصيات السابقة التي تشكو العُصاب أو الاعتلال النفسي أو الاجتماعي، أو تعاني الاكتئاب أو الصرع، أو حتى الصداع النصفي أو الفصام، فإن أحلامها من نوع الكوابيس Nightmares، تتسم بالمخاوف، وتتميز بأنها أحلام ملونة، فيها إحساس غامض بفقدان الشخصية، وعجز عن التفرقة بين ما هو من الأحلام وما هو من الواقع، فالأحلام تختلط بالواقع، ولا يميز الحالم إن كان يحلم أو يعيش الواقع. وإننا لنلاحظ مثلاً أن الشخص السوي تكون أحلامه عن الناس، بينما تفتقد أحلام العُصابي وجود الناس فيها. وتحفل أحلام هؤلاء الناس المعتلين بتخيّلات للعنف والإيذاء والإصابة وفقدان الأعضاء والموت. وهناك اختلافات هائلة في الرموز الظاهرة في أحلامهم عن أحلام الأسوياء.

وإليك أمثلة لأحلام لأشخاص يشكون الاعتلال، وأربعة أحلام لأسوياء لتسهل المقارنة:

١ - الحالم سوي: حلمتُ بما كان بيني وبين الفتاة التي كنت قد خطبتها وفسخت خطبتي بها، ورأيت ما كان بيننا من أوقات سعدنا فيها معاً، والصور التي أخذناها، والأفلام السينمائية التي شاهدناها معاً، والأحاديث التي كنا نتبادلها.

٢ - الحالم سوي: حلمتُ أني ركبت السيارة العامة وإلى جانب جارتنا التي تسكن الشقة المقابلة.

٣ - الحالم سوي: حلمتُ بمباراة كرة القدم التي سأحضرها يوم الجمعة، واننا كسبنا المباراة، وكان الناس يهتفون باسمي.

٤ - الحالم سوي: حلمتُ أني عدتُ إلى البيت فوجدتُ زوجتي مريضة.

٥ - حالة هستيريا وعدم استقرار إنفعالي: أحلم يومياً تقريباً بأبي وجدتي لأمي، وأبي كفيف وأنا دائم الحلم به.

٦ - حالة هستيريا نسيانية وعدم استقرار إنفعالي: حلمت أني أنتظر دوري لأتوجه إلى البيت، ولم أكن قد رأيت أسرتي لمدة طويلة، ورأيت شخصاً يجلس على طفلتي الوليدة فيكسر ضلوعها، وتُنقَل إلى المستشفى. هذا كل ما أذكره من الحلم. كنت مفارقاً لأسرتي ولي زمن، وفي صبيحة يوم الحلم سافرت إليهم.

٧ - حالة هستيريا حسيّة وتوهم مرض: حلمتُ أن أمي تموت، وكنت أراها ترقد على السرير، واستيقظت والعرق يتصبّب مني.

٨ - حالة هستيريا وبوال ليلي مستمر: عندما أنام أرى أحياناً أحلاماً ملونة يكون فيها كل لون وحده، ثم تبدأ تتداخل وتدور وتدور لدقائق ثم تختفي.

٩ - حالة هستيريا قلق مع وساوس وفرط اعتماد: كنت أطير في الهواء دون سند ظاهر وكنت أحلق فوق جمهور كبير، ثم قابلت امرأة جامعتها.

١٠ - حالة قلق مزمن: كان آخر حلم لي حلمته هو اني قد استدعيت مرة أخرى للتجنيد واني تركت لذلك زوجتي وطفلي، وكنت في شدة الغضب، وانضممت لفرقتي، وكنت أتمشى وحيداً عندما انهار بي جرف فاستيقظت.

١١ - حالة قلق مزمن: حلمت أن ذئاباً وكلاباً وقططاً متوحشة تهاجمني وتأكل من لحمي وقاربتُ أن أموت.

١٢ - حالة قلق حاد مع اكتئاب: حلمت أني كنت أقاتل رجلاً معه سكين في يده كان يحاول أن يضربني بها، وكان على وشك أن يصيبني عندما استيقظت.

١٣ - حالة قلق حاد مع اكتئاب: حلمت أني كنت أركب دراجتي وصدمتني سيارة وكسرت ساقي.

١٤ - حالة قلق حاد مع اكتئاب وخُواف مرضي من الإصابة بالسل: حلمت بأمي التي ماتت من خمس عشرة سنة، وأختي التي ماتت من عشر سنوات، وأخي الأصغر وهو ما يزال حي وسنه سبع عشرة سنة ولكنه في الحلم كان كسيحاً ويجلس في حجر أمي.

١٥ - حالة اكتئاب صاحبها له شخصية دورية: كان كل شيء في الحلم مشوهاً. بعض الناس لهم سيقان وأذرع وبدون رؤوس، وبعضهم لهم رؤوس وبدون أذرع.

١٦ - شخصية سيكوباتية: كل ما أذكره من الحلم أن الطائرات كانت تقذف المدينة بالقنابل.

١٧ - شخصية سيكوباتية: حلمت أني راهنت في سباق الخيل وكسبت مالاً اشتريت به بيتاً وتزوجت وأثثت المنزل.

١٨ - شخصية سيكوباتية لواطية: حلمت أن زميلي في العمل مثلي.

١٩ - شخصية سيكوباتية معتلة إجتماعياً: حلمت أني في البراري نصطاد، وكانت الحيوانات تكلّمني وأكلّمها، فاستدرت نحو رفاقي أضربهم بالنار وأحذر الحيوانات منهم.

٢٠ - شخصية سيكوباتية لواطية ومكتئبة: حلمت أني عريان والناس تجري خلفي تحاول الإمساك بي، وكلما ركضت كانوا يقتربون مني أكثر، وكان ما يضايقني هو أني عريان، وعندما كادوا يمسكون بي استيقظت.

٢١ - حالة فصام مبكر: حلمت أني حقّقت كل ما أصبو إليه، وصحّحت أخطاء الناس، وكوّنت نظريات، وصوّبت نظريات، وأنجزت في مجالي ما لم ينجزه الأوائل، ولم يجرؤ أحد أن يخطّئني لأنه لم يكن يوجد مَن هو مثلي.

٢٢ - حالة صرع ذاتي المنشأ: حلمت أني انحبست في حجرة ولا أستطيع الخروج منها.

وتبين من الدراسات المختلفة أن أحلام المصابين بالصرع مخيفة ولها طبيعة شهوانية، بينما أحلام المصابين بالهوس تتسم بالغرابة، والأحلام في العُنّة لا اتساق بينها، ولا يمكن أن تجمّعها، وتهرب أفكارها أثاء السرد، وفي الملانخوليا تكون الأحلام بشعة، وفي الهوس تكون مبهجة، وأحلام المخمورين عبارة عن هلوسات تختلط فيها اليقظة بتخيّلات وأوهام فيها الحيوانات، وتشبه أحلام الحشّاشين ومتعاطي الأفيون والمصابين بالعُصاب الهستيري. ويحرص المصابون بالفُصام على أن لا يبوحوا بأحلامهم وكأنها من الأسرار الخاصة جداً، إلا أنها عموماً كأحلام غير المفصومين من حيث أن الرقابة الحلمية تُمارس فيها، وفيها الرمزية وكل الحيل الحلمية، ويمكن أن تكون عدوانية أو جنسية. وإليك هذا الحلم لمصابة بالفصام

الهيبفريني ولها ثلاث سنوات بالمرض عندما حلمت حلمها هذا:

- حلمت أني في بيتنا في البلد، وأن بقرتنا مريضة وتُسهل، وذهبتُ أطببها، ولكني وَحَلتُ في الروث في مدخل الزريبة، وجاءت أمي توبخني لأني وحلت، واستيقظت من نومي فزعة.

والحلم في ظاهره عادي كأي حلم لأي واحد منا، غير أننا لو دقّقنا فيه فسنجد صورة لتقدم المرض بها، وأنه يعكس حالاتها وصراعاتها، فأمها في الحلم تظهر مرتين، عندما توبّخها، وعملها هنا هو عمل الأنا الذي يدفع عنها دوافعها الشهوانية التي يصفها بأنها وحل وروث، ويقول عنها إنها والغة فيها، والبنت لا تترك أناها يقول ذلك فهي ترد الصاع بأن تجعل البقرة مريضة وتحتاج لها، والبقرة هي الأم التي تمثل الأنا الموبّخ، وهذا هو الظهور الثاني للأم، وكأن المريضة تتمنى لأمها المرض نكالاً وعقاباً لها:

وهذا حلم آخر بعد عدة سنوات:

- كانت هناك امرأة مستلقية على ظهرها وترفع ساقيها لأعلى وفوقهما رجل تحملانه، ووجدتني آخذ مكان المرأة، ويتحول الرجل الراكب، إلى أبي، ثم هبط فوقي، وصنع أشياء غير مؤدّبة.

والتقدم في المرض لا يجعلها تستشعر مدافعة الأنا هذه المرة، فالحلم واضح وليست فيه رمزية ورغباتها تطغى عليها، وليس ذلك سلوكها في اليقظة، الأمر الذي يقطع بأن الفُصام يعمل عمله فيها.

وهذا حلم لفتى في العشرين قبل أن يهاجمه الفصام:

- كنت أبني بيتاً له شرفتان تتسلقهما أشجار الورد. وظهر رجل غني يريد شراء البيت ولم أقبل بيعه بأقل من مليون جنيه.

وبعد سنة من الإصابة بالفُصام وخلال فترة من الإبلال حلم بالبيت نفسه، ولكن اللصوص جاءوه هذه المرة في الليل واقتحموا البيت، فدافع عنه فأشعلوا فيه النار ليضطروه إلى الهرب، واستيقظ من الحلم من شدة القلق. وبعد سنتين من هذا الحلم، وبعد هجمة أخرى من المرض حلم بحرب تدور بينه وأعداء كثرين، واختبأ خلف البيت السابق، وكان يضرب في المليان في الأعداء من مخبئه، وكانت مذبحة. ثم بعد سنة أخرى

وقد تقدم به المرض جداً حلم الحالم التالي:

- حلمت أني أضاجع امرأة جميلة، وجاء زوجها وقاتلني فقتلته، وألقيت بجثته من النافذة، وقاتلت الشرطة لما جاءوا يقبضون عليّ وصرعت منهم عدداً كبيراً. ونزلت الدرج وخرجت إلى الشارع أعمل تقطيعاً في الجثث الملقاة، وكنت أشعر أني أريد المزيد.

ونرى أنه في الحلم الأول لما كان سليماً كان الأنا يُخفي الرغبات بالرموز، والحالم نفسه فسّر البيت بأنه بيت أمه، ثم قال: إنه يرمز للأم نفسها. وفي الحلم يقبل أن يمتلك البيت أبوه متمثلاً في الرجل الغني بديل الأب، ولكنه بعد أن يتداعى بالمرض لا يصبح هناك مجال لمهادنة الرجل وهو الأب ويقاتله على الأم. والبيت تشتعل فيه النار لأنه صار يجد أن تمسكه به خطر عليه، ولذلك يهرب منه، ولكنه في الحلم الذي يليه لا يهرب ولا يخاف، وتتحول عدوانيته إلى شراسة لا ترتوي أبداً.

وهكذا تكشف الأحلام إضطرابات الفصامى بأكثر مما تكشفها اليقظة التي تحيط شخصيته بواجهة خادعة. ولقد رأينا كيف تتداعى وظائف الأنا الكابتة ويتهافت الضمير بتأثير المرض حتى لا يبقى منهما شيء مع تقدّمه. ونلاحظ ذلك في زُملة الأحلام بتدرّج الضعف بالرقيب الذي ربما كان قبل هجمة المرض شديد التزمت، ونتيجة لذلك تظهر الدوافع اللاشعورية للمريض ظهوراً مبكراً نسبياً، وتتعارض مع أخلاقياته وتوجُهه الواعي، ولذلك تتسبب له في الكثير من القلق الذي يدفعه إلى أن يحلم أحلامه هذه المميزة. ويستمر التدمير في الشخصية يعمل عمله إلى أن يسمح بالدوافع أن تظهر سافرةً دون قناع أو ترميز. ولا يصبح هناك ظاهر للحلم وباطن، بل يتطابقان، ويحدث ذلك للأصحاء إلى حد ما في أحلامهم حيث يعمل الرقيب عمله في اليقظة، فإذا تدنّى الوعي مع النوم فإن الضمير يكون أقل تشدداً، غير أنه مع مرضى الفصام يتداعى الضمير بالكلية، ولا يكون له عمل في الحلم حيث تنعدم الرقابة عليه، وتظهر الدوافع سافرة، ورغم أنها دوافع لا يقرّها المريض في الواقع إلا أنها لا

تعود تستولد فيه أقل القلق من الأنا، وربما لا يكون هناك قلق البتة.

ولقد تبين بالإضافة إلى ما سبق أن الأحلام عند المرضى بالفُصام تختلف في طبيعتها باختلاف المرضى، بحيث يمكن أن تساعدنا الأحلام نفسها في تشخيص نوع الفُصام، فمثلاً تكون للأحلام عند المرضى، في الأطوار المتأخرة من الفُصام الهيبفريني طبيعة جنسية، بينما تكون لها طبيعة عدوانية في الكتاتونيا، وتكون نرجسية لواطية في البارانويا.

والأحلام في العُصاب غيرها في الذُهان، وأحلام المذهونين سادية الطابع وأكثر عنفاً. ومع تقدم المرض في الذُهان تكون الأحلام أكثر سفوراً وصراحة بدون أقنعة ولا رموز، فإذا كانت هناك فترات إبلال تتخلل المرض فإن المحتوى الحلمي يتغير بحيث تزيد الرمزية قليلاً ولكنها الزيادة التي لا تجعل حلم المذهون كحلم السوي.

ونلمس هذا التغير في أحلام المرضى بالصرع، فقبل النوبة قد تأتي أحلام المريض فتكون لها طبيعة سادية وتظهر الأشكال فيها مخيفة، فإذا انتهت النوبة فإن المريض إذا واتته الأحلام فإنها تكون أحلاماً من نوع لطيف مبهج، ولا تكون هناك أحلام بالمرة في ليالي النوبة.

ونلاحظ على أحلام مرضى الفُصام أنها تستعرض ماضيهم والحاضر وتستشرف المستقبل، ولا تعكس أية رغبات. وهذه الميزة في أحلامهم من حيث أن المريض يكون كما لو كان يتأمل تطور مرضه ويمعن الملاحظة لحالته تجعل بعض العلماء يطلق على أحلام المفصومين إسم الأحلام الملاحظة Endoscopic dreams. وتفيد هذه الميزة في تشخيص المرض عندهم، لأن الفُصام ربما كان هو الاعتلال الوحيد الذي تكون أحلام المرضى به لها هذه الصفة الاستعراضية لمراحل المرض وشكاوى المريض الحاضرة، وكأن المريض يلاحظ نفسه في أحلامه، وهذا الحلم من هذا القبيل، وصاحبته شابة متزوجة:

- حلمت أني رأيت خسوف الشمس، وكانت الدنيا كما لو كان ستار من الظلام

قد انسدل عليها، ورأيت أني أسير في شارع مزدحم بالناس والسيارات، والسيارات تكاد تصدمني، إلا أنها كانت تتجنبني في آخر لحظة، وشعرت بدوخة وفقدت الوعي، ثم وجدت نفسي في بيت ريفي، وكأنه مضاء بمصباح غاز ينشر نوراً خفيفاً.

والمريضة كما نلاحظ تتدرج بها الحالة في الحلم، وتمر بحالات يتفاوت فيها شعورها بوعيها، ويبدو أنها في أول الحلم غيرها في وسطه، ثم تظهر كما لو كانت ظروفها تتحسن، وهذا الإنباء بالتحسن يقع لها فعلاً بعد فترة بحيث أنها استطاعت أن تستأنف حياتها. والإنباء ميزة أحلام المرضى بالفُصام، وكذلك المرضى بالذُهان العضوي، بحيث تُخبر الأحلام عما سيؤول إليه حال المرضى في القريب، وخاصة مرضى الشلل. وفي حالة مرض كورساكوف قد تُخبِر أحلام المرضى بنوع الذُهان فتكون لها طبيعة جنسية مشاعية وتنتهي بالإمناء. ولذلك بوسعنا أن نتبين في أحلام المرضى بتصلب شرايين المخ إتجاهاتهم الشرجية.

الباب التاسع عشر
«لماذا ننسى الأحلام؟»

كثيراً ما نحلم ونذكر أننا قد حلمنا، ولكننا لا نستطيع أن نروي ما حلمنا به إذا طلب منا ذلك، ولربما ننسى الحلم بالكلية، أو قد ننسى بعض التفاصيل فيه، أو قد ننسى كل التفاصيل سوى أننا قد حلمنا. وربما قد نذكر من أحلامنا شذرات لا غير، أو قد نذكر الحلم تفصيلاً عند اليقظة من النوم، فإذا أوغل النهار وطُلِب منا أن نروي الحلم من جديد فقد لا نستطيع، أو قد لا نتذكر منه إلا النزر اليسير، وصار شيئاً عادياً أن يقول الواحد منا إنه يحلم ولكنه لا يذكر من أحلامه شيئاً.

والنسيان الذي ينسحب على الأحلام ينسحب أيضاً على كل ما نفكّر فيه أو ندركه أو نحس به، فإذا أردنا أن نلم بأسباب نسيان الأحلام فعلينا أن نلم أولاً بأسباب النسيان عموماً.

ونحن ننسى المُدرَكات أو الأفكار أو الأحاسيس، إما لضعفها، أو لقلة التهيئة النفسي المقترن بها. ونحن أيضاً ننسى الصور الحلمية، لأنها أضعف من أن تحتفظ بها ذاكرتنا، لكننا نلاحظ أيضاً أننا نتذكر أشياء تافهة وننسى أشياء كان يجب أن لا ننساها. وبالمثل في الحلم فإننا قد نذكر منه صوراً ضعيفة الأثر باهتة، وننسى صوراً أشد قوّة. وأيضاً فإننا ننسى في اليقظة ما يحدث لنا مرّة واحدة ونذكر ما يتكرر. ومعظم ما نراه في الأحلام صور لا تتكرر، فإذا تكررت فإننا نذكرها، تماماً مثلما حدث لفرعون يوسف حين رأى حلمه يتكرر لمرات ويلح عليه فما عاد ينساه. ونلاحظ أن حلم فرعون له اتساق بحيث تنتظم فيه أجزاؤه في وحدة من نوع مناسب، وهذا ما يجعل الحالم لا ينسى حلمه، فأما لو رأى أجزاء الحلم وصوره متفرقة كأنما هي عبارة قد انتثرت كلماتها وتبعثرت فإنه لو يحاول تذكرها فلن تسعفه الذاكرة لأن من شأنها ألا تذكر إلا ما كان منتظماً في تأليف واحد بحيث يكون له أي معنى. وأحلامنا من هذا القبيل، فإن التنسيق يعوزها غالباً، وتفتقد المعقولية، ومآلها لهذا السبب إلى النسيان.

والأحلام إذا ارتبطت بحياة اليقظة واستحضرتها في النوم فإننا قد نذكرها لأنها لصيقة بمشاكلنا وهمومنا، والناس الذين نعرفهم وقد نصادقهم ويصادقوننا، وقد نعاديهم ويعادوننا، فما مسّ من الأحلام أوتار حياة اليقظة يبقى في الذاكرة لأنه يتعلق بأذيال ذكريات حياة اليقظة ويتصل بها، فما نذكره منها نذكر أحلامنا المرتبطة به، كالشيء بالشيء يذكر. ونحن في اليقظة إذ نصحو من النوم تهجم علينا الحياة الحسية بحيث تشد إليها انتباهنا فتصرفنا عن كل ما ليس منها، ولا يبقى في الذاكرة إلا الصور الحلمية التي لها قوّة الثبات أمام طوفان الأحاسيس والأفكار التي تشملنا وتطوقنا وتلهينا عمّا عداها.

وبعض الناس يعتاد أن يذكر أحلامه ويهتم بها ولها، فتراه يحلم لذلك كثيراً، وبعضنا قد يتفاءل أو يتشاءم من الأحلام ولكنه يطلبها إذا نام، ويدعو من الله أن يأتيه في المنام ما يشير عليه بشيء معين، أو تصرّف من التصرفات، وهؤلاء يُكثرون من الأحلام. وبعضنا لا يهتم البتة إذا ما حلم أو لم يحلم، وهو بالقطع يحلم لأنه ما من أحد إلا ويحلم، ولكنه لا يذكر أنه حلم، لأنه لا يريد أن يذكر أحلامه ويسقطها سريعاً من ذاكرته ويصرف عنها انتباهه، ويعتاد ذلك حتى أنه قد لا يذكر أنه حلم يوماً من الأيام.

وبعضنا قد يعييه أن يذكر أحلامه بالنظر إلى أنه قد يصحو من نومه، إلا أنه ليستكمل حالة اليقظة يلزمه الكثير من الوقت ليعيد ترتيب مقومات يقظته، وينتقل من حال النوم إلى الحال الجديدة، وأثناء ذلك قد يسدل النسيان ستاراً على أحلامه، وتضرب الشواغل المستحدثة جداراً بين اليقظة وشواغل النوم.

والحلم إذ نحاول أن نتذكره يلزم أن نستحضر أحداثه وصوره ونرتبها الترتيب الذي يجعلها معقولة، وهذا الترتيب ربما لا يكون هو نفسه ترتيب الحلم، إلا أنه ليترجم الذهن الصور إلى كلمات لا بد أن يرتبها، وأحياناً قد يستحيل هذا الترتيب على البعض فينساها بسرعة.

والحلم عندما نحاول أن نتذكره فقد تسعفنا الذاكرة ببعض من صوره، وقد لا

تسعفنا بها، وكما يحدث في الذكريات العادية فقد نلجأ إلى التلفيق عندما تتباطأ عنا الذاكرة، ولا تسعفنا بالمادة المطلوبة. والذاكرة يجري عليها النقد، وما لا يعجبنا قد نغفله من صور الحلم، ونسقطه من الترجمة، ويتم ذلك كله من غير أن نعي أنَّ ذلك يحدث فعلاً، ومن غير أن نشعر أننا قد أغفلنا أشياء، وتغافلنا عن أشياء، ولفّقنا أشياء. والأحلام التي نذكرها لا يمكن أبداً أن تأتينا على هذا الترتيب والتنضيد، فهذا الشكل الذي تكون عليه هو فعل العقل الواعي، والعقل الواعي يضيف هنا وهناك، ويستكمل النقص ويسد الثغرات ليخرج الحلم على الكمال الذي نرى به حلم فرعون يوسف مثلاً.

والطريقة الوحيدة لكي لا ننسى الحلم هي أن نسرع بكتابته فور اليقظة، وكما تسعفنا به الكلمات ويجيء على ألسنتنا دون أقل إبطاء، فإن لم نفعل فإن النسيان سرعان ما يُعمل تأثيره في الذاكرة، وقد ننسى الحلم بالكلية، أو قد ننسى منه أجزاء، ولا تثريب على ما ينسى بالكلية، فأما أن ننسى أجزاء ونذكر أجزاء فذلك هو الذي ينبغي أن نحذره، لأننا عندئذ سنحاول دون قصد ولا وعي أن نستكمل النقص ونسد الثغرات ونؤلف من الجذاذات المتناثرة كلاً واحداً له نسق وحبكة، ويصير كل منا حينئذ كالفنان يؤلف حلمه، ويجهل أنه يفعل ذلك. ولقد ثبت أننا في كل مرة نروي فيها الحلم نضيف عليه أو نُنقص منه، مع تكرار الرواية المؤلّفة للحلم، أو الروايات بالأحرى، فقد نصدّقها نحن أنفسنا، ونهيم بها ولهاً، ونعلنها بحُسن نية كما لو كانت هذه الرواية هي فعلاً التي وقعت لنا.

ولقد قيل دائماً إن الحالم هو مبدع الحلم لأنه أولاً مَن يقع له الحلم، وهو شاهده ثانياً، وهو راويه ثالثاً. والحلم يكون صوراً وروايته ترجمة للصور إلى اللغة، وفي الترجمة تكون عمليات منطقية فيها التقديم والتأخير، والربط المنطقي الذي لا وجود له في الحلم، وبعض الناس لا يتيسر لهم ذلك، ولا يتقنون رواية الأحلام، ولا يفكّرون فيها من ثم لأنهم لا يستطيعون، ولأنهم يعجزون عن هذه العملية. ولقد قيل إنه من بين كل عشرة

أحلام تسعة على الأقل لا معنى لها. ونحن في الأحلام نربط بين أناس وأشياء لا تحمل أقل رابطة بينها، وينقلب المنظر عدّة مرات في لمح البصر كأننا في سينما، فإذا نحن أمام مجموعة أخرى أشد غرابة وأفرغ من المعنى من سابقتها، ويمضي الحلم ونحن نائمون فإذا استيقظنا فقد لا نملك إلا أن نقول أي جنون هذا، وسرعان ما ينسدل عليه النسيان.

وثمة سبب آخر لنسيان الأحلام، هو أنها تُظهر ما لا نود مصارحة أنفسنا به، وبعضها يكون لا أخلاقياً لا نرضى أن نرويه ونرفضه بشدّة، حتى أننا لنسقطه من حسابنا فوراً. وفي الحلم ينكشف الإنسان لنفسه كله على ما وُلِد عليه، بخيره وشرّه، وعُريه وعوزه، وما نكاد ننام، وتخف رقابتنا على أنفسنا بتدنّي الوعي حتى نصير ألعوبة لجميع الانفعالات التي تأباها ضمائرنا ونحن غير نيام، وترفضها معاني الشرف والقيم الأخلاقية التي ننشأ عليها. والذي ينكشف في الحلم هو الإنسان الغريزي، والإنسان عندما ينام يعود إلى الفطرة، والأحلام هي تفكير الفطرة، وكلما قلّ تأصيل الأفكار المكتسبة بالتربية والثقافة، وقلّ ترسيخها في النفس والعقل، زاد احتفاظ النوازع المخالفة لها بسلطانها على الحالم في أحلامه، ومن أجل ذلك قد ننسى أحلامنا متعمدين أو على غير وعي منا، لأنها تمثل نواحي ضعف فينا.

وبعض الأحلام قد يثير تذكرها القلق فينا، وقد يستحدث مخاوف لا نحب أن نستحدثها فنسدل ستاراً من النسيان عليها. وهذه النوازع المرفوضة وهذا الألم الذي تستحدثه بعض الأحلام كما في الكوابيس مثلاً، وتلك المخاوف التي قد تفزعنا في أحلامنا، قد تسارع بعملية النسيان هذه. وفي الكوابيس مثلاً عند الأطفال قد يستيقظ الطفل من النوم مفزوعاً فإذا طمأنه والداه فقد يعود سريعاً للنوم، وقد نسأله في الصباح عن حلمه، فنجد أنه لا يذكر منه شيئاً البتة، وكل تلك العوامل السابقة هي التي تستحدث أيضاً التشويه في الأحلام وهي التي تظهرها بمظهرها اللامعقول الذي يجعلنا نستنكرها عليه ونصفها من أجله

باللامعقولية ونسقطها من حسابنا.

والآن، وبعد كل ما سبق، فماذا يتبقى لنا من الحلم ليمكن أن نعتمد عليه، ونرى فيه أنفسنا، ونأتمنه على أن يكون وسيلة صادقة نحلل به شخصياتنا، ونعرف منه اتجاهاتنا؟

لقد عرفنا أن ما قد يتبقى من الحلم، أو ما نذكره منه، لا يمكن التعويل عليه طالما أن الذاكرة التي تخرجه إلينا وترويه علينا ليست مُؤتمنَة هي نفسها، وتعجز عن استبقاء الأحلام كما هي، وربما تضيع منها أهم أجزاء محتوى الحلم. ولربما نبدأ في سرد أحد الأحلام وسرعان ما نعلن أسفنا أننا لا نستطيع أن نكمل السرد لأننا لم نعد نذكره، رغم أنه واضح في أذهاننا أننا حلمنا أثناء النوم، وحلمنا أحلاماً كثيرة أيضاً. وقد لا نذكر إلا شذرات، وحتى هذه قد يأتي تذكرنا لها من غير يقين وقد نشك أن تذكرنا ليس فقط هو تذكر مجتزأ بل هو أيضاً ملفق، ولربما نشك أيضاً أن أحلامنا ليست بهذا الترابط الذي نرويه بها. فماذا إذن يتبقى لنا من الأحلام لنستعين به في مهمتنا هذه الكبرى - أن نعرف أنفسنا من خلالها؟

ونسارع فنقول إنه برغم كل هذه القصور وأوجه النقص والنسيان الكلي أو الجزئي فما يتبقى من الحلم هو شيء كبير جداً ولا ينبغي أن نغفله أو نسقطه من الحساب أو نستهين به. وهذا القليل والقليل جداً المتبقي يقتضي منا أن نواليه بالتحليل، وما قد نحسب أنه تافه، وغير مهم ليس بتافه على الحقيقة، ولا يمكن الاستغناء عنه إذا أردنا أن نحلّل الحلم ونتصدّى له بالتفسير حقاً. والمحلل يولي النص الحلمي كل احترامه حتى وإن كان هذا النص عبارة عن «حلمت بأبي أمس» فقط. والمحلل لا يغفل جملة أو حرفاً من النص، وقد يبدو الحلم مرتجلاً، وقد يبدو فيه الافتعال والتصنّع، وذلك شيء طبيعي طالما أننا نستحضره، فقد عرفنا ما تفعله به الذاكرة من تشويه في الاستحضار، ولننتبه لهذا المصطلح «تشويه الحلم»، أو ما قد يبدو أنه تشويه وهو في الحقيقة مراجعة له عندما نستحضر الحلم. وكأن هذه المراجعة تتم مرتين، وفي المرتين تعمل عملها تشويهاً للحلم، إلا أنه برغم ذلك فإن ما تسمح به يظل مرتبطاً بالمحتوى الذي حلّت محله،

ويظل علامة عليه يرشدنا إليه، ويجرّه جراً إلينا، وقد يكون هذا المحتوى نفسه بديلاً عن محتوى آخر.

وهذه المراجعة التي أشرنا إليها، قد يستحدثها المحلل للحلم عند الحالم بأن يطلب منه أن يسرد عليه الحلم مرة أخرى، ولسوف نجد أن الحالم تختلف روايته في كل مرة اختلافاً يسيراً، وقد يضيف وقد يسقط أشياء، وقد يستبدل كلمات بكلمات، وقد يختلف معنى العبارات تبعاً لذلك.

ولكن لماذا قد نطلب من الحالم أن يسرد الحلم مرة أخرى؟ ذلك ما قد نفعله عندما يستعصى علينا حلّه، وعندئذ قد تلفت نظرنا هذه التغييرات، وقد نسأله فيها. ومن تجربة فرويد وأصحاب التحليل النفسي وغيره من مدارس التحليل والتفسير للأحلام فقد تبين أن التغيير يشمل مواضع الحلم الحسّاسة فيجعلها التغيير تبدو تافهة وضحلة. ويتفق الجميع أنه كثيراً ما نبدأ بهذه التغييرات التي نعدها مواضع ضعف في الرواية - ومواضع ضعف منبئة - وما نكاد ننكأها حتى نتبيَّن أنها مثل عش الزنابير. والحالم إذ نطلب منه إعادة رواية الحلم يحرص أن يطرح روايته الثانية وقد أخفى منها - دون وعي منه - الإشارات الدالة على التفسير، والتي تحلّ غموض المحتوى وتكشف عنه. ونسمي ذلك مقاومة نفسية تعترض رواية كل حلم. وهذه المقاومة هي التي تفرض الرقابة الصارمة على الحلم أن يظهر مضمونه ظهوراً صريحاً، وهي المسؤولة عن التشويه، الذي أسلفنا القول فيه والذي يتعرّض له محتوي الحلم مرة، ثم يتعرّض له تذكر الحلم، فكأن هذه المقاومة هي المسؤولة كذلك عن النسيان. وإذا كنا نتشكك أن يكون الحلم أو بعض تفاصيله قد رويناه رواية صحيحة، فهذا الشك أيضاً مستمد من رقابة الحلم، ومن المقاومة التي تحول دون نفاذ أفكار الحلم إلى الشعور.

والمقاومة النفسية تمارس عملها لدى تصوير الأفكار هذا التصوير الشبيه في بعض نواحيه بالتصوير السينمائي بما يسمى الحيل الحلمية، وذلك مصطلح آخر ينبغي أن نتنبه إليه وسيحين الحين أن نتناوله إن شاء الله، ومن ذلك هذه

الخدع التي تشبه الخدع السينمائية، وهي في مجال الحلم حيل أو خدع الإبدال، والإسقاط، والنقل، والمسرحة، والقلب، ومن ذلك أيضاً أن تسحب الرقابة الحلمية القيّمة النفسية للأجزاء الهامة فتضفيها على الأجزاء غير الهامة وعندئذ قد تلتبس الأمور علينا فنحسب ما هو تافه هاماً، ونظن أن الهام تافه. وتعمل المقاومة النفسية عملها عند تذكّر الحلم فتراجع الرقابة الرواية الحلمية الثانية بحيث تجيء مختلفة عن الرواية الأولى، وممعنة في تشويه الحلم وتضليل محاولة التفسير، إلا أن هذا الاختلاف في الرواية حرِيّ أن ينبهنا إليه، وهو علامة مؤكّدة أننا بصدد عنصر مشتق من أفكار الحلم الممنوعة. وهذا الشك الذي قد نبديه، مقدمين للرواية بأننا لا نعرف أن هذا هو بالضبط ما رأيناه في الحلم، إلا أنه ما يرد على خواطرنا، هذا الشك الذي يعلن عن نفسه صراحة هو نفسه ممارسة للرقابة الحلمية، بالتشكيك في الرواية بحيث لا نعاملها جدياً ونستخف بها ومن ثم نُسقطها من حسابنا. فماذا إذن نفعل والأمر على هذا القدر من التعقيد؟ الحل هو أن نعي جيداً، سواء كنا حالمين نروي أحلامنا، أو معبرين نحللها ونفسرها، أن كل ما يعوق سرد الحلم، وكل شك في الرواية، وكل نسيان، هو نفسه من المقاومة. وعلينا أن نحذر ذلك ونعمل حسابه باستمرار ونكون مستعدين لمواجهته.

ولا ينبغي أبداً أن نغفل عمل الرقابة الحلمية والمقاومة النفسية. وقد يكون صحيحاً أننا ننسى الأحلام لأنها قصيرة لا تستغرق لسردها إلا أقل القليل من الكلمات وكأنها قصة قصيرة جداً، بل وقد تبدو قصة مهلهلة أحياناً، وغير معقولة أحياناً، وممعنة في الغرابة أحياناً، وقد لا نتفرغ لتذكرها، إلا بعد أن نستيقظ بزمن، إلا أننا مع ذلك لو حفلنا بأن نجلس لكتابة ما حلمنا به، ولو نكتب مشهداً أو حتى عبارة مما نذكره من الحلم، ثم أجهدنا أنفسنا قليلاً وتساءلنا حول معنى هذه العبارة، وما قد تذكّرنا به، أو يذكرنا به شيء فيها قد يسترعي انتباهنا، فقد تبدأ فعلاً سلسلة تذكّر الحلم كله، وقد نبدأ ندرك تفاصيله، وسرعان ما تأتينا التفاصيل من هنا وهناك بحيث قد

يتسنى لنا من هذه الشذرات أن نعيد تركيب الحلم على نحو ما، وكأن الحالم أو المحلل، أحدهما المونتير يقوم بعملية المونتاج والآخر يساعده، وهو عمل يقتضي جهداً وانتباهاً فائقين، ويدل دلالة مؤكّدة على أن ما نسيناه هو بالأحرى ما نتعمد أن ننساه، وما نقاوم تذكّره، لأنه قطعاً ينطوي على عنصر مُهدّد، أو مُعاد، أو مُقلق، أو مُخزٍ، أو مُخيف.

وليس أدل على أن نسيان الأحلام هو نسيان مُغرض يخدم أهداف الرقابة من أننا ونحن نسرد أحلامنا قد نتوقف فجأة لنعيد على المسامع رواية جزء أغفلناه ثم نتذكره، وكان هذا الجزء منسياً، ثم يتضح بالتجربة أنه أهم جزء في الحلم، إلا أنه مُسِح من الذاكرة، كما يمسح الرقيب الجزء الممنوع من الفيلم السينمائي، بسبب المقاومة النفسية عند تذكّره، والتي تفوق سواها من مقاومة قد تتعرض لها بقية أجزاء الحلم.

وإذن فعلينا إذا كنا نريد أن نتمرس بتحليل الأحلام أن نثابر على البلوغ إلى الأفكار اللاإرادية وهي التي تقاوم التذكّر، والتي ليس من سبب لنسيانها إلا الكبت، أو على الأدق المقاومة الناتجة عنه. ولا يتم تفسير الحلم دائماً من مرة واحدة، وكثيراً ما يستحسن بعد تدوين الحلم أن نترك تفسيره لفترة، وقد ثبت أن الأحلام التي يستعصي تفسيرها فوراً تقبل التفسير بعد مدة من الزمن، وذلك لأن المقاومة النفسية تكون قد خفّت. وقد يكون تفسير الحلم على أجزاء أفضل، ولنا أن نسمي ذلك بالتفسير المتكسّر للحلم. ولربما تكون هناك عدّة تفاسير للحلم الواحد، أي يكون للحلم تفسير مضاعف غاب عن المفسّر، والأسلم لذلك أن يتناول التفسير زُملة من الأحلام، أي مجموعة منها فتفسّر بعضها بعضاً، وتُلقي أضواء على بعضها البعض، وتوجّه التفسير إلى الوجهة الأصح والأكثر احتمالاً. وكان من رأي فرويد أن بعض الأحلام تستعصي على التفسير حقاً، وذلك صحيح لو اتبعنا المنهج بتفسير الحلم الواحد، وليس بالمستحيل إمكان تفسير أي حلم لو أننا ربطناه بأحلام أخرى للشخص نفسه تبدو على قدر من التماثل في الموضوع وتجتمع عليه في فترة زمنية معينة.

الباب العشرون
«الحيل في الأحلام»
«التكثيف والإبدال والقلب والنكوص والترميز والإخراج الدرامي»

يقدم فرويد في كتابه تفسير الأحلام نظرية تتعلق بعمل الحلم Dream-work، أي الميكانيزمات أو الحيل اللاشعورية التي تتحول بها أفكار الحالم المعقولة إلى صور حلمية غير معقولة في أحيان كثيرة، يوصف الحلم بمقتضاها بأنه يتعرض لعملية تشويه من عمل الرقابة والكبت والمقاومة التي تتعرض لها الأفكار وهي تتحول إلى صور حلمية.

ولغة الحلم إذن هي صور، وأفكار الحلم ومحتواه الذي يتضمن الصور بمثابة ترجمتين تؤديان في لغتين مختلفتين معنى بعينه، وكأن محتوى الحلم ينقل أفكار الحلم إلى نموط مختلف من التعبير. وهو نمط يحق علينا أن نعرف رسم حروفه وقواعد نحوه بالمقارنة بينه وبين الأصل، ومن ثم سيسهل أن نترجم الصور مرة ثانية إلى الأفكار خلال عملية تحليل الحلم. ومن الخطأ أن نقرأ رسوم الحلم أو صوره بحسب دلالتها المصوّرة لا بحسب علاقتها الرمزية، فلو افترضنا أننا رأينا في مجلة مصوّرة هذا اللغز المطلوب منا حلّه: منظر بيت، وعلى سطحه مركب، وشخص يجري في الشارع، وليس له رأس. والرجل أكبر حجماً من البيت. وهناك حرف من الحروف الأبجدية في زاوية من الصورة، فأي تفسير يمكن أن أقدمه كحل للغز قد يكون تفسيراً معتسَفاً لأن الصورة غير معقولة، فالمركب لا يمكن أن يعتلي البيت، والرجل لا يمكن أن يكون أطول قامة من الاثنين، والطبيعة لا تعرف الحروف الأبجدية. وهذا النقد الذي أقدمه لأي تفسير هو نقد له وجاهته، وما لم نتفق على شيء أساسي نترجم بمقتضاه هذه الصورة غير المعقولة، إلى أفكار معقولة فستطيش أي محاولة للتفسير. ولقد فعل الأقدمون الشيء نفسه، بأن اتفقوا على شفرة معيّنة يترجمون بها الصور غير المعقولة في

الحلم إلى أفكار معقولة، فقالوا مثلاً أكل الكعك في الحلم ضيق، فإن حلمت أنك تأكل كعكاً فأنت ستمر بفترة ضيق، غير أن هذه الشفرة لم يكن هناك من مبررات موضوعية لوضعها، وإنما تأتت بالاتفاق العام بمثابة حكمة الآباء، وفرويد هو أول من هدف إلى محاولة الترجمة بموضوعية لها مبرراتها، بحيث يمكننا أن نقول إن محاولة فرويد تفسير الأحلام هي أول محاولة تفسير علمية.

ويقول فرويد إن الباحث في أي حلم سيُبدَه أول ما يُبدَه، عند المقارنة بين محتوى حلم وأفكاره، بأن ثمة عملية تكثيف قد أجريت على الحلم على نطاق واسع، ولنتأمل مثلاً حلم فرعون يوسف بأن سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان، وهو حلم شديد الاقتضاب، لا تتجاوز كتابته السطرين، ومع ذلك فقد يستغرق تحليله الصفحات الطوال، فنعرف من الملك ما يشغل باله، وما يمكن أن تمثله له البقرات، وسنعرف أن الملك المصري كان وقتها يشغله جداً أمر الفيضان الذي تتوقف عليه حياة مصر الاقتصادية والسياسية والفكرية واستقرار المملكة، وكانت مصر بلداً زراعياً دائماً، وكان المصريون ينتظرون الفيضان ليبذروا القمح، والشطر الثاني من الحلم خاص بالقمح، والمصريون يربون البقر إلى جانب زراعة القمح، والبقرة عماد البيت المصري حتى أنها قد تبيت مع الأسرة في الحجرة نفسها، ولذلك فإن المعقول أن يتّجه التفسير إلى أن مصر قد تعاني ضيقاً بحيث أن البقر الأعجف يأكل البقر السمين، والبقر لا يكون أعجف إلا إذا كان محصول القمح متدن، ولا يكون المحصول كذلك إلا إذا تدنّى فيضان النيل، وكأن الحلم إذن يقول إنه قد يأتي على مصر سنوات تعاني فيها جفافاً حتى أن المصريين قد يأكلون كل ما ادخروه من سنوات الرخاء. وهذه الأفكار تعكس مخاوف مَلِك وقلقه أن يأتي العسر بعد اليسر، ونحن نعرف من دراساتنا النفسية أنه كلما زاد النجاح بالشخص إستبد به القلق أن يعقبه الفشل، وحالة الرخاء التي كانت تمر بمصر دفعت الملك أن يخاف أن يزول ذلك سريعاً، ويأتي الجفاف وتكون المجاعة. ولقد تعوّدت مصر على هذا

القلق وتعيشه حتى اليوم، ويخاف المصريون أشد الخوف أن لا يأتي الفيضان، وأما العدد سبعة فله قصة أخرى يطول شرحها بالنظر إلى المعاني الكبيرة التي له قديماً والتي شغلت بال الفلاسفة وحفلت بها آيات التوراة والأناجيل والقرآن.

وإذن فالحلم على اقتضابه قد يستغرق الصفحات عند تحليله، وما أوردناه تحليلاً لا يعدو إيجازاً شديداً لما يمكن أن يكون عليه التحليل. والأحلام قد تتباين موضوعاتها ولكن الميكانيزمات التي تقوم عليها واحدة دائماً، وميكانيزم التكثيف Condensation تحتال به الأحلام لتقول باختصار، في صور متعجلة سريالية، ما يقتضي قوله كتابة الصفحات الطوال. وبعض الأحلام لها تفسيرات مضاعفة، ويظل هناك دائماً احتمال بأن الحلم لم يفسر التفسير الكامل، أو أن له تفسيراً آخر وإن بدا التفسير الذي نقدمه مقنعاً، ومن ثم كان من المستحيل أن نحدّد مقدار التكثيف بأي حلم. وهذا الانعدام للتناسب بين محتوى الحلم وأفكاره هو دليل على أن المادة الحلمية قد جرت عليها أثناء تكوين الحلم عملية التكثيف هذه الواسعة. ولربما قد نظن أن مستدعيات الحلم غير ضرورية لتفسيره كلها، طالما أنها نسبية ومشروطة بقُدرة الحالم على أن يستدعيها رغم المقارنة النفسية، إلا أنها في الحقيقة جزء من الحلم، لأنها كانت حاضرة وناشطة وقت تكوينه، وهي لذلك أفكار أصلاً من الحلم جرى عليها التكثيف. ولا يعني التكيف أن الحلم قد اشتمل على صور دون صور واقتضى لذلك أن نستكمله بالمستدعيات، فأفكار الحلم التي تعكسها صوره هي التي تستدعي الخواطر حولها، كالشيء بالشيء يذكر، ولا يحدث أن يحذف منها شيء، والتكثيف من ثم لا يعني الحذف. وليس هناك حلم إلا وقد اكتمل، إلا أنه يحتاج دائماً إلى تحليل وتفسير، واستدعاء للخواطر وللذكريات، وإخراج للمكبوت. والأولى دائماً بالحلم أن نرصده فور الصحيان، حتى لا يُنسَى، وما قد نحسب أننا نسيناه نتذكره بالتداعي. وليس الحلم إلا إسقاطاً سينمائياً لأفكار الحالم بحيث تأتي صوره لتقابل أفكاره، غير أن الصور تكون

مختزلة ونحتاج لترجمتها إلى أفكار بلغتنا اليومية.

وهذا مثال للتكثيف في الأحلام:

- حلمت أني وأصدقاء لي ذهبنا إلى الإسكندرية ونزلنا في فندق في أبي قير، وكان عليّ لأصل إلى الفندق أن أعبر شارعاً صاعداً إليه، وكان الصعود يرهقني فإذا وصلت الفندق كنت أرتمي على مقعد لأستريح. وتبين لي أن أخي الأصغر ينزل في حجرة في الطابق الرابع. وكنت أنزل في حجرة في الطابق الأول. وقلت لا داعي لأذهب إليه.

التفسير: الحالم في الخمسين يشكو رهقاً في القلب، والتعب الذي يأتيه في الحلم كلما صعد إلى الفندق من تأثير أحاسيس المرض. والإسكندرية التي يحلم بها، والفندق الذي نزل به، من ذكريات رحلة مدرسية كان قد قام بها وهو في الجامعة واستمتع بها، وكان الفندق على ربوة كانوا يسيرون إليها صعوداً. والحالم يعيش في حياته الزوجية، ويتمنى لو يستطيع أن يطلّق زوجته، وكان دائماً يتراجع عن ذلك. وبدلاً من أن ينفصل بالطلاق كان يؤثر أن يقوم بسفريات طويلة يغيب فيها عن البيت، فإذا لم يستطع السفر على الحقيقة سافر في الأحلام، وقبل هذا الحلم كان قد تشاجر مع زوجته، والحلم نتيجة للشجار في اليوم السابق، ومبقدار ما هو هروب إلا أنه هروب لأيام زمان من عهد التلمذة، حيث ينزل في فندق ليس له وجود حالياً. والحالم يقول إنه ما عاد يقرب زوجته كالأول، فكلما ضاجعها يحس بإرهاق شديد بالنظر لمرضه، ويرتمي بعده، وبتعبيره، كالجثة الهامدة، وهذا هو قوله إن الصعود يرهقه، والصعود هو الجماع، وهو الوضع الذي يعتلي فيه امرأته، وكان الطبيب قد أشار عليه أن يجعل زوجته تعتليه، وقد ارتاح لهذا الوضع لكنها هي لا ترتاح فيه، فقد كان عليها أن تقوم بكل شيء، وجربت شيئاً لم تجربه من قبل وهو الإنعاظ، وقد هالها أمر نفسها فيه، وخافت، فكانت تحزن أن تصعد فوقه. وهو نفسه وإن كان قد ارتاح لهذا الوضع إلا أنه نفسياً متكدر، لأن كون الزوجة فوق وهو تحت يزعجه. وهو يرى أخاه الأصغر فاشل في الفندق «فوق» وهو تحت مع انه هو الناجح، وتلك

حيلة أخرى من حيل الأحلام هي حيلة القلب. وصلة الأخ بالحلم الذي يدور حول الزوجة وعلاقته بها أنه يشبّه به الزوجة، ويريد أن يقول إن كون الزوجة فوق لا يعني أنها أفضل منه فهي فاشلة كأخيه.

ومستدعيات الحلم كما نلاحظ تتكرر بها عناصر حتّمتها أفكار الحلم، وترتبط ببعضها وتنبّه بتكرارها إلى موضوع الحلم الرئيسي، وهي علاقة الزوج بزوجته. وذلك يجرنا إلى الحديث عن حيلة أخرى من حيل أو ميكانيزمات الأحلام هي حيلة الإبدال Displacement، وقد أبدل الحالم زوجته بأخيه الأصغر، واستبدل بوضع الجماع المقلوب السكن فوق وتحت. وللسكن فوق أو تحت مضمون اقتصادي واجتماعي ونفسي، فسُكان «فوق» هم الأفضل دائماً، بينما لا يسكن تحت إلا الطبقات الأدنى، وذلك هو المعروف بين الناس، ولنعمان عاشور مسرحية بهذا المعنى هي «الناس اللي تحت»، وهناك أعمال مسرحية غربية تتناول «الناس اللي فوق». والإبدال الذي يتم به ذلك في الحلم نلجأ إليه لتصوير حدث عادت في الحلم غير مشحون نفسياً فنشبّهه عيانياً، والمشبّه به قادر على أن يأتي في الحلم مصوراً، وأن يدخل ضمن موقف، بينما التعبير المجرد عن الحدث أو الفكرة قد لا يمكن تصويرها حلمياً. والفكرة التي نحن بصددها هي فكرة أن الزوجة صارت تعتلي زوجها، وذلك حدث له صدى نفسي ودلالات أخرى، والإبدال هنا بالإضافة إلى التكثيف يعملان عملهما بما يجعل الفكرة التي يتصديان لها صورة بليغة تقول بأبلغ مما تقول الفكرة المجرّدة. ولربما قد تستدعي هذه الفكرة الصغيرة مستدعيات تستنفد كتابتها صفحات، والصورة التي تطرحها بإيجازها تختزل هذه الصفحات وتكثّفها، ويعمل الإبدال في خدمة التكثيف بحيث يتيسر التكثيف به.

ولنعد إلى ما يقوله الحلم من أن الأخ يسكن فوق، ففي حين أننا قلنا إن الحلم استبدل الزوجة بالأخ، فإنه في الوقت نفسه قلب الوضع فجعل الأخ فوق والحالم تحت، مع أن ذلك غير صحيح حيث الأخ هو الفاشل والحالم هو الناجح. والقلب Inversion كما نوهنا حيلة أخرى. والقلب جاء عند إبن سيرين أنه التأويل بالضد

والمقلوب، كتفسير البكاء في الحلم بأنه فرح، والضحك بأنه حزن. والقلب لهذا السبب مسؤول عما نراه في الأحلام من تباين بين المحتوى الظاهر والمحتوى الكامن للحلم، وهو مسؤول مع التكثيف عن التشويه الذي يلحق أفكار الحلم فتأتي على الصورة أو الصور التي تأتي بها.

والنكوص Regression حيلة رابعة من الحيل الحلمية يتمثل في الارتداد إلى الذكريات والرغبات والصراعات من الماضي، وهذا هو النكوص الزمني، وهناك نكوص شكلي، أو نكوص طبوغرافي، والأول يكون بإحلال لغة الصور والرموز محل لغة الأفكار، ولغة الصور والرموز لغة بدائية من الماضي أيضاً، والثاني وهو النكوص الطبوغرافي حيث يتدنى الوعي وتقل المقاومة والرقابة فيسود اللاشعور ويتوارى الشعور.

والنكوص يكون في الحلم وفي اليقظة أيضاً، حيث أننا نستطيع أن نترك أنفسنا للذكريات ونحن غير نيام. والنكوص يكون أيضاً في هلاوس اليقظة عند المرضى بالهستيريا أو بالبارانويا، حيث يمكن أن تتحول الأفكار عند هؤلاء المرضى إلى صور.

والنكوص في الحلم، حيثما يقع، يكون نتيجة للمقاومة التي تُحول دون تقدم الفكر إلى الشعور وفق الطريق السوي، ونتيجة لجذب تمارسه إزاءها في الوقت نفسه ذكريات حاضرة ذات قوة حسيّة كبيرة. ويسهّل النكوص إنقطاع التيار التقدمي الذي ينساب في النهار من أعضاء الحواس. ولقد رأينا في الحلم السابق كيف يرتد الحالم إلى فترة من حياته كان فيها سعيداً، ولم يكن يعاني أي نوع من العجز، بل على العكس كان فاعلاً، وهو يذكر أنه كان يصعد إلى الفندق، ولكنه الآن يُرهَق من الصعود، وربما - لأن الصعود يرمز للجنس هنا - كان يمارس الجنس وقتها بكفاءة، والنكوص إلى هذه الفترة بالتداعي بالذكريات يخدم فكرة المقارنة بين عهدين ويكثفها تكثيفاً شديداً.

والترميز Symbolization وسيلة أخرى من وسائل الحلم لتحويل الأفكار إلى صور، وهو ظاهرة ملفتة للنظر حيث قد يتشابه الرمز والمرموز إليه تشابهاً

واضحاً، ويكثر مع ذلك أن ينعدم التشابه حتى ليكون استخدام الرمز محيّراً، والغالب أن الكثير من الأشياء التي ترتبط اليوم برباط رمزي يحيرنا أمره، ربما كانت في البداية قبل التاريخية تتحد في عينية تصويرية ولغوية، ومن ثم تكون هذه العلاقة الرمزية غير الواضحة الآن من عينية غابرة عليها. وبعض الرموز من الممكن ردّه إلى ما قبل قيام اللغات وانفراعها إلى جماعات لغوية، وبعضها قديم قِدَم الكلام نفسه، فالأب مثلاً كان يرمز له بالشمس، بينما يرمز للأم بالقمر، وللاخوة أو الأولاد بالكواكب، والرجل يُرمَز له بالقضيب على الحقيقة، بينما يُرمَز للمرأة بالفرج، وما نزال حتى اليوم في علم الإحياء نرمز للذكور بنحو ذلك، وللأنثى بفتحة مستديرة، وما يزال الموت يرمز له بالسفر، وللأطفال بالبذور.

والحلم يستخدم الرموز ليصور الأفكار تصويراً مقنّعاً لصرفنا عن معناها الحقيقي ويموّه علينا، إلا أنه من المحتمل أن يستخدم الرمز أيضاً إستخداماً حرفياً، فمثلاً نحن نقول إن الغضب قد استبد به فصار يغلي كالبحر اللجّي، والحلم يصور ذلك حرفياً فيجعل الحالم يركب البحر في ثورته من باب التشبيه البليغ، إلا أنه يقلب العبارة البليغة إلى صورة بليغة مستخدماً التشبيه المصوّر. ويجوز أن يأتي الرمز خاصاً جداً بالنظر إلى ما يمثله عند الحالم. وعلى كل فلقد أفضنا في الكلام عن الرموز في باب سابق.

والهدف من كل ما سبق من الحيل الحلمية أن يكون في المستطاع ترجمة الأفكار إلى صور، وما يجعل الحلم يلجأ إلى حيلة منها دون حيلة أخرى، أن تقبل الفكرة التصوير بهذه الطريقة دون غيرها، فهذا الاعتبار «قابلية التصوير» هو المعيار الذي به يكون إيثار حيلة من الحيل. ومن ذلك حيلة «المسرحة Dramatization»، فإذا أراد الحالم مثلاً، كما سبق أن نوهنا، أن يقول عن زوجة أنها خائنة فإنه قد يصورها تسقي زوجها السم، وقد قدمنا أحلاماً نمطية تدور حول الفقر وجعلنا لها عنوان أحلام الحفاء، فأن يرى الحالم نفسه في حفل كبير ويرتدي ثياب السهرة، ومع ذلك

يسير حافياً، فربما لديه خوف يلاحقه ويستشعر منه القلق، أن تزول ثروته ويعود فقيراً ويعاني كما كان يعاني؛ وكذلك الشأن في أحلام التعري فكلها نماذج لما يمكن أن تفعله المسرحة بالفكرة. ونقصد بالمسرحة طرح الأفكار طرحاً دراميأ أقرب إلى الإخراج السينمائي، ففي الحلم هناك القطع والمونتاج، ويورد فرويد نموذجاً لحلم فيه القطع:

- أذهب مع الآنسة «ك» إلى مطعم فولكس جارتن (قطع) أراني بعد ذلك في بهو منزل...

والحوار في الحلم هو دائماً إعادة محرّفة قليلاً لأقوال موجودة من قبل بين ذكريات مادة الحلم، وفي كثير من الأحيان لا يخرج الكلام في الحلم عن أن يكون إشارة إلى موقف درامي متضمن في أفكار الحلم، وأما معنى الحلم فيكون مختلفاً كل الاختلاف.

وأما الترتيب المنطقي في الحلم فهو كالمونتاج، فيه اللقطة التي تعود للخلف، وهناك أحلام تتسلسل فيها الحوادث تسلسلاً منطقياً، وأخرى يُغفل فيها الترتيب المنطقي، ونقول إن الترتيب المعوّل عليه هنا هو الترتيب النفسي، أي بحسب القيمة النفسية، المضفاة على المشهد. ومعنى الترتيب النفسي أن الأحداث أو الصور تأتي حسب أهميتها النفسية. وحتى الزمن المادي ليس له اعتبار في إخراج الحلم، ولكن الاعتبار للزمن النفسي. وقد يلجأ الحلم إلى ربط الأفكار بأن يستخدم ما يسمى بالمزامنة، فيحشد في الصورة الواحدة المادة الحلمية كلها، في مشهد أو موقف يجمعها، كما يفعل الرسام مثلاً إذا أراد أن يقدم في شكل صورة فكرة مدرسة أثينا، فيرسم كل فلاسفتها مرة واحدة، وعندئذ سنتبينها فوراً دون حاجة لعنوان أسفلها يوضح ماهيتها. والحلم يستخدم هذا المنهج في التصوير حتى للجزئيات، فكلما اقترب عنصران من عناصر الحلم كان ذلك بسبب وجود علاقة بين مقابليهما في أفكار الحلم، تماماً مثلما نفعل في الكتابة، فإذا جئنا - مثلاً - بالباء بعد الألف مباشرة كانت الكلمة أب، ولكن إذا فصلنا بين الألف والباء كان معنى ذلك أننا نشير إلى كلمتين، الحرف الأول من احداهما هو أ، والحرف الأول

من الثانية هو ب كما نقول في الإنجليزية B.A. بمعنى بكالوريوس آداب. وقد يريد الحلم أن يقول عن علاقة لأنه كذا وكذا فإنه كيت وكيت، وهي ما نعرفه باسم العلاقة العلية، فتأتي جملة الشرط في حلم تمهيدي، وجواب الشرط في حلم رئيسي، وقد يُقلَب الوضع، ولكن الجزء الأكبر من الحلم هو الذي يقابل دائماً جواب الشرط. وانقسام الحلم إلى جزئين لا يجزم دائماً بوجود علاقة علية بينهما، فقد يكون كلا الحلمين معالجة مختلفة لنفس الفكرة، وذلك كما يحدث مثلاً في أحلام الإمناء حيث تكون هناك عدّة أحلام جنسية تنتهي أخيراً هذه النهاية. وقد تأتي العلاقة العلية بطريقة أخرى باستخدام القَطع، فتكون صورة، ثم قطع إلى صورة أخرى، بدون أن يبدو أن هناك علاقة علية بينهما، وإنما يستخدم الحلم هنا طريقة التعاقب.

وأما علاقة إما كذا أو كذا فلا يستطيع الحلم تصويرها، وإنما هو يورد الاحتمالين في سياق واحد، كأن نقول كان المكان إما حديقة أو غرفة استقبال، فمقابل هذا الاحتمال في أفكار الحلم ليس احتمالاً مثلهما بل واو العطف، والقاعدة التفسيرية أن نعامل كلا الاحتمالين كما لو كانا يتساويان صحة، فالمكان فعلاً غرفة استقبال، وهو أيضاً حديقة.

وأما علاقة التضاد فالحلم يُسقطها تماماً، ويصور الضدين ويوردهما معاً على أنهما شيء واحد، وقد يصور الشيء بضده.

وأما في علاقات التماثل فهناك ألف طريقة لتصويرها، والحلم، أي حلم، ينبئ أساساً على علاقات تماثل، فالبحر اللجّي يماثل الغضب، والنار قد تماثل الشهوة، وقد تماثل الحقد. وعلاقة التماثل تفيد في تكثيف الحلم، وهي إحدى وسائله. والتماثل قد يكون بين شخصين فيرد أحدهما في الحلم ليقصد به الآخر من باب المحمولات المشتركة بينهما، وإذا حدث ذلك بين الناس نسميه التعيين في الحلم، وأما التماثل بين الأشياء فنسميه مزجاً، ويجوز أن يقع المزج بين الأشخاص، ويجوز أيضاً المزج بين الأماكن. والفرق بين التعيين والمزج فيما يتعلق بالأشخاص أنه في التعيين

يُكتفى بشخص واحد عن بقية الأشخاص، ولكن هذا الشخص يظهر في الحلم بكل العلاقات والمواقف التي تصدق عليه وعلى غيره. وأما في المزج فإن الشخص الذي يظهر تكون له من هذا ملمح، ومن ذاك ملمح، ومن ثالث ملمح، فتكون النتيجة ظهور شخص مركب وقد تجيء عملية المزج بطرق مختلفة، كأن يظهر الشخص في الحلم ويكون له إسم شخص آخر يرتبط به، وحينئذ نعلم أن المقصود هو هذا الآخر برغم اختلاف ملامحه المرئية. وقد يشارك الآخر لا بملامحه ولا باسمه، ولكن بحركاته المعروفة عنه. وقد يفشل الحلم في التعيين وفي المزج فيظهر المشهد منسوباً إلى شخص غير مقصود، بينما يكون المقصود مجرد متفرج في المشهد، ونجد الحالم يصف هذا المشهد فيقول مثلاً - عَرَضاً - وكانت أمي هناك.

والعنصر المشترك الذي يبرر توحيد الشخصين قد يتمثّل في الحلم وقد يغيب، والقاعدة أن التعيين أو تكوين الأشخاص المركبة يُستخدم من أجل تصوير هذا العنصر المشترك، فبدلاً من أن أقول إن س من الناس يعاديني وكذلك ص، فإن الحلم يبتدع شخصاً مركباً منهما معاً، أو يجعل من يرتكب الأفعال المعروف ص بارتكابها. وقد يستحضر الحلم الشخص المركب، بحيث يجعل الصفة المشتركة ليست هي المقصودة، وإذا حدث ذلك فإن التفسير يقتضي البحث عن الصفة الحقيقية، ونميز الصفة الحقيقية من الزائفة من الوزن النفسي الذي للصفة.

والأحلام أنانية، وكل حلم يدور حول صاحبه، فإذا حدث وكان الحلم يدور حول شخص آخر، فلربما - وهذا احتمال كبير، - أنه خلف هذا الشخص يكمن الحالم نفسه بواسطة التعيين. وقد يظهر الحالم وأشخاص أُخَر إلى جواره، ويتضح أنهم هم الحالم. وقد يحدث أن يرى الحالم نفسه في الحلم ويتضح أن المقصود شخص آخر، ويحدث ذلك في كل حالة بطريقة التعيين أيضاً.

وقد يكون التعيين بين الأماكن، وتبيّن هذا التعيين في أسمائها - أسماء الأماكن - أسهل من تبيّن التعيين في أسماء الأشخاص. وأما المزج بين الأشياء فهو ما يجعل الحلم يبدو غريباً. والمزج يكون

أيضاً بين الأسماء، ويكون بين المشاهد. ومزج المشاهد شبيه بالمزج في السينما، وقد يحدث أن تكون فكرة الحلم أن فلاناً هذا كلب إبن كلب، فيأتي الحلم بالكلب وتكون به صفات فلان، أو يكون له إسمه، أو يمتزج إسمه باسم من أسماء الكلاب الشائعة!

وربما كان أهم ما نقدره من الخصائص التصويرية في الصور الحلمية هو التفاوت في الشدّة الحسيّة بين مختلف الصور، ولا نعني بالشدّة الحسيّة هنا الظهور الذي لجزء على بقية الأجزاء، أو لحلم، على بقية الأحلام. وقد يتراءى لنا أن الحدّة النفسية لبعض أفكار الحلم قد يقابلها أن تأتي الصور الحلمية المقابلة لها شديدة الظهور، فالعكس صحيح، وذلك أن ظهور بعض الأفكار يستتبع أن تعاني من الرقابة والمقاومة بحيث تأتي الصور المقابلة لها باهتة أو تافهة أو هامشية، وذلك ما نقصد إليه أن إخراج الحلم يقلب القيم النفسية للأفكار، فما كان مهماً منها يظهر غير مهم، وغير المهم يبدو مهماً، وذلك بعض ما نقصد إليه عندما نتحدث عن التشويه في الحلم. ونقيس أجزاء الحلم بمعيار الشدّة النفسية. وإذا كنا بصدد الاستماع إلى تداعي الحالم حول أجزاء حلمه، فما كانت له شدّة حساسية أعلى كان أدعى إلى المستدعيات الأكثر. والحلم المشوّش هو الحلم الذي تجري عليه الرقابة عملها بشدة. والحلم الواضح هو الذي يمر من الرقابة بسهولة لأنه لا يعالج مسائل ممنوعة. والحلم المختلط هو الذي تتفاوت أجزاؤه في درجات الشدّة الحسية التي قصدنا إليها، وتتحكم مادة الحلم في إخراجه وليس العكس. وقد يلجأ الإخراج الدرامي إلى طريقة كفّ الحركة أي وقفها، وهو هذا النوع المعروف في أحلام الكوابيس، فالحالم يريد أن يتحرك فكأنه مسمّر في مكانه، ولا يستطيع أن يحرك يداً ولا أن يصرخ، وقد يريد أن يرد الإهانة فيصفع من أهانه ولكنه يعجز. ويريد أن يلحق القطار وتعصيه قدماه. وهذا الكفّ لا يحدث إلا إذا كانت بمادة الحلم حاجة تدعو إلى تصويرها هذا التصوير وحده، وغالباً ما يكون انعكاساً لصراع إرادات، بحيث يعكس الحلم عجز الحالم عن تحقيق

إرادته، أو عجزه عن أن يكون له موقفه.

ومن الأحلام ما يأتي إخراجه على أنه حلم داخل حلم، فيحلم الحالم بأنه يحلم، ويصف محتوى الحلم بأنه قد حلم به أثناء الحلم. والمقصود بالحلم في الحلم، هو التهوين من شأن الحلم الذي من الداخل وإظهار الاستخفاف بمضمونه، وكأن الحالم يصف الجزء الموصوف بأنه حلم، بأنه لم يقع ولا يعدو أن يكون حلماً، وذلك تماماً كما يحدث عندما نستيقظ من حلم كابوس، فنحمد الله بأننا كنا نحلم، أي نحمده على أن ما حلمنا به لم يقع، وأنه لم يعدُ كونه حلماً. غير أن هذا الحلم من داخل الحلم عندما يورده عمل الحلم بهذه الطريقة في الإخراج، فإن ذلك دليل قاطع على كون هذا الحلم الداخلي ليس من قبيل أضغاث الأحلام، وإنما هو شيء واقعي، وحدث حقيقي، وينبغي التعامل معه عند التفسير بجدية، وليس إخراجه كحلم داخلي إلا من قبيل التنصّل منه. وشبيه بذلك الأحلام اللامعقولة كأن نحلم بأن الأب الذي مات من سنوات حي يرزق، وأن أحد الناس جاء يحجز على الشقة ويطردنا منها بسبب دين على الوالد، ونناقش الوالد فيتبين أن هذا الدين لم يكتب له صكاً، ولكنه أعطى به كلمة، وأن الدين أصلاً لامرأة ساقطة، ونعجب لذلك في الحلم لأننا نعرف أن الوالد كان تقياً ورعاً. والحلم يخرج لا معقولاً إذا كان بين عناصر أفكاره حكم نصدره أو يصدره الحالم، مضمونه «هذا شيء سخيف أو غير معقول»، أي يكون بين أفكار الحلم فكرة يدفع إليها النقد أو الاستخفاف. واللامعقولية إذن هي طريقة في إخراج الحلم، ويتوسل بها عمل الحلم لتصوير التناقض في جو مزاجي يجمع النقد أو الاستخفاف إلى جانب المناقضة، وذلك بهدف أن يعطي للمحتوى الظاهر للحلم صورة ضاحكة، بينما المحتوى الكامن يكون متناقضاً مع الظاهر تماماً. ومن ثمّ وجب الحذر عند التصدّي بالتفسير لمثل هذه الأحلام، فكلما بدا الحلم كأنه جنون في جنون كما نحكم عليه عند اليقظة، فإنه أحرى بأن نعامله بجدية تامة. وكان الفلاسفة قديماً إذا أرادوا أن يقولوا ما يصدم الناس من حقائق، وخافوا مغبة الصراحة، إدعوا الجنون، وكذلك كان

الشأن مع ديوجين الكلبي الذي كان يزعج الناس بغرابة تصرفاته وصراخه عليهم في الأسواق، حتى سمّوه بالكلبي أو النّباح، وبهذه الطريقة كان يأمن العقاب، وكذلك الأحلام اللامعقولة. وليست هذه الطريقة إلا كمثل أختها التي لجأ إليها هاملت، الذي كان يخفي حقيقة ما يجري داخله من صراعات عنيفة غاية العنف بقناع من التنكيت والاستهتار. والأحلام التي نحكم عليها بأنها مجنونة أو غير معقولة، ليست أباطيل إذن، بل هي أحلام، من أفكارها التي تتضمنها النقد أو السخرية أو الاستخفاف، مما يستدعي ضرورة تصويرها على هذا النحو، فيأتي الحلم كأنه فيلم سينمائي هزلي، أو من نوع الأفلام الناقدة الساخرة.

الباب الواحد والعشرون

الكابوس

الكابوس حلم مفزع يُصاب منه الحالم بالخوف الشديد، حتى ليهب من نومه مذعوراً. والكابوس كحلم يتكرر مع الحالم، ويرى نفسه فيه في مأزق شديد يتهدّد منه الأنا تهديداً مباشراً، كأن يجد نفسه يدخل متاهة لا مخرج منها ويضيق عليه الخناق، أو يرى نفسه يسقط من حالق أو يهوي إلى حفرة، لا قرار لها، أو يجرفه الموج العاتي ويحوط به بالماء من كل جانب، أو ينحشر في ممر لا يجد فيه لنفسه متنفساً. وقد يهاجمه لص أو يغتاله مغتال ويتبين لنفسه أنه يموت، أو يظهر له عفريت أو غول أو جنيّة، فيحاول أن يركض فلا تطاوعه قدماه، ولا تنطلق الصرخة من فمه. وقد ننسى الأحلام ولكننا لا ننسى الكوابيس بالنظر إلى الهلع الذي يصيبنا منها، وأنها توقظنا من النوم. والمفترض أن الأحلام تأتي لتساعدنا على النوم، إلا الكوابيس، فإن المنقذ منها، ومن استمرارها، أن نستيقظ لنجد أننا منها قد أصابتنا صُفرة شديدة في الوجه، وقد نرتجف ويتصبّب منا العرق، ويرتفع ضغط الدم إرتفاعاً كبيراً مفاجئاً، بنحو ثلاثين ملليجرام، الأمر الذي يشكّل خطورة أي خطورة على الشيوخ المصابين بضغط الدم أصلاً.

ونحن قد نجهد لتذكر الحلم، وقد نشكو أنه مشوّش وغير واضح، أو نشكو أن أحلاماً عدّة في الليلة نفسها إنطبعت على بعضها، فاختلط علينا أمرها، فلا نذكر أهذا المشهد لهذا الحلم، أو لذاك، وأما في الكابوس فالأمور واضحة، والصور جلية، والمعاني حافلة.

والكابوس يأتي الأصحاء، كما يأتي المرضى النفسيين، وقيل إن نحو ٣٠٪ من الأطفال الأسوياء يضطرب نومهم بالكابوس، وأكثر ما يأتيهم في السن بين الثامنة والسابعة عشرة. ويرى الطفل في الكابوس حيوانات يخافها، وقد يجد نفسه مطارَداً وعاجزاً لا حول له ولا قوّة، وينتابه اليأس ويستشعر الوحدة، ويملأه الخوف. وقيل إن نوم الأطفال الخفيف يكون بعد خمس ساعات من استغراقهم في النوم

العميق، وعندئذ تأتيهم الكوابيس، وأغلب ما تأتيهم وهم نيام على الجنْب. والطفل الذي يحلم بكابوس قد يحلم به لأنه قد عانى تجربة خوف تتكرر معه في الحلم من هذا النوع، وقد يتحصل له الخوف نتيجة ما يشاهد من أفلام التلفزيون المرعبة، أو ما يقرأه من مجلات أطفال تصور الحيوانات في صور مخيفة، وتظهرها في حكايات يصدقونها. ويميل الأطفال إلى المبالغة وتصديق ما يقال لهم، أو ما يقرأون ومن ثم فقد يلاحقهم ذلك في أحلامهم.

ويكثر الكابوس في حالات الإصابة بالاضطرابات النفسية، وحيثما كانت الشكوى من المخاوف والقلق العُصابي، ومن اضطرابات مثل نهك القتال، وصدمة الوغى، وصدمة القنبلة، وصدمة الكوارث، والفصام، والاكتئاب، واضطرابات الشخصية عموماً.

والكابوس يسهُل تذكّره لوضوحه، وبسبب الشحنة النفسية العالية التي تكون به، وهي المسؤولة عن الذعر المرافق، وعن اليقظة التي تسرع إلى الأنا كنوع من السلوك الدفاعي.

ولا يختلف الكابوس عن الأحلام في النوع ولكن في الدرجة، فالخوف في الكابوس أشد منه في الأحلام المُهدّدة، ويتميّز بأن الحالم يشق تنفّسه، حتى لكأن شيئاً يرين على صدره، وربما لهذا السبب أطلق عليه العرب اسم الحضون، لأنه كما لو كان هناك مخلوق ذو قوة هائلة يحضن النائم حضناً، فهو منه في ضيق وأي ضيق، ويطلقون عليه اسم الباروك، أي الذي يبرك على النائم، وهو الجاثوم كذلك، أي يجثم على الصدر أو على الجسم كله فيشل الحركة ويقيّد الأطراف.

والمظنون أن الكوابيس تأتي البنات والنساء عموماً أكثر من الفتيان والرجال، وأن الأرامل والعوانس والراهبات أكثر تعرضاً لها من المتزوجات. وأنها تعبّر عن صراعات نفسية حادة تدور حول رغبات جنسية مكبوتة تجاه المحارم. وحوادث الكابوس تمثيل لدور المرأة في العملية الجنسية، حيث تستلقي ويكون الرجل فوقها، وكذلك في الكابوس فما تحلم به يكون باركاً فوقها يكبسها كبساً ويحضنها حضناً. ولعل الاسم الإفرنجي

فرس الليل nightmare لأن ما تحلم به المرأة يأتيها خفيفاً كالفرس ويطاردها فلا تستطيع منه مهرباً. وكثيراً ما يكون هذا الوافد المزعج فرساً فعلاً، ولعل الفرس من دون سائر الحيوانات قد يتطرق إليه خيال المرأة بسبب فحولته وقوته الجنسية النهمة. وأما اسم الحضون فلأنهم قديماً كانوا يتصورنه شيطاناً مريداً من الذكور، به غُلمة ويختار النساء لإشباع غُلمته، فيزورهن ليلاً وهن نائمات، ويعانقهن مجامعاً، وقد يزورهن نهاراً، وهذا كابوس النهار ويسمونه لذلك فرس النهار daymare، ورَسَمَه الفنان الإيطالي فيوزيللي في أواخر القرن الثامن عشر بشع الوجه وشائه الجسم، وقد ربض على صدر امرأة شابة مستلقية على ظهرها ومستغرقة في النوم. وربما كان رسمه شائهاً لأن الرغبة الجنسية اللاشعورية لا يمكن أن تصورها إلا هذه الصورة الفطرية، من حيث إلحاحها اللامعقول وسطوتها الحيوانية.

وليست الكوابيس أحلاماً جنسية لأنه لا استمناء فيها، وليس فيها انتصاب. وليست كلها بدوافع نفسية، والشائع عند العامة أن أسبابها جسمية كالتُّخمة وامتلاء المعدة وما ينشأ عن ذلك من ضغط على الحجاب الحاجز وإعاقة للدورة الدموية إلى القلب والرئتين، حتى أن كاتباً مثل ستيفنسون كان يستحدث الكوابيس به استحداثاً ليحلم أحلاماً بشعة يجعلها موضوعات لقصصه، وكان يتناول لذلك أطعمة دسمة قبل النوم، يتخم منها وتثقل على معدته حتى ليشق عليه أن يتنفس.

ولربما تستحدث الكابوس منبهات خارجية، فقد تتعرّى القدم خلال النوم أثناء الشتاء فيحلم النائم أنه يغوص في بحر من الثلوج، وبعض الناس يوقدون في الشتاء مواقد في حجرات نومهم فيكثر بها ثاني أوكسيد الكربون ويقل الأوكسجين مع الاحتراق، ويستشعرون كأنهم يختنقون فتأتيهم الكوابيس انأهم يختنقون، وإن كانت المواضيع التي يدور عليها الاختناق هي مسائل أخرى صراعية، أو خوافات أو مشاعر ذنب لا شعورية يستبد بهم القلق المبهم بسببها وتظهر مع حالات التداعي الجسمية هذه،

بالإضافة إلى تدنّى الوعي في النوم، وكأن هناك من يخنقهم أو كأنهم محاصرون بنار تلظّى وقد أحاطت بهم ولم يعد لهم منها رجاء. والكابوس يكرر الخبرات الصادمة اليومية، فمن يُصدَم بسيارته وينجو بالكاد قد يرى في الليلة نفسها كابوساً بأن قنبلة قد انفجرت به، وأصل هذه القنبلة ربما كان انفجار إطار السيارة الذي تأدّى إلى الحادث الفظيع. وقد يرى الذي تُجرَى له عملية جراحية بعد تخديره كلياً، تكراراً لتجربة التخدير فيأتيه كابوس بأنه يسقط من حالق، ويكاد يصرخ ولا من صوت يخرج منه، بينما روحه تنسلّ من جسمه، وتنسحب انسحاباً. غير أن المنبهات الخارجية أو الحشوية ليس شرطاً أن تستحدث الكوابيس، فهذه المنبهات ما هي إلا علّة ترتكن عليها أسباب أخرى.

وكانوا قديماً يقولون إن الكوابيس أحلام جنسية تدفع إليها رغبات محمومة لا تجد لنفسها المنصرف ويستحثها أن ينام الحالم على ظهره، ولعل ذلك هو السبب في نصيحة البعض التزام النوم على الجنب الأيمن لنتجنب أن تأتينا الكوابيس.

وكان ابن سيرين يقول: الكابوس من الشيطان، والشياطين في التحليل النفسي رغبات مستعرة لا نرضى عنها أو لا نحب أن نظهرها ويرانا الآخرون عليها، أو قد تكون رغبات لا شعورية كبتناها في وقتها ونعاني منها، وتتسبب لنا في صراعات ومشاعر ذنب تضطرب منها نفوسنا، فلا نعرف كيف نفسرها وننسبها إلى عمل الشيطان. والشياطين بعد ذلك قد تكون مشاعر تلهبنا العداوات، وأن نبغض ونكره ونحقد، ولا تعجبنا هذه الميول فينا، ونستبشع ما يدور داخلنا، ولعل ذلك هو أصل فكرة القرين، وكأنه الأنا الآخر يتواجد داخلنا وننقسم بسببه إلى شخصين متعارضين، أحدهما يعمل علناً، والآخر يهمس ويوسوس لنا، وكأنما الشيطان الذي يستحث الكابوس هو هذا القرين الوسواس الخنّاس، وكأنما هو شيطان على الحقيقة بقدر ما يكون من المشاعر الشيطانية من داخلنا، والتي تتعلق بالخبرات اليومية الصادمة أو الحكايات المخيفة، وتظهر مرتبطة بها.

ومن رأي فرويد الذي يقول إن الأحلام صدى لرغبة، أن الرغبات اللاشعورية

تعنف أثناء النوم، وتتوجه لأن نعيها، غير أن ما قبل الشعور يقابلها في منتصف الطريق، ويحد من غلوائها، ويظهرها صوراً حلمية لا خطر فيها، ومن ثم لا تضطرب بها أحوال النائم فيستمر في النوم، برغم من أن هذه الرغبات قد تكون عدوانية أو جنسية لا يرضى عنها الأنا، ويخاف ظهورها ومغبة هذا الظهور، وقد يأتي الحلم بها من ثمّ حلماً مزعجاً، إلا أنه طالما أن إزعاجه محتمل فإن النائم يبقى نائماً، إلا في حالة الكابوس، فإن الإهاجة التي تبتعثها الرغبات اللاشعورية لا يفلح ما قبل الشعور في رصد حركتها والحدّ من غوائها، فلا يكون أمامه، لينقذ الأنا ويدفع عنه شرّها، إلا أن يوقظ الحالم من نومه.

ويقول فرويد إن كبت الرغبات اللاشعورية يسبب ألماً، والقمع الذي نوجّهه للمحتوى الفكري للرغبات اللاشعورية يمتد إلى الألم الذي يستحدثه كبتها، فإذا أخفق القمع إنطلقت الرغبات، وصاحبتها الحالة الوجدانية المؤلمة التي ترتبط بها، فيكون الكابوس مخيفاً ومؤلماً. ومن رأي فرويد أن الرغبات اللاشعورية، إذا أخفق قمعها، إنطلقت في مسارين، فإما أن تتجه إلى أعضاء الحركة فتُفرغ فيها تهييجها فتصاب من هذا التهييج بتلف تكون به الأعراض العُصابية، وهذا هو أصل العُصاب، وإما أنها تتجه إلى ما قبل الشعور، فيسيطر عليه محتواها الفكري، فتكون الهلاوس الحلمية التي لا يجد الأنا نجاة منها إلا بالاستيقاظ التام، ولهذا السبب فإن فرويد يجعل نظرية الكابوس من نظرية الأعصبة، ويؤثر أن يستبقي الخوض فيها ضمن الحديث عن الأعصبة وليس في نطاق تفسير الأحلام. وسنحاول أن نبني على ما يقوله، فطالما أن الأنا هو الذي يستشعر وطأة الكابوس، فلنلحقه بمتعلقات الأنا ضمن مختلف ما يتعرض له من أنواع الضغوط التي لها وطأة، سواء منها ما كان يصدر عن الضمير أو الأنا الأعلى، أو ما كان يأتي من اللاشعور، أو ما كان مصدره العالم الخارجي. والكابوس إذن عَرَض مرضى لقلق الأنا نتيجة وطأة اللاشعور كما قال فرويد، وربما نتيجة وطأة الأنا الأعلى أو الضمير، وربما أيضاً نتيجة وطأة العالم الخارجي.

فأمّا ضغوط اللاشعور فقد أفاض فيها فرويد، وأما وطأة العالم الخارجي فهو ما نعرفه باسم المنبهات الخارجية وما يتهدّد الأنا منها من أخطار، وأما وطأة الضمير فذلك ما نحن بصدده، فنقول إن من الكوابيس وهو الغالب فيها، ما هو نوع من العقاب يُنزله الأنا الأعلى بالأنا، وكأن الشخص يعاقب نفسه بنفسه على أن كانت له رغبات محرّمة أو محظورة، أو أنه فعل ما يتعارض والأخلاق. وقولنا إن الكابوس مظهر لقلق يصيب الأنا نتيجة وطأة الضمير أو الأنا الأعلى عليه، يجعلنا نصف هذا القلق بأنه قلق أخلاقي، وهو لا يكون بالأنا إلا إذا عانى من صراعات محتواها أخلاقي، ولقد أسهبنا في الحديث في باب كامل في الصراع الأخلاقي، والكابوس من نوعية الأحلام التي مدارها الصراع الأخلاقي، ونسميها أحلام العقاب، فعن أي شيء يعاقب الحالم نفسه؟ إنه يعاقب نفسه عن عدم التزامه بالأخلاق، وعن مخالفته لضميره وارتكابه أفعالاً محرمة أخلاقياً ودينياً، وربما يكون قد عصى أمه أو أباه، أو استشعر العداء لإخوته، أو زنا بامرأة جاره، أو سرق، أو حتى حدّثته نفسه بالسرقة أو بالزنا. والكابوس هو الثمن الذي يتقاضاه الأنا الأعلى منه عقاباً له على إثمه أو خطيئته أو جُرمه أو ذنبه، والكابوس من ثم يعطينا فكرة عن الحالم من حيث ما يراه حلالاً أو حراماً، وما يعتبره من الأخلاق أو ضدها، ويعكس تصوره للجزاء والعقاب، ويحلل شخصية الحالم فنعرف إتجاهاته وميوله ورغباته وصراعاته، وعلاقاته بالناس، وطريقته في الدوران والالتفاف حول ضميره والعرف الأخلاقي ليحقّق لنفسه، ما يرغب ويريد، دون أن يصادم المجتمع أو ذاته العليا، ولربما يرتكب ما يرتكب خفية دون حساب للرقيب من داخله، فيكون عذابه من بعد بمشاعر الذنب التي تؤرقه، بأن يستحضرها أشباحاً وغيلاناً ولصوصاً ومجرمين يهبّ بسببهم مذعوراً من نومه خوفاً ورعباً، وهذا هو العقاب الذاتي، وكم كان هذا العقاب مؤلماً أشد الألم عند ماكبث والسيدة ماكبث في مسرحية شكسبير الخالدة!

مثال:

كابوس فرويد: رأى أمه التي يحبها

نائمة في وداعة غريبة، وقد حملها شخصيان أو ربما ثلاثة لهم مناقير كمناقير الطير، وأرقدوها على فراش، فاستيقظ من نومه مذعوراً وباكياً، وكان في نحو السابعة، وبذلك أيقظ والديه.

التفسير: كان فرويد قد سمع كلاماً جنسياً من ابن البواب مما يستخدمه العامة للدلالة على الأعضاء الجنسية، وهو ما يفسر أن للأشخاص مناقير الطيور، وكثيراً ما نصف القضيب أو نطلق عليه إسم الحمامة أو البلبل إلخ، ونقول عن الفرج الكتكوت إلخ. وفرويد رأى جده لأمه عندما مات، وكان يرقد هذه الرقدة الوادعة، ورأى أمه في حالات كهذه مع أبيه، وقرن بين الحالتين وكلام ابن البواب، وكثيراً ما يحسب الأطفال أن الأب يؤذي الأم وهو يضاجعها، وقد يحسب أمه انتابها شيء أو ماتت بعد أن يسمع ما بينها وبين أبيه من أصوات خلال الجماع. والأشخاص الثلاثة رأى مثلهم يتعهدون جدّه بعد موته، ومناقيرهم تذكّر بالموت أيضاً بما نقرأ عن آلهة الموت عند المصريين مثلاً وتصورهم الآثار المصرية بمناقير.

والكابوس ربما يعاقبه على سماعه كلام ابن البواب المعيب، وربما يصور شعوره بالذنب لتبصصه على أبويه، أو تنصته عليهم، والتبصص عندما لا يكون مرضاً Voyeurism يستولد مشاعر ذنب، ويكون حب الاستطلاع قوياً وملحاً عن الأطفال وخاصة ما كان يتعلق بالجنس بين الأبوين، وقد تلاحقه مشاعر الذنب التي تعقب تجارب صادمة كهذه بقية حياتهم. ومن المصطلحات المألوفة في التحليل النفسي مصطلح المشهد الأول Primal scene، وهو المشهد الذي يراه الطفل لأول مرة ويعاين فيه الأبوين بالنظر أو بالسمع يتضاجعان، أو الذي يتّجه إليه خياله في فترة من حياته بتنبيه من أقرانه، فيحسب ما يتخيله واقعاً، وقد تثيره هذه الخيالات وتستغرقه ويكون لها وقع الخبرة الصادمة، فتنعكس على أحلامه في شكل كوابيس كهذه:

كابوس ٢: كنت أطهو، ورفعت غطاء الحلة فوجدت رأس طفل، وكان يبكي، ففزعت واستيقظت.

التفسير: الحالمة متزوجة من رجل لا تحبه، وتكثر لذلك الخلافات بينهما

وتبينت أنها حامل، وتحركت فيها الأمومة بشدة، وكان معنى أن يكون لها طفل من زوجها أن ترضى بواقعها معه، وهي غير راضية فاتفقت مع صديقة لها، زوجها طبيب، أن يجهضها. وظلت أياماً تصارع الفكرة. وأخيراً نفّذتها، إلا أنها بعدها ظلت مضطربة أياماً تخاف أن يعرف زوجها وأهلها وتسأل المهتمين بالدين إن كان الإجهاض حراماً، وهو ما يفسر الطهو، أي تدبيرها لفعلتها الشنعاء، ورؤيتها لرأس الطفل الباكي وفزعها من النتيجة.

كابوس ٣: حلمت أني في دور علوي بعيدة عن الأرض، وكنت أشاهد المدينة والوقت قرب الغروب، وأدلف الليل فلم أتبينه، وفجأة رأيت شبحاً يتسلل نحوي، وهجم عليّ، وكنت كالمشلولة، وكان يحمل سكيناً، فأردت أن أصرخ ولكنه عاجلني بضربة في فمي أسالت منه الدم وأغشتني رغم أني كنت أدرك ما حولي، ورأيتني أسقط من حالق، والمسافة تطول بين المكان العالي والأرض، وأنا أجاهد أن لا أقع، واستيقظت.

التفسير: الحالمة فتاة جامعية تحب ابن الجيران الذي رفضه أهلها، وتقابله خلسة في حجرة مظلمة في غرفة فوق سطح منزلها الذي يجاور سطح منزل الجار. وكانا في لقاءاتهما يسمران معاً، ولكنهما قبل ليلة الكابوس تماديا، ولأول مرة تحسّ بأحساسيس غريبة أفزعتها، وقد حاولت أن تتملص من فتاها لكنه أمسك بها، وقاومته دون جدوى، وبكت كثيراً وقالت إنه اغتصبها، وإنه كان شيئاً فظيعاً وحشياً، وأدركت أنها سقطت سقطة شنعاء. ورموز الاعتداء الجنسي واضحة، وهي السكين رمز القطيب، والفم رمز الفرج، والدم المسال عليه، والغشية التي انتابتها، وسقوطها من حالق، واستمرارها تشعر أنها تسقط، وكلها أوصاف لحالتها حينئذ، وحتى الآن، وهو ما استحث الكابوس.

كابوس ٤: أركب سيارة صديقي المتهور الذي لا يحسن القيادة وتهولني سرعته ورعونته، فأحاول أن أضع قدمي على الفرامل لأوقف السيارة، وأدوس على الفرامل وبكل قوتي والسيارة مندفعة، وأنا أكاد أجن، فاستيقظت والعرق قد شملني.

التفسير: الحالم ميوله العدوانية

شديدة، وهو يعرف ذلك ويحاول دائماً أن لا يستثيره أحد، وفي اليوم السابق دار نقاش بينه وبين رئيسه، وكان يعتقد أنه على حق، ويحاول مع ذلك أن يخفف من غضبه، إلا أن الآخر استثاره بجهله وقلة أدبه، فهاج عليه، وكان يعرف أنه مخطئ إذ يثور كل هذه الثورة، ويحاول أن يضغط بقدميه على الأرض ليخفف من غلوائه دون فائدة، وقد ظل متكدراً طول اليوم يلوم نفسه ساخطاً عليها بسبب طبيعته هذه الغضوبة، والكابوس على ذلك يعكس صراعاته العدوانية.

كابوس ٥: كنت أنام في حجرة عندما انطفأت الأنوار فجأة، وشعرت أن شيئاً رهيباً لا بد أن يحدث، عندما أحسست بملاءة تلقى على وجهي، ولم أستطع أن أحرك يدي لأرفعها وكانت تحول بيني وأن أتنفس، وشعرت أني أختنق، وقاومت وأنا أحس بالعجز والموت يحتويني.

التفسير: تذكر الحالم خبرة صادمة له إستدعاها الكابوس، وكان وقتها في الخامسة من عمره، يشكو التهاب اللوزتين، وأخذه والداه إلى طبيب، وانتظروا بغرفة الانتظار، وطال انتظارهم، وأخيراً فُتِح باب وخرجت منه نقالة تحمل طفلاً فاقد الوعي، والطبيب إلى جواره، تلطخ معطفه بالدم، وخاف وران عليه الصمت، ثم التفت الطبيب إليهما، وأشار برأسه فحمله أبوه وتبعته أمه إلى حجرة داخلية، وأرقده على طاولة وأمسك بيديه، بينما الأم أمسكته من قدميه، وهو صامت مصفر الوجه، مشدوه العينين، ووضع الطبيب شيئاً فوق وجهه، واستنشق رائحة يختنق منها، ولم يستطع أن يصرخ، وتاه وعيه، ثم لم يعد يسمع أو يرى شيئاً. ولما تذكر الحادثة قال: لم أنسَ أبداً الرائحة والشيء الذي غطّى وجهي. وقال بحقد هائل: «تذكرتُ الآن! لهذا كنت أكره أن أزور مريضاً أو أي شخص يعمل عملية! كرهت المرض كرهاً شديداً». والكابوس يعكس مخاوفه القديمة، والغضب الذي اختزنه على من قيّدوا يديه وقدميه وكاد يموت بين أيديهم مختنقاً، وقد تسبّب له ذلك أن صار عدوانياً من وقتها، وكره أهله والناس حتى اعتزلهم، وكره نفسه لأنه لم يكن يعرف سبباً لكل هذا الدمار من داخله.

كابوس ٦: كنت راقداً وهناك صوت

قريب تك تك، وتبينت أنه صنبور الماء، شخص تركه دون أن يُحكم إغلاقه، وأحاول أن لا أسمع الصوت، ولكنه مستمر ويعلو حتى كأنه طبلة تدق، وشعرت أني عاجز عن الاحتمال واني أدوخ، ولم أقوَ على النهوض وسقطت وأنا أصرخ.

التفسير: الحالم يعاني من العادة السرية، وهو يصارع نفسه ألا يمارسها ولكنه لا يستطيع، والصنبور رمز جنسي، والماء المنساب منه، هو المني، ويكاد يجن أنه كلما قرّر ألا يفعل ذلك يعود حتى استحال شبحاً وضعف، وصار لا يقوى على الاستمرار واقفاً لمدة طويلة كأنه أصيب من جراء إدمانه العادة السرية بالنهك الشديد، والكابوس يعكس مخاوفه وصراعاته.

الباب الثاني والعشرون
«أحلام الشباب والصراع من أجل الحرية والاستقلال»

قضية الإنسان الأولى هي أن يختار في حرية، وهو في طفولته عليه أن يختار بين هذا الأب أو تلك الأم، وأن يتعين بأيهما، وأن يتنكب طريق الآخر، وأن يأخذ من أيهما ما ينفع نموه وتطوره نحو الرجولة أو الأنوثة، فيكون له دور الذكر أو دور الأنثى، فيسلك السلوك المناسب ويتطبع التطبع المرسوم. وهو في الشباب يعيش في همّ مقيم، أيظل يساكن الأبوين أو يخرج إلى الحياة العريضة يجرّب حظه ويحيا حياته ويكون له استقلاله، ويختار في حرية وظيفته، وفتاته التي يصنع معها أسرته، ويعني ذلك أن يحتمل المسؤوليات ويضطلع وحده بالمهام الثقال، ويعتمد على نفسه في الكسب. وهو قد ظل حتى الآن إذا احتاج المال أعطاه أبوه، وإذا ادلهمت ظروفه وجد في حنان الأم ورعاية الأب ما يعوضه عن أي ظلم، ويغنيه عن الناس، وأبوه يتكفل بتعليمه وتطبيبه، وإطعامه وكسوته، وهو المسؤول عن حمايته، وكانت أمه حتى وقت قريب تغذيه لبن صدرها وتعطيه معه الحدب والحب، وتدفع عنه غائلة المرض. أفيترك هذا كله ويخرج إلى الحياة يشق طريقه هو بنفسه دون سند ولا معين هذه المرة إلا من قوته وشخصيته وكفاءته ومؤهلاته؟ هذه هي القضية في السن نحو العشرين: هل يختار الشاب النضوج والحرية والاستقلال، أم يؤثر السلامة ويبقى تابعاً للأبوين حيث الأمن والزمان، والعَوَل الذي ليس فيه كد ولا تعب ولا إعمال فكر ولا نَصَب. وقد يعزم الشاب ويحسم أمره ويشد رحاله يقصد أن يختار لنفسه وأن تكون له حياته، فيتعثر حظه وتصيبه من عراك الحياة أدران، فيعود أدراجه يحتمي بالأبوين ويقنع أن يفكرا له ويجهدا من أجله. وقد يوغل في الترحال بعيداً عن بيت الأسرة، أو يلزمه لا يبارحه، وقد تتوطد صلته بأمّه أو يرضى أن يكون تابعاً لأبيه، وأياً كان الطريق الذي يختار فهو دائماً مهموم، فلا هو يرتاح إذا استقل، ولا هو يستشعر الرضا إذا ألحق إرادته بإرادة الأبوين. والفلاسفة يقولون إن

الهمّ الذي يلازم الإنسان أنه إبن أبويه، فطفولة الإنسان هي أطول طفولة لكائن حي، وما من كائن في الوجود يعيش طفولة تستمر لعشرين أو ثلاثين سنة، ويكون فيها مُلَبّى الحاجات، ومحمياً من كل الأخطار، وقد يعهد إليه الأبوان ببعض المهام يكون مسؤولاً عنها، ولكنها المسؤولية في إطار الأسرة ومن خلالها، والحرية التي يمارسها حرية محدودة في كفالة الأب، وهي تدريب بسيط يدخله لعله يكتسب منه الاعتماد على نفسه وأن يقوم بمرداها، ولكن يأتي السن التي لا يطيق الشاب فيها أن يفكر له غيره، وأن يحتمل عنه همومه، ويريد أن يستشعر أنه قد صار رجلاً أو امرأة، وبلغ مبلغ أيهما، وبوسعه أن يتخذ القرارات، فإذا بدأ الطريق فقد يصاب بالإحباط، وقد يذهله الفشل، وقد تلحق نفسه المرارة، فإن كان في بلد بعيد سارع إلى التحدّث مع أبويه عبر الهاتف دون أن يدري السبب لذلك، أو قد يقطع تذكرة حافلة أو قطار، أو حتى طائرة، بحجة زيارتهما، ولكن ما يحدوه حقيقة غير ذلك، فهو في فشله، أو مع ما ناله من إحباط، قد افتقد الأمن العائلي. وهو في قلق مع أبويه، وفي قلق لو غاب عنهما. وفي المراهقة يكون هذا الصراع شديداً، وهذه المراوحة بين أن تكون له حياته واستقلاله وحريته وأن يعيش في وجْد وهمّ، أو يكون تابعاً يقضي الأبوان له حاجاته ويكفلان له الحماية بلا مسؤولية ولا حرية ولا استقلال. ومن الغريب أنه قد يبقى في حماية الأبوين ويتهمهما بأنهما يستبقيانه إلى جوارهما، وإذا استقل بنفسه فقد يلح في طلب عونهما ويسأل المزيد من المال! ومع أنه ينشد الاستقلال عن الأبوين فإنه يرضى أن لا تكون له مع أقرانه إرادة، ويدمجها في إرادتهم. وقد يطلب لنفسه الحرية إذا تعلّق الأمر بأبويه مع أن ما يطلبه ربما كان التحلّل من كل ارتباط اجتماعي قد يكون فيه تكلفة عليه. وقد تعني الحرية التي ينشدها الإباحية أو الفوضوية، حتى ليتهمه المجتمع بالجُناح. وقد يصر أن يحترم الكبار رأيه ويقدرون أفكاره، مع أنه هو نفسه لا يحترم أحداً، ولا يولي كبار عائلته ولو عُشر الولاء الذي يربطه بأصحابه، وكل ذلك من أعراض صراعات هذه السن بين أن ينضج الشاب

أو لا ينضج، وبين أن يستقل بحياته، أو لا يستقل. وقد تجد الشاب أو الشابة يتزوج زواجاً متسرعاً به أشواق الاستقلال، ولا تمضي الشهور إلا ويعود أيهما إلى أسرته عودة التائب ينشد العون والحماية. ونلمس ذلك كثيراً عند البنات، وقد تتعلل البنت بمختلف العلل تعود بسببها إلى صدر أمها، وبيت العائلة، حيث لم تعتد العمل ولا المسؤولية. والبنات أكثر تعرّضاً للإصابة بالقلق من جرّاء هذا الصراع. وربما كان السبب في طبيعة البنات نفسها، وربما كان بتأثير التربية والثقافة، والناس طبائع وأولاد التربية، وصراعاتهم في مرحلة الشباب كصراعاتهم في أي من مراحل العمر تعكسها الأحلام، ويعرض كل حلم حلاً فتتنوع الحلول بتنوع الأحلام وحالات أصحابها. وهذا الحلم لفتاة عُقد قرانها ولم تدخل على عريسها بعد وتنوي أن تسافر معه إلى موسكو في بعثة دراسية، وقد حلمت حلمها ذاك قبل السفر مباشرة:

– حلمت أني بفستان الفرح في المطار، وكانت أمي وأبي وإخوتي هناك. والجميع يزغردون، حتى المسافرون، ولكني كنت مهمومة وأنظر إلى أهلي حزينة، وكنت أريد أن أبكي، وكانت أمي كذلك وإخوتي. وكنت أتطلع إلى هذا الرجل الذي يأخذني منهم. ولم أكن أعرفه. كان غريباً مع أنه لم يكن كذلك، لكني كنت أشعر أنه غريب، ومددت يدي إلى أمي لتشدني إليها فلا أسافر، لكن زوجي تناولها، واحتضنني، ونادت المضيفة أن نصعد الطائرة، فدفعني زوجي برفق في اتجاه السلم ملوحاً لأهلي. وشعرت أني سيغمى عليّ، وأمسكت بدرابزين السلم أحاول أن لا أقع، وأكملت الصعود ودخلت. يا لها من تجربة.

والتفسير: الحلم تصوير صريح ومباشر للمشكلة، حيث الحالمة تريد أن تسافر مع زوجها، وتأمل أن تبقى مع أمها واخواتها، وهذا يرمز للمستقبل، وهؤلاء يرمزون للماضي، وكانت تعيش معهم في أمان بينما الزوج تتصوره غريباً لا تعرفه مع أنها هي نفسها تعلّق على ذلك بأنه لم يكن كذلك، ومعنى هذا أنها ما تزال غير مطمئنة أن تكون حياتها معه مثلما كانت عند أهلها، إلا أنها أخيراً تقرّر أن تكون

لها حياتها الجديدة المستقلة وتركب الطائرة.

وهذه الحيرة أو التردّد بين الماضي والمستقبل تكون دائماً عند الفتيات بين أن تختار الزوج أو أهلها، بينما لا نلاحظ ذلك عند الشبان، فالمشكلة عندهم ليست مشكلة أن يتزوج الشاب أو أن يبقى مع أبويه، وإنما المشكلة هي أن تكون له حياته الخاصة، ويمارس نفسه في حرية أكبر، برغم أن ذلك يقتضيه أن يعمل ويجهد، وكان في بيت أبيه مكرماً وله مصروفه الخاص ولا يتحمل أية تكاليف، كهذا الحلم:

- كان الوقت ليلاً وأنا واقف في الشارع. وكنت حزيناً، وربما كنت مسافراً. وغير بعيد على الرصيف المقابل كان بيتنا. كان البناء كأنما لونه أخضر مع أنه ليس كذلك، وكانت بالنوافذ ستائر، وبيتنا ليست به ستائر. وكنت كأنما أنا طويل جداً وأستطيع أن أنظر من النوافذ. كانت أمي هناك كأنما هي فتاة شابة، وأبي كذلك، كان صورة مني. وكانت هناك دراجة سألت أمي عنها فقالت دراجة «علي». وكأنما قلت لها متى يحضر، قالت لا أدري، تأخر قليلاً، وعندما استيقظت من الحلم شدهت لأني أنا «علي» وكنت أسألها عن نفسي:

التفسير: الصراع الذي يعاني منه الحالم يدفعه إلى أن يسأل أمه متى يعود إبنها «علي» الذي عرفته هي صغيراً يركب الدراجة، إلا أنه يبدو أنه لن يعود فقد حسم الأمر برغم الذكريات الحلوة عن الطفولة والبيت السعيد الذي ما تزال الأم فيه كما كانت عندما كان الحالم صبياً، وكذلك الأب، والخضرة في لون البيت، تضفيها نفس الحالم على البيت الذي تصوره كأنما هو جنة بها كل شيء. وما عاد كل ذلك مجدياً لأنه مسافر برغم كل شيء.

والبنات لا يتركن البيت لأنهم يتزوجن فقط، فقد تترك البنت البيت سعياً وراء رزقها. والحلم التالي لفتاة تسكن الأرياف، وتحصل على تقدير جيد جداً في الحقوق، وتعيّن بالجامعة. وهي مسافرة وتحتفل مع زميلاتها من البلدة نفسها واللاتي يسافرن معها أيضاً في رحلة عمل إلى القاهرة:

- كنت مع زميلاتي في بيتنا ونحن

سعداء. كنا نضحك ونرشف القهوة، وكانت زينب تدخن، وأغلقنا الباب علينا حتى لا يراها أبي، وقالت: زينب لن نحتاج أن نغلق الأبواب في القاهرة، وقالت فاطمة: لماذا لا نسكن كلنا مع بعض، وجعلنا نرتب مَن، تنام مع من، لكن أبي دخل لا ندري من أين. وقال لنا فجأة: والزواج؟ باكر يكون زواجكن جميعاً، وتركنا وخرج ونحن في غاية النكد.

التفسير: الحالمة تعطي نفسها العذر أنها ستترك أسرتها بأن تجعل حلم السفر يشملها وصاحباتها، والسفر يعني التحرر تمثله زينب التي تدخن، ولن تحتاج في القاهرة أن تغلق الباب، وفيها يستطعن إذا سافرن أن تكون لهن الحرية الكاملة، ولن يحتجن أن ينمن من بعد مع الأخوات بل مع الزميلات، فالحرية تعني نهاية الأخوّة وبداية الزمالة. لكن برغم كل ذلك فإن الحالمة مشدودة إلى أسرتها ولا تريد أن تسافر، بدعوى أن أباها يريد تزويجها، أو بدعوى أنه أحرى بها أن تتزوج في بلدها وتقيم في المكان الذي تقيم فيه أسرتها، والمراوحة بين الاتجاهين تنغّص عليها حياتها، وما تشهده في الحلم هو النكد الذي هي فيه لأن عليها أن تفكر في الحلّين دون نتيجة.

وتحلم الحالمة السابقة نفسها حلماً آخر ربما كان فيه الحلّ لمشكلتها:

- كان الوقت ليلاً، أركب القطار، وجاء الكمساري وطلب التذكرة فأعطيته بطاقة، قال: ما هذه، قلت: إثبات أني أعمل، قال: أريد تذكرة، قلت: هي التذكرة، وأخذ البطاقة وعلّم عليها. وقلت له: سأشكوك للمدير عندما أصل إلى بيتنا، ألا ترى أني متعبة؟

ويبدو أن الحالمة قد وجدت الحل لمشكلتها بأن تسافر يومياً إلى عملها الجديد وتعود إلى أهلها في المساء، ويبدو أن الكمساري أبوها، وأنه يعاتبها على السفر، وهي تبرّر سفرها بأنها تعمل وتحتج بالعمل، فالعمل مبرّر لكل شيء، والعمل لا يتعبها وإنما يتعبها النقاش في العمل عندما تكون مع الأب في البيت، وهو الكمساري الذي يسمح لها بالسفر وبالعمل، ومع ذلك يناقشها رغم تعبها أو أنها تعبة من مناقشاته.

والحالمة السابقة تحلم أيضاً بهذا الحلم لها عن السفر أيضاً:

- كنت كأنما عدت تلميذة أحمل كتبي، وكنت أقف على محطة القطار وأرى بيتنا بعيداً، وأرى فيه إخوتي وأمي وأبي. وجاء القطار والدنيا زحمة فجأة، وكنت أسير وئيدة حتى أزاحم الناس، ودقّ الجرس، وكان عليّ أن أشق طريقي لأصل للقطار، ولكني لم أستطع تحريك قدميّ ولا يديّ. كنت عاجزة تماماً والقطار يتحرك وأنا أبكي لأني لم ألحقه ولكن بكائي كان بلا دموع.

التفسير: الحالمة في الحلم تشدّها ذكريات التلمذة وحياتها مع أهلها، وتريد أن تترك كل شيء خلفها، لأنها تريد أن تكون نفسها وتعيش حياتها، إلا أنها لا تلحق القطار، ولا تبكي عليه بكاءً حقيقياً، لأنها في دخيلة نفسها هي سبب أنها لم تلحقه، فلم تكن تريد أن تركبه، وكانت تريد البقاء مع أهلها.

وأحلام الزفاف يكثر فيها عرض هذا الصراع بين الماضي والمستقبل، وأن تكون البنت مع أهلها أو تتركهم إلى حياتها الجديدة:

- حلمت أني بثوب الفرح، وهناك زحام، وكنا على محطة أوتوبيس وعيوننا معلقة بكل سيارة قادمة. كنا في انتظار أحد. وسألتهم: من ننتظر؟ فقالوا: العريس لن يحضر، وبسرعة خلعت ثوبي وضحكت أنا وصاحباتي.

وهذا حلم آخر للحالمة نفسها:

- كنت أجلس أنا وخطيبي في الصالون، وقال لي: تعرفي أن اليوم زفافنا؟ قلت: أعرف، ولكنا لن نذهب، ووافقني وجلسنا وكأن الأمر لا يعنينا.

وعادة إذا حلمت البنت بالفرح فالعريس في الحلم شخص لا تعرفه، وذلك لأن كونه رجلاً غريباً مبرر كافٍ لتأجيل الفرح أو إلغائه، ويعني ذلك أن الحالمة لا تستسيغ فكرة أن تتزوج وترحل عن بيت الأسرة وتجرّب حياة جديدة. وعلى العكس عندما يحلم الفتيان بالزواج، فالعروس فتاة معروفة للعريس بالاسم، ويحبها وتحبه، ولا شيء يحول دون إتمام الزواج. والفتيان لا يخشون الزواج كالفتيات، وتجربة الزواج على العكس مفرحة، بينما هي للفتيات تجربة مجهولة، وكل مجهول نخافه، وهي تجربة محفوفة بالمخاطر، واحتمالات فشلها كبيرة، وتعني فراق

الأهل، بينما لا يعني الزواج للولد أنه يفارق أهله.

وأحلام الفراق تأتي متنوعة، فربما يقع الحلم في صحراء، وقد يرى الحالم أنه قد ضلّ الطريق، أو قد يرى أنه في زورق في بحر لجيّ، أو أنه ضلّ الميناء وصار في عَرْض البحر، أو أنه في قارب قد فَقَد المجدافين، أو أن الدفّة قد انكسرت، أو أن القلوع انقلبت، أو أنه في سيارة قد فرقعت إطاراتها.

وأحلام الوحدة تصوير لأزمة الحالم وصراعاته، وتكثر عند الفتيان، وقد يعبّر الحلم عن قلق الانفصال عن الأهل، بأن يرى الحالم نفسه يسير في طريق مهجور ويهاجمه لص أو حيوان مفترس، أو يسمع أصواتاً مخيفة، فينادي على أبيه أو أخيه أو أمه بحسب علاقته بهم، ويصرخ عليهم، وقد ينقلب الحلم كابوساً.

وهذا الحلم لفتاة ترى في بيتها ملجأ لها من مخاطر الدنيا:

- كنت أركب الأوتوبيس وخلفي مباشرة كان يقف رجل غريب الأطوار، وكان يحاول الإمساك بي، وكنت أهرب منه وهو خلفي. وطلبت من السائق أن يسرع، وقال: أخيراً وصلت. ونظرتُ. هذا بيتنا. وعندئذ تلاشى الرجل الغريب.

والحلم واضح أنه يعكس رغبات جنسية للحالمة تخاف منها وتجد أنها بمنجاة من الضلال طالما كانت ببيتها أو إذا عادت إليه. والبيت هنا أو الأسرة هي صمام الأمان للحالمة أن تضل.

وأحياناً يكون حلّ الصراع بين الأمن الذي نستشعره في البيت مع الأسرة والحرية التي نتمناها لأنفسنا، هو أن نرحل طلباً للتغيير ولكن مع الأسرة، وبهذه الطريقة نحقق الرغبتين: أن نعيش كما نهوى، وأن يرافقنا الأهل فلا ننفصل عنهم. وحتى ذلك الحل قد لا يعجب الشباب، فقد تصور الأحلام الحالم أو الحالمة يقوم برحلة مع أبويه لكنه لا يكون سعيداً وهو معهما، كهذا الحلم:

- حلمت أني في زيارة للإسكندرية، وكنا الأسرة كلها، وكنت مقطبة طول الوقت أدير ظهري لأمي، ولا أرى البحر ولا أشعر بشيء، فقررت أن أعود أدراجي إلى بيتنا. وركبت الأوتوبيس وأمي تسألني إلى أين، فقلت لها: ذاهبة لأنام.

وقد يصور الحلم الفتى أو الفتاة يركب

القطار الخطأ أو لا يستطيع العودة، ويجد عنتاً في السفر:

- كنت في المحطة وقالوا لا تذاكر إلا في السوق السوداء. وكان الزحام، وتزاحمت حتى اشتريت تذكرة، وذهبت لأركب القطار فلم أستدل عليه، وأخيراً عرفته عندما وجدت زوج أختي في النافذة، فركبت وتحرّك القطار، ولكن أحدهم قال إنه ذاهب إلى مكان آخر خلاف مدينتي.

ومعوّقات السفر في الحلم دليل الرغبة أن لا يتم السفر. والحالمة تعثر على زوج أختها في النافذة فتقول إن ذلك يعني أن القطار قطارها وهو خطأ، لأن كون زوج أختها في القطار يعني أن القطار ليس ذاهباً إلى الأهل ولكن إلى غير ذلك وهو ما ثبت فعلاً، فطريق الزواج لا يلتقي غالباً والطريق إلى الأهل.

وقد يجرّب الحالم حظّه من الدنيا، ويعود في النهاية إلى بلده وأهله حيث الطمأنينة:

- كنت أركب القطار وكان بلا نوافذ، والدخان قد جعل كل المسافرين لونهم أسود. ووصلنا فقالوا انزلوا ونزلت، وكانت المحطة قفراً فلا شجر ولا بيوت ولا ناس، ونظرت حولي وخفت، وأسرعت إلى شباك التذاكر وقطعت تذكرة بسرعة لأعود، ووجدت كرسياً مع أناس يضحكون وكنت سعيدة بهم.

وفي الشطر الأول من الحلم حيث الرحيل لا شيء يسر الحالم، وحتى محطة الوصول مقبضة، وفي الشطر الثاني يكون العود أحمد.

وقد يكون صراع الأمن أو الاستقلال بسبب رغبة الحالم أن يتحسن وضعه الاجتماعي فتتحسن بالتالي ظروف معيشته وسكنه، وقد يشعر أنه مع أهله محدود الأفق ضيق التفكير، فإذا خرج إلى العالم فقد يجد أناساً أفضل وأنماطاً من العيش مختلفة تماماً ترضي طموحه، ويتمثل ذلك في الحلم التالي الذي يرى الحالم فيه نفسه في بيت أوسع وأرحب، ومع ذلك فالبيت هو بيت أهله وكأنه بذلك يحل الصراع فيجمع في هذه الفيلا التي يتضمنها الحلم آماله وأهله معاً.

- كنت في بيت كبير أبيض وله سلالم رخام بيضاء، وكل حجرة مختلفة عن الثانية، إلا أنها جميعاً بيضاء، والعفش

حديث أبيض. وكان كل شيء جميلاً. وكان هناك تلفزيون وتليفون وثلاجة وفيديو والجميع باللون الأبيض، وعلى الحوائط كانت صور أبي وأمي وإخوتي. وكانوا ينظرون ويبتسمون في الصور.

وفي حلم آخر يقارن الحالم بين البيتين القديم والجديد، أي بيته في الواقع وبيته المُرتجى، ويفضل الجديد على القديم:

- كنت أتطلع في مجلة ملونة، وكان الموضوع عن المساكن القديمة والأحياء التاريخية، ووجوب هدمها لتحل محلها بيوت وعمارات حديثة. وكنت أقرأ وأتأمل وأشحت بوجهي عن البيت القديم. ورأيت في نافذة أحد زملائي كنت أتشاجر معه أيام التلمذة. ونظرتُ إلى البيت الجديد الذي أعجبني فيه اتساعه، ورأيت أني فيه وإخوتي وأبويّ، وأنا ألعب البلياردو.

وهذا الصراع الذي يميّز أحلام الشباب يكشف عن ميولهم في التحرر، وأن تكون لهم حياتهم المستقلة، إلا أنهم مع ذلك ما تزال بهم الطفولة، وما يزال الحنين إلى الأهل يشدهم ويعوق حركتهم، وقد ينجح في التخلص من حبال القرابة قد يلقي حباله إلى آخرين يكوّن بهم أهلاً جدداً وبيتاً غير البيت القديم، إلا أن الحنين قد يعاوده فيرى الحلم تلو الحلم أنه يعود، لكن السيارة تتعطل أو الطائرة لا تطير في الميعاد. وتكون الأعذار المختلفة عن إتمام السفر في رحلة العودة إلى الماضي، أو الرحلة إلى المستقبل والاستقلال. والأحلام تكشف كل هذه الاتجاهات والميول والعلاقات بالأبوين والإخوة، ونوع ذكريات الماضي، واستشرافات المستقبل. والأحلام دائماً تشخيصية، تحلل الشخصية ونعرف منها دينامياتها.

الباب الثالث والعشرون
«أحلام الشيوخ وصراع الحياة والموت»

يعي الإنسان أنه مقدور عليه الموت، ويدرك أنه ينضج للموت، كالثمرة تمام نضجها يعني سقوطها، أو قطافها، إلا أنه كثيراً ما ينسى أنه مائت، وعندما يموت له عزيز يحزن مرتين، مرّة لأن هذا العزيز لم يعد له وجود، ومرّة لأن قارع الموت يفاجئه بوجوده بعد أن كان قد نسيه، ويفرح مرّة واحدة لأن الموت أدرك غيره وتركه لدور آخر لم يحن بعد. ونحن في شبابنا لا نحسب أي حساب للموت، وعندما نطعن في السن ويلح المرض ويعاودنا باستمرار، وينتابنا الضعف، ويضيع منا العزم، نضطر أن نعترف بحقيقة الموت وقُربه الوشيك، ولكننا لا نستسلم أبداً. وطالما أن الحياة تدب فينا فنحن نجاهد أن ننفض عنا الموت، بأن نناضل لأن نبقى، وتنتصر فينا الحياة على الموت، وحتى ونحن نموت نخطط للحياة، فنوصي من أجل أن يعيش الآخرون، وأن تتأكد بهم الحياة. وهذا الصراع من أجل الحياة يطبع الإنسان، وهو طابع حياته في الشيخوخة خصوصاً، وهو الصراع الذي يعلو على كل الصراعات الأخرى في هذه السن. وكان صراع الحياة والموت قائماً منذ اللحظة الأولى للميلاد، ولكن الحياة فيه كانت الغالبة في الطفولة، فلما جاءت الثلاثون تعادلت كفّتا الحياة والموت، فلما صارت الأربعون غلبت كفّة الموت على كفّة الحياة، ثم تُرجح كفّة الموت بعد الخمسين، وبعد الستين يمثُل الموت ويكون في خواطرنا، ويكثر ذِكرُه على ألسنتنا، فإذا كانت السبعون وجدَنا الموتُ قابعين في انتظاره كأننا على موعد معه. والموت يخترمنا ويشملنا التفكير فيه من بعد سن السبعين. وصراع الحياة والموت لا يُفصح عن نفسه، في كل ما سبق، ولا يكون ظاهراً جلياً أثره في سلوكنا وتصرفاتنا، ولكنه دائماً هناك يعمل عمله في أعماقنا، دون أن نشعر به، ومن غير أن يدركه فينا الآخرون، فإذا تحصّل لنا النوم فإن الوعي الظاهر في العقل يُظلم دون الأعماق فتخرج الأفكار

في الأحلام، فإذا أردنا أن نتأمل صراع الحياة والموت فعلينا أن نرتاد أحلام الشيوخ.

وما نقدمه هنا زُملة أحلام لشخص قد طعن به السن فخرج من عمله على المعاش، وكان قد شغل منصباً له وزنه، وهو ما يزال عضواً بنادٍ اجتماعي معروف، ويمارس الرياضة، وكان يحب الصيد وتحصّل على جوائز فيه، وهو يعلق في بيته بعض الأسماك النادرة المحنّطة التي استطاع أن يصيدها، وصوراً له مع أكابر الموظفين ورموز المجتمع المشهورين، وعرف النساء وكانت له جولات معهن، وتقلبت به ظروف الحياة، وكانت حياته دائماً مفعمة بالحركة، غنية بالأفكار والمشاعر، والآن وقد أوغل في العمر ولم يعد الشاب الذي كان فهل يقنع بما كان، ويتخلّف عن الركب، ويترك كل شيء ويستكين؟ أبداً فما دامت شُعلة الحياة تضيء فيه فهو لن يطفئها، وسيحاول باستمرار أن يزيد إضاءتها ويشعلها أكثر كما في أحلامه هذه:

- رأيت نفسي مع فتاة جميلة، سبحان الله! الشباب حلو! كانت شابة في نحو الخامسة والعشرين. كنا نجلس متقابلين ونتعشى معاً. وتغير المشهد ورأيتني معها في الإسكندرية على البلاج. كانت بثوب الاستحمام. أي جمال هذا الذي كان جمالها! وسبحنا سوياً. كنت كالسمكة التي لا تهدأ ولا يستقر لها قرار، أعوم وأزوغ هنا وهناك. وفجأة اختفت الفتاة، ونظرت وكان غير بعيد شاب لا أعرفه، قال: إنك تسبح وتغوص بمهارة عجيبة، قلت: هناك مَن هم أصغر مني سناً وأصبى لكني أبزّهم جميعاً في السباحة.

والحالم كما نرى ما زال مشغولاً بالنساء، وما تزال به شقاوة الشباب، فيحلم بالنساء الجميلات، ويجالسهن، وله معهن شأن، وما يزال به العنفوان الذي يستطيع به أن يسبح، إلا أنه يعترف بأنه من الممكن أن يوجد مَن هم أصغر سناً وأصبى، والحلم من ثمّ لا يمكن إلا أن يكون لإنسان كبير في السن يدفع عن نفسه أنه قد كبر، ويتمسك بالحياة بأن تكون له نشاطاتها حتى وإن كانت في الأحلام وحدها.

وهو في حلم آخر يحلم ببلده وموطنه الذي فيه وُلِد وتربّى:

- حلمت أني عدت إلى بلدي بنها التي شهدت شبابي. كنتِ أنتظر على محطة القطار. وجاء القطار وله ضجيج وتزاحم عليه الناس، ولم أستطع أن أصل إليه، وتحرّك وتركني. وخرجتُ من المحطة وسرتُ على شاطئ النيل. كان الماء عظيماً ومغرياً. وغير بعيد كانت طاحونة أعرفها. حلوة بلدي! الماء، والطاحونة، والشجر المُدلّى أغصانه في النهر الجاري، والسمك يظهر طافياً ينادي على الصيّادين، لكني تركت ذلك وسرت في طريقي.

والقطار يرمز للزمن الذي يتولى، ولشبابه الذاهب، فهو لم يعد قادراً على أن يلحق به، لكنه ما يزال به العزم، فالماء والطاحونة والسمك هناك، وهي رموز جنسية واضحة بمعنى أنه ما يزال ينتصب ويُمني وقادراً على الجماع، والماء رمز المني، والسمك الطافي قدرة الانتصاب، والشجر المدلّى الغصون في الماء رمز للجماع. والحلم يرجع القهقري لأيام زمان، والكثير من أحلام الشيوخ هذه صفتها: إنها أحلام عن أيام العز والقوّة والفتوة، وعندما يحن العجوز لأن يستعيد شبابه فإنه يحلم بالماضي، وترتاد أحلامه ملاعب الصبا، ثم إنه إذ يحلم بالماضي يبتعد عن الحاضر، فالحلم طريقة للهروب من إلحاح الزمن الحاضر المُهدّد.

وهذا الحلم له وهو يلعب الرياضة:

- كنا في النادي نلعب الكرة الطائرة. وضربت الكرة مسدداً فسجلت نقطة لنا، وكان الهتاف يكال لي. وأخذ التعب بمجامع الجميع إلا أنا. ولم أتعب، وما كنت أتعب من رياضة أحبّها. وانتقل المشهد إلى الحمام، وأخذت حماماً وأنا سعيد. وضربت صديقاً لي على بطنه مازحاً: كرشك كبير!!

وهو يحلم في الليلة نفسها هذا الحلم الثاني:

- كنت أريد أن ألبس ملابسي بسرعة لألحق موعد عملي. وكان عليّ أن أصل هناك قبل الثانية والنصف لأذيع نشرة الأخبار. وجاء الأتوبيس إلا أنه تجاوزني، فأخذت أعدو وأعدو وأعدو فقد قررت أن ألحق موعد عملي حتى لو عدوت إليه، واستيقظت وأنا أعدو.

وطبيعي أن ينتقل الحالم من حلم

الرياضة إلى العمل، ولكننا نلاحظ أنه في حلم الرياضة يؤكد على مقولة تعب الجميع وأنه لم يتعب، ويهزل مع زميل ويشير إلى كرشه، والحالم يؤكد على أنه لم يعد لائقاً بدنياً بسبب كرشه هو نفسه. وفي الحلم الثاني يعترف بعجزه أيضاً حيث يفوته الأوتوبيس، ولأنه يريد أن يعود إلى عمله «ألحق عملي» فهو يركض، أي أن فكرة العودة ستقتضي منه لتنفيذها أن يركض ويركض ويركض، أي يبذل الكثير جداً. والحالم واقعي، فمع أنه ما يزال يتمسك بالحياة إلا أنه يعرف حدوده، وتجتمع فيه أحاسيس الشباب مع أحاسيس الشيخوخة وإدراكها، وتنتصر الشيخوخة على الشباب في الحلم.

وهذا الحلم التالي يزيد مشكلة هذا الحالم وضوحاً ويلقي المزيد من الأضواء على الحلول التي يقترحها هو نفسه:

رأيت منزلاً قديماً ولكنه كان ما يزال جميلاً، وكنت أتجوّل فيه، ورأيت مكتبة وامرأة في نحو الثلاثين تنفض الكتب وترتبها. وكان هناك رجل يكبرها قليلاً، والاثنان ما كانا يباليان بي. وقلت للمرأة: حافظي على الكتب لأن صفحاتها أسهم شركات تساوي مالاً وأنا أريدها أن تحرص عليها. ثم اختلف المنظر فرأيت نفسي في حجرة في الدور الأرضي مع ولد وبنت، ولم يكونا يعيراني أدنى التفات. وقلت لهما: أحتج على هذه المعاملة. أنتما لا تعاملاني باحترام. ثم سألتهما عن أمي فقالا: لا علم لنا أين تكون أمك.

والمنزل القديم الجميل هو نفسه الرجل، وما تفعله المرأة بالكتب هو عادة ما يفعله الورثة بها بعد أن يموت صاحبها، وهذا التفسير يقوّي منه أن الحالم يحذّر المرأة أن تستهين بها لأن صفحاتها أسهم شركات، ولذلك يريدها أن تحرص عليها. وهي الشيء هو نفسه ما يقوله المورث لورثته من بعده: إحرصوا على هذا الشيء أو ذاك لأنه ثمين. وهذه المرأة والرجل معها هما إبنه وزوجة الابن، وهو لا يشعر بأنهما يهتمان به. والولد والبنت في الدور العلوي هما حفيداه. وهو يشكو من إغفال الجميع لأمره. وهم لا يحترمونه حتى من أجل المال الذي سيخلفه لهم والذي يحرص عليه، لأنه هو وحده الذي يعرف كم قاسى ليجمعه، والمال هو جهد قد اختُزِن، وهو

جهده طوال عمره إختزنه لهم ولكنهم لا يعرفون قيمته ولن يعرفوها مثله. وأما تغيّر المنظر من حجرة المكتبة إلى الغرفة بالدور الأرضي فهو بمثابة انتقال من الحاضر إلى الماضي حيث الطفولة والذكريات، كأن الحالم يرتد إلى طفولته، ومن الطبيعي أن يسأل عندئذ عن مكان أمه. ولقد توفيت الأم، ويبدو أنه من شكواه من معاملة الجميع له قد صار يؤثر أن ينضم إلى أمه ويموت، والموت عند البعض في مرحلة معيّنة وعندما يكون هناك إيمان يعني حياة أفضل، وهو لا يخيف البعض إذا كانت أعمالهم طيبة. وقد يطلبونه كتغيير للأحسن لحياتهم. والناس عندما يحلمون بأشخاص ماتوا، وبرغم أنهم قد يحلمون بهؤلاء الموتى باعتبارهم أحياء، إلا أن استدعاء الموتى في الحلم دليل على انشغال بال الحالم بفكرة الموت. ولربما يكون الحالم شاباً، ولربما يزعم أن فكرة الموت هي آخر شيء يمكن أن يشغل نفسه به، إلا أن الموت - يستوي في ذلك الشبان والشيوخ - قد يبدو عند البعض خلاصاً حقيقياً لمشاكل الحياة، وربما تكون هذه المشاكل بالنسبة للشباب لا تستوجب أن يتمنى الحالم الموت لنفسه، إلا ان استدعاء الموتى في الحلم هو تأكيد على أن هذه الفكرة تداعب خياله وتخطر في باله.

والحلم بالموتى تتعدد أشكاله بحسب ثقافة الحالم، فمثلاً حلمت امرأة مات زوجها حديثاً أنه طلبها عبر التليفون، فلما ذهبت لتخفض الراديو لتستطيع أن تسمع زوجها كان قد انصرف، فكانت تصرخ وتنادي عليه دون جدوى. وهذه المرأة ترى في الموت أنه انقطاع الاتصال بينها وبين الميت.

وهذا الحلم لامرأة مات زوجها منذ سنتين:

- كنت في حفل زفاف فيما يبدو، ووسط الزحام تبينت زوجي ولم يلمحني، وكان منصرفاً فناديت عليه بالاسم، وأسرعت الخطو أتبعه، وأنا أهتف باسمه وأستصرخه أن ينتظرني ولكنه لم يسمعني، واستيقظت وأنا أبكي وأنادي على زوجي.

والحلم من نوع أحلام الرغبة، وهذه الرغبة في هذا الحلم هي الرغبة في أن تنضم إلى زوجها، وانضمامها إليه بعد أن

فرّق بينهما الموت بمثابة زواج جديد، وربما كان ذلك بسبب اجتماعهما في مكان الزحام بمناسبة الزفاف، ولكنها لن تستطيع أن تزف إليه فعلاً، وهو حتى لم يلبِّ نداءها، ولم يستمع إلى صراخها، وهو الصراخ الذي أيقظها من النوم، لأنه يمثّل بدوره رغبة معارضة أقوى من الرغبة في الأولى، هي الرغبة في أن تعيش.

وقد يُشغَل العجائز بالموت وتكون بهم الرغبة شديدة أن يموتوا، فيحلم الحالم بأحد أقاربه من الموتى، وخاصة أمه أو أباه، فيدخل الحجرة ثم يدعوه ليلحق به، كهذا الحلم لامرأة رأت أباها يدخل حجرتها ويتقدم منها ويضع يده على يدها دون أن يتكلم ثم يخرج، وكأنما هذه اللمسة من الأب الميت لابنته تعني أنه يطلب منها أن تتبعه.

والحلم التالي لامرأة أيضاً قد تقدّم بها السن وتكالبت عليها الأمراض:

- رأيت عجوزاً تشبه جدتي تلبس ثياباً سوداء، وتتلفح بشال أسود، ووجهها به سُمرة، وخدود عميقة، ولها نظرة خاصة وبريق بعينيها، وكانت تقف على رأس سريري وتتمعنني.

والعجوز هو تصور المرأة للموت، وهي تقابله في الحلم وجهاً لوجه. وأحياناً يكون تصور الموت أنه رحلة، وذلك ما يراه فيه معظم الناس في بلادنا التي كان فيها التفكير في الموت منذ الفراعنة وما قبل ذلك. وهذا الحلم لسيدة في نحو الخامسة والستين مات عنها زوجها وابنها:

- حلمت أني أجهّز نفسي للقيام برحلة. وكان عليّ أن أسرع، لكني ما كنت أتعجل نفسي، وكنت أدخل حجرة وأخرج منها لأدخل ثانية، باحثة عن شيء لا أجده، فالحجرات كلها فارغة.

والمرأة ترى أن حياتها كالحجرات الفارغة، فارغة. وهي تعتزم أن تخلفها وراءها للقيام بالرحلة التي تتلكأ في القيام بها لعلها تجد شيئاً تعيش من أجله.

والعجائز قد تختلف نظرتهم إلى الموت، فالبعض قد يراه راحة واجتماع لشمل الأحباب الذين رحلوا، والبعض قد لا يتصوره ولا يطلبه مهما كان بؤس الحياة التي يحيونها، كهذين الحلمين:

الأول: - حلمت أني أرقد في سريري وأشعر بتعب شديد وأن روحي تصعد، وكنت سعيداً بذلك ولم أشعر بقلق على أسرتي، ولم يخطر على بالي إلا أني عما قريب أرحل وأتحرر من كل قلق، ولن تعود بي حاجة أن أستيقظ من نومي لأسرع لألحق بعملي.

الثاني: - حلمتُ أني متُّ ووضعوني في القبر وأغلقوا عليّ الباب، وكنت أحاول أن آخذ أنفاسي دون جدوى، وأشعر أني أختنق، وكنت أدق على القبر بكلتا يديّ وأركله بقدميّ. واستدرت أطالع القبر فلم أجد إلا حوائط يبرز منها الطوب، والأرض رملية والرائحة عفنة تملأ المكان. واستسلمت فقد شعرت بالتعب واليأس.

والحالم في الحلم الأول يرى في الموت راحة له ويرحب به، وفي الثاني يرفض الموت ويصاب منه بالرعب ولا يرى فيه أي راحة، ويحاول يائساً أن يهرب من القبر.

وإنها لحقيقة أن الناس كلما تقدّم بهم السن إتّجه تفكيرهم إلى الماضي وتذكره، وإنه لمن الملفت للنظر أن الذاكرة عند الشيوخ تقوى بصدد أحداث الماضي حتى لنسمع منهم تفاصيل عن أحداث وقعت منذ أربعين أو خمسين سنة وكأنها وقعت بالأمس، في حين أنك قد تسألهم ماذا أكلوا منذ نصف ساعة فلا يذكرون. والماضي دائماً له رونق وبهرج عندهم ليس للحاضر، والمستقبل بالنسبة لهم لا يمكن إلا أن يأتي بالأسوأ. وهذه الظاهرة تبدأ معنا جميعاً في نحو سن الأربعين فيقل الفعل عندنا، وقد نقنع بأن نعيش في الماضي، ونجتر ذكرياته، ويطلق العلماء على هذه الظاهرة النكوصية إسم النقطة السيكولوجية الوسيطة، أي التي تتوسط حياتين، فقبل النقطة كان للحياة نبض ناشط، وإيقاع فاعل، وواعد، والمرء يفكّر ويفعل من أجل مستقبل يحلم به ويخطط له، ويشعر أن الحياة دوّامة من الحركة، وأنه جزء من الدينامو الهائل الذي يهدر بالحركة. وبعد هذه النقطة السيكولوجية المتوسطة تبدأ حركة الحياة في التخلّف، ويخفّ التوتر، وينخفض النبض، ويكون الإيقاع بطيئاً، ويزداد بطؤه كلما أوغلنا في العمر حتى ليبدو أنه سيتوقف، ومن ثم نحلم بما

يعوضنا عن أفلاس الحاضر، فتأتي أحلامنا صدى لرغباتنا إن كنا نريد الحياة فتفعم الأحلام بها، وإن أردنا أن نتخلص منها وننهيها حلِمنا أيضاً، ولكنها أحلام بالموت وليس بالحياة، وتتراوحنا الحياة والموت ويتعاورانا في اليقظة والمنام، وكأننا نعيش لنموت، أو كأننا نعيش الموت في الحياة. وفي الشيخوخة تكون للحياة والموت فلسفة، وليس إلا الفلسفة هي التي يمكن أن تجيب على هذا السؤال: وماذا بعد الحياة والموت؟ ولعل الدين هو الوحيد الذي يعطينا الإجابة، فتبارك الذي قال إنه قد خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً. وفي أحلام الشيخوخة سيلح هذا السؤال: ماذا بعد الموت؟ وستكون في الشيخوخة أحلام تكشف عن رؤية الحياة والموت عند الحالم، وبعضها بمثابة كشف حساب للحالم، وبعضها ذكريات قد يفرح لها وتسعده لأنها صدى لضمير مرتاح ونفس مطمئنة، وبعضها ذكريات قد تشقيه لأنها رجْع صدى لضمير معذّب.

الباب الرابع والعشرون
«أحلام اليقظة»

الأحلام تكون ونحن نيام، وسنصطلح في هذا الباب على تسميتها بالمنامات، وهناك أحلام تأتينا ونحن مستيقظون، وفي الحالتين نحن نحلم، وفي الحالتين ينسحب الحالم من الحياة. وفي المنامات إنسحابه بالنوم، وفي أحلام اليقظة يكون انسحابه بانشغال الفكر وانصرافه تماماً إلى ما يصرف إليه تفكيره وهو يحلم. وفي المنام يتنبه النائم بأن يستيقظ، وفي حلم اليقظة يتنبه بأن يعود إليه وعيه بالبيئة المحيطة به، وعودة الوعي أسهل في حلم اليقظة منه في المنام. وكذلك يتشابه المنام وحلم اليقظة من حيث أن التفكير فيهما قد نقضي فيه بأنه سخيف، وأنه لا يساير المنطق. وقد نحكي مناماً فنعتذر ونحن نحكيه لما فيه من تفاصيل قد تضحكنا أو يصيبنا منها الغم، وقد نستعرض حلم اليقظة فنجد حرجاً في ذلك لأننا نبدو به كما لو كنا أطفالاً. ونحن حقاً أطفال في الحالتين، فالتفكير المنامي تفكير أولي بدائي، ولغته الصور، وهي الأساس التي بدأ بها التعبير عند الإنسان، والتفكير الحلمي في أحلام اليقظة تفكير أليق بالأطفال، ويناسبهم أكثر، وأكثر ما تأتي أحلام اليقظة الأطفال.

وتتشابه المنامات وأحلام اليقظة أيضاً من حيث التذكّر والنسيان، ونحن قد ننسى ما نحلم به في اليقظة، تماماً مثلما ننسى المنام، وقد نذكر أجزاء وننسى أجزاء، وقد نستخدم التداعي الحر لنتذكر هذه الأحلام أو ما نسيناه منها كما في المنامات.

والمنامات وأحلام اليقظة كلتاهما أحلام تدور حول الحالم نفسه، غير أنه في المنام قد يتقنّع الحالم، وأما في حلم اليقظة فحضوره صريح وواضح. وحلم اليقظة قصير كالمنام، وقد يطول، وقد يأتي كحلم وحيد، وقد يكن حلقة في سلسلة من أحلام اليقظة تدور حول موضوع واحد وتتكرر فيها الشخصيات. ومن أحلام اليقظة - كالمنامات - ما هو نمطي، وما يتكرر المرة بعد المرة. ودراسة أحلام اليقظة لذلك ينبغي أن

تكون للزُملة منها وليس للحلم الواحد. ونلاحظ أن أحلام اليقظة تدور حول رغبات، وأحياناً ما تكشف عن صراعات قد كبتت، وتظهر لذلك مرموزة، وأحياناً تتلون بلون عدواني صريح، ولعل ذلك هو سبب نسياننا لها، أو إسقاطنا لأجزاء، فالكبت الذي تناول مصادرها يتناول أيضاً تذكّرها، وهو خلف الرقابة التي يفرضها الأنا على الرغبات أو الصراعات أو الميول التي تستحثها، فيكون تحريفها وطرحها صوراً لقصة يظهر فيها الحالم بطلاً أو منقذاً أو عظيماً أو محباً أو مرموقاً يُعجَب به الناس، فتتحقق له الرغبات، أو تنحلّ بها صراعاته، أو يصرف فيها ميوله. وحلم اليقظة يصرف فيه الحالم طاقته التي كان من الممكن أن يصرفها في عمل إنشائي، وبدلاً من أن يجهد الحالم ليحقق لنفسه الانتصار على خصمه بالتوسل إلى ذلك بالطرق الإيجابية، فإنه يتوهم هذا الانتصار ويعيش فيه لحظات أو دقائق وأحياناً ساعات. والانتصار والتفوّق هما انتقام يمارسه الحالم بالخيال، وهو التعويض عن قصوره وعجزه الحقيقيين أو النفسيين. ومن القصور ما هو عضوي، ومنه النفسي نتيجة خبرات الطفولة التي نصاب منها بالعجز، أو بالإخصاء النفسي، وهو شعور يتحصل للبعض إزاء ضغوط لا يملك لها دفعاً وهو طفل، ويتنامى معه ويفعل فعله، في الكِبَر، فلا تكون حياة الحالم من ثم مُشبعة لآماله وتطلعاته وطموحه وعواطفه ونوع الحياة التي يريدها لنفسه، فيعوّض عن ذلك بأحلام اليقظة. ولذلك فعند تحليل حلم اليقظة سنجد الحالم يواجه التحليل بالاستهجان والإنكار، وهو ما اصطلحنا عليه باسم المقاومة للتحليل عندما ناقشنا موضوع المنامات، لأنه يكشف عن المكبوت الذي لا يعرف الحالم عنه شيئاً أو لم يلاحظه في نفسه، ويفصح عن عُقَد النقص، وقد لا يساير المحلل على ما يذهب إليه.

وقد يزعم البعض أنه لا يحلم أحلام يقظة، وقد يفخر بذلك، وقد يجد أنه لو صرّح بأنه يحلم بها فلربما يكون ذلك دليلاً فيه على النقص، وهو ما يحاول أن يداريه، وما يحاول أن يوهم به نفسه والناس، بأنه إنسان عملي ولا يمكن أن

تستغرقه أحلام اليقظة. ولعل قصة سندريللا أروع مَثَل لحلم يقظة، ولعل حلم بائعة اللبن مثل آخر لما يمكن أن يكون عليه حلم اليقظة، وفي الحالتين نرى سندريللا وبائعة اللبن لما يمكن أن يكون عليه حلم اليقظة، وفي الحالتين نرى سندريللا وبائعة اللبن شخصيتين متواضعتي الأصل - أي أن ظروف حياتيهما دون ما تأملانه، غير أن سندريللا يأتي إليها مَن يتبين فيها ما لم يدركه المحيطون بها فيرفعها إلى أعلى مكانة في بلدها، بينما بائعة اللبن تستبق الأمور وتبني قصوراً على الرمال وتختصر الزمن وتعيش في حلم وردي ينقذها من فقرها ويرفعها إلى مكانة ترنو إليها ببصرها. وهي تعرف يقيناً أن قدراتها لا يمكن أن تأخذ بها إلى هذه المكانة ومع ذلك تحلم. وفي الحلمين عند سندريللا وبائعة اللبن نلحظ التقدير العالي من الحالم لذاته، واختلاف تقدير الناس لذاته عن تقديره هو لذاته. ولربما كان لظروف الحالم الاجتماعية والمادية ما يجعل إحساسه بذاته مرهفاً إلى الدرجة التي تخلق هذه المفارقة بين تقديره وتقدير الناس لذاته. وحلم اليقظة يشبع في الحالم تقديره لذاته، بأن يجعل تقدير الناس يتطابق مع تقديره لذاته، وهو لذلك يحلم أنه بطل، أو عبقري، أو فنان مشهور، أو زير نساء، أو شاعر رومانسي، أو ضابط مغوار إلخ. ومن ثم كان حلم اليقظة طريقة غير ناضجة لحل صراعات الحالم وإشباع ميوله ورغباته، وهو حل أليق بتفكير الأطفال أو التفكير البدائي بحيث يستحيل به الحالم قادراً قدرة مطلقة، فينتقم من عدوه، أو يتزوج من حبيبته، أو يحقق تقدماً علمياً يتجاوز به تخلّفه الدراسي، إلخ.

وشخصية الحالم تكشف عن ميول إنطوائية، وهو يستخدم طاقاته الإبداعية في إبداع عالَمه الحلمي فينسجه نسجاً، ويعيش فيه أحلامه الوردية، تعويضاً عن حياة فيها الفشل والقصور والإحباط وعدم التقدير والعوز والمرض وقلة الحيلة.

ومثلما رأينا في المنامات فقد نجد من ينسب أحلام اليقظة - إذا كان الحلم جنسياً أو عدوانياً - إلى الشيطان، وما

يرده البعض إلى الشياطين نعرف أنه من رغباتنا وصراعاتنا تأثير الكبت على هذه الرغبات والصراعات والميول من الحرج الذي نعانيه إذا اضطررنا إلى أن نحكي عن مناماتنا أو أحلام يقظتنا، وهو حرج لا يعرفه الأطفال فإنهم يعايشون أحلامهم ويسردونها في سرور، وقد يتضايق الآباء إذ يسمعون أطفالهم يخلطون بين الواقع والخيال، وبدلاً من أن يقول الطفل لأبيه مثلاً «كنت أفكر في الأسد وأنا ألعب في الحديقة» فإنه قد يقول له «رأيت أسداً وأنا ألعب في الحديقة»، ولذلك فلو شئنا دراسة أحلام اليقظة في أصفى أشكالها وأبعدها عن الحرج والكبت والقمع، فإن ذلك لن يكون متيسراً إلا في أحلام الأطفال، وتتمثل في شكلين، الأول هو ألعابهم الإيهامية، والثاني هو تلك الأحلام التي تأتيهم ونراهم مستغرقين فيها يبحلقون في لا شيء ذاهلين عما حولهم، وقد يصوغونها عبارات تحكي عما رأوه. والأطفال - كما نعرف - منهم مَن يقدر على صياغة العبارة، ومنهم مَن لا تسعفه لغته على ذلك فيطرح أحلامه في ألعابه، ولقد تسنّى لعلماء النفس مراقبة الأطفال في ألعابهم، وعلاج اضطراباتهم النفسية باللعب الإيهامي ليُسقط الطفل دخائل نفسه ومفاهيمه على الدُمى التي يختارها ليصنع منها شخصيات حلمه التي سيتعامل معها وترمز للشخصيات المؤثرة في حياته. والدراما النفسية المتحصلة هي حلم يقظة يقول فيه الطفل كل ما يريد، بفطرة سليمة، وقد يتحدث هو نفسه بلسان الدمية أو الدمى التي يلاعبها، ويتقمص الشخصيات التي تمثلها. وليس أروع من الألعاب الإيهامية للأطفال كأحلام يقظة. وليس أبيَن منها لنفسية الطفل الذي يعاني من الحرمان أو غير ذلك من مشاكل الأطفال، وخاصة الطفل الوحيد لوالديه، والطفل المعوق بدنياً.

ويتخذ الطفل له، أول ما يتخذ، خديناً متوهّماً يلاعبه Imaginary companion ويسرّ له بأسراره، ويكلّمه، ويحكي له الحكايات. ولو سألت الطفل عمّن يكلمه، لأجابك بلا تردّد إنه فلان، ولو قلت له ولكني لا أعرف طفلاً بهذا الاسم من الجيران، فقد يقول إنه فلان وكفى! هكذا

أسميها! وقد يصفه لك فتحسب أن الخيال يشطح به، أو انه طفل كذوب سينشأ على الكذب وقد تخاف عليه لهذا السبب، ولكنه لا يكذب، بل يتكلم عن حق، وهو ما يحلم به ويختلط عليه فيحسبه صدقاً وواقعاً. فطالما أن الواقع لا يزوده بما يريد فليصنع هو نفسه هذا الواقع، فيرضى ويسعد، ويعطيه ذلك إحساساً بالقدرة من حيث أنه قد استطاع هو نفسه تغيير هذا الواقع.

إذن فأحلام اليقظة التي تنطرح ألعاباً إيهامية في أوائل سني الطفل - نحو الثالثة - لها دورها السيكولوجي الخطير، والأطفال بها يشبعون رغباتهم التي لم تشبع، ويمارسون فيها ميولهم التي لا تجد الإشباع، ويسقطون من خلالها صراعاتهم التي قد تنحل خلال عملية الإسقاط هذه. والطفل في اللعب الإيهامي يمكن أن يمثل الأب المسيطر الذي لا يرد له طلب، والأم الحانية، ودراما المنزل، وما يكون هناك من خلافات زوجية أو عائلية. والطفل في اللعب الإيهامي يعوّض عن الحرمان هنا أو هناك. وكلما كانت الدمية بعيدة الشبه بالواقع كان ذلك أقرب إلى ما يطلبه فيها ليسهل عليه أن يتصورها على الصورة التي يريدها. وقد يلعب الطفل مع قطعة خشب صمّاء وكأنها سيارة أو قاطرة أو طائرة، فأما لو أعطيته طائرة فعلاً فلن يكون بوسعه أن يتخيلها قطاراً أو سيارة وقتما يريد أن يتخيلها كذلك.

ويعطي الطفل لدميته إسماً ليس من الواقع، لأنه لو كانت الدمية تعوضه عن شخص حقيقي يشبع رغباته مثلاً كما تشبعها الدمية، فإنه لن يكون بحاجة للدمية، لأن معه الأصل، ولكن الطفل يختار للدمية إسماً ليس كأسماء الأسرة أو المعارف فلا تكون واقعية الاسم حداً لخياله، فهو يريد إسماً يوحي له بإيحاءات مفتوحة. وقد يختار مع ذلك إسماً واقعياً، ولكنه في هذه الحالة لم يعد واقعياً، فمثلاً قد يأتي زائر الى البيت ويلاعبه ويُسَرُّ له جداً، فإذا رحل عن البيت ولم يعد ضمن الواقع فإنه قد يطلق إسمه على لُعبته، لأن قد تحصل له من هذا الزائر إشباعاً يرجو أن يستعيده بأن يُحِلّ اللعبة محله. وقد يختار الاسم مزجاً بين الحقيقة والخيال. وأنا أعرف طفلاً

أطلق على دميته إسم «الشاطر»، فلما شاهد حلقات طفطوفة في التليفزيون غيّر الاسم إلى «طفطوفة الشاطر». والمزج قد عرفناه من حيل المنامات.

ويعني اختيار الطفل لاسم للعبته، أي الدمية أو الخدين المتخيّل الذي يلاعبه، أنه قد بلغ مرحلة متقدمة من مراحل نموه، فالخدين أو الدمية المتخيلة في أول الأمر لا يكون لها شخصيه محدّدة، ويمكن أن تكون أي شيء، إلا أنه عندما يعطيها الاسم فذلك يعني أن ملامح شخصية الخدين أو الزميل الملاعب له قد تحددت في خياله. وبمعنى آخر فإن مرحلة التجريب تكون قد انقضت ويكون الطفل قد أصبح يدرك ما يريده، فإذا عرف هذا الخدين أو المُلاعِب المتخيّل، فإنه بالتالي يعرف نفسه ويحدّد فكرته عنها وتتحصل له صورة فطرية عَمن يكونه، ويبدأ شعوره بذاته يتنامى.

وتظهر دراسة أحلام اليقظة عند الأطفال إهتمامهم بالحيوانات، ولقد عرفنا أنه أيضاً في المنامات فإن الحيوانات تكون موضوعاتها. والحيوان يشد إليه انتباه الطفل بالنظر أولاً إلى مخالفة شكله، ثم لأنه برغم ضآلة جسمه يفعل أشياء لا يستطيعها هو. والحيوان أقرب إليه من البالغين، فحجم جسمه من حجم جسم الطفل وليس ضخماً كالبالغين. والطفل نفسه باعتبار مراحل النمو في مرحلة أشبه ما تكون بالحيوانية، أي أنه يكون على الفطرة فيتماثل مع القط الصغير أو الجرو، ويستطيع أن يتناوله وأن يحتضنه، وينيمه معه ويؤاكله، وهي عمليات تمهد لما سيكون من بعد، حيث الزمالة أو الرفقة بين الأقران. والطفل بالحيوان تكون له أحلام تفوق، فقد يرى العصفور يطير ويعلو فيحلم أنه عصفور لكي يعلو، وقد يرى القط يتسلق الحائط فيحلم أنه قط ليستطيع ذلك أيضاً، فكأنه ينسى في الطيور والحيوانات عجزه وقلة حيلته وحرمانه وعداءه للعالم. وأحلام التفوّق فيها هذا الإيحاء الذاتي بالتفوّق والقوّة. وقيل إن منشأ النزعة إلى التفوّق عند الشخصيات المتفوّقة فعلاً هي هذا الضرب من أحلام اليقظة التي نطلق عليها إسم أحلام التفوّق.

وعندما يتوقف الطفل عن ملاعبة

زميله المتخيّل فإن معنى ذلك أنه قد كبر، وأنه قد اتجه إلى أن يستعيض بزميل حقيقي يتخذ منه صديقاً، وهو لا يفعل ذلك إلا إذا وجد أن هذا الطفل الحقيقي يشبع فيه كل ما كان يشبعه زميله المتخيل.

ونحب أن نسوق هنا مثلين من أحلام اليقظة، الأول يرويه فرويد، وهو لطفل كان شديد التعلّق بأمه، وكان عليها أن تخرج إلى عملها يومياً، وتتركه في البيت، وعند خروجها كان طفلها يودعها وداعاً مؤلماً له. فإذا انصرفت ظل زاهداً في كل شيء، إلى أن عثر يوماً على بَكَرة بها خيط قطن فكان يلعب بها، واكتشف أن هناك مماثلة بين البكرة التي يسرّه أن يلعب بها، وأمه التي تظهر وتختفي لتظهر من جديد، فقد كان يرمي بالبكرة فتدور إلى أن تختفي تحت كنبة فيقول الطفل: ذهبت، ذهبت، ثم يسحبها من الخيط فتظهر البكرة فيقول فرحاً: حضرت، حضرت! وهو بهذه اللعبة كان يمثل دراما اختفاء وظهور الأم مع ما يصاحب ذلك من انفعالات، فهو الحزين كاسف البال عندما تنصرف أمه، وهو السعيد غاية السعادة عندما تعود، والتمثيلية الإيهامية هذه تفيده لأنه يتعلم منها أن الحياة فيها الفراق واللقاء، والحزن والسعادة، وأنه لا حزن للأبد، ولا فرح للأبد، وأن الحزن والسعادة والفراق واللقاء يتعاوران الحياة. ثم إن الطفل وهو يستعيد هذه الخبرات ويتحكم فيها يشعر أنه قادر ومسيطر، فإذا لم يكن يستطيع أن يسيطر على ظروفه فإنه على الأقل يستطيع أن يسيطر على انفعالاته، وقد يتحصّل له الإدراك أنه بعد كل عسر سيأتي الفرج، ويتعلم أن لا يستجيب للخبرات المؤلمة باليأس المطلق والانهيار التام طالما أنها إلى زوال، فلا الألم يدوم، ولا اللذة تدوم، ولعل ذلك سبب الفلسفات التي نقيمها من بعد للألم كما عند شوبنهاور ونيتشه وأبي العلاء المعري.

والمثل الثاني الذي نحن نسوقه لطفلة ولدت أمها أختاً لها صارت تغار منها، وانقلبت عدوانية وصارت كثيرة الشجار مع أخيها الأكبر، وصارت تعاند أمها ولا تحبها، إلى أن حدث يوماً أن ظهر لها كلب أسود كبير في الشارع هجم عليها فصرخت صراخاً هائلاً أفقد الأم

صوابها، فتركت إبنتها المولودة وركضت إلى ابنتها هذه واحتضنتها وقبّلتها وهدّأت من روعها وأعطتها شيكولاته، وحكت لها الحكايات وأنامتها معها في السرير، وبذلك كان ظهور هذا الكلب مناسبة ومصدر إشباع لكثير من رغباتها. ثم تطور الحال فأخذت تحلم بالكلب وتفزع من نومها، الأمر الذي اضطر الأم إلى أن تنيمها معها، فتأكدت بذلك المكاسب التي آلت إليها بظهور الكلب. وتطور الأمر إلى أبعد من ذلك، فصارت البنت يتهيأ لها أنها ستلقى كلباً أسود في كل زاوية وشارع وناصية، ومن ثم رفضت أن تخرج وآثرت أن تبقى ملازمة أمها، وكأن هذا الكلب كان سبباً للبنت في إشباع رغبات وحاجات أخذت شكلاً مغالى فيه بسبب ولادة البنت الجديدة، وقد استثار ظهوره خيالات لديها. ونخلص من دراسة حالتها وحالة الطفل الذي يحكي عنه فرويد، أن الأطفال يفهمون أي خبرة بشكل بسيط جداً، وأنهم قد يصبونها في قالب تمثيلي إيهامي، أو يصورونها في ألعابهم، أو يمثّلونها في حياتهم، فالولد يتّخذ الموقف المفروض عليه، موضوعاً لتمثيل اختفاء الأم وظهورها، فيستعيد انفعالات الألم والفرح، والبنت تصوغ الموقف في قالب إيهامي تمثيلي بحيث تكرر الخوف فيكون لها الأمن مردوداً من الأم المكلومة على ابنتها، وفي الحالتين نكتشف ديناميات الموقف والشخصية ودوافع السلوك من خلال اللعب أو التمثيل الإيهامي الذي اصطلحنا عليه باسم أحلام اليقظة عند الأطفال.

فإذا تجاوزنا مرحلة اللعب الإيهامي إلى الأحلام التي يمكن أن نحيكها عبارات ونصوغها في كلمات، وقد نكتبها، فإن هذه الأحلام تأخذ شكلاً مختلفاً، ويمكن تصنيفها إلى أربعة أنماط، الأول هو نمط الأحلام الاستعراضية Fantasies of display، وفيها يتصور الطفل نفسه يقوم بأعمال لا يقوم بها في حياته الواقعية فيثني عليه الناس ويستحسنوها منه، والثاني هو نمط أحلام الإنقاذ Saving fantasies، وفيها يقوم الحالم بأعمال فوق استطاعته، ينقذ بها إنساناً غالباً ما يكون من الجنس الآخر فيحبه هذا الآخر ويُكبره أبواه والناس الذين رأوه ينقذه. وغالباً ما تكون البنت التي ينقذها

الحالم ذات مركز اجتماعي مرموق، وهي رغم ذلك تقع في حبّه ويتغاضى أبواها عن كونه أقل منهم اجتماعياً. ومن الممكن أن نعتبر الأحلام التي يستعرض فيها الحالم مهارته مثلاً في كرة القدم فيصيب مرمى الخصم وينقذ بذلك فريقه من هزيمة محقّقة - يمكن أن نعتبرها أيضاً من نمط أحلام الإنقاذ. والنمط الثالث هو نمط أحلام العظمة Fantasies of grandeur، وهو نمط شائع حيث نجد الكثيرين يتوهمون أنفسهم ملوكاً أو أمراء أو فنانين مشهورين أو أبطال رياضة من الرياضات وينسجون حول أنفسهم أحلاماً يكال لهم فيها الثناء ويشار لهم من خلالها بالبنان. والنمط الأخير هو نمط أحلام الولاء Fantasies of homage، كأن يرى الحالم نفسه يوالي إنساناً ويتفانى في الإخلاص له ويظهر محبته، ونلمس ذلك خصوصاً في أحلام البنات التي موضوعها الحب الذي قد تكنه البنت لمدرّستها المفضّلة.

والأنماط السابقة يدل تحليلها على أن شخصية الحالم - من نمط الأحلام الاستعراضية وأحلام العظمة - أنانية، بينما شخصية الحالم - من نمط أحلام الإنقاذ والولاء - غيرية. والشخصية الأنانية التي تظهرها هذه الأحلام تنحو للطفولة وتتعلق بها، وربما كان ذلك لولادة طفل أخ للحالم صرف انتباه وحب الأم عنه إليه، فأصبح يلجأ إلى أحلام اليقظة يشبع بها ما حُرِم منه. وهذا الموقف نفسه نجده مثلاً في أحوال الكبار الذين تكون لهم مناصب كبيرة ثم يُجرّدون منها، فبدلاً من مواجهة الموقف الجديد تجدهم يسترسلون في الأحلام التي يستعيدون فيها مُلكهم الزائل وعظمتهم التي كانت. وبعض الأنانية بالكبار يكون مصدرها من الطفولة ميل الآباء أن يستعرضوا مهارات أطفالهم أمام الضيوف، وقد يتحصّل للطفل أن دوره في الحياة لا يتجاوز هذا الظهور، وأن سائر الناس ما وُجدوا إلا للإعجاب به، فإذا لم يستطع الطفل بعد ذلك تنمية موهبة من مواهبه بحيث تصبح مشاهدته أمراً مثيراً للاهتمام فعلاً، فإنه سيجد عندما تتقدم به السن أن الناس قد صاروا يستشعرون الملل كلما تواجدوا معه، ويصبح إلحاحه على تحصيل الإعجاب

منهم مصدر إزعاج لهم. ولربما يلمس الطفل أيضاً ذلك فيضطر إلى مضاعفة جهده ليفرض نفسه على المحيطين به بأن يزيد صقل موهبته، أو أن ينسحب بعيداً عنهم وقد أصابه الاكتئاب، ومن ثم فقد يصرف وقته باحثاً عن العزاء في أحلام اليقظة المفرطة في الأنانية.

ويمكن دراسة أحلام اليقظة من زاوية أخرى، فهي ترمز إلى هرب الحالم من جماعته وما تتطلبه منه كفرد فيها، أو ترمز إلى التمرد عليها. والمفروض أننا نتنازل عن مطالبنا الخاصة التي تتعارض مع مصالح الجماعة، أو نتظاهر بهذا التنازل، لكن الذي يحدث أنها نُكبَت في اللاشعور وتعمل عملها من ثم دون أن نعي وجودها وتعبّر عن نفسها في صورة أحلام اليقظة وغير ذلك من الأنماط السلوكية الأخرى.

والأناني الذي يستعرض في أحلامه ما يوجب إعجاب الناس به، يلزمه جمهور ليستعرض أمامهم، والغيري يلزمه الشيء نفسه، غير أن الأناني الذي يحلم بأنه مثلاً يلعب كرة قدم ويحرز لفريقه النصر إنما يفعل ذلك لا لإرضاء الفريق، وإنما لإشباع أنانيته بأن يكون محط ثناء الفريق، بينما الغيري يحلم بأنه قد حقّق لفريقه النصر ويقول واصفاً ذلك: نحن انتصرنا، ويجد إشباعاً لحاجاته بأن يرى نفسه في فريقه يواليه وينقذه وإن كان قد استعرض مهارته أيضاً أثناء ذلك. ولقد رأينا أن أصل ذلك أن الطفل الأناني عندما يختار شريكاً له في اللعب يختار خديناً متوهماً هو صورة من نفسه وكأنه يلاعب نفسه، ومن ثم يتحدث فيقول أنا، وهو من بعد يضطر إلى أن تكون أحلامه أيضاً في نطاق الفريق أو الجماعة ولكنه يستخدم حضور هذا الفريق أو الجماعة لمصلحته لا لمصلحة الجماعة.

ونجد الأنانية في بعض ضروب أحلام اليقظة، إشارة إلى ما يعتقد الحالم، أن الجماعة تنتظر منه أن يتولى قيادتها. فقد يحلم موظف صغير قليل الشأن أنه يؤلّب عمّال المصنع ضد أصحابه، ويقف خطيباً فيهم يعدّد لهم فساد الإدارة وجشع رأس المال، فيهتف العمال حينئذ باسمه ويرتضونه زعيماً لهم لمعرفته الشديدة ووعيه الكبير، ومن ثم يقوم بعرض مطالبهم ويقنعهم بالعودة إلى

عملهم، ويُعجب به أصحاب العمل فيعيّنوه مديراً للمصنع، ويُعجَب به العمال فينصاعوا لأوامره.

وأحلام اليقظة للأناني تكشف عن طفولة مسرفة في تفكيره، فالناس عنده إما طيبون غاية الطيبة، وإما أشرار والغون في الشر، والحالم هو الواعي بأسرار الجميع، والقادر على النفاذ إلى أعماقهم، والكل أخيار أو أشرار ينصبونه عليهم لمهارته وفراسته، وهنا نرى في هذا النوع من أحلام اليقظة صورة للمجتمع أو لجماعة الناس التي يحيا الأناني بينهم ويعمل من خلالهم.

وبعض أحلام اليقظة الاستعراضية يتّجه إلى استعراض المعرفة، وبعضها يتّجه إلى استعراض العنف أو إبراز الفعل. ونوع المعرفة قد يتمثل في أن يحلم الحالم أن رجلاً مثلاً قد كشف له سراً وهو على شفا الموت، ثم يكون الحلم عبارة عن مهارة الحالم وهو يستغل هذا السر إستغلالاً يجعله محط إعجاب الجميع. وربما يتحصل للبعض نتيجة للتربية أن الإعجاب سيكون نصيبهم لو امتلكوا معرفة تخصهم وكأنها السر.

ونحن مثلاً كأطفال نرى الكبار يتحدثون حديثاً لا نفهمه فنحسب أنهم يتناولون أسراراً. وقد يعجب الطفل بأبيه إذ يقرأ كل هذه الكتب، وقد يسأله عمّا فيها فيجيبه الأب ببساطة لا يصدقها الابن لأنه لا يمكن أن يكون هذا الكلام التافه هو ما تحويه. ويحكي أحد الآباء الحكماء وكان أستاذاً في الرياضيات، أن ابنه طلب منه أن يُفهمه معنى الرياضيات فبسّطها له، ولكن الطفل ظل يلح عليه مع ذلك قائلاً: «قل الصدق. زدني إيضاحاً».

ونحن نميل إلى هذه السرية في طفولتنا، وبعض الأعمال الأدبية الكبيرة هي ضرب من أحلام اليقظة يقوم على معرفة البطل بالأسرار كما في القصص البوليسية. والحالم فيها هو البطل يستعرض معرفته وسعة اطلاعه بخبايا النفوس في حل اللغز. ومرة ثانية نلتقي ببساطة تقسيم الناس إلى مجرمين وضحايا ورجال شرطة يتعقبون المجرمين وينقذون الضحايا، بينما ينال البطل الذي حلّ اللغز النياشين وتقريظ الصحافة والناس.

وقد نتساءل عن سرّ إقبال الناس على

القصص البوليسية وأفلامها، وليس من جواب سوى أنها بمثابة أحلام يقظة تستثير خيالهم وتشبع فيهم الميول لإماطة السرّ وإظهار المعرفة. وقد نسأل أنفسنا كذلك عن سبب الإقبال على نوع القصص والأفلام التي يقال لها قصص وأفلام الخيال العلمي، وليس من تفسير لهذا الإقبال إلا التفسير نفسه، وهو أنها بمثابة أحلام يقظة، فيها المعرفة الغريبة غير المجدية التي يسعى إليها هذا النفر من الناس الذي يميل أن يعيش أحلام اليقظة ولا يصلح لنوع الحياة العملية التي تتطلب إعمال الفكر، ولكنها من ناحية أخرى تفتقد الإثارة. وحياتنا المعاصرة حياة ساكنة، ويعوِّضها نمط الناس الذين يحبون أن يعيشوا الإثارة والحركة بخيالهم، بأن ينخرطوا في أحلام يقظة تعوضهم ما ينقصهم. وبعض القصص والأفلام فيه رومانسية مسرفة تشبع أيضاً نفراً من الناس وكأنها أحلام يقظة يدخلونها ليعايشوا الانفعالات العاطفية الجيّاشة والنهايات التراجيدية. وربما قد نقول إن أي مواطن أصبح ينشد كل مقومات الحياة العصرية المادية، وهذا قد يكون صحيحاً، إلا أننا جميعاً في ظل هذه الحياة العصرية المادية صرنا نعاني نقص الإشباع النفسي، ومن ثم نجد الكدر والضيق والاكتئاب واللهفة إلى شيء مجهول، من معالم الشخصية الحديثة، مما قد يميل بنا إلى أن ننخرط في أحلام اليقظة ننسجها نسجاً أو ينسجها لنا آخرون هم هؤلاء القصاصون والروائيون والمسرحيون ومخرجو الأفلام التي صارت بضاعتهم سلعاً رائجة رواج الطعام والشراب.

ونحن عندما نبلغ المراهقة ونولي ظهورنا للطفولة نواجَه فجأة بملَكة الخيال تعمل عملها في حياتنا وكأنما تتفجر مع المراهقة. وأحلام اليقظة في المراهقة تميزها صبغتها العاطفية.

وتصور أحلام اليقظة العاطفية الحالم في صُحبة شخص من الجنس الآخر، يتجالسان ويتسامران ويتحاوران، ويكون ذلك دائماً على خلفية شديدة الزواق من منظر طبيعي جميل أو حجرة فاخرة الرياش، ويتوقف المكان على ثقافة الحالم والوسط الذي ينتمي إليه. والحالم يحكي حلمه ويقول عن الحالة

الوجدانية التي تصحب الحلم بأنها سعيدة جداً، وقد يستدرك فيقول بل إن لفظ السعادة ليقصر عن الوفاء بوصفها فالحق أني كأنما أرتفع عن الأرض أو أشعر أني أخفّ من الهواء.

والخيال في سن المراهقة الذي يُلهم أحلام اليقظة أكثر نضجاً من خيال الطفولة. وربما يكون الثراء العاطفي لأحلام اليقظة في المراهقة مردّه ما يكتسب الفرد من خبرات تشتق مادتها من الحياة نفسها، أو من الكتب، بالإضافة إلى ما يكون في المراهقة من كبت شديد للدوافع الجنسية كبتاً يتسبّب عنه انفعالات عنيفة.

وحلم اليقظة الذي نسوقه لفتاة في السادسة عشرة من عائلة بسيطة: كانت ترى كل ليلة قبل ذهابها إلى فراشها حلم يقظة تظهر فيه حجرة جميلة ذات ألوان هادئة، ولا تذكر الفتاة أن الحجرة كان بها أزهار ولكنها تذكر جيداً الرائحة الجميلة التي كانت تفوح بها. وكانت الفتاة تجلس إلى أريكة وإلى جوارها ملتصقاً بها فتى يبادلها الحب وينشدها بديع الكلام متغزلاً، ما سمعت ولا قرأت مثله، وكانت تشعر لذلك بنشوة تدغدغ جسمها وجوارحها.

والحلم يذكرنا بالرفيق أو الخدين المتخيّل في لعب صغار الأطفال وأحلام يقظتهم مما يوحي بأن الفتاة تعاني كبتاً ونكوصاً إلى مرحلة الطفولة الباكرة، وأن الرغبات الأنانية التي كانت بهذه المرحلة لم يتم التخلص منها ارتقاء إلى المرحلة التالية من النمو، بل إنها كُبِتت فعادت الآن إلى الظهور تنشد الإشباع. والفتاة في الحلم تحبس نفسها داخل هذه الحجرة كما لو كانت فردوساً. ونحن أمام حالة هروب من العالم الواقعي الذي تعرفه الفتاة والذي قد يشبع عندها رغبات، ولكن تبقى رغبات لا يشبعها إلى أن تنفرد بنفسها تصنع أحلامها، وتستمتع برفقاء خيالها إلى أن تنام، ويتغزل الفتى بجسمها وهي الظاهرة التي ينبغي أن نتنبه إليها في المراهقة، حيث قد تنبه التغيّرات التي تشمل الجسم إهتمام المراهقين بأجسامهم، فيتعاملون مع أعضائهم برومانسية، وينظرون إلى الجسم نظرة عاطفية وجمالية.

وبقدر ما يكون لجسد الفتاة من معان

يكون أيضاً لجسد الفتيان معان قد تتخالف مع المعاني الأولى. وهذا حلم يقظة لفتى يصور ما نقول:

يحلم الفتى بأن حصاناً قد جمح براكبته، ورغم أنه لم تكن له خبرة بالخيل فإنه يندفع خلف الحصان ويمسك بلجامه ويعرّض نفسه للخطر ويُعين الفتاة على الترجّل، ويصحبها إلى والديها اللذين يقدمان له الشكر ويدعوانه إلى بيتهما ثناءً منهما على بطولته.

ونلاحظ أن الحلم يشبه أحلام البطولة عند الأطفال الصغار، إلا أن الحلم يصطبغ بصبغة عاطفية لا نجدها في أحلام الأطفال. وليس في الحلم جمهور من المعجبين من جماعة الحالم تستحسن ما قام به، الأمر الذي يوحي بأن هذا الاستحسان ليس جزءاً من الإشباع الذي يتوخاه الحالم.

ورغم أن الحالم ليست له دراية بالخيل فإنه يفعل ما يفعل في جرأة وقوّة وهو ما يكون محل إعجاب أبويّ الفتاة، فالفتى ليس من طبقتهما إلا أنه يستحق أن يدخل هذه الطبقة العالية. وموضوع الفوارق الطبقية من موضوعات أحلام الشباب.

وترمز الكثير من أحلام اليقظة في سن المراهقة وما بعدها إلى الصراعات الطبقية، وتعكس أعمال أدبية كبيرة هذه الصراعات، وبعض هذه الأعمال ليس إلا أحلام يقظة لأصحابها.

ولقد عرفنا أن الأطفال يمرّون بالموقف الأوديبي وتتحصل لهم ردود فعل يكبتونها وتعمل فيهم لاشعورياً نتيجة ما يتوصلون إليه من حلول للصراعات الأوديبية أو الصراعات التي يستحدثها حبهم أو عداؤهم للوالدين. ويوفق الطفل إلى أن يكبت عداءه للأب من الجنس الآخر بينما يظهر له الود، وتظهر الصراعات الأوديبية من جديد في المراهقة، وتبين بها اتجاهات الأبناء نحو بدائل الأبوين من معلمين ومؤسسات دينية وحكومية. ولسوف نجد مواقف كالحلم السابق يتواجه فيها الشاب وأبو الفتاة التي يحبّها، ولكن الرومانسية التي ينزع إليها الشباب هي التي تجعل المواجهة غير عدائية، بحيث ينال الفتى استحسان وإعجاب الأب. ولعله لهذا السبب تتجه بعض أحلام اليقظة إلى أن يلجأ البطل إلى اختطاف حبيبته من قلعة

أبيها. والاختطاف كان صورة من صور الزواج من قديم الزمان تعبيراً عن العداء نحو الأبوين ومن نتائج هذا الصراع الذي يعبّر عن نفسه في أحلام اليقظة في صورة «الاستيلاء على المرأة» بأخذها من أبيها بطريقة أو بأخرى، أن العداء اللاشعوري نحو الأب قد يتّجه بشكل شعوري نحو النظام الاجتماعي القائم الذي ينظر إليه على أنه نظام طبقي عتيق يقاومه جماعة الشباب الأقوياء المتحمسين. وفي الحلم السابق يرمز الأب الكهل إلى النظام، بينما يرمز الشاب إلى إرادة التغيير. وذلك يفسر تبنّي الشباب للأحزاب الجديدة دائماً باعتبارها تمثل التمرّد على النهج الحزبي القديم. وكانت الاتجاهات السياسية للشباب المصري مع حزب مصر الفتاة (ولاحظ إسم مصر الفتاة أي مصر الشباب)، واتجهت جماعات الشباب في أوروبا إلى تأييد الأحزاب الفاشية والنازية والشيوعية، وهي أحزاب جديدة فيها التمرد والحماس. ولو شئنا أن نفهم أشياء عن السخط الاجتماعي في أمة من الأمم فإننا لن نجد ذلك في المنشورات الثورية بقدر ما نجدها في أحلام اليقظة التي تعكس المطالب الملحة للشباب. وفي حلم اليقظة العاطفي سنعثر على المدلول الحقيقي للعالم الجديد الذي ينشده الشباب، فإنهم عندما يخفقون في أن يجدوه في الواقع القائم فقد يسعون لتحقيقه عن طريق السلوك غير المتزن والعنيف، وهو ما نعبّر عنه في حالة الأفراد باسم السلوك العُصابي، والسلوك السيكوباتي، أو يحاولون أن يظفروا به توهماً بتعاطي المخدرات التي يتصورون بها أنفسهم في عوالم وردية، أو تكون لهم أحلام اليقظة من النوع العاطفي فيتجاوزون فيها العقبات الاجتماعية ويحقّقون ما يصبون إليه، وتروج لذلك الكتابات الرومانسية التي هي أحلام يقظة يصوغها الروائيون وصُنّاع السينما، وتشطّ بهم في الخيال تعوّضهم عما حُرِموا منه.

ولقد كتب الكثيرون في موضوع الصلة بين الأدب والفن وأحلام اليقظة، وأرجعوا ذلك إلى ملَكة التصور، ونحن لن نتذوق الأدب إلا إذا عشنا مع الكاتب في جو تلك الخبرات الخيالية التي يوحي بها،

وصحبناه في رحلاته التي يصفها، وتأملنا معه حقول الخريف، أو نفذنا ببصيرة ووعي إلى أعماق النفوس. والبعض منا يتميز عن غيره بقدرته على التصور بأن ما يفكّر فيه أو يقرأه حقيقة، وقد يتجاوز حدود ما يرسمه الكاتب. ومثل هذا التصور ليس مجرد استقبال سلبي بل هو تصور ناشط إنشائي تلقائي. ولقد قال شللي إننا عندما نشاهد مأساة فإننا نرى أنفسنا في صور الشخصيات التي تظهر فيها، وقد تجرّدنا من كل ما يربطنا بالزمان والمكان. ويبدو أن هذا حقيقي فيما يمر بنا من خبرات عند قراءة القصص والقصائد والمسرحيات، حيث يتوقف تذوقنا على اندماجنا في شخصيات الأبطال فنشاركهم آلامهم وانتصاراتهم. ولقد ثبت أن قصة سندريللا ليست سوى حلم يقظة رأينا فيه أنفسنا، ولذلك تنوعت القصص لسندريللا بمختلف الأزمان والأمصار، وظلت سندريللا هي سندريللا إجمالاً، لأن قصتها هي قصة الشخص الذي يهان من أسرته التي لم يستطع أفرادها تقديره حق قدرة، غير أنه يتصل مصادفةً بأقوام آخرين يدركون حقيقته ويعطونه التقدير لذاته الذي يطلبه لنفسه وعرفنا أن مدار أحلام اليقظة عند الكثيرين هو تقدير الذات، ونحن نستمتع بتاجر البندقية لشكسبير، ونعيش حلم يقظة مع شايلوك برغم أنه كريه، إلا أن استمتاعنا به هو أننا نرى الجانب اللاشعوري منا فيه. وليس الأدب إلا وسيلة لنقل حالة الاستغراق التي عاشها المؤلف إلى القارئ. ولو درسنا كل كاتب قصة أو مسرحية لوجدنا أن هناك أشياء تتكرر معه في كل أعماله ترتبط بحياته الخاصة، ومنها نستطيع أن نكوّن صورة إجمالية عن نوع أحلام اليقظة التي كان يعيشها وهو صغير، ثم وهو مراهق، وأي نوع من الطفولة كانت طفولته. فأحلام اليقظة إذن قد تلهم الكثير، وربما كانت لها فوائد لا تحصى: وكان المربون فيما مضى ينظرون إليها نظرة تنقصها روح الفهم والعطف، على عكس المربي الحديث الدارس لمراحل النمو عند الناس ومستلزماتها، ومن ثم يدرك أن أحلام اليقظة ليست عيباً ينبغي التخلص منه، بل هي نشاط عقلي لا بد أن نتعهده

بالعناية وحُسن الاستخدام. ولنتناول كتابات كارلايل مثلاً، ولنحاول أن نقرأها من جديد لنتبين ملامح البطل الذي يتحدث عنه، ولنقارن هذا البطل بأبطال أحلام اليقظة الذين تحدثنا عنهم عبر مراحل النمو المختلفة لندرك أي أثر يمكن أن يكون لهذه الأحلام على تفكير فيلسوف مثل كارلايل. وأياً كان بطله، سواء كان نبياً أو مَلِكاً أو دكتاتوراً أو عَلَماً من أعلام الأدب، فإنه لا بد أن يكون ابن أمّته، ونتاج مجتمعه، والمعبر عن مقومات هذا المجتمع وتطلعاته. وكارلايل نفسه ليس إلا صورة لبطله، عاش طفولته بطلاً، ثم أصبح بطلاً من أبطال الفكر. وتصوّر كارلايل الفيلسوف له أساس من تصوراته في أحلام يقظته في طفولته، وإنما هو سما ببعضها إلى مرتبة القداسة، وهبط ببعضها إلى مرتبة المهانة، وفسّر التاريخ على أنه قصة جماعة من الأبطال.

وكارلايل ليس إلا مؤلفاً من عدد كبير من المؤلفين، يمثل الأديب الذي يتعهد أحلام يقظته ويخلق منها شيئاً يسمو على مجرد حلم اليقظة، وما حلم اليقظة عند هؤلاء إلا النبتة التي يتعهدها صاحبها فتترعرع وتصبح شجرة سامقة.

وبالمثل في الفن، فعلاقة الفن بأحلام اليقظة علاقة قوية من حيث أن الفن وسيلة للتعبير التصويري عن أحلام اليقظة، ويذكرنا ذلك برسم لطفل طلب إليه أستاذه أن يرسم أي شيء يعنّ له، وقد رسم الطفل ما رسمه ولم يكن من السهل طبعاً أن يدرك الأستاذ ما يصوره الرسم، فسأله عنه فقال له إنه منارة، ولما طلب منه المحلل أن يحدثه قليلاً عن رسمه، تبيّن أن الطفل لم يكن قد شاهد منارة أبداً، ولم يرَ صورة لها، ولكنه سمع مجرد سماع عما تعنيه المنارة من حيث إنارتها البحر للسفن فيمكنها أن تسير في أمان إلى المرافئ تحتمي من العواصف. والطفل إذن قد رسم شيئاً يرمز إلى الأمن، ويبدو أن هناك في حياته ما تعلم منه أن الضوء يعني الأمن. وقد غالى في رسم منارته المتصوّرة بأن جعل رأس هذا الشيء الذي رسمه كأنها الأباجورة، ولها قائمة وقاعدة، وجعل الرأس كبيراً كأنه هالة ضخمة من الضوء، فكأن هذا الطفل قد ابتدع رمزاً لنفسه يدل على

الأمن. وتبين أيضاً أن هذا الطفل يكره الظلام لأنه يخشى معناه، ومن ثم فقد خلق لنفسه رمزاً للأمن عندما شعر بحاجته إلى الأمن، فاستطاع بذلك أن يحصل من فنه على تعويض عن شعوره بالخوف وعدم الاطمئنان.

ومن المألوف أن الطفل في رسومه يُسرف في إبراز الأجزاء التي تثير اهتمامه بأن يضاعف حجمها ويكررها، فالطفل الذي يهتم برسم الطيور يرسم طائراً واحداً كبيراً أكبر من كل ما حوله ثم يكرّر ذلك. وإذا رسم قطاراً إهتم برسم العجلات، وإذا رسم دراجة إهتم برسم الزمارة، فالمقياس في رسم الطفل هو مقياس الاهتمام لا مقياس الأبعاد الطولي، وتلك هي اتجاهات الرسم البدائي نفسه، والطفل له في الرسم نظرة البدائي إلى الرموز والصور، ورسومه لذلك تأتي كالكاريكاتير. وهو يخلط كالبدائي بين الشيء الحقيقي وصورته، والكثيرون منا لهم الاعتبار نفسه، وما زلنا نتشاءم لو وقعت صورة، على ظن أن وقوعها يعني وقوع صاحبها أي موته. وعندما نريد أن نسحر لشخص نرسمه أو نقتني صورته لنصنع السحر فيها، وربما كان نجاح قصص مثل صورة دوريان جراي لأوسكار وايلد نتيجة وجود معتقدات لاشعورية كهذه.

وقد يبدو أن رسم الكبار مختلف عن رسم الأطفال، وذلك غير صحيح، فالراشد الذي يرسم يريد أن يأتي رسمه على الصورة الواقعية التي ألفها وليس على الحقيقة، ومن ثم تراه يقرّب تفاصيل ليكبرها، ويُبقي تفاصيل في الضوء ليُبرزها، وينتقي موضوعات لوحاته، ويفعل ذلك بدوافع داخلية عميقة، ومستهدياً برغباته واهتماماته. وهذا هو ما نقصد إليه من العلاقة بين الفن والأدب وأحلام اليقظة، فالفن تعبير بالصور عن صور ذهنية لأفكار، بعضها لاشعوري وبعضها شعوري، وبعضها رغبات واهتمامات وصدى لصراعات. ولعل خير ما ندرس به أحلام اليقظة في ارتباطها بالفن هو استجابات الفن عند المتفرجين، ونجد أن الاستجابة تكون عامة للوحات والتماثيل التي تساعد على أن يندمج

المتفرج مع الصورة أو التمثال، مثلما تكون الاستجابة كبيرة بإمكان اندماج القارئ مع أبطال القصة، أو اندماج المتفرّج مع شخصيات المسرحية. وكثيراً ما نسمع من الناس هذا التعبير «تخيّل نفسك تعيش بجانب هذا الجدول، أو في هذا الكوخ، أو على هذا الجبل». وفي مجال الأدب قد نسمع أحدهم يقول «تخيّل نفسك المَلِك لير وصنع بناتُك بك ما صنعه به بناته»، فكأن الصور الفنية سواء كانت بالخطوط أو بالكلمات تهيئ المسرح للمتفرج أن يحلم وهو يقظان. ولقد قيل إن أولى التعاليم التي يُنبّه إليها الفنان الصيني - وهو فنان يعرف بأنه لا يرسم الواقع مثل آلة التصوير - هو أن يُشغَل بالمناظر الطبيعية ويعايشها، ثم يطرحها من دماغه صوراً على القماش، يعرضها من زوايا مختلفة لا تتطابق مع الواقع، وبذلك يأتي الرسم عبارة عن تركيبة جديدة لها مدلول خاص، وكأنها حلم يقظة قد طرحه بالألوان والخطوط. ولن تسمع من أي فنان إلا هذه النصيحة «لا تتأمل الواقع بقدر ما تتأمل أحلامك عن الواقع».

والفن أو الأدب باعتبارهما خبرة جمالية يشاركان حلم اليقظة في الخبرة نفسها، بل إنهما ليصدران عن نوع الخبرة الجمالية التي يدخلها الفنان أو الكاتب وهو يحلم بصورته أو بقصته. والفنان أو الأديب وهو يرسم أو يكتب يستحضر صوراً لاشعورية، ويطرحها بشكل شعوري إنتقائي لا سبيل إليه إلا من خلال أن يحلم بالعمل الفني أو الأدبي، وأغلب الأعمال الأدبية والفنية تأتي على أساس من أحلام اليقظة والرؤى الحلمية ونحن أيقاظ، ولعل ذلك هو أحد الفوارق بين المنامات وأحلام اليقظة، رغم أننا قد سبق أن ذكرنا أن بعض الكتّاب قد يجعلون مادة مناماتهم موضوعات لرواياتهم أو قصصهم وكذلك فإننا ونحن نستمتع بالعمل الفني أو الأدبي فالغالب أن استمتاعنا به لأنه يجيء بدرجة أو بأخرى متطابقاً مع نمط أحلام اليقظة التي تأتينا وتوافق شخصياتنا واتجاهاتنا. وربما لم يكن حُكمنا على عمل فني أو أدبي بأنه عظيم إلا لأنه يوافق طرحنا لأفكارنا في شكل الصور التي تصنع أحلام يقظتنا. (Henry, G.: Daydreams).

الباب الخامس والعشرون
«أحلام تجريبية مستحدثة بالتنويم المغنطيسي»

لقد ذهبنا حتى الآن إلى ما ذهبنا إليه بشأن الأحلام سواء منها ما كان منامات أو ما تعلق منها باليقظة، وكل ما طرحناه في أغلبه لا يعدو النظريات والتفاسير التي قد نختلف عليها أو نزيد فيها، وما من دليل يؤيدها سوى نتائجها الثبوتية خلال العلاج النفسي، وما اتفق منها مع نتائج أخرى لوسائل تجريبية في مجال تحليل الشخصية، وهو أمر قد أجهد النفسانيين كثيراً لتكون لهم تجاربهم التي تقطع برأي حول الأحلام ونظرياتها. ولكي يمكن أن نطوّر منهجاً ندرس به الأحلام دراسة موضوعية بعيدة عن الطرح التفسيري لفرويد والآخرين، كان الاقتراح بدراستها تجريبياً من خلال ما يمكن استثارته من أحلام عند أشخاص ينوّمون تنويماً مغنطيسياً، وما يمكن أن يقدمه هؤلاء الأشخاص من تفسيرات لها، أو لأحلام حقيقية أو شبيهة بالأحلام كالأساطير مثلاً. ومن هذه الأحلام التجريبية وتفسيراتها بوسعنا عمل مقارنة بين نتائجها والنتائج التي تحصلنا عليها من خلال النظريات التي سبق عرضها.

ولقد كان إجراء هذه التجارب بإنشاء هذا النوع الجديد من الأحلام والذي اصطلحنا على تسميته بالأحلام التنويمية Hypnotic dreams، أي الأحلام التي نستحدثها بأشخاص منوّمين مغنطيسياً، بقصد اختبار مصداقية الرمزية في الأحلام وعلاقتها باللاشعور، وما إذا كان للأحلام ظاهر وباطن فعلاً. واختير للتجربة عدد من طلبة وطالبات الجامعة ممن ليست لهم اهتمامات بعلم النفس، ولا بالأحلام وتفسيرها، ولم تكن لهم نشاطات فنية أو اتجاهات أدبية قد تؤثر عليهم من قريب أو بعيد فتحيد بنتائج التجربة، ولم تكن لهذه المجموعة مشاكل عائلية، ولم يحدث أن اشتكوا من علل نفسية. فمثلاً اختيرت فتاة من مجموعة التجربة لتكون وسيطة، وبعد تنويمها قال لها الأستاذ المشرف: تعرفين أن للأحلام تفسيرات، وأن لكل حلم معنى،

وما سأحكيه لك هو حلم لفتاة، أرجو أن تعطينا تفسيراً له وأنت منوّمة هكذا، ومن عالمك يمكن أن تستبصري الأمور أفضل. الحلم لفتاة رأت نفسها وكأنها في حجرة وحدها، وكأنها ترتب حقيبتها، فتسلل ثعبان إلى الحقيبة واكتشفته، ففزعت وولت الأدبار. فماذا ترين تفسيراً لما رأته؟ قالت الفتاة في تردّد وعلى استحياء كتفسير للحلم: «الحلم جنسي، والثعبان يمثل عضو الذكورة عند الرجل بينما الحقيبة تمثل عضو الأنوثة في المرأة، ودخول الثعبان الحقيبة يرمز للجماع أو الزواج، فالفتاة تخشى الزواج لأنها ترهب الجماع، وفكرة الجماع تفزعها ولذلك تركض مولية الأدبار.

وبمثل ذلك كان هؤلاء الشبان يُسألون وهم تحت تأثير التنويم، وتكرّر عليهم الأحلام أو الأسئلة بعد أن يذهب عنهم تأثير التنويم، فكانت الاستجابات تتخالف في الحالتين.

وسُئلت إحدى الوسيطات عن تفسيرها لحلم: رأى فيه الحالم نفسه وقد اشتعلت النار في بعض الأوراق بمكتبه فركض خارج الحجرة واستحضر دلواً به ماء صبّه على الحريق» فقالت: إن الحلم يعني أنه يبول على نفسه.

وعندما طلب من الوسيطة أن تحلم بأنها تبول على نفسها، وأمها تؤنبها، قالت: أحلم أني وقعت في بركة ماء من البرك التي يخلّفها المطر في الشارع واتّسخت ثيابي فأنبتني أمي.

ونُقل حلمها إلى وسيطة أخرى فسرته: بأن الحالم تبول على نفسها.

وقيل للوسيطة نفسها السابقة هذا الحلم: رجل يذهب إلى طبيب الأسنان فيخلع له ضرساً بعد جهد جهيد، فقالت: ربما يعني خلع الضرس علمية الختان، وربما كان يعني أن الرجل صار عنيناً.

وقيل الحلم نفسه لوسيطة أخرى بعد تعديل الرجل إلى امرأة، فقالت: إن خلع الضرس يعني أن المرأة في حالة وضع.

وحول أحلام المذهونين قالت وسيطة عن حلم: صاحبه يرى نفسه شغوفاً بالبطيخ ويلتهمه الواحد بعد الآخر قالت: إن الرجل غليم يحب الجنس وربما هو مصاب بالشذوذ الجنسي.

وقيل لوسيط: رجل حلم بأن الملك أمر بالقبض عليه وإعدامه، فقيدوه وأسندوا

رأسه على نطع تمهيداً لقطع رأسه، فقال: إن الملك هو ضميره، أو انه أبوه، وهذا العقاب الذي ينزل به لا بد أنه فعل ما يستحق أن يعاقب من أجله، وقطع الرأس يعني سلبه رجولته، وإذن فما فعله لا بد شيء جنسي يستحق أن يعاقب عليه بسلبه قدرته الجنسية.

ويبدو من كل ما سبق أن "الوسيط في التنويم المغنطيسي يميل إلى إعطاء تفسيرات جنسية، وقد يرى البعض أن ذلك بسبب طبيعة العلاقة الحميمة جداً بين الوسيط والمنوِّم (بكسر الواو) والتي تصطبغ بصبغة جنسية، حيث أن أحدهما (الوسيط) مستقبِل وسلبي، والآخر (المنوِّم) مُوحي وإيجابي، وكأن الأول يقوم بدور الأنثى، والثاني يلعب دور الذكر، وهو ما نلاحظه في مجموعة الشباب المُستخدَمين في التجربة، فقد كانوا جميعاً إناثاً ما عدا الوسيط الأخير، وحتى هذا الأخير برغم ذكورته فإنه كان شديد الاحترام والاحتفاء بالمنوم، ولعل هذا أيضاً ما حدا بيونج إلى أن يرفض التنويم كوسيلة صحيحة للعلاج عندما تبين له أن الوسيط عندما استفاق قد شكره على استحياء لأنه لم يؤذِه جنسياً وهو منوَّم، فكأن المنوَّم (بفتح الواو) يدخل التجربة وفي باله أن من الممكن أن يكون هناك شيء جنسي بينه وبين المنوِّم (بكسر الواو).

وحول هذه العلاقة الخاصة بين الوسيط والمنوِّم قيل لوسيطة كانت فتاة خجولة في نحو العشرين «كنت تحزمين حقيبتك عندما تسلل ثعبان إليها واكتشفتِه ففزعتِ ووليتِ الأدبار، فما هو الحلم الذي يمكن أن تحلمي به؟ قالت: أحلم أني في الليل وأسير في مكان به أشجار كثيرة ملتفة، والأرض طين، وأنا أسير في الطين حتى خصري، وفوقي على الأغصان تتدلى ثعابين صغيرة، وكانت تتساقط على كتفيّ وذراعي وتنزلق فتحاول أن تطولني ولكن الطين كان يحميني منها وكنت أحس الأمان وأنا وسط الطين.

ذاك هو حلمها التجريبي فلما استفاقت من التنويم طلب إليها أن تفسره. وقد طلب ذلك شخص آخر بخلاف المنوِّم رغم أن المنوِّم حاضر، وقالت الفتاة: إن «الثعابين أشياء مؤذية

وأما الطين فهو الأمان منها»، وبذلك فقد ردّدت بعض كلمات الحلم. وتمّ تنويمها من جديد وقال لها الشخص السابق الحلم نفسه، وطلب منها تفسيره، فقالت: «إن الثعابين أشياء مرغوبة والطين حائل يحول دون أن تتحقق» ثم قالت: وربما الثعابين أفكار تعجبها ولكن الناس لا تعجبهم، لأنها قد تكون بالنسبة لهم أفكاراً ثورية»، وأردفت: وربما الثعابين أناس لهم آراؤهم التحررية التي لا تعجب غيرهم»، وأخيراً طرحت هذا التفسير: فلربما تشير الثعابين إلى تجارب تريد أن تدخلها ولكن العرف وهو هنا الطين، لا يسمح لها بدخولها». وبعد هذا التفسير غادر الحجرة الشخص الآخر وبقي المنوِّم معها، وطلب منها أن تزيده إيضاحاً فقالت هذه المرة وهي تبسط ساقيها وتمد ذراعيها مسترخية، وقد تغيّر صوتها: ربما الثعابين الصغيرة هي الحيوانات المنوية تتساقط من الأغصان النافرة، المنتشرة وكأنها قضيب الرجل عندما ينتشر وينفر». ومن هذا نرى أن الوسيطة قد أعطت تفسيرات عادية لما كان غير المنوِّم يستجوبها، فلما تُركت والمنوِّم وحدهما ارتاحت وقالت ما بنفسها، وهو هذا التصور الجنسي المشحون جنسياً شحناً عالياً. والتفسير الذي نتقبله منها ليس واحداً من كل ما سبق من التفاسير ولكنه جماع كل التفاسير السابقة.

وهذه حالة أخرى طُلب فيها من الوسيطة أن تحلم حول هذه المشكلة لصديقة لها اكتشفت أنها حامل وهي لم تتزوج، وجاءتها لتساعدها فكانت صدمة لها أن تعرف عن حملها. ولم تعرف كيف تتصرف، فقالت: إنها تحلم أنها في قارب، والبحر مضطرب، والأمواج حولها عالية، والمطر ينهمر عليها فيكاد يغرقها من فوق، والأمواج تكاد تغرقها من تحت». وبعد أيام نُوِّمت وقيل لها الحلم، وطلب شخص آخر بخلاف المنوم أن تفسّر الحلم، فقالت: إن الحلم يدور حول مأزق هي فيه، وربما لأنها فتاة والمأزق شديد لهذه الدرجة فلا بد أنها قد حملت سفاحاً، وأما أنها تكاد تغرق ووحدها في القارب فذلك لأن المشكلة تخصّها وحدها وليس هناك من يتحملها غيرها، وأن الناس ربما كرهوها فصارت وحدها،

وربما كان المطر دموعها تكاد تغرقها، والموج مشاكلها تضطرب بها أحوالها» ولما خرج الشخص الآخر وتُركت أيضاً مع المنوِّم استدركتْ فقالت: ربما المطر هو مني الرجل يكاد أن يغرقها، وربما هي تشكو الحرمان».

ولعل ما سبق من تجارب يطرح علينا أسئلة ملحة حول هذه العلاقة التي تكون بين الوسيطة تحت التنويم والمنوِّم (بكسر الواو)، والتي رأينا أنها تحدو بالوسيطة إلى أن تفسّر أحلامها هذا التفسير الجنسي، فهل هي إيحاءات من المنوّم، أو هل هي إيحاءات من الشخص الآخر قبل أن يغادر الحجرة؟ والحق يقال إنه لم يصدر أبداً من أيهما، لا تصريحاً ولا تلميحاً، ما يجعل المنومة تذهب إلى هذه التفسيرات الجنسية. ولا يتبقى إلا أننا نظن أن العلاقة بين المنوَّمة والمنوِّم هي علاقة تبعية وخضوع، فيها المنوّمة تستشعر أنوثتها تجاه ذكورة المنوِّم، وبذلك تصطبغ هذه العلاقة بالصبغة الجنسية، وذلك ما يجعل الكثيرين من علماء النفس يشبّهون التنويم بالتجربة الجنسية، وهو ما تستشعره المنوَّمة وهي في حَضرة المنوِّم وواقعة تحت تأثيره.

ولم يقدم أي من الوسيطات موضوع التجربة تفسيراً موضوعياً إلا قلّة منهم، وهؤلاء تبيَّن بأنهن مقاوِمات للإيحاء ولهن شخصيات نستطيع أن نقول إنها محدّدة وصلبة، لم يكن من السهل على المنوِّمين (بكسر الواو) أن يؤثروا فيها تأثيراً يمكن أن نقول إنه يشعرهن كما لو كانوا إناثاً في مواجهة ذكور.

وثمة مشاكل أخرى ظهرت في التنويم، ومؤداها أن بعض الوسيطات، كانت لا تحار شيئاً في الحلم إذا قيل لها إنه حلمها هي، فإذا قيل لها إنه حلم إنسان آخر تصدّت له بالتفسير، والبعض الآخر كانت لا تقبل تفسير الحلم إلا إذا قيل لها إنه حلمها هي.

وقيل لوسيطة: إن امرأة حلمت أنها حامل، وترقد في سريرها وتكتشف أن الديدان تزحف على ذراعها»، فلم تحر الوسيطة تفسيراً للحلم، فقيل لها: افرضي أنك أنت نفسك حلمت بهذا الحلم، فقالت: إنها فعلاً تحلم الآن بأن شمعة موضوعة في صحن بجوارها على طاولة تحترق، وأن الشمع يسيح وينزل

نقطة نقطة على الصحن»، فلما نُبّهت إلى الحلم الآخر قالت: إن الحلمين بالمعنى نفسه، وذكرت أن الحلمين يصورا الإمناء.

والحيلة نفسها ذهبت إليها وسيطة ثانية طُلِب منها تفسير الحلم السابق للحامل فلم تستطع، وبدلاً من ذلك: حلمت بأنها في سيارة تقودها وذراعها مستند إلى النافذة والمطر يتساقط منهمراً عليه»، ثم أردفت: الآن فهمت الحلم الآخر حول السيدة الحامل، فهي قد حملت سفاحاً، ولم تكن تريد أن تحمل ولكنها لم تحطاط وهي تضاجعه فحملت، والديدان هي المني». ولسبب ما حوّلت الوسيطتان الحلمين إلى حلمين خاصين بهما بحيث تناسب تصوراته طريقتهما. في التصور، ومن ثم فقد استطاعتا حينئذ فقط أن تفهما لغة الحلمين وأن تفسراها التفسيرين اللذين ذهبتا إليهما.

وهذه الطريقة في استحداث الأحلام عن طريق التنويم وهو ما استوجب إطلاق إسم الأحلام التجريبية أو التنمويمية عليها بدأها كارل شروتر في فيينا سنة ١٩١٢، ونبّه إليها فرويد سنة ١٩٢٣ في معرض الشكوى من أن علماء النفس لم يأخذوا قضية تفسير الأحلام مأخذ الجد فتكون لهم تجارب رائدة حول طبيعة الأحلام ومضمونها وعلاقتها بالحالم وخبراته وشخصيته. غير أنه في الأحلام التجريبية أو التنويمية قد لوحظ أن ما يأتي المنوّم من أحلام يتوقف على سعة خياله واستهوائيته، وتمثله للموقف الذي يصوّره له القائم بالتنويم وانفعاله به، حتى أن المنوّم ليتلوى من الألم إذا كان الحلم بصدد ألم، أو ليتغير وجهه إذا كان يقتضي الغضب، ويأتي من الحركات بكيانه كله ما ينبئ أنه يعيش الحلم بكل وجدانه.

ويبدو أن الأصلح لاستحداث حلم تجريبي ما يوصي به البعض: أن يقال للوسيط عندما نتأكد بأنه قد دخل في سبات عميق، انه سيذكر تجربة حدثت له من زمن وقد نسيها، ولكنه سيذكرها عندما يذكّره بها المنوّم، إلا أنه لن يحكيها له بل سيأتيه بشأنها حلم، وعندما يبدأ الحلم يرفع يده فإذا انتهى يخفض يده، ولا يستغرق الحلم بهذه الطريقة سوى دقيقة أو دقيقتين، ثم يبدأ بسرد

الحلم بعد هبوط يده. وهذه الطريقة أفضل من الأولى التي بدأنا بها الحديث حول الأحلام التنويمية لأنها أقل إيحاء للمنوَّم، وتترك له الحرية أن يتخيّل الحلم، مع تنبيهه ألا يكون الحلم حول الموقف الذي يشرحه المنوِّم، بل أن يكون ما يحكيه هو الحلم الذي يأتيه بصرف النظر عن هذا الموقف.

والموقف الذي يثير الأحلام من هذا النوع إما أنه موقف أو مثير جنسي، أو يتعلق بالجنس، كأن يتضمن الجماع أو الحمل أو الولادة أو التبول أو اللواط أو الاستمناء، وإما أنه موقف أو مثير عدواني أو عدائي، كأن يتضمن التنافس على شيء أو شخص، أو اتهام شخص زوراً، أو استغلال الناس. وللأحلام المستحدثة بالتنويم أو بالإيحاء أثناء التنويم كل مواصفات الأحلام العادية، ولا يميز الحالم بين أيهما. والمنوَّم بمجرد استماعه للموقف يحلم حلماً يبسّط فيه الموقف المُوحَى به مع بعض التعديل الذي يُدخل الحلم في نطاق خبراته اليومية. وكلما أوغل في الحلم استدرك الحالم بحيث يأتي الحلم بالفجاجة وعلى الشكل التصويري الذي تكون عليه الأحلام التلقائية.

ولا ندري السبب الذي من أجله لا يحلم كل الوسطاء تحت تأثير التنويم بالسهولة والمقدرة نفسها سوى أن يكون لشخصية المنوم دخل في استهوائه، ولقُدرته على التخيل واستيعاب الموقف وبسْطه في أحداث وصور، ولعلاقته بالقائم على التنويم، ولنوعية الخبرة أو الموقف أو المثير المعروض عليه أن يحلم حوله. وقد يحلم المنوَّم حلماً دون أن يكون هناك المثير الذي يستدعي الحلم، وهذا النوع غير المستحدث يكون له ظاهر يتمشى مع مصالح الحالم الشعورية. وتقوم بعض الأحلام التنويمية على خبرات من الماضي، أو على التلاعب بالألفاظ، وقد يختلف الحلم لمجرد وجود عنصر رجالي أو أنثوي مع القائم على التنويم أثناء عملية التنويم (Farber, L. et al: An Experimental Approach To Dream Psychology Through the Use of Hyponsis).

وعلى أي الأحوال، ومن دراستنا للأحلام عموماً، فإن ما تتصف به

ينسحب على الأحلام المستحدثة في التنويم، بل إننا لنجد أن هذه الصفات تجمعها أيضاً مع أحلام اليقظة. وهذه الصفات هي ثلاث صفات، فأولاً: إن الأحلام يراها الحالم باعتبارها حوادث حقيقية تقع له، وثانياً: هذه الحوادث زمانها الحاضر، وثالثاً: هي حوادث لها شكل تهويمي أو هلوسي لا نتبينه إلا بعد أن نصحو من الحلم. وعلى ذلك الظاهرة الحلمية هي ظاهرة تمتد إلى الأحلام وأحلام اليقظة وأحلام التنويم.

وفي بحث آخر حول الأحلام التجريبية المستحدثة بالتنويم أمكن بعد تنويم الوسيط أن يُترك لفترة دقيقتين ليستغرق في النوم، ثم يُعرَض عليه مثير، ويُترَك لفترة أخرى يُسأل بعدها عما كان يحلم به ويُرصَد الحلم، فمثلاً استحدثت الأحلام النمطية Typical dreams، ومنها أحلام السقوط، بتغيير وضع الحالم أثناء النوم بحيث يبدو كما لو كان جسمه قد انزلق. واستحدثت الأحلام الجنسية باستحداث مؤثر جنسي Genital stimulus كأن نمرر مسطرة على بنطال الحالم حول المنطقة الجنسية أو يُشمم عطراً فواحاً. وقد تبين صدق كل ما هو معروف عن الأحلام النمطية وخاصة أحلام السقوط، إلا أن الحلم الجنسي لم يكن يتحصّل دائماً بالمؤثر الجنسي، وكان مجموع الأحلام الجنسية المتحصلة بهذه الطريقة إلى مجموع التجارب المُستحدثة تمثل فقط ما مقداره ٣٤٪، الأمر الذي يقضي بأن الحلم الجنسي ليس كثير الذيوع أو التكرار كما يقول فرويد. وكما يلاحظ فإن التداعي الحر كان الوسيلة المميزة لهذه التجارب الأخيرة حول الأحلام التنويمية، فالحالم يُترك تماماً يتحدث عن حلمه، ولا يُحدّد له موقف أو يوصف له مثير، وإنما يُترك الحالم لخياله يفسّر المثير أو الموقف كما يحصل له، ويُسأل أسئلة لاستدراجه في الكلام، غير أن التغيرات التي تظهر على وجه الحالم وفي حركة أعضائه وصوته وتنفسه لتفوق ما يحكيه عن الحلم وموضوعه. ولا يختلف تذكر الحلم المستحدَث بالتنويم عن تذكر الحلم العادي، ويذهب بعض الحالمين إلى أن يؤكّد أن الحلم المستحدث أوضح من الحلم العادي وليس به غموضه، وأنه

يمكن استحداثه مادياً أي بمثير مادي، أو شفهياً، أي بمثير من كلمة مثلاً. وثبت من مختلف التجارب أن زمن الحلم المستحدث يبلغ في المتوسط نصف دقيقة (Klien, D.: The Experimental Production of Dreams During Hypnosis)، غير أنه من جهة أخرى فإن الحلم المستحدث لا يمكن أن يرقى إلى مستوى الحلم التلقائي من حيث التعقيد والشكل وعمل الحلم، ولا يستخدم من العمليات الأولية ما يستخدمه الحلم التلقائي، لدرجة أننا قد نستطيع أن نشبه الحلم المستحدث بالشِعْر الذي يقال له شعْر العامية مثلاً أو الزجل، بينما الحلم التلقائي هو شعر بمعنى الكلمة، فهو محكم البناء وشديد التعقيد، وفيه إعمال وما يمكن أن نسميه «صنعة» أكثر. ثم إن الحلم المستحدث أو التنويمي يقع من الناحية الشعورية بين حلم اليقظة والحلم النومي، أي انه يشغل موقعاً متوسطاً بينهما. وبينما يأتي الحلم التلقائي ليحرس النوم، فإن الحلم المستحدث يتحصل فقط كنوع من الطاعة للمنوِّم وتحقيقاً لرغبته، أما الحلم التلقائي فإنه لا ينبثق إلا بهدف تحقيق رغبة لاشعورية عند الحالم نفسه (Brenman, M.: Dreams and Hypnosis).

وبعد، فلقد تناولنا الحلم، في ظني، من جميع جوانبه حتى لم يبق ما يمكن أن أضيفه إلى ما قلته... ومع ذلك فلكل عمل جانب ناقص مهما حسبنا فيه الكمال ولا أعتقد لذلك أني أوفيت الموضوع حقّه، ولعل في العمر بقية فيمكن أن أضيف شيئاً، بل وأشياء، في طبعات قادمة بإذن الله...

عبد المنعم الحفني

لوس أنجلس ١٩٨٨

تمَّ بحمد الله

مصطلحات وردت بالكتاب

الحلم: نشاط عقلي يحدث أثناء النوم، وهو سلسلة من الصور والأحداث المتخيلة التي يمكن أن يكون لها معنى نفسي أو محتوى يمكن بلوغه بالتفسير والتأويل.

تحليل الحلم: محاولة تفسير الحلم وكشف المحتوى الباطن له.

رقابة الحلم: الرقابة المفروضة على صور الحلم، والتي تمنع رغبات الأنا غير المقبولة من المرور، ومن ثم تتستر الرغبات، ويصيبها التشويه والتحريف كي تستطيع الإفلات من الرقابة.

تحريف الحلم: تحريف الرغبات غير المقبولة من الأنا وتقنيعها كي تمر من الرقيب عن طريق حيل التكثيف والإزاحة والترميز والقلب، وكلها عمليات أولية.

خداع الحلم: وظيفة الأحلام هي إبقاء حالة النوم، بإيهام الحالم وخداعه بأن رغباته قد تحققت وإلاّ أيقظته رغباته.

صور الحلم: الحلم سلسلة من الصور والأحداث المتخيلة خلال النوم، وهي أحداث متخيلة بصرية وسمعية، وقد تكون صوراً ملونة، وقد يتضمن الحلم كلمات لها مدلولاتها المعينة. وكل ما يشتمل عليه الحلم من صور مضمونه تحقيق رغبة لم تتحقق أو مكبوتة، مما يتحتم معه أن تظهر الصور بشكل تعبيري يفصح عن المعنى الذي تقصد إليه أو الرغبة المراد تحقيقها، بتحليل هذه الصور وتحويلها من صور إلى أفكار.

تفسير الحلم أو تأويله: المفسرون للأحلام القدامى كانوا يحلّون رموز الحلم بشفرة إصطلحوا عليها كما في كتاب إبن سيرين عن الأحلام. ويعتبر فرويد أول من تصدّى لتفسير الأحلام علمياً، بتحليلها وترجمة المحتوى الباطن إلى محتوى ظاهر، وترجمة اللغة السينمائية الحلمية إلى لغة يومية حياتية. ومن أكبر إسهامات فرويد في تفسير الأحلام كتابه الكبير بهذا العنوان نفسه «تفسير الأحلام»، وقد قمنا بترجمته والحمد لله، وطبعته دار مدبولي سنة ١٩٩٦م.

مادة الحلم: هي المحتوى الباطن والظاهر للحلم.

مثيرات الحلم: تستثار الأحلام إما بمثيرات فسيولوجية، أو بمثيرات من البيئة، أو بمثيرات نفسية. وهناك أيضاً مخلفات النهار وهي ما يتبقى من خبرات النهار والأفكار حولها والأحداث المقلقة التي حفل بها والتي يمكن أن تدور حولها دراما الحلم وتتضمنها محتوياته. ومخلفات النهار قد تكون كل الحلم، وغالباً ما تمثل جزءاً من الحلم.

المشاعر في الأحلام: كانت الفكرة أن الأفكار وحدها يمكن أن تكون الممثلة للرغبات

أو الصراعات المكبوتة أو المقموعة، لكن وجود المشاعر في الأحلام نقض هذا الفرض ودلّ على أن المشاعر يمكن أن تكون جزءاً من الأحلام بشرط أن ترتبط بالمحتوى الباطن وليس بالمحتوى الظاهر، فمثلاً الرغبة الجنسية المكبوتة تظهر مرتبطة بمشاعر عدوانية ظاهرة.

الأحلام النمطية: هي أحلام تتشابه عند كل الناس ولها المعنى نفسه، وهي نوعان: أحلام لها المحتوى نفسه، وأحلام تتشابه شكلاً ولكنها في الحقيقة تختلف، ويتوقف التمييز بين النوعين على المتداعيات التي يكمّلها بها الحالم لكي يمكن تأويلها. والأحلام النمطية هي أصل التعبير بالأساطير والخرافات.

تكثيف الحلم: عملية أولية تتم في الحلم، وتنتقل بالحلم من موضوع إلى موضوع بشكل غير استطرادي، وفي هيئة صور بصرية غير منطقية تتجاوز منطق الزمان والمكان.

مُحدّدات الحلم: هي عوامل البيئة التي تلعب دوراً في تسبيب الحلم وتعطيه نكهته الخاصة.

الهُوَ: هو الجزء البدائي من الجهاز النفسي، ويطبق مبدأ اللذة، أي أنه لا يسعى إلا لتحصيل اللذة، وهو انفعالي، ولا يعرف المكان ولا الزمان.

الشعور: هو الحالة النقيض للنوم وللغيبوبة والخَدَر، وما يصدر عن وعي أو شعور، وبعض ما نأتيه يكون لاشعورياً.

اللاشعور: العمليات اللاشعورية موضوع الكبت اللاشعوري، ولا تصبح الذكريات والرغبات اللاشعورية شعورية بسبب المقاومة التي تعترض طريقها إلى الوعي.

المخاوف الليلية: تختلف عن الكوابيس، فالكابوس حلم مخيف يستيقظ منه الطفل أو الراشد وهو يذكر جزءاً من محتواه، وأما المخاوف الليلية فتقتصر على الأطفال، والطفل يفزع منها ويصحو ثم يعود إلى النوم ولا يذكر في الصباح مما حلم به شيئاً.

الاحتلام: يكون مع الأحلام الجنسية وينتهي بالقذف المنوي ويسمى لذلك هذا النوع من القذف باسم القذف الليلي أي أثناء النوم.

الأنا: يتكون الجهاز النفسي من الأنا والأنا الأعلى والهو. والأنا هو وعي الفرد بنفسه، وتجربته عن نفسه، وهو جزء الشخصية الذي يحتك بالحياة والواقع، وهو جوهر الشخصية.

الأنا الأعلى: هو جزء الأنا الذي تنمو فيه الملاحظة الذاتية والنقد الذاتي، وهو الجزء الذي تتم فيه الاستدماجات الأبوية.

والأنا الأعلى هو الضمير تجاوزاً وللأب الدور الرئيسي في تشكيله.

زُملة الأحلام: مجموعة الأحلام التي يحلم بها الشخص الواحد وتكوّن معاً سلسلة تتضمن معنى واحداً، أو مدارها موضوع واحد يلحّ على الحالم ويتخذ أشكالاً مختلفة من الأحلام.

العُصاب: إضطراب إنفعالي بسبب صراع داخلي وتصدّع في العلاقات الشخصية، وأهم سماته القلق. والقلق العُصابي ينشأ من الشعور بعدم الأمان الناتج من المواقف البيئية الضاغطة. وعُصاب القلق أن سماته كذلك الخوف وتوقّع الشر حتى في الظروف العادية، والمريض يضطرب نومه وتكثر أحلامه من نوع الكوابيس.

الكابوس: هو حلم يرى فيه النائم شيئاً يجثم على صدره، أو كأن وحشاً يحضنه ويكبس على أنفاسه، ولذلك كان العرب يسمونه أيضاً الحاضون والجاثوم. وربما يقتصر إطلاق الكوابيس على أحلام الأطفال من النوع المفزع، وإسم الجاثوم أو الحاضون على أحلام النساء الجنسية البشعة والمفزعة.

رمزية الحلم: للحلم لغته الخاصة به، وهي لغة بصرية غالباً، ولها دلالات نفسية بمثابة رموز، لها معان في حياة الحالم الشعورية واللاشعورية.

الرغبة في الحلم: عند فرويد يمثل المحتوى الباطن للحلم رغبة مكبوتة أو لاشعورية.

إخراج الحلم: وأسميه أحياناً مسرحة الحلم، وهي عملية تشكيل الرغبات والصراعات الإرادات والاختيارات اللاشعورية أو التي تريد التحقيق، في صور مقبولة بحيث يمكن التعبير عنها شعورياً، ولكي تفلت صور الحلم من رقابة الرقيب، عليها أن تكون مقبولة ومناسبة. والتكثيف مثلاً حيلة دفاعية جاهزة دائماً لخدمة هذا الغرض. والأفكار التي تجد لنفسها التعبير في الحلم لا تخضع لقواعد المنطق، ولكنها تتخذ لنفسها أشكالاً ورموزاً خاصة بها، وبواسطتها تخرج إلى حيز الوجود.

الإزاحة أو الإبدال: حيلة من حيل الحلم للتمويه والخداع على الرقيب، بالتأكيد على موضوع أو جزء من الحلم غير مهم بدلاً من المهم، وإفراغ المهم من الشحنة النفسية التي ترتبط به أصلاً، بذلك ينخدع الرقيب ويسمح للحلم بشكله هذا بالمرور إلى وعي الحالم في نومه.

العُقدة النفسية: فكرة أو مجموعة مترابطة من الأفكار المكبوتة تصبغها العواطف بشدّة في صراع مع غيرها من الأفكار أو مجموعات الأفكار المقبولة لدى الفرد.

عقدة أوديب أو عقدة الأم: نسبة إلى المَلِك أوديب الذي قتل أباه وتزوج أمه، وتطلق على تعلّق الطفل بأمه والتصاقه بها مع مشاعر سلبية تجاه الأب، ثم يكبر الطفل فيتعين بأبيه وبدوره الذكوري، ويكبت مشاعره العدائية تجاهه.

عقدة إليكترا أو عقدة الأب: إليكترا في الأسطورة اليونانية تعلقت بأبيها واختارته على أمها، ثم مع النضج تتعين بالأم وتكبت مشاعرها للأب.

الإخصاء: يعني الإخصاء بالضرورة إزالة الخصيتين، ولكنه في التحليل النفسي يعني فقدان الشعور بالذكورة ويبدأ الشعور بالإخصاء مع الأطفال الذين يعاقبون بتهديدهم بقطع القضيب في حالة ضبطهم يتناولونه بأيديهم فينتصب، ويستمر الطفل في الإمساك به منتصباً مما يجعل الأب خصوصاً يلجأ إلى تخويفه بهذا التهديد.

والإخصاء يمكن أن يحدث عند الأطفال والكبار. وعقدة الخصاء هي عقدة نقص يحس معها الذكر أنه أقل من الذكور عدواناً أو جنساً أو مبادأة أو قوّة أو انتاجاً. وتصاب بها الإناث كذلك، والتي تعاني منها تشعر أنها أقل من الذكور وتعجز عن ممارسة نشاطاتهم.

الصراع النفسي: وقوع دافعين أو رغبتين أو إرادتين متعارضتين. والأحلام قد تتأتى نتيجة الصراعات النفسية التي يعاني منها الحالم وتشكل سلوكه في اليقظة أو في الأحلام.

النكوص: حيلة نفسية يتجنب بها الفرد القلق بالعودة إلى مرحلة باكرة من مراحل تطوره النفسي الجنسي.

تلك هي أهم المصطلحات التي وردت في الكتاب ولم يتناولها الشرح في حينه، وقد أتينا عليها بإيجاز شديد.